

كيف نحيا مع الله

الجزء الثّاني



دير القدّيس سمعان العمودي
النورية - حامات

نقلته إلى العربيّة

الأمّ بورفيريّة جاورجيوس

٢٠١٢

كتاب كيف نحيا مع الله - الجزء الثّاني

تعريب الأمّ بورفيريّة جاورجيوس

قدّم له المتروبوليت أفرام كرياكوس

تنقيح الأخت أكيلينا كامل من دير السّيّدة - كفتون، والأستاذة في الأدب العربيّ السّيّدة ليلى أبو شديد، والآنسة بيرلا الحدّاد

تصميم إيلي المرجي
تنفيذ غريس جبارة وبيرلا الحدّاد

طباعة منشورات التّراث الآبائيّ

الفهرس

٣٦٣ **الفصل السّادس والأربعون**

الافتراءُ خطيئةٌ فظيعة. وكثيرًا ما يعاقِبُ اللّهُ المفترين في هذا العالمِ، في سبيلِ تمجيدِ المُفتَرى عليهم، عندما يحتملونَه بشكر.

٣٧٣ **الفصل السّابع والأربعون**

الكلامُ والصّمتُ. كيفَ ومتى يجبُ استعمالُهما. والثّرثرةُ لا تخلو من العيب.

٣٨١ **الفصل الثّامن والأربعون**

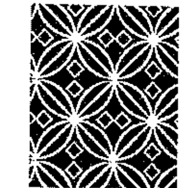
القَسَمُ البسيطُ خطيئةٌ، أمّا القَسَمُ الكاذبُ فعقابُه لا مفرَّ منه. إن أقسمَ أحدُهم بتسرُّعٍ أن يعملَ ما يُخالِفُ وصيّةَ اللّهِ، يجبْ أن يتراجعَ ويَتوب.

٣٨٥ **الفصل التّاسع والأربعون**

لا يكفي ألّا نغتابَ، بل يجبُ أيضًا ألّا نحتملَ المغتابَ، وأن نبتعد عن النّميمةِ والتّذمّر.

٣٩٣ **الفصل الخمسون**

على الإخوةِ، في الحياةِ المشترَكةِ، إصلاحُ بعضِهم لبعضٍ إذا وقعَ أحدُهم في خطأ. وكيف نُصلِحُه. الأخطاءُ الّتي يُفَضَّلُ السّكوتُ عنها، وتلكَ الّتي يُفَضَّلُ التّكلّمُ عنها.



مقدّمة

المتروبوليت أفرام كرياكوس،

مطران طرابلس والكورة وتوابعهما

أمامكم الجزء الثّاني من كتاب «كيف نحيا مع اللّه» المعروف أصلًا بالـ Evergétinos بعد أن تمتّعتم بمطالعة الجزءين الثّالث والرّابع.

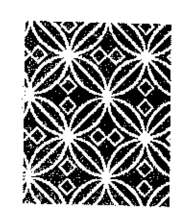
نغوص مرّة أخرى في التّقليد الآبائيّ النّسكيّ والهدوئيّ من خلال هذه القصص والرّوايات «الغريبة» عن مُناخ جوّ عصرنا الحاضر. ترى ولماذا؟ ربّما يُعطينا هذا الأدب النّسكيّ سلامًا وهدوءًا داخليَّين فقدناهما في انشغالنا بهواجس الدّنيا البرّاقة والضّاغطة. ألم تفدنا هذه الغربة كدواءٍ شافٍ لتعقيدات نفسنا المريضة؟ هذا كلّه لنعود إلى صفاء الإنجيل المبشّر لنا بالخبر السّارّ عن غلبة سيّدنا ومخلّصنا يسوع المسيح الإله الإنسان، غلبته على هذه الفوضى العارمة المُطبِقة على النّفوس البشريّة وحتّى على الطّبيعة كلّها، عسى أن تعود هذه كلّها إلى حسنها الأوّل في الخليقة الأولى لا بل إلى تألّقها بتطعيمها بطبيعة المسيح البشريّة والقائمة من بين الأموات.

«ذوقوا وانظروا ما أطيب الرّبّ» ربّما هي الرّسالة الّتي يبعثها لنا هؤلاء الآباء القدّيسون القدماء عن طريق حياتهم وأقوالهم. إقرأوا هذا الكتاب وصلّوا. تمتّعوا بما يحويه من تعزية لنفسنا المعذّبة جدًّا في هذا العصر. إعلموا أنّ هناك بعد رجاء كبير، كان وكائن وسيكون، ينتظرنا جميعًا نحن المؤمنين بما قاله الرّبّ لنا مرّة: «ثقوا فقد غلبتُ العالم»

تبرّعت الأمّ بورفيريّة الرّاهبة الورعة والطّموحة بنقل هذا الكتاب إلى العربيّة، ولقد ساندها في تنقيح العبارة كلّ من الأخت أكيلينا والآنسة بيرلا الحدّاد، شاهدات بالتّعاون لبعث التّراث الرّهبانيّ في كنيستنا الأنطاكيّة وبلغة الضّاد للبشارة والإفادة الرّوحيّة.

هي مناسبة أيضًا لتشكّر منشورات التّراث الآبائيّ الّتي بتعاون الأديار العامرة تعهّدت الإنفاق على هذا الكتاب الرّوحيّ وطبعه ونشره بالإضافة إلى ما قدّمته من مصادر آبائيّة ثمينة أخرى.

+ أفرام
أسبوع حاملات الطّيب
١ أيّار ٢٠١٢



مقدّمة

الأمّ المتوحّدة بورفيريّة

كانت فرصة مباركة لي أن أوكل بتعريب هذا الكتاب المشبع بأصالة الحياة الرّهبانيّة والقصص المفيدة لكلّ مجاهد على طريق الفضيلة، المعطّر برائحة جهاد الآباء القدّيسين الّذين عرفوا كيف يحصلونَ على ثمار الرّوح من خلال أتعابهم وتواضعهم، هؤلاء القدّيسين الّذين جاهدوا في سبيل المحافظة على محبّتهم متّقدة حتّى النّهاية. سُررت بشكل خاصّ لأنّ هذا الكتاب جزء من سلسلة تحوي أربعة أجزاء أنهى الأب إسحق الآثوسيّ تعريب الجزءين الأخيرين منها، وبقي لي أن أشعر أنّني ألتقيه وأنا أهتمّ بتعريب الجزء الثّاني الّذي بين أيديكم الآن. هو الّذي عاش خبرة النّسّاك القدامى، وقدّم الكثير لكنيسة أنطاكية عبر أبنائه الرّوحيّين. ولكم سمعت أبي الرّوحيّ سيّدنا أفرام يردّد مقولة: «لأبينا إسحق فضل كبير في بناء الجسر بين أنطاكية وجبل آثوس». هي الخبرة نفسها منذ القرون الأولى حتّى يومنا الحاضر تنتقل إلينا عندما نعقد العزم على الانخراط في جنديّة الرّبّ يسوع، غالبين الشّيطان، وإنساننا القديم مع كلّ أهوائه وشهواته، غالبين الموت فينا. عندئذٍ، نقول بحقٍّ، وبوعي نبويّ، أنّ هذا العالم لا يكفي، بل أنّ هذا العالم السّماويّ المشبع بالألوهة يمتدّ إلينا منذ الآن ليحوّلنا إلى آلهة بالنّعمة.

إذًا، لا جديد سوى هذه الخبرة القديمة الّتي نحياها من جديد في أجسادنا وأرواحنا. فالمطلوب في عصرنا الحاليّ، وبإلحاح، أن نعود إلى أصالة عيش الإنجيل بدقّة، فنلمع كأنوار في وسط العالم. ليست حياة الإنجيل

مستحيلة؛ لم يطلب المسيح شيئًا تعجيزيًّا منّا، أي لم يطلب أن يدخلنا في عجز من خلال وصاياه، بل في ديناميكيّة الرّوح القدس، وأن نهدأ من «عجقة» الخطيئة، ونتعلّم كيف نعود إلى مصدر الحياة كي نتّكئ على صدر المسيح، وتزول همومنا وأحزاننا، وتخفّ وطأة الصّعوبات، ونكتسب قوّة لمواجهة كلّ التّيّارات الغريبة، الغريبة عن طبيعة الإنسان والّتي تغرّبه عن الاتّحاد بالخالق. وما الصّعوبات الّتي يواجهها المؤمن يوميًّا في جهاده سوى بركات وفرص جديدة للتّنقية من الأهواء والشّهوات وربح المعارك والأكاليل.

أهدي هذا الكتاب إلى شبيبة كنيستنا الأنطاكيّة داعيةً إيّاهم إلى توظيف كلّ ديناميكيّتهم وحيويّتهم ومواهبهم في حياة التّوبة، وفي خدمة الكنيسة الّتي افتداها المسيح بدمه الكريم، متذكّرين قول القدّيس يوحنّا السّلّميّ: «قدّم للّه أتعاب شبابك حتّى تتمتّع في الشّيخوخة بغنى اللّاهوى».

أخيرًا لا بدّ لي أن أشكر كلّ من ساندني في إخراج هذا الكتاب إلى النّور لا سيّما الأب جورج صافيتي الّذي تفضّل وقرأ النّصّ وأعطى ملاحظاته القيّمة الّتي أخذناها بعين الاعتبار.

والشّكر الأوّل والأخير، دائمًا إلى اللّه الّذي يعطينا القوّة لإتمام كلّ عملٍ صالحٍ لأجل مجد اسمه القدّوس آمين.

الأمّ المتوحّدة بورفيريّة

تذكار القدّيس أثناسيوس الآثوسيّ

٥ تمّوز ٢٠١٢

الفصل الأوّل

الّذينَ يَحتقرونَ ذواتِهم يُكَرِّمُهم اللّه.

- عن بالاديوس -

في طبانيسَ، مقابلَ ديرِ الرّجالِ، ديرٌ نسائيٌّ تقطنُه حوالي أربعِ مئةِ راهبةٍ، من بينهنَّ راهبةٌ تُدعى إيسيذورا، تَدَّعي التّبالُهَ من أجلِ المسيحِ، تتواضَعُ، وتحتقِرُ نفسَها. كانَتِ الأخواتُ جميعُهنَّ يكرَهْنها، إلى حدِّ رفضِ تناولِ الطّعامِ معَها. أمّا إيسيذورا، فقبِلَتْ ذلكَ بفرحٍ كبيرٍ.

كانَتْ تَنْفَعُ الدّيرَ كثيرًا بفضيلتِها؛ تُتَمِّمُ أنواعَ الخدماتِ جميعَها، وتُطيعُ الرّاهباتِ جميعًا كخادمةٍ في كلِّ ما يَلزَمُ، وتخدِمُهُنَّ بكلِّ وداعة. كانَتْ «ممْسَحَةَ» الأخويّةِ، تابعةً تعاليمَ السّيّد: «مَن أرادَ أن يكونَ فيكم عظيمًا، فَلْيَكُنْ للكلِّ خادمًا»[1] و«مَن يَعتقدْ أنّه حكيمٌ فيكم، فليَصِرْ مجنونًا»[2].

تلقَّتِ الأخواتُ الأخرياتُ جميعُهنَّ الرّسامةَ الرّهبانيّةَ، وأخذنَ يرتدينَ اللاّطيةَ، أمّا إيسيذورا، فكانَتْ تَربِطُ منديلاً على رأسِها، وتُتَمِّمُ الخدمةَ كلَّها بهذا الزّيّ. لم تَرَها مرّةً واحدةٌ من الرّاهباتِ الأربعمئةِ تأكُلُ، أو تأخُذُ قطعةَ خُبْزٍ. كانَتْ تكتفي بالفُتاتِ الّذي تَجمَعُهُ عن الطّاولاتِ، وبقايا الطّعامِ الّذي تَجِدُهُ في قعرِ الطّناجرِ لدى غسلِها. لم تنتعِلْ حذاءً البتّةَ، ولم توجِّهْ إهانةً إلى أحدٍ، ولم تتذمَّرْ أبدًا. لم تنطُقْ بكلمةٍ، على الرّغمِ من أنّ الرّاهباتِ جميعَهنّ كُنَّ يُهِنَّها، ويَضربْنَها، ويَلعنَّها، ويَكرَهْنَها.

بشأنِ هذه البارّةِ إيسيذورا، ظهرَ ملاكٌ للقدّيسِ بيتيرون، وهو ناسكٌ فاضلٌ، ورجلٌ ذو مِراسٍ وخبرةٍ روحيّةٍ، ليكشفَ له ما يلي: «لماذا تظنُّ نفسَكَ

---

١. مت ٢٠، ٢٦.

٢. ١ كور ٣، ١٨.

عظيمًا وتقيًّا؟ ألأنّك تمارسُ الفضيلةَ، وتسكُنُ في هذا المكانِ المُقفِر؟ هل تريدُ أن ترى امرأةً تقيّةً أكثرَ منك؟ إذهَبْ إلى ديرِ النّساءِ في طبانيس، فَتجِدَ واحدةً تحمِلُ إكليلاً على رأسِها. إنّها أفضلُ منكَ، فهي، على الرّغمِ من ضربِ عددٍ كبيرٍ من الرّاهباتِ لها، ومَقتِهِنَّ إيّاها، تخدمُهنَّ بآلافِ الطّرائقِ، ولا تسمحُ لذهنِها بالانفصالِ عن اللّه. أمّا أنتَ، فتجلِسُ هنا في هذه الصّحراءِ، وتجولُ المُدُنَ في خيالِكَ، مع أنّكَ لم ترَ منطقةً آهِلَةً».

حينئذٍ، قامَ بيتيرونُ الكبيرُ، وذهبَ إلى ديرِ الرّجالِ في طبانيس، وطلبَ إلى الآباءِ الرّوحيّينَ أن يصطحِبوه إلى ديرِ النّساء. وبما أنّه كانَ أبًا وقورًا، وقد شاخَ في النّسكِ، قادوه بثقةٍ كبيرةٍ إلى النّاحيةِ الأخرى من النّهرِ، إلى الدّيرِ النّسائيّ. بعدَ الصّلاةِ، طلبَ البارُّ أن يرى الرّاهباتِ كلَّ واحدةٍ على حِدة. حضَرَتْ جميعُهنَّ، أمّا تلكَ الّتي يبحثُ عنها، فلم تَظهَرْ أبدًا. حينئذٍ، قالَ: «أحضِرْنَ إليّ سائرَ الأخواتِ!» فأجَبْنَ: «جميعُنا هنا»، لكنّه أصرَّ: «تنقُصُ واحدةٌ، تلك الّتي أظهرَها لي الملاكُ». فقلْنَ له: «لدينا واحدةٌ في المطبخ. لكنّها مجنونة». قالَ الرّجلُ القدّيسُ: «أحضِرْنَها إلى هنا. أريدُ أن أراها، هي أيضًا!» لكنّ إيسيذورا رفضَتْ ذلك، إذ إنّها فَهِمَتْ السّببَ، ربّما بإعلانٍ إلهيّ. فَأَخَذْنَ يَجْرُرْنَها بالقوّةِ، وهنّ يقلْنَ لها: «القدّيسُ بيتيرونُ يريدُ أن يراكِ»، فهو كانَ راهبًا ذائعَ الشّهرة.

عندما حَضَرَتْ أمامَهُ، تفحَّصَ بيتيرونُ وجهَها، والمنديلَ الّذي يغطّي رأسَها وجبينَها، ثمّ سقطَ على رجلَيْها، وقالَ لها: «باركيني أيّتُها الأمّ!» فسقطَتْ بدورِها على قدمَيْه، وقالَتْ: «بارِكْني أنتَ، يا سيّدي وأبي!»

عندما رأَتْ الرّاهباتُ ذلكَ، اندهشنَ وقلْنَ له: «يا أبتِ، لا تُعَرِّضْ ذاتَكَ لهذه الإهانةِ، فهي مجنونة!» لكنَّ الرّجُلَ القدّيسَ أجابَهنَّ: «أنتنَّ المجنونات. إنّها أفضلُ منكنَّ ومنّي. إنّها شيخةٌ روحيّةٌ، أي أمٌّ روحيّة. وأنا أصلّي، كي أكونَ إلى جانبِها، في يومِ الدّينونة».

عندما سمِعَتِ الرّاهباتُ هذه الكلماتِ، سَقَطْنَ جميعُهنَّ على قدمَيْها، باكياتٍ ومعترفاتٍ بأنّهنَّ كنَّ يُهِنَّ هذه القدّيسةَ، بشتّى الطّرائق. قالت إحداهنَّ: «أنا كنتُ أسخرُ منها دائمًا». والثّانيةُ: «أنا كنتُ أهزأُ من

مظهرِها الوَضيع». واعترفَتْ أخرى: «غالبًا ما كنتُ أسكُبُ عليها ماءَ الجلي». وأخرى أيضًا: «أنا كنتُ أجرَحُها». أخرى: «أنا كنتُ أضرِبُها». أخرى: «أنا كنتُ أفركُ لها أنفَها بالخردلِ، مِرارًا». بشكلٍ عامٍّ، لقد اعترفْنَ باعتداءاتٍ مختلفةٍ ألحَقْنَها بها.

قَبِلَ الرَّجُلُ القدّيسُ اعترافَهنّ، وصلّى لهنَّ برفقةِ القدّيسةِ إيسيذورا. ثمّ غادرَ الدّيرَ، بعدَ أن توسّلَ بإلحاحٍ إلى أَمَةِ المسيحِ، لكي تتشفّعَ من أجله.

بعدَ أيّامٍ، وبما أنَّ الرّاهباتِ غَدَونَ جميعًا يوقِّرْنَ هذه الأمَّ البارّةَ، العزيزةَ في عينَيِ اللّهِ، ويخدِمْنَها بحرارةٍ، لم تحتَمِلْ ما تُبديه الرّاهباتُ نحوَها من إكرامٍ واحترامٍ، ولا حتّى اعتذاراتِهنَّ، فهربَتْ سِرًّا من الدّير. ولم يَعْلَمْ أحدٌ إلى أينَ ذهبَتْ، ولا أينَ اختبأَتْ، ولا أينَ انتهَتْ.

- عن القدّيسِ غريغوريوس الذّيالوغوس -

استحقَّ القدّيسُ أكيتيوسُ أن ينالَ مواهبَ كبيرةً من اللّهِ، ويقودَ نفوسًا كثيرةً إلى الرّبِّ، بتعليمِهِ ووعظِهِ الّذي أوكَلَهُ اللّهُ به. كانَ يلبَسُ ثيابًا رثّةً تجعَلُ مَن لا يعرِفُهُ يشمئِزُّ من مبادلتِهِ التّحيّةَ حينَما يُلقيها عليه. وعندَ ذهابِهِ إلى مكانٍ ما، اعتادَ أن يَأخُذَ حصانَ الدّيرِ الأسوأَ، وأن يستعملَ كمامّةً بدلَ اللّجامِ، وجلدَ خروفٍ بدلَ السّرج. كانَ يحمِلُ دائمًا الكتابَ المُقدّسَ في كيسٍ جلديّ؛ وحيثُما يذهبْ، يفتحْ ينبوعَ الكتابِ المُقدّسِ، ويسقِ أرضَ الأفكارِ، أي ذهنَه.

شاعَتْ شُهْرَتُهُ حتّى وصلَتْ إلى روما، ودَفَعَ الحَسَدُ قومًا إلى أن يرفعوا تقاريرَ سيّئةً بشأنِهِ إلى البطريرك. ولم يوقِفوا اتّهاماتِهم حتّى أقنعوه بأن يُرسِلَ المأمورَ القضائيَّ[3] يوليانوسَ لإحضارِه.

ذهبَ يوليانوسُ حالاً إلى ديرِ أكيتيوس حيثُ وجدَ الإخوةَ الأقدَمينَ ينسخونَ الكتب. سألَهم عن رئيسِ الدّيرِ، فأجابوه بأنّه في أسفلِ الوادي يحصُدُ العُشب. فأرسلَ المأمورُ القضائيُّ خادمَه، وهو رجلٌ معتدٌّ بذاتِهِ ومتكبّرٌ،

٣. المأمورُ القضائيّ كانَ ضابطًا في الدّولةِ الرّومانيّة. في اليونانيّة يُدعى ΕΚδΙΚΟς أكذيكوس (أي المدّعي العامّ). وُجِدَت أيضًا كرتبة كنسيّة. هنا يتعلّقُ الأمرُ بالمدافعِ عن الكنيسة.

لاستدعاءِ القدّيس.

اقتربَ الخادمُ من الحصّادينَ، وشرعَ يسألُ مَن هو أكيتيوس. وما إن دلّوه عليه، حتّى سيطرَ عليه خوفٌ كبيرٌ، وبدأ يرتجِفُ من القلقِ، وبالكادِ استطاعَ السّيرَ. اقتربَ من القدّيسِ، وسقطَ على قدمَيْه، وأعلمَهُ بمجيءِ سيِّدِه. حينئذٍ، انتعلَ رجلُ اللّهِ حذاءَه، ووضعَ المنجلَ على كتفِهِ عائدًا إلى الدّير.

عَلِمَ يوليانوسُ من خادمِهِ أنّ هذا الرّجلَ هو أكيتيوس. اشمأزَّ من رؤيةِ ثيابِه، وأوشكَ على مكالمتِهِ بعجرفة. لكن، لدى اقترابِ القدّيسِ، ملأَ يوليانوسَ خوفٌ رهيبٌ جعلَهُ يرتجِفُ، إلى درجةِ أنّه بالكادِ استطاعَ أن يخبِرَهُ عن سببِ مجيئِه. بعدَها، سقطَ متذلّلاً على قدمَيِ القدّيسِ، وطلبَ إليه الصّلاةَ من أجلِه. أنهضَهُ رجلُ اللّهِ، وصلّى من أجلِه، وطلبَ إليه أن ينطلِقا معًا للحالِ إلى البطريركِ، مُضيفًا: «إن لم نذهَبِ اليومَ، فسيصعُبُ علينا الذّهابُ غدًا». لكنّ يوليانوسَ أجابَهُ: «إنّي مُرهَقٌ من السّفرِ، يا أبتِ، ولا أستطيعُ الانطلاقَ اليوم». هكذا، أجبرَهُ المأمورُ القضائيُّ على البقاءِ معه في الدّيرِ في تلك اللّيلة.

في اليومِ التّالي، عندَ طُلوعِ الفجرِ، وصلَ أحدُ خُدّامِ البطريركِ إلى يوليانوسَ، وهو يحمِلُ أمرًا يقضي بألاّ يتجرّأَ ويُخْرِجَ عبدَ اللّهِ من ديرِه. عندما سألَ يوليانوسُ عن السّببِ، أجابَهُ الخادمُ بأنّه، في اللّيلةِ الماضيةِ، تملَّكَ البطريركَ خوفٌ عظيمٌ إثرَ رؤيا إلهيّةٍ، لأنّه تجرّأَ وأرسلَ في طلبِ إحضارِ عبدِ اللّه.

فقامَ يوليانوسُ للحالِ، وذهبَ إلى أكيتيوسَ ليقولَ له: «يتوسّلُ سيّدُنا البطريركُ إليكَ ألاّ تتكبّدَ العناءَ، وتذهبَ إليه». فحزِنَ أكيتيوسُ كثيرًا، وأجابَهُ: «ألم أقُلْ لكَ أمسِ إنّنا، ما لم ننطلقْ للحالِ، لن نستطيعَ أبدًا أن نذهب؟» بعدَ ذلك، استبقاه قليلاً في الدّيرِ مُظهِرًا محبّتَه، وأعطاهُ مالاً جزاءَ تعبِهِ رُغمًا عنه. ثمّ أطلقَهُ بسلام.

فاعلَمْ إذًا، يا بطرسُ، كم يُكَرَّمُ الّذينَ اختاروا في هذه الحياةِ أن يكونوا محتقَرين. هم في عدادِ مواطني السّماء. أمّا الّذينَ يُظهِرونَ أنفسَهم أبرارًا أمامَ النّاسِ، بسببِ تفكيرِهم المُتعالي، وانتفاخِهم بالمجدِ الباطلِ، فيُطرَدونَ

من أمامِ اللّه. لهذا، يوبِّخُهُم المسيحُ، ويقولُ: «أنتم تُبرِّرونَ أنفسَكم»[٤] إلى آخرِه.

- من حياةِ القدّيسِ غريغوريوس العجائبيّ -

ذاتَ يومٍ، قامَ سكّانُ مدينةِ «كومانا» المجاورةِ لقيصريّةَ الجديدةِ، بزيارةِ غريغوريوسَ العجائبيِّ، وتوسّلوا إليه أن يأتيَ إلى مدينتِهم، لرسامةِ كاهنٍ على كنيستِهم. لبّى القدّيسُ طلبَهم، وذهبَ إليهم.

كان المسؤولونَ جميعُهم قد اختاروا مرشَّحينَ يمتازونَ بثقافتِهم الواسعةِ، وحسنِ صيتِهم، وسموِّ طبقتِهم الاجتماعيّةِ، وهيبتِهم. وخلالَ الانتخابِ، تفرّقَتِ الأصواتُ: هذا يفضِّلُ فلانًا، وذاك يختارُ فلانًا.

غيرَ أنّ القدّيسَ غريغوريوسَ انتظرَ إشارةً إلهيّةً ليختار. وكما يُقالُ عن النبيِّ صموئيل[٥]، عندما كانَ مُزمعًا أن يمسَحَ ملكًا، لم يتأثَّرْ بجمالِهِ ولا بقامتِهِ الجسديّةِ، إنّما طلبَ نفسًا ملكيّةً، - حتّى ولو وُجِدَتْ في شخصٍ عاديٍّ جدًّا -، كذلك تصرَّفَ القدّيسُ غريغوريوس. لم يُعِرْ أهميّةً إلاّ لأن يتمتّعَ الشّخصُ المعنيُّ بأخلاقيّةِ الكاهنِ، حتّى قبلَ الرّسامةِ، ويَسْلُكَ كإنسانٍ مهتمٍّ بخلاصِهِ، ومُتَّسِمٍ بالفضائل.

عندما قدَّمَ المسؤولونَ مرشّحيهم، وهُم يُثنونَ عليهِم، أوصى القدّيسُ غريغوريوسُ بأن يأخذوا بالحسبانِ الرّجالَ العاديّينَ، لأنّه من الممكنِ أن يجدوا بينَهم شخصًا يُحسَبُ، بسببِ غناهِ الرّوحيِّ، مؤهَّلاً أكثرَ ممّن لديهم صيتٌ حسن.

أحدُ منظّمي الانتخابِ وَجَدَ في رأيِ القدّيسِ غريغوريوسَ هذا إهانةً واستخفافًا بقرارِهِم: كيف لا يُقبَلُ في الكهنوتِ أحدُ هؤلاءِ المبرّزينَ بثقافتِهِم، ومركزِهم الاجتماعيِّ، وصيتِهم الحسنِ، فيما قد يُفضَّلُ عليه عاملٌ يدويٌّ ويؤهَّلُ لهذه النّعمة. فقالَ له بسخريةٍ كبيرةٍ: «إن كُنْتَ توصي بأن نَغْفَلَ عن هؤلاءِ الأشخاصِ المتميّزينَ، الّذينَ انتخبَتْهم المدينةُ بأسرِها، ونرفَعَ إلى رتبةِ

---

٤. لوقا ١٦، ١٥.

٥. ١ مل ١٦، ١- ١٣.

الكهنوتِ أحدَ العامّةِ، فاستدعِ إذًا إلى الكهنوتِ ألكسندروسَ الفحّامَ، وإن وافقَتِ المدينةُ كلُّها عليه، فسنُغيِّرُ رأيَنا، ونَضُمُّ أصواتَنا إلى أصواتِ الآخرين».

لقد عَرَضَ هذا الاقتراحَ التّهكميَّ بصوتٍ قويٍّ، مُزدريًا رأيَ القدّيسِ، ولائمًا نقصَ التّمييزِ عند مَن يوافقُ عليه. ولكنّ ما قيلَ أيقَظَ في نفسِ القدّيسِ غريغوريوسَ شعورًا بأنّ اسمَ ألكسندروسَ لم يُلفَظْ إلاّ بوحيٍ من اللّه. فسأل: «ومَن هو ألكسندروسُ المذكورُ هذا؟»

عندئذٍ، جلبَ أحدُ الحاضرينَ ألكسندروسَ إلى أمامِهم، وهو يضحَكُ ساخرًا. كان ألكسندروسُ لابسًا أسمالاً باليةً بالكادِ تُغطّي جسمَه. كانَ شكلُهُ يُشيرُ بوضوحٍ إلى مهنتِهِ، فسوادُ الفحمِ يملأُ يدَيْهِ، ووجهَهُ، وجِسْمَهُ كلَّه. أثارَ حضورُ شخصٍ كألكسندروسَ ضحكًا عارمًا وهو واقفٌ في وسطِ الجمع. أمّا ما أدركَتْهُ بصيرةُ القدّيسِ غريغوريوسَ في المسألةِ الجاريةِ، فملأَهُ دهشةً عظيمةً: كانَ يرى أمامَه إنسانًا فقيرًا جدًّا، وغيرَ معتنٍ بجسدِهِ، مُنتبهًا إلى نفسِه، ومُستمتعًا بما يثيرُ الضَّحِكَ في عيونِ ثالبيه، العديمةِ الخبرة.

فهذا الرّجلُ لم يَضطرَّه الفَقرُ إلى اتّباعِ طريقةِ الحياةِ هذه، إنّما كانَ حكيمًا، كما برهنَتْ حياتُهُ فيما بعدُ، إذ إنّها انتهَتْ بالاستشهادِ بالنّار؛ ولكنّه تمرَّسَ على العيشِ بخفيةٍ، معتبرًا هذا الوجودَ أفضلَ من رغدِ العيشِ، الّذي يسعى إليه الآخرون. ولم يبالِ بالحياةِ الوقتيّةِ، لأنّه كانَ يرغَبُ في الحياةِ الحقيقيّةِ الأسمى. فلكي ينجحَ، أكثرَ فأكثرَ، باقتناءِ الفضيلةِ، اعتنى بأن يبقى غيرَ ملاحَظ. وبسببِ استعداداتِ نفسِهِ هذه، قرّرَ أن يستَتِرَ تحتَ مَظهرٍ مُنفِّرٍ لرجلٍ يعمَلُ في أحقرِ المِهَن. إلى ذلك، لقد كانَ في زهرةِ شبابِه، فحَسِبَ إظهارَ جمالِهِ الجسديِّ أمرًا محفوفًا بالمخاطرِ إن أرادَ الحفاظَ على عفّتِه، لأنّه عرفَ أنّ هذا صارَ للكثيرينَ حُجّةً لسقطاتٍ رهيبة. فاختارَ، كقناعٍ يُثيرُ الاشمئزازَ، مهنةَ الفحّامِ، الّتي مكّنَتْهُ من تدريبِ جسدِهِ، عبرَ المشقّاتِ، على الفضيلةِ، وإخفاءِ جمالِهِ خلفَ سُخامِ الفحمِ، لئلاّ يُعرِّضَ نفسَهُ للزّلاّتِ، ويُضْحيَ أداةً للشّهوة. في الوقتِ نفسِهِ، استعمَلَ ما يَجنيه من أتعابِهِ، في سبيلِ إتمامِ الوصايا الإلهيّة.

وبالتّالي، بعدَ أن أخذَ القدّيسُ ألكسندروسَ على حِدةٍ بعيدًا عن

الجمعِ، وطلبَ إليه أن يُخبِرَهُ عن حياتِهِ بالتّفصيلِ، سَلَّمَهُ إلى أعضاءِ شركتِه، وأملى عليهِم ما يفعلونَه. أمّا هو، فعادَ إلى الجمعِ، وبدأَ يعلِّمُهم بكلماتٍ بسيطةٍ عن الكهنوتِ، واصفًا بها ماهيّةَ الحياةِ الفاضلة. وأطالَ تعليمَهُ ليُبقيَ النّاسَ مجتمعينَ إلى أن أنهى خدّامُه ما أمرَهم به، وعادوا برفقةِ ألكسندروس، مغتسلاً ونظيفًا من سُخامِ الفحمِ القذرِ، ولابسًا ثيابًا تخصُّ القدّيسَ غريغوريوس، وفقًا لتوجيهاتِ هذا الأخير.

استدارَ الجميعُ نحو ألكسندروس، وتعجَّبوا لمرآه، فقالَ لهم المعلّمُ: «لم تتوصّلوا إلى أيِّ اتّفاقٍ، لأنّ عيونَكم خدعَتْكُم، وتركتُموها وحدَها تُرشِدُكُم إلى ما هو صالح. النّظرُ وحدَه مِقياسٌ خاطئٌ للحُكمِ الصّحيحِ، لأنّه يمنَعُ النّفاذَ إلى عمقِ الحقيقة». إضافةً إلى ذلك، قالَ إنّها بهجةٌ تامّةٌ للشّيطانِ عدوِّ التّقوى، أن يبقى الإناءُ المختارُ غيرَ مُستعمَلٍ، مجهولاً، وألاّ يُنتَخَبَ إنسانٌ قادرٌ على تدميرِ طُغيانِه.

بعدَ هذه الكلماتِ، قدّمَ القدّيسُ ألكسندروسَ إلى اللّهِ بالرّسامَةِ، مُتَمّمًا هذا السّرَّ، بعطيّةِ النّعمةِ، بحسبِ القوانينِ المُحدَّدَةِ في الكنيسة. وبينما كانَتْ أعينُ الجميعِ مُسلّطةً على الكاهنِ الجديدِ، دُعِيَ إلى وعظِ الجماعةِ الكنسيّة. وللحالِ، أظهَرَ ألكسندروسُ منذُ البدايةِ برهانًا على صدقِ حُكمِ القدّيسِ غريغوريوس بشأنِهِ. في الواقعِ، طفحَتْ كلمتُهُ بالمعاني السّاميةِ، على الرّغمِ من أنّها كانَتْ مجرّدَةً من الصُّوَرِ البيانيّة. لهذا، سَخِرَ من هذا الخطابِ شابٌّ متعجرفٌ من أثينا كانَ موجودًا في المدينةِ، بقولِهِ إنّه ليس مزيّنًا بالكلامِ المُنمّقِ، الخاصِّ باللّغةِ اليونانيّة. ولكنْ، يُقالُ إنّ هذا الشّابّ أُعيدَ إلى الصّوابِ إثرَ رؤيا إلهيّةٍ رأى فيها سَرْبَ حمائمَ تلمَعُ بجمالٍ لا يوصفُ، وسمِعَ أحدَهم يقولُ له إنّ هذه الحمائمَ هي لألكسندروس، الّذي ضَحِكَ عليه.

- من حياةِ البارِّ مركيلّوس -

أتى القدّيسُ مركيلّوس، الّذي يتحدّرُ من «أفاميا»، إلى ديرِ «الّذينَ لا ينامون». سُمِّيَ هذا الدّيرُ هكذا لأنّ الخِدَمَ الإلهيّةَ كانَتْ تَتِمُّ فيه بشكلٍ متواصلٍ، إذ يتعاقبُ، على إتمامِها، مجموعاتٌ مُتفرّقةٌ من الرّهبان. بعدَ وقتٍ

من قبولِ مركيلّوسَ، ألبَسَهُ ألكسندروسُ رئيسُ الدّيرِ اللّباسَ الرّهبانيّ. سَبَقَ مركيلّوسَ، إلى هذا الدّيرِ، صديقٌ له يُدعى يعقوبُ، ورُسم راهبًا. وكان يعقوبُ قريبًا جدًّا من الرّئيسِ ألكسندروس، ويُعتبَرُ الأوّلَ بينَ تلاميذِه. لكنَّ مركيلّوس، في وقتٍ قصيرٍ، لم يتخطَّ في النُّسْكِ والفضيلةِ الرّهبانَ الآخرينَ فحسبُ، بل تخطّى يعقوبَ نفسَه أيضًا. وهذا ما حَمَلَ ألكسندروسَ على تقديرِهِ كثيرًا.

بعدَ فترةٍ وجيزةٍ، بسببِ نقاوةِ قدراتِهِ الرّوحيّةِ، رأى مركيلّوسُ مُسبقًا أنّ معلِّمَهُ سيموتُ، وأنّه سيتِمُّ اختيارُه خلفًا لرئيسِ الدّيرِ، عندَ الانتخاب. فخافَ أن يَحْكُمَ الشّيوخَ، وهو الشّابُّ اليافعُ، ويتخلّى عن الطّاعةِ العزيزةِ عليهِ، الّتي يستَمْتِعُ بها كثيرًا، بسببِ تواضُعِهِ الفائِق. فترَكَ الدّيرَ من دونِ أن يَعْلَمَ أحد.

ولم يُطِلِ الوقتُ حتّى رحلَ الرّجلُ القدّيسُ ألكسندروسُ إلى دنيا الآخرة. وللحالِ، أصبحَ اسمُ مركيلّوس على كلّ شفةٍ ولسان، ولكنَّهم تأسَّفوا تأسُّفًا شديدًا لغيابِه. وبما أنّهم لم يستطيعوا إيجادَ من اختاروه، حُسِبَ يوحنّا، الرَّجُلُ الحكيمُ الشّائبُ أهلاً ليكونَ رئيسًا عليهم. حالَما عرفَ مركيلّوسُ كيفَ سارَتِ الأمورُ، رجِعَ إلى ديرِهِ كمعاونٍ ليوحنّا، وصارَ يدَه اليُمنى، يساعِدُهُ في مَهَمَّتِهِ، على أكملِ وجه.

ذاتَ يومٍ، بينما كانَ مركيلّوسُ مُسافرًا، تداولَ الإخوةُ ويوحنّا حديثًا بشأنِه. أبدى الرّهبانُ الأكثرُ حماسةً إعجابًا بمزاياه، وكيف تجنّبَ رئاسةَ الدّيرِ، بِيُسْرٍ كبيرٍ. وفي المقابلِ، قالَ الرّهبانُ الكسالى، الّذينَ يجهلونَ عظمةَ نفسِ مركيلّوس، إنّه هرَبَ من المجدِ تحديدًا بسببِ حبِّهِ للمجدِ، ولأنّه عرفَ تفضيلَ الإخوةِ ليوحنّا، هربَ من الدّيرِ لأنّه لم يَشَأْ أن يَظهَرَ أدنى منه.

عندما سَمِعَ يوحنّا بذلك، رَغِبَ في إقناعِ الرّهبانِ بألاّ يحكُموا حُكمًا سفيهًا، وأرادَ أن يُظهِرَ لهم إلى أيّةِ درجةٍ ساميةٍ من التّواضُعِ وصلَ مركيلّوس، فقالَ لهم: «يا أولادي، لِنَدَعْ أعمالَهُ تَحكُمُ عليه». ومن دونِ إضافةِ كلمةٍ، عَقَدَ نيّتَهُ على أن يوكِلَ إلى مركيلّوس، لدى عودته، أحقرَ المَهامِّ في الدّيرِ، أي العنايةِ بالحمار. وبالفعلِ، حالما عادَ نائبُ الرّئيسِ من جولتِهِ، أوكلَ إليه رئيسُ الدّيرِ، أمامَ الجميعِ، عملَ الطّاعةِ هذا، الّذي يحسَبُهُ الجميعُ مُذِلاًّ.

فَبَرْهَنَ مركيلّوسُ بوضوحٍ عن تواضُعِهِ الفائق. لم يقبَلْ أمرَ رئيسِ الدّيرِ بفرحٍ فحسب، إنّما لوحظَ، بشكلٍ مَحسوسٍ، أنّه ازدادَ انشراحًا وفرحًا.

قيلَ إنّه تمَّمَ خدمتَهُ بنشاطٍ، مُعتبِرًا إيّاها إحسانًا، إلى حدِّ أنّه طلبَ تأكيدًا خطّيًّا مثبّتًا يقضي بعدمِ عزلِهِ بتاتًا عن هذه الوظيفة. ولم يُعَبِّرْ عن هذا الفرحِ بالكلماتِ فحسب، إنّما بالفعل. أحسنَ عملَ طاعتِهِ، وبدا أكثرَ حماسةً في عملِهِ، صارفًا وقتًا طويلاً في إتمامِه. لكنّ الرّهبانَ جميعًا أتوا إليه يَرجونَه، ويَتوسّلونَ إليهِ بحرارةٍ أن يسامحَهُم، ويتركَ عملَ الطّاعةِ هذا، إذ إنّه لا يليقُ برجلٍ مثلِهِ أن يُعيَّنَ في عملِ طاعةٍ بسيطٍ جدًّا كهذا، وباستطاعةِ أوّلِ قادمٍ إلى الدّيرِ إتمامَهُ، في حينِ أنّه مؤهّلٌ لقيادةِ القطيعِ الرّوحيِّ، وجَعْلِه يُحرِزُ تَقدُّمًا كبيرًا.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- يُقالُ عن القدّيسِ بامبو إنّه أمضى ثلاثَ سنواتٍ يتوسّلُ إلى اللّهِ، قائلاً: «لا تُكَرِّمْني هنا على الأرض». ولكنّ اللّهَ أنعمَ عليهِ بالمَجدِ، حتّى أنّ أحدًا لم يستطِعِ التّحديقَ في وجهِه، بسببِ فيضِ النّورِ، الّذي عكَسَهُ هذا المجد. وكانت للأبِ سيسوي والأبِ سلوان الموهبةُ ذاتُها.

٢- أخبرَ الأبُ يوحنّا كولوفوس عن شيخٍ روحانيٍّ يعيشُ حبيسًا، وهو مشهورٌ في مدينتِهِ، ويتمتّعُ بتقديرٍ كبير. ذاتَ مرّة، أُبلِغَ أنّ شيخًا قدّيسًا يُشرِفُ على الموتِ، وعليه أن يذهبَ لتوديعِهِ، قبلَ رقادِه. حينئذٍ، قالَ في نفسِهِ: «إنْ خرجتُ في وضحِ النّهارِ، فسيتبَعُني النّاسُ، ويُكرّمونَني كثيرًا، ولن أرتاحَ لكلِّ ذلك. لذا، سأذهبُ هذا المساءَ عندَ حلولِ الظّلامِ، فلا يراني أحد». وفي المساءِ، خرجَ خِلسةً من قلاّيته. ولكنّ اللّهَ أرسلَ للحالِ ملاكَيْنِ مع مشاعلَ كي ينيراه، فسارعَتِ المدينةُ كلُّها وراءَه، عندَ رؤيةِ مجدِه. وبقدرِ ما أرادَ تجنّبَ المجدِ، تمجّد. بهذا تمَّ المكتوبُ في الكتابِ المُقدّس: «كلُّ إنسانٍ يرفَعُ نفسَهُ

يتّضِعُ، وكلُّ مَن يَضَعُ نفسَهُ يرتفع»[٦].

٣- قالَ الأبُ إسحق: «عندما كنتُ شابًّا، سكنتُ مع الأبِ كرونيوس. لكنّه لم يطلُبْ منّي بتاتًا أيّةَ خدمةٍ، على الرّغمِ من أنّه طَعَنَ في السّنِّ وصارَ في جسمِهِ رجفةٌ، بل كانَ يقومُ من تلقاءِ ذاتِهِ، ويُقَدِّمُ الماءَ لي وللإخوةِ جميعًا. ثمّ سكنتُ مع الأبِ ثيوذورس الفرميّ، الّذي بدورِهِ لم يطلُبْ منّي القيامَ بأيِّ عمل. كانَ يضعُ المائدةَ بمفردِهِ، ويقولُ: «يا أخي، إنْ شئتَ، فتعالَ لتأكل». فكنتُ أقولُ له: «يا أبتِ، أتيتُ إليكَ لأستفيدَ، فلِمَ لا تطلُبُ إليّ أن أقومَ بعملٍ ما؟» غيرَ أنّه كانَ يُلازِمُ الصّمت.

فذهبتُ إلى الشّيوخِ أشكو لهم أمري. فأتَوا إليه، وقالوا له: «يا أبتِ، أتى هذا الأخُ إلى قداستِكَ ليستفيدَ، فلمَ لا تطلُبُ إليه أن يقومَ بعملٍ ما؟» أجابَهُم الشّيخُ: «وهل أنا رئيسُ ديرِ شَركةٍ حتّى آمُرَه؟ في كلِّ الأحوالِ، أنا لن أقولَ له شيئًا. ولكنْ، إنْ أرادَ، فليفعَلْ، هو أيضًا، ما يراني أفعَلُهُ». منذ ذلك، صِرْتُ أسبِقُ الشّيخَ، وأفعَلُ ما يوشِكُ على القيامِ به. أمّا بالنّسبةِ إليه، فكلُّ ما كانَ يقومُ به، كانَ يفعلُهُ صامتًا. وهكذا، علّمَني أن أقومَ بعملي صامتًا.

٤- أخبرَ الأبُ بطرسُ عن الأبِ مكاريوسَ أنّه كانَ يتصرّفُ بطيبةٍ تجاهَ الإخوةِ جميعِهِم، ويُذلُّ نفسَه أمامَهم، فقالَ بعضُهم له: «لماذا تتصرّفُ هكذا؟» فأجابَ: «خلالَ اثني عشرَ عامًا، خدَمْتُ مسيحي كي يعطيَني هذه النّعمةَ، وأنتم الآن تنصحونَني بأنْ أتخلّى عنها؟»

٥- قالَ الأبُ بيمن: «إنِ ازدريْتَ نفسَكَ، تجدْ راحةً، حيثُما سكنْتَ».

٦- أُخبِرَ عن الأبِ بطرس والأب أبيماخوس أنّهما كانا رفيقَيْنِ في النّسكِ، في رايثو. ذاتَ مرّةٍ، أُقيمَتْ مأدبةٌ عامّةٌ في الكنيسةِ، وأُجبرا على

---

٦. مت ٢٣، ١٢.

الذّهابِ إلى مائدةِ الشّيوخ. وبعدَ إلحاحٍ كبيرٍ، ذهبَ الأبُ بطرسُ وحدَه. عندما نهضوا عن المائدةِ، سألَه الأبُ أبيماخوس: «كيف تجرّأتَ وذهبتَ إلى مائدةِ الشّيوخ؟» أجابَ: «لو بقيتُ معَكُم، لكان الإخوةُ دفعوني إلى أنْ أبارِكَ المائدةَ كوني شيخًا روحيًّا، وكنتُ سأكونُ المتقدّمَ فيما بينكم. بينما، بذهابي مع الآباءِ، وجدْتُ ذاتي أصغرَ من الجميعِ، وأكثرَ تواضُعًا في الفكر».

٧- أمّا بطرسُ، كاهنُ رهبانِ الأبِ ذيوس، فإذا صلّى مع آخرينَ، اضطرَّ، بصفتِه كاهنًا، أن يقفَ في المقدّمةِ، إلاّ أنّه كانَ يَضَعُ نفسَهُ آخرَ الجميعِ بفكرِهِ من جرّاءِ تواضُعِهِ، مُعترفًا بحالتِهِ الخاطئةِ، كما يُذكَرُ أيضًا في حياةِ الأبِ أنطونيوس. وبفعلِهِ هذا، لم يَكُنْ يُحزِنُ أحدًا.

٨- قالَ شيخٌ: «إمّا أن تهربَ كلّيًّا من النّاسِ، وإمّا، إن كنتَ بينَهم، أن تتظاهرَ بالجنون، في أغلبِ الأوقات».

- عن الأبِ كاسيانوس -

١- رجلٌ شابٌّ، ابنُ عائلةٍ من النّبلاءِ، غنيٌّ ومُثقّفٌ جدًّا لاطّلاعِه الواسعِ على خيرةِ الكتبِ، تركَ أباه، وأهملَ كلَّ كراماتِ الدّنيا، كي يعتنقَ الحياةَ الرّهبانيّة. ذاتَ يومٍ، أمرَه أبوه الرّوحيُّ أن يأخذَ عشرَ سلالٍ ويذهَبَ لبيعِها في المدينةِ، مَسقِطِ رأسِه، راغبًا في امتحانِ إيمانِهِ وتواضُعِهِ مع التّشديدِ على ألاّ يبيعَها دُفعَةً واحدةً، إنّما الواحدةَ تِلوَ الأخرى. فعلَ الشّابُّ كما قيلَ له تمامًا، بكلِّ صبرٍ وتواضُع. حَمَلَ السّلالَ على كتِفَيْه، وباعَها الواحدةَ تِلوَ الأخرى، من دونِ أن يفكِّرَ بتاتًا بوضاعةِ العملِ، ولا بأصلِهِ النّبيلِ، ولا بالوجهِ المُذِلِّ لهذا العملِ؛ فقد اجتهدَ في أن يَقتديَ بتواضُعِ المسيح.

٢- التقَينا أيضًا، بينَ الآباءِ، بالأبِ بينوفريوس، رجلٍ متزَيّنٍ بكافّةِ الفضائل. كانَ كاهنًا، ورئيسَ ديرِ شَركة كبيرٍ في مصرَ، بالقربِ من مدينةِ بانيفو. ذاتَ يومٍ، بعد أن رأى النّاسَ كلَّهم يَمدَحونَه ويُوَقِّرونَه من أجلِ طريقةِ

حياتِهِ الفاضلةِ، وشيخوختِهِ، ومركزِهِ كرئيسِ ديرٍ، تَبَيَّنَ له أنّه، بهذه الطّريقةِ، لن يستطيعَ التّدرّبَ على أعمالِ التّواضُعِ، على الرّغمِ من أنّه قد تدرّبَ، منذُ بدءِ حياتِهِ الرّهبانيّةِ، على ممارسةِ الطّاعةِ المُستحبّةِ جدًّا لديه. لذلك، هَرَبَ من ديرِهِ سرّيًّا، وذَهَبَ وحدَهُ إلى نواحي الصّعيدِ المُقفرة. هناكَ، خَلَعَ ثوبَهُ الرّهبانيَّ، ولَبِسَ ثيابَ عامّةِ النّاسِ، وذَهَبَ إلى ديرِ طبانيس. ظَنَّ أنّه سيبقى مجهولاً هناك، أوّلاً، بسببِ العددِ الكبيرِ للإخوةِ في هذا الدّيرِ، وثانيًا، لأنّ ديرَ طبانيسَ بعيدٌ جدًّا عن ديرِه.

وبعدَ أن توسّلَ الشّيخَ الرّوحانيَّ في طبانيسَ لأيّامٍ كثيرةٍ من أجلِ قبولِه، قَبِلَهُ هذا الأخيرُ بسببِ صبرِهِ وثباتِه. وبما أنّه كانَ مسنًّا، ولا يُمكن استخدامُهُ في أيِّ عملٍ آخرَ، عُهِد إليه الاهتمامُ بالحديقةِ، والعنايةُ بها تحتَ إشرافِ راهبٍ آخر. وهكذا، كانَ يَضَعُ قيدَ التّطبيقِ الفضيلتَيْنِ المستحبّتَيْنِ جدًّا لديه، التّواضُعَ والصّبر. لم تنحَصِرْ خِدمتُهُ للدّيرِ بهذا فقط، بل شرعَ بحماسةٍ في إتمامِ كلِّ وظيفةٍ تبدو صعبةً للآخرين.

قضى على هذا النّحوِ ثلاثَ سنينَ، من دونِ أن يُلاحظَهُ أحد. خلالَ هذا الوقتِ، لم يَنفكَّ تلاميذُه يبحثونَ عنه في مصرَ كلِّها. أخيرًا، تعرّفَ إليه أحدُ الإخوةِ، الّذي صادفَ أن جاءَ لزيارةِ ديرِ طبانيس. حالَما رآهُ، وجدَ وجهَهُ مألوفًا. لكنّه رَغِبَ في سَماعِ صوتِهِ، ليتأكّدَ أكثرَ، إذ إنّ منظرَهُ لم يَكُنْ كافيًا لإزالةِ الشّكّ. فهو، في الواقعِ، كانَ ينظُرُ إلى رجلٍ متقدّمٍ في السّنِّ يَحمِلُ مِعْوَلاً ويَنكشُ به الأرضَ، ويَحمِلُ على كتفَيْه كيسًا من الزّبلِ ويَنثُرُ منه على جذورِ الخضار. غيرَ أنّ الأخَ تأكّدَ من هَوِيّةِ الشّيخِ بعد سماعِهِ نبرةَ صوتِهِ بانتباهٍ، فارتمى على قدمَيْه، أمام انذهالِ جميعِ الحاضرينَ، الّذينَ حَسِبوهُ فعلَ ذلك إزاءَ شخصٍ مبتدئٍ غيرِ مهمٍّ، قد خرجَ حديثًا من العالم. وكم عَظُمَتْ دهشتُهُم حينَما علموا باسمِهِ، الّذي طالما ذكروه بتقديرٍ كبير. فطلبوا المُسامحةَ لأنّهم وَضعوه في مصفِّ الأخيرينَ، عن جهل. ثمّ توسّلوا إليه كثيرًا أن يعودَ إلى ديرِه. فأذعَنَ لطلبِهم مُرغَمًا، وهو حزينٌ لأنّهم لم يَدَعوه يُتَمِّمُ التّواضُعَ والطّاعةَ المستحبَّيْنِ لديه.

وبعدَ وقتٍ قصيرٍ من عودتِهِ إلى الدّيرِ، اشتعلَ فيه الشّوقُ إلى

التّواضُعِ والطّاعَةِ مُجدّدًا. لهذا، انتظرَ الفرصةَ المُناسبةَ، ورحلَ ليلاً، ولكنْ، هذه المرّةَ ليس إلى الصّعيدِ، بل إلى بلدٍ غريب. سافرَ على مَتْنِ باخِرَةٍ متوَجِّهَةٍ إلى فلسطينَ، وهو يَتمنّى أن يَبقى فيها مجهولاً، حتّى نهايةِ حياتِه. التجأَ إلى ديرٍ قريبٍ من المغارةِ حيثُ وُلِدَ ربُّنا يسوعُ المسيحُ من العذراءِ، وقُبِلَ فيه. في هذا الوقتِ، صادَفَ أنّني كنتُ أسكُنُ هناك، أنا أيضًا. ولكنْ، حتّى في ذلك المكانِ، لم يستطِعِ الشّيخُ البقاءَ مجهولاً، بحسبِ قولِ المعلّم: «لا يُمكن أن تُخفى مدينةٌ موضوعةٌ على جبل»[٧].

في الواقعِ، عرفَهُ إخوةٌ أتَوا من مناطقَ مختلفةٍ من مصرَ لزيارةِ الأماكنِ المُقدّسةِ، وبابتهالاتٍ كثيرةٍ وتوسّلاتٍ ودموعٍ أقنعوه بأن يتبَعَهُم ويعودَ إلى ديرِه. أمّا أنا، فسكَنْتُ لوقتٍ قصيرٍ مع هذا الرّجلِ القدّيسِ في مصرَ، وسأروي لكم ما سَمِعْتُهُ من فَمِهِ، عندما أخَذَ ينصَحُ أخًا، قُبِلَ كمُبتدىءٍ في هذا الدّيرِ، أثناءَ وجودي هناك. هكذا، ستفهمونَ جيّدًا خصالَ ذلك الإنسان، وكم من العلمِ حُسِبَ أهلاً لنوالِهِ من اللّهِ، وكم كانَتْ كاملةً معرفتُهُ بالخبرةِ لكلِّ سلوكٍ نُسْكِيّ.

(ثمّ يضيفُ الكاتبُ - الأبُ كاسيانوس - آراءَ القدّيس. وكلُّ من يريدُ التّعلّمَ منها، يستطيعُ أن يجِدَها في كتابِه «المناظرات». وعندما يقرأُها، سيستغرِقُ في الإعجاب[٨]).

- عنِ القدّيسِ إسحق -

اتّضِعْ في كلِّ شيءٍ، أمامَ النّاسِ جميعِهم، فترتَفِعَ فوقَ رؤساءِ هذا الدّهر. حقِّرْ ذاتَكَ، ترَ مجدَ اللّهِ في داخِلِكَ، لأنّه حيثُ ينمو التّواضُعُ، من هناك يتزايدُ مجدُ اللّه بوفرة. إذا جاهدتَ في أن تُهانَ علانيّةً، يُمَجِّدُكَ اللّه. وإن كانَ في قلبِكَ التّواضُعُ، فسيُظْهِرُ اللّهُ مجدَهُ في قلبِك. كُن محتَقَرًا في عَظَمَتِك. جاهِدْ في أن تُهانَ، تَمتلئْ من كرامةِ اللّه. احتقِرِ الإكرامَ تُكرَّم. من يسعَ وراءَ الإكرامِ يهرُبْ من أمامِهِ، بينما مَن يهرُبْ منه يتعَقَّبْهُ الإكرامُ، ويُعلَنْ

---

٧. مت ٥، ١٤.

٨. أنظرِ الجزءَ الأوّلَ من كتابِ الأفريتينوس، الفصل ٣٢، للأب كاسيانوس.

أمامَ كلِّ البشرِ تواضُعَه.

إنْ أهملْتَ ذاتَكَ بهدفِ أن تُكَرَّمَ، فسيفضَحُكَ اللّه. أمّا إنِ اتّضعتَ بصدقٍ من أجلِ اللّهِ، يوصِ اللّهُ خلائقَهُ جميعَها أن تمدَحَكَ، وتفتحَ أمامَكَ بابَ مجدِ خالقِكَ، وتُقرِّظَكَ لأنّكَ تكونُ على صورتِهِ ومثالِهِ بالحقيقة.

من ذا الّذي شاهَدَ إنسانًا متألّقًا بفضائِلِه، ولكن مُزدَريًا مظهرَهُ بينَ النّاسِ، ومُشرِقًا بحياتِهِ، حكيمًا بمعرفَتِهِ الرّوحيّةِ، ولكنْ مُتواضِعًا بفكرِهِ؟

- عن كتابِ الشّيخ -

١ - سأل أخٌ شيخَهُ: «كيف يصيرُ المرءُ مجنونًا من أجلِ المسيح؟» أجابَ الشّيخُ: «كانَ في أحدِ الأديارِ ولدٌ عُهِدَ بهِ إلى شيخٍ ناسِكٍ، كي يقودَهُ باستقامَةٍ، ويُعلِّمَهُ مخافةَ اللّه. وكانَ الشّيخُ يقولُ للوَلَد: يا بُنيَّ، إنْ كلَّمَكَ أحدُهُم بالسّوءِ، فكَلِّمْهُ أنتَ بالحُسنى. وعلى المائدةِ، تناوَلْ ما هو فاسدٌ، واترُكْ ما هو جيّد. إن توجَّبَ عليكَ اختيارُ لباسٍ ما، فاترُكِ الجَيِّدَ، وخُذِ الرثّ. أجابَهُ الوَلَدُ: وهل أنا مجنونٌ، يا أبتِ، كي تقولَ لي أن أفعلَ أمورًا كهذه؟ حينئذٍ، قالَ الشّيخُ: يا بُنيَّ، أطلُبُ إليكَ ذلك كي تصيرَ مجنونًا من أجلِ الرّبِّ، والرّبُّ سيجعَلُكَ حكيمًا». هكذا أشارَ الشّيخُ إلى ما يجِبُ فعلُه، كي يصيرَ المرءُ مجنونًا من أجلِ الرّبّ.

٢- قالَ الأبُ دانيالُ عن الأبِ ذولاس إنّه مَكَثَ أربعينَ سنةً في ديرِ شَركة. ثمّ انسحَبَ إلى الحياةِ الهدوئيّةِ في الإسقيط، واعتُبِرَ واحدًا من الآباءِ العُظماء. ثمّ أضافَ الأبُ دانيال: «بعد أن اختبَرْتُ بالعمقِ هاتَيْنِ الطّريقتَيْن، وجدتُ أنّ الرّهبانَ، الّذينَ يسلكونَ الحياةَ المشتركةَ، يتقدّمونَ في عملِ الفضائلِ أكثرَ وأسرعَ من أولئك الّذينَ يسلكونَ الحياةَ الهدوئيّة، بشرطِ أن يتمرّسوا على الطّاعةِ، باستعدادٍ صادِق.

في الواقع، كانَ في ديرِ شَركة أخٌ هو الأقلُّ أهميّةً من الآخرينَ بحسبِ المظهَرِ الخارجيّ، يحتقِرُه الجميعُ، ولكنّه يستأهِلُ روحيًّا كلَّ إكرام. فهو يصبِرُ بشجاعةٍ، من دونِ أن يُدينَ أحدًا على شيء، على الرّغمِ من إهانةِ الجميعِ له،

والسّخريةِ منه، وضربِهِ ظُلمًا في أغلبِ الأحيان.

والحالُ هذه، حَصَلَ أنّه، بتحريضٍ من الشّيطانِ، ومن دونِ عِلْمِ أحدٍ، سَرَقَ أخٌ آخرُ في الدّير نفسِهِ الأوانيَ المُقدّسةَ من الهيكل. فجرى تحقيقٌ لإيجادِ السّارق. واتّهَمَ الجميعُ ذاك الأخَ الّذي يتواضعُ، وجَعَلَهُم شَكُّهُم يستخلصونَ أنّه هو من ارتكَبَ السّرقة. لكنّه قالَ إنّه لا يعرِفُ شيئًا عن هذه المسألة. أمّا الإخوةُ، وبأمرٍ من الرّئيسِ، فنزَعوا عنه لباسَهُ الرّهبانيَّ، وقيّدوا يدَيْه بالأصفادِ، وسَلَّموه إلى مُدبّرِ اللّافرا ليحقّقَ معه. جَلَدَه هذا الأخيرُ بأعصابِ البقرِ بقوّةٍ، وأخضَعَهُ لعذاباتٍ شتّى. ولكنّ الرّاهبَ بَقِيَ ثابتًا في إنكارِه، مُعتَرِضًا بوضوحٍ أنّه يجهَلُ كلَّ ما يتعلّقُ بالمسألة. حينئذٍ، أرسَلَهُ المُدبِّرُ إلى حاكمِ تلك البلادِ، كي يخضَعَ لاستجوابٍ أقسى. أخضَعَهُ الحاكمُ لعذاباتٍ متنوّعة: أحرَقَ جسدَهُ بالنّارِ، وتَرَكَهُ لأيّامٍ عديدةٍ، من دونِ طعامٍ، في سجنٍ مُظلِمٍ وخانِق. لكنْ، بما أنّ الأخَ استَمَرَّ في نكرانِه لسَرِقَةِ الأواني المُقدّسةِ، حَكَمَ عليه الحاكمُ، بموافقةِ رئيسِ الدّير والإخوةِ، بالموتِ كما ينصُّ القانون. فأخذوه كي يقطعوا له رأسَهُ.

عندما رأى الأخُ، الّذي سرقَ الأواني المُقدّسة ما آلَتْ إليهِ الأمورُ، أنّبَهُ ضميرُهُ، فذهَبَ إلى رئيسِ الدّير، وقالَ له: «أعرِفُ مكانَ الأواني المُقدّسة، فاهتَمَّ فقط بألاّ يُقطَعَ رأسُ الأخ». عندئذٍ، أعلَمَ رئيسُ الدّيرِ الحاكمَ بذلك. وحالما أُطْلِقَ الأخُ، عادَ إلى الدّيرِ، حيثُ عاشَ لثلاثةِ أيّامٍ فقط، ثمّ رحلَ إلى الرّبِّ، بعدَ أنْ لفَظَ أنفاسَهُ الأخيرةَ وهو يصلّي راكِعًا. اجتمَعَ رهبانُ الدّيرِ جميعُهم، ووجَدوا جسدَه بهذِه الحالةِ من التّوبةِ، فأخذوه ووضَعوه في الكنيسة. قرَعوا الأجراسَ، واجتمعَتْ كلُّ اللافرا. وهرعَ الآباءُ جميعُهم إلى الجسدِ، قاصدينَ أن يأخذَ كلُّ واحدٍ منهم جزءًا من ثيابِه، أو قليلاً من شعرِهِ بمثابةِ بركة.

خافَ رئيسُ الدّيرِ أن يقطّعوا جثمانَه، فوضَعَهُ داخلَ الهيكلِ، ثمّ أقفلَ الكنيسةَ، وانتظَرَ قدومَ رئيسِ اللافرا. عندَ وصولِ هذا الأخيرِ، أشعلَ الجميعُ الشّموعَ، وأحرقوا البخورَ، وأرادوا أن يُخرجوا الجثمانَ من الهيكلِ، وهم يحثّونَ رئيسَ الدّيرِ على أن يفتحَ الهيكلَ بسرعة. وعندما فتحَهُ، ودخلَ برفقةِ آخرينَ كثيرينَ، وجدوا ثيابَ الميتِ وصندالَهُ، أمّا جسدُه، فلم يجدوهُ

في أيٍّ مكان. حينئذٍ، بدأ الجميعُ بتمجيدِ اللّهِ، وهتفَ الواحدُ للآخرِ بدموعٍ: «هل تَرَونَ، يا إخوةُ، ثمارَ طولِ الأناةِ والتّواضُعِ؟ لنجاهِدْ، نحنُ أيضًا، في احتمالِ التّجارِبِ والتّحقيراتِ في سبيلِ الرّبِّ، فنتمَجَّدَ ونُكرَّمَ، ونُشارِكَ في ملكِهِ إلى الأبد».

٣- إنسانٌ يُدعى بولس، من الطّبقةِ الأرستقراطيّة، له امرأةٌ وأولادٌ وغنًى وفيرٌ، أرادَ أن يصيرَ راهبًا. فدعا امرأتَه وأولادَه، وكشفَ لهم عن عزمِهِ. عند ذلك، وجدَ أنّهم، بدورِهِم، يتوقونَ إلى ذلك، وأنّ الشّوقَ للحياةِ الرّهبانيّةِ يشتعِلُ في داخِلِهم، فقالَ لهم: «إنْ أردتُم الاستفادةَ حقًّا، فدعوني أبيعُكم كعبيدٍ في الأديار». قَبِلوا ذلك بفرح. فاصطحَبَ زوجتَه، مرتديةً لباسًا حقيرًا كَأَمَة، وأخذَ حِصّتَها من الممتلكاتِ، وذهبَ معها إلى ديرٍ نسائيٍّ. هناك، سلَّمَها إلى الرّئيسةِ كي تكونَ لهنّ أَمَةً في الدّيرِ، مسلِّمًا أغراضَها، في الوقتِ نفسِه. كذلك، أخَذَ أولادَه أيضًا إلى ديرٍ آخرَ، وسلَّمَهُم إلى رئيسِ الدّيرِ كعبيدٍ مع أغراضِهم. في النّهايةِ، ذهبَ بنفسِهِ إلى ديرٍ آخرَ، وفعلَ الأمرَ عينَهُ، مسلِّمًا نفسَهُ كعبد.

ثمّ قالَ للأب: «إذا سمحْتَ، أودُّ أن أدخلَ وحدي إلى الكنيسة». فَسَمَحَ له. دَخَلَ، وبعد أن أغلقَ البابَ، رفعَ يدَيْهِ، وصلّى قائلاً: «يا إلهي، أنتَ تعرِفُ أنّني أتيتُ إليكَ من كلِّ قلبي». فسمعَ صوتًا يقولُ: «أنا أعرِفُ هذا، وأقبَلُكَ من كلِّ قلبي». بعد أن عاشَ في ديرِ الشَّركةِ، لوقتٍ طويلٍ، مُكَمِّلاً كعبدٍ كافّةَ الخِدَمِ الوضيعةِ، وواضعًا نفسَه أدنى من الجميعِ، رفَعَهُ اللّهُ بالتّواضُع. وبعد موتِهِ، فاضَ الطّيبُ من رفاتِهِ، وجرَتْ بها عجائبُ كثيرةٌ وعظيمة.

- عن القدّيسِ إفروسينوس الطّبّاخ -

في أحدِ الأديارِ، عاشَ راهبٌ شابٌّ يُدعى إفروسينوس. كانَ يخدُمُ الإخوةَ كطبّاخ. لم يُقِمْ له أحدٌ أيَّ اعتبارٍ يُذكَر، وقد نجحَ في إخفاءِ فضيلتِهِ، ببقائِهِ بالقربِ من سخامِ المدخنة. وبما أنّ السّخامَ كانَ يملأُه دائمًا ويوسّخُه،

جَعَلَ الإخوةُ المتهاونون يسخرونَ به، ويضحكونَ منه، ويستهزئونَ به، ممطرف إيّاه بإهاناتٍ وشتائم. وإلى جانبِ لباسِهِ الوضيعِ، استغلّوا وداعَتَه، وصمتَه، وتسامحَه، كي يضحكوا عليه، من دونِ خشيةٍ، ويحقّروه، وغالبًا ما كانوا يضربونَه. ولكنّه، على الرّغمِ من كلِّ ما سَمِعَهُ منهم، ومعاناتِهِ في كلِّ وقتٍ، احتَمَلَ بشجاعةٍ، من دونِ أن يعارِضَ، أو يُدينَ أحدًا بتاتًا، أو حتّى يقطِّبَ جبينَه، لِما لحِقَهُ من الشّتمِ والضّرب.

وحدثَ أنّ رئيسَ هذا الدّيرِ، الّذي ساسَ أمورَهُ كلَّها بحسبِ مشيئةِ اللّهِ، ولذلك، مُنِحَ إلفةً كبيرةً مع اللّهِ، استولَتْ على عقلِهِ الفكرةُ التّالية: أرادَ معرفةَ مَن مِن الإخوةِ في الدّيرِ، قطيعِهِ الرّوحيِّ، يفوقُ الآخرينَ فضيلةً، ويسمو مقامًا في تطبيقِ وصايا اللّه. وألحَّ عليه فِكْرُه، فتوسّلَ إلى اللّهِ بلجاجةٍ كي تتحقّقَ رغبتُه، ويكشِفَ له عن الأوّلِ في الفضيلةِ بينَ الإخوة.

ذاتَ ليلةٍ، بينما كانَ يصلّي وحدَه، دخلَ في انخطافٍ، ووَجَدَ نفسَهُ في مكانٍ فاتنٍ، يَشْعُرُ المرءُ فيه بلذّةٍ لا توصف. هذا المكانُ الّذي عَبَقَ بعطرٍ رائعٍ، زيَّنَتْهُ أشجارٌ مثمرةٌ مختلفةُ الأشكالِ والألوانِ، لا تُشْبِهُ ثمارُها ما نعرِفُهُ من الثّمارِ الأرضيّة؛ فحجمُها كبيرٌ، وجمالُها يفوقُ كلَّ وصفٍ بشريّ. ويجري تحتَ الأشجارِ ماءٌ عذبٌ جدًّا. كانَ جمالُ هذا المكانِ غيرَ مألوف.

عندما رأى رئيسُ الدّيرِ هذا كلَّهُ، شَكَرَ اللّهَ معطيَ الخيراتِ كلِّها، وطوّبَ نفسَهُ لأنّه حُسِبَ أهلاً لشرفٍ عظيمٍ كهذا. وإذ اشتهى أن يأكُلَ من هذه الثّمارِ الرّائعةِ، هبَّ إلى قَطْفِ بعضٍ منها، ولكنّه لم يستطِعْ، لأنّ الأغصانَ المُحَمَّلَةَ بالثّمارِ مالَتْ عنه مُرتفعةً إلى أعلى. وبعدَ محاولاتٍ عدّة غيرِ مُجدية، بَقِيَ صفرَ اليدينِ واقفًا تحتَ الأشجار. حينئذٍ، رأى الأخَ الشّابَّ إفروسينوس، الّذي اسمُه يعني «المَسَرّة»، يمشي أمامَه في وسطِ هذه الحديقةِ السّاحرةِ، وهو يتمتّعُ بوفرةٍ بكلِّ ما فيها. كانَتْ أغصانُ الأشجارِ تنحني أمامَه، مُحمّلَةً بثمارِها، كي تؤمِّنَ له للحال كلَّ ما يريدُ تذوّقَه.

اندهشَ رئيسُ الدّيرِ من هذه الرّؤيا الغريبةِ، وتوجّهَ إليه بالكلامِ قائلاً: «مَن الّذي أحضرَكَ إلى هذه الحديقةِ، يا بُنيَّ إفروسينوس، وسمحَ لك بالبقاءِ فيها؟» أجابَهُ مبتسمًا: «يا أبتِ، لقد أوكَلَ إليّ محبُّ البشرِ هذه

الخيرات، الّتي تراها، كي أتمتّعَ بها، وتكونَ تحتَ سُلطتي». سأل رئيسُ الدّيرِ: «وهل تستطيعُ الآن أن تعطيَني بعضَ هذه الثّمار؟» أجابَ إفروسينوس: «خُذْ، يا أبتِ، خُذْ قدرَ ما تشاءُ»، لكنّ الأبَ أعلنَ: «لقد حاولتُ عدّةَ مرّاتٍ، يا بُنيَّ، ولم أُفلحْ».

عندئذٍ، اقتربَ إفروسينوس بجرأةٍ من إحدى أشجارِ هذه الجنّةِ الرّائعةِ، وقطفَ من ثمارِها بيدِه. كانَتْ تلك الثّمارُ ثلاثَ تفّاحاتٍ تزهو بجمالِها وتعبقُ بالعبيرِ، وأعطاها للشّيخ.

وما إن أخذَ الشّيخُ هذه العطيّةَ بفرحٍ كبيرٍ، عادَ من انخطافِه، ووجدَ التّفّاحاتِ الثّلاثَ في يدَيْه. فاقشعرَّ بَدَنُه، وامتلأَ رهبةً، وأَمَرَ للحالِ أن تُقرَعَ الأجراسُ، من أجلِ خدمةِ السَّحَر. وبعد انتهاءِ الخدمةِ، انسحَبَ بهدوءٍ إلى قلّايتِهِ، من دونِ أن يُعْلِم أحدًا بما رآه. عندما حانَ موعدُ الاحتفالِ بالقدّاسِ الإلهيِّ، واجتمعَ الإخوةُ في الكنيسةِ، خدمَ الرّئيسُ القدّاسَ بنفسِه. وبعدَ صلاةِ الحلِّ في نهايةِ القُدّاسِ، وقَفَ أمامَ الهيكلِ بِحُلَّتِهِ الكهنوتيّةِ، وأمرَ أن يُحضِروا الأخَ إفروسينوس.

سارعَ بعضُ الإخوةِ إلى المطبخِ، واقتادوه بسرعةٍ إلى الرّئيس. وكان وجهُ إفروسينوس، وثيابُه، ممتلئةً بسوادِ الفحم. سألَهُ الرّئيسُ: «أينَ كنتَ في اللّيلةِ الماضيةِ، يا بُنيّ؟» أطرقَ إفروسينوس رأسَه إلى الأرضِ، من دونِ الإجابةِ بشيء. ولكنْ، عندما ألحَّ عليه الرّئيسُ بسؤالِهِ، منتظرًا منه جوابًا، قالَ له الشّابُّ بصوتٍ عذبٍ خجولٍ، والدّموعُ في عينيْه: «ألا تعرِفُ، يا أبتِ، أينَ كنّا نحنُ الاثنين؟»

عندئذٍ، أخرجَ الرّئيسُ للحالِ التّفّاحاتِ الثّلاثَ، بكلِّ خشوعٍ ورهبةٍ، وسألَ الأخَ: «هل تعرِفُ هذه؟» أجابَ إفروسينوس: «نعم، يا أبتِ، كما تعرِفُ، لقد أعطيتُكَ إيّاها، على طلبِك». عندئذٍ، قالَ له الرّئيسُ أمامَ الجميعِ: «مباركٌ أنتَ، يا ولدي إفروسينوس، لأنّك حُسِبتَ أهلاً لخيراتٍ عظيمة! لهذا، أتوسّلُك أن تصيرَ مرشِدًا لنفسي البائسة». ثمّ روى للإخوةِ ما رآه في الرّؤيا. وبعدما انتهى من إخبارِ الحادثةِ، سقطَ الرّئيسُ عندَ قدمَيْ إفروسينوس، الّذي تضايقَ كثيرًا ممّا يحصل. أحسّ كأنَّ مصيبةً كُبرى أَلَمَّتْ بِهِ، فبكى بمرارةٍ لهذا الإكرامِ

العظيمِ، وانتحبَ بزفراتٍ، وكأنّه يتلقّى تعذيباتٍ رهيبة.

بعد هذا، أخذَهُ الرّئيسُ من يدِه، وأدخلَهُ إلى الهيكل. وبعد أن قَطّعَ تلكَ التّفاحاتِ الثّلاثَ، ووضعَها في إناءٍ مقدّسٍ، وزّعَها على الإخوةِ جميعًا. إلاّ أنّ الرّجلَ الشّابَّ لم يحتَمِلْ إكرامَ الإخوةِ جميعًا ومديحَهم، فهربَ من الدّيرِ سرّيًّا، واختفى، لأنّه وَجَدَ كراماتِ النّاسِ، في الحقيقةِ، ملاماتٍ تؤذي النّفسَ كثيراً. لهذا، اختارَ، بطريقةٍ حكيمةٍ، الرّحيلَ بعيدًا عنهم لأجلِ خلاصِ نفسه.



الفصل الثّاني

احتقارُ الذّاتِ يقودُ طبيعيًّا إلى التّواضُعِ، فيما تقديرُ الذّاتِ يقودُ إلى الكبرياء. لهذا يفرَحُ المتواضعونَ عندما يُحتقَرونَ، ويحزَنونَ عندما يُكَرَّمون.

- عن القدّيس غريغوريوس الذّيالوغوس -

كانَ إنسانٌ تقيٌّ جدًّا يُدعى قسطنطين، يسكُنُ بالقربِ من مدينةِ أنقونا، ويخدُمُ في كنيسةِ القدّيسِ استفانوس، أوّلِ الشّهداء. ذاتَ يومٍ، نَفَدَ لديهِ الزّيتُ الّذي يملأُ بِهِ القناديلَ، فَمَلأها بالماءِ، ووَضَعَ الفتيلَ كالعادةِ في كلِّ واحدٍ منها، وأشعلَه. فاشتعلَ الماءُ في القناديلِ كالزّيت. فاعلَمْ، (يا بطرسُ،) ما كانَ عليهِ هذا الإنسانُ من تواضُع. وبسببِ العجائبِ الّتي اجترَحَها اللّهُ بوساطتِهِ، طبّقَتْ شُهرتُه الآفاقَ، فسارَعَ الكثيرونَ إلى رؤيتِهِ من أماكنَ مختلفةٍ، ومِن بَينهم فلاّحٌ تكبَّدَ مشقّةَ سفرٍ طويلٍ لزيارتِه.

وصادَفَ أنْ دنا هذا الزّائرُ من القدّيسِ، فيما هو واقفٌ على كرسيٍّ خشبيٍّ منخفِضٍ، يملأُ القناديلَ بالزّيت. كانَ قسطنطينُ قصيرًا جدًّا، ونحيفًا وقبيحَ الوجه. ألحَّ الفلاّحُ في طلبِ رؤيةِ قسطنطينَ التّقيِّ، فأرشدَهُ الحاضرونَ إليه. ولكنّه قاسَ الفضيلةَ بالهيئةِ الجسديّة، فرَفَضَ أن يقرَّ بأنّه في حضرةِ مَن وَصَلَتْ شهرتُه إليه، لدى رؤيتِهِ إيّاه قصيرًا وضعيفًا على هذا الشّكل.

إلاّ أنّ أشخاصًا كثيرينَ أكّدوا له أنّ مَن يراهُ هو بالحقيقةِ قسطنطينُ التّقيُّ الوَرِعُ، وليسَ آخرَ. فاحتقرَهُ على مظهرِهِ وهيئتِهِ الجسديّةِ، واستهزأَ به قائلاً: «لقد توقّعتُ أن أرى إنسانًا، لكنّ هذا ليس له هيئةُ البَشَر». ولدى سماعِهِ كلامَ الفلاّحِ، تركَ رجلُ اللّهِ القناديلَ، وسارَعَ نحوَهُ، ليُسلِّمَ عليه. ارتمى

على عنقِهِ، وراحَ يُقبِّلُهُ بمحبّةٍ، معبّرًا له عن امتنانِهِ العظيمِ، لأنّه تكلَّمَ عليه هكذا، وقالَ له: «أنتَ الوحيدُ الّذي تَراني على حقيقتي».

فافهَمْ إذًا، يا بطرسُ، التّواضُعَ الّذي تمتّعَ به هذا الإنسانُ المثيرُ الإعجابَ، بحيثُ أنّه أحبَّ الفلاّحَ بقدرِ ما احتقرَهُ هذا الأخير. في الواقعِ، الإهانةُ، الّتي تحصُلُ في العَلَن، تُظهِرُ بوضوحٍ الاستعدادَ الّذي يخفيه كلُّ واحدٍ في داخِلِه. فكما يفرَحُ المتكبِّرونَ بالإكرامِ، هكذا يُسَرُّ المتواضعونَ بالإهاناتِ والاحتقارِ، ويَبتهجونَ أكثرَ إن تكبَّدوها علانيّة. ففيما يُحتقرونَ، يَتأكّدونَ من أنّ رأيَ الآخرينَ فيهم يؤيّدُ رأيَهم تمامًا في ذواتِهم.

- في حياةِ القدّيس أفرام -

إلى جانبِ فضائلِهِ الأخرى، تحلّى أفرامُ العجيبُ بفضيلةِ خشيةِ المدائحِ خشيةً كبيرةً. فيما يختصُّ بالمادحينَ، لم يكتفِ بعدَمِ السّماحِ لهم بالاقترابِ منه، بل أظهرَ انزعاجَهُ من حضورِهِم علنًا، كما يفعلُ آخرونَ مع مَن يَسخرونَ منهم ويَجرحونَهم. عندما يتلقّى المديحَ، كانَ وجهُهُ يَحمَرُّ، ويَنظرُ إلى الأرضِ، وتَتغيّرُ ملامحُه، ويَتصبَّبُ عرقًا، ويَلزَمُ الصّمتَ التّامَّ، كما لو أنّ الخزيَ أقفلَ له فمَه.

- في حياةِ القدّيسة سينكليتيكي -

قالَتْ القدّيسةُ سينكليتيكي للّواتي يأتينَ إليها: «كما أنّ الشّمعةَ تذوبُ أمامَ النّارِ، هكذا النّفسُ تَتراخى بالمدائحِ، وتَفقدُ قوّتَها. والعكسُ صحيحٌ. كما أنّ الحرارةَ تَجعَلُ الشّمعَ يَذوبُ، والبردَ يَجعلُه جامدًا، هكذا الإهانةُ والاحتقارُ يُجدّدانِ قوى النّفسِ، ويُشدّدانِها، كما يَقولُ الكتابُ المُقدّس: «إفرَحوا وابتَهِجوا عندما تُعَيَّرونَ وتُطرَدون...»[٩]، وفي موضعٍ آخر: «في الحزنِ فرّجتَ عنّي»[١٠].

وليسَ هذا فقط، فالاحتقارُ، بشكلٍ أساسيٍّ، يُوَلِّدُ في النّفسِ التّواضُعَ،

---

٩. مت ٥، ١١.

١٠. مز ٤، ٢.

الّذي هو مبدأُ الفضائلِ كلِّها، ويَجعلُها تَنمو قدرَ المُستطاع. في الواقعِ، ما يُرَسِّخُ التّواضُعَ أكثرَ هي السّخريةُ، والإهاناتُ، والضّرباتُ، والاحتقاراتُ، والتّهكّماتُ، وسماعُ المرءِ مَن يدعوه بالمغفّلِ، والفقيرِ، وعديمِ الأهميّةِ، والضّعيفِ، وغيرِ المُثمرِ في العملِ، والمُتسرِّعِ في الكلامِ، والبَشِعِ في الشّكل.

عباراتُ الاحتقارِ هذه، وأشياءٌ مُشابهةٌ، تُثَبِّتُ التّواضُع. لقد سَمِعَ ربُّنا إهاناتٍ، وتألَّمَ في جسدِه. دَعوه سامريًّا، ومَسكونًا بالشّياطينِ[11]، وصفَعوه، وضرَبوه، وقالوا عنه فاعلَ شرٍّ[12]، ومُضَلِّلاً للشّعب[13]. إذًا علينا، نحنُ أيضًا، أن نَقتديَ بهذا التّواضُعِ العَمَليّ. لأنّ بعضَ النّاسِ يَدّعونَ التّواضُعَ بأفعالٍ خارجيّةٍ بهدَفِ أن يَتمجَّدوا، ولكنّهم يُعرَفونَ من ثمارِهم؛ لا يحتَمِلونَ أقلَّ مَسٍّ بكرامتِهم، بل للحالِ، يَنفُثونَ سُمومَهم كالحيّات.

- في حياةِ القدّيسِ يوحنّا الرّحوم -

كانَ للبطريركِ يوحنّا، المثيرِ الإعجاب، ابنُ أخٍ يُدعى جاورجيوس. وحَدَثَ أنْ أهانَ صاحبُ أحدِ الحاناتِ في المدينةِ هذا الأخيرَ، فاستاءَ كثيرًا، واستصْعَبَ الأمرَ، بسببِ الفارقِ الاجتماعيِّ الّذي يَفصِلُ بينَهما. فهو قريبُ البطريركِ يُهانُ من شخصٍ عاديّ. وهكذا، ذهبَ الشّابُّ دامعَ العينينِ، ومُنقبضَ القلبِ، ليقابلَ القدّيسَ على حِدة، ويَشكو له الإهانةَ الّتي لَحِقَتْ به.

عندما شاهدَ القدّيسُ ابنَ أخيه غارقًا في الألمِ هكذا، بسببِ ما حدثَ له، أرادَ أن يُعزّيَه ويَستدرِكَه، فقالَ له: «هل تجرّأ وفتحَ فمَهُ ضدَّ ابنِ أخي الحبيبِ، وأهانَه؟ ليتمجّدِ الرّبُّ، سأُعاقِبُهُ بشكلٍ يُفاجئُ الاسكندريّةَ كلَّها». حالَما رأى أنّ كلماتِه أعادَتْ بعضَ الهدوءِ إلى ابنِ أخيه، أضافَ: «يا بُنيَّ المحبوبَ جدًّا، إنْ أردتَ فعلاً أن تكونَ ابنَ أخي - ويَدعوكَ النّاسُ هكذا - فكُن جاهِزًا لتقبُّلِ لا الإهاناتِ فحسبُ، بل حتّى الجلداتِ أيضًا، إنْ لَزِمَ الأمر. واعلَمْ أنّ ما يُميّزُ النّبلاءَ الحقيقيّينَ ليس قرابَةَ الدّمِ، بل تلكَ الّتي تأتي من

---

١١. يو ٨، ٤٨.	١٢. بحسبِ يو ١٨، ٣٠.	١٣. مت ٢٧، ٦٣.

فضيلةِ النّفس».

عند ذلك، استَحْضَرَ المسؤولَ عن الحاناتِ، وأمرَهُ بصرامةٍ بأن يمتَنِعَ عن أخذِ المُساهمةِ المعتادةِ أو أيّةِ عطيّةٍ أخرى للكنيسةِ مِمّن أهانَ ابنَ أخيه. حينئذٍ، تعجَّبَ النّاسُ كلّهم من طولِ أناةِ البطريركِ، وفَهِموا أنّ هذا كانَ العقابَ الّذي سيعمُّ الاسكندريّةَ بالدّهشة.

- في قصّة أسفارِ القدّيس يوحنّا اللاّهوتيّ -

بعدما تقاذَفَ البحرُ الرّسولَ يوحنّا، لمدّةِ أربعينَ يومًا، إثرَ غَرَقِ السّفينةِ، نجا ورسا على شاطئِ أفسس[١٤]. هناكَ، وَجَدَني أنا بروخوروس واقفًا على الشّاطئِ أنتظرُهُ بحسبِ التّعليماتِ الّتي أعطاني إيّاها قبلَ تَعرُّضِ السّفينةِ للغرق. بعدَ أنْ حَضَنَني، وشكرَ اللّهَ، اصطَحَبَني إلى مدينةِ أفسس، كي نسكنَ في المنطقةِ المدعوّةِ «ساحةِ أرتاميس»، حيثُ بنى ذيوسكوريدس أحدُ قادةِ المدينةِ حمّاماتٍ عموميّة.

حينئذٍ، قالَ لي يوحنّا: «يا بُنيَّ بروخوروس، لا تُعلِم أحدًا في هذهِ المدينةِ عن هويّتِنا، ولا عن سببِ مجيئِنا إلى هُنا، إلى أن يكشفَ الرّبُّ ذلك، ونكتسبَ دالّة».

وفيما هو يتكلّمُ، أتتَ رومانا، وهي امرأةٌ مُتعجرفةٌ تَخدُمُ ذيوسكوريدسَ بإدارةِ الحمّامات. هذه تَجنّبَها النّاسُ كافّةً، بسببِ مُغالاتِها في القساوة. ولكن، فيما كانَتْ تُراقِبُ المؤسّسةَ، شاهدَتْنا. ولمّا رَأَتْ مَظْهَرَنا الفقيرَ، فكّرَتْ أنّنا نفتقِرُ إلى الخُبزِ، وأنّنا، بداعي العَوَزِ، قد نعمَلُ في حمّامِها، من دونِ طلبِ أجرٍ كبير. وللحالِ، سألَتْ يوحنّا: «من أينَ أنتَ، يا رَجُل؟ وما هي ديانَتُك؟» أجابَ يوحنّا: «أتينا من بلدٍ غريبٍ، ونحنُ من أصلٍ يهوديٍّ، لكنّنا مسيحيّونَ بنعمةِ اللّهِ، ولقد نَجَونا للتوِّ من الغرق». فاستأنفَتْ حديثَها: «أَتُريدُ أن تتكفّلَ بتوليدِ بُخارِ الحمّاماتِ، فيما يَعمَلُ رفيقُكَ في الدّاخل؟» فَقَبِلَ يوحنّا بذلك.

---

١٤. كما يُذكر في ما سَبَقَ هذه القصّة، في حياة القدّيس يوحنّا، بعد الصّعود، وَقعَ عليه أن يُبَشِّرَ بالإنجيل في آسيا، لكنّه اعترضَ على ذلك. حينئذٍ، سمحَ اللّه بأن يحدثَ الغرق. أنظُرْ الجزءَ الثّالثَ من كتابِ الأفريتينوس، الفصل ١٢ منذ البداية.

حينئذٍ، قادَتْنا بلا تأخيرٍ إلى مؤسَّسَتِها، وعيَّنَتْ لنا الأعمالَ الّتي ذكرَتْها. وكانَتْ، كلَّ يومٍ، تُعطينا ثلاثةَ مقاديرَ من الخُبزِ، وأربعةَ فلسات. وبعدَ مرورِ أربعةِ أيّامٍ على بَدْءِ العَمَلِ، لم يُفلِحْ يوحنّا، بسببِ قلّةِ خِبرتِهِ، في توليدِ البُخارِ كما يَجِب.

عندما أتَتْ رومانا، وعلِمَتْ بذلك، لطمَتْ يوحنّا بوقاحةٍ، وطرَحَتْهُ على الأرضِ، ثمّ راحَتْ تشتُمُهُ بفظاظةٍ، وهي تصيحُ: «أيّها الأجيرُ الآبِقُ، البومةُ، اللاّجئُ، غيرُ النّافعِ لشيءٍ، لماذا قَبِلْتَ بإتمامِ هذا العمل؟ أنت مخادعٌ، كما يبدو. سأضَعُ حدًّا لحِيَلِك. أنتَ تعمَلُ عند رومانا المشهورةِ حتّى حدودِ روما. من الآن، أنتَ عبدي. لا تَظُنَّ أنّكَ تَستطيعُ الفرارَ من بين يَدَيْ سيِّدتِكَ، لأنّني أستطيعُ القبضَ عليكَ بسهولةٍ، وجَعْلَكَ تهلِكُ أشرَّ هلاكٍ، إنْ تجرّأتَ على فعلِ ذلك. إذًا، أَقْلِعْ عن هذهِ النِّيَّةِ السَّيِّئةِ، واعتبِرْ، من حُسنِ حظِّكَ، أنّ عملَكَ يُؤَمِّنُ لكَ قوتَكَ اليوميَّ، فيما كُنتَ تضنى قبلُ، من دونِ شفقةِ أحد».

أجابَها يوحنّا: «يا سيّدةُ، بدأتُ عملاً لم أعرِفْ عنه شيئًا قطُّ. ولكنّني سأكتَسِبُ خبرةً مع الوقتِ، وأصيرُ نافعًا». بعد هذا، غادرَتْنا المرأة. أمّا أنا، فخَيَّمَ عليَّ حزنٌ عميقٌ، بسببِ تكدُّسِ الأحداثِ المُضنيةِ الّتي لحِقَتْ بيوحنّا، فيما لم تَمْضِ بعدُ أربعةَ أيّامٍ في المكان.

فَهِمَ يوحنّا اضطرابي، بنعمةِ الرّوحِ، وقالَ لي: «يا بُنيَّ بروخوروس، أنتَ تعلَمُ بالغرقِ الّذي تعرَّضْنا له عندما شككتُ بوقوعِ قرعةِ آسيا عليّ. لم نتعرَّضْ نحنُ فحسبُ لذلك، إنّما توجّبَ على المسافرينَ على متنِ الباخرةِ كلِّهم أيضًا مشاركتي في القصاصِ، من دونِ ارتكابِهم أيَّ ذنبٍ؛ فلقد أوشكوا، هم أيضًا، على الغرقِ، لولا عنايةُ اللهِ الّتي أنقذَتْهم. أمّا أنا، فبقيتُ أربعينَ يومًا أعومُ فوقَ أمواجِ البحرِ، لأتعلّمَ الاتّكالَ على اللهِ، لا على الأفكارِ البشريّةِ، إلى أن أظهرَ اللهُ تعطّفَهُ، وأخرجَني إلى البرّ. بما أنّكَ تعرِفُ هذه الأحداثَ بِجُملتِها، يجب ألاّ تحزَنَ، بل أن تَشكُرَ اللهَ على التّجارِبِ. ولا تَحسَبِ التّهديداتِ التّافهةِ لامرأةٍ شقيّةٍ تجربة. فاذهَبْ إلى العملِ الّذي أُوكِلَ إليكَ، وتمِّمْه بعنايةٍ كبيرة. فإنّ ربَّنا يسوعَ المسيحَ، خالقَ الكونِ، والّذي أصبحَ لنا مثالاً ونموذجًا، مُريدًا أن يُظهِرَ لنا أيّةَ فائدةٍ نَجني من الصّبرِ، قالَ: «بصبرِكم،

تقتنونَ نفوسَكم[١٥]». بهذه الأقوالِ طردَ يوحنّا الحزنَ عنّي، وشجَّعَني.

في اليومِ التّالي، حضرَتْ رومانا، وقالَتْ ليوحنّا: «سمعتُ أقوالاً كثيرةً ضدّكَ تُفيدُ أنّك مُهْمِلٌ في عملِك، ولا تَقومُ به، بشكلٍ جيّدٍ، وذلك عَمْدًا لأدَعَكَ ترحل. ولكنّك عبثًا تُفكِّرُ في ذلك، وهذه الحِيَلُ الّتي تُحيكُها ستقعُ على رأسِكَ. فأنا، إنِ اكتشفْتُ أنّ الأمورَ فعلاً هكذا، فلنْ أتركَ لكَ عضوًا سليمًا، بل سأسحقُكَ، وأجعلُكَ كسيحًا تمامًا».

لم يُجِبْ يوحنّا بشيء. أمّا هي، فهجمَتْ عليه بوحشيّةٍ مُرهِبةٍ، ظانّةً أنّ وداعةَ يوحنّا وهدوءَه جبنٌ وحماقةٌ، وهدّدَتْهُ قائلة: «ألستَ عبدي، أيّها الشّقيّ؟ ما قَولُكَ؟ ألا تَقْبَلُ بمصيرِكَ؟ تكلَّمْ. أجِبْني». فقالَ لها يوحنّا: «نعم، أنا ورفيقي بروخوروس عبدَيْن». فاستبشرَتْ خيرًا بهذا الإعلانِ، وللحالِ، ذهبَتْ لتُلغي حرّيَّتَنا. لجأَتْ إلى أحدِ القُضاةِ، لتضعَ قيدَ التّطبيقِ ما تُخطِّطُ له، وقالَتْ له: «منذُ عدّةِ سنواتٍ، هرَبَ عبدان لي وَرِثْتُهما عن والديّ. ومع مرورِ الوقتِ، أضعْتُ أوراقَ ملكيّتِهما. لكنّهما عادا الآن، واعترَفا بأنّهما عبداي. فهل أستطيعُ الحصولَ على صكِّ ملكيّتِهما، من جديد؟» أجابَها القاضي: «إنِ اعترفا أمامَ شهودٍ بأنّهما عبداكِ، اللّذان ورِثْتِهما عن والدَيْكِ، تستطيعي فعلَ ذلك».

فَهِمَ يوحنّا ذلك، بنعمةِ الرّوحِ القدسِ، وقالَ لي: «يا بُنيَّ بروخوروس، إعلَمْ أنّ هذه المرأةَ الشّقيّةَ ستطلُبُ منّا اعترافًا مكتوبًا، لأنّها تَجتهِدُ بالحيلةِ بأن يُصَدِّقَ، أمام شهودٍ، أنّنا عبداها. لا تَحْزَنْ من أجلِ ذلك، بل بالأحرى افرَحْ، لأنّه بهذا سيتمجَّدُ اللّهُ، وسيُكشَفُ سريعًا إلى مَن ننتمي».

فيما يوحنّا يتكلَّمُ بهذا، أتَتْ رومانا وأمسكَتْهُ بيدِهِ، وبدأَتْ تَصفَعُه وتَقولُ: «أيّها العبدُ الشّرّيرُ، لِمَ لا تُحَيّي سيّدتَكَ، وتسجُدَ أمامَها عندما تَدخل؟ لا تَعتقِدْ أنّك حرّ. أنتَ عبدُ رومانا!» وواصَلَتِ الكلامَ، بلهجةِ تهديد: «ألستُما عبديّ؟» أجابَها يوحنّا: «لقد قلتُ لكِ، مرّةً ومرّتَيْن، إنّنا عبدان». تابعَتْ تلك: «وعبدا مَن أنتُما، أيّها الشّقيّ؟» قالَ لها: «عبدا مَن نعمَلُ لأجلِه». وانتهَتْ رومانا إلى القولِ: «في الحقيقةِ، بما أنّكما تعمَلان لحسابي، فأنتما لي أيضًا».

---

١٥. لو ٢١، ١٩.

أضافَ يوحنّا: «نحنُ نعترِفُ بأنّنا عبدان، كتابةً وقولاً». فقالَتْ تلك: «أريدُ أن تَكتُبا ذلك أمامَ شهود». فأجابَ يوحنّا: «إن كانَتْ هذه إرادتُكِ، فأسرِعي في فعلِ ما ترَينَهُ مناسبًا».

عند ذلك، اصطحبَتْنا إلى مكانٍ قريبٍ من معبَدِ أرتاميس، إلى ساحةٍ عامّةٍ حيثُ أجرَتِ المعاملاتِ المكتوبةَ أمامَ شهود. ثمّ أعادَتْنا، كلَّ واحدٍ، إلى العملِ الّذي سَبَقَ وحدّدَتْه له في الحمّامات.

منذ بُنِيت هذه الحمّاماتُ، سكنَ فيها رئيسُ شياطينَ، وواظَبَ، ثلاثَ مرّاتٍ في السّنةِ، على خَنْقِ الدّاخلينَ للاستحمامِ من دونِ احتراس. ذاتَ ليلةٍ، دخلَ ابنُ ذيوسكوريدس وحدَهُ إلى الحمّاماتِ للاستحمامِ، في وقتٍ متأخّرٍ من اللّيلِ، مُهتمًّا بالعنايةِ بجمالِ جسدِهِ، فهجمَ عليه الشّيطانُ فجأةً، وخَنَقَه. عندما أتى عبيدُه، ووجدوه ميتًا، خرجوا باكِينَ، وقائلين: «ويلٌ لنا، لقد ماتَ سيّدُنا. ماذا نفعل؟» حالما سمعَتْ رومانا بالخبرِ، مزّقَتْ منديلَ رأسِها، ونتفَتْ شعرَها وهي تبكي، وتَقرَعُ على صدرِها، مُنتحبةً وقائلةً: «الويلُ لي، ماذا سأقولُ؟ وبماذا سأجيبُ سيّدي ذيوسكوريدس، عندما يعلَمُ بذلك؟ لا تعزيةَ لهذه الفاجعة. من المؤكّدِ أنّه سيسقُطُ ويموتُ غيرَ قادرٍ على احتمالِ هذا الخبرِ المُروِّع، لأنّ سيّدي ذومنوس ولدُه الوحيد. هَلُمّي لنجدتِنا، يا أرتاميسُ إلهةَ أفسسَ العظيمة».

بينما تتفوّهُ بهذه الأقوالِ، وأقوالٍ أخرى كثيرة أيضًا، كانَتْ تُجرِّحُ يدَيْها، وتَلطُمُ وجهَها. تركَ يوحنّا عملَهُ في الخارجِ، وأتى ليسألَني: «يا بُنيَّ بروخوروس، ما هذه الضّوضاء؟ ماذا أصابَ هذه المرأةَ الشّقيّة؟» حالما رأَتْنا رومانا نتحدَّثُ، ركضَتْ نحوَنا، وأمسكَتْ يوحنّا قائلةً: «أنتَ السّاحرُ، ولقد بانَ السّحرُ الّذي عملتَه. فمنذُ يومِ وصولِكَ إلينا، غادرَتْنا إلهتُنا. فإمّا أنْ تقيمَ ابنَ سيّدي، وإمّا أَفصِلُ نفسَكَ عن جسدِكَ في هذه السّاعة». سألَها يوحنّا: «يا سيّدةُ، قولي لي، ما الّذي يُحزنُكِ؟» أمّا هي، إذ لم تَستطِعْ ضبطَ الغضبِ العارمِ المُستولي عليها، رفعَتْ يدَها، وصفعَتْ يوحنّا قائلةً: «أيّها العبدُ الشّرّيرُ، والمَنفيُّ بسببِ شرِّكَ، تعرِفُ أفسسُ كلُّها بما حدَثَ، وأنت تسألُ مُدّعِيًا أنّكَ تجهلُ كلَّ شيءٍ؟ لقد ماتَ ابنُ سيّدي ذيوسكوريدس داخلَ الحمّامات!».

عندما سَمِعَ يوحنّا بالخبرِ، بدا لي كأنّه فَرِح. وبعد أن ابتعدَ قليلاً للصّلاةِ، دَخَلَ إلى الحمّاماتِ، وطَرَدَ منها الشّيطانَ الدّنس. ثمّ أعادَ نفسَ الصّبيِّ إلى جسدِهِ، وقادَهُ إلى الخارجِ ماشيًا، مُمسِكًا إيّاه بيدِه، وقالَ لرومانا: «خُذي ابنَ سيِّدِكِ حيًّا، ولا تَحزني». عندما رأَتْ رومانا ما حدَثَ، انذهلَتْ، وسقطَتْ على قدمَيْ يوحنّا تتوسَّلُ إليه أن يُسامِحَها عن كلِّ الشّرِّ، الّذي ارتكَبَتْهُ بحقِّه. أجابَها: «يا امرأةُ، آمني بربِّنا يسوعَ المسيحِ، الّذي أنا له تلميذٌ ورَسولٌ، وسيغفِرُ لكِ كلَّ شيء». عندئذٍ، قالَتْ: «يا رجلَ اللّهِ، من الآن فصاعدًا، أؤمِنُ بكلِّ كلمةٍ تخرُجُ من فمِك».

أثناءَ ذلك، سارَعَ أحدُ عبيدِ ذيوسكوريدس إليه، ليُنْبِئَهُ بخبرِ موتِ ابنِه. وإذ لم يَكُنْ ذيوسكوريدس مُنتظرًا مثلَ هذا الخبرِ المفجعِ، الّذي ما لَبِثَ أنْ نزلَ كالصّاعقةِ على صدرِهِ، سقَطَ بدورِهِ ميتًا على الفور. عندما عَلِمَ يوحنّا بذلك، ذهبَ إليه وأقامَه أيضًا، وعَمَّدَ جميعَ الّذينَ آمنوا. وقد اعتنَقَ الكثيرُ من الأفسسيّينَ الإيمانَ المسيحيَّ، بسببِ هذه الأحداث.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- أتى مرّةً، إلى الأبِ أغاثونَ، أناسٌ سمِعوا عن تمييزِهِ الكبير. أرادوا أن يمتحِنوه في شأنِ الغضبِ، فسألوه: «أهذا أنتَ أغاثون؟ سمِعْنا عنكَ أنّكَ زانٍ ومتكبّر». أجابَ: «نعم، هذا صحيح». تابعوا: «هل أنتَ أغاثون الثّرثارُ النّمّام؟ أجابَهم: «نعم، هذا أنا». لكِنْ عندما سألوه: «هل أنتَ أغاثونُ الهرطوقيّ؟» أجابَ: «لستُ هرطوقيًّا». حينئذٍ، سألوه: «قُلْ لنا، لمَ قَبِلتَ كلَّ ما قُلنا لك، ولم تحتمِلِ القولَ الأخير؟» فأجابَهم: «الأقوالُ الأولى أنسِبُها إلى ذاتي، لأنّها تُفيدُ نفسي. أمّا الهرطقةُ، فهي انفصالٌ عن اللّه». عندما سمعوا ذلك، تعجّبوا من تمييزِه، ومَضوا منتفِعين.

٢- قالَ شيخٌ: «مَن يَمدَحْ راهبًا، يُسَلِّمْه إلى الشّيطان».

٣- أخبَرَ الشّيوخُ أنّه جيءَ مرّةً ببعضِ التّينِ المُجفَّفِ إلى الإسقيطِ

ليُوَزَّع. وبما أنّه كانَ قليلاً، لم يُرسَلْ منه إلى الأبِ أرسانيوس، لئلاّ يُهينوه لأجلِ جلالةِ مَنْزِلَتِه. فلمّا عَلِمَ الشّيخُ بذلك، لم يذهَبْ إلى الكنيسةِ، قائلاً: «لقد أقصَيْتُموني عنكم بعدمِ إعطائي من البَرَكة الّتي أرسلَها اللّهُ إلى الإخوةِ، كأنّني لا أستحقُّ الأخذَ منها». عندما سَمِعَ الإخوةُ جميعُهم بذلك، استفادوا من تواضُعِ الشّيخ. وما كانَ من كاهنِ الإسقيطِ إلاّ أنْ ذهبَ إليه، وأعطاه من التّينِ المجفَّفِ، وجلبَهُ إلى الكنيسةِ بفرح.

٤- قيلَ إنّه ذهب قومٌ إلى الأبِ أمون للاحتكامِ عنده. أمّا الشّيخُ، فادَّعى التّباله. وحدَثَ أنّ امرأةً وقفَتْ إلى جانبِهِ، وقالَتْ: «هذا الشّيخُ مجنونٌ». فَسَمِعَها الشّيخُ، وناداها، وقالَ لها: «أتعلَمينَ كَمْ مِن الأتعابِ تَكَبَّدتُ في الصّحراءِ، لأقتنيَ هذا الجنونَ، وهل سأفقِدُه اليومَ بسببِكِ؟ بالتّأكيدِ لا».

٥- انعقَدَ مجمعٌ في القلالي[١٦]، بشأنِ قضيّةٍ ما، واستهلَّ الأبُ أفاغريوس الكلام. فقالَ له الكاهنُ: «نعرِفُ، يا أبانا، أنّكَ لو كنتَ في بلدِكَ، لأصبحتَ أسقفًا على رأسِ عددٍ كبيرٍ من النّاسِ، ولكنّك هنا تُقيمُ كغريب». فتملّكَ أفاغريوسَ التّخشّعُ، ولكنّه لم يَضطرِبْ، بل هزَّ رأسَهُ وأجابَه: «هذا صحيحٌ، يا أبتِ. لكنّني تكلّمتُ مرّةً، ولن أكرّرَ ذلك».

٦- قالَ الأبُ يوحنّا: «التّواضُعُ هو بابُ السّماءِ، ولم يدخُلْ آباؤنا بفرحٍ إلى مدينةِ اللّهِ، إلاّ بعدَ أن تكبّدوا إهاناتٍ كثيرة».

٧- الأبُ نفسُه قالَ لأخيه: «حتّى ولو بَدَوْنا محتقَرينَ كلَّ الاحتقارِ في عيونِ النّاسِ، فلنفرَحْ بذلكَ ليكرّمَنا اللّه». وهو لم تَنْقُصْ منه إطلاقًا الحرارةُ الرّوحيّة[١٧]. زارَه مرّةً أحدُهم، فيما هو منشغلٌ بنسجِ الحبالِ، ومدحَ عملَهُ

١٦. إنّها منطقةٌ في صحراء مصر.

١٧. أنظر أع ١٨، ٢٥. رو ١٢، ١١.

اليدويّ. أمّا هو، فلَزِمَ الصّمت. ولكنّ ذاك، مَدَحَهُ مرّةً أخرى على عملِهِ، فلَزِمَ الصّمتَ أيضًا. ولكن، عندما مَدَحَهُ الزّائرُ للمرّةِ الثّالثةِ، قالَ له الأبُ يوحنّا: «مذ دَخَلْتَ إلى هنا، طردْتَ اللّهَ بعيدًا عنّي».

٨- هذا الأبُ نفسُهُ جَلَسَ مرّةً في الإسقيطِ، وتَجَمَّعَ الإخوةُ حولَهُ يَسألونَه عن أفكارِهِم. حينئذٍ، بادَرَهُ أحدُ الشّيوخِ بقولِه: «يا يوحنّا، أنتَ مِثلُ الزّانيةِ الّتي تتزيَّنُ لتجمعَ حولَها أكبرَ عددٍ من العُشّاق». فقبَّلَهُ الأبُ يوحنّا وأجابَه: «أنتَ تَنطِقُ بالصّوابِ، يا أبتِ». لاحقًا، سألَهُ أحدُ تلاميذِه: «تُرى، ألم تَضطربْ في داخلِكَ، يا أبتِ؟» أجابَ: «لا، كما بَدَوْتُ في الخارجِ، هكذا كنتُ في الدّاخل».

٩- قالَ الأبُ يعقوبُ: «يَنبغي على مَن يُمدَحُ أن يفكّرَ في خطاياه، وفي عدمِ استحقاقِهِ لما يُقال. وهكذا، لن يَتأذّى من المديح».

١٠- يُقال عن الأبِ مكاريوس إنّه، إذا جاءَهُ أخٌ برهبةٍ كأنّه ذاهبٌ إلى شيخٍ قدّيسٍ وعظيمٍ، لم يَكُنْ يقولُ له شيئًا البتّة. أمّا إن قالَ له أحدُ الإخوةِ، كأنّه يريدُ أن يُهينَه: «يا أبتِ، لمّا كنتَ جمّالاً، وتَسرُقُ الملحَ لتبيعَه، ألم يَضرِبْكَ الحرّاسُ؟» فكانَ الشّيخُ يُكلِّمُهُ بفرحٍ في كلِّ ما يَسألُه.

١١- أُخبِرَ عن الأبِ موسى أنّه عندما رُسِمَ كاهنًا، وأُلبِسَ حُلَّةَ الكهنوتِ، قالَ له رئيسُ الأساقفةِ: «ها قد أصبحتَ الآن أبيضَ بالكلّيّة[١٨]، أيّها الأبُ موسى». أجابَ: «تَراني أبيضَ من الخارجِ، ولكن ماذا عن الدّاخلِ، أيّها الأبُ القدّيس؟» فلمّا أرادَ رئيسُ الأساقفةِ أن يَمتحِنَه، قالَ للاكليريكيّين: «عندما يَدخُلُ موسى إلى الهيكلِ المُقدّس، اطْرُدوه، ثمّ اتبَعوه لتسمعوا ما يَقول». عندما دخلَ الشّيخُ، أنّبوه وطردوه، قائلين: «أخرُجْ، أيّها الأسود». أمّا

---

١٨. من الواضحِ أنّ الحُلّةَ الكهنوتيّة، الّتي ألبَسَها رئيسُ الأساقفةِ للأنبا موسى، كانَت بيضاءَ، فيما كانَ هو أسودَ كزنجيّ.

هو، فخرجَ وهو يَقولُ لذاتِه: «حسنًا فعلوا بك، أيّها الأسودُ القذر. فبما أنّك لستَ إنسانًا، لِمَ تأتي وسطَ النّاس؟»

١٢- قالَ شيخٌ: «مَن يُكَرَّمْ ويُمْدَحْ أكثرَ ممّا يستحقُّ، يَتأذَّ كثيرًا. أمّا مَن لا يُكَرِّمُهُ النّاسُ بتاتًا، فسيُمَجِّدُهُ اللّهُ من العُلى».

١٣- سألَ أحدُ الإخوةِ شيخًا: «قُلْ لي كلمةً أحفَظُها وأخْلُصُ بها». أجابَهُ الشّيخُ: «إن استطعتَ أن تحتمِلَ الإهانةَ، فهذا شيءٌ عظيمٌ، يَسمو على سائرِ الفضائل».

١٤- قالَ شيخٌ: «ليس المتواضِعُ مَن يُحَقِّرُ ذاتَهُ بنفسِهِ، إنّما مَن يَقْبَلُ الإهاناتِ والشّتائمَ من أخيهِ الإنسانِ بفرح».

١٥- قالَ أيضًا: «إنْ مَدَحَكَ أحدُهم في وجهِكَ، ففكِّرْ للحالِ في خطاياك، وتوسَّلْهُ قائلاً: باللّهِ عليك، يا أخي، توقَّفْ عن مَدحي، لأنّني ضعيفٌ، ولا أحتمِلُ ذلك. أمّا إن مَدَحَتْكَ شخصيّةٌ مُهمّةٌ، فَصَلِّ في داخلِكَ إلى اللّهِ، قائلاً: يا ربُّ، احمِني من مديحِ النّاسِ، ومن توبيخاتِهِم».

١٦- ذاتَ يومٍ، فيما كانَ الأبُ يوحنّا القصيرُ جالسًا أمامَ الكنيسةِ، أحاطَ به الإخوةُ، وشرعوا يسألونَه عن أفكارِهم. فلمّا رآهُ أحدُ الشّيوخِ، شعرَ بالحسدِ، فقالَ له: «إبريقُكَ، يا يوحنّا، مليءٌ بالسُّمّ». أجابَهُ يوحنّا: «هذا صحيحٌ، أيّها الأب. وأنتَ تقولُ ذلك، فيما ترى فقط ما في الخارج. فماذا ستقولُ إنْ رأيتَ ما في الدّاخل؟»

١٧- ذاتَ يومٍ، انعقَدَ مجمعٌ في الإسقيطِ، وأرادَ الآباءُ أن يُجَرِّبوا الأبَ موسى، فقالوا لَهُ بلهجةٍ مُحَقِّرة: «ماذا يريدُ هذا الأسودُ ليأتيَ فيما بينَنا؟» فعندما سَمِعَ ذلكَ، لَزِمَ الصّمت. ولمّا تفرّقوا، سألوه: «أيّها الأبُ، ألم تَضطرِبْ

في تلكَ السّاعة؟» أجابَ: «اضطرَبتُ. ولكنّني لم أتكلَّم».

١٨- قالَ الأبُ بيمن: «كلُّ تجربةٍ تُداهِمُكَ، تَنتصرُ عليها بالصّمت».

١٩- أُخبِرَ عن شيخٍ أنّه كُلَّما أهانَهُ أحدُهُم وأغاظَهُ، سارعَ إليهِ قائلاً: «أناسٌ كهؤلاءِ سببٌ للتّقدّمِ عندَ النّاسِ المُتحمّسين. أمّا أولئك الّذينَ يمدَحونَ، فيَخدَعونَ النّفسَ ويُبلبِلونَها، كما يقولُ الكتابُ المُقدّس: «مَن يَقولونَ لكم طوبى لكم، يخدَعونَكم»[19].

- عن الأبِ أشعيا -

١- قالَ الأبُ أشعيا: «إن كلَّمَكَ أخوكَ بصِغَرِ نفسٍ، فاحتمِلْهُ بفرح. وإن تفحّصْتَ فكرَكَ، بحسبِ حُكمِ اللّهِ، فستجدُ أنّكَ أنتَ الّذي أخطأت».

٢- أن يَطرَحَ المرءُ نفسَهُ أمامَ اللّهِ يَجعَلُهُ يَحتَمِلُ الإهاناتِ، من دونِ اضطراب. وتبقى دموعُ نفسٍ كهذه مجرّدةً من كلِّ ما هو بشريّ. أمّا نتيجةُ عَدَمِ لومِ المرءِ لذاتِه، فتكونُ بألاّ يحتمِلَ الغضب.

٣- مَن يَقْتَنِ التّواضُعَ، لا يَنشغلْ بإساءاتِ البشرِ، إذ إنَّ تَذَكُّرَهُ لخطاياهُ الخاصّةِ يُشَكِّلُ دُروعًا له، تَحفَظُهُ من الغضبِ والانتقامِ، وهكذا يَحتمِلُ كلَّ ما يأتيه. فأيُّ عارٍ قد يلحَقُ به، ما دامَ مُتيّقِظًا إلى خطاياه، أمامَ عينَيِ اللّه؟

٤- مَن يستطِعْ، من أجلِ اللّهِ، وهدوءِ أفكارِهِ، أن يحتمِلَ كلمةً قاسيةً من إنسانٍ صعبٍ وأحمقَ، يكتَسِبْ سلامَ الجسدِ والرّوحِ والفكر. وعندما تتآلَفُ هذه الثّلاثةُ، يهدَأُ الّذينَ تَسلّحوا ضدَّ ناموسِ الذّهنِ الرّوحيِّ[20]، ويَتبدّدُ سجنُ الجسدِ، فيُدعى هذا الإنسانُ ابنَ السّلامِ، ويَسكُنُ فيه الرّوحُ

١٩. أش ٣، ١٢.

٢٠. أنظر رو ٧، ٢٣.

القدسُ - لأنّه أصبحَ خاصّتَهُ - ولا يَنفَصِلُ عنه.

٥- يا أخي، آمِن بأنّ الإهاناتِ، والإساءاتِ، الّتي تَحصُلُ لكَ، من أجلِ الرّبِّ، ربحٌ عظيمٌ، وخلاصٌ لنفسِك. احتمِلْها طَوعًا، من دونِ اضطرابٍ، وأنتَ تُفَكِّرُ: «بسببِ خطاياي، أستحقُّ أنْ يُصيبَني أكثرَ من هذا، وإنّه لشرفٌ لي أنْ أتألَّمَ من أجلِ الرّبِّ. علّمني، بكثرةِ المِحَنِ والإهاناتِ، أتشبَّهُ، ولو قليلاً، بآلامِ إلهِنا». وكلَّ مرّةٍ تَتذكَّرُ فيها مَن أحزَنوك، إحسَبْهُم سببَ رِبحٍ عظيمٍ لك، وَصَلِّ بأمانةٍ من أجلِهم، من كلِّ نفسِك، ولا تَدَعْ نفسَكَ مُطلقًا تَنزَلِقُ إلى التّذمُّرِ منهُم.

٦- نمِّ فيكَ الكرهَ الكاملَ للرّغبةِ في السّلطةِ، ولحُبِّ المجدِ، ولطلبِ مَدْحِ النّاسِ، وارتعِدْ منها جزعًا، كما تَكْرَهُ الموتَ المحتَّمَ، وخسارةَ نفسِك، والعقابَ الأبديَّ، وتَرتعِدُ منها.

٧- إن أحزنَكَ أحدُهم في أيِّ أمرٍ، وشعرتَ بالحُزنِ والغيظِ من جرّاءِ ذلك، فانتَبِهْ بدقّةٍ إلى ذاتِكَ كي تصمُتَ، ولا تَتَفَوَّهْ بشيءٍ غيرِ لائقٍ، إلى أن يَهدَأَ قلبُكَ أوّلاً بالصّلاة. وفقط حينها، كلِّمْ أخاكَ بمودّة.

- عن الأبِ مرقس -

الإهانةُ من البشرِ تُوَلِّدُ الحُزنَ في القلبِ، ولكنّها تَصيرُ سببًا لتنقيةِ مَن يحتمِلُها.

إنْ رَغِبْتَ في أنْ يمدَحَكَ النّاسُ، من دونِ أن تستوجِبَ الإدانةَ، فأَحِبَّ أوّلاً أنْ يُوبِّخوكَ على خطاياك.

بقدرِ ما يَحتمِلُ المرءُ الإساءاتِ، من أجلِ حقيقةِ المسيحِ، سيتمجَّدُ إلى مئةِ ضعفٍ، من جمعٍ كثير. على الرّغمِ من ذلك، مِنَ الأفضلِ أن يدأَبَ المرءُ على كلِّ خيرٍ، في سبيلِ الملكوتِ الآتي.

عندما تَرصُدُ فكرًا يُغريكَ بمجدٍ بشريٍّ، اعلَمْ جيّدًا أنّ هذا الفكرَ

يُهيّئُ لكَ الخزي.

مديحُ النّاسِ يُرسِّخُ الشّهوةَ الرّديئةَ، كما أنّ التّوبيخَ على الرّذيلةِ يُرسِّخُ العفّة. وهذا لا يحدُثُ عندما نسمَعُ هذا أو ذاك، إنّما عندما نَقْبَلُهما.

عندما يؤذيكَ أحدُهم، أو يُهينُكَ، أو يَضطهدُكَ، لا تُفَكِّرْ في الحاضرِ، بل ترقَّبِ المستقبلَ، فستكتشِفُ أنّكَ مَدينٌ له بخيراتٍ كثيرةٍ، لا في الحياةِ الحاضرةِ فحسبُ، إنّما في الحياةِ المستقبلةِ أيضًا.

إنْ رأيتَ أحدًا يَمدَحُكَ برياءٍ، فانتَظِرْ منه التّوبيخَ، في الوقتِ نفسِه.

عندما تحتمِلُ ازدراءَ النّاسِ، فَكِّرْ للحالِ في المجدِ الّذي يتبَعُهُ من لدنِ اللّه. هكذا، تبقى من دونِ حزنٍ واضطراب. وعندما يأتي المجدُ، ستجِدُ ذاتَكَ أمينًا، وبلا لوم.

عندما يَرتضي اللّهُ أن يمدَحَكَ كثيرونَ، انتَبِهْ ألاّ تخلطَ شيئًا من التّفاخُرِ مع ما دبَّرَهُ اللّه، لئلاّ تَسقُطَ من جديدٍ، ويعامِلَكَ النّاسُ بطريقةٍ مُعاكسة.

عندما تَرى إنسانًا يَتأثّرُ من الاحتقارِ الّذي يُظهِرُهُ الآخرونَ نحوَه، حتّى المعاناةِ، إعلَمْ أنّه ممتلئٌ من فكرِ المجدِ الباطلِ، وأنّه يَحصُدُ الثّمارَ النّاتجةَ عن بذارِ قلبِه، حَصادًا لا فَرَحَ فيه.

مَن يُحِبَّ اللّذّةَ يحزَنْ للملاماتِ والمُضايقات. وعلى العكسِ، مَن يُحِبَّ اللّهَ يَحْزَنْ من المدائحِ وسهولةِ العيش.

- عن الأبِ اسحق -

احتمِلْ التّعييرَ والذّلَّ، عن طيبِ خاطرٍ، كي تكتسبَ دالّةً لدى اللّه.
عندما يَحتمِلُ الإنسانُ كلَّ كلمةٍ قاسية، بوعيٍ روحيٍّ، (شرطَ ألاّ يكونَ قد أخطأً مُسبَقًا تجاهَ الإنسانِ الّذي وجهَّها إليه)، يَضعُ بالتّأكيدِ على رأسِهِ إكليلاً من شوكٍ، ولكنّه مغبوطٌ لأنّه، في وقتٍ لا يَعرِفُهُ، سيُكَلَّلُ بإكليلٍ لا يَفنى.
يَكمُنُ كمالُ التّواضُعِ في أن يَحتمِلَ المرءُ التّعييرَ، وكلَّ إدانةٍ كاذبةٍ، بفرح. في الواقعِ، إنّ متواضِعَ الفِكرِ بالحقيقةِ لا يَضطرِبُ عندما يُظلَم، ولا يُدافِعُ عن نفسِه في كلِّ ما يتّهِمونَهُ به، بل يَقبَلُ الافتراءَ، من دونِ الانشغالِ في إقناعِ

البشرِ بأنّه مُفترًى عليه، وبالأحرى يَطلُبُ المغفرة.

بعضُ الأبرياءِ جلبوا طوعيًّا لأنفسِهم لقبَ الفاسِقِ، فيما احتمَلَ آخرونَ لقبَ الزّاني، مع أنّهم بعيدونَ كُلّيًّا عن ذلك. وبدموعِهِم أخذوا على عاتِقِهِم ثمرَ خطيئةٍ لم يَرتكِبوها، لا بل طَلَبوا من الظّالمينَ والمُفترينَ المغفرة عنها، فتكلّلَتْ نفوسُهم، بالطُّهْرِ والنّقاوةِ الكاملة.

وآخرونَ أيضًا ادَّعوا، أمامَ النّاسِ، أنّهم مجانينُ، لئلاّ يَتَمَجَّدوا على فضيلتِهِم الّتي أخفَوها في داخلِهِم، فيما كانوا مُمَلَّحينَ بالملحِ الإلهيّ[٢١]، ثابتينَ في السّلامِ الدّاخليِّ، إلى حدِّ أنّ الملائكةَ القدّيسينَ أعلَنوا جهارًا عن علاماتِ فضيلتِهِم، بسببِ كمالِهِم.

أمّا أنتَ، فلا تَظُنَّ أنّك متواضِعٌ، إن كنتَ عاجِزًا عن احتمالِ التّوبيخِ البسيط. إذًا، إنْ أردتَ أنْ تعلَمَ هل اقتنيتَ تواضُعَ الفِكرِ، فتفحَّصْ ذاتَكَ على ضوءِ ما قيل.

- عن كتابِ الشّيخ -

ذاتَ يومٍ، تركَ أخٌ مختَبَرٌ الإسقيطَ، ليذهبَ إلى ديرِ طبانيس، حيثُ جميعُ السّاكنينَ قدّيسونَ، يُمارسونَ نسكًا صارمًا. وبعدما أقامَ هناك مدّةَ ثلاثينَ يومًا، ذهبَ ليرى الأرشمندريتَ[٢٢]، وقالَ له: «أعطِني بَرَكَتَكَ، أيُّها الأبُ، وأطلِقْني لأنّني لا أستطيعُ البقاءَ هنا». فسألَه الأبُ: «لماذا، يا بُنيَّ؟» أجابَ الأخُ: «لأنّني هنا، لا أتعَبُ، ولا أجرَ لي، فالآباءُ جميعُهم مُجاهدونَ، فيما أنا إنسانٌ خاطئ. لذا، من الأفضلِ أن أذهبَ إلى حيثُ أجِدُ فُرصَةً لتقبُّلِ الإهاناتِ والمذلاّتِ، لأنّ هذه تُنقِذُ الإنسانَ الخاطئ».

أُعجِبَ رئيسُ الدّيرِ بما قالَه الأخُ، وبما أنّه يَعرِفُهُ مُجاهدًا، أطلقَهُ قائلاً: «إذهَبْ، يا ولدي. كُن شُجاعًا، وليتثَبَّتْ قلبُكَ، وانتَظِرِ الرّبّ[٢٣]».

---

٢١. أنظر كو ٤، ٦.

٢٢. في الرّهبنةِ القديمة، يُطلَقُ لقبُ أرشمندريت على رئيسِ ديرٍ كبيرٍ، أو مراقبٍ أعلى لتَجَمُّعٍ رُهبانيّ.

٢٣. مز ٢٦، ١٤.

- عن الأبِ زوسيما -

١- قالَ الأبُ زوسيما: «للاستعدادِ الّذي به يتحرَّكُ عزمُنا درجاتٌ مختلفةٌ. ويُمكن لعزمٍ وطيدٍ أنْ يُنجزَ قربًا حميمًا من اللّهِ، في ساعةٍ واحدةٍ، أكثرَ من الّذي أَنجزَهُ عزمٌ مختلفٌ فاترٌ، خلالَ خمسينَ سنة. لذلك، إنْ رأى الشّياطينُ أحدًا قد أُهينَ، أو أُذِلَّ، أو تَضرَّرَ، أو تألَّمَ ممّا يشابهُ ذلك، وهو يتأسَّفُ، لا بسببِ الشرِّ الّذي أصابَه، بل لأنّه لم يحتمِلْ هذه المهاجماتِ بشجاعةٍ، يَخافوا كثيرًا، لأنّهم يَعرفونَ أنّ هذا الإنسانَ وَجَدَ الدّربَ الحقيقيَّ، ويَبتغي السّيرَ بحسبِ وصايا اللّه».

٢- هو نفسُه قالَ: «إنْ تَذَكَّرَ أحدُهم شخصًا أحزَنَهُ، أو سخِرَ منه، أو أضرَّ به، أو أساءَ إليهِ بشكلٍ آخرَ، فليَعتَبِرْهُ طبيبَه، وليُصَلِّ من أجلِهِ من أعماقِ نفسِه. أمّا إنْ حاكَ أفكارًا ضدَّه، فهو يَتآمَرُ على نفسِه عينِها، كما يَفعَلُ الشّياطين. أكثرَ من ذلك، يَصيرُ هو نفسُه شيطانًا لنفسِهِ وعدوًّا، لأنّه لم يَرغَبْ في أن يَحيدَ عن الشرِّ، بل بأن يَبقى مريضًا غيرَ قابلٍ للشّفاء. فلو لم يَكُنْ مريضًا، لَما اغتاظَ من الّذي أحزَنَهُ أو أهانَهُ، هذا الّذي أرسَلَهُ المسيحُ إليه كطبيبٍ، ليَكشِفَ له مرضَه عبرَ الإهانةِ والتّأنيب.

إنْ رغِبَ حقًّا في الشّفاءِ، فمن مصلحتِهِ أن يَنظُرَ إلى الشّخصَ الّذي بَلْبَلَهُ كإلى مُحسِنٍ، وأنْ يقبَلَ كلَّ ما يأتي منه كعلاجاتٍ طُبّيّةٍ مُرسَلةٍ من يسوعَ، فيشكرَهُ عليها، حتّى ولو تَسَبَّبَتْ له بالألمِ في حينِها. فالمريضُ لا يَقبَلُ طوعيًّا الخضوعَ لعمليّةٍ جراحيّةٍ، ولا العلاجَ بالكيِّ، ولا أخذَ دواءٍ مرّ. والأحرى أنّه يَنفرُ من هذه الأمورِ، لِمُجَرَّدِ التّفكيرِ فيها. مع ذلك، إذا اقتنَعَ باستحالةِ التّخلُّصِ من المرضِ من دونِها، يُفَوِّضُ أمرَهُ للطّبيبِ، عارفًا جيّدًا أنّه سيَتخلَّصُ من مرضٍ خطيرٍ ومضنٍ بقليلٍ من الانزعاج.

الإنسانُ الّذي يؤذيكَ، أو يُهينُكَ، هو في الحقيقةِ مكواةٌ مُرسَلةٌ من يسوعَ، يُخلِّصُكَ من الطّمعِ والكبرياء. إن لم تَحتمِلْ إساءاتٍ مماثلةً، ورفضتَ أن تؤدّيَ الشّكرَ، بل حُكْتَ أفكارًا ضدَّ الأخِ، فهذا يُعادِلُ قولَكَ ليسوعَ: «لا أريدُ أن تعالجَني. لا أريدُ تناولَ أدويتِك. أُفَضِّلُ أن أُنتِنَ في جراحاتي!» فماذا

يَفعَلُ لك، بعدَ ذلك، السّيِّدُ الصّالح؟ إعلَمْ إذًا، أيّها الأخُ، أنّ مَن يَتجَنَّبُ التّجربةَ المفيدةَ، يَتجَنّبُ الحياةَ الأبديّة.

٣- يقولُ إفاغريوس: أنا لا أُدينُ الّذينَ يغتابونَني، بل أدعوهم مُحسنين. ولا أحيدُ عن طبيبِ النّفوسِ، عندما يُقدِّمُ دواءَ الاحتقارِ لنفسي المُحِبَّةِ للمجدِ الباطلِ، لأنّني أخشى أن يُطَبّقَ عليّ القولُ التّالي: «داوَينا بابلَ، فلم تُشفَ»[٢٤]. بداعي صلاحِهِ، أعطانا ربُّنا وصايا مقدّسةً من أجلِ محاربَةِ شُرورِنا، آخذًا على عاتقِهِ تنقيَتَها بالكيِّ والتّطهير. في الواقعِ، مِن المُستحيلِ أن نَتخلّصَ كُلّيًا من مرضِنا، إلاّ بالعلاجاتِ الملائمةِ والمناسبة.

٤- قالَ الأبُ زوسيما أيضًا: «لا يَكذِبُ سوى مَن يَمدحونَني ويُغبّطونَني. ولا يَقولُ الصّدقَ سوى مَن يُدينونَني ويُحقّرونَني. وحتّى هؤلاءِ الأخيرونَ لا يَقولونَ الحقيقةَ كاملةً، لأنّهم لا يَعرفونَ بدقّةٍ كلَّ ما في قلبي. لو استطاعوا رؤيةَ قسطٍ من الأهواءِ الّتي في داخلي، ولا أقولُ كلَّها، سيَهربونَ بعيدًا عنّي، كما يَهربونَ من المُستنقعِ، أو الرّائحةِ الكريهةِ، أو الرّوحِ النّجس. وإنِ اتّحدَتْ ألسنةُ البشرِ لتُدينَني، فأنا مقتنعٌ بأنّ أحدًا لا يَستطيعُ وصفَ عاري بما يفي. إنْ قالَ أيّوبُ البارُّ: «إنّي شبعانٌ عارًا»[٢٥]، مع أنّه لم يَكُنْ منغَمِسًا في العارِ إلى هذا الحدِّ، فماذا أقولُ أنا، بحرَ الشّرورِ كلِّها؟ لقد أذلَّنا الشّيطانُ بأنواعِ الخطايا كلِّها. أفلا يُفيدُنا أنْ نعرفَ أنّنا ذُلِلنا؟ في الواقعِ، مَن يَعرفونَ حالتَهم يَسحقونَ الشّيطانَ الّذي سَحَقَهُم. كما قالَ الآباءُ القدّيسون: عندما يُحدِرُ التّواضُعُ الإنسانَ إلى الجحيمِ، يَرتَفِعُ إلى السّماء. وأيضًا: عندما يُصعِدُ الكبرياءُ الإنسانَ إلى السّماءِ، ينحَدِرُ إلى الجحيم.

وأضافَ هذا الشّيخُ: «مَن يَستطيعُ أنْ يُقنعَ المتواضِعَ، حينئذٍ، بأنْ يحيكَ أفكارًا ضدَّ أحدٍ؟ مهما يَسْمَعِ المُتواضِعُ من أمورٍ مُحزنةٍ، أو يَتَعرّضْ لها، يَتّخِذْها حُجّةً، كي يُدينَ ذاتَه، ويُحَقِّرَها. هكذا فعلَ الأبُ موسى عندما

٢٤. إر ٢٨، ٩.

٢٥. أي ١٠، ١٥.

طردَهُ الإكليريكيّونَ من الهيكلِ المُقدّسِ بطريقةٍ مُهينةٍ، إذْ أدانَ ذاتَهُ أكثرَ ممّا فعلوا هم. إنِ اضطرَبَ المُتواضِعُ عفوًا لإهانةٍ أو ظلمٍ لَحِقاه، يَلجَأْ فورًا إلى الصّلاةِ الّتي بها يَهدَأُ قلبُه سريعًا. ولكنّه لا يَكتفي بهذا، بل يُدينُ نفسَهُ، قائلاً لها: «لماذا تَثورينَ، أيّتها النّفسُ البائسة؟ لماذا تَضطربينَ مثلَ أولئك الّذينَ يُزبِدون؟ اضطرابُكِ هذا يُشيرُ إلى مرضِك. فلو كُنتِ صحيحةً، لَما تألّمْتِ. أيّها الشّقيُّ، لماذا أهملتَ لومَ ذاتِك، وانصرفتَ إلى إدانةِ أخيكَ، لأنّه أظهرَ مرضًا مخبّأً في داخلِكَ، وأنتَ تجهَلُهُ حتّى الآن؟

اقتَدِ بالمسيحِ الّذي لم يَكُنْ يَرُدُّ على مَن يَسخرونَ منه، واحتمَلَ الألَمَ، من دونِ أنْ يُوَجِّهَ التّهديدات[٢٦]. إسمَعْهُ يقولُ ما طبّقَهُ عمليًّا: «أَسْلَمْتُ ظهري للضّاربينَ، وخَدَّيّ للنّاتفين. وجهي لم أستُرْهُ عن العارِ والبصاق»[٢٧]. وأنتِ، أيّتُها النّفسُ الشّقيّةُ، بسببِ إهانةٍ واحدةٍ تَجلِسينَ، وتُحيكينَ آلافَ الأفكارِ ضدَّ الأخِ الّذي أحسنَ إليكِ بهذا التّحقيرِ، ولا تَفهمينَ أنّك تَتآمَرينَ على ذاتِكِ، كما يَفعلُ الشّياطين. فما الّذي يُمكن أن يَفعلَه لكِ الشّيطانُ أكثرَ ممّا تَفعلينه أنتِ لذاتِك، أيّتها الجاهلةُ الشّقيّة؟»

ويَنتهي الشّيخُ إلى القولِ: «نتأمَّلُ صليبَ المسيحِ، ونقرَأُ يوميًّا عن الآلامِ الّتي احتملَها من أجلِنا، ولكنّنا نحنُ لا نحتمِلُ إهانةً واحدة. بالحقيقةِ، لقد حِدْنا عن الطّريقِ المُستقيم».

٥- قالَ أيضًا: «ولو عاشَ أحدٌ بقدرِ ما عاشَ ماتوشالح[٢٨]، ولكنّه لم يَمْشِ في الطّريقِ المُستقيمةِ، كما مشى القدّيسونَ جميعُهم، أي لم يصبِرْ بشجاعةٍ على الإهانةِ والظُّلمِ، فلن يَتقدَّمَ في أيّةِ فضيلةٍ، لا قليلاً، ولا كثيرًا، بل سيَصرِفُ سنيه باطلاً».

٦- قالَ الأبُ زوسيما أيضًا: «مرّةً سألَني أحدُ الإخوةِ: أيّها الأبُ، وصايا المسيحِ كثيرةٌ، وذِهني يُظْلِمُ، فلا أستطيعُ تذكّرَها كلّها. فَقُلْ لي ماذا

---

٢٦. ١ بط ٢، ٢٣.   ٢٧. أش ٥٠، ٦.   ٢٨. تك ٥، ٢١- ٢٧.

أفعل؟ أَجَبْتُه: «يا أخي، لا يُقلقنّكَ هذا الأمر. فَكِّرْ فيما سأقولُهُ لكَ، وتذكَّرْه قدرَ ما تَستطيعُ: إصبِرْ بطيبةِ خاطرٍ على كلِّ ما تَتَعَرَّضُ له، فتُنجِزَ الفضائلَ كلّها بسهولة. فأيُّ تعبٍ في أنْ تُصلّي من أجلِ مَن أحزنك؟ هل الأمرُ كأنّكَ تحفِرُ الأرضَ، أو تمشي في سَفَرٍ طويلٍ، أو تَشُقُّ البحرَ، أو تحتمِلُ خسارةَ الممتلكات؟ أشكُرِ اللّهَ عندما يُحقّرونَكَ، فتصيرَ تلميذَ الرّسلِ القدّيسينَ الّذينَ ذهَبوا فرِحينَ من أمامِ المجمعِ، لأنّهم حُسِبوا مُستأهِلينَ أن يُهانوا من أجلِ اسمِ المسيحِ[٢٩]، واحتمَلوا الإهانةَ من أجلِه، مع أنّهم طاهرون؛ أمّا نحن، فعلينا أن نقبَلَ الاحتقارَ بسببِ خطايانا. حتّى إنْ لم يُحَقِّرْنا أحدٌ، فنحنُ حقيرونَ ومَلعونونَ، كما يقولُ الكتابُ: «مَلعونونَ مَن يبتعدونَ عن وصاياك»[٣٠]. وليسَ نصيبُ الاحتقارِ من أجلِ المسيحِ للنّاسِ جميعًا، بل للقدّيسينَ والأطهارِ وحدِهم، كما قُلت. أمّا نحنُ، فيُناسبُنا أن نحتمِلَ الاحتقارَ والإهاناتِ الّتي تُوجَّهُ إلينا بامتِنانٍ، وأنْ نعترِفَ بأنّها تُصيبُنا بعدلٍ، بسببِ أعمالِنا الفاسدة.

أمّا نفسُنا البائسةُ، فرُغمَ مَعرِفتِها بأعمالِها القذرةِ، وبأنّها بعدلٍ تُعاني كلَّ ما تُعانيه، تَجلسُ وتَسخَرُ من ضميرِها، وتحيكُ أفكارًا ضدَّ الأخِ، قائلةً: «كلَّمَني باحتقارٍ، وأهانَني». وهذه النّفسُ الجاهلةُ الحمقاءُ لا تَشعُرُ أنّها تَتآمَرُ على ذاتِها، وتَعمَلُ عملَ الشّياطين.

الأمرُ كما يَحصَلُ في المِهَنِ: يُعَلِّمُ الحِرَفِيُّ فنَّ المهنةِ إلى المُبتدئِ، ثمّ يَترُكُهُ يعمَلُ لوحدِه، من دونِ أنْ يجلِسَ باستمرارٍ إلى جانِبِه، مُكتفيًا بأنْ يلقيَ عليه نظرةً، من وقتٍ إلى آخرَ، لئلاّ يُهمِلَ العملَ، أو يُفسِدَه. هكذا يَتَصَرَّفُ الشّياطينُ: إنْ رأَوا نفسًا تَخضَعُ لهم، وتَقْبَلُ الأفكارَ السّيّئةَ بسهولةٍ، يُعلِّموها فنَّهُم الشّيطانيَّ، أي شرَّهُم وخُبثَهُم، ولا يَعودوا بحاجةٍ إلى الجلوسِ بقربِها، إذ إنّهم يَعرفونَ أنّها تستطيعُ أن تَقَعَ في الفخِّ، وتَضيعَ من تلقاءِ ذاتِها. يكتَفونَ بزيارتِها، من وقتٍ إلى آخرَ، ليتحقَّقوا من عدمِ إهمالِها للعملِ الّذي عَهِدوا بِهِ إليها.

٧- قالَ أيضًا: «أيُّ شيءٍ أسهلُ من أنْ يحبَّ المرءُ النّاسَ جميعًا،

---

٢٩. أع ٥، ٤١.
٣٠. مز ١١٨، ٢١.

ويكونَ محبوبًا منهم جميعًا؟ أيّةُ راحةٍ لا نَجِدُها في وصايا المسيح؟ مع ذلكَ، لا تَميلُ حرّيّتُنا إليها. فلو فعلَتْ ذلك، لأصبحَ كلُّ شيءٍ سهلاً عليها، بنعمةِ اللّه. في الواقعِ، حركةٌ صغيرةٌ من إرادتِنا تجتذِبُ مساعدةَ اللّهِ، كما قلتُ مرارًا. لا تتطلَّبُ الفضيلةُ سوى إرادتِنا، كما قالَ القدّيسُ أنطونيوس. وليس ضروريًّا أن نبذُلَ قُصارى جهدِنا، لأنّ النّعمةَ الإلهيّةَ تؤازِرُنا في كلِّ شيء. أيّةُ راحةٍ لا يتمتَّعُ بها الوديعُ المتواضع؟ بالحقيقةِ، الودعاءُ سيرثونَ الأرض، ويَنعَمونَ بوفرةِ السّلام[٣١].

٨- هو نفسُه قالَ: «عاشَ معي أخٌ، وقد ألبسْتُهُ الإسكيمَ الرّهبانيَّ، بعد أنْ دَرّبْتُهُ بعنايةٍ كبيرةٍ على الصّلاح. وبما أنّ هذا الأخَ كانَ حسّاسًا، احتاجَ إلى الكثيرِ من العنايةِ والتّفهّمِ من ناحيتي، بسببِ ضعفِه. أتاني يومًا قائلاً: «يا أبتِ، أحبُّكَ كثيرًا». أجبْتُهُ: «لم أجِدْ بعدُ أحدًا يُحِبُّني، كما أحبُّهُ أنا. الآن تقولُ لي إنّكَ تُحِبُّني، وأنا أُصَدِّقُك. ولَكِنْ، إن حدثَ شيءٌ وأزعجَكَ، فلن تُحافِظَ على المشاعرِ ذاتِها، بينما أنا، سأبقى كما أنا تجاهَكَ، مهما يُصْبني منكَ، ولن يتمكّنَ شيءٌ من إضعافِ محبّتي لك».

وبعدَ وقتٍ قصيرٍ، ذهبَ الأخُ ليعيشَ في مكانٍ آخرَ، وكنتُ أجهَلُ ما حدثَ له. راحَ يتّهِمُني بجملةِ أعمالٍ سيّئةٍ، من ضمنِها ما هو مُشين. عندما أعلَموني بما يُلصِقُهُ بي من تُهَم، قلتُ لنفسي: «هذا الإنسانُ هو مكواةُ يسوع. أُرسِلَ إليّ لتُشفى نفسي من المجدِ الباطل. بالحقيقةِ، هو مُحسِنٌ إليّ». فكّرْتُ بهِ كطبيبٍ مُحسِن، وكنتُ أصلّي بصدقٍ من أجلِه، وكنتُ أجيبُ أولئك الّذينَ ينقُلونَ لي ادّعاءاتِه: «الأخُ يعرِفُ الظّاهرَ من أعمالي السيّئةِ، لَكِنْ ليسَ كلَّها، بل فقط جزءًا صغيرًا منها. هو يتكلّمُ فقط بتلكَ الّتي يعرِفُها. أمّا ما غَفَلَ عنها و خَفِيَ، فلا يُعَدّ».

وبعدَ وقتٍ، التقى بي هذا الأخُ في قيصريّة. أتى إليّ، وعانقَني حسبَ عادتِه، وحيّاني بحرارة. فبادلْتُهُ بالمثلِ كأنَّ شيئًا لم يكن. ولم يحدُثْ هذا الأمرُ

٣١. مز ٣٦، ١١. أنظر مت ٥، ٥.

مرّةً أو اثنتيْن فحسبُ، بل مرّاتٍ كثيرة. وهكذا فيما استمرَّ يتّهِمُني بأفعالٍ مُشينةٍ، كانَ يُقبِّلُني بفيضِ حَنانٍ، لدى لقائِهِ بي. من جِهتي، لم أرمُقْهُ بأدنى نظرةٍ سيّئةٍ، ولم أظهِرْ له أيَّ أثرٍ للعدائيّةِ، على الرّغمِ من أنّه، كما قلتُ، لم يَكُنْ يفُتْني شيءٌ ممّا يقولُهُ عنّي.

وفي مرّةٍ لاحقةٍ، ركضَ نحوي حينَ رآني، وسقطَ عند قدمَيَّ، قائلاً لي: «سامِحْني، يا أبتِ، من أجلِ المسيحِ، لأنّني اتّهمْتُكَ بِكَمٍّ من الأفعالِ السّيّئة». فأنهضتُهُ، وقبّلْتُهُ بحرارةٍ، قائلاً له بابتسامةٍ: «هل تَذكُرُ، أيّها المباركُ، عندما قُلتَ لي إنّك تحبُّني كثيراً، وأجَبْتُكَ بأنّني لم أجِدْ بعد أحدًا يحبُّني، كما أحبُّهُ أنا؟ هل تَذكُرُ الأشياءَ الأخرى، الّتي قلتُها لك؟ فاعلَمْ أنّه لم يَفُتْني شيءٌ من أقوالِك. علِمْتُ بكلِّ ما قُلتَهُ، ولِمَن قُلْتَهُ، وأينَ قُلْتَه. مع ذلك، لم أدحَضِ اتّهاماتِكَ، ولم ينجَحْ أحدٌ في جعلِي أقولُ شيئًا سيّئًا ضدّك. على العكسِ، أكّدتُ، لمن نَقلوا إليّ افتراءاتِكَ، صحّةَ كلامِكَ، وأنّك تقولُها بداعي المحبّةِ، حاسبًا إيّاي صديقَكَ الحميم. ولم أتوقّفْ عن ذكرِكِ في صلواتي، وإليكَ بُرهانٌ آخرُ عن المحبّةِ الّتي أكُنُّها لك: ذاتَ مرّةٍ، آلمَتْني عيني كثيراً، وتذكَّرْتُكَ، فرسمتُ إشارةَ الصّليبِ، قائلاً: يا ربّي يسوعَ المسيحَ، بصلواتِ هذا الأخِ، اشفِني. وللحالِ تعافَيتُ». منذ ذلك الحينِ، اكتسَبَ الأخُ ثقةً مُطلَقَةً بي، وكفَّ عن اغتيابي، وأظهرَ نحوي كثيرًا من الإكرامِ والمحبّة». وانتهى الشّيخُ إلى القَولِ: «لا نعرِفُ، لا أنْ نحبَّ، ولا أنْ نُكَرِّمَ أحدُنا الآخرَ، ولم نَعُدْ نتصرَّفُ بتعقّل. في الواقعِ، عندما يغضَبُ أخٌ، بتحريضٍ من العدوِّ، ويُعادي أخاه، فيحتَمِلُه هذا الأخيرُ بصبرٍ، يعودُ الأوّلُ سريعًا إلى رُشدِه، مُدركًا عدمَ شماتةِ الأخِ وصبرَه. إذ ذاك، يشعُرُ بامتنانٍ شديدٍ، ومحبّةٍ كبيرةٍ له، إلى حدِّ أنّه يكونُ مستَعِدًّا للتّضحيةِ بنفسِهِ من أجلِه.

٩- أخبرَ الأبُ زوسيما أيضًا عن شيخٍ آخرَ: «كانَ هُناك شيخٌ وديعٌ جدًّا، تُكَرِّمُه المنطقةُ بأسرِها، وتحترِمُهُ كملاكِ اللّهِ، بسببِ فضيلتِهِ الكبيرةِ، والعجائبِ الّتي يَجترِحُها. كانَ يعيشُ بالقربِ منه أخٌ يستفيدُ كثيراً من إرشادِهِ الرّوحيّ. لَكِنْ ذاتَ يومٍ، حرَّضَهُ العدوُّ، فذهبَ إلى الشّيخِ فيما كانَ محاطًا

بجمعٍ كبيرٍ من النّاسِ، ووجّهَ إليه شتائمَ قاسية. فتوقّفَ الشّيخُ، وقالَ له بحذرٍ: «نعمةُ اللّهِ على فمِكَ، يا أخي». فغضِبَ عليهِ أكثر، وصاحَ: «نعم، أيّها الحقيرُ النّهمُ، تقولُ هذا لتَظهرَ وَديعًا». أجابَهُ الشّيخُ: «بالفعلِ، يا أخي، ما تقولُهُ صحيح».

لاحقًا، سألَهُ أحدُ الحاضرين: «ألم تضطربْ في تلكَ السّاعة، أيّها الشّيخُ الصّالح؟» أجابَ: «لا، بل شعرتُ كأنَّ المسيحَ يُظلِّلُ نفسي». حقًّا، كما قلتُ مرارًا، يليقُ بالمرءِ أنْ يشكُرَ هؤلاءِ الّذينَ يَتصرّفونَ على هذا النّحوِ، وإن كانَ ذا أهواءٍ، فَلْيَرَ فيهم أطبّاءَ يَشفونَ جراحاتِ نفسِه. أمّا إذا خَلا من الأهواءِ، فليعتَبِرْهُم مُحسنينَ، لأنّهم يُربِحونَهُ ملكوتَ السّماوات.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ شيخٌ: «إنْ كنّا أبناءَ الرّسلِ القدّيسينَ، كما يُشدِّدُ بولسُ: «لأنّي أنا وَلدتُكُم في المسيحِ يسوعَ بالإنجيل»[٣٢]، فَعَلينا نحنُ الأولادَ، أنْ نتصرّفَ مثلَهم. فالرّسلُ فرحوا عندما جُلِدوا، وبَقوا من دونِ اضطرابٍ عندما وشى بهم الوثنيّونَ واليهودُ، قائلينَ عنهم: «هؤلاءِ أثاروا المسكونةَ بسحرِهِم وخداعِهِم»[٣٣]. في هذا كلِّه وسواه، لم يَحْزَنوا، لا بل فَرِحوا أيضًا. لهذا كانوا يفتخرونَ، ويصرّحونَ: «نُشتَمُ فنُبارِك. نُضطهَدُ فنحتَمِل...»[٣٤]...

هذا كلُّه كُتِبَ، كي نقتديَ بهم، نحن أيضًا. فإذا تألّمْنا، أو سمِعْنا أشياءَ مماثلةً، علينا، من جهةٍ، أن نفرَحَ لأنّنا حَصَلْنا على ربحٍ عظيمٍ، وصِرنا مشاركي الرّسلِ القدّيسينَ والشّهداءِ، ومن جهةٍ أخرى، علينا أن ننتظرَ اختباراتٍ أقسى بحيثُ أنّنا، بالانتصارِ عليها، نُبرهِنُ عن قرابتِنا الحقيقيّةِ لهم، ونربَحُ خيراتٍ أكبرَ، صائرينَ مشاركينَ لهم في المجدِ الأبديِّ في السّماوات.

٢- مَدَحَ بعضُ الإخوةِ راهبًا أمامَ الأبِ أنطونيوس. وعندما زارَهُ هذا الرّاهبُ، امتحَنَهُ الأبُ أنطونيوسُ ليرى هل يحتَمِلُ سوءَ المعاملة. وعندما فَهِمَ

---

٣٢. ١ كور ٤، ١٥.   ٣٣. أع ١٧، ٦.   ٣٤. ١ كور ٤، ١٢- ١٣.

أنّه غيرُ قادرٍ على ذلك، قالَ له: «أنتَ تُشبِهُ قريةً مَظهَرُها جميلٌ من الأمامِ، ولكنّها من الخلفِ، مسلوبةٌ من اللّصوص».

٣- يُحكى عن شيخٍ يعيشُ كهدوئيٍّ، ويخدِمُه علمانيٌّ مؤمنٌ لديه ابن. حَدَثَ، مرّةً، أنْ مَرِضَ ابنُ العلمانيِّ، فتوسّلَ إلى الشّيخِ كثيرًا أن يقبَلَ المجيءَ إليهِ، للصّلاةِ من أجلِ الولد. فنهضَ الشّيخُ، وتبِعَه. لكنَّ العلمانيَّ تقدَّمَهُ مُسرِعًا إلى بيتِهِ، حيثُ جَمَعَ أقاربَه وجيرانَه كافّةً، قائلاً: «تعالَوا نستقبلِ المتوحّدَ، ونواكبْه»، فذهبوا جميعُهم. عندما رآهُم الشّيخُ، آتينَ من بعيدٍ بمشاعلَ، فَهِمَ ما حصل. فخلعَ ملابسَه، وغطّسَها في النّهرِ، وبدأَ يغسِلُها وهو عارٍ. وعند رؤيتِهِ في هذه الهيئةِ، خَجِلَ العلمانيُّ الّذي يخدِمُهُ، وتوسَّلَ إلى النّاسِ أن يعودوا من حيثُ أتَوا، قائلاً إنّ الشّيخَ فقدَ عقلَه. ثمّ اقتربَ منه، وسألَه: «يا أبتِ، لماذا تصرّفتَ بطريقةٍ تُعْثِرُ النّاسَ جميعًا؟ فكلُّ الّذينَ رأَوك، قالوا إنّ الشّيخَ فيه شيطان». فأجابَهُ الشّيخُ: «هذا تمامًا ما أردتُ سماعَه».



الفصل الثّالث

لا يوافقُ أن يبقى المرءُ بطّالًا، بل أن يعملَ، حتّى جسديًّا. والبطالةُ سببُ رذائلَ كثيرة.

- عن بالاديوس -

يُقالُ إنّ البارَّ بامبو، عندما كانَ يُحتَضَرُ، قالَ للآباءِ القدّيسينَ المجتمعينَ حولَ سريرِه: «مُذْ أتيتُ إلى هذه الصّحراءِ، وبَنَيْتُ فيها قلّايتي، وسكنْتُ فيها، لم أُمضِ يومًا من دونِ إتمامِ عملي اليدويِّ، ولا أتذكّرُ حتّى أنّني ثقّلتُ على أحدٍ بغذائي».

- عنه نفسه -

في غلاطية، التقيتُ بالأسقفِ الفاضلِ فيلوروموس وبقيتُ دائمًا برفقته. وهو رجلٌ مُثابرٌ جدًّا، وناسكٌ كبير. أبدى باسيليوسُ الكبيرُ اهتمامًا كبيرًا تجاهَه، مُعجَبًا بصرامتِهِ، وجدّيّتِهِ، واجتهادِهِ في العمل. لم يُهمِلْ فيلوروموس الرّيشةَ والدّفترَ، حتّى الآن، وقد بلغَ الثّمانينَ من عُمره. قالَ هذا المبارَكُ: «منذُ معموديّتي وحتّى السّاعةِ الحاضرةِ، لم أُثَقِّلْ على أحدٍ بغذائي. بل على العكسِ، تصدّقتُ بعشرينَ قطعةَ نقودٍ ذهبيّةٍ للبُرْصِ، ممّا اكتسبْتُهُ من عملي اليدويِّ».

ذاتَ مرّةٍ، سافرَ فيلوروموس سيرًا على الأقدامِ إلى روما والإسكندريّةِ، ليسجُدَ عند قبورِ الرّسلِ القدّيسينَ، ومرّتَيْنِ إلى أورشليم، ليصلّيَ ويسجُدَ في الأماكنِ المُقدّسةِ، معتمِدًا على نفقتِهِ الخاصّة. قالَ لنا لأجلِ بُنيانِنا: «لا أتذكّرُ أبدًا أنّ ذهني ابتعدَ عنِ الله».

- عنه نفسه -

كانَ، في جبلِ النّطرونِ، كنيسةٌ فسيحةٌ، وبالقربِ منها فندقٌ يُستقبَلُ فيه الغرباءُ الرّاغبونَ بالعيشِ قربَ الرّهبانِ، قدرَ ما يشاؤونَ، إلى أن يقرِّروا الرّحيلَ من تلقاءِ أنفسِهِم.

اعتادَ الرّهبانُ أن يتركوا الزّوّارَ، من دونِ عملٍ، لمدّةِ أسبوع. بعد ذلك، كانوا يُوكِلونَ إليهم المهمّاتِ المختلفةَ، إمّا في الحديقةِ، وإمّا في الفرنِ، وإمّا في المطبخِ، ويُعطونَهم أيضًا كتابًا للمُطالعةِ، من دونِ السّماحِ لهم بالتّعاطي مع أحدٍ، قبلَ السّاعةِ السّادسة. هناك، كانَ الرّهبانُ يَنسجونَ الكتّانَ، وهذا كانَ عملَهم اليدويَّ الّذي يَكفيهم مَعيشَتَهُم.

- من حياةِ القدّيس إفثيميوس -

كانَ القدّيسُ إفثيميوسُ الكبيرُ يُعلِّمُ تلاميذَه أنّ مَن يُنكِرونَ العالَمَ والعالميّاتِ عليهم أنْ يهتَمّوا دائمًا بالطّاعةِ والتّواضُعِ، وألاّ يمتَثِلوا لمشيئتِهِم الخاصّةِ، وألاّ يوفِّروا جهدًا، في كلِّ وقتٍ، لإتمامِ عملِهِم اليدويِّ، وسائرِ الأعمالِ، خاصّةً عندما يكونونَ شبّانًا، ومُندَفِعينَ بسبِبِ سنِّهِم. في الواقعِ، هم يحتاجونَ في سنِّهِم هذه أن يُتْعِبوا جسدَهُم بِجهدٍ كبيرٍ، وعملٍ شاقٍّ، حِرصًا على نفوسِهِم، بحيثُ يصيرُ جسدُهم مِطواعًا للعقلِ، وتهدأُ حماسةُ الشّبابِ فيهم. هكذا، يَصيرونَ مُقتدينَ ببولسَ الرّسولِ، وحافظِينَ للنّواميسِ الّتي سنَّها. في الواقعِ، علينا ألاّ نكتفيَ بالقضاءِ على البطالةِ، الّتي تجعلُ الكسولَ والمتهاملَ غيرَ مستحقٍّ للطّعامِ - كما يقولُ الرّسولُ: «مَن لا يتعَبْ عاملاً، لا يستحِقَّ الطّعام»[٣٥]-، بل يجبُ أنْ نجعلَ أيدينا كَيَدَيْ بولسَ، الّذي يَقولُ: «هاتانِ اليدانِ كانتا تخدمانِ من أجلِ حاجاتي، وحاجاتِ من كانَ معي»[٣٦]. بالإضافةِ إلى ذلك، سيكونُ من الغريبِ أنْ يغذّي عامّةُ النّاسِ، بعملِ أيديهم، نساءً وأولادًا وبيوتًا، وأنْ يَدفَعوا ضرائبَهم السّنويّةَ، وأنْ يُقدِّموا للّهِ بواكيرَ أتعابِهِم، وصدقاتٍ قدرَ استطاعتِهِم، فيما نحنُ لا نُشارِكُ الآخرينَ ثمرَ أعمالِنا

٣٥. بحسبِ ٢ تس ٣، ١٠.

٣٦. بحسبِ أع ٢٠، ٣٤.

اليدويّة.

- من حياةِ القدّيس سابا -

عندما كانَ الأبُ سابا الكبيرُ شابًّا يعيشُ في دير «فلافياني»، لم تكن يداه بطّالتيْن إطلاقًا. فعندما لا يرفعُهما نحوَ اللّهِ بالصّلاةِ، يُتِمُّ بهما عملاً ما، لئلاّ يتراخى ذهنُه للحظةٍ واحدةٍ، فيتمكّنَ العدوُّ من أن ينسلَّ خفيةً، من دونِ أن ينتبِهَ إليه. هذا ما جعلَه يُمارسُ الفضيلةَ، بسهولةٍ كبيرة. لقد تخطّى، بالطّاعةِ والتّواضعِ وسائرِ الفضائلِ الإنجيليّةِ، تلك الأخويّةَ كلَّها الّتي كانَ عددُها سبعينَ راهبًا تقريبًا.

لاحقًا، غادرَ ذلك المكانَ برضى رئيسِ ديرِه، الّذي رافقَهُ بصلواتِه، وذهبَ إلى أورشليم. هناك، التقى بإفثيميوسَ الكبيرِ، الّذي كانَ ذاهبًا إلى الكنيسةِ، حسبَ عادته. ارتمى سابا على قدمَيْه، وتوسّلَ إليه بدموعٍ أن يضمَّه إلى قطيعِه الرّوحيِّ، ويَخضَعَ له برفقةِ رهبانٍ آخرين.

إفثيميوسُ الكبيرُ، الّذي تميّزَ في تربيتِهِ ومعالجتِهِ لحالاتٍ كهذه، إذ إنّه اجتازَ بنفسه اختباراتِ الجهاداتِ الرّوحيّةِ، ميّزَ شبابَ سابا، وخَشِيَ أن يكون استعدادُهُ حماسًا عابرًا، تَنقُصُهُ الجدّيّةُ النّاتجةُ عن التّفكيرِ العميق. لذلك، لم يسمَحْ له بالسّكنِ في لافرا الرّهبانِ، قبلَ أن يخضعَ للتّدريبِ الرّهبانيِّ في ديرِ شَركةٍ، ويُظهرَ فيه الدّقّةَ المطلوبة. قالَ له: «يا بُنيَّ، من المستحيلِ أن تسكنَ في اللاّفرا، وأنتَ ما زلتَ شابًّا. في الواقعِ، هذا لا يُفيد الرّهبانَ في اللاّفرا، ولا يُناسبُك. إن أردتَ اتّباعَ نصيحتي، فاذهَبِ الآنَ إلى الدّيرِ في الأسفلِ، إلى الأبِ ثيوكتيستوس، وأنا متأكّدٌ من أنّكَ ستستفيد كثيراً إلى جانبه».

قَبِلَ المغبوطُ سابا بذلك، لأنّه تمرّس على الطّاعةِ أكثرَ من سائرِ الفضائلِ، ووعدَ بحماسةٍ بإتمامِ كلِّ ما سيُطلَبُ منه. وأضافَ: «هذا ما أردتُه تمامًا. لذا، لجأتُ إليكَ، كي أخلُصَ تحتَ إرشادِك». وللحالِ، أرسلَهُ القدّيسُ إفثيميوس إلى المغبوطِ ثيوكتيستوس، طالبًا إليه أن يعتنيَ به جيّدًا، لأنّه، كما قالَ، رأى نعمةَ الرّوحِ قد انسكبَتْ بوفرةٍ على الشّابِّ، وأنَّ شهرتَه ستملأُ المسكونةَ بأسرِها عمّا قريب. هذا ما أظهرَهُ مجرى الأحداثِ، وتحقّقَتْ

نبوءته.

هكذا، صارَ القدّيسُ سابا تلميذًا للمغبوطِ ثيوكتيستوس، وأسلمَ ذاتَهُ إلى اللّهِ كلّيًا، بصدقٍ تامّ. وامتلكَهُ الشّوقُ الإلهيُّ أكثرَ فأكثر. وبما أنّه عرفَ أنّه إنسانٌ مركّبٌ، أي مصنوعٌ من نفسٍ وجسدٍ، مارسَ نسكًا مضاعفًا، حينًا يُخضِعُ جسدَه بالتّعبِ، وحينًا نفسَه؛ من جهةٍ، يُمضي النّهارَ في أتعابٍ جسديّةٍ، ومن جهةٍ أخرى، يُمضي اللّيلَ في أسهارٍ وصلوات. أحيانًا، يذهبُ لجلبِ الماءِ، وأحيانًا أخرى، ينقلُ الخشبَ، متجاوزًا بأعمالِه الرّهبانَ جميعًا. فإلى جانبِ شجاعتِه النّفسيّةِ، تمتّعَ بالهَيبةِ الخارجيّةِ، والصّلابةِ التّامّة. تسلّمَ مهمّاتٍ مختلفةً، ومنها الاعتناءُ بالحمير. إلى جانبِ ذلك، اعتادَ أن يكونَ أوّلَ الذّاهبينَ إلى الكنيسةِ، وآخِرَ الخارجينَ منها، مشاركًا بحماسةٍ في الخِدمِ الإلهيّة. وفوقَ كلِّ ذلك، اعتبرَ الطّاعةَ والانضباطَ في جميعِ أعمالِه أساسيَّيْن ومقدّسَيْن. فأُعجبَ به الرّهبانُ جميعُهم، لأنّه تزيّنَ، وهو بعدُ في هذا العمرِ الفتيِّ، بإكليلِ الفضائلِ والكمال.

- من حياةِ القدّيسِ الشّهيدِ في الكهنة لوكيانوس -

صبا لوكيانوسُ الكبيرُ، منذ شبابِه، إلى الحياةِ الرّهبانيّة. باكرًا جدًّا، حاربَ ملذّاتِ الجسدِ كلَّها، وعكفَ على الأصوامِ والصّلواتِ المستمرّة. بهذه الطّريقةِ، أخضعَ جسدَهُ للرّوحِ، في وقتٍ قصير. زاولَ النّسخ. وكانَ يُحصِّلُ قوتَهُ، ويُحسنُ إلى الفقراءِ بما يكسِبُهُ من عملِه، فقد وجدَه من الظّلمِ أن يتغذّى وحدَه، من دونِ أن يُعطيَ الفقراءَ أيضًا من تعبِه.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- ذاتَ يومٍ، ذهبَ الأبُ عمواسُ والأبُ بيتيميوسُ إلى الأبِ أخيلاسَ في الغداةِ باكرًا. وجداه مشغولاً بحياكةِ الحبالِ، فسألاه أن يقولَ لهما كلمةً مُفيدةً، فقالَ لهما: «منذ مساءِ أمسِ، وحتّى الآن، ضفرتُ عشرينَ ضفيرةً، وفي الحقيقةِ، لستُ بحاجةٍ إليها البتّةَ، ولكنّني أخافُ أن يغضبَ اللّهُ منّي ويتّهمَني قائلاً: لماذا لم تعملْ وأنتَ قادرٌ على ذلك؟ هاكما لِمَ أتعبُ، وأعملُ

قدرَ طاقتي». وانصرفَ الزّائرانِ منتفعَيْن.

٢- زارَ أخٌ الأبَ سلوانَ في جبلِ سيناءَ، فلمّا رأى الإخوةَ يعملونَ، قالَ للشّيخِ: «لا تَعملوا للطّعامِ الفاني. فعلاً، لقد اختارَتْ مريمُ النّصيبَ الصّالحَ، كما قالَ المخلّص»[٣٧]. حينئذٍ، قالَ الشّيخُ لتلميذِهِ زخريّا: «أعطِ هذا الأخَ كتابًا، وضَعْهُ في قلّايةٍ فارغة». ففعلَ التّلميذُ كما أُمِرَ. وعندما أتَتِ السّاعةُ التّاسعةُ، حدّقَ الأخُ الآتي من الخارجِ بالبابِ، مُنتظرًا أن يُرسلوا في دعوتِه إلى المائدة. وبما أنّ أحدًا لم ينادِه، قامَ وذهبَ إلى الشّيخِ، وسألَه: «ألَمْ يأكلِ الإخوةُ اليومَ، يا أبتِ؟» أجابَهُ الشّيخُ: «بلى». سألَ الأخُ: «لماذا لم تدعوني؟» أجابَهُ الشّيخُ: «لأنّك رجلٌ روحانيٌّ، ولا تحتاجُ إلى هذا الطّعام. أمّا نحن، فما زلنا جسديّينَ نحتاجُ إلى الطّعامِ، ولهذا نعمل. أنتَ اخترتَ النّصيبَ الصّالحَ؛ تقرأُ طولَ النّهارِ، وترفضُ أكلَ الطّعامِ المادّيّ». عند سَماعِهِ هذا الكلامَ، صنعَ الأخُ مطّانيّةً، قائلاً: «سامِحْني، يا أبتِ». قالَ له الشّيخُ: «على أيِّ حالٍ، مريمُ نفسُها تحتاجُ إلى مرتا، ولولا مرتا لَما مُدِحَتْ مريم».

٣- كانَ راهبٌ يعملُ في نهارِ عيدِ شهيد. عندما رآه راهبٌ آخرُ، قالَ له: «هل يجوزُ أن تعملَ اليوم؟» أجابَ: «في هذا اليومِ، عُذِّب خادمُ اللّهِ، وتَرَكَ هذا العالمَ مُسْتَشْهِدًا. أفلا أتعبُ أنا اليومَ قليلاً في العمل؟»

٤- سُئل شيخٌ: «ماذا أفعلُ لأخلصَ؟» أجابَ الشّيخُ، وهو يَضفرُ الحبالَ، من دونِ أن يرفعَ رأسَه عن عملِه اليدويِّ: «إفعَلْ كما ترى».

٥- أتى شيخٌ إلى النّهرِ، ووجدَ إلى جانبِه فسحةً مُحاطةً بالقصبِ، فجلسَ هناك. أخذَ يقطفُ أوراقَ القصبِ من النّهرِ، ويضفرُ حبلاً، ثمّ يرميه في النّهر. وبقي كذلك إلى أن أتى أناسٌ ورأَوه. حينئذٍ، قامَ ورحل. فهو لم يَعمَلْ

---

٣٧. يو ٦، ٢٧؛ لو ١٠، ٤٢.

بسببِ حاجتِه، إنّما من أجلِ التّعبِ والهدوئيّة.

٦- قالَ شيخٌ: «حالما تستيقظُ، في الصّباحِ الباكرِ، قُلْ لنفسِك: «يا جسدُ، اتعَبْ لتتغذّى؛ ويا نفسُ، تيقّظي لترثي ملكوتَ اللّه».

٧- يُقالُ عن الأبِ يوحنّا كولوفوس إنّه، عندما كانَ شابًّا، قالَ لأخيهِ الأكبرِ: «أودُّ أن أكونَ بلا همٍّ كالملائكةِ الّذينَ لا يهتمّونَ بشيءٍ، ولا يعمَلونَ عملاً آخر سوى تقديمِ العبادةِ المستمرّةِ للّه». وعلى هذا الكلامِ، خلعَ ثوبَهُ[٣٨]، وخرجَ إلى الصّحراء. بقي هناك أسبوعًا، ثمّ عادَ إلى أخيه. عندما قرعَ البابَ، سمعَهُ أخوه من الدّاخلِ، وسألَهُ قبلَ أن يفتحَ: «من الطّارق؟» أجابَ: «أنا يوحنّا أخوك». فقالَ له، وهو لا يزال في الدّاخلِ: «لقد أصبحَ يوحنّا ملاكًا، ولم يَعُدْ بينَ البشر». أمّا هو، فتوسّلَ إليه كثيرًا، قائلاً: «أنا هو». ولكنّ أخاه لم يفتحْ له، وتركَهُ يُعاني حتّى الصّباح. أخيرًا، فتحَ البابَ، وقالَ له: «أنت إنسانٌ، ولا تزالُ بحاجةٍ إلى العملِ من أجلِ الغذاء». فعملَ يوحنّا مطّانيّةً، قائلاً: «سامحْني».

٨ - قالَ شيخٌ: «البطّالُ والكسولُ اثنانِ لا يُريدهما اللّه».

- عن القدّيسِ أفرام -

يا أخي، لا تُهمِلْ عملَكَ اليدويَّ، لأنَّ الفكرَ كثيرًا ما يُملي عليكَ أنّكَ لن تستطيعَ أبدًا تعلّمَ هذا العملِ اليدويّ. سيقولُ لكَ: أنتَ ضعيفٌ ومُهمِلٌ، ولن تستطيعَ احتمالَ صعوبتِهِ حتّى النّهاية؛ أُنظرْ كيف بدأَتْ أطرافُكَ تُعاني من الشّقاءِ والتّعبِ، بسببِ عدمِ اعتيادِكَ على بذلِ الجهود. فاهرُبْ وارجِعْ من حيثُ أتيتَ لأنّك ستخلُصُ، هناك أيضًا، إن أردْتَ أن تعيشَ بمخافةِ اللّه. أمّا أنتَ، يا أخي، فلا تفقِدْ شجاعتَكَ تجاهَ أفكارٍ كهذه، بل انتظِرِ الرّبَّ بصبرٍ،

---

٣٨. بهذا العملِ الرّمزيّ، أرادَ أن يُظهِرَ تجرُّدَهُ الكاملَ عن المادّة.

هو الّذي دعاك إلى ملكوتِه، لأنّه قالَ: «بصبرِكُم تَقْتَنونَ نفوسَكم»[٣٩]، وأيضًا: «إن كانَ لكم إيمانٌ كحبّةِ خَردلٍ، وقلتُم لهذا الجبلِ انْتَقِلْ، فسينتقلُ، ولا يستحيلُ عليكم شيء»[٤٠]. فلنصبِرْ إذًا، أيّها الأخُ الحبيب. فنحن لم نضَعْ رجاءَنا في إنسانٍ غيرِ قادرٍ أن يُخلّصَ، بل في الرّبِّ الّذي يُخَلِّصُ مَن يضعونَ رجاءَهم فيه. إن كنتَ تتعلّمُ لغةً ما، أفلن تصبِرَ على التّعب؟ وإن كنتَ تتعلّمُ صنعةً ما، أفلن تصبِرَ على الشّقاء؟ أمَا علينا، بالأحرى، أن نصبِرَ على كلِّ شيءٍ، من أجلِ الرّبّ؟ فالكتابُ يقولُ: «أنتَ تأكُلُ من أثمارِ أتعابِكَ، فطوبى لك، ويا بُشراك»[٤١]. ويوصي الرّسولُ أن نعملَ بشرفٍ بأيدينا[٤٢]، بحيثُ لا يحصُلُ العاملُ وحدَه على الطّعامِ، بل بالحريِّ، يُعطي المحتاجَ من أتعابِه[٤٣]. فمَن يكرَهُ العملَ، سيتدخّلُ في شؤونِ الآخرينَ لمعرفةِ ما يفعلونَه[٤٤]- لأنّ البطالةَ تُعلِّمُ كلَّ شرٍّ[٤٥]-، بينما من يُحِبُّ العملَ يبقى من دونِ أحزان.

أيّها الأخُ الحبيبُ، إن اخترتَ لنفسِكَ إحدى ممارساتِ التّقوى[٤٦]، فانتبِهْ ألاّ يدسَّ لكَ الشّرّيرُ، من خلالِه، فكرَ تكبّرٍ، أو فكرَ مجدٍ باطلٍ، يَدفعُكَ إلى عدمِ العملِ مع إخوتِكَ، باعتبارِ أنّك تُفسِدُ التّقوى. على العكسِ، إعمَلْ كما يعمَلُ إخوتُكَ، وحافِظْ على تقواك. فالبطالةُ تَقضي على التّقوى، وتُشوِّهُ سُمعةَ مَن تتملّكُه. إجمَعْ إذًا التّقوى بالهِمّةِ في العملِ، وستُصبحُ بالفعلِ تقيًّا.

أيّها الحبيبُ، إن كنتَ في ديرِ شَركةٍ، وتتعَبُ في عملِكَ أكثرَ من الآخرينَ، فانتبِهْ ألاّ يجلبَ لك الشّرّيرُ فكرًا مليئًا بالمرارةِ السّامّةِ، ويدعَكَ تقولُ في داخلِك: «عملي يجلِبُ ربحًا وفيرًا، ولكنّ طعامي ليس كافيًا». ثمّ يستحثُّكَ على السّعيِ للحصولِ على طعامٍ أوفرَ، وأفضلَ من طعامِ الإخوةِ الآخرينَ، كيما بذلك يُبيدَ عملَكَ الرّوحيّ. إن انشغَلَ ذهنُك دائمًا بحساباتٍ كهذه، فلن تسلكَ سبيلَ المحبّةِ، لأسبابٍ كثيرة. وعلاوةً على ذلك، عندما تبحَثُ عن مكافأةٍ بشريّةٍ، تفقِدُ مكافأةَ اللّه.

إن انتظرتَ من اللّهِ المكافأةَ، فلا تَرغبْ في تلك الّتي يُعطيها البشرُ،

---

٣٩. لو ٢١، ١٩.
٤٠. مت ١٧، ٢٠.
٤١. مز ١٢٧، ٢.
٤٢. ا تس٤، ١١.
٤٣. أف ٤، ٢٨.
٤٤. أنظر ٢ تس ٣، ١١.
٤٥. حكمة سيراخ ٣٣، ٢٨.
٤٦. هنا كلمة «تقوى» تعني ممارسةَ جهادٍ نسكيٍّ مُحَدَّد، مثل الصّوم، الصّلاة، إلى آخره.

بل اتّضِعْ أمامَ إخوتك، وافرَحْ بتأمُّلِكَ ثوابَ القاضي العادلِ، الّذي سيُعطي كلَّ واحدٍ حسبَ أعمالِه، وهو القائلُ لنا: «مَن هو الخادمُ الأمينُ اليَقِظ الّذي أقامَهُ سيِّدُهُ على خَدَمِه، ليعطيَهم الطّعامَ في حينه. طوبى لذلكَ العبدِ، الّذي إذا جاءَ سيِّدُه، يجدُهُ يفعلُ هكذا. الحقّ أقولُ لكم، إنّه يُقيمُه على جميعِ أموالِه»[47].

أعرفُ أيضًا أخًا آخرَ قال: «لَيْتَ اللّهَ يُبارِكُ عملي اليدويَّ، كي يعيلَ الدّيرَ كلّه. هذا كانَ ليُعطيَني فرحًا عارمًا، فأشكُرَ اللّهَ، الّذي قال: «بما أنّكم فعلتموهُ بأحدِ إخوتي هؤلاءِ الأصاغرِ، فبي فعلتُم»[48].

كانَ في أحدِ الأديارِ أخٌ آخرُ يشقى في العملِ، فصارَتِ الأفكارُ تحاربُهُ بسببِ تعبِه، ولكنّه قالَ في نفسِه: «أيّها العبدُ الشّرّيرُ، لقد اشتُريتَ، فما الّذي تستطيعُ فعلَهُ بعد؟» فأعطاه الرّبُّ الرّاحة.

مباركٌ هو الرّاهبُ، الّذي يحفَظُ وصايا الرّبِّ، ويعتني دائمًا بهذه الأمورِ الثّلاثةِ: الصّلاةِ، والعملِ، والتّأمّلِ، لأنّه مكتوبٌ: «كفّوا واعلموا أنّني أنا اللّه»[49]. وأيضًا: «فقيرٌ أنا، وفي الشّقاءِ منذ حداثتي»[50]. وأخيرًا: «سأتأمّلُ في ناموسِ اللّهِ ليلاً ونهارًا»[51].

أيّها الأخُ المحبوبُ، إن عشتَ مع إخوةٍ في ديرِ شَركةٍ، فاتّضِعْ بفكرِك، واخدُمْ إخوتَكَ في كلِّ شيءٍ، بحيثُ يكونُ تصرّفُكَ الصّالحُ درسًا للّذينَ يعيشونَ في التّراخي، حاثًّا نفوسَهم إلى عملِ الفضيلةِ، بمثالِك. فعندما يأمُرُكَ المسؤولونَ بالعملِ مع الإخوةِ، سارِعْ إليه بحماسةٍ، ولا تنتظِرْ أن يتقدّمَكَ الآخرون. لا تتجادَلْ والكسالى الّذينَ يضرّونَ نفوسَهم كثيرًا، ويُفسدونَها بإهمالِهم. أوّلاً، لأنّهم يستحقّونَ الإدانةَ، بسببِ عدمِ طاعتِهم، ومحبّتِهم لأنفسِهم، وبطالتِهم، وثانيًا، لأنّهم يُحرَمونَ من أجرِ عملِهم، وثالثًا - وهو الأسوأُ - لأنّهم يُعطونَ الآخرينَ فرصةً للتّذمّرِ، والاغتيابِ، والعصيان. وبسببِ الأضرارِ الّتي يُلحِقونَها بالآخرينَ، ستكونُ دينونتُهم أقسى.

إذًا، يا أخي، لا تُعِرْهم انتباهَكَ، فلا أحدَ يقولُ في وقتِ الحصادِ:

---

٤٧. مت ٢٤، ٤٥ -٤٧.	٤٨. مت ٢٥، ٤٠.	٤٩. مز ٤٥، ١١.
٥٠. مز ٨٧، ١٦.	٥١. مز ١، ٢.

«بما أنّ جاري لا يجمَعُ قمحَه، فأنا أيضًا، لن أجمَعَ قمحي». على العكسِ، كلُّ واحدٍ يجمَعُ غذاءً له ولماشيتِه في الوقتِ المُناسبِ، لئلاّ يُعْوِزَهُ شيءٌ، خلالَ فصلِ الشّتاء. إن أظهرْنا حماسةً كبيرةً في الأعمالِ الجسديّةِ، أفلا ينبغي الاجتهادُ أكثرَ في الحياةِ الرّوحيّة؟ كذلك، إن كنتَ ضعيفَ البُنيةِ، ولا تحتملُ عملاً شاقًّا كالعملِ في الحقولِ، فأظهِرْ حالتَكَ بصدقٍ للمسؤولينَ، فيخفّفَ هؤلاءِ عنك، عارفينَ ضعفَكَ وعدمَ قدرتِك. ولكن، لا تَدَعْهُم يُعفونَك منه كليًّا، بل توسّلْ إليهم قائلاً: «أريدُ أن أعملَ نصيبي برفقتِكم»، ثمّ اتعَبْ معهم بحسبِ القوّةِ الّتي منحَك إيّاها الرّبُّ، وسيكافئُكَ اللّهُ مكافأةً كبيرة.

- عن الأبِ أشعيا -

أيّها الأخُ، بناءً على وصيّةِ اللّهِ، انتبهْ ألاّ تهملَ عملَكَ اليدويَّ، إنّما كرّسْ ذاتَكَ لهذه المَهَمّةِ بخوفِ اللّهِ، لئلاّ تُخطئَ، من دونِ أن تعرفَ ذلك. في كلِّ مرّةٍ تتعلّمُ عملاً يدويًّا، قُلْ لمن يعلّمُكَ: «أظهِرْ محبّةً، وانظُرْ إن صنعتُ هذا جيّدًا أم لا». ولا تخجَلْ من تردادِ ذلك له. إن سكنتَ مع أحدِ الإخوةِ، وتوجّبَ عليه إتمامُ عملٍ مُرهقٍ، فاعمَلْ معه، ولا تُشفِقْ على جسدِكَ، ليبقى ضميرُكَ مُرتاحًا. لا تُقيِّمْ عملَ أخيك اليدويَّ، لتعرفَ إن كانَ يَعمَلُ أكثرَ منكَ، أو إن كنتَ تَعمَلُ أكثرَ منه. أغصُبْ ذاتَكَ على عملِك اليدويِّ، فيسكنَ خوفُ اللّهِ فيكَ، لأنّ البطالةَ موتٌ للنّفسِ، وانحطاطٌ لها.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- زارَ مرّةً الأبُ مكاريوسُ الكبيرُ الأبَ أنطونيوسَ في الجبل. عندما قَرَعَ البابَ، خَرَجَ أنطونيوسُ، وسألَه: «مَن أنتَ؟» أجابَ: «أنا مكاريوس». حالما سَمِعَهُ، عادَ أنطونيوسُ إلى الدّاخلِ، وأغلقَ البابَ، وتَرَكَهُ في الخارج. وبعد ساعاتٍ من امتحانِ صبرِه، فَتَحَ البابَ، وقالَ له بابتهاجٍ: «أرغبُ في رؤيتِكَ، منذ زمنٍ طويلٍ، لأنّني سمعْتُ عنكَ كثيرًا». ثمّ أضافَهُ، وأراحَهُ، لأنّه كانَ مُتعَبًا جدًّا. وعندَ المساءِ، بلّلَ الأبُ أنطونيوسُ لنفسِهِ سُعُفَ النّخيل. فطلبَ إليه الأبُ مكاريوسُ: «إسمحْ لي بأن أبلِّلَ لي أيضًا». أجابَ ذاك: «بَلِّلْ».

فأخذَ رُزْمَةً كبيرةً، وبَلَّلَها. ثمّ جلسا، وأخذا يَضفران، وهما يتحادثانِ حولَ خلاصِ النّفس. وكانَ الحبلُ، الّذي يَضفِرانِه، يتدلّى من النّافذةِ حتّى المغارة. عند حلولِ الفجرِ، رأى المغبوطُ أنطونيوسُ أنّ الحبلَ، الّذي صنعَهُ الأبُ مكاريوسُ، طويلٌ جدًّا، فقالَ: «قوّةٌ كبيرةٌ تَخْرُجُ من هاتَيْن اليدَيْن».

٢- إنّ هرطقةَ المُصَلّينَ لا تَسْمَحُ بالعملِ، وهي تُعلِّمُ وجوبَ الصّلاةِ باستمرارٍ، واحتقارِ العمل.

- عن القدّيسِ أفرام -

أيّها الرّاهبُ، لا تَدَّعِ المرضَ بسببِ الكسلِ، إذ إنّ الكتابَ المُقدّسَ يقولُ: «أعطيتَهم مُشتهى قلبِهم»[٥٢].

يا إخوةُ، لا نَحتقرَنَّ نعمةَ الرّبِّ الّذي يُعطينا القوّةَ على العملِ في سبيلِ الخير. وعندما نعمَلُ بمؤازرةِ نعمتِه، لنشكرَنَّ المسيحَ في كلِّ حين. يقولُ الكتابُ: «لنعمَلْ، لا للطّعامِ الفاني، بل للطّعامِ الباقي، للحياةِ الأبديّة»[٥٣]. لتعمَلْ يداكَ للخيرِ، حتّى يَجِدَ المُعوَزُ قوتًا. وجِّهْ قلبَكَ دومًا نحوَ اللّه. حينئذٍ، تَعمَلُ من أجلِ الطّعامِ الباقي، لا الفاني. فاجتهِدْ إذًا من دونِ توانٍ، أي لا تبقَ بطّالاً، لأنّ البطالةَ تعلّمُ رذائلَ جَمّة[٥٤].

---

٥٢. حسب مز ٧٧، ٢٩.

٥٣. يو ٦، ٢٧.

٥٤. أنظر حكمة سيراخ ٣٣، ٢٨.

الفصل الرّابع

الغايةُ من عملِ الرّاهبِ، وأنواعُ الأعمالِ الّتي يمكنُ أن يزاولَها وحدودَها.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- ذهبَ إخوةٌ لزيارةِ شيخٍ كبير. فقالَ هذا الأخيرُ للأوّلِ بينهم: «أيّها الأخُ، ما العملُ اليدويُّ الّذي تقومُ به؟» أجابَ: «أنا أضفرُ الحبلَ، يا أبتِ». فقال له الشّيخُ: «ليضفِرِ اللّهُ لكَ إكليلاً، يا بُنيَّ». ثمّ سألَ الثّاني: «وأنتَ، ماذا تعمَل؟» قالَ الأخُ: «ضفائر». قالَ الشّيخُ: «ليقوِّكَ اللّهُ، يا بُنيَّ». ثمّ توجّهَ إلى الثّالثِ: «وأنتَ، ماذا تعمَل؟» قالَ الأخُ: «غرابيل». قالَ الشّيخُ: «ليحفظْكَ اللّهُ، يا بُنيَّ». قالَ أيضًا للرّابعِ: «وأنتَ، ماذا تعمَل؟» أجابَ الأخُ: «أنا ناسخ». قالَ الشّيخُ: «أنتَ لديكَ العلم». أخيرًا، سألَ الخامسَ: «وأنتَ، ماذا تعمَل؟» قالَ الأخُ: «أنا أحيكُ النّسيج». قالَ له الشّيخُ: «أنا لا أتدخّلُ بهذا».

أرادَ الشّيخُ، بكلامِه، أن يُبيِّنَ بوضوحٍ أنّ من يَضْفِرُ الحبلَ، إذا كانَ يَقِظًا، يضفِرُ لنفسِهِ إكليلاً، بمعونةِ اللّه. ومَن يعملْ ضفائرَ تلزَمْه قوّةٌ، لأنّه عملٌ شاقّ. ومن يعملْ غرابيلَ، يحتَجْ أن يحفظَهُ اللّهُ، لأنّه يبيعُها في القرى. والنّاسخُ يحتاجُ أن يواضعَ قلبَه، لأنّه يمتهنُ عملاً يحملُ غيرَ اليقظينَ على الكبرياء. أمّا لذاك الّذي يحيكُ النّسيجَ، فقالَ إنّه لا يتدخّلُ بشأنِه، لأنَّ الأخَ يُتاجِرُ، ولا يُتمِّمُ عملاً رهبانيًّا. في الواقعِ، إن رأى المرءُ أحدَهم يجلبُ سلالاً من بعيدٍ، أو ضفائرَ، أو غرابيلَ، يَقُلْ: «هذا راهب». فعملُهُ اليدويُّ هو من الأعشابِ الجافّةِ الجاهزةِ للحرق. ولكن، إن رأى أحدًا يبيعُ النّسيجَ، يقُلْ: «ها قد وصلَ التّجّارُ، فهذا عملٌ يُمارَسُ في العالمِ، ولا يَنفَعُ غالبيّةَ النّاسِ، لا سيّما الرّهبان.

٢- في شبابِه، سألَ الأبُ يوحنّا الخصيُّ شيخًا: «كيف استطعتَ إتمامَ عملِ اللّهِ بسهولةٍ، فيما نحن لسنا قادرينَ على ذلك، حتّى بالجهدِ الجاهِد؟» أجابَ الشّيخُ: «نحن استطَعْنا ذلكَ، لأنّنا كنّا نجعلُ عملَ اللّهِ في الأساسِ، والحاجةَ الجسديّةَ دونَه أهمّيّة. أمّا أنتم، فبالعكسِ، تجعَلونَ الحاجةَ الجسديّةَ في الأساسِ، وعملَ اللّهِ دونَها أهمّيّة. لهذا تتعبون. في الواقعِ، إنّكم لا تَضعونَ نصبَ أعينِكم قولَ المُخلّصِ لتلاميذِه: «أطلبوا أوّلاً ملكوتَ اللّهِ، والباقي يُزادُ لكم»[٥٥].

٣- سألَ أخٌ شيخًا: «ماذا أفعل؟ فأنا أتضايقُ في العملِ اليدويِّ، لأنّني أحبُّ صنعَ الحبالِ، ولكنّني لا أستطيعُ ذلك». أجابَه الشّيخُ: «قالَ الأبُ سيسوي إنّه يجبُ ألاّ نقومَ بالعملِ الّذي يُرضينا».

٤- سألَ أخٌ الأبَ بياريه: «ماذا أفعلُ كي أخلص؟» أجابَهُ الشّيخُ: «اذهَبْ، ضيِّقْ على بطنِك، وقلِّلْ عملَك اليدويَّ، وامكُثْ في قلاّيتِك من دونِ أن تقلقَ، وستخلص». هذا يعني: عِشْ في الإمساكِ مُكتفيًا بالقليلِ، ولا تغتمَّ من شيء.

- عن القدّيسِ أفرام -

أيّها الأخُ، اسهَرْ بعنايةٍ فائقةٍ على ذاتِكَ، لأنَّ خبثَ العدوِّ زاخرٌ بالمكائدِ، وحِيَلَهُ متنوّعة. في بعضِ الأحيانِ، يوحي إليكَ المخادعُ بالتّهاملِ في عملِكَ اليدويِّ، ويُحارِبُكَ بالضّجرِ، كي يجعلَكَ تُهمِلُ عملَكَ، وتنشغلَ، عوضًا عنه، بأمورٍ غيرِ ملائمة. أو أيضًا، يجذِبُكَ خارجَ قلاّيتِك، بعدَ أن تكونَ قد أهملْتَ عملَكَ اليدويَّ، ويجعلُكَ تتسكّعُ هنا وهناك، على غيرِ هُدًى. لكنّكَ، إن قاومْتَه بالصّبرِ والتّأمّلِ، يُحارِبُكَ بطريقةٍ أخرى. يضَعُ فيكَ حماسةً مُفرِطةً في العملِ، بداعي هوى محبّةِ الفضّةِ، أو الطّمَعِ في الممتلكاتِ المادّيّةِ، ويُعطيكَ

٥٥. مت ٦، ٣٣.

القوّةَ كي تكدَّ في العملِ ليلاً ونهارًا، إلى حدِّ إيصالِكَ، إن أمكنَ، إلى إهمالِ الصّلاةِ، وعدمِ الذّهابِ إلى الكنيسة. عندما يُقرَعُ الجرسُ من أجلِ الصّلاةِ في الكنيسةِ، يُقنِعُكَ بأن تأتيَ آخرَ الكلّ. وعندما تُحَلُّ الصّلاةُ، يَدفَعُكَ إلى الخروجِ قبلَ الجميعِ، بسببِ الاندفاعِ للعمل. وهكذا، رويدًا رويدًا، يُسيطرُ عليكَ كلّيًّا، ويُعيدُكَ مخلوقًا مادّيًّا وأرضيًّا بالكلّيّة. فالكتابُ المُقدّسُ يقولُ: «لأنّ ما انغلَبَ منه أحدٌ، فهو له مستعبدٌ أيضًا»[56].

فأنتَ، يا أخي المحبوبَ، حالما تُدرِكُ وَسْوَسَةَ العدوِّ الخدّاعِ، لا تُطِعْه، إنّما افعَلْ كلَّ شيءٍ باعتدالٍ كما يليق. إعمَلْ باتّزانٍ، بحيثُ يُتاحُ لكَ الوقتُ للصّلاةِ والاشتراكِ في الخدمِ في الكنيسة. وهكذا، فالصّلاةُ الّتي تُقيمُها بإيمانٍ ستمنَحُكَ القوّةَ والنّعمةَ لكلِّ عملٍ صالحٍ.

لا نَرغبنَّ إلاّ في ما هو كافٍ للعيشِ، ولنبحَثْ عن الضّروريِّ، لا عن التّنعّم. أمّا إن سعَيْنا وراءَ التّنعّمِ والرّفاهيةِ، فسيكونُ تعبُنا مُضنيًا، ومسيرتُنا غيرَ ثابتةٍ، وضيقُنا مستمرًّا، وحياتُنا مليئةً بالاهتمامات. ولكنْ، يا إخوتي، أمرٌ واحدٌ ضروريٌّ، كما يقولُ الرّبّ. لا شيءَ أرفعُ ولا أكرمُ ولا أشرفُ من النّفس. فَلنُسارِعْ إلى خدمتِها، ولنهتمَّ بها ونوفِّرْ لها حاجاتِها، ولا نصرِفْ وقتَنا كلَّه في الاهتمامِ بالجسد.

عندما يَجوعُ الجسدُ، ويَطلبُ الغذاءَ، لنتذكَّرْ أنّ النّفسَ أيضًا تحتاجُ إلى غذاء. كما أنّ الجسدَ لا يستطيعُ العيشَ ما لم يتغذَّ، هكذا النّفسُ أيضًا، إن لم تتغذَّ بالحكمةِ الرّوحيّةِ، تَمُتْ. لذا، قالَ المخلّصُ: «ليسَ بالخبزِ وحدَه يحيا الإنسان»[57]. وأنتَ، كمدبّرٍ صالحٍ، أعطِ النّفسَ غذاءَها الخاصَّ، والجسدَ ما يُناسبُه. لا تَدَعْ نفسكَ تموتُ، إنّما غذِّها بالكلمةِ الإلهيّةِ، والمزاميرِ، والتّراتيلِ، والأغاني الرّوحيّةِ، والقراءةِ في الكتابِ المُقدّس؛ غذِّها بالصّومِ، والسّهرِ، والصّلاةِ، بالدّموعِ، والرّجاءِ، وتأمّلِ الخيراتِ الآتية. هذه الأمورُ، وما يُماثلُها، هي غذاءٌ وحياةٌ للنّفس.

إنتبهوا، يا إخوةُ، ألاّ يبقى أحدٌ من دونِ ثمر. فالرّسولُ يقولُ: «ما

---

٥٦. ٢بط ٢: ١٩.

٥٧. لو ١٠: ٤٢.

يزرعُه الإنسانُ، إيّاه يحصد. فمَن يزرعْ في حقلِ جسدِه مِتَعًا، وملذّاتٍ، وراحةً، فسيحصدُ منه فسادًا. أمّا مَن يزرعْ في حقلِ روحِهِ صلاةً، وصومًا، وسهرًا، فسيحصدُ منه حياةً أبديّة»[٥٨].

مَن لا يثبتْ في عملٍ يدويٍّ واحدٍ، فسيضنى في انشغالاتٍ غيرِ نافعة. الإنسانُ الّذي يُضيّعُ وقتَهُ سُدًى، يعملُ في أيّامِ الأعيادِ[٥٩]، ويجولُ هنا وهناك في أيّامِ العمل. ليسَتْ فضيلةً أن يبقى مَن يوبَّخُ على كسلِهِ لامُباليًا، بل الأحرى به أن يَعِيَ خطأَهُ، ويَطرُدَ عنه الكسل. فكما يقولُ الكتابُ المُقدّسُ: «الكسلانُ يُسخَرُ منه، ولا يَخجل».

- في قوانينِ الرّسلِ القدّيسين -

عندما يَنهضُ المؤمنُ، أو المؤمنةُ، من النّومِ في الصّباحِ، فقبلَ مُباشرةِ أيِّ عملٍ، ليغتَسِلْ ويُصَلِّ. وإن حصلَ تعليمٌ روحيٌّ في مكانٍ ما، فليجعَلْ كلمةَ التّقوى تتقدّمُ العمل.

---

٥٨. حسب غلا ٦، ٧- ٨.

٥٩. وهي تعتبر أيّامَ بطالة.

الفصل الخامس

قواعدُ على الإخوةِ أن يحفظوها، عندما يعملونَ سويّة.

- عن الأبِ أشعيا -

١- يا إخوةُ، إن خرجْتُم سويّةً في عملٍ مشتركٍ، فلينتبهْ كلُّ واحدٍ إلى ذاتِه، وليس إلى أخيه، كي يُقَيِّم إن كانَ يعملُ أكثرَ منه، أو لا. لا يأمُرَنَّ أحدٌ أخاه، ولا يُلْقِيَنَّ عليه درسًا، حتّى لو رآه يعملُ كيفما اتّفق. لا يقولَنْ له: «أنت تُفسِدُ عملَك»، إنّما ليدَعِ الأخَ الّذي يعمَلُ يَتَصَرَّفُ على هواه. أمّا إذا سألَهُ الأخُ قائلاً: «أظهِرْ محبّةً، وعلِّمْني»، فليعلّمْه بتواضع. إذا كنتَ خبيراً، وقالَ لكَ أخوك إنّه لا يعرفُ ولم تُعَلِّمْهُ، فهذا يعني أنّ محبّةَ اللّهِ ليسَت فيكَ، بل أنتَ تُخفي خبثًا في داخلِك. أمّا مَن لا يَعرفُ القيامَ بعملٍ ما، فلا يخجلَنَّ من الطّلبِ بتواترٍ مِنَ الّذي يَعرِفُ قائلاً: أظهِر محبّةً، وانظُرْ إن كانَ ما صنعتُه جيّدًا».

٢- إذا قُمتُمْ بعملٍ مشتركٍ، وانسحبَ أحدُكم بسببِ فتورِ همّتِه، فلا يوبِّخَنَّه أحدٌ، إنّما أظهروا له بالأحرى محبّتَكم.

٣- إن كنتَ تعملُ مع شخصٍ ضعيفٍ، فلا تتنافَسْ معه، مُريدًا أن تعملَ أكثرَ منه.

٤- إن كنتَ تقومُ بعملِكَ اليدويِّ، فاعمَلْ جهدَكَ ألاّ تتفحّصَ ما أنتجتَهُ أنتَ، وما أنتجَهُ أخوكَ خلالَ الأسبوعِ، لأنّ هذا غيرُ لائق.

٥- إن ذهبْتَ إلى العملِ مع أخيكَ، فلا تَسْعَ إلى أن يعلَمَ أنَّكَ عَمِلْتَ أكثرَ منه. فما ينتظرُه اللّهُ من الإنسانِ هو كلُّ عملٍ يستطيعُ هذا الأخيرُ أن يتمِّمَه في الخفاء.

٦- إن كنتم تقومونَ بعملٍ ما سويّةً، فلا تحفَظْ في داخلِكَ الأخطاءَ الخارجيّةَ الّتي تراها لدى الآخرينَ، ولا تسمَعْ حديثًا بشأنِها. ولا يأتيَنْ على فمِكَ أن تُندِّدَ بهذه ضمنَ المجموعةِ، لأنّ هذا موتٌ لنفسِك، حتّى ولو كنتَ حكيمًا.

- عن الأبِ كاسيانوس -

في أديارِ الشّرقِ ذاتِ العيشةِ المشتركةِ، وبشكلٍ خاصٍّ في مصرَ، يُراعى القانونُ الآتي: بعدَ حلِّ الاجتماعِ، لا يتجرّأُ أحدٌ من الإخوة ويقفُ ليتحدّثَ مع آخرَ، ولا حتّى يَخرجُ من قلّايتِه، أو يترُكُ عملَهُ اليدويَّ، حافظًا وصيّةَ الرّسولِ[٦٠]، إلاّ إن دعَتِ الحاجةُ إلى القيامِ بعملٍ ضروريٍّ مشترك. وهذا العملُ يُتمّمُه الإخوةُ بهمّةٍ وهدوءٍ، بحيثُ لا يتحادثونَ البتّةَ، بل يقومُ كلُّ واحدٍ بعملِه الّذي أُوكِلَ إليه، منتبهًا إلى المزمورِ والتّأمّل. ويحرصونَ كلّيًّا على ألاّ يبقى أيُّ أخٍ لوحدِه مع أخٍ آخرَ - لا سيّما مع مبتدئٍ -، أو يتجرّأَ أن يبسطَ يدَهُ مُمسكًا بيدِ الآخرِ، أو أن يعانقَه[٦١]. إن خالفَ أحدُهم هذا القانونَ، يخضَعْ لقصاصٍ قاسٍ جدًّا.

---

٦٠. حسب ١ تس ٤، ١١.

٦١. يمنع الآباء النّسّاك دائمًا كلّ مظهر للدّالّة، وكلّ صداقة خاصّة بين المتوحّدين، كخروج عن روح الرّهبنة والشّركة.

الفصل السّادس

في الدّيرِ، لا يقتني أيُّ أخٍ شيئًا خاصًّا به، وإلّا يخضعُ لقصاصٍ صارم.

- عن غريغوريوس الذّيالوغس -

خلال إقامتي في الدّيرِ، مكثَ هناك أيضًا راهبٌ يُدعى يوستوس. وبما أنّه كانَ مُلِمًّا بعلمِ الطّبِّ، اعتادَ الاعتناءَ بي يوميًّا في الأمراضِ الّتي تصيبُني من وقتٍ إلى آخر. بعدَ زمنٍ، مَرِضَ بدورِه، وشارفَ على الموت. بقيَ إلى جانبِه أخوه بالجسدِ المدعوُّ كوبيوسوس، ليعينَه في مرضِه. وكوبيوسوس هذا لا يزالُ حيًّا حتّى اليومِ، ويكسبُ معيشتَه اليوميّةَ من مهنةِ الطّبِّ الّتي يُمارسُها في هذه المدينة.

عندما علمَ يوستوس أنّ نهايتَه قريبةٌ، كشفَ لأخيه أنّه يحتفظُ بثلاثِ قطعِ نقودٍ ذهبيّةٍ مخبّأة. حينئذٍ، فتّشَ الإخوةُ بحرصٍ، ووجدوا قطعَ النّقودِ الثّلاثَ هذه مخبّأةً بين مَعَدّاتِهِ الطّبّيّةِ، وأبلغوني بذلك للحال. عندما علمتُ بهذه البَلِيّةِ الّتي أصابَت أخًا يسلكُ معنا في العيشةِ المشترَكةِ، لم أستطِع احتمالَ الأمر. فقانونُ ديرِنا ينصُّ على أنّ جميعَ الإخوةِ يعيشونَ حياةً مشتركةً، من دونِ أن يمتلكَ أحدٌ شيئًا خاصًّا به. حينئذٍ، حزنتُ جدًّا، وتساءلتُ ما الّذي أستطيعُ فعلَه، كي يتطهّرَ المُحتضَرُ، ويسيرَ الإخوةُ الآخرونَ على السّكّةِ الصّحيحةِ بخوفٍ خلاصيّ.

استدعيتُ مدبّرَ الدّيرِ، وقلتُ له: «اذهَبْ ومُرْ ألاّ يقتربَ أيٌّ من الإخوةِ من ذلك المُحتضَرِ، كي لا يسمعَ منهم أيّةَ كلمةِ تعزية. أمّا إنِ استدعى الإخوةَ وهو يلفظُ أنفاسَه، فليقُلْ له كوبيوسوس: «لقد أنِفَ منك الإخوةُ جميعُهم، بسببِ قطعِ النّقودِ الذّهبيّةِ الثّلاثِ، الّتي احتفظْتَ بها مخبّأة».

علَّهُ، في ساعةِ الموتِ، يُدينُ ذاتَهُ بسببِ هذا الخطأِ، ويُوبّخُ نفسَهُ بمرارةٍ، فيتنقّى ولو قليلاً من الخطيئةِ الّتي ارتكبَها. وعندما يموتُ، لا تدفِنوا جسدَهُ في مقبرةِ الإخوةِ، إنّما احفُروا حُفرةً في كَومةِ زبلٍ، وارموا جسدَه فيها. أمّا بالنّسبةِ لقطعِ النّقودِ الذّهبيّةِ الثّلاثِ الّتي تركَها، فارموها على الجثّةِ فيما يقولُ الإخوةُ كلُّهم معًا: «فليكن مالُكَ معكَ للهلاك»[٦٢]. ثمّ غطّوه بالتّراب.

عندما وصلَ يوستوس هذا إلى شفيرِ الموتِ، قَلِقَ قلقًا عظيمًا، وطلبَ حضورَ الإخوة. ولكن، بما أنّ أحدًا من الإخوةِ لم يقترِبْ منه، حدّثَهُ أخوه عن سببِ اشمئزازِ الجميعِ منه. للحالِ، تنهّدَ يوستوسُ تنهيدةً عميقةً معبّرًا عن خطيئتِه. ثمّ خرجَتْ روحُهُ من جسدِه. بعد ذلك، دُفِنَ كما حَدّدتُ. فتأثّرَ الإخوةُ بعمقٍ بالقرارِ الّذي اتّخذتُه، وبدأوا جميعُهم بإحضارِ أغراضٍ تافهةٍ، لا قيمةَ لها، يُحظِّرُ الدّيرُ امتلاكَها، لأنّهم خافوا كثيرًا أن يوجدَ، في حَوزتِهم، شيءٌ يتسبّبُ بإدانتِهم.

بعد ثلاثينَ يومًا على موتِ يوستوس، بدأَتْ مشاعرُ الرّأفةِ تعتمِلُ في داخلي تجاهَ الأخِ المتوفّى. تألّمتُ كثيرًا، وأنا أفكّرُ في العقوباتِ الّتي يتعرّضُ لها، فبحثتُ عن طريقةٍ لتخليصِه. لذلك، دعوتُ المدبّرَ ثانيةً، وقلتُ له بحزنٍ كبيرٍ: «لقد أظهَرْنا لامبالاةً كافيةً تجاهَ الأخِ المتوفّى. وعلينا الآن، بداعي المحبّةِ، أن نساعدَه قدرَ المُستطاع. إذهَبِ الآن، ورتِّبْ أن يُحتفَلَ بالذّبيحةِ غيرِ الدّمويّةِ من أجلِ راحةِ نفسِه، ابتداءً من اليومِ لمدّةِ ثلاثينَ يومًا».

قُدِّمَتِ الذّبيحةُ الخلاصيّةُ من أجلِه، كما قلتُ، ولكن، لانشغالِنا في أمورٍ أخرى، لم نُعِدَّ الأيّام. وذاتَ ليلةٍ، ظهرَ الأخُ المتوفّى على كوبيوسوس، أخيه في الجسدِ، في الحلم. فسألَهُ هذا الأخيرُ: «كيف حالُكَ هناك؟» فأجابَ: «كنتُ بحالةٍ سيّئةٍ جدًّا. أمّا الآن، فإنّي بحالةٍ جيّدة».

للحالِ، أسرعَ كوبيوسوس إلى الدّيرِ، وأخبرَنا حلمَه. أحصَيْنا الأيّامَ بدقّةٍ، فلاحظْنا أنّ هذا هو اليومُ الثّلاثين على إتمامِنا الذّبيحةَ، من أجلِ الأخِ الرّاقِد.

---

٦٢. أع ٨: ٢٠.

- عن كتاب الشّيخ -

١- سألَ أخُ الأبَ بيمن: «أريدُ الدّخولَ إلى ديرِ شَركةٍ، والبقاءَ فيه». أجابَه الشّيخُ: «إن أردتَ الدّخولَ إلى ديرِ شَركةٍ، فاعلَمْ أنّك لن تستطيعَ العيشَ في الحياةِ المشترَكةِ، ما لم تبقَ غيرَ مكترثٍ بأيّةِ علاقةٍ، أو غرضٍ شخصيّ. فهناك لن تقتنيَ شيئًا بحرّيّةٍ، حتّى ولو كانَ إبريقًا».

٢- وجدَ باييسيوسُ، أخُ الأبِ بيمن، إناءً صغيرًا مليئًا بقطعِ نقودٍ ذهبيّةٍ، وقالَ لأخيه أنوب: «تعلَمُ أنّ كلمةَ الأبِ بيمن صارمةٌ جدًّا. لنذهَبْ لتأسيسِ ديرٍ لنا في مكانٍ ما، ولنبقَ فيه من دونِ همّ». سألَه الأبُ أنوب: «وكيف سنستطيعُ بناءَه؟» فأراه قطعَ النّقودِ الذّهبيّة. عندما رآها الأبُ أنوب، حزنَ جدًّا وهو يفكّرُ في الأذى الّذي سيصيبُ نفسَ أخيه. مع ذلك، قالَ له: «حسنًا، لنذهبْ ونبنِ قلّايةً على ضفافِ النّهر!».

أخذَ الأبُ أنوب الإناءَ، ووضعَه في لاطيتِه، وبينما كانا يعبران النّهرَ، ووصلا إلى منتصفِه، ادّعى أنّه تعثّرَ، ووقعَتْ اللّاطيةُ مع قطعِ النّقودِ في النّهر. تظاهرَ الأبُ أنوبُ بالحزنِ، لكنّ باييسيوسَ قالَ له: «لا تحزَنْ، يا أبتِ. بما أنّ قطعَ النّقودِ ضاعَتْ، فلنَعُدْ إلى أخينا». فعادا وبقيا معًا بسلام.

٣- قالَ شيخٌ: «رهبانٌ كثرٌ وزّعوا ثرواتِهم، وتركوا آباءَهم وأمّهاتِهم وإخوتَهم وعائلاتِهم بسببِ خطاياهم. وبدخولِهم إلى الدّيرِ، أنجزوا فضائلَ كبيرةً من جهةٍ، ولكنّهم، من جهةٍ أخرى، تعثّروا بأشياءٍ تافهةٍ، لا قيمةَ لها، وأصبحوا لعبةً للشّياطينِ، لأنّهم جمعوا حولَهم أكياسًا وصناديقَ مليئةً بالفاكهةِ والمآكلِ والإبرِ والمقصّاتِ والسّكاكينِ والزّنانير.

يوبّخُ النّاسُ العُقلاءُ رهبانًا كهؤلاءِ بسببِ محبّتِهم لذواتِهم، والكتابُ المُقدّسُ يقولُ بشأنِهم: «يُرسَلونَ إلى الظّلمةِ الخارجيّةِ كمَلعونين»[٦٣]. كما يُقالُ: «ملعونٌ مَن يُغيّرُ قوانينَ الآباء»[٦٤]. سيلقى هؤلاءِ الرّهبانُ العقابَ نفسَه

٦٣. حسب مت ٢٥، ٣٠.

٦٤. انظر عد ٢٧، ١٧.

مع حنانيا وسفيرِه[٦٥] ويانّيس[٦٦] كمتمثّلينَ بهم ومشاركيهم».

- عن الأبِ كاسيانوس -

مَن يدخلِ الدّيرَ ليصيرَ راهبًا، ويحتفظْ بشيءٍ من ممتلكاتِه، فلن يستطيعَ البقاءَ وقتًا طويلاً في طاعةِ الدّيرِ ونظامِه. كذلك، لن يستطيعَ اكتسابَ فضيلتَي التّواضُعِ والطّاعةِ، ولا احتمالَ حياةِ الدّيرِ الفقيرةَ، حتّى النّهاية. فما إن يحدُثُ ضيقٌ حقيقيٌّ أو حجّةٌ تُشوِّشُ أفكارَه، حتّى يرميَهُ بعيدًا عن الدّيرِ الأمانُ الّذي وَضَعَهُ في المُمتلكاتِ المَحفوظةِ، مثلما يَرمي المقلاعُ الحجَر.

الاهتياجاتُ الّتي تُثيرها الأهواءُ الأخرى، - مثلُ الغضبِ أو الشّهوةِ - متجذّرةٌ فينا، وتعمَلُ بقوّةٍ منذُ ولادتِنا، لذا لا تُغلَبُ إلاّ بعد فترةٍ زمنيّةٍ طويلة. أمّا مرضُ محبّةِ المالِ، الّذي سبَبُه خارجٌ عنّا، فيُمكنُ أن يُستأصَلَ بسهولةٍ إنِ انتبهَ المرءُ واعتنى بذلك. أمّا إن أُهمِلَ هذا المرضُ، فيُصبحُ مدَمِّرًا أكثرَ من الأهواءِ الأخرى، ويَصعُبُ اقتلاعُهُ، بحسبِ قولِ الرّسولِ: «محبّةُ المالِ أصلُ كلِّ الشّرور[٦٧]».

إذًا، عندما يصيبُ هذا المرضُ نفسَ المبتدئِ الّذي يدخلُ في حياةِ الطّاعةِ، وتكونُ نفسُهُ فاترةً، وينقُصُها الإيمانُ، يقترِحُ عليه حججًا، تبدو في ظاهرِها عادلةً ومنطقيّةً، وتهدفُ إلى جعلِهِ يحتفظُ بشيءٍ من ممتلكاتِه. يصوِّرُ في ذهنِهِ سنواتِ الشّيخوخةِ الطّويلةِ، والضّعفَ الجسديَّ، ويُقنعُه بأنّ مؤونةَ الدّيرِ غيرُ كافيةٍ لتأمينِ حاجاتِ الأصحّاءِ، فكيف بالمرضى، وأنّهم هنا لا يعتنونَ بالمريضِ كما يجبُ، بل كيفما كانَ، وأنّه، إن لم يخبّئْ بعضَ المالِ، فسيموتُ بشكلٍ بائس. في النّهايةِ، يهمسُ له أنّه لا يستطيعُ البقاءَ في الدّيرِ أكثرَ، بسببِ ثقلِ العملِ وقساوةِ رئيسِ الدّير.

بأفكارٍ كهذه يخدعُ هوى محبّةِ المالِ ذاك الشّقيَّ، كي يحتفظَ، أقلّه، بقطعةِ نقودٍ واحدةٍ، ثمّ يُقنعُه بأن يتعلّمَ عملاً يدويًّا، خفيةً عن رئيسِ

---

٦٥. أع ٥، ١- ١٠.

٦٦. كانَ يانّيس أحد السّحرة الّذين تصدّوا لموسى (خر ٧، ١٠- ١٢). ذكر اسمَه الرّسول بولس في ٢ تيم ٣، ٨.

٦٧. ١ تيمو ٦، ١٠.

الدّيرِ، كي يضاعفَ المالَ الّذي يستحوذُ على اهتمامِه. ثمّ يخدَعُ المسكينَ بآمالٍ واهيةٍ، مصوّرًا له الرّبحَ الّذي سيَجنيه من العملِ اليدويِّ، وكذلك الرّاحةَ وعدمَ الاهتمامِ اللّذيْن سيؤمِّنُهما هذا المال. بعدَ أن تستحوذَ عليه كليًّا فكرةُ الرّبحِ، لا يعودُ يحسبُ حسابًا لشيءٍ، لا لانفجارِ الغضبِ إذا تعرّضَ لبعضِ الخسارةِ، ولا لظلمةِ الحُزنِ إن لم يجنِ الرّبحَ الّذي أَمِلَ به. في الحقيقةِ، كما أنّ البعضَ يجعلونَ من بطنِهم إلههَم[٦٨]، هكذا يصيرُ الذّهبُ له. لهذا السّببِ، هو عابدُ أوثانٍ، كما قالَ الرّسولُ[٦٩]، لأنّه أبعدَ ذهنَه عن محبّةِ اللّهِ، وأحبَّ الصّورَ البشريّةَ المنحوتةَ على الذّهب[٧٠].

بهذه الأفكارِ يغرقُ الرّاهبُ في ظلمةٍ، ويصيرُ إلى حالةٍ أسوأ. هكذا، يستحيلُ عليه اقتناءُ التّواضُعِ والطّاعةِ، فيغضبُ وتثورُ ثائرتُه (بسبب الهوى). يتذمّرُ في كافّةِ الأعمالِ الموكلةِ إليه، ويعارضُ كي ينسحبَ منها. لا يحفَظُ الوصيّةَ ولا التّقوى، بل يتوجّهُ كحصانٍ جامحٍ نحوَ الهاوية. لا يرضى بالطّعامِ اليوميِّ، ويحتجُّ باستمرارٍ معلنًا أنّه لا يستطيعُ بعدُ احتمالَ هذا كلِّه. يضيفُ قائلاً إنّ اللّهَ ليس موجودًا في الدّيرِ فحسبُ، وإنّ خلاصَه لا ينحصرُ في ذاك المكانِ، فمَن يطلبِ اللّهَ، يجدْهُ في كلِّ مكانٍ، وأنّه إن لم يرحَلْ عن الدّيرِ، فسيضيع.

هكذا، يصبحُ خفيفًا كما ولو أنّ مالَه أعطاه أجنحةً، مُتّخِذًا مالَهُ المُخبّأَ كمُسَهِّلٍ لعزمِهِ الفاسد. يُحَضِّرُ لرحيلِه، ويُجيبُ بقحّةٍ وعجرفةٍ إلى كلِّ تنبيه. يرى ذاتَهُ غريبًا، لا علاقةَ له بالدّيرِ: إن رأى فيه شيئًا يلزَمُ إصلاحُه، لا يبالِ به ويتجاهلْه. ينتقدُ كلَّ ما يجري في الحياةِ المشترَكة. ثمّ يروحُ يبحثُ عن حججٍ ليغضبَ أو يتذمّرَ، وهذا كلُّه لئلاّ يبدوَ أنّه يرحلُ بطيشٍ ومن دونِ سبب. وإن استطاعَ، لا يتردّدْ في إخراجِ راهبٍ آخرَ من الدّيرِ، بعدَ أن يخدعَه بالنّميمةِ والكلامِ الباطلِ، مُريدًا أن يُشركَه في خطيئتِه. هكذا إذًا، يَحترقُ بشعلةِ أموالِهِ المُكتَسَبَةِ، فلا يستطيعُ من بعدُ سلوكَ حياةٍ هادئةٍ في الدّيرِ، ولا العيشَ في ظلِّ القوانينِ الدّيريّة.

---

٦٨. في ٣، ١٩. ٦٩. كو ٣، ٥.

٧٠. من الواضح هنا أنّه يتكلّم على قطع النّقود الذّهبيّة المطبوعة عليها صورة الإمبراطور.

بعدَ أن يخطفَهُ الشّيطانُ كذئبٍ، ويفصلَهُ عن القطيعِ، يجدُهُ جاهزًا للافتراسِ؛ يجعلُهُ ينشغلُ، ليلاً ونهارًا في قلاّيتِه، بحماسةٍ كبيرةٍ، بتلك الأعمالِ، الّتي كانَ يتوانى عن القيامِ بها في السّاعاتِ المُحدّدةِ، في ديرِ الشّركة. يُهمِلُ عادةَ الصّلاةِ والأصوامِ والأسهارِ المُحدّدة، وقد اقتنعَ من الشّيطانِ الّذي كبّلَه بهوسِ محبّةِ الفضّةِ، بأن يُكرّسَ قواه كلَّها للعملِ اليدويّ.

لمرضِ محبّةِ الفضّةِ هذا ثلاثةُ وجوهٍ حَرَّمَتها الكتبُ المُقدّسةُ، وتعاليمُ الآباءِ على السّواء. الأوّلُ هو ما وصفناه أعلاه، الّذي يدفعُ الرّهبانَ إلى اقتناءِ ما لم يقتنوه في العالمِ، وتخزينِه. الثّاني يجعلُ هؤلاءِ الّذينَ أنكروا أموالَهم سابقًا يندمونَ، ويحثُّهم على طلبِ ما سبقَ وقدّموه إلى اللّه. أمّا الثّالثُ، فيربطُ الرّاهبَ منذ البدءِ بعدمِ الإيمانِ والتّهاملِ، ولا يَدَعُه يتخلّصُ نهائيًّا من مقتنياتِ أهلِ العالمِ، إنّما يحثُّه على الاحتفاظِ ببعضٍ منها، واضعًا في ذهنِه خوفَ الفقرِ، كما سبقَ وذكَرْنا. ذلك كلُّه يقودُهُ إلى عدمِ الإيمانِ بعنايةِ اللّهِ، وهكذا يخلُّ بالتّعهّداتِ الّتي قَدَّمَها عندما أنكرَ العالمَ.

وكما ذكَرْنا، نجدُ في الكتابِ المُقدّسِ أمثلةً تُدينُ هذه الطّرائقَ الثّلاثَ من هوى محبّةِ الفضّة. أوّلاً، عندما أرادَ جيحزي أن يكتسبَ مالاً لم يمتلكْه سابقًا، أضاعَ الموهبةَ النّبويّةَ الّتي كانَ معلّمُه يُفكّرُ في أن يورثَه إيّاها. وعوضَ البركةِ، ورثَ بَرَصًا أبديًّا بموجبِ لعنةِ النّبيّ[٧١]. ثمّ إنّ يهوذا، عندما أرادَ أخذَ المالِ الّذي تركَه أوّلاً وهو يتبعُ المسيحَ، فضلاً عن أنّه خانَ سيّدَه وفَقَدَ صفتَه كرسولٍ، انتهَتْ حياتُهُ نفسُها بموتٍ مأساويّ[٧٢]. وأخيرًا، عندما احتفظَ حنانيا وسفيرهُ بجزءٍ من ممتلكاتِهما، عوقِبا بالموتِ بفمِ الرّسولِ بطرس[٧٣].

في سفرِ تثنيةِ الاشتراعِ، يُعطي اللّهُ، عبرَ موسى، وصيّةً رمزيّةً إلى أولئك الّذينَ يُعاهدونَ اللّهَ أن يُنكروا العالمَ، ثمّ، بسببِ الخوفِ النّاشئِ عن نقصِ الإيمانِ، يُسارعونَ إلى اكتسابِ المُمتلكاتِ الأرضيّةِ من جديد. يقولُ بشكلٍ مُحدّدٍ: «إن كانَ أحدُهم خائفًا وضعيفَ القلبِ، فلا يَخرُجَنَّ إلى الحرب. ليذهَبْ ويرجِعْ إلى بيتِه، لئلاّ ينقلَ خوفَهُ إلى إخوتِه»[٧٤]. لقد قالَ هذه الأمورَ

٧١. ٤ مل ٥، ٢٠-٢٧. ٧٢. مت ٢٦، ١٤-١٦ . ٢٧،٥. ٧٣. أع ٥، ١-١٠.
٧٤. تث ٢٠، ٨.

مريدًا أن يُعلِّمَنا أنّ نُكرانَنا للعالمِ يجبُ أن يكونَ نُكرانًا تامًّا، قبلَ أن نَخرُجَ إلى الحرب. ونتعلَّمُ أيضًا ألاّ نؤثِّرَ سلبًا على حماسةِ الآخرينَ في مسيرتِهم نحو الكمالِ الإنجيليِّ، بسببِ انطلاقتِنا الرّخوةِ والمُتردّدة. حينئذٍ، ينطبِقُ علينا ما قاله باسيليوسُ الكبيرُ إلى عضوٍ في المَشْيَخَةِ أنكرَ العالمَ برخاوةٍ، واحتفظَ بجزءٍ من أموالِه: «خسرتَ رتبةَ المَشْيَخَةِ، وراهبًا لم تَصِر».

بالتّالي، علينا أن نقتلعَ من نفوسِنا جذرَ السّيّئاتِ كلِّها، أي محبّةَ الفضّةِ[٧٥]، وذلك بعنايةٍ كبيرةٍ، مُقتنعينَ أنّه ما دامَت الجذورُ باقيةً فينا، فالأغصانُ تنبُتُ بسهولة. لِنَعِ أنّ ساعةَ موتِنا غيرُ معروفةٍ، ولنَخَفْ أن يأتيَ سيِّدُنا ساعةَ لا ننتظرُه، ويَجِدَ ضمائرَنا ملوّثةً بمحبّةِ الفضّةِ، فيقولَ لنا ما قالَه للغنيِّ في الإنجيلِ: «أيّها الجاهلُ، في هذه اللّيلةِ تُؤخَذُ نفسُكَ منك. فهذا الّذي جمعتَه لِمَنْ يكون؟»[٧٦].

ولكن، يجبُ أن نعرفَ أنّ اكتسابَ هذه الفضيلةِ صعبٌ، إن لم نَعِشْ في ديرِ شَركةٍ، إذ إنّه في ديرِ الشّركةِ لا نقلقُ لشيءٍ، ولا حتّى للضّروريّات.

---

٧٥. ١ تيم ٦، ١٠.

٧٦. لو ١٢، ٢٠.



الفصل السّابع

مَن يُخبّئْ لذاتِه شيئًا من ممتلكاتِ الدّيرِ أو يُعطِهِ لأحدٍ، يُخطئْ كثيرًا إلى اللّهِ، ويخضعْ لعقابٍ قاسٍ. لهذا، يجبُ أن نوليَ هذه الأغراضَ عنايةً قُصوى، لأنّها مكرّسةٌ للّهِ، من دونِ أن نزدريَ ما هو أقلُّ أهميّة. والإهمالُ، بشكلٍ عامٍّ، مُضِرٌّ.

- من حياةِ القدّيس إفثيميوس -

١- في ديرِ القدّيسِ إفثيميوس، عاشَ أخٌ مُتحدِّرٌ من غلاطية، اسمه ثيوذوتس. عندما كانَ توما من «أفاميا» رئيسَ الدّيرِ، سرقَ ثيوذوتس هذا، بتحريضٍ من الشّرّيرِ، ستّمئةَ قطعةِ نقودٍ ذهبيّةٍ مودعةٍ في السَّكريستيّا[٧٧]. كانَ استفانوسُ، سَلَفُ توما في رئاسةِ الدّيرِ، قد أحضرَ إلى الدّيرِ هذا الذّهبَ الّذي وَرِثَهُ عن أخيه، بعد موتِه.

عندما نهضَ ثيوذوتس، في صباحِ اليومِ التّالي، تظاهرَ بالغضبِ والغيظِ لأنّه لا يستطيعُ التّنعّمَ بالهدوءِ، ولهذا السّببِ يتركُ الدّير. أرادَ أن يُظْهِرَ، بتصرّفِهِ، أنّه راغبٌ في مكانٍ ملائمٍ أكثر. أمّا في الواقعِ، فقد أرادَ الاستعجالَ، كي يذهبَ للاختباءِ مع ذهبِه.

لذا، أعدَّ العُدّة، للوصولِ إلى المدينةِ المُقدّسةِ أورشليم، وانطلقَ إلى هناك. عندما اقتربَ من ديرِ الأبِ مارتيريوس، جلسَ بهدوءٍ، وأخرجَ قطعَ

٧٧. حجرة مجاورة لهيكل الكنيسة تُحفَظ فيها الأواني المُقدّسة وزخارف الكنيسة.

النّقودِ الذّهبيّةَ، مُحتفظًا بخمسينَ منها، ووضعَ الباقي تحت صخرةٍ كبيرة. ثمّ وضعَ علاماتٍ في المكانِ قبلَ انطلاقِه نحو أورشليم. في يافا، استأجرَ أحصنةً، ودفعَ كفالةً، ثمّ عادَ إلى الصّخرةِ حيثُ خبّأَ الذّهب. ولكنّه، عندما اقتربَ من المكانِ - سبحانَ اللّه الّذي يَرى كلَّ شيءٍ، ويَحكمُ بعدل! - رأى ثعبانًا كبيرًا، ذا منظرٍ مُخيفٍ، يزحفُ على الصّخرةِ، قُلْ إنّه أُوكِلَ حراسةَ قطعِ النّقودِ الذّهبيّةِ، مانعًا ثيوذوتس من وضعِ يدِهِ على ما ليس له.

خافَ ثيوذوتس، وهربَ حالاً فارغَ اليدين. ولكنّه عادَ بعدَ حينٍ، فوجدَ أنّ حارسَ الذّهبِ المُخيفَ لا يزالُ ساهرًا، بعنايةٍ فائقةٍ، على الكنزِ، حتّى أنّه عَجِزَ عن الاقترابِ من الصّخرةِ، ولو قيدَ أنملة. وعندما حاولَ ذلك، طاردَه الثّعبانُ بعنفٍ حتّى مسافةٍ بعيدةٍ، بحيثُ لم يَعُدْ يطلُبُ سوى أن ينجوَ منه ويبقى سليمًا معافىً.

في اليومِ التّالي، عادَ ثيوذوتس إلى ذلك المكان. حالما اقتربَ، هاجمَتْهُ قوّةٌ هوائيّةٌ، وضربَتْهُ بما يُشبهُ الهراوةَ، وجرحَتْهُ جرحًا بليغًا، وطرحَتْهُ أرضًا شبهَ ميت. ولكنّ بعضَ اللّعازاريّينَ[٧٨] أتَوا إلى المكانِ، ووجدوه مطروحًا بحالةٍ يُرثى لها. فرفعوه، وذهبوا به إلى مستشفى مدينةِ القُدس. بعد أن بقيَ هناك مطروحًا لوقتٍ طويلٍ، رأى في حلمٍ شيخًا غاضبًا جدًّا منه يقولُ له: «لن تستطيعَ النّهوضَ، ما لم تُعِدْ أوّلاً المالَ الّذي سرقتَه إلى ديرِ إفثيميوس». على أثرِ هذا الحلمِ، دعا صاحبَ الفُندقِ، وكشفَ له فعلتَه وكلَّ ما تبعَها. ثمّ أرسلَهُ ليُعلمَ الدّيرَ بذلك.

عندما علمَ الشّيوخُ المحيطونَ برئيس الدّيرِ توما وبليونديوس ما حَدَثَ، ذهبوا للحالِ إلى مدينةِ القُدسِ، ووضعوا ثيوذوتوسَ على مَحْمِلٍ ليُريَهم المكانَ حيثُ خبّأَ الذّهب. وجدوا الكنزَ تحتَ الصّخرةِ، ولكن - يا للعجب! - لم يجدوا أثرًا لذلك الحارسِ المُخيفِ الّذي انسحبَ أمام المالكينَ الحقيقيّينَ للكنز. حينئذٍ، أخذوا الذّهبَ، وعادوا إلى ديرِهم حاسبينَ أنّ ما صرفَهُ ثيوذوتس قليلٌ، فيما استعادَ هذا الأخيرُ صحّتَهُ الرّوحيّةَ والجسديّة.

---

٧٨. من لعازر. هكذا تدعى بيت عنيا، موطن لعازر.

٢- راهبٌ آخرُ أصلُهُ من كيليكيا، يُدعى بولسَ، أتى من ديرِ الأبِ مارتيريوس، وهو تحتَ سيطرةِ روحٍ شرّيرة. قاده أقارِبُهُ إلى قبرِ القدّيسِ إفثيميوس حيثُ وضعوه إلى جانبِ صندوقِ بقاياه. وبعد مُنتصفِ اللّيلِ بقليلٍ، ظهرَ له القدّيسُ، وطردَ الشّيطان. والبُرهانُ على شفائِهِ هو التّالي: في اللّيلةِ نفسِها، فيما الجوقةُ تُرتّلُ الخدمةَ اللّيليّةَ، ذهبَ بولسُ إلى الكنيسةِ، واشتركَ معها في التّرتيلِ، ممجِّدًا اللّه على شفائِهِ أمامَنا جميعًا - وأنا كاتبُ هذه السّطور[٧٩]، كنتُ قد أصبحتُ حينها راهبًا في ديرِ إفثيميوس الكبير.

بَقِيَ بولسُ عندنا في الدّيرِ، حتّى آخرِ حياتِهِ، مُتذكّرًا عملَ الإحسانِ هذا في قلبِه. كانَ يشاركُ بحماسةٍ في المهمّاتِ والخدماتِ الجماعيّةِ كافّةً. ذاتَ يومٍ، كنّا نجمعُ في البرّيّة ثمارًا - هذه الّتي ندعوها عادةً «مانوثيا»[٨٠] - وسألْنا بولسَ أن يقولَ لنا ما حصلَ له، وكيف أتى إلى ديرِنا، وكيف شفاه القدّيسُ أثناء وجودِه قربَ صُندوقِ بقاياه. وبما أنّ العلاقةَ الأخويّةَ جَمَعَتْنا، أخبرَنا كلَّ شيءٍ بوضوحٍ، وبالتّفصيل.

قالَ لنا: «أُوكِلَتْ إليّ خدمةٌ في ديرِ الأبِ مارتيريوس، ولا أعرفُ كيف سادَتْ عليّ رغبةُ الامتلاك. وبما أنّني كنتُ من دونِ مَوردٍ، وقد استحالَ عليَّ اكتسابُ قطعةِ نقودٍ صغيرةٍ، خطرَ ببالي أن أسرُقَ بعضَ الأواني المُقدّسةِ، وهكذا أقتني شيئًا. فطردتُ من قلبي خوفَ اللّهِ، مغلوبًا من هذا الفكرِ الشّرّير. وأخذتُ المفاتيحَ خلسةً من الهيكلِ المُقَدّسِ، وفتحتُ الخزانةَ حيثُ تُحفَظُ الأواني المُقدّسة. احتفظتُ ببعضِ المَسروقاتِ، ووزّعتُ الباقي على آخرينَ، من دونِ اكتراث.

عندما انتهيتُ من تلك الخدمةِ، أعدتُ المفاتيحَ إلى الهيكلِ، وذهبتُ للعشاءِ مع بعضِ الإخوة. هناك، شربتُ نبيذًا حتّى الثّمالةِ، ثمّ استلقيتُ بحالةٍ مُزريةٍ على سريري. للحالِ، أضحَتْ نفسي مرتَعًا لأفكارِ الزّنى، كأنَّ كلَّ ما سبقَ أوصلَني إلى هنا. بعدَ أن شلَّ السّكرُ مَقدرتي على التّعقّلِ، أسلمتُ نفسي بكلِّ سرورٍ لهذه الأفكار. وبقبولي لها سادَتْ عليَّ، وحملَتْني على الشّعورِ أنّ

٧٩. تلميذ القدّيس كيرلّس سكيثوبوليتيس.

٨٠. ثمار علّيقة في البرّيّة.

هناك امرأةً إلى جانبي، وأنّني أنامُ معها.

فجأةً، غلّفَتْني غمامةٌ قاتمةٌ سوداءُ؛ إنّه الشّيطانُ الّذي انقضَّ عليّ. بقيتُ لوقتٍ طويلٍ سجينًا له، أتعذّبُ وأُعاني منه الأهوالَ. فعندما يسودُ عدوٌّ كهذا على أحدٍ ما، لا يشبَعُ من فعلِ السّوء. دامَ هذا الأمرُ إلى أن أشفقَ عليَّ الإخوةُ، فحمَلوني وأخذوني إلى جانبِ صندوقِ بقايا القدّيس. حالما وضعوني هناك، عدتُ إلى ذاتي، وكأنّني استعدتُ الحياة. توسّلتُ إلى القدّيسِ، بدموعٍ حارّةٍ، أن يُشفقَ عليَّ، ويخلّصَني من مكائدِ الشّيطانِ الرّهيب.

بقيتُ طولَ المساءِ أتوسّلُ إليهِ بحرارةٍ، ولم أتراخَ في توسّلي. حوالي مُنتصفِ اللّيلِ، بدا لي أنّني في مكانٍ مُقدّسٍ عجيبٍ، يتمنّى كلُّ واحدٍ أن يرى هيئتَهُ وجمالَهُ، وأن تغمرَهُ النّعمةُ الّتي فيه، ويعجَزُ المرءُ عن وصفِهِ بالكلام. حينئذٍ، بدا لي أنّ قبّعةً سوداءَ مكسوّةً بالفراءِ وُضعَت على رأسي. ولكن، - يا عبدَ اللّهِ إفثيميوسَ الشّافي-، أتمنّى ألاّ توضعَ أبدًا هذه القبّعةُ على رأسِ أحدٍ، أيًّا يكن! فهي من الدّاخلِ مكسوّةٌ، عِوَضَ الوَبْرِ، بأشواكٍ ليسَت بصغيرةٍ أو يُمكن احتمالُها، بل هي عريضةٌ، وطولُها كطولِ الأدواتِ المُسنّنةِ الّتي تُستعمَلُ في الكتابة. كانَتْ هذه القبّعةُ تُسبّبُ لي ألمًا مُبَرِّحًا، بحيثُ استحالَ عليّ تحريكُ رأسي، وبالكادِ استطعتُ التّنفّس.

بعدَ أن عانيتُ ألمًا رهيبًا كهذا، قرّرتُ أن أردّدَ اسمَ إفثيميوس مُتوسّلاً إليه. وها هو يظهَرُ لي للحالِ في هالةِ نورٍ وفيرٍ، بشعرِهِ الأبيضِ، ووجهِهِ المُستديرِ، ونظرتِهِ المُشعّةِ، قصيرَ القامةِ، طويلَ اللّحيةِ، مُرتديًا معطفًا أسودَ، وحاملاً عصا في يده. سألَني: «ماذا تطلبُ إليّ؟ ماذا تريدُ أن أفعلَ لك؟» وأنا أجبتُهُ بخوفٍ ورعدةٍ: «أشفِقْ على مُصابي، وحرِّرْني من هذا الشّيطانِ الّذي يعذّبُني». تابعَ بلهجةٍ أشدَّ صرامةً: «هل اقتنعتَ الآن بأنّ لا شيءَ ممّا نفعلُه يُمكنُ أن يَخفى عن اللّه؟ هل علّمَتْكَ عذاباتُكَ فظاعةَ الشّرِّ عندما يُحتقَرُ ما هو للّهِ، ويُبَدّدُ كيفما كان؟ فكما أنّ الإحساناتِ المقدّمةَ إلى الكنائسِ باستعدادٍ صالحٍ تصعَدُ مباشرةً إلى اللّهِ، وهو بالمقابلِ يعرفُ أن يُكافِئَ من عُلاه، هكذا أيضًا الّذينَ يسرقونَ الأواني المُقدّسةَ يُخطئونَ إلى اللّهِ نفسِه، وسيُدانونَ حتمًا. إن كانَ حنانيا، فيما مضى، قد عوقِبَ مع زوجتِهِ بصرامةٍ شديدةٍ، لاحتفاظِهِما

بجزءٍ ممّا قدّماه بذاتِهما، فماتا للحالِ بسببِ فعلتِهما[81]، فترى، أيّةُ مغفرةٍ لِمَنْ لا يتردّدُ في سَلْبِ ما يُقرّبُهُ الآخرون؟ مع ذلك، إن وعدتَني الآن أنّك لن تمدَّ يدَكَ مُطلقًا لسرقةِ الأشياءِ المُقدّسةِ، كما أنّك لن تُسَرَّ بقبولِ أفكارٍ مُذِلَّةٍ، فسأتوسّلُ إلى اللّه ليشفيَكَ، وهو المحبُّ البشرَ لا يريدُ موتَ الخاطئِ، بل أن يعودَ ويحيا[82]، كما يُعلِّمُ الكتابُ المُقدّس. لقد أصابكَ هذا الشّرُّ لأنّك، فيما أُوكِلْتَ رعايةَ الأشياءِ المُقدّسةِ، لم تبقَ أمينًا للّهِ، بل مِلْتَ للحالِ نحو الخداعِ والسّرقةِ، مريدًا أن تحصدَ من حيثُ لم تزرَعْ، وتجمعَ من حيثُ لم تبذُر[83]. هذه الخطيئةُ هي سببُ ثورةِ الجسدِ والزّنى. هذه الثّورةُ كانَت، هي نفسُها، مبدأَ هذه العاصفةِ الرّهيبةِ الّتي شنَّها الشّيطان».

عند سماعي أقوالَ القدّيسِ هذه، وعدتُه أنّني سأنتبِهُ من الآن فصاعدًا. حينئذٍ، زجرَ الشّيطانَ الدّنسَ، وأمسكَ القبّعةَ بيدِه، ونزعَها بصعوبةٍ كبيرةٍ عن رأسي. للحالِ، تغيّرَ شكلُها، وبدَتْ في يدَي القدّيسِ عبدًا صغيرًا، عيناهُ كالنّار. بدا لي أيضًا أنّ حفرةً سحيقةً فُتحت عند قدمَي القدّيسِ، فرمى فيها الشّيطان. ثمّ عادَ إليَّ من جديدٍ، وقالَ لي ما سبقَ المسيحُ، وقالَه للكسيح: «ها قد تعافَيْتَ. من الآن فصاعدًا، لا تَعُدْ إلى الخطيئةِ، إنّما انتبهْ إلى ذاتِكَ لئلاّ يُصيبَكَ شرٌّ من هذا»[84]. حينئذٍ، تحرّرتُ أنا من الهوى، وشكرتُ اللّهَ بحرارة. من تلك السّاعةِ، وحتّى اليومِ، لم يُصِبْني شرٌّ».

ويختِمُ الكاتبُ كيرلّسُ بقولِه: هذا ما أعلَمَني به بولسُ، وأنا دوّنتُهُ ليعلَمَ به النّاسُ جميعًا.

- عن الأبِ كاسيانوس -

في أديارِ الشّرقِ كلِّها تقريبًا، يخدِمُ كلُّ أخٍ بدورِهِ أسبوعًا في المطبخِ، وفي سائرِ أعمالِ الطّاعة. بهذا التّغييرِ يرتاحُ الإخوةُ، وهم يُكمِّلونَ ناموسَ المحبّةِ بخدمةِ أحدِهم الآخر. عند نهايةِ الأسبوعِ، في يومِ القيامةِ أي يومِ الأحدِ، يُسَلِّمونَ أدواتِ العملِ لِمَنْ يَليهِم في الخدمةِ، وذلك بعد خدمةِ

---

٨١. أع ٥، ١-١٠. ٨٢. حز ١٨، ٢٣. ٨٣. أنظر مت ٢٥، ٢٤.

٨٤. يو ٥، ١٤.

السّحر. يجتهِدُ الإخوةُ الّذينَ يستلمونَها في الاعتناءِ بها لحفظِها بحالةٍ جيّدةٍ، لئلاّ يضيعَ شيءٌ أو ينكسرَ، كأنّهم مؤتمنونَ على أوانٍ مُقدّسةٍ ومُكرّسةٍ للّه. في الواقعِ، هم يَعلمونَ أنّ عليهم أن يعطوا حسابًا، لا إلى مدبّرِ الدّيرِ فحسبُ، بل إلى اللّهِ أيضًا، إن حدثَ بداعي الإهمالِ، أو الكسلِ، أن كُسِرَتْ إحدى الأدواتِ، أو ضاعَت. ومن أجلِ تأكيدِ أقوالي، سأخبرُ حادثًا كنتُ فيه شاهدَ عيان.

خلالَ أسبوعِ خدمةِ أحدِ الإخوةِ، مرَّ المدبّرُ في المطبخِ، ورأى قليلاً من العدسِ مرميًّا على الأرض. لم يُغفلِ الأمرَ كأنّه غيرُ مهمٍّ، إنّما وبّخَ الأخَ الّذي كانَ يخدِمُ في ذلك الأسبوعِ بصرامةٍ، ووضعَ له قصاصًا، لأنّه أهملَ أشياءً مكرّسةً للّهِ، وداسَ على ضميرِه. يعتني الرّهبانُ بالموادِّ، ويستعملونَها بدقّةٍ لامتناهيةٍ، بحيثُ ينتبهونَ كثيرًا إلى ما يبدو لنا تافهًا، مثلَ نقلِ إناءٍ موضوعٍ في غيرِ مكانِه، أو جمعِ إناءٍ ساقطٍ، لأنّهم يؤمنونَ أنّه، حتّى من أجلِ هذه التّصرّفاتِ الصّغيرةِ، سيُكافِئُهم اللّهُ سيّدُهم.

كما قلتُ، نظامُ الأسابيعِ تسري أحكامُهُ في الشّرقِ كلِّه. أمّا عندَ المصريّينَ، فلا يتبدّلُ الإخوةُ في خدماتِهم بتاتًا. يبقى كلُّ واحدٍ في الخدمةِ الّتي يكونُ فيها مناسبًا من دونِ أن يتبدّلَ، لأطولِ فترةٍ ممكنةٍ، ما لم تُعِقْهُ الشّيخوخةُ أو المرض. تُوكَل العنايةُ بالمطبخِ إلى مَن هو أكثرُ جدارةً بين الإخوةِ، ما دامَ ينمو في الفضيلةِ، وتُساعدُه قواه الجسديّة.

- عن القدّيسِ أفرام -

١- الإهمالُ خيانةٌ لكلِّ ما هو صالحٌ، وثمرتُه عبوديّةٌ رهيبةٌ، بسببِ بطالةِ اليدَيْن، وعدمِ الاهتمامِ بحسنِ تنظيمِ الحياةِ الشّخصيّة. مع ذلك، إنّ مَن يجدُ نفسَهُ في هذه الحالةِ، يستطيعُ أن يهرُبَ من قبضتِها، عندما يُثَبّتُ عزمَهُ على ذلك.

٢- الرّاهبُ الكسلانُ لا يُغلِقُ حتّى بابَ قلاّيتِهِ، إلى أن تقوّضَه الرّيحُ من جرّاءِ تخبّطِه. أمّا الرّاهبُ اليقظُ، فلا مأخذَ عليه.

الفصل الثّامن

بأيٍّ استعدادٍ يجبُ أن نَخدُمَ ونُخدَمَ، وما الرّبحُ الّذي نَجنيهِ من الخدمة.

- عن أنطيوخوس البَنْديكتيّ -

على الرّاهبِ المُلتزمِ الطّاعةَ أن يسهرَ على بذلِ طاقتِهِ كلِّها في عملِه من أجلِ إتمامِ خدمتِه. فلا يتهاملَنَّ مطلقًا، ولا يغفلَنَّ عن إتمامِ واجبِهِ، أو يُظهِرَنَّ تهاونًا بداعي الكسلِ، أو الحزنِ، أو الغيظِ، أو المشاجرةِ مع بعضِ الإخوةِ، حاسبًا أنّ ما يفعلُه عملُ اللّه. فكلُّ ما في الدّيرِ مُكرّسٌ للّهِ، ومَن يَخدُمْ بتهاونٍ، يَتَعَرَّضْ لخطرٍ كبيرٍ ورهيبٍ كمحتقِرٍ للّهِ القائلِ: «بما أنّكم فعلتُم بأحدِ هؤلاءِ الصّغارِ، فبي قد فعلتم». وأيضًا: «بما أنّكم لم تفعلوه، فبي لم تفعلوا»[85]. سواءٌ خَدَمَ المرءُ بهِمّةٍ أو بتهاونٍ، فخدمتُهُ موجّهةٌ إلى اللّه.

إسمَعْ ما يقولُهُ النّبيُّ إرميا عن الّذينَ يخدمونَ بتهاونٍ: «ملعونٌ الإنسانُ الّذي يعملُ عملَ الرّبِّ بتهاون»[86]. لنسعَ إذًا، يا إخوةُ، إلى أن نفرَّ من لعنةٍ رهيبةٍ كهذه، ولنتمّمْ خدمتَنا كاملةً، بكلِّ عنايةٍ وحماسةٍ، وكخُدّامٍ للمسيحِ، لننالَ البركةَ كتلاميذِ ذاك المباركِ الّذي قالَ: «إن كانَ أحدٌ يخدمُني فليتبعْني، وحيثُ أكونُ أنا هناك أيضًا يكونُ خادمي. وإن كانَ أحدٌ يخدمُني، يكرِّمْه أبي»[87]. كذلك قالَ: «أنا بينكم كالخادم. فإنّ ابنَ الإنسانِ لم يأتِ ليُخدَم، بل ليَخدُم، ويبذُلَ نفسَهُ فديةً عن كثيرين»[88]. كما أنّهُ يحثُّ تلاميذَهُ على الأمرِ نفسِه، قائلاً لهم: «من أرادَ أن يكونَ أوّلاً، فلْيَصِرْ آخرَ الكلِّ، وخادمًا للكلّ»[89].

---

٨٥. مت ٢٥، ٤٠ و٤٥.	٨٦. إر ٣١، ١٠.	٨٧. يو ١٢، ٢٦.

٨٨. لو ٢٢، ٢٧. مت ٢٠، ٢٨.	٨٩. أنظر مر ٩، ٣٥.

لنسمَعْ ما يقولُ الرّسولُ: «ها الآن وقتُ النّعمةِ، ها الآن يومُ خلاص. ولا نسبّبْ عثرةً لأحدٍ، لئلاّ تُلامَ خدمتُنا. بل، في كلِّ شيء، لنُظْهِرْ أنفسَنا كخدّامِ اللّهِ: في صبرِنا الكثيرِ، في الشّدائدِ، في أتعابٍ، في أسهارٍ، في أصوامٍ، في مشقّاتٍ، في طولِ أناةٍ، في محبّةٍ بلا رياءٍ، في كرازةِ الحقّ. كخدّامٍ للمسيحِ نعملُ مشيئتَهُ من كلِّ القلبِ، ونخدمُ بنيّةٍ صالحةٍ، كأنّنا نفعلُ ذلك للرّبِّ، وليس للنّاس»[٩٠].

وينصحُ في موضعٍ آخرَ: «يا إخوةُ، كونوا راسخينَ غيرَ متزعزعينَ، عاملينَ بحماسةٍ متزايدةٍ عملَ الرّبِّ في كلِّ حينٍ، عالمينَ أنّ تعبَكم من أجلِ الرّبِّ ليس باطلاً. لأنّ اللّهَ ليس بظالمٍ حتّى ينسى عملَكم والمحبّةَ الّتي أظهرتموها نحو اسمِه، بالخدماتِ الّتي قدّمتموها للإخوةِ القدّيسينَ، وتقدّمونَها»[٩١]. وعن نفسِه يقولُ: «الآن، أنا ذاهبٌ إلى أورشليمَ لأخدمَ الإخوةَ القدّيسين. لكن، جاهدوا معي في الصّلواتِ، من أجلِ أن تكونَ خدمتي مقبولةً عندهم»[٩٢].

فلنفكّرْ إذًا، يا إخوةُ: إن كانَ هؤلاءِ، مصابيحُ المسكونةِ، وأعمدةُ الكنيسةِ، قد خدموا فقراءَ أورشليمَ بهذا القدرِ من الجهادِ والشّوقِ، فكم بالأحرى علينا، نحن أيضًا، أن نخدمَ إخوتَنا في الرّبِّ باستعدادٍ وحماسةٍ، وأن نفنيَ ذواتِنا بكافّةِ الوسائلِ، لنحيطَهم بعنايتِنا، مؤمنينَ بأنّنا نخدمُ اللّهَ، من خلالِهم؟

- عن القدّيسِ برصانوفيوس -

١- سألَ أخٌ الشّيخَ نصيحةً قائلاً: «أيّها الأبُ العطوفُ، أسجدُ أمامَك، طالبًا صلواتِك لتقوّيَني، فقد لَحَظتُ أنّني قلّما أتذكّرُ اللّهَ وسطَ كثرةِ الانشغالاتِ طولَ النّهار. ومتى أعطاني اللّهُ بعضَ الحُزنِ على خطاياي، بفعلِ صلواتِك، أفقدُه، رويدًا رويدًا، بسببِ الاهتماماتِ الخارجيّة. من جهةٍ أخرى، في ما يختصُّ بإدارةِ المَشفى الّذي أُوكِل إليَّ، أخافُ أن أنجرَّ وأصيرَ قاسيًا، ومتباهيًا بنفسي كونَه مركزَ سلطة. وبما أنّني مسؤولٌ عن المأكولاتِ، أخافُ أيضًا أن أتعرّضَ بقوّةٍ لتجربةِ الشّراهة. تعلَمُ، يا أبتِ، أنّني لا أقولُ هذا كرهًا

٩٠. ٢ كور ٦، ٢-٧. أف ٦: ٦-٧. ٩١. ١ كور ١٥، ٥٨. عب ٦، ١٠.
٩٢. رو ١٥، ٢٥ و ٣٠-٣١.

بالخدمةِ - ماذا أفعلُ أنا البائس؟ - ولكنّني أخافُ الاعتيادَ على إثارةِ هذه الأهواءِ في داخلي، إمّا بفعلي الخاصّ، وإمّا بفعلِ الشّياطين. إليكَ ما أفكّرُ فيه. أمّا أنتَ، يا أبتِ، فعرّفْني مشيئةَ اللّهِ، وبصلواتِكَ، قوِّني لأطبّقَ ما تقولُه، وسامحْني».

أجابَ الشّيخُ: «إسمعْ، يا أخي، وتأكّدْ بنعمةِ الرّبِّ أنّنا، منذُ أوكَلْنا إليكَ هذه الخدمةَ، جعلْنا يدَنا وقلبَنا معكَ، أو بالأحرى يدَ اللّهِ، الّذي نتوسّلُهُ في الصّلاةِ من أجلِ خلاصِ نفسِك، ليقوّيَكَ في هذا العملِ حتّى تنالَ حظوةً، وتُظَلِّلَكَ عنايتُه. لن تخلُصَ بطريقةٍ أخرى. فلا تيأس. عندما تسقطُ، انهض. عندما تُخطئُ، دِنْ ذاتَكَ إلى أن يُظهرَ لك الرّبُّ رحمتَهُ، كما تَرغب.

إنتبِهْ جيّدًا ألاّ تتهاون. أمّا بخصوصِ التّشتّتِ، يا أخي، فانتبِهْ إلى هذا الأمرِ: كثيرونَ من النّاسِ يسمعونَ باستمرارٍ كلامًا عن مدينةٍ ما، ويحدُثُ لهم أن يدخلوا إليها، من دونِ أن يعرفوا أنّها المدينةُ المَعنيّةُ بالكلام. وأنتَ، يا أخي، تحفَظُ ذكرَ اللّهِ طولَ النّهارِ، ولا تعرفُ ذلك؟ في الواقعِ، عندما يكونُ لدى أحدٍ وصيّةٌ، ويعتني بحفظِها، فهذا طاعةٌ وذكرٌ للّهِ في الوقتِ نفسِه. ولقد صدقَ الأخُ يوحنّا فيما قالَه لك: «أخرِجْ أوّلاً الأوراقَ، وبأمرِ اللّهِ ستنتجُ الثّمارَ أيضًا». فبما أنّك لا تعرفُ مصلحتَكَ، اتّبِعْ رأيَ من يعرفونَها. هذا هو التّواضُع، وهكذا ستجدُ نعمةَ اللّه.

إعلم إذًا، أنّ هذا مبدأُ خلاصِكَ، فلولا اللّهُ لما وصلْتَ إلى هنا؛ هو مَن أَرْشَدَك. تقوَّ في الرّبِّ، فالرّبحُ الّذي تنالُهُ بمواجهتِكَ ما تتحدّثُ عنه من التّشتّتِ في الأعمالِ ليس بقليل. إلى ذلك، بما أنّنا لم نصِلْ بعدُ إلى الكمالِ، ولم نتحرّرْ كلّيًّا من عبوديّةِ الأهواءِ، خيرٌ لنا أن ينشغلَ ذهنُنا بتشتّتِ خدمتِنا، من أن ينشغلَ بالأهواء. تشجّعْ إذًا، لأنّ السّيّدَ أوكلَ إليكَ هذه المَهمّةَ، وهو سيرتّبُ الأمورَ، ونحن نحملُ معكَ ثقلَ العناية. لا يضلّنّكَ الشّيطانُ بتبريراتٍ مزعومةٍ، كما يقولُ الرّسولُ: «بالكلامِ الطّيّبِ يخدعونَ قلوبَ الأبرياء»[٩٣]. مَن أوكلَ إليكَ هذه المهمّةَ، هو نفسُه قالَ لتلاميذِه: «أنا أرسلْكم»[٩٤]، وأيضًا: «أنا

٩٣. رو ١٦، ١٨.
٩٤. مت ١٠، ١٦.

أكونُ معكم»[٩٥]. لا تَخَفْ، ولا تُهمِلْ طوعيًّا أيَّ شيءٍ يتعلّقُ بالمستوصفِ، ساقطًا في الضّجرِ من العنايةِ، وفي السُّلطَوِيّة. إن فهمتَ ما قلتُه لك، فلن تجدَ عائقًا. فقط عليكَ أن تتيّقظَ لذاتِك، قدرَ ما تستطيعُ، وسيأتي اللّهُ لمعونتِك. لهذا، تقوَّ بنعمتِه».

٢- أخٌ آخرُ استلمَ خدمةَ البوّابِ في ديرِ الشَّركةِ، وكان يتعبُ لوحدِه، سألَ الشّيخَ الكبيرَ نفسَه هل يجبُ أن يأخذَ معه أخًا آخرَ أو لا. أجابَ الشّيخ: «يا أخي، مَن يُرِدْ أن يأتيَ إلى السّيّدِ، ويسيرَ في طريقِ الخلاصِ، عليه، في كلِّ يومٍ، أن ينتظرَ التّجاربَ والأحزانَ والآلامَ، لأنّ الكتابَ يقولُ: «يا بُنيَّ، إن أتيتَ لتخدمَ السّيّدَ، فجهِّزْ ذاتَكَ لمواجهةِ التّجارب»[٩٦]. والسّيّدُ قالَ: «مَن يأتي إليَّ، فليُنْكِرْ ذاتَهُ، ويحمِلْ صليبَهُ كلَّ يومٍ، ويتبعني»[٩٧]. فمن يريدُ أن يصيرَ تلميذَهُ، عليه أن يطيعَ حتّى الموت».

يُفيدُكَ أكثرَ إذًا أن تكونَ وحدَكَ، وتتعبَ قليلاً، من أن يكونَ لكَ رفيق. وعند الضّرورةِ، ستجدُ دائمًا مَن يُساعِدُك. وإن أتى أخٌ لمُساعدتِكَ، فحينئذٍ لن يُطلِقَ العِنانَ للدّالّةِ، كما لو كنتما دائمًا معًا. إتعَبْ واشْقَ، فتجدَ التّواضعَ، وإن وجدتَ التّواضعَ، فستنالُ مغفرةَ خطاياك. فصاحبُ المزمورِ يقولُ: «أنظرْ إلى تواضعي وتعبي، واغفر جميعَ خطاياي»[٩٨]. إن تواضعتَ، تنَلِ النّعمةَ، وإن نلتَ النّعمةَ، تُساعدْكَ. ولقد قالَ القدّيسُ بولسُ، بعدَ أن تعبَ أكثرَ من الرّسلِ جميعِهم: «لا أنا، بل نعمةُ اللّهِ الّتي معي»[٩٩]. إن آمنتَ من دونِ أيِّ تردّدٍ، فستصبحُ أقوى، وستتمكّنُ ليس فقط من القيام بخدمةِ البوّابِ، بل أيضًا بخدماتٍ أخرى. ثابِرْ إذًا بثقةٍ على عملِ اللّهِ، وبطريقةٍ لا تعلَمُها يدبّرُ اللّهُ المسألة.

حينئذٍ، قالَ الأخُ: «صلِّ، يا أبتِ، كي يهبَني اللّهُ الفطنةَ والقوّةَ، لأنّني جاهلٌ وضعيف». فأجابَ الشّيخُ: «يا أخي، إن آمنتَ بأنّ اللّهَ يستطيعُ أن

---

٩٥. مت ٢٨، ٢٠.   ٩٦. حكمة سيراخ ٢، ١.   ٩٧. لو ٩، ٢٣.
٩٨. مز ٢٤، ١٨.   ٩٩. ١ كور ١٥، ١٠.

يقيمَ من حجارةِ الطّريقِ أولادًا لإبراهيم[١٠٠]، وأنّ مَن فتحَ فمَ الأتانِ مرّةً[١٠١] يستطيعُ أيضًا أن يفتحَ فمَكَ، ويعطيَك الحكمةَ، والفطنةَ، والقوّةَ، حينئذٍ، يعطِكَ اللّهُ كلَّ شيء. ألا تعلَمُ هذه الأمورَ، يا أخي؟ بوّابةُ الدّيرِ هي بوّابةُ اللّه. ويعرِفُ اللّهُ أنّ خادمَه البوّابَ يحتاجُ إلى الحكمةِ، والفطنةِ، والمعرفةِ، والقوّةِ، والمعونةِ، والتّمييز. في الواقعِ، يقولُ السّيّدُ: «يعلَمُ أبوكم السّماويُّ ما تحتاجونَ إليه، قبلَ أن تسألوه»[١٠٢]. إن أظهرتَ ثباتًا وصبرًا، فستكونُ نفسُكَ مغبوطة».

وإنّي أظنُّ أنّ ذلك الأخَ عانى من وهنِ الجسدِ، ولهذا السّببِ، تَعِبَ من خدمتِه لوجدِهِ كبوّابٍ، على الرّغمِ من أنّ خدمتَه لم تكن متعبةً جدًّا. مع ذلك، أنظُرْ كم من الخيراتِ رأى الأبُ المتوشّحُ باللّهِ أنّ هذه الخدمةَ ستزوّدُه بها.

- عن القدّيسِ أفرام -

١- أيّها الرّاهبُ، هل خرجتَ من قلاّيتِك من أجلِ إتمامِ خدمةٍ ما؟ فاحفَظْ حواسَّكَ، متجنّبًا حروبَ الأفكارِ واضطراباتِها. الرّاهبُ الفطنُ، عندما يُرسَل لإتمامِ خدمةٍ خارجيّةٍ، يُهيّئُ نفسَهُ ليحفظَها بسلامٍ، أي خاليةً ممّا يُمكنُ أن يجعلَها تضطربُ عندَ عودته. أمّا الرّاهبُ غيرُ الفطنِ، وغيرُ النّاضجِ، فيحضّرُ لنفسِه معارك.

٢- البوّابُ الحكيمُ يعرِفُ كيف يستقبلُ الإنسانَ الفقيرَ المُنهَكَ بوجهٍ بشوش. أمّا الجاهلُ غيرُ الحكيمِ، فيتصرّفُ بغطرسة. أجل، يا أخي، ربّما ليس لدينا ما نُعطيه للفقيرِ، فلنعطِه على الأقلّ كلمةً صالحةً، آخذينَ في الاعتبارِ أنّنا قد نقعُ، نحن أيضًا، في حالتِه البائسةِ عينِها. فالكتابُ المُقدّسُ يقولُ: «في أعمالكِ كلِّها، تذكَّرْ خاتمةَ حياتِك، ولن تخطئَ بتاتًا»[١٠٣].

---

١٠٠. مت ٣، ٩.
١٠١. أنظر عدد ٢٢، ٢٨ - ٣٠.
١٠٢. مت ٦، ٨.
١٠٣. حكمة سيراخ ٧، ٣٦.

٣- البوّابُ الكسلانُ سيُعاقَبُ بقسوةٍ، فيما الّذي امتلكَ حماسةً روحيّةً، يُحَضِّرُ إكليلاً لنفسِه. البوّابُ المُخلصُ هو، بعدَ اللّهِ، حارسٌ للنّفوسِ، فيما البوّابُ غيرُ المُخلصِ، يَقودُ نفسَهُ أيضًا إلى الهلاك. فمن يفتَحُ البوّابةَ لذوي الأهواءِ خلسةً، هو بوّابٌ غيرُ مخلصٍ، ولهذا السّببِ، سيَقودُ نفسَه معهم إلى الهلاك. البوّابُ المُخلصُ لا يُجاملُ الرّاهبَ الّذي لا يسيرُ في الطّريقِ المُستقيم. كلُّ مَن يُجاهِدُ في اتّباعِ الطّريقِ المستقيمِ لا يُعثِرُ قريبَه. أيّها الأخُ، إن أُوكِلَتْ إليكَ مسؤوليّةٌ ما، أي أن تشغلَ مركزًا رئيسيًّا في الجماعةِ، فلا تُهمِلْ خلاصَكَ الشّخصيَّ مُختَلِقًا الأعذارَ المُختلفةَ لتُبَرِّرَ خطاياك[١٠٤]. فيوسفُ أيضًا كانَ مسؤولاً عن الأعمالِ في مصرَ، وأُوكِلَ إليه الاعتناءُ ليس فقط ببيتٍ واحدٍ، إنّما بمصرَ كلِّها. ومع ذلك، لم يحِدْ عن طريقِ الحقِّ، لهذا مجَّدَه الرّبّ[١٠٥].

- عن القدّيسِ اسحق -

العصفورُ يَطيرُ من عشِّهِ للبحثِ عن غذائِه، ولكنّه يُسارعُ دائمًا في العودةِ إليه، ليلدَ فيه فراخَه. هكذا الرّاهبُ، حتّى لو اضطُرَّ إلى الخروجِ أحيانًا من قلاّيتِه من أجلِ حاجةٍ ماسّةٍ، فيجبُ ألاّ يغيبَ بتاتًا عن ذهنِهِ طريقُ العودةِ بأسرعِ ما يُمكنُ إلى قلاّيتِه، حيثُ يُولدُ له ثمرُ الحياةِ الأبديّةِ عندما يُجاهدُ فيها جهادًا خاصًّا، مقترنًا بنعمةِ اللّه.

١٠٤. أنظر مز ١٤٠، ٤.

١٠٥. تك. الفصل ٤١.

الفصل التّاسع

متى تتقدّمُ الخدمةُ على الصّلاة.

- عن الأبِ مرقس -

يقولُ ربُّنا، وهو عارفٌ أنّ الأشياءَ كلَّها تتوطّدُ بالصّلاةِ: «لا تهتمّوا بما تأكلونَ وبما تشربونَ أو بما تلبسونَ، إنّما اطلبوا أوّلاً ملكوتَ اللّهِ وبرَّه، وهذه كلُّها تُزادُ لكم[١٠٦]». وربّما يدعونا الرّبُّ بهذا الكلامِ إلى إيمانٍ أكبر. فأيُّ إنسانٍ يَطرحُ الاهتمامَ بالزّائلاتِ، ويتحرّرُ من الحاجياتِ، لن يؤمنَ بعدَ ذلك بما قالَهُ الرّبُّ بما يختصُّ بالخيراتِ الأبديّة؟ وليُبيِّنَ لنا ذلك، قالَ: «الأمينُ في القليلِ، أمينٌ في الكثيرِ أيضًا[١٠٧]». غيرَ أنّه، هنا أيضًا، أظهرَ لنا رأفتَه. لقد عرَفَ أنّ الاهتماماتِ المادّيّةَ اليوميّةَ لا مَفرَّ منها، لذا لم يُلغِ العنايةَ اليوميّةَ، إنّما سمحَ لنا بالاهتمامِ بحاجاتِ اليومِ، وكإلهٍ أمرَ بألاّ نهتمَّ للغد[١٠٨]. لأنّه لا يُمكنُنا نحنُ البشرَ، ذوي الأجسادِ، أن نزدريَ بالكاملِ حاجاتِ الجسدِ كلَّ الازدراء.

وإن كانَ من الممكنِ أن تقلَّ الانشغالاتُ المادّيّةُ بفضلِ الصّلاةِ، والإمساكِ، فمن المستحيلِ ألاّ نحسبَ لها حسابًا البتّة. لهذا، كلُّ مَن يُريدُ أن يصيرَ إنسانًا ناضجًا، واصلاً إلى الكمالِ الّذي قياسُهُ المسيحُ[١٠٩]، كما يَقولُ الكتابُ المُقدّسُ، يجبُ ألاّ يُفضِّلَ الخدمةَ على الصّلاةِ، أو أن يؤجِّلَ الصّلاةَ، من دونِ اضطّرارٍ، وكيفما اتّفق. ولكن، عندما تدعو الحاجةُ، بحسبِ تدبيرِ اللّهِ، عليه ألاّ يَرفُضَها، أو يتنصّلَ منها، بحجّةِ الصّلاةِ، بل أن يُميِّزَ الفرقَ، وأن يَخدُمَ تدبيرَ اللّهِ من دونِ تردّد. من يُفكِّرُ خلافَ ذلك، لا يؤمنُ، كما جاءَ في الكتابِ المُقدّسِ، أنّ وصيّةً تختلِفُ عن وصيّةٍ، أو أنّ واحدةً تحوي الأخرى، ولا يريدُ، بحسبِ النّبيِّ، أن يطبّقَ الوصايا كلَّها[١١٠]، عندما تبرزُ أمامَه بحسبِ التّدبيرِ

---

١٠٦. أنظر مت ٦، ٣١ و٣٣.
١٠٧. أنظر لو ١٦، ١٠.
١٠٨. أنظر مت ٦، ٣٤.
١٠٩. أف ٤، ١٣.
١١٠. أنظر مز ١١٨، ١٢٨.

الإلهيّ.

وبالتّالي، فالخدماتُ الضّروريّةُ، الّتي تبرزُ أمامَنا بحسبِ التّدبيرِ الإلهيِّ، يجبُ أن نقبلَها حتمًا. ولكن، لنتجنَّبِ الانشغالاتِ الّتي في غيرِ وقتِها، لا سيّما تلك الّتي تجرُّنا إلى الرّفاهيةِ، واكتسابِ الخيراتِ المادّيّةِ أكثرَ، ولنفضِّلَ الصّلاةَ عليها. في الواقعِ، بقدرِ ما يَحدُّ المرءُ من هذه الانشغالاتِ بنعمةِ الرّبِّ، ويقطعُ عنه الانشغالَ بالأمورِ المادّيّةِ، ينجو ذهنُه من الضّلال. وبقدرِ ما يَحصرُ ذهنَه، يُفسحُ في المجالِ للصّلاةِ النّقيّةِ، ويُظهرُ إيمانَهُ بالمسيح. أمّا إن لم يستطِعْ أحدُهم ذلك بسببِ قلّةِ إيمانِه، أو أيِّ ضعفٍ آخرَ، فليعرفِ الحقيقةَ على الأقلِّ، وليحاوِلْ، قدرَ الإمكانِ، أن يحكمَ على ذاتِهِ بعدمِ النّضج. فمن الأفضلِ أن يُعطيَ اللّهُ جوابًا عن نواقصِه، عوضًا عن الضّلالِ والكبرياء.

ولكن، إلى جانبِ ما قلناه، يلزمُنا اقتناءُ تمييزٍ من لدنِ اللّهِ، لمعرفةِ ما هي الانشغالاتُ الّتي يمكنُ أن نُفَضِّلَها على الصّلاةِ، ومتى نَقومُ بها، لئلاّ يعتقدَ المرءُ أنّه يُقدِّمُ خدمةً ضروريّةً، فيما هو، في الواقعِ، يجتهدُ في العملِ الّذي يحبُّه، جاهلاً ضرورةَ الحُكمِ في الأمورِ بحسبِ ما يرضي اللّهَ، لا ما يُرضي ذاتَه. هذا التّمييزُ صعبٌ لأنَّ الوصايا الضّروريّةَ لا تُطبَّقُ دائمًا، وليست دائمًا هي نفسَها. علينا أن نفضِّلَ الواحدةَ على الأخرى بحسبِ الظّروفِ، بما أنّه ليس علينا أن نتمِّمَ الخدماتِ كلَّها طولَ الوقتِ، بل في الوقتِ المناسب. أمّا الوصيّةُ الّتي أُعطيناها كقانونٍ فهي أن نصلّيَ من دونِ انقطاعٍ[111]، ولهذا السّببِ، علينا أن نفضِّلَها على الانشغالاتِ الأخرى، غيرِ الضّروريّة.

لقد علّمَ الرّسلُ جميعُهم هذا الفرقَ للجماعةِ الّتي أرادَتْ أن يَنشَغِلوا بخدمتِها: «لا يَنبغي أن نترَكَ نحن البشارةَ بكلمةِ اللّهِ، ونخدمَ موائد. انتخِبوا سبعةَ رجالٍ منكم مشهودًا لهم، فنقيمَهم على هذه الحاجة. وأمّا نحن، فنواظِبُ على الصّلاةِ وخدمةِ الكلمة». ولقد أعجَبَ هذا الاقتراحُ الجميع[112]. فماذا نتعلّمُ من هذا؟ أنّه حَسَنٌ لمن لا يزالونَ غيرَ قادرينَ على أن يتكرَّسوا للصّلاةِ، أن ينشَغِلوا بالخدمةِ، لئلاّ يخسروا الاثنتين. أمّا الّذينَ يقدِرونَ على ذلك، فالأفضَلُ لهم ألاّ يُهمِلوا ما هو أسمى، أي الصّلاة.

---

١١١. ١ تس ٦، ١٧. ١١٢. أع ٦: ٢ - ٥.

الفصل العاشر

واجبُ الاستيقاظِ بحماسةٍ من أجلِ الصّلاةِ، والدّأبِ عليها باجتهاد.

كيفَ، منذُ البدايةِ، أُقيمَتِ الصّلواتُ في ساعاتٍ محدَّدةٍ، ولأيِّ سبب. ووجوبُ عدمِ إهمالِها.

- عن غريغوريوس الذّيالوغوس -

في أحدِ الأديارِ الّتي أسَّسَها عبدُ اللّهِ بنديكتوس، كانَ راهبٌ يُحارِبُه الكسل. لم يحتَمِلِ البقاءَ مع الإخوةِ في وقتِ الصّلاة. فَرَاحَ يتركُ الكنيسةَ، ويعكُفُ على الثّرثرةِ واللاّمبالاةِ، فيما الإخوةُ جميعًا يصنعونَ مطّانيّاتِهم أمامَ اللّه. وبعد أن نصحَهُ رئيسُه، مرّاتٍ كثيرةً، من دونِ أن يلقى أيّةَ نتيجةٍ، أخذَهُ إلى رجلِ اللّهِ بنديكتوس، وأطلَعَهُ على هوى الأخ. شرَحَ الأبُ القدّيسُ للرّاهبِ بإسهابٍ، وحسبَ الأصولِ، ماهيَّةَ كسلِه. ثمّ صرَفَهُ بعد أن ثبَّتَهُ بنصائحِه. بعودتِهِ إلى الدّيرِ، اتّبَعَ الرّاهبُ نصائحَ القدّيسِ لمدّةِ يومَيْن. ولكنّه، في اليومِ الثّالثِ، رجعَ إلى عادتِهِ الشّيطانيّةِ، وبدأ، من جديدٍ، يحيدُ عن الطّريقِ المُستقيمةِ ساعةَ الصّلاة. عندما رأى الرّئيسُ أنّ شيطانَ الضّجَرِ غلبَهُ من جديدٍ، عادَ إلى القدّيسِ، وأخبرَه بما يحدث. فأجابَهُ رجلُ اللّهِ: «سآتي أنا نفسي لأصلِحَه».

وهكذا، ذهبَ الأبُ البارُّ إلى الدّيرِ، ووقفَ في الكنيسةِ مع الإخوة. وحالما انتهى التّرتيلُ، وبدأَ الإخوةُ بالسّجودِ على رُكَبِهِم للصّلاةِ، عايَنَ القدّيسُ شابًّا أسودَ يُمسكُ بطرفِ جُبّةِ ذاك الأخِ العاجزِ عن مُتابعَةِ الصّلاةِ، ويَجُرُّهُ إلى خارجِ الكنيسة. بعد انتهاءِ الصّلاةِ، خرجَ رجلُ اللّهِ من الكنيسةِ، ووجدَ الأخَ

واقفًا في الخارجِ، فضربَهُ بالعصا، بسببِ عمى قلبه. للحالِ، تحرّرَ الأخُ من الكسلِ المُسَيطِرِ عليه. ومنذ ذلك الحينِ، استمرَّ يقِفُ مع الإخوةِ الآخرينَ منذ بدءِ الصّلاةِ، حتّى نهايتِها، بكلِّ طيبةِ خاطر. ولم يَعُدِ الشّيطانُ يجرؤُ ويَقتربُ منه، بل، صارَ يتجنّبُهُ بحذرٍ شديد.

- من حياةِ القدّيسِ يوحنّا الرّحيم -

رَغِبَ المغبوطُ يوحنّا في إصلاحِ تكاسلِ المُتضجّرينَ في الاجتماعاتِ الكنسيّةِ، فقامَ بهذا العملِ الجديرِ بالذّكرِ: في أحدِ الأعيادِ المهمّةِ، أثناءَ احتفالِهِ بالقدّاسِ الإلهيِّ، لَحَظَ خروجَ كثيرٍ من المتوانينَ من الكنيسةِ، بعد تلاوةِ الإنجيلِ المُقدّسِ، واستسلامِهم لإضاعةِ الوقتِ في الثّرثرة. فما كانَ منه إلاّ أن خرجَ من الهيكلِ، وجلسَ وسطَ الجمعِ في الخارج. اندهَشَ الجميعُ من ذلك، فقالَ لهم: «يجبُ ألاّ يفاجئَكُم ذلك، فحيثُ تكونُ الخرافُ يكونُ الرّاعي أيضًا. اعتَدْنا أن نحتفلَ بالقدّاسِ الإلهيِّ من أجلِكم، ومن أجل إفادتِكم، فعندما تبقونَ في الخارجِ، يضيعُ تعبُنا سدًى. لذلك، قرّرتُ أن أخرجَ، أنا أيضًا، عندما تُغادرونَ الكنيسةَ، وأن أعودَ إليها معكم، عندما تعودون». حضَّ هذا الأمرُ الكثيرينَ على إصلاحِ ذواتِهم، والعودةِ عن عادتِهم السّيّئة.

- من حياةِ القدّيسِ باخوميوس -

ذاتَ يومٍ، فيما كانَ باخوميوسُ الكبيرُ يُعَلِّمُ رهبانَهُ تعليمًا جزيلَ الفائدةِ، دخلَ في انخطافٍ دامَ وقتًا طويلاً. وحينَما عادَ إلى ذاتِه، قالَ لمدبِّرِ الدّيرِ بهدوءٍ: «إذهَبْ إلى تلك القلاّيةِ، وانظُرْ إلى مَن يُهمِلُ نفسَه، وأَرِهِ الضّررَ الّذي يُلحِقُهُ بذاتِه؛ فهو لم يأتِ إلى هنا لسماعِ كلمةِ اللهِ، الّتي تُقَوّيهِ ضدَّ شيطانٍ يضغطُ عليه ليعودَ إلى العالم. لِمَ لا يصلّي معنا إذًا، عِوَضًا عن النّوم؟ لا أعرفُ هل إنسانٌ كهذا سَيُصبِحُ راهبًا». وبالفعلِ، بعدَ مدّةٍ قصيرةٍ، غادرَ هذا الإنسانُ الدّيرَ، وعادَ إلى العالمِ، عاجزًا عن احتمالِ نيرِ الرّبِّ الخفيف[١١٣].

---

١١٣. أنظر مت ١١: ٣٠.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ شيخٌ: «إن كنتَ تقومُ بعملٍ يدويٍّ في قلاّيتِك، وحانَ وقتُ الصّلاةِ، فلا تَقُلْ: سأُنهي أغصانَ القصبِ القليلةَ لديّ، أو السّلّةَ الصّغيرةَ، ثمّ أنهضُ؛ بل انهَضْ حالاً، وأوفِ دينَكَ للّه. وإلاّ، ستعتادُ تدريجيًّا على إهمالِ صلاتِكَ وقانونِك، وستُصبِحُ نفسُكَ فارغةً من كلِّ عملٍ جسديٍّ وروحيّ. فنشاطُكَ يَظهَرُ منذُ الصّباح».

٢- يُقالُ عن الأبِ مكاريوس إنّه، فيما توجّهَ مرّةً إلى الكنيسةِ، للاحتفالِ بالقدّاسِ، رأى خارجَ قلاّيةِ أحدِ الإخوةِ جمعًا من الشّياطين. اتَّخَذَ بعضُهم مظهرَ نساءٍ يتلفّظنَ بكلماتٍ غيرِ لائقةٍ، وتنكّرَ بعضُهم الآخرُ بمظهرِ شبابٍ ينطقونَ، هم أيضًا، بتجاديفَ مختلفةٍ، وآخرونَ يرقصونَ، وآخرونَ غيرُهم يتّخذونَ أشكالاً أخرى. فَهِمَ الشّيخُ السّببَ لأنّه كان رائيًا، فتنهّدَ وقالَ في نفسِه: «من المؤكّدِ أنّ هذا الأخَ يعيشُ في فتورٍ، ولهذا تحومُ الأرواحُ الشّرّيرةُ حولَ قلاّيتِه على هذا النّحو». بعد انتهاءِ القدّاسِ الإلهيِّ، توجّهَ نحوَ قلاّيةِ الأخِ، وقالَ له: «يا أخي، أمُرُّ بتجربةٍ، ولكنّني واثقٌ بأنّ اللّهَ سيُريحُني إن صلّيتَ من أجلي». صنعَ الأخُ مطّانيّةً أمامَ الشّيخِ، وقالَ: «يا أبتِ، أنا لستُ مستحقًّا أن أصلّيَ من أجلِك». لكنّ الشّيخَ أصرَّ قائلاً: «لن أرحلَ ما لم تعِدْني بأنّك ستعمَلُ صلاةً من أجلي كلَّ ليلة». حينئذٍ، أطاعَ الأخُ أمرَ الشّيخِ الّذي أرادَ أن يُعطيَه حُجّةً ليُصلّيَ في اللّيل.

وبالفعلِ، نهضَ الأخُ ليلاً، وعملَ صلاةً من أجلِ الشّيخ. وبعد أن أنهى صلاتَه شعرَ بالتّخشّعِ، وقالَ في نفسِه: «أيّتها النّفسُ البائسةُ، صلّيتِ من أجلِ شيخٍ محترمٍ كهذا، ومن أجلِكِ ألا تُصلّين؟» فعمِلَ من أجلِ ذاتِهِ صلاةً حارّةً، واستمرَّ طولَ الأسبوعِ بإقامةِ صلاتَيْن كلَّ ليلة.

في الأحدِ التّالي، فيما الشّيخُ ذاهبٌ إلى الكنيسةِ، رأى الشّياطينَ، من جديدٍ، لا يزالونَ واقفينَ قربَ قلاّيةِ الأخِ، لكنّهم ما لبِثوا حزانى ومخزين. فهِمَ أنّ صلاةَ الأخِ هي الّتي جعلَتْهم على هذه الحالِ، فامتلأ فرحًا، وذهبَ إلى الأخِ، وقالَ له: «تلطَّفْ بإضافةِ صلاةٍ أخرى من أجلي». أطاعَ الأخُ، وحينما

عمِلَ الصّلاتيْن للشّيخ، امتلأ تخشُّعًا أيضًا، وقالَ في نفسِه: «أيّها البائسُ، أضِفْ أيضًا لذاتِكَ صلاةً أخرى». هكذا، أمضى ذلك الأسبوعَ عاملاً، كلَّ ليلةٍ، أربعَ صلوات.

ولدى مرورِ الشّيخِ، مرّةً أخرى، نهارَ الأحدِ التّالي، رأى الشّياطينَ يائسينَ تمامًا، وصامتينَ بالكلّيّةِ، فشكرَ اللّه. وأثناءَ عودتِهِ من القدّاسِ، زارَ الأخَ من جديدٍ، وتوسّلَ إليه أن يُضيفَ أيضًا صلاةً أخرى من أجله. قبِلَ الأخُ بذلك، وأضافَ من أجلِ ذاتِهِ صلاةً أخرى. فأصبحَ بذلك يقومُ، كلَّ ليلةٍ، بستِّ صلوات.

في الأحدِ التّالي، فيما الشّيخُ يمُرُّ من جديدٍ، رأى الشّياطينَ واقفينَ، بعيدًا عن القلاّية. ولدى اقترابِهِ منهم، شتَموه مغتاظينَ بسببِ خلاصِ الأخ. حينئذٍ، مجّدَ الشّيخُ اللّهَ، وأتى إلى الأخِ، ونصحَهُ ألاّ يُهمِلَ نفسَه، بل أن يُصلّيَ بلا انقطاع. وهكذا، أصبحَ الأخُ مُتحمِّسًا للصّلاةِ، وابتعدَ الشّياطينُ عنه كلّيًّا بنعمةِ اللّه.

- عن القدّيسِ أفرام -

يا أخي، حينَما يقرَعُ أخوك، في اللّيلِ، بابَ قلاّيتِك، ليوقظَكَ من أجلِ الصّلاةِ، قُم للحالِ، بحيثُ أنّ الآخرَ الأكثرَ توانيًا، عندما يُشاهِدُ حماستَك، يحثُّ نفسَهُ على السّهرِ، وفقًا لما يقولُهُ كاتبُ المزاميرِ: «عينايَ سبقتا تباشيرَ السّحرِ، لكي ألهجَ بكلامِك»[١١٤]، وأيضًا: «في نصفِ اللّيلِ، نهضتُ لأشكرَكَ على أحكامِ عدلِك»[١١٥]. ألم تعلَمْ أنّ النّبيَّ صموئيلَ، رغمَ سَماعِهِ مرارًا من يُناديه، لم يتهاوَنْ في النّهوضِ، كلَّ مرّةٍ، مع أنّه كانَ ولدًا صغيراً[١١٦]؟ إن حدثَ لكَ أن غرِقْتَ في نومٍ عميقٍ، تحتَ تأثيرِ مكيدةٍ شيطانيّةٍ، وتأخّرتَ في الذّهابِ إلى الكنيسةِ للصّلاةِ، فلا تُفوِّتِ الذّهابَ عند استيقاظِكَ لاحقًا، قائلاً في نفسِك: «قاربَت الخدمةُ على نهايتِها، فلمَ أذهبُ الآن؟»

لا تنطِقْ بهذه الأقوالِ لأنّها تُثبِطُ العزيمةَ، وتَجعلُكَ تتهاون. على

---

١١٤. مز ١١٨، ١٤٨.	١١٥. مز ١١٨، ٦٢.	١١٦. ١ صم ٣، ٤ - ١٠.

العكسِ، قُمْ بلا تأخيرٍ، وسارِعْ إلى الخدمةِ كأنَّ أحدَهم يَغْصِبُكَ على ذلك، مثلَ غزالٍ مُطارَدٍ هاربٍ من المِصْيَدة[117]. واعلَمْ هذا: كما أنَّ الّذينَ يعمَلونَ الشَّرَّ سيؤدّونَ حسابًا عن كلِّ خطوةٍ بلا هدفٍ، وكلِّ كلمةٍ بطّالةٍ في يومِ الدّينونةِ[118]، هكذا أيضًا، كلُّ مَن يسعى إلى الصّلاحِ، سينالُ أجرًا عن كلِّ قولٍ صالحٍ، وخطوةٍ صالحة. فإذا وَصَلْتَ عندَ الابتهالِ الأخيرِ، أدخُلْ ولا تخجَلْ، لأنّكَ تستطيعُ، بعد اعترافِكَ لرئيسِ الدّيرِ بما حصلَ لكَ، العودةَ إلى قلاّيتِكَ بعد انتهاءِ الخدمةِ لتتلوَ المزاميرَ الّتي حملَكَ خداعُ الشّياطينِ على تفويتِها. هكذا، في اليومِ التّالي، ستجِدُ نفسَكَ أكثرَ استعدادًا لعملِ الرّبّ. أمّا إذا تهاونْتَ في خدمةِ الصّلاةِ، من دونِ أن تكونَ مُتضايقًا أو مريضًا، فستسبِّبُ لذاتِكَ ضررًا كبيرًا.

فاعلَمْ أيضًا، أيّها الحبيبُ، أنّه بقدرِ ما يُعوِّدُ المرءُ جسدَه على التّنعّمِ، تنمو الأهواءُ فيه. نتيجةً لذلك، تبقى النّفسُ من دونِ ثمرٍ، بعد أن أثقلَتْها عادةُ الجسدِ السّيّئة. لهذا يقولُ المخلِّصُ: «انتبهوا، لئلاّ تثقلَ قلوبُكم في خمارٍ، وسكرٍ، وهمومِ الحياةِ المعيشيّة»[119]. ولهذا السّببِ نفسِه، قالَ الرّسولُ: «أُقْمِعُ جسدي وأستعبِدُهُ، حتّى بعد ما كرزتُ للآخرينَ، لا أصيرُ أنا نفسي مرفوضًا»[120]. أمّا إن غصبَ المرءُ جسدَهُ في عملِ الرّبِّ، يُصبحْ أقوى، وتتلألأُ نفسُه. فكما يقومُ الرّياضيُّ بتمارينَ بدنيّةٍ مُتقَنَة، ليعوِّدَ جسدَهُ على فنِّ المُباراةِ، ينبغي أيضًا لمُجاهدِ التّقوى أن يتدرَّبَ في كلِّ عملٍ صالح.

أودُّ الآن أن أحدّثَكَ عنِ النّعاسِ أيضًا. أعتقدُ أنَّ أسبابَهُ ثلاثة. أوّلاً، عندما يبدأُ أحدُ الإخوةِ بالتّرتيلِ، أو الصّلاةِ، للحالِ يجلبُ الشّرّيرُ عليه نعاسًا، كي يُهملَ صلاتَهُ، ويَرحل. أمّا إذا أيقظَ الأخُ ذاتَهُ، ولم يُظْهِرْ تكاسلاً، فلن يعودَ الشّيطانُ قادرًا أن يفعلَ له شيئًا. لكن، اعلَمْ أنَّ الأخَ يزدادُ اضطرابًا، إن كانَتْ معدتُه مُثقلةً بالطّعامِ والشّراب. لاحقًا، في وسطِ الخدمةِ، ينقضُّ النّعاسُ عليه من جديدٍ، بسببِ تهاملِه، أي عندما لا يغصبُ ذاتَهُ على البقاءِ في مكانِهِ حتّى نهايةِ الصّلاةِ، فيتراخى ولا يحسَبُ أنَّ تركَ الجوقةِ ليذهبَ إلى سريرِه،

---

117. أنظر أم ٦، ٥.

118. أنظر مت ١٢، ٣٦.

119. أنظر لو ٢١، ٣٤.

120. ١ كور ٩، ٢٧.

أو ليجلسَ خارجًا وينامَ، خسارةً كبيرة. بعد انتهاءِ الخدمةِ المُعتادةِ، قد يصيبُ الأخَ نعاسٌ طبيعيٌّ، لا سيّما إن كانَ مريضًا. في هذه الحالةِ، لا بدَّ من إظهارِ القليلِ من التّساهلِ، فإنّ ذلك يوافِقُ المَرضى.

فيا أخي، لا تتهاوَنْ في التّيقُّظِ في كلِّ شيء[121]. عندما تقِفُ في الخدمةِ، بينَ الجماعةِ أو لوحدِك، من أجلِ تمجيدِ ربِّنا ومخلِّصِنا يسوعَ المسيحِ، ويُزعجُكَ النّوعُ الأوّلُ من النّعاسِ، قاوِمْهُ حالما تشعرُ به، واحتَمِلْهُ باجتهادٍ، ولا تُغادِرْ مكانَكَ، حتّى ولو غَلَبَكَ مرّةً أو اثنتين، فَتَجْنِ من ذلك فائدةً كبيرة. فهوى النّومِ الّذي لا يُشبعُ منه، شبيهٌ بهوى الشّراهة. إن اعتادَ أحدٌ على الأكلِ كثيرًا، يطلبْ جسدُهُ كميّاتٍ كبيرةً من الطّعام. أمّا إن اعتادَ على التّقشُّفِ، فلن يحتاجَ جسدُهُ سوى إلى كميّةٍ معتدلة. وهذا الأمرُ نفسُهُ ينطبقُ على النّوم.

كيف تتجرّأُ وتتركُ الخدمةَ، وتخرُجُ قبلَ الحلِّ من دونِ ضرورةٍ مُلحّة؟ إن دُعيتَ، يا أخي، إلى عشاءِ أحدِ الأغنياءِ، فهل كنتَ لتتجرّأَ وتقومَ فيما لا يزالُ الجميعُ جالسينَ على المائدةِ، وتعودَ إلى بيتِك؟ ألم تكُنْ لتنتظرَ حتّى ينهضَ الجميعُ معًا؟

فلنَرهَبْ إذًا، يا عزيزي، ربَّ السّماءِ والأرض. ولنُجاهِدْ كي نرضيَه، لأنّ الكتابَ يقولُ: «ملعونٌ كلُّ مَن يعمَلُ عملَ الرّبِّ باسترخاء»[122]. فَكِّرْ في صيّادي السّمكِ، الّذينَ يجدّونَ في العملِ كلَّ ليلةٍ ساهرين. إن أرهَقَ النّعاسُ أحدَهم، وأهملَ عملَه، وذهبَ ينامُ، فسيعي لدى استيقاظِهِ أنّه لم يلتقِطْ شيئًا من السّمكِ، فيما أولئك الّذينَ سَهِروا نالوا المكافأة. حينئذٍ، يبدأُ بالتّندُّمِ في داخلِه، ويقولُ: «واحسرتاه، ها أنا المتهاونَ الكسلانَ، أغادرُ فارغَ اليديْن، بسببِ تهاوني ونومي». وكما يقولُ صاحبُ المزمورِ: «ناموا نومَهم، ولم يَجِدوا شيئًا في أيديهم»[123].

فَكِّرْ أيضًا في الخزّافينَ والنّحّاسينَ، تجدْ هنا أيضًا أنَّ هذه المِهَنَ تتطلّبُ تعبًا كبيرًا، وسهرًا متواصلاً. هؤلاءِ الحِرَفيّونَ، حتّى يصنعوا أشياءً

١٢١. ٢ تيم ٤، ٥.   ١٢٢. إر ٣١، ١٠.   ١٢٣. مز ٧٥، ٦.

ماديّةً، يحتملونَ جهدًا شديدًا، فيما نحن، ومن دونِ أن نحتملَ أيَّ شقاءٍ، نقفُ في مكانٍ نظيفٍ مُقدّسٍ أمامَ الرّبِّ بوقارٍ، وسلامٍ عظيمٍ، وفرحٍ روحيٍّ، ورجاءٍ صالح. فلماذا نتكاسَلُ إذًا، أيّها الحبيبُ، ونتراخى، غيرَ قادرينَ على إيقاظِ أنفسِنا من أجلِ العبادةِ العذبةِ لربِّنا ومخلِّصِنا؟ فداوودُ يقولُ: «ما أحلى كلماتِكَ في حلقي! هي أحلى من العسلِ في فمي»[١٢٤]، وأيضًا: «شفتايَ تتهلّلانِ حين أرتّلُ لك، وكذلك نفسي الّتي أنتَ افتديت»[١٢٥].

كم هو زمانُ حياتِنا على الأرضِ حتّى نُهمِلَ خلاصَنا بهذه الطّريقة؟ ها النّبيُّ نفسُهُ يُعلِن: «إنّما الإنسانُ كالبخارِ، وأيّامُهُ تزولُ كالخيال»[١٢٦]. فلا تؤاخذْني، يا عبدَ المسيحِ المحبوبِ، أنا المتهاونَ العديمَ الصّبرِ، إنّما اعلَمْ جيّدًا أنَّ اليقظَ يجني ربحًا، أمّا المتهاونُ، فيُلحِقُ الضّررَ بنفسِه. في الواقعِ، سيُعطي كلُّ واحدٍ منّا حسابًا عن نفسِهِ أمامَ اللّه[١٢٧]. لا تعتبرِ النّومَ وراحةَ الجسدِ أمرًا نافعًا، إنّما بالأحرى ضررًا جسيمًا. فالرّبحُ الحقيقيُّ هو ملكوتُ اللّه.

فلنَغْصِبْ ذواتِنا إذًا، أيّها الأحبّةُ، لنربحَ ملكوتَ اللّهِ ونعيمَه، بحسبِ ما هو مكتوبٌ: «طوبى لأولئك العبيدِ الّذينَ، عندما يأتي سيّدُهُم، يجدُهم ساهرين»[١٢٨]. مع ذلك، لا نكتفينَّ بتشجيعِ ذواتِنا فقط، إنّما لينصَحِ الواحدُ الآخرَ ويَحُثَّهُ بمحبّةٍ، في خوفِ الرّبِّ، كي تستيقظَ في كلٍّ منّا الحماسةُ لتمجيدِ إلهِنا ومخلّصِنا يسوعَ المسيحِ، حتّى ننالَ مكافأةً كبيرةً، لا من أجلِ فائدتِنا الفرديّةِ فقط، إنّما أيضًا من أجلِ فائدةِ إخوتِنا، من جهةِ ذاك الّذي قالَ: «كلَّ ما فعلتُم بأحدِ إخوتي هؤلاءِ الصّغارِ، فبي قد فعلتُم»[١٢٩].

- عن الأبِ أشعيا -

عندما تقفُ في قلاّيتِكَ لتعملَ قانونَك، انتبِهْ ألاّ تستخفَّ بهِ عن إهمالٍ، فعِوَضَ أن تكرِّمَ اللّهَ، تستدعي غضبه. على العكسِ، قِفْ بخوفِ اللّه. لا تستنِدْ إلى الحائطِ، ولا تُرخي رجلَيْكَ مُستندًا على إحداها كي تريحَ الأخرى كما يفعلُ الحَمْقى. وامنَعْ عن قلبِكَ الاعتناءَ المُفرطَ بإتمامِ مشيئاتِك، كي يقبلَ

١٢٤. مز١١٨، ١٠٣. ١٢٥. مز ٧٠، ٢٣. ١٢٦. مز ١٤٣، ٤.
١٢٧. رو ١٤، ١٢. ١٢٨. لو ١٢، ٣٧. ١٢٩. مت ٢٥، ٤٠.

اللّهُ ذبيحتَك.

- من قوانينِ الرّسولَيْن بطرس وبولس -

صلّوا في الصّباحِ، عند السّاعةِ الثّالثةِ، وعند السّاعةِ السّادسةِ، والسّاعةِ التّاسعةِ، وفي المساءِ، وفي اللّيلِ عند صياحِ الدّيك. في الصّباحِ، لأنّ الرّبَّ أنارَنا طاردًا اللّيلَ وجالبًا النّهار. في السّاعةِ الثّالثةِ، لأنّه فيها حُكِمَ على المسيحِ من بيلاطسَ البنطيّ. في السّاعةِ السّادسةِ، لأنّه صُلِبَ فيها. في السّاعةِ التّاسعةِ، لأنّ الأرضَ كلَّها، فيما كانَ الرّبُّ على الصّليبِ، تزعزعَتْ مُرتعدةً من جُرأةِ اليهودِ الأثمةِ، وعاجزةً عن احتمالِ الإهانةِ الموجّهةِ للرّبّ. في المساءِ أيضًا، لأنّ الرّبَّ أعطانا اللّيلَ لأجل الرّاحةِ من الأتعابِ اليوميّة. وأخيرًا، عند صياحِ الدّيكِ، لأنّه في هذه اللّحظةِ يُعلَن انبلاجُ الفجرِ، كي نعملَ أعمالَ النّور.



الفصل الحادي عشر

التّرتيلُ والصّلاةُ، وحفظُ التّرتيب.

- عن بالاديوس -

مرّةً، أرسلَ الأبُ بامبو تلميذَهُ إلى الإسكندريّةِ لبيعِ إنتاجِ عملِهِ اليدويّ. أمضى هناكَ ستّةَ عشَرَ يومًا، كما قالَ لنا، وكانَ ينامُ في اللّيالي في نرثكس كنيسةِ القدّيسِ الرّسولِ مرقس. هناك، رأى كيفَ تجري الخدمةُ في الكنيسةِ، وتعلّمَ طروباريّات. ثمّ عادَ إلى الشّيخِ الّذي سألَه: «أراكَ مُضطربًا، يا بُنيَّ. هل تعرّضتَ لتجربةٍ ما في المدينة؟» أجابَ الأخُ: «في الحقيقةِ، يا أبتِ، نحن نُمضي أيّامَنا بفتورٍ في هذه الصّحراءِ، فلا نرتّلُ القوانينَ ولا الطّروباريّات. خلال إقامتي في الإسكندريّةِ، رأيتُ كيف يُرتّلُ المرتّلونَ في الكنيسةِ وتأسّفتُ كثيرًا. لِمَ لا نرتّل، نحن أيضًا، القوانينَ والطّروباريّات؟».

فقالَ له الشّيخُ: «ويلٌ لنا، يا بُنيَّ، دنا الوقتُ الّذي يتركُ فيه الرّهبانُ الطّعامَ القويَّ[١٣٠]، كلمةَ الرّوحِ القدسِ، ليعكفوا على التّرانيمِ والألحان. أيّ تخشّعٍ، وأيّة دموعٍ، تُولّدُها الطّروباريّاتُ لدى وقوفِ أحدِهم في الكنيسةِ، أو في قلّايتِه، ويرفعُ صوتَهُ كالثّور؟ عندما نقفُ أمامَ اللّهِ، علينا أن نفعلَ ذلك بتخشّعٍ كبيرٍ، لا بتعاظم. لم يأتِ الرّهبانُ إلى هذه الصّحراءِ للوقوفِ أمامَ اللّهِ منتفخينَ، وإنشادِ التّراتيلِ، وتنظيمِ الألحانِ، وتحريكِ أيديهم وأرجلِهم، إنّما علينا أن نقدّمَ للّهِ الصّلواتِ بخوفٍ وخشيةٍ، بدموعٍ وتنهّداتٍ، بصوتٍ مليءٍ بالتّقوى والخشوعِ، صوتٍ مُعتدلٍ ومتواضع.

أؤكّدُ لكَ، يا بُنيَّ، أنّه سيأتي وقتٌ يُدمّرُ فيه المسيحيّونَ كتبَ الأناجيلِ

---

١٣٠. أنظر عب ٥، ١٤.

المُقدّسةَ، والرّسلِ القدّيسينَ، والأنبياءِ المُنتَخَبينَ، ماحينَ النّصوصَ المُقدّسةَ، وكاتبينَ عوضًا عنها طروبارياتٍ وأقوالاً معدّةً، وسيمتلِئُ ذهنُهم بها، ويبتعدُ عن الكتابِ المُقدّس. لهذا قالَ آباؤنا إنّ سكّانَ البراري لا يكتبونَ سيرَ الآباءِ وأقوالَهم على ورقٍ جلديٍّ نفيسٍ، إنّما على أوراقِ البردي[131]، لأنّ الجيلَ الآتي مُزمعٌ أن يمحوَ سِيَرَ الآباءِ، ويكتُبَ بدلاً منها بحسبِ مشيئاتِه. التّجربةُ الآتيةُ ستكونُ كبيرة.

سألَ الأخُ: «ماذا إذًا؟ هل ستتغيّرُ عاداتُ المسيحيّينَ، وتقاليدُهم؟ ألن يوجدَ كهنةٌ في الكنائسِ ليحصلَ هذا؟» أجابَ الشّيخُ: «في تلك الأيّامِ، ستبرُدُ المحبّةُ عند كثيرينَ[132]، ولن تكونَ المحنةُ صغيرةً: غزواتُ أممٍ، وتحرّكاتُ شعوبٍ، واضطراباتٌ في الممالكِ، وتراخي الكهنةِ، وتهاملُ الرّهبان. سيزدري رؤساءُ الأديارِ خلاصَهم، وخلاصَ قطيعِهم. سيتحمّسونَ جميعُهم للأمورِ المادّيّةِ ويتنشّطونَ لأعمالِها، ويكونونَ مُحبّينَ للخصامِ، كسالى في الصّلواتِ، نَشيطينَ في النّميمةِ، مُستعدّينَ دومًا للإدانةِ، غيرَ مُقتادينَ بسِيَرِ الشّيوخِ وأقوالِهم، غيرَ مُستمعينَ إليها. بل بالأحرى سيطعنونَ بها، ويقولون: «لو عِشْنا نحن في أيّامِهم، لكنّا جاهدْنا نحن أيضًا». كذلك الأساقفةُ، في تلك الأيّامِ، سيُراعونَ المقتدرينَ، قابلينَ الرّشوةَ في أحكامِهم، غيرَ مدافعينَ عن الفقيرِ في المحكمةِ، ظالمينَ الأراملَ، مُعذّبينَ اليتامى. سينتشرُ، في وسطِ الشّعبِ، الإلحادُ، والضّلالُ، والبغضُ، والعداوةُ، والقتلُ، والخصامُ، والسّرِقةُ، والسّكر».

سألَ الأخُ: «إذًا، ماذا سيفعلُ المرءُ، في تلك الأيّامِ، في ظلِّ هذه الظّروف؟» فأجابَ الشّيخُ: «يا بُنيَّ، إنّ مَن يعمَلُ على خلاصِ نفسِه في تلك الأيّامِ، سيُخَلِّصُها، وسيُدعى عظيمًا في ملكوتِ السّموات».

- من حياةِ القدّيسِ لوقا الجديد -

ذاتَ يومٍ، زار البارُّ لوقا أحدَ أصدقائِه، وكان رجلاً مجاهدًا، ورئيسَ أخويّةٍ فيها رهبانٌ أتقياء. بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ قضاها برفقتِهم، رَغِبَ البارُّ في

١٣١. الكتب من ورق البردي لا تستطيع أن تُمحَى وأن تُكتب من جديد كما هي الكتب من الورق الجلديّ النّفيس.

١٣٢. أنظر مت ٢٤، ١٢.

العودةِ إلى قلاّيتِهِ في الصّحراءِ، فطلبَ الإذنَ بالرّحيل. ولكنّ الرّئيسَ أبى عليه أن يرحلَ، إذ أرادَهُ أن يبقى إلى جانبِه، فالمحبّةُ الّتي تجمَعُ أصدقاءَ يَتحابّون بحسبِ اللّهِ وثيقةٌ جدًّا، وأقوى من المحبّةِ الطّبيعيّة. وبما أنّ البارَّ لم يشأْ أن يُسلِّمَ بذلك، بل أصرَّ على العودةِ، اتّخَذَ الرّئيسُ من العيدِ الكبيرِ الوشيكِ حجّةً، وكلَّمَه بلهجةِ الصّرامةِ الّتي تُحَرِّكُها محبّتُه: «إلى متى ستصرُّ هكذا بفظاظةٍ، وتُفَضِّلُ الصّحراءَ على خِدَمِ الكنيسة. سنحتفلُ جميعُنا قريبًا بهذا العيدِ المُبهجِ، فيما تَحرِمُ أنتَ ذاتَكَ من ترانيمِهِ المُقدّسةِ، وتتأذّى كثيرًا؟»

على هذا، أجابَ لوقا المتوشّحُ باللّهِ، ببساطتِهِ المغبوطةِ: «يا مُعلِّمي الصّالحَ، وراعيَّ المبارَكَ، طلبُك شرعيّ. مع ذلك، فإلى أينَ تقودُ تلاوةُ القوانينِ، والقراءاتِ، وكلِّ الخدمِ الكنسيّةِ، بانتباهِنا إلى مضمونِها، وما هو هدفُها؟ حتمًا، كما تعلَمُ أنتَ، تقودُ إلى خوفِ اللّهِ، وارتقاءِ المُجاهدين. أمّا مَن يُجاهدُ ليحويَ خوفَ اللّهِ في قلبِه، فهل يحتاجُ إلى هذه الخدم؟» عندما سَمِعَ الرّئيسُ ذلك، عَجِبَ لجوابِه، ولم يُرِدْ بعد أن يستبقيَه، إنّما أطلقَهُ للحالِ، ليعودَ إلى كوخِه.

- عن القدّيسِ ذياذوخس -

حين تَرتعُ النّفسُ في وَفرةِ ثمارِها الطّبيعيّةِ، ترفَعُ ترتيلَها عاليًا، وتبتغي المزيدَ منَ الصّلاةِ الصّوتيّة. أمّا إذا كانَ الرّوحُ القدسُ يفعلُ فيها، فإنّها تُرتِّلُ، وتُصلّي في سرِّ القلبِ بكثيرٍ من الانسجامِ والعذوبة. الحالةُ الأولى يُرافقُها استعدادٌ فَرِحٌ، أمّا الثّانيةُ، فَتُرافِقُها دموعٌ داخليّةٌ روحيّةٌ، مع نشوةٍ توّاقةٍ إلى الصّمت. لأنّ ذكرَ اللّهِ الحارَّ، عندما يُحفَظُ بانسجامٍ عن طريقِ خَفْضِ الصّوتِ، يُعِدُّ القلبَ ليطفَحَ بخواطرَ هادئةٍ ومليئةٍ بالتّخشّعِ، وإذ ذاك يُمكنُنا فعلاً أن نرى بذارَ الصّلاةِ تُزرَعُ بالدّموعِ في أرضِ القلبِ، على رجاءِ فرحِ الحَصاد[١٣٣]. أمّا إذا ثَقُلَ علينا القنوطُ، فيجبُ أن نرفعَ الصّوتَ في التّرتيلِ قليلاً، معبّرينَ عن شكوى النّفسِ، ببهجةِ الرّجاءِ، إلى أن تتبدّدَ هذه السّحابةُ الثّقيلةُ

١٣٣. أنظ مز ١٢٥، ٥.

بالتّرنيم.

- عن الأبِ كاسيانوس -

في أديارِ الشّرقِ كافةً، لا سيّما في مصرَ، يُتّبَعُ النّظامُ الآتي فيما يختصُّ بالصّلواتِ والتّرانيم: عندما يجتمعُ الإخوةُ في أوانِ الخِدَمةِ، وينتهي ترتيلُ المزمورِ، لا يسجُدونَ للحالِ، إنّما، قبلَ إحناءِ رُكَبِهم، يقفونَ قليلاً وهم يُصلّونَ بأيدٍ مرفوعة. ثمّ يَسجدونَ إلى الأرضِ، ويُصلّونَ أيضًا لبعضِ الوقت. ثمّ يَنهضونَ كلُّهم معًا، ويرفعونَ أيديهم من جديدٍ، ويُكرّرونَ ابتهالَهم، بحرارةٍ أكبرَ، ولوقتٍ أطول. لا أحدَ يركعُ أو ينهضُ من السّجودِ، ما لم يسجُدِ المتقدّمُ الّذي يقودُ الصّلاةَ، أو ينهض.

وكما قُلْنا، عندما يجتمعُ الرّهبانُ لإتمامِ الخدمِ الّتي ذكرْناها، يحفظونَ صمتًا كاملاً، حتّى لَتخالُ أنّ المكانَ مُقْفِر. وهذا يحدثُ خاصّةً وقتَ الصّلاةِ، فلا يبصقُ أحدٌ، ولا يسعلُ، ولا يتثاءبُ من المَلَلِ أو النُّعاسِ، ولا يتأوَّهُ بصوتٍ مَسموع. لأنّه، كما يُقالُ، منَ يعملِ الصّلواتِ بزهوٍ وصوتٍ عالٍ، يُخطئُ مُضاعفًا: أوّلاً لأنّه يُصلّي بفتورٍ، ثمّ لأنّه يُزعجُ بصوتِهِ العالي سَمْعَ الآخرينَ، ويُشتّتُ ذهنَهم. حينئذٍ، يهاجمُهم الشّياطينُ. فهولاء كلّما يَرونَنا نقِفُ للصّلاةِ، يضغطونَ على النّفسِ بأفكارٍ غيرِ لائقةٍ، يُرافِقُها الضّجر. لهذا السّببِ، يَعتني الإخوةُ بأن يقرأوا المزاميرَ من دونِ ضجّةٍ ولا اضطرابٍ، ويفرحونَ، لا بالآياتِ الكثيرةِ، بل بفهمِ المَعاني، تابعينَ قولَ الرّسولِ: «سأرتِّلُ بروحي، وسأرتِّلُ بذهني»[١٣٤]. فهم يَجِدونَ ترتيلَ عشَرةِ ستيخوناتٍ بفهمٍ أكثرَ إفادةً من ترتيلِ المزمورِ بأكمَلِهِ بذهنٍ مُشتَّت.

عندما تنتهي التّراتيلُ والخدمةُ، كما قُلْنا أعلاه، لا يجرؤُ أحدٌ من الإخوةِ ويقفُ، أو يتكلّمُ مع أحدٍ، ولو قليلاً، بل يتوجَّهُ كلُّ واحدٍ منهم إلى قلاّيتِه، وينشَغِلُ بعملِهِ اليدويِّ، حافظًا وصيّةَ الرّسول[١٣٥].

أثناءَ صلواتِ السّاعةِ الثّالثةِ والسّادسةِ والتّاسعةِ، إن أتى أحدُهم

---

١٣٤. ١ كور ١٤، ١٥.

١٣٥. أنظر أع ٢٠، ٣٥. ٢ تس ٣، ١٢.

خلالَ قراءةِ المزمورِ الأوّلِ، لا يتجرأُ ويَدخلُ إلى الكنيسةِ، أو يَنضمَّ إلى المرتّلينَ، إنّما يقِفُ أمامَ المدخلِ، وينتظرُ خروجَ الإخوة. وفيما يَخرُجونَ كلُّهم، يصنعُ مطّانيّةً كبيرةً، ويطلبُ المغفرةَ بسببِ تهاونِه. أمّا في السّهرانيّاتِ اللّيليّةِ، فيُسامَحُ المتأخّرونَ حتّى المزمورِ الثّاني.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- كانَ القدّيسُ مكاريوسُ الكبيرُ يقولُ للإخوةِ، عندما يُحَلُّ اجتماعُ الصّلاةِ في الكنيسةِ: «أهرُبوا، يا إخوةُ». فقالَ له أحدُ الشّيوخِ: «يا أبتِ، أينَ نستطيعُ أن نفرَّ خارجَ هذه الصّحراء؟» فوضعَ إصبعَهُ على فمِهِ وقالَ: «مِن هذا عليكم أن تفرّوا». ثمّ دخلَ إلى قلاّيتِه، وأغلقَ البابَ، وجلس.

٢- قيلَ عن الأبِ سيسوي الطّيبيِّ إنّه، حالما ينتهي الاجتماعُ، كانَ يتوجَّهُ نحوَ قلاّيتِه، ماشيًا بخطًى كبيرةٍ كأنّه هارب. بعضُ الّذينَ رأوه يتصرّفُ هكذا، قالوا: «فيه شيطان». أمّا هو، فكانَ يعملُ عملَ اللّهِ، ولا يُعيرُ أدنى انتباهٍ إلى ما يُقالُ ضدّه.

٣- سألَ أخٌ الأبَ سلوانَ: «ماذا أفعلُ، يا أبتِ؟ كيف أقتني التّخشّع؟ أنا معذّبٌ من الضّجرِ، والنّعاسِ، والاسترخاء. عندما أستيقظُ من النّومِ، أحاربُ كثيرًا في التّرتيلِ، ولا أستطيعُ الاستيقاظَ تمامًا. لا أنجَحُ حتّى في قولِ مزمورٍ واحدٍ، من دونِ ترتيلِه». أجابَهُ الشّيخُ: يا بُنيَّ، قبلَ كلِّ شيءٍ، قولُ المزاميرِ بألحانٍ هو من الكبرياءِ، فالفكرُ يَهمسُ لكَ أنّكَ ترتّلُ فيما أخوك لا يُرتِّلُ، ثمّ يُقسّي قلبَكَ، ولا يَسمَحُ لكَ أن تَشعُرَ بالتّخشّع. إن أردْتَ التّخشّعَ، فدَعِ التّرتيلَ جانبًا، وعندما تقفُ من أجلِ الصّلاةِ، فليُركِّزْ ذهنُك على المعنى الرّوحيِّ للآيةِ، وفكِّرْ في أنّكَ واقفٌ أمامَ اللّهِ الّذي يفحَصُ الكلى والقلوب[١٣٦]. عندما تستيقظُ من النّومِ، فَلْيُمَجِّدْ فَمُكَ اللّهَ قبلَ أيِّ عملٍ آخرَ، ثمّ اتْلُ دستورَ الإيمانِ والأبانا،

---

١٣٦. أنظر مز ٧، ١٠.

ثمّ ابدَأْ قانونَكَ بتمهُّلٍ متنهِّدًا بعدَ التّفكيرِ في خطاياك، وفي الجحيمِ الّتي تستحقُّها بسببِها.

قالَ الأخُ: «أنا، يا أبتِ، مُذْ أصبحتُ راهبًا، أرتِّلُ القانونَ، والسّاعاتِ[١٣٧]، بحسبِ الألحانِ الثّمانية». أجابَ الشّيخُ: «لهذا السّببِ بالتّحديدِ، يهرُبُ التّخشّعُ والنّوحُ بعيدًا منك. فَكِّرْ في الآباءِ العُظماء. كانوا أناسًا بسطاءً، لم يَعرفوا مقاماتِ الألحانِ، ولا الطّروباريّاتِ، بل بعضَ المزاميرِ وحَسبُ، وقد لَمَعوا في المسكونةِ مثلَ كواكبَ ساطعةِ الضّياء. هكذا كانَ الأبُ بولسُ البسيطُ، والأبُ بامبو، والأبُ أبولُّس، والآباءُ الآخرونَ المتوشّحونَ باللّهِ الّذين تَوَصَّلوا حتّى إلى إقامةِ المَوتى، وصَنَعوا عجائبَ كبيرةً، وتلقّوا سلطةً ضدَّ الشّياطين. وهذا كلُّه، ليسَ بفضلِ ترتيلِ الأودياتِ، والطّروباريّاتِ، والألحانِ المختلفةِ، بل بفضلِ صلاةٍ مليئةٍ بالتّخشّعِ مُرفَقَةٍ بالصّومِ، وكلِّ ما يَجلبُ إلى القلبِ خوفَ اللّهِ المُستمرَّ، الّذي يُرسِّخُ النّحيبَ، ويُطهِّرُ الإنسانَ من كلِّ خطيئةٍ، ويجعلُ ذهنَهُ أنصعَ بياضًا من الثّلج.

أمّا التّرتيلُ، فقد جرَّ كثيرينَ إلى أسافلِ الأرضِ، ليس فقط من أهلِ العالمِ، إنّما أيضًا من الكهنةِ الّذينَ تخنّثوا بهذه الممارسةِ، وسقَطوا في الزّنى، وفي أهواءٍ أخرى مُخجلة. فالتّرتيلُ هو للنّاسِ العائشينَ في العالمِ، وأيضًا للشّعبِ الّذي يجتمعُ في الكنائس.

فَكِّرْ، يا بُنيَّ، في عددِ الطّغماتِ في السّماء. ألا يقولُ الكتابُ إنّه ولا واحدةَ منها تُرتِّلُ بحسبِ كتابِ الألحانِ الثّمانيةِ، إنّما إحدى الطّغماتِ تُرتّلُ الـ هلليلويا[١٣٨] من دونِ انقطاعٍ، وطغمةٌ أخرى: «قدّوسٌ قدّوسٌ قدّوسٌ ربُّ الجنود»[١٣٩]، وأخرى: «مباركٌ مجدُ الرّبِّ الّذي يشعُّ في مكانِ سُكناه»[١٤٠]. وأنت، يا بُنيَّ، إقتدِ بالآباءِ إن أردتَ اكتسابَ التّخشّعِ في صلواتِكَ، حافظًا ذهنَكَ من التّشتّتِ، قدرَ المُستطاع. أحِبَّ تواضُعَ المسيحِ، وحيثُما تَذهَبْ، لا تُظهِرْ نفسَكَ كمُعلِّمٍ حَذِقٍ، بل كأمّيٍّ وتلميذ. واللّهُ سوفَ يَمنَحُكَ التّخشّع.

---

١٣٧. السّاعات (الأولى، والثّالثة، والسّادسة، والتّاسعة) هي خدم قصيرة خلال النّهار. توجد في شكلها المحدّد في كتاب السّواعي الكبير.

١٣٨. أنظر رؤ ١٩: ١- ٦. ١٣٩. أش ٦، ٣. أنظر رؤ ٤، ٨. ١٤٠. حز ٣، ١٢.

٤- قالَ شيخٌ: «يجبُ على مَن يُصلّونَ إلى اللّهِ، أن يقوموا بذلك بوقارٍ وسلامٍ، وتخشّعٍ كبيرٍ. يجبُ ألاّ يُزعجوا ذواتِهم، والآخرينَ بصرخاتٍ غيرِ لائقةٍ مضطربةٍ، إنّما ليسهروا على البقاءِ يقظينَ في أفكارِهِم نحو الرّبِّ بتخشّعِ القلب. في الأمراضِ الجسديّةِ، يحتمِلُ بعضُهم الألَمَ بشجاعةٍ وصبرٍ، عندما يُكَوَّوْنَ ويَخضَعونَ للجراحة. لا يَصرُخونَ، ولا يَضطربونَ، بل يُسَيطِرونَ على ذواتِهم، ويَحتملونَ بصمتٍ آلامَ العلاج. في المقابلِ، يضطربُ آخرونَ مُصابونَ بالأمراضِ نفسِها، وتَصدُرُ عنهم صرخاتٌ غيرُ لائقةٍ، مع أنَّ الألَمَ هو نفسُه للّذينَ يَصرخونَ، وللّذينَ لا يَصرخون. الأمرُ نفسُهُ يحدُثُ للّذينَ يُصلّونَ، ويَستسلمونَ للتّخشّع.

يُصلّي بعضُهم بخشوعٍ، ويَحفظونَ قلبَهم قويًّا بسببِ الهدوء. ولكنّ بعضَهم الآخرَ لا يَتمالكُ نفسَه. هؤلاءِ يُصلّونَ باضطرابٍ وضجّةٍ، وهكذا يُعثِرونَ مَن يَسمعونَهم. يجبُ على عبدِ اللّهِ ألاّ يكونَ مُضطربًا، بل أن يزدادَ تَواضعًا وهدوءًا، كما يقولُ أيضًا النّبيُّ: «إلى مَن أنظرُ، إلاّ إلى المتواضعِ المُنسحقِ الرّوحِ، والمُرتعدِ من كلامي؟»[141] كلُّ الّذينَ يعيشونَ هكذا، يفيدونَ الّذينَ يَرونَهم كافّة».

- عن القدّيسِ أفرام -

الذّهابُ قبلَ الجميعِ إلى الخدمةِ جيّدٌ وخلاصيٌّ، بينما الخروجُ قبلَ انتهاءِ الخدمةِ، من دونِ حاجةٍ ملِحّةٍ، يجلبُ الملامةَ والضّرر. فابقَ بصبرٍ، واسمَعِ القراءاتِ المُقدّسةَ لتستفيد. فكما أنَّ كأسَ ماءٍ باردٍ تُنعِشُ المُسافرَ سيرًا على الأقدامِ، في وقتِ الحرِّ، هكذا تُنعِشُ الأقوالُ المُقدّسةُ النّفس. إن أردتَ أن تسمَعَ، فابقَ بصبرٍ، وإن سمِعْتَ تَصِرْ حكيمًا. أمّا إن استثقلتَ الصّبرَ اللاّزمَ لسَماعِ الكلامِ، فكم بالأحرى ستستصعبُ تطبيقَه؟ من هذا، اعرَفْ ذاتَكَ، وافهَمْ أنّك كسلانٌ مثلي. عندما ندخلُ إلى بيتِ اللّهِ، لنطرُدْ من فكرِنا كلَّ اهتمامٍ، ولنَدَعْ إنسانَنا الدّاخليَّ يتكرّسُ للثّيوريّا والصّلاةِ، من دونِ أن

١٤١. أش ٦٦، ٢.

يضطربَ ذهنُنا بأيٍّ فكرٍ غيرِ لائق.

عندما نُصلّي، لنعرِفْ أمامَ مَن نقفُ، ولنتوجَّهْ من كلِّ نفسِنا وقلبِنا نحوَه، من دونِ تخيُّلِ شيءٍ آخر. افهَمْ هذا عبرَ المثلِ الآتي: إن أخذَ أحدٌ معه مالاً، وذهبَ إلى السّوقِ الشّعبيِّ مُريدًا أن يشتريَ بقرًا، فهل سينشغلُ بالخنازير؟ أو إن أرادَ أن يشتريَ حميرًا، فهل سيتفحّصُ الكلاب؟ ألن يُركّزَ فكرَهُ كلَّه على ما يريده، ويتفحّصَه فقط، لئلاّ يصيرَ سخريةً بتبديدِ مالِهِ على أشياءٍ غيرِ نافعة. هكذا، نحن أيضًا، عندما ندخلُ إلى الكنيسةِ المُقدّسةِ، ونقفُ أمامَ اللّهِ، لنرفَعْ نحوه ذهنَنا كلَّه، مفتكرينَ فقط في الإلهيّاتِ، لنجنيَ منها خلاصَنا، ونتذوّقَ الخيراتِ السّماويّة. لا نبادرنَّ إلى محادثةِ جارِنا، ولا حتّى بكلمةٍ واحدةٍ مخافةَ أن نُغضِبَ خالقَ السّماءِ والأرضِ، بَدَلَ أن نُرضيَه.

كما يحدُثُ لعبدٍ واقفٍ في حضرةِ الملِكِ يتحدّثُ معه، فيقطَعُ حديثَهُ الرّائعَ والمشرِّفَ، إذ يُنادي عبدًا آخر، ويستديرُ للتّكلّمِ معه، مُهينًا بطريقتِهِ الملكَ، ومُغضبًا إيّاه بشكلٍ رهيبٍ، هكذا يحدُثُ مع مَن يتكلّمُ في ساعةِ التّرتيلِ والصّلاة. إذًا علينا أن نقفَ في التّرتيلِ على صورةِ الملائكةِ الّذينَ يُحيطونَ بالخالقَ بخوفٍ كبيرٍ، ويسبِّحونَهُ بتراتيلِهم. أمّا إن كانَ الأخُ الّذي يقفُ بجانبِكَ مريضٌ، ويسعلُ، ويبصقُ بتواترٍ، فلا تنزَعِجْ، إنّما تذكَّرْ أنَّ كثيرينَ تكرّسوا لخدمةِ المرضى والمُعاقينَ، لينالوا من هذا خيراتٍ روحيّةً كثيرةً، متعلّمينَ بالخبرةِ المحبّةَ والرّأفة. هكذا أيضًا، بما أنّكَ لابسٌ الجسدَ نفسَه، أنتَ مُعرَّضٌ لأمراضٍ كهذه، حتّى ولو أنّك، في الوقتِ الحاضرِ، بصحّةٍ جيّدةٍ، برأفةِ اللّه. لهذا لا تتكبَّرْ، ولا تُثقِلْ على المريضِ، إنّما خَفْ، لئلاّ يُصيبَكَ الأمرُ ذاتُه، وأسوأُ منه، واحفَظْ ذاتَكَ برأفتِكَ على الأخ.

الفصل الثّاني عشر

واجبُ تَوبيخِ مَن يُثرثرونَ، أو يتكلّمونَ فيما بينهم، خلالَ الخِدَمِ الشّريفةِ، وضرورةُ طردِهم من الكنيسةِ بصرامةٍ إن لم يصطلحوا.

- من حياةِ القدّيسِ يوحنّا الرّحوم -

إجتهدَ يوحنّا العظيمُ، قدرَ المستطاعِ، في أن يُصلحَ مَن يتحدّثونَ بلا رويّةٍ في الكنيسة. إن رأى أحدَهم لم يصطلحْ بعد إنذارِهِ مرّةً واثنتين، يطرُدْه للحالِ من الكنيسةِ، مُردّدًا له قولَ الرّبِّ: «يجبُ على بيتِ اللّهِ أن يكونَ موضعَ صلاة»[١٤٢]. بالمقابلِ، قدّرَ المُندفعينَ في الخِدَمِ المُقدّسةِ بسببِ محبّتِهم للّهِ، ومَدَحَهم بالإضافةِ إلى ترقِيَتِهم إلى رُتَبٍ مُشرَّفة.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ شيخٌ: «إن وُجِدَ أحدٌ في الكنيسةِ مع كثيرين، أو مع قليلين، وأغلقَ فمَهُ عن تسبيحِ اللّهِ، فهو يعملُ عملَ الشّياطين. فالشّياطينُ الّذين لا يستطيعونَ أن يسمعوا المسيحَ يتمجَّدُ، يجتهدونَ في إسكاتِ الّذين يُرتّلون».

٢- قالَ الأبُ أفاغريوس: «الصّلاةُ من دونِ تشتّتٍ شيءٌ عظيم. والتّرتيلُ من دونِ تشتّتٍ شيءٌ أعظم».

١٤٢. أنظر مت ٢١، ١٣. مر ١١، ١٧. لو ١٩، ٤٦.

- عن القدّيسِ أفرام -

يا أخي، عندما تقفُ في بيتِ الرّبِّ من أجلِ العبادةِ الرّوحيّةِ، كُنْ مُستعدًّا للتّرتيل. فإن صَمَتَّ أنتَ، أصمُتْ أنا أيضًا، ويَصمُتْ مَن هو إلى جانبي، فيتوقّفِ التّرتيلُ حتمًا. ولكن، لا يحصلنَّ ذلك. إن وُجِدَ أناسٌ في المسرحِ يُحيّيونَ رئيسًا أو ملكًا، ورأَوا أحدًا بين الحضورِ لا يهتفُ، هو أيضًا، من كلِّ قوّتِه، يَدفعوه، ويَطردوه، مُعتبرينَ أنّه لا يستحقُّ الوقوفَ بينهم. فكم بالأحرى علينا نحن، عندما نقفُ أمامَ ربِّ السّماءِ والأرضِ، أن نسارعَ إلى التّرتيلِ بقوّة؟ انتبِهْ ألاّ تُزْعِجَ جمعَ النّسّاكِ عندما يَقفونَ ويُرتّلونَ بنعمةِ الرّبِّ، لئلاّ يأتِيَ عليكَ غضبُ اللّهِ وعقابُه. لأنّ الخطيئةَ ضدَّ اللّهِ ثقيلةٌ لا تُغْتَفَرُ، و«أرواحَ الأنبياءِ تَخضعُ للأنبياءِ»، كما يقولُ الكتابُ[١٤٣]، لأنّ «اللّهَ ليس إلهَ تشويشٍ، بل إلهَ سلامٍ وحسنِ ترتيب»[١٤٤].

- عن أنطيوخوس البنديكتيّ -

التّرتيلُ هو عملُ القوّاتِ عديمةِ الأجساد. هؤلاءِ يقفونَ أمامَ اللّهِ، ويسبّحونَه بغيرِ انقطاعٍ، بحسبِ قولِ الكتابِ: «سبّحوا الرّبَّ من السّمواتِ، يا جميعَ ملائكتِهِ، ويا جميعَ قوّاتِه»[١٤٥]. هذا العملُ يليقُ بجميعِ البشرِ: «كلُّ نسمةٍ فلتُسَبّحِ الرّبّ»[١٤٦]. ولكنّه يليقُ، بشكلٍ أساسيٍّ، بالرّهبانِ الّذين اختاروا الحياةَ الملائكيّةَ، لأنّ صاحبَ المزمورِ يَقولُ: «يا خائفي الرّبِّ سبّحوه. يا جميعَ نسلِ يعقوبَ مَجِّدوه»[١٤٧].

فالتّرتيلُ هو ذبيحةُ تسبيحٍ مُستمرّةٌ، بحسبِ قولِ الكتابِ: «الّذي يَذبَحُ لي ذبيحةَ التّسبيحِ يُمجِّدُني»[١٤٨]. لهذا، علينا، نحن الرّهبانَ، أن نُقَدِّمَ التّمجيدَ إلى اللّهِ باستمرارٍ، سامعينَ داوودَ يأمُرُنا ويقولُ: «رتِّلوا. رتِّلوا لإلهِنا. رتِّلوا لملكِنا. رتِّلوا. رتِّلوا له بفهم»[١٤٩]. رتِّلوا له بصوتٍ حسنٍ وقويٍّ[١٥٠]. شفتاي

١٤٣. ٢ كور ١٤، ٣٢ - ٣٣.

١٤٤. معنى المقطع أنّ على المصلّي عند وجوده في اجتماع عباديّ، أن يسود على صلاته - كما النّبيّ على موهبته النّبويّة - وألاّ يزعج الآخرين، مثلاً بأصوات وتنهّدات.

١٤٥. مز ١٤٨، ١ - ٢. ١٤٦. مز ١٥٠، ٦. ١٤٧. مز ٢١، ٢٤. ١٤٨. مز ٤٩، ٢٣.

١٤٩. مز ٤٦، ٦-٧. ١٥٠. مز ٣٢، ٣.

تتهلّلان، حينما أرتِّلُ لكَ، ونفسي الّتي أنتَ افتديْت»[١٥١]. أيضًا يقولُ: «رتِّلوا للرّبِّ، يا أبرارَه[١٥٢]. أعبُدوا الرّبَّ بخشيةٍ، وهلِّلوا له برعدة[١٥٣]. لأنّ الرّبَّ يجبُ أن يُسبّحَ في مجمعِ أبرارِه[١٥٤]. ليبتهِجْ بنو صهيونَ بملِكِهم[١٥٥]. أسبِّحُ وأرتِّلُ لكَ من كلّ نفسي[١٥٦]. استعرَّ قلبي في داخلي، وتأجّجَتِ النّارُ في باطني عند تأمّلي[١٥٧]. هكذا أباركُكَ مدى حياتي، يا ربُّ، وباسمِكَ أرفعُ يدَيّ. فتشبعُ نفسي كما من شحمٍ ودسمٍ[١٥٨]، وبشفاهِ الابتهاجِ يُسبِّحُكَ فمي[١٥٩] لأنّك تسقي من نهرِ نعيمِكَ مَن يُرتِّلونَ لك[١٦٠]».

ما الحاجةُ إذًا لذكرِ شهاداتِ داوودَ في ما يختصُّ بالتّرتيلِ، أو بالفرحِ والابتهاجِ اللّذينِ يولدانِ في قلبِ مَن يُرتِّلُ بتخشّعٍ وانتباه؟ من اختبَرَ هذا، يعرِفُهُ على الوجهِ الأكمل. فلنقِفْ بعزمٍ في التّرتيلِ والصّلاةِ، يا أحبّائي، طاردينَ هجماتِ الأفكارِ والاهتمامات. ففي العادةِ، عندما يَرى الشّياطينُ أحدًا يرتّلُ، أو يُصلّي من كلِّ قلبِه، يُوسوسونَ له أفكارًا حولَ بعضِ الأشياءِ المادّيّةِ، على افتراضِ أنّها مُلحّةٌ، ويُحرّكونَ ذهنَهُ لينشغلَ بها. وذلك لكي يفقدَ حلاوةَ التّرتيلِ باحتجازِ ذهنِهِ بهذه الأفكار. لهذا يَنْظُمُ المسيحُ تسبيحًا[١٦١] من فمِ الأطفالِ، أي هؤلاءِ الأبرياءِ مثلِ الأطفالِ، حتّى يقضيَ هذا التّرتيلُ على مَن يُعذِّبُنا، أي الشّيطانِ، عدوِّ الفضائلِ، والمحامي عن الشَّرّ.

إذًا، عندما نُسبّحُ الرّبَّ ببساطةٍ، نسحقُ حِيَلَ الشّيطانِ، ونُبطلُها. فَليَكُنْ ترتيلُنا بغيرِ انقطاعٍ، لأنّ الشّياطينَ يهربونَ بمجرّدِ ذكرِ اسمِ اللّه. ينبغي أن أذكّرَكم بهذا أيضًا: يُدعى ترتيلُنا قانونًا - أي قاعدةً إجباريّةً - كما تعرفون. كما أنّ الفلاّحَ الّذي يملكُ أرضًا زراعيّةً بالاستثمارِ، إن لم يسلّمْ قانونَهُ كاملاً وجيّدًا - أي قسمًا من المحصولِ العامِّ، الّذي يَدينُ به لصاحبِ الأرضِ، أو للدّولةِ كجزيةٍ - يُعانِ الأمَرّيْن: يُغلقونَ عليهِ في السّجنِ، ويُعَلِّقونَهُ مُقيَّدًا، ويَجلدونَه حتّى يوفيَ دينَه. هكذا الرّاهبُ إن أهملَ قانونَه، للحالِ تُهملُه نعمةُ اللّهِ، ويُسَلَّمُ إلى أعدائِه الّذين يدوسونَه بأرجلِهم.

---

١٥١. مز ٧٠، ٢٣.
١٥٢. مز ٢٩، ٤.
١٥٣. مز ٢، ١١.
١٥٤. مز ١٤٩، ١.
١٥٥. مز ١٤٩، ٢.
١٥٦. مز ٥٦، ٨ ، ١٠٧، ٢.
١٥٧. مز ٣٨، ٣.
١٥٨. أي من وليمة فاخرة.
١٥٩. مز ٦٢، ٤- ٥.
١٦٠. مز ٣٥، ٨.
١٦١. أنظ مز ٨، ٢.

- عن الأبِ أشعيا -

يا إخوةُ، لا تتكلّموا على المائدةِ، أو خلالَ تأديةِ العبادةِ، من دونِ ضرورةٍ قُصوى. لا تُصحِّحوا خطأَ مَن يُرتِّلُ ما لم يسألْكُم هو نفسُه. إن أخطأَ بكلمةٍ وأغفلَ عنها، فلقد أغفلَ عَن كلمةٍ واحدة. لا تَستعجِلوا في قولِها له، لئلاّ يضطرب. أمّا إن قالَ لكم: «أظهِروا محبّةً، وقولوها لي»، فحينئذٍ، أعطوه المَلحوظة.

- عن القدّيسِ أفرام -

يا أخي، إن لم تَبْنِ، فلا تَهدِمْ ما قد بُني. إن لم تُرِدْ أن تزرعَ، فلا تقلعْ ما زُرِع. ما يعني أنّك إن وقفتَ في الخدمةِ، ولم تُرِدْ أن تُرتِّلَ تسابيحَ للرّبِّ، فلا تُشوِّشِ المُرتّلين. عندما يتكلّمُ رجلٌ غنيٌّ، يصمُتُ النّاسُ كلُّهم، ويُطنِبونَ في إطرائِه. والحالةُ هذه، فاللّهُ يُكلِّمُنا عبر الأسفارِ المُقدّسةِ، ونحن لا نُريدُ أن نصمتَ ونسمع؟ بل يتكلّمُ الواحدُ، وينعَسُ الآخرُ، وآخرُ يتوهُ في أفكارِه. ولكن، ماذا يقولُ الكتابُ المُقدّس؟ «مَن يُحَوِّلْ أذنَيْهِ عن سماعِ ناموسِ العَليِّ، فسيمقُتُهُ اللّهُ، ويمقُتُ صلاتَه»[١٦٢].

في وقتِ الصّلاةِ، يتلهّفُ الرّاهبُ المُتهاملُ لسماعِ آمينَ النّهائيّة. أمّا مَن يُصلّي بانتباهٍ، فلا يَملُّ ولا يضطرِب. لنحترِسْ، لئلاّ يصدُقَ فينا قولُ النّبيِّ: «أنتَ على شفاهِهِم، يا ربُّ، أمّا قلبُهم فبعيدٌ عنك»[١٦٣]. أيّها الرّاهبُ، يقفُ الإخوةُ في الصّلاةِ، ويُمجِّدونَ اللّهَ، وأنتَ تَدَعُ ذهنَكَ يجولُ بعيدًا؟ ألا تعرفُ أنّك تضرُّ بنفسِك؟ قُلْ في ذهنِكَ: «تُرى، لو تمَّ توزيعُ ذهبٍ، أو سواه من المادّيّاتِ، ألن نُسارعَ ونذهبَ قبلَ الإخوةِ جميعِهم؟ إن كنّا نندفعُ بحماسةٍ نحو الجسديّاتِ، أفلا يجدُرُ بنا، بالأحرى، أن نُظهرَ حماسةً كُبرى في الرّوحيّات؟ «كُنْ حارًّا بالرّوحِ[١٦٤]»، كما كانَ القدّيسونَ، لتسكنَ معهم في ملكوتِ السّماوات».

---

١٦٢. أنظر أم ٢٨، ٩.
١٦٣. إر ١٢، ٢.
١٦٤. أنظر أع ١٨، ٢٥. رو ١٢، ١١.

الفصل الثّالث عشر

السّهرُ الدّائمُ، والنّومُ بالقدرِ الّذي يتنشّطُ فيه الجسد. وتعويدُ المبتدئينَ في النّسكِ على السّهرِ، بممارسةِ بعض التّمريناتِ النّسكيّة.

- من حياةِ القدّيسِ أفرام -

عندَ حلولِ اللّيلِ، غالبًا ما كانَ القدّيسُ أفرامُ الكبيرُ يعكُفُ على السّهرِ، فيجدُهُ نورُ النّهارِ مَفتوحَ العينَيْن بسِعَة. كانَ يَخشى أن يُباغِتَهُ أميرُ الظُّلُماتِ، وهو مُستسلمٌ للنّوم. حفظَهُ هذا الخوفُ في حالةِ تأهُّبٍ لمواجهةِ اقترابِ العدوّ. اكتفى بالقليلِ من الرّاحةِ؛ لم يَنَمْ حتّى الشّبعِ، بل اعتادَ النّومَ بالقدرِ اللاّزمِ لحفظِ جسدِهِ، الّذي أخضَعَهُ لأتعابٍ وأعراقٍ كثيرة. اجتهدَ في جعلِ النّومِ يهربُ من عينَيْه بألفِ وسيلةٍ، لا سيّما بنومِهِ على الأرضِ، وإرهاقِ جسدِه، عبرَ ممارسةِ نسكٍ صارمٍ وقاسٍ، بشتّى الأنواع.

- من حياةِ القدّيسِ باخوميوس -

كانَ البارُّ بالامون، معلّمُ باخوميوسَ الكبيرِ، إذا رأى النّعاسَ يُثقِّلُ على باخوميوسَ، خلالَ صلواتِهِ اللّيليّةِ، يذهبُ معه إلى الجبل. وهناك، كانا يملآنِ سلالَهما بالرّملِ، وينقلانِها إلى مكانٍ آخرَ حيثُ يُفرغانِها. بهذه الطّريقةِ، كانا يحفظانِ جسدَهما وذهنَهما يقظَيْن من أجلِ الصّلاةِ والتّرتيل. كانَ الشّيخُ يقولُ له: «إسهَرْ، يا باخوميوسُ، لئلاّ يجرّبَكَ الشّيطانُ، ويذهَبَ تعبُكَ باطلاً».

اعتادَ باخوميوسُ أن يَبسُطَ يدَيْه خلالَ الصّلاةِ، وألاّ يُنزلَهما أبدًا. ببسطِ يدَيْه كأنّهما مسمَّرتانِ على الصّليبِ، كانَ جسدُهُ يتألّمُ كي يحفظَ نفسَهُ

في اليقظة.

- عن كتابِ الشّيخ -

قيلَ عن الأبِ سارماتا إنّه، بممارسةِ الصّومِ، والتّقشُّفِ المُستمرِّ، سادَ على النّومِ بقوّةٍ حتّى صارَ يقولُ له: «إذهَبْ»، فيذهَبُ، وعندما يقولُ له: «تعالَ»، يأتي.

- عن الأبِ أشعيا -

أيّها الأخُ، إعمَلْ سهرانيّتَكَ بوقارٍ، ولا تَحرِمْ جسدَكَ ممّا يحتاجُ إليه، بل تَمِّمْ صلواتِكَ بقياسٍ ومعرفةٍ، لئلاّ تظلمَ النّفسُ بالسّهرِ الكثيرِ، فتُهملَ الجهاد. يكفيكَ أن تفهمَ جيّدًا أنّ أعمالَ الفضائلِ هي الأتعابُ الجسديّةُ المُتمّمةُ بمعرفةٍ، بينما أولادُ الأهواءِ تأتي من جرّاءِ الإهمال. محبّةُ الرّاحةِ تَطرُدُ المعرفة. محبّةُ التّعبِ تعني كُرْهَ الأهواءِ، أمّا الكسلُ، فيلدُها من دونِ مَشقّة. فلا تسعَ وراءَ الرّاحةِ، أيّها الأخُ، ما دُمتَ في هذا الجسدِ، ولا تَثِقْ بذاتِك، إن رأيتَ أنكفاءَ الأهواءِ عن إزعاجِها لفترة. في الواقعِ، يتراجَعُ الأعداءُ إلى حينٍ عن احتيالٍ، علَّ الإنسانَ يسترخي معتقدًا أنّه استراح. وفجأةً، يهجمونَ على نفسِهِ المسكينةِ، ويقبضونَ عليها مثلَ العُصفور. إن تغلَّبوا عليها، يرموها، من دونِ شفقةٍ، في خطايا أسوأَ من الأولى الّتي كانَ يُصلّي كي تُغفَرَ له.

فلنقِفْ إذًا بخوفِ اللّهِ، ونسهَرْ على إكمالِ عملِنا النّسكيِّ، بحفظِنا الفضائلَ كلَّها، الّتي تقِفُ بالمرصادِ أمامَ شرِّ الأعداء. فأتعابُ هذه الحياةِ القصيرةِ ومشقّاتُها لا تحرسُنا من كلِّ شرٍّ فحسبُ، بل تُهيّئُ أيضًا أكاليلَ للنّفسِ، قبلَ خروجِها من الجسد.

إنَّ سيّدَنا ومعلّمَنا يعرفُ شراسةَ أعدائِنا الكبيرةَ، وبما أنّه يرأَفُ لحالِنا، يُوصينا بصرامةٍ قائلاً: «تَيَقَّظوا في كلِّ حينٍ، لأنّكم لا تعلمونَ متى يأتي السّارق. قد يأتي فجأةً، ويجدُكم نائمين»[١٦٥]، وأيضًا: «إحترِزوا لأنفسِكم، لئلاّ تقسوَ قلوبُكم في خمارٍ، وسكرٍ، والهمومِ المعيشيّةِ، فيصادِفَكم ذلك اليومُ

١٦٥. أنظر مت ٢٤، ٤٣- ٤٤.

بغتةً»[١٦٦]. ثمّ إنّ الرّبَّ الّذي يعرفُ أنّ الأعداءَ لا يستطيعونَ أن يغلِبوا الإنسانَ إن لم يَكُنْ لهم عليه شيءٌ، قالَ لتلاميذِهِ عندَ إرسالِهم للكرازةِ: «ها أنا أُرسلُكُم كغنمٍ، في وسطِ ذئاب. ولكن، لا تَحمِلوا شيئًا للطّريقِ»[١٦٧]، لأنّه، بمقدارِ ما يكونُ للذّئابِ شيءٌ عليهم، لن يتمكّنوا من الإفلاتِ منهم. فعندما عادَ التّلاميذُ سالمينَ، وقد حفِظوا الوصيّةَ، فرحَ السّيّدُ معهم، شاكرًا اللّهَ والآبَ من أجلِهم، وقالَ لهم مُقوّيًا عزيمَتَهم: «رأيتُ الشّيطانَ ساقطًا مثلَ البرقِ من السّماء. ها أنا أُعطيكم سلطانًا، لتدوسوا الحيّاتِ، والعقاربَ، وقوّةَ العدوِّ كلَّها. ولا يَضُرُّكُم شيء»[١٦٨].

عندما أرسلَهم، قالَ لهم أن يحفظوا الوصيّةَ بخوفٍ وحذر. وعندما فعلوا ذلك، أعطاهم سُلطانًا وقوّة. وكلماتُ الرّبِّ هذه ليست موجّهةً إلى التّلاميذِ فحسبُ، بل إلى جميعِ الّذينَ يَحفظونَ الوصايا. مرّةً أخرى، وضعَ السّيّدُ نعمتَهُ في قلوبِ تلاميذِه، مُقوّيًا إيّاهم، لئلاّ يجبَنوا في التّجاربِ، وقائلاً: «أنتُم الّذينَ ثبتُّم معي في تجاربي»[١٦٩]. ويقصدُ بذلك: أنتم الّذينَ قاوَمْتُم الأهواءَ المخالِفةَ للطّبيعةِ كي تستأصِلوها.

نطقَ بهذه الأقوالِ فيما هو سائرٌ إلى الصّليب. وأضافَ: «وأنا أعطيكم، كما أعطاني أبي، الملكوتَ لتأكلوا وتشربوا على مائدتي»[١٧٠]. فكلُّ من يُريدُ أن يأكلَ ويشربَ على مائدتِه، يسيرُ معه نحو الصّليب. وصليبُ يسوعَ هو احتمالُ الآلامِ، والإمساكُ عن كلِّ هوى، حتّى تُستأصَلَ جميعُها. لهذا، يتجرّأُ الرّسولُ بولس، بعد استئصالِهِ للأهواءِ، ويقولُ: «صُلِبتُ مع المسيحِ، فأحيا، لا أنا، بل المسيحُ يحيا فيّ»[١٧١]. قالَ أيضًا: «مَن هم ليسوعَ المسيحِ صَلبوا الجسدَ مع الأهواءِ والشّهوات»[١٧٢]. وكتبَ إلى تيموثاوسَ: «إن كنّا نموتُ معه، فسنملكُ أيضًا معه. إن كنّا نُنكِرُه، فهو أيضًا سيُنكرُنا»[١٧٣]. لكن، مَن هم هؤلاءِ الّذينَ يُنكرونَ السّيّدَ، إلاّ الّذينَ يعملونَ مشيئاتِهم الجسديّةَ، ويُلوّثونَ المعموديّةَ المُقدّسةَ، الّتي بها وُهِبْنا مغفرةَ الخطايا؟

---

١٦٦. أنظر لو ٢١، ٣٤. ١٦٧. مت ١٠، ١٦. لو٩، ٣. ١٦٨. لو ١٠، ١٨- ١٩.
١٦٩. لو ٢٢، ٢٨. ١٧٠. لو ٢٢، ٢٩ - ٣٠. ١٧١. غلا ٢، ٢٠.
١٧٢. غلا ٥، ٢٤. ١٧٣. ٢ تيم ٢، ١١ - ١٢.

مع ذلك، بعد المعموديّةِ المُقدّسةِ نَملكُ التّوبةَ. في الواقعِ، لا يَخلُصُ أحدٌ من دونِ التّوبة. وبما أنّ الرّسولَ يعرفُ أنّ النّاسَ يُخطئونَ، حتّى بعدَ المعموديّةِ، يقولُ: «لا يَسرقنَّ السّارقُ فيما بعد»[١٧٤]. إذًا، ما دُمنا نحملُ ختمَ المعموديّةِ المُقدّسةِ، فلنجاهِدْ لتركِ خطايانا، حتّى نجدَ رحمةً في يومِ الدّينونة. لأنّ هذا اليومَ قريبٌ، والسّيّدُ يأتي جالسًا على عرشِ مجدِه، وسيجتمعُ حولَه جميعُ الشّعوبِ[١٧٥]، وسيُعرَفُ كلُّ واحدٍ من القنديلِ الّذي في يدِه. مَن لا يملكُ زيتًا، فسينطفئُ قنديلُه، ويُرمى في الظّلمة. أمّا ذاك الّذي يَضيءُ قنديلُه، فسيدخلُ مع الرّبِّ إلى ملكوتِه[١٧٦].

فلنعتنينَّ إذًا، يا أحبّائي، بأن نملأَ أوعيتَنا بالزّيتِ، طالما نحنُ في الجسدِ، حتّى يَضيءَ قنديلُنا. الأوعيةُ هي قوى النّفسِ الحاويةِ الفضائلَ، والزّيتُ في داخلِها هو ممارسةُ هذه الفضائلِ نفسِها. القنديلُ المُضيءُ هو الذّهنُ الّذي تقبّلَ الاستنارةَ الإلهيّة. وهذه النّفسُ، الّتي صارَتْ حاملةً للنّورِ، بممارسةِ الصّلاحِ، ستدخلُ مع المسيحِ إلى ملكوتِه. أمّا النّفسُ الّتي بقيَتْ مُظلمةً، بممارستِها الأعمالَ الغريبةَ عن النّورِ، وإهمالِها الأعمالَ الصّالحةَ، فستذهبُ إلى الظّلمةِ الّتي سبّبَتها لذاتِها بأفعالِها.

قالَ الأبُ أشعيا أيضًا: «يا أخي، أبغِضْ كلَّ ما في العالمِ، وكذلك الرّاحةَ الجسديّةَ، لأنّ هذا كلَّه يجعلُكَ عَدوًّا للّه. كما يُحارِبُ المرءُ عدوًّا، هكذا علينا أن نُحارِبَ جسدَنا، وألّا نريحَه. الرّهبانُ القُدماءُ دعَوا الرّحيلَ عن العالمِ هربًا من الجسدِ، وتأمُّلاً في الموت».

- عن الأبِ مرقس -

لقد أسّسَ ربُّنا يسوعُ المسيحُ ناموسَ الحرّيّةِ، كما يَعرفُ هو كإلهٍ، لتدبيرِ خلاصِ الجميعِ، عبرَ الوصايا المختلفةِ في الإنجيلِ، وركّزَ على هدفٍ موافقٍ لنا كلِّنا، عندما قالَ: «توبوا»[١٧٧]. من هنا، نفهمُ أنّ تنوّعَ الوصايا يقودُ إلى هدفٍ واحدٍ هو التّوبة. في رأيي إنّ التّوبةَ لا تنحصرُ في فترةٍ زمنيّةٍ، أو

١٧٤. أف ٤، ٢٨.

١٧٥. أنظر مت ٢٥، ٣١ - ٣٢.

١٧٦. أنظر مت ٢٥: ٨ - ١٢.

١٧٧. مت ٤، ١٧ مر ١، ١٥.

في أعمالٍ مُعَيَّنَةٍ، إنَّما تنمو بمقدارِ حفظِ وصايا المسيح. يتعلّقُ بعضُ الوصايا بمجالٍ أوسع يَحوي كثيرًا من الوصايا الخاصّةِ، ويستأصلُ، دفعةً واحدةً، شرورًا كثيرة. لهذا، كلُّ من يُحبّونَ اللّهَ، ويؤمنونَ به إيمانًا راسخًا، يُجاهدونَ لتطبيقِ الوصايا الكبرى، من دونِ أن يُلغوا الأدقَّ بينَها، عندما تسنحُ الفرصة.

تستمرُّ التّوبةُ، بالنّسبةِ إلينا جميعًا، صغارًا وكبارًا، حتّى الموت. ولقد حدّدَ فادي نفوسِنا قاعدةً عامّةً لنا كافّةً تَشملُ وصاياه كلَّها، حينَما أعلنَ للرّسلِ: «قولوا لهم: توبوا، لأنّه قد اقتربَ ملكوتُ السّمواتِ»[١٧٨]. في الوقتِ نفسه، أعطى وصايا تُحقِّقُ التّوبةَ، وأمرَ بحفظِها حتّى الموتِ قائلاً: «من يخسَرْ نفسَهُ من أجلي، ومن أجلِ الإنجيلِ، يربَحْها لحياةٍ أبديّة»[١٧٩]. كذلك، شدّدَ على أنّ «من نقضَ إحدى هذه الوصايا الصّغرى، وعلّمَ النّاسَ هكذا، يُدعى أصغرَ في ملكوتِ السّماواتِ»[١٨٠]. إذًا، إن حدّدَ الرّبُّ التّوبةَ حتّى الموتِ، كما أظهرْنا، يَكُنِ ادّعاءُ إنجازِها قبلَ الموتِ تعدّيًا على الوصيّةِ، بما أنّنا حذَفْنا عبارةَ «حتّى الموت».

ولكنّكَ ستقولُ لي حتمًا: «هؤلاءِ الّذينَ أرضوا اللّهَ حقيقةً، وبلغوا الكمالَ، ما حاجتُهم بعدُ إلى التّوبة؟» أجيبُكَ بأنّني أُسَلِّمُ بوجودِ هؤلاءِ النّاسِ، وبأنّنا نلتقي بهم. ولكن، أصغِ جيّدًا، وستعرفُ لماذا يحتاجونَ، هم أيضًا، إلى التّوبة. قالَ الرّبُّ إنّ الكذبَ هو من الشّيطان[١٨١]، وإنّ النّظرَ إلى امرأةٍ بغيةَ اشتهائِها يُعَدُّ زنى، وإنّ الغضبَ على القريبِ هو بمنزلةِ جريمةِ قتل[١٨٢].

والحالةُ هذه، مَن الّذي لم يكذِبْ، ولم ينظُرْ بشهوةٍ، ولم يغضَبِ البتّةَ، من دونِ سببٍ، على قريبِه، ولم يشارِكْ في حديثٍ بطّالٍ[١٨٣]، كي لا يحتاجَ إلى التّوبة؟ لأنّه وإن لم يَكُنِ الآن هكذا، فهو كانَ هكذا حينًا ما. ولذا، عليه أن يتوبَ حتّى الموت. بالإضافةِ إلى ذلك، الطّبيعةُ البشريّةُ نفسُها تُعلِّمُنا ألاّ نهملَ التّوبةَ حتّى الموت. فالذّهنُ لا يستطيعُ أن يبقى شاغرًا، وحتّى

---

١٧٨. أنظر لو ١٠، ٩.

١٧٩. بحسبِ مر ٨، ٣٥. حسب الأنبا مرقس، عندما يتحدّث الرّبّ عن «خسارة النّفس» (=الحياة)، يعني تكريس الحياة كلّها في نسك التّوبة. وهذا، بالمقياس العالميّ، يشبه خسارة الحياة، لكنّه يقود إلى ربح أبديّ.

١٨٠. مت ٥، ١٩.

١٨١. يو ٨، ٤٤.

١٨٢. مت ٥، ٢٨.

١٨٣. أنظر مت ١٢، ٣٦.

ولو بَلَغَ الكمالَ، يكونُ بحالةٍ جيّدةٍ ما دامَ يَتحرّكُ جيّدًا. ولكن، إن توقَّفَ انشغالُهُ بالعملِ الصّالحِ، بحجّةِ أنّه بلغَ الكمالَ، فسينحرفُ حتمًا إلى الشّرّ. وبابتعادِهِ عن الشّرّ، يُجتذَبُ، بطريقةٍ طبيعيّةٍ، نحوَ الخير. بالنّسبةِ إلى المبتدئينَ والمتوسّطينَ والكاملينَ، العملُ الصّالحُ هو الصّلاةُ، وإزالةُ الأفكارِ، والصّبرُ في التّجاربِ الصّعبة. من دونِ ذلك، يستحيلُ على المرءِ أن يُمارِسَ الفضائلَ الأخرى، الّتي بها تَصيرُ التّوبةُ مَقبولة.

تفحَّصْ كلَّ الّذينَ عبروا في هذه الحياةِ منذ قرونٍ حتّى الآن، فتَجِدَ أنّ أحدًا لم يَتبرَّرْ من دونِ أن يهتمَّ بالتّوبةِ، وأحدًا لم يُدَنْ إلاّ الّذينَ ازدرَوها. ما دامَ الشّيطانُ لا يَكفُّ عن محاربتِنا، يجبُ علينا ألاّ نتوقّفَ عن التّوبةِ بتاتًا. حتّى ولو جاهَدْنا، ومارَسْنا التّوبةَ حتّى الموتِ، لا نفي دينَنا، لأنّنا لم نفعَلْ شيئًا يوازي ملكوتَ السّماوات. فكما أنّ الحاجةَ إلى الطّعامِ، والشّرابِ، والكلامِ، من طبيعتِنا، كذلك الحاجةُ إلى التّوبةِ من طبيعتِنا أيضًا.

فيما مضى، كانَ كلُّ مَن يُحكَمُ عليهِ أنّه مستوجبٌ الموتَ، يموتُ بحسبِ الشّريعة. أمّا مَن يعيشُ، فيعيشُ بالإيمانِ من أجلِ التّوبةِ، وإن لم يَكُنْ عن خطيئتِهِ الخاصّةِ، فعلى الأقلّ عن نتائجِ الخطيئةِ الأصليّة[١٨٤].

بالمعموديّةِ تَطهَّرنا، وبعد أن تَطهَّرنا، تلقَّينا الوصايا. مَن لا يُطبِّقِ الوصايا، يُلوِّثْ معموديّتَهُ، لأنّه ينسى أنّه تَطَهَّرَ من خطاياه القديمةِ اليوميّة[١٨٥]، الّتي لا يُستثنى منها أحدٌ، بما أنّ لا أحدَ يستطيعُ حفظَ الوصايا دائمًا، وفي كلِّ شيء. لذا، التّوبةُ ضروريّةٌ جدًّا للنّاسِ جميعًا، وحتّى النّهاية. مَن يَطرَحْها جانبًا، يتراجَعْ، ويُجدِّدْ سقطاتِه القديمة. دعا ابراهيمُ المؤمنُ وأيّوبُ الصّدّيقُ نفسَيْهما أرضًا ورمادًا[١٨٦]، وهذا الكلامُ يُحسَبُ دليلاً على تواضُعِ الفكر. ولكنّ المنفصلَ عن التّوبةِ لا يستطيعُ أن يمتلِكَ فكرَ تواضُع. الفتيةُ الثّلاثةُ، هؤلاءِ الشّهداءُ العُظماءُ، اعترفوا، وهم في داخلِ الأتّونِ المُلتهبِ، بأنّهم أخطأوا وأثموا[١٨٧]، واستمرّوا يتوبونَ عن رذائلِهم السّابقة، مع أنّهم صاروا كاملين.

---

١٨٤. هنا يُقارن بين فترة ما قبل المسيح، الّتي يسري عليها ناموس العهد القديم الّذي كانَ يتطلّب عقاب المذنب، وعصر نعمة الإنجيل الّتي فيها يخلص الإنسان بالإيمان والتّوبة.

١٨٥. ٢ بط ١، ٩.   ١٨٦. تك ١٨، ٢٧ أي ٤٢، ٦.   ١٨٧. دا . نشيد الفتية الثّلاثة.

نشيدُهم كلُّه يشهَدُ على قوّةِ التّوبة.

إن كانَ هؤلاءِ الّذينَ أرضَوا اللّهَ كثيرًا، مُظهِرينَ كمالَهم في أعمالِهم، استخدَموا التّوبةَ لتُعينَهم حتّى الموتِ، فمن يستطيعُ أن يفتخِرَ بذاتِهِ على أنّه بارٌّ، ويزدريَ التّوبةَ؟ أنا أعتقدُ أنّه، حتّى ولو كانَ أحدُهم قدّيسًا، مثلَ بطرسَ أو بولسَ، فلن يختارَ تركَ هذه الممارسةِ الّتي تُولِّدُ التّواضُع. لهذا السّببِ، ساوى بطرسُ نفسَهُ بكورنيليوس، عندما قالَ: «إنهَضْ، أنا أيضًا إنسان»[188]. بولسُ أيضًا، لم تُسَوِّلْ له نفسُهُ أن يَكُفَّ عن ممارستِها، باعتبارِ أنّ المسيحَ أعطاه هذه النّعمة. عبّرَ عن ذلك بقولِه: «أسعى لعلّي أُدْرِكُ الّذي لأجلِهِ أدركَني أيضًا المسيحُ يسوع»[189]. عنى بتعبيرِ «أُدْرِكُ» الإصرارَ حتّى الموت.

إذًا، قُلْ لي، ألا يَنبغي أن نُقدِّمَ للّهِ يوميًّا كلَّ قوّةِ التّقوى الكامنةِ في الطّبيعةِ البشريّة؟ ستقولُ لي بالتّأكيدِ: نعم، بما أنّ اللّهَ وهبَها لطبيعتِنا، ووضعَ وصايا متناسبةً مع قوّتِها. بالتّالي، يُمثِّلُ الخيرُ الّذي نقدّمُه للّهِ اليومَ، دَينَنا اليوميّ. أرِني إذًا ماذا تستطيعُ أن تقدِّمَ من أجلِ مغفرةِ خطاياك السّابقة. أقولُ لكَ إنّك لا تستطيعُ أن تُريني شيئًا كهذا فحسبُ، بل بالأحرى لا تستطيعُ حتّى أن تفيَ دينَكَ اليوميَّ من دونِ عجز. وما البُرهانُ على ذلك؟ هو أنّك لم تثبُتْ بعدُ في هذه الفضائلِ عينِها. كلُّ تقدُّمِكَ الحاليِّ في الفضيلةِ يُظهِرُ إمكانيّاتِ طبيعتِكَ، وستُلامُ على هذا كدينٍ عن الوقتِ الماضي. تقدُّمُكَ اليومَ في الفضيلةِ يُوضِحُ أنّ الطّبيعةَ ليستِ المسؤولةَ، بل الإرادةُ، الّتي كانَتْ بالأمسِ عاجزةً، هي المسؤولة. والخطيئةُ تَجرُّنا لهذا السّببِ تمامًا. القلبُ المُحِبُّ اللّذّةَ هو سجنٌ وسلسلةٌ للنّفسِ، في ساعةِ الموت. أمّا القلبُ المُحِبُّ الألَمَ، فهو بابٌ مفتوحٌ لها. الخوفُ من الجحيمِ، والشّوقُ إلى الفردوسِ، يَمُدّاننا بالصّبرِ في الأحزان. وهذا لا يعودُ إلينا، بل إلى ذاك الّذي يعرِفُ أفكارَنا.

كما أنّ الفضائلَ تَلِدُها الأتعابُ والتّقريعاتُ، هكذا الشّرّورُ تَلِدُها الملذّاتُ والأمجاد. مَن يتخاصَمْ مع النّاسِ خشيةَ أن يتألّمَ أو يُسخَرَ منه، إمّا سيلقى آلامًا أكثرَ في هذا العالمِ بسببِ المِحَن، وإمّا سيُعاقَبُ في الدّهرِ الآتي،

١٨٨. أع ١٠، ٢٦.

١٨٩. في ٣، ١٢.

من دونِ رحمة. إنّ مَن يختارُ الاحتقارَ والمُعاملاتِ السّيّئةَ من أجلِ الحقيقةِ، يسيرُ على الطّريقِ الرّسوليّة، ويحملُ الصّليبَ[١٩٠]، ويوثّقُ بسلسلة[١٩١]. أمّا مَن يُحاوِلُ حفظَ قلبِهِ من دونِ هذيْن الاثنيْن، يضلُّ ذهنُهُ، ويقعُ في التّجربةِ، وفي فخِّ الشّيطان. يستحيلُ أن يتخلّصَ أحدٌ من الشّرِّ، من دونِ تخشّعِ القلب. وهذا التّخشّعُ يحصلُ بالإمساكِ الثّلاثيِّ عن الطّعامِ، والنّومِ، والرّاحةِ الجسديّة. الإفراطُ في هذه المجالاتِ يُسبّبُ محبّةَ اللّذّةِ، وهذه الأخيرةُ تَفتحُ البابَ واسعًا للأفكارِ السّيّئةِ، وتُشكِّلُ حاجزًا أمامَ الصّلاةِ، والخدمةِ المُفيدة.

- عن الأبِ إسحق -

كما يأتي ثمرٌ من آلامِ الولادةِ، ويملأُ الأمَّ فرحًا، هكذا ألمُ التّعبِ النّسكيِّ يوَلِّدُ معرفةَ أسرارِ اللّهِ في نفسِ المُجاهد. أمّا لدى طالبي اللّذّةِ الكريهينَ، فالتّعبُ الجسديُّ يُنشئُ العارَ، وتَحرُّكُهم الخالي من نقاوةِ الذّهنِ يُشبِهُ امرأةً لا أولادَ لها، وثدياها جافّان، وهي غيرُ قادرةٍ على الاقترابِ من معرفةِ اللّه. حتّى ولو أُرهِقَ الجسدُ، فهو لا يُحرِزُ شيئًا. كلُّ راحةٍ يتبَعُها الشّقاءُ، وكلُّ شقاءٍ من أجلِ اللّهِ تتبَعُهُ الرّاحة.

يا أخي، نَقِّ جمالَ نفسِكَ بالدّموعِ، والأصوامِ، وكافّةِ أشكالِ النّسكِ الأخرى، لأنَّ الصّعوبةَ الّتي يجتازُها المرءُ من أجلِ اللّهِ أسمى من عملٍ كبيرٍ مُنَفَّذٍ من دونِ صعوبة. فالصّعوبةُ المقبولةُ طوعًا تَدلُّ على المحبّةِ الحقيقيّةِ، فيما الاسترخاءُ بالعملِ يأتي من ضميرٍ مُتخَم. لهذا السّببِ، امتُحِنَ القدّيسونَ بالتّجاربِ، لا بالرّاحة. العملُ الّذي يصيرُ من دونِ تعبٍ هو فضيلةُ العالميّينَ، الّذينَ يعمَلونَ الإحسانَ خارجيًّا، ولا يجِدونَ نفعًا من العملِ في داخلهم.

أمّا أنتَ الّذي تتشوّقُ إلى الاقتداءِ بآلامِ المسيحِ، فجاهِدْ ضدَّ ذاتِكَ، حتّى تؤهَّلَ لتذوّقِ مجدِه. لأنّه، إن تألّمْنا مع المسيحِ، نتمجّدْ معه[١٩٢]. أعني إن لم يتألّمِ الجسدُ من أجلِ محبّةِ المسيحِ، لا يتمجّدِ الذّهنُ معه. النّسكُ الجسديُّ يتطلّبُ يقظةَ الحواسِّ، فيما النّسكُ النّفسيُّ، أي العملُ الذّهنيُّ،

---

١٩٠. أنظر مر ١٠، ٢١. ١٩١. أنظر أع ٢٨، ٢٠. ١٩٢. أنظر رو ١٧،٨.

يتطلّبُ يقظةَ القلب. وكما أنّ النّفسَ، بحسبِ طبيعتِنا، هي أسمى من الجسدِ، هكذا عملُ النّفسِ يُعَدُّ أسمى من العملِ الجسديِّ. وكما في البدءِ جبلَ اللّهُ الجسدَ قبلَ أن ينفُخَ فيه[١٩٣]، أي قبلَ النّفسِ، هكذا الأعمالُ الجسديّةُ تسبقُ عملَ النّفس.

- عن القدّيسِ أفرام -

يا أخي، إعتنِ بأن تسيرَ طوعيًّا في الطّريقِ الضّيّقِ المليءِ بالصّعوباتِ[١٩٤]، قبلَ أن تسيرَ، عَنوةً، في طريقٍ أكثرَ ضيقًا. لا تبحَثْ عن الرّاحةِ الجسديّةِ، لئلاّ تتأذّى روحيًّا.

- عن القدّيسِ مكسيموس -

التّواضُعُ والإماتةُ يُحرّرانِ الإنسانَ من سائرِ الخطايا. الأوّلُ يَستأصِلُ أهواءَ النّفسِ، أمّا الثّانيةُ، فتَستأصِلُ أهواءَ الجسد. هذا ما فعلَهُ المغبوطُ داوودُ، كما يبدو ممّا يقولُهُ في صلاتِهِ إلى اللّهِ: «أنظُرْ إلى تواضُعي وتَعبي، واغفِرْ جميعَ خطاياي»[١٩٥].

---

١٩٣. تك ٢، ٧.

١٩٤. أنظر مت ٧، ١٤.

١٩٥. مز ٢٤، ١٨.

الفصل الرّابع عشر

محبّةُ الذّات.

- عن الأبِ أشعيا -

مَن يخشَ تعبَ الجسدِ، لا يَصِلْ إلى الحالةِ الّتي توافقُ الطّبيعةَ البشريّةَ، ولا يستطِعِ اقتناءَ الفضائل. أمّا إذا لجأَ المرءُ إلى اللّهِ في أتعابِهِ كلِّها، فللّهِ القدرةُ على إراحتِه. لو لم يكسرْ جدعونُ الجرارَ، لَما كانَ ليرى نورَ المشاعل[196].

هكذا، إن لم يحتقرِ الإنسانُ جسدَه، فلن يرى نورَ الألوهة.

- عن القدّيسِ مكسيموس -

حذارِ من أمِّ الأهواءِ، محبّةِ الذّاتِ، الّتي هي محبّةٌ بهيميّةٌ للجسد. من محبّةِ الذّاتِ تولدُ، وبطريقةٍ منطقيّةٍ، الأفكارُ الأهوائيّةُ الشّهوانيّةُ الأولى، وهي الشّراهةُ، ومحبّةُ الفضّةِ، ومحبّةُ المجدِ الباطل. ومن هذه الأفكارِ تولدُ الأهواءُ جميعُها، متّخِذَةً من حاجاتِ الجسدِ الضّروريّةِ حججًا. فكما قلْنا، ينبغي أن ننتبِهَ، ونحاربَ محبّةَ الذّاتِ، بيقظةٍ كبيرة. فعندما تُستأصَلُ هذه، يُستأصَلُ معها كلُّ ما يولدُ منها.

هوى محبّةِ الذّاتِ يحثُّ الرّاهبَ على الشّفقةِ على جسدِه، فيتناولُ طعامًا أكثرَ من الضّروريِّ، مُتعلّلاً بأسبابٍ صحّيّةٍ ووقائيّة. وهكذا ينجرُّ تدريجيًّا، ويقعُ في هوّةِ محبّةِ اللّذّة. أمّا العلمانيُّ، فتحثُّهُ محبّةُ الذّاتِ على الاهتمامِ بالجسدِ مُشبعًا كلَّ رغبةٍ له[197].

---

١٩٦. قض ٧، ٢٠.

١٩٧. أنظر رو ١٣، ١٤.

بعضُ الأهواءِ يقودُ إلى الزّنى، وبعضُها إلى الكراهيةِ، فيما بعضُها الآخرُ إلى الاثنَيْن معًا.

إنّ الطّعامَ الكثيرَ أو الطّعامَ اللّذيذَ يسبّبانِ الزّنى. محبّةُ الفضّةِ ومحبّةُ المجدِ الباطلِ يسبّبانِ الكرهَ لأخينا الإنسان. أمُّهما، محبّةُ الذّاتِ، تسبّبُ الاثنَيْن معًا، فيما الإمساكُ والمحبّةُ يحاربانِها. فكلُّ من تملّكَتْهُ محبّةُ الذّاتِ، حَوَى كافّةَ الأهواء.

يقولُ الرّسولُ القدّيسُ: «لم يبغِضْ أحدٌ جسدَه قطّ[١٩٨]، بل يقمعُه ويستعبدُه[١٩٩]، ولا يعطيه شيئًا آخرَ سوى اللاّزمِ من القوتِ والكسوة[٢٠٠] في سبيلِ حفظِ حياتِه. هكذا، يحبُّ أحدُهم، من دونِ هوًى، جسدَه كخادمٍ للإلهيّاتِ، مغذّيًا إيّاه ومعتنيًا فقط بما يُلبّي حاجاتِه الأساسيّة.

مَن نُحبُّه، نُبادرُ إلى خدمتِهِ في كلّ شيء. فإن أحبَبْنا اللّهَ، سارَعْنا إلى العملِ بما يُرضيه. أمّا إن أحبَبْنا الجسدَ، عَمِلْنا ما يُرضي هذا الأخير.

إنّ ما يُرضي اللّهَ هي المحبّةُ، والعفّةُ، والتّأمّلُ، والصّلاة. أمّا الجسدُ، فتُعجِبُهُ الشّراهةُ، والزّنى، وكلُّ ما يزيدُهما. لهذا، لا يستطيعُ النّاسُ الجسديّونَ أن يُرضوا اللّهَ[٢٠١]، أمّا مَن هم للمسيحِ، فقد صَلَبوا أجسادَهُم مع الأهواءِ والشّهوات[٢٠٢]».

إن توجّهَ الذّهنُ إلى اللّهِ، استعبَدَ الجسدَ، وما أعطاه سوى الضّروريِّ لحفظِ حياتِه. أمّا إن توجّهَ إلى الجسدِ، صارَ عبدًا للأهواءِ، واعتنى على الدّوامِ بإشباعِ كلِّ رغبةٍ له.

---

١٩٨. أف ٥، ٢٩. ١٩٩. ١ كور ٩، ٢٧. ٢٠٠. ١ تيم ٦، ٨.

٢٠١. رو ٨، ٨. ٢٠٢. غلا ٥، ٢٤.

الفصل الخامس عشر

فائدةُ الإمساكِ، وضررُ غيابِهِ، والدّمارُ النّاتجُ عن احتساءِ النّبيذِ بكثرة.

- عن حياةِ القدّيسةِ سينكليتيكي -

إلى جانبِ الفضائلِ الّتي تمتّعَتْ بها القدّيسةُ سينكليتيكي، لم تُهمِلِ الصّومَ، دواءَ الجسدِ الخلاصيّ. لقد أحبَّتْهُ كثيراً، إذ إنّها اعتبَرَتْ أنّ لا شيءَ يوازيه قيمةً، وأنّه حارسُ سائرِ الفضائلِ وقاعدتُها. إن صادفَ أن أكَلَتْ مرّةً عن حاجةٍ أكثرَ من المُعتادِ، شَحُبَ وجهُها، بعكسِ ما يحدثُ مع مَن يأكلونَ، وضَعُفَ جسدُها. فكما تُقطَعُ الأغصانُ غيرُ المُثمرةِ من الأشجارِ، هكذا هي، كانَتْ تَقطَعُ دائمًا كلَّ شوكةٍ بالصّومِ والصّلاة. وإن كبرَتْ إحدى تلك الأشواكِ قليلاً، حارَبَتْها بطرائقَ متعدّدةٍ، معذِّبةً جسدَها بكلِّ أنواعِ المَشقّات.

في كلِّ معركةٍ يشنُّها العدوُّ عليها، كانَتْ تبدأُ باستدعاءِ معونةِ الرّبِّ عبرَ الصّلاة. ثمّ تستعملُ النّسكَ القاسيَ كسلاحٍ ضدَّ العدوِّ بأكْلِها الخبزَ بحذرٍ وبكمّيةٍ قليلةٍ، وغالبًا ما مَنعَتْ نفسَها عن شُرْبِ الماءِ، وقد حارَبَت النّومَ بقوّةٍ، مُستلقيةً على الأرض. عندما انغلبَ العدوُّ بهذه الوسائلِ، خفّفَتْ قليلاً من النّسكِ القاسي، وذلك لئلاّ يبلُغَ جسدُها الإرهاقَ الكامل، وتتعرّضَ للخطرِ، لأنّ أمرًا كهذا يعني الانهزام. إن حُرِمَ الجنديُّ أسلحتَهُ كلَّها، فأيُّ رجاءٍ له في الحرب؟ بعضُهم يَصرِفُ في النّسكِ قواه كلَّها، من دونِ قياسٍ، ومن دونِ تمييزٍ. هؤلاءِ يُرهَقونَ ويَجلبونَ على ذواتِهم الضّربةَ القاضيةَ، مسارعينَ إلى دمارِها، بقبولِهم تحريضَ العدوّ.

أمّا القدّيسةُ سينكليتيكي، فلم تتصرَّفْ على هذا النّحوِ، بل تَصرَّفَتْ دائمًا بتمييز. طبعًا كانَتْ تُحارِبُ العدوَّ بضراوةٍ، من خلالِ الصّلاةِ والنّسكِ،

ولكنّها اعتنَتْ بجسدِها، لتحافظَ على سلامِ نفسِها. هكذا البحّارةُ، عندما يُفاجِئُهم الطّقسُ السّيّءُ والعاصفةُ، يَبقَوْنَ صائمينَ، ويَتصدَّوْنَ، بكلِّ ما أوتوه من قوّةٍ، للخطرِ الّذي يُداهِمُهم. أمّا عندما يتوقّفُ هيجانُ البحرِ، فإنّهم يرتاحونَ قليلاً من أتعابِهم، ويعتنونَ بحاجاتِهم الأخرى. ومع ذلك، لا يتصرّفونَ حينئذٍ بلامبالاةٍ كلّيّةٍ، ولا يستغرقونَ في نومٍ ثقيلٍ، لأنّ لديهم خبرةً بالمخاطرِ الماضيةِ، ويتنبّهونَ لما يُمكنُ أن يأتيَ عليهم. في الواقعِ، وإن هدأَتِ العاصفةُ، فالبحرُ يبقى هو نفسه. وإن مرَّتِ النّائبةُ، فالتّهديدُ لا يزالُ قائمًا. يجب أن يحمِلَنا هذا المَثَلُ عن البحرِ غيرِ الآمنِ، على أن نتنبَّهَ باستمرارٍ، لنضمنَ سلامتَنا الخاصّة.

- عن القدّيسِ أفرام -

يا أخي، أحِبَّ الإمساكَ دائمًا، لتحصلَ على فائدةٍ كبيرة. أمّا إن أظهرتَ لامبالاةً تجاهَهُ، فستنزلقُ إلى خسارةٍ أكيدة. قبلَ كلِّ شيءٍ، ستطردُ منكَ نعمةَ اللّه. ثمّ سيَهزأُ منكَ كلُّ مَن يراك. وأخيرًا، لن يعودَ عملُكَ اليدويُّ يكفيكَ، لتدفعَ مصاريفَ شراهتِك. هذا سيُسبِّبُ لكَ تشتّتاتٍ مع تَبِعاتِها: أكاذيبَ، وظُلمٍ، وتنقّلاتٍ دائمةٍ، وتملّقاتٍ للمقتدرين. ستكونُ حياتُكَ كلُّها مليئةً بالهمِّ، وسيبتعِدُ عنكَ ذكرُ اللّه. من هنا، ستُسلِّمُ ذاتَكَ كلّيًّا لأيدي أعدائِكَ، الّذينَ سيَرمونَكَ في وَهْدَةِ الجحيمِ، ويأخذونَكَ معهم إلى النّارِ الأبديّة. في الواقعِ، إنّ كثرةَ المآكلِ والمشاربِ تجعلُكَ تختبِرُ لذّةً مؤقّتةً، لكنّها، في اليومِ التّالي، تجلبُ لكَ الضّجرَ، وخمودًا في الفكر.

- عن أنطيوخوس البَنْديكتيّ -

يوافقُ النّاسَ جميعَهم أن يسودوا على بطنِهم، وبشكلٍ خاصٍّ هؤلاءِ الّذينَ عَزموا على خدمةِ اللّهِ، ليُتمِّموها باستعدادٍ وراحة. مَن يأكلْ، من دونِ تقشُّفٍ، يُشبِهْ سفينةً مُحمَّلةً حِملاً زائدًا تستطيعُ الأمواجُ أن تُغرِّقَها بسهولة. فالجسدُ يحتاجُ إلى الغذاءِ، لا إلى اللّذّةِ، وإلى الزّهدِ لا إلى الوفرة. فالطّعامُ والزّهدُ في المآكلِ يفيدانِ النّفسَ بما أنّهما يمنحانِ الذّهنَ الحدّةَ والنّقاوةَ،

وفي الوقتِ نفسِه، يُعطيانِ الجسدَ الصّحّةَ والنّشاط. على عكسِ ذلكَ، اللّذّةُ والوَفرةُ تؤذيانِهما على السّواءِ، فهما تُظلمانِ الذّهنَ وتُلوّثانِه، ولا تُسبّبانِ للجسدِ تهيّجاتٍ ورغباتٍ مخجلةً فحسبُ، بل أيضًا أمراضًا مُضنيةً وخطِرة. لهذا السّببِ، النّسّاكُ، الّذينَ يعيشونَ عيشةً زهيدةً باستمرارٍ، هم أكثرُ وعيًا وتعقّلاً من أولئكَ الّذينَ يأكلونَ من دونِ رادعٍ، وصحّتُهم أفضل.

فلنتجنّبْ، يا إخوةُ، الشّبعَ، لئلاّ نتدمّرَ بإشعالِ نارِ الجسدِ الطّبيعيّة. كما أنّ مَن يَرمي الحطبَ في النّارِ يزيدُ اشتعالَها، هكذا مَن يُعطي جسدَهُ مآكلَ وافرةً، يُوقِظُ الشّهوةَ، ويَزيدُها. كذلك الأمرُ بالنّسبةِ إلى المآكلِ الفاخرةِ الّتي تُرضي الحلقَ لوقتٍ قصيرٍ، لكنّها تُغذّي دودةَ الفجورِ الّتي لا تَهمَد.

ليس الرّاهبُ الشّرِهُ سوى عبدٍ لبطنِه يحصي أعيادَ القدّيسينَ[٢٠٣]، بينما الرّاهبُ الزّاهدُ هو مَن يتمثّلُ بحياتِهم. لا يفتخِرُ الشّرِهُ بشيءٍ سوى بكبرِ بطنِهِ ووساعتِه، وهو وعاءُ أقذارِهِ العزيزةِ المحبوبة. هذا الرّاهبُ يُحزِنُ الرّوحَ القدسَ السّاكنَ فيه، ويدفَعُهُ إلى الابتعادِ عنه. في الواقعِ، يترُكُهُ الرّوحُ القدسُ غيرَ قادرٍ على احتمالِ رائحتِهِ النّتنة.

كما يطرُدُ الدّخانُ النّحلَ، هكذا الشّرِهُ يطردُ نعمةَ الرّوحِ القدس. يقولُ الرّسولُ بولسُ: «لا يستطيعُ لحمٌ ودمٌ أن يرثَ ملكوتَ اللّه»[٢٠٤]. عبارةُ لحمٍ ودمٍ تعني الأهواءَ الجسديّةَ، الّتي يأتي منها الذّهنُ إلى التّفكيرِ، تدريجيًّا، بطريقةٍ جسديّة. هذا اللّحمُ هو مأكلٌ للشّياطينِ، فالنّبيُّ يقولُ: «اقترَبَ منّي الأشرارُ ليأكلوا لحمي»[٢٠٥].

فمن يُذيبُ لحمَهُ كلّيًّا بالتّقشّفِ، يُجوّعُ الشّياطينَ، ويُضعِفُ فيهم النّشاطَ للحربِ ضدّه. راهبٌ كهذا يحفظُ ذهنَهُ دائمًا موجّهًا نحوَ السّماءِ، بعيدًا عن الوقائعِ الأرضيّةِ، يَرى ما فيها من الجمالاتِ، بنعمةِ الرّوحِ القدس. خارجيًّا يَبدو حزينًا ومقطّبًا، فيما يكونُ داخليًّا ممتلئًا بهجةً ونورًا. الصّائمُ يُشبِهُ زهرَ النّخيلِ، الّذي يبدو لونُهُ من الخارجِ أسودَ، فيما هو من الدّاخلِ أبيضُ كالثّلجِ، يُنتِجُ الثّمارَ بوفرة. هكذا الزّاهدُ مقطّبٌ خارجيًّا، ولكنّه داخليًّا

---

٢٠٣. أي ينتظر الأعياد كفرص لتناول الطّعام الجيّد.
٢٠٤. ١ كور ١٥، ٥٠.
٢٠٥. مز ٢٦، ٢.

يستنيرُ من اللّهِ، ويتحدّثُ مَعَهُ بدالّة.

- عن الأبِ أشعيا -

كما أنّ النّعجةَ لا تتزاوَجُ والذّئبَ لتنجبَ ولدًا، هكذا لا يتزاوَجُ انسحاقُ القلبِ والشّبعَ لولادةِ الفضائل. لا أحدَ يستطيعُ أن يمتلكَ الألمَ والحزنَ كما يشاؤُهما اللّهُ، إن لم يُحِبَّ أوّلاً ما يُسبّبهما. خوفُ اللّهِ وتأنيبُ الضّميرِ يلدانِ الحزنَ، فيما الإمساكُ والسّهرُ يُرافقانِ التّوبة. الأجسادُ الفتيّةُ، الّتي تَسمَنُ من كثرةِ المآكلِ، وشُرْبِ النّبيذِ، هي مثلُ خنزيرٍ جاهزٍ للذّبح. فبإضرامِ ملذّاتِ الجسدِ تُذبَحُ النّفسُ، وبجيشانِ العادةِ السّيّئةِ، يؤسَرُ الذّهنُ وهو عاجزٌ عن مقاومةِ مَلذّاتِ الجسد. في الواقعِ، تدفُّقُ الدّمِ في الجسدِ يُسبِّبُ تقهقرَ الرّوح.

لا يَشْمَّنَّ الشّابُّ النّبيذَ على الأخصِّ، لئلاّ يُشعلَ نارًا مضاعفةً، واحدةً يُسبِّبُها الهوى الطّبيعيُّ من الدّاخلِ، وأخرى تُسبِّبُها، من الخارجِ، كثرةُ احتساءِ النّبيذ. إن كانَتْ هذه هي الحالُ، فاللّذّةُ الجسديّةُ قد تزدادُ حدّتُها، وتطردُ من النّفسِ اللّذّةَ الرّوحيّةَ الآتيةَ من عناءِ التّخشّعِ، وتُسبِّبُ تشوّشًا وقساوةً في القلب. لا يَشبَعَنَّ الشّابُّ حتّى من الماءِ إن رَغِبَ في الطّهارةِ والحياةِ الرّوحيّةِ، لأنّ التّقليلَ من استعمالِ الماءِ يُساعِدُ بفعاليّةٍ على اكتسابِ العفّة.

- عن الأبِ إسحق -

كما أنّ السّحابةَ تحجبُ نورَ الشّمسِ والقمرِ، هكذا أبخرةُ البطنِ تُخفي حكمةَ اللّهِ عن النّفسِ. كما تشتعلُ النّارُ في الحطبِ الجافِّ، هكذا يحصلُ للجسدِ عندما يكونُ البطنُ مُتخمًا. كما أنّ رميَ الحطبِ المُستمرِّ يزيدُ من اشتعالِ النّارِ، هكذا تنوّعُ الأطعمةِ يزيدُ اندفاعاتِ الجسد. لا تسكنُ معرفةُ اللّهِ في الجسدِ المحبِّ اللّذّةَ، ومن يُحبُّ جسدَه، فلن يستأهِلَ قبولَ نعمةِ اللّه. كما يعتني أبٌ بابنِه، هكذا يعتني المسيحُ بجسدِ مَن يَشقى من أجله. يبقى إلى جانبِهِ باستمرارٍ، ويساعدُهُ، ولا يتركُهُ يُنهَكُ كلّيًّا.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- ذاتَ يومٍ، أتى أحدُ الممسوسينَ[٢٠٦] إلى الإسقيطِ، وخلالَ وقتٍ طويلٍ، لم يُطرَدْ منه الرّوحُ لأنّ الآباءَ رفضوا ذلك، بسببِ تواضُعِهم الفائق. مع ذلك، أخذَتِ الشّفقةُ أحدَ الشّيوخِ، فرسمَ إشارةَ الصّليبِ على الممسوسِ، فشُفِيَ الرّجلُ للحال. عند خروجِهِ، قالَ الشّيطانُ المُغتاظُ للشّيخِ: «ها أنتَ قد طردتَني، سآتي إليكَ». أجابَهُ الشّيخُ: «تعالَ، يسرُّني هذا». ودخلَ الشّيطانُ فيه. (أظنُّ أنّ الشّيخَ طلبَ الإذنَ من اللّه). أمضى الشّيخُ اثنَيْ عشَرَ عامًا في ترويضِ الشّيطانِ، وإماتَتِهِ بنسكِهِ، آكِلاً كلَّ يومٍ عشَرةَ ألبابٍ من الكستناء. أخيرًا، أرادَ الشّيطانُ الخروجَ منه. لكنّ الشّيخَ عندما عَلِمَ بذلكَ، قالَ له: «لماذا تهرُبُ؟ إبقَ بعد». أجابَه الشّيطانُ: «ليَفْنِكَ اللّهُ، فمِن دونِه، لا أحدَ يمتلِكُ هذه القدرة».

٢- قالَ الأبُ يوحنّا القصيرُ: «إن أرادَ ملكُ الاستيلاءَ على مدينةٍ، يمنَعْ عنها الطّعامَ والماءَ أوّلاً، فيستسلمْ له سُكّانُها بسببِ الجوع. هكذا هو حالُ أهواءِ الجسد. إذا عاشَ الإنسانُ بالصّومِ والجوعِ، فإنّ الأعداءَ (أي الأهواءَ والشّياطينَ) تبقى بعيدةً عن نفسِه».

٣- قالَ أيضًا: «هل الإنسانُ قويٌّ كالأسد؟ بسببِ بطنِهِ يقَعُ في الفخِّ، وتضمحِلُّ قوّتُه».

٤- قالَ الأبُ بيمن: «لو لم يأتِ رئيسُ الطّهاةِ نبوزردان، لما احترقَ بيتُ اللّه[٢٠٧]. وهذا يعني أنّه، من دونِ التّوقُّفِ عن محبّةِ البطنِ، يسقطُ الذّهنُ في حربِهِ مع العدوّ».

٥- قالَ أيضًا: «عندما عاركَ داوودُ الأسَدَ، أمسكَ به من رقبتِهِ، وللحالِ قتلَه. ونحن أيضًا، إن أمسَكْنا بحلقِنا وبطنِنا أي ميلِنا نحو اللّذّةِ والشّراهةِ،

٢٠٦. المسكونين من الأرواح الشّرّيرة.
٢٠٧. ٢ مل ٢٥: ٨- ٩.

نغلبْ، بمعونةِ اللّهِ، الأسدَ غيرَ المَنظور».

٦- هو نفسُه قالَ: «ثلاثةٌ لا نقدرُ أن نستأصِلَها كلّيًّا: الطّعامُ واللّباسُ والنّوم. ولكن، نقدِرُ أن نتخلّى عنها أحيانًا».

٧- قالَ أيضًا: «لا تتّضِعُ النّفسُ في شيءٍ، ما لم تُقَنِّنْ لها الخبزَ، أي أن تُقلِّلَ غذاءَها إلى الحدِّ الأدنى».

٨- أخبرَ البعضُ الأبَ بيمن عن راهبٍ لا يشربُ الخمرَ، فقالَ: «الخمرُ عمومًا ليس للرّهبان».

٩- قالَ الأبُ إيبريخيوس: «الصّومُ لجامٌ للرّاهبِ عن الخطيئة. وكلُّ مَن يرميه يُصبحُ حصانًا مولَعًا بالأنثى[٢٠٨]».

- عن القدّيسِ أفرام -

١- الشّبلُ، بسببِ بطنِه، يُمسَكُ في الفخِّ حيًّا، والشَّرِهُ يتعذّبُ بسببِ إرضاءِ بطنه. الشَّرِهُ يَشقى ويُقاسي في العملِ ليملأَ بطنَهُ بالأطعمةِ اللّذيذةِ، وبعد أن يأكلَ، يُعاني من ضيقٍ في هضمِها. لكنّ الصّحّةَ واليقظةَ تُرافقانِ الإمساك.

٢- الرّاهبُ، الّذي يجولُ هنا وهناك، لن يبقى معافًى (بسببِ تناولِ المآكل)، أمّا الّذي يثبُتُ حيثُ دعاه اللّهُ، فلا بدَّ أنّه سيجدُ راحة.

- عن كتابِ الشّيخ -

قالَ الأبُ دانيال: «بقدرِ ما يُزهِرُ الجسدُ، تضعُفُ النّفس. وبقدرِ ما يضعُفُ الجسدُ، تُزهِرُ النّفس».

---

٢٠٨. أنظر إر٥، ٨.

الفصل السّادس عشر

كيف أحبَّ الآباءُ الصّومَ وحقّقوه بنجاحٍ، وإلى أيّةِ درجةٍ، وبأيّةِ دقّة.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ الأبُ دانيال عن الأبِ أرسانيوس: «عاشَ معنا سنواتٍ كثيرةً، فجعَلْنا له سلّةَ قمحٍ واحدةً في السّنة. ولدى زيارتِه، كنّا نأكلُ من هذه المؤونةِ نحن أيضًا».

٢- قالَ أيضًا: «كانَ الأبُ أرسانيوسُ يمتنعُ عن الفاكهة. مع ذلك، مرّةً واحدةً في السّنةِ، في أواخرِ الخريفِ، كانَ يقولُ لنا من تلقاءِ نفسِه: «إجلبوا لي منها!» كنّا نطيعُهُ فيتذوّقُ واحدةً من كلِّ نوعٍ شاكرًا اللّه. أنظُرْ بأيّةِ طريقةٍ غلبَ الشّيخُ اللّذّةَ بحرمانِهِ من الفاكهةِ، وتصدّى للمجدِ الباطلِ والكبرياءِ بأكلِهِ منها مرّةً واحدةً».

٣- مضى الأبُ أخيلاّ إلى قلاّيةِ الأبِ أشعيا في الإسقيطِ، فوجدَه يأكل. وكانَ قد جعلَ في القصعةِ ملحًا وماءً. فلمّا رأى الشّيخُ أنّه خبّأَ القصعةَ وراءَ الحبالِ، ولأنّ نقيعَ الملحِ لم يَكُنْ يُحتسى في الإسقيطِ، أخفى الصّحنَ وراءَ الحبالِ إذ انتبهَ إلى قدومِ الشّيخِ، وذلك عن حكمةٍ روحيّةٍ، لئلاّ يُعْثِرَ زائرَهُ، كما برهنَتِ الأحداثُ لاحقًا. عندما رآه الأبُ أخيلاّ يمضَغُ، وما من شيءٍ أمامَه، قالَ له: «قُلْ لي، ماذا كنتَ تأكل؟» قالَ الأبُ أشعيا: «سامحْني، يا أبتِ، لأنّ حرارَتي ارتفعَتْ، أثناءَ قطعِ الأغصانِ، فوضَعْتُ في فمي خبزًا مع قليلٍ من الملحِ، لكنّ حلقي كانَ قد جفَّ من شدّةِ الحرارةِ، فلم أقدِرْ أن أبتلعَ الخبز. لأجل هذا،

اضطُررتُ أن أصبَّ قليلاً من الماءِ في الملحِ، لأتمكّنَ من تناولِ الطّعام. ولكن، سامحْني». فقالَ الشّيخُ: «تعالَوا وانظُروا أشعيا يشربُ الحساءَ في الإسقيط. إن أردتَ شُرْبَ الحساءِ، فاذهَبْ إلى مصر».

٤- قالَ الأبُ بنيامين: «لمّا نزَلْنا بعد جمعِ الغلالِ إلى الإسقيط، قدَّموا، إلى كلِّ واحدٍ منّا، هديّةً من نتاجِ الإسكندريّة، وهي عبارةٌ عن وعاءِ زيتٍ مجصّصٍ يسَعُ نصفَ كيلوغرام تقريبًا. فلمّا جاءَ الموسمُ الجديد، طفقَ الإخوةُ يحملونَ إلى الكنيسةِ كلَّ ما فضلَ عنهم. وأنا لم أكن قد فتحتُ وعائي بعد، إلاّ أنّني ثقبتُهُ بالإبرة، وأخذتُ منه قليلاً، وكنت أظنُّ أنّني فعلتُ أمرًا عظيمًا. فأحضرَ الإخوةُ أوعيتَهم كما هي، أمّا وعائي فكانَ مَثقوبًا. ومن شدّةِ الخزي، شعرتُ كأنّني زنيت».

٥- قالَ الأبُ بنيامينُ، كاهنُ القلالي: «زرْنا أحدَ الشّيوخِ في الإسقيطِ، وأردْنا أن نصبَّ له قليلاً من الزّيتِ، فقالَ لنا: ها هو الوعاءُ الّذي أحضرتموه إليّ قبلَ ثلاثِ سنوات. إنّه على حالِهِ كما أحضرتموه. فلمّا سمِعْنا هذا، اندهَشْنا من سيرتِهِ النّسكيّة».

٦- هو نفسُه قالَ: «زرْنا شيخًا آخرَ، فاستبقانا لتناولِ الطّعامِ، وسكبَ لنا زيتًا نباتيًّا، فقُلْنا له: ضَعْ لنا، يا أبتِ، زيتًا يؤكَل. أمّا هو، فلمّا سَمِعَ هذا الكلامَ، رَسَمَ إشارةَ الصّليبِ قائلاً: أهُناكَ زيتٌ آخر؟ أنا لا أعلَم».

٧- قيلَ عن الأبِ ديوسقورس إنّ خبزَهُ كانَ من الشّعيرِ والعدس. وكلَّ سنةٍ كانَ يضَعُ لنفسِهِ مبدأً للنّسكِ قائلاً: هذه السّنةَ لن أقابِلَ أحدًا، أو لن أتكلَّمَ مُطلقًا، أو لن آكلَ طعامًا مطبوخًا أو فاكهةً أو خضارًا. وفي كلِّ سنةٍ كانَ يُطبِّقُ عملاً نسكيًّا مختلفًا. ولمّا كانَ ينتهي من الأوّلِ، يبدأُ بالثّاني. هكذا نجحَ في ألاّ يتعلّقَ بأيِّ شيءٍ، وأن يتغلّبَ على كلِّ ما يرى نفسَهُ ضعيفًا فيه.

٨- ذهبَ أخٌ لزيارةِ الأبِ أشعيا. هذا الأخيرُ غسلَ له رجلَيْه، ثمّ وضعَ حفنةً من العدسِ في قِدرٍ على النّار. وما إن بدأَتْ تَغلي حتّى أخرجَها من النّارِ، فقالَ له الأخُ: لم تنضَجْ بعدُ، يا أبتِ. فأجابَه: «ألم تَكْفِكَ النّارُ الّتي رأيتَ؟ هذه وحدَها تعزيةٌ كبرى».

٩- قالَ الأبُ يوحنّا القصيرُ إنّ آباءَ الإسقيطِ، الّذينَ أكلوا الخبزَ والملحَ، لم يُرغموا أنفسَهم على ذلك؛ وهذا يعني أنّهم، حتّى بذلك، كانوا معتدلين. وهكذا، بقوا أقوياءَ من أجلِ عملِ اللّه.

١٠- أخبرَ الأبُ كاسيانوس أيضًا: «زارَ الأبُ يوحنّا، رئيسَ ديرٍ كبيرٍ، الأبَ بايسيوسَ، الّذي أقامَ أربعينَ سنةً في عمقِ الصّحراء. وبما أنّ محبّةً كبيرةً ربطَتْهُ به، قالَ له بدالّةٍ: ماذا جنيْتَ بعيشِكَ، طولَ هذا الزّمانِ، في الصّحراءِ حيثُ نادرًا ما يُزعجُكَ أحد؟» قالَ: «منذ أن أصبحتُ راهبًا، لم تَرَني الشّمسُ آكل». حينئذٍ، قالَ الأبُ يوحنّا: «وأنا لم تَرَني أغضَب».

١١- كانَ شيخٌ يسكنُ في ديرِ القدّيسِ ثيودوسيوس، رئيسِ الأديارِ. وخلالَ ثلاثينَ سنةً، تبعَ هذه القاعدةَ: كانَ يأكلُ من الخبزِ والماءِ مرّةً واحدةً في الأسبوعِ، ويعمَلُ من دونِ توقّفٍ، ولا يخرجُ بتاتًا من الكنيسةِ قبلَ نهايةِ الخدمة.

١٢- قيلَ عن الأبِ مكاريوس إنّه، كلّما تناولَ الطّعامَ مع الإخوةِ، وَضَعَ على نفسِهِ الشّرطَ التّالي: «إن كانَ ثمّةَ نبيذٌ، أشرَبْ منه حُبًّا بالإخوة. ولكن، إزاءَ كلِّ كأسِ نبيذٍ، أمتنِعُ عن الماءِ يومًا كاملاً». كانَ الإخوةُ، من أجلِ إراحتِه، يُقدِّمونَ له نبيذًا. وهو يتناولُه بفرحٍ لإماتَةِ نفسِه. فلمّا عَلِمَ تلميذُهُ بالأمرِ، قالَ للإخوةِ: حُبًّا بالرّبِّ، لا تُقدِّموا له نبيذًا، لأنّه سيُعذِّبُ نفسَه، حالَ عودتِهِ إلى قلاّيتِه. فلمّا سَمِعَ الإخوةُ بهذا، كفّوا عن تقديمِهِ له.

١٣- قيلَ عن مرقسَ النّاسكِ إنّه، خلالَ ثلاثٍ وستّينَ سنةً، أكملَ الإنجازَ التّالي: طولَ هذا الوقتِ، كانَ يصومُ أيّامَ الأسبوعِ، إلى حدٍّ أنّ البعضَ اعتبرَ أنّه تجاوزَ الطّبيعة. كانَ يعملُ ليلاً ونهارًا، ويُعطي الفقراءَ ممّا يكسبُه. لم يقبَلِ البتّةَ شيئًا من أحد. كانَ يقولُ لمن يُريدونَ أن يعطوه شيئًا: «لستُ بحاجةٍ إلى شيء. عملي اليدويُّ يكفي قوتي، وقوتَ الّذينَ يأتونَ إليّ محبّةً باللّه».

١٤- أخبرَ أحدُ التّلاميذِ عن شيخِهِ أنّه، لعشرينَ سنةً كاملةً، لم يستَلْقِ لينامَ، بل اعتادَ أن ينامَ جالسًا على المقعدِ حيثُ يعمل. طولَ هذه السّنواتِ، كانَ يأكلُ كلَّ يومَيْن، أو أربعةٍ، أو خمسةِ أيّام. وأثناءَ تناولِهِ الطّعامَ، كانَ يرفَعُ يدًا في الصّلاةِ، ويأكُلُ بالأخرى. عندما سألْتُهُ لماذا يفعلُ هذا، أجابَني: «أضعُ دينونةَ اللّهِ أمامَ عينيَّ، ولا أستطيعُ احتمالَ ذلك». مرّةً أخرى، خرجَ الشّيخُ، ووجدَني نائمًا في الباحة. وقفَ فوقَ رأسي، وبكى، وقالَ نائحًا: «تُرى أين هو فكرُهُ لينامَ هكذا، من دونِ اكتراث؟».

١٥- قَطَنَ شيخٌ آخرُ عمقَ الصّحراء. وزارَهُ أخٌ، فوجدَهُ مريضًا. غسلَهُ، وطبخَ له بعضًا من المؤونةِ الّتي جلبَها معه، وقدّمَ له ليأكل. فقالَ له الشّيخُ: «في الحقيقةِ، يا أخي، نسيتُ أنّ النّاسَ يتمتّعونَ بهذه الرّاحة». ثمّ قدّمَ له الأخُ كأسَ نبيذ. عندما رآه الشّيخُ، بكى قائلاً: «لم أنتظِرْ شُرْبَ النّبيذِ، حتّى مماتي».

١٦- قالَ أخٌ: «عرفتُ شيخًا كانَ يقطنُ جبلاً عاليًا، ولا يقبَلُ شيئًا من أحد. كانَ لديه القليلُ من الماءِ، ويزرعُ خضارَه، وبها ما لبثَ يتغذّى لمدّةِ خمسينَ سنةً، من دونِ أن يخرجَ من سياجِ قلّايته. ذاعَتْ شهرتُهُ بسببِ كثرةِ العجائبِ، الّتي يُتمِّمُها باستمرارٍ للآتينَ إليه جميعًا. وهكذا، ماتَ بسلامٍ تاركًا في ذلك المكانِ خمسةَ تلاميذ».

١٧- قالَ شيخٌ: «رأيتُ آباءً في الصّحراءِ، أمضَوا سبعينَ سنةً، ولم يأكلوا شيئًا آخرَ سوى بعضِ الحشائشِ والبلح».

١٨- قيلَ عن شيخٍ كبيرٍ يعيشُ في لافرا الأبِ بطرسَ إنّه أمضى خمسينَ سنةً في مغارتِه، من دونِ شُرْبِ النّبيذِ، أو أَكْلِ الخبزِ، سوى خبزِ النّخالةِ، الّذي كانَ يتغذّى منه، ثلاثَ مرّاتٍ في الأسبوع».

الفصل السّابع عشر

عدّةُ ممارساتٍ نسكيّةٍ لآباءٍ قدّيسينَ، تحثُّنا على الصّبرِ نحنُ الضّعفاءَ، وبسموِّها نتعلّمُ التّواضع.

- عن بالاديوس -

١- لم يُمارِسْ مكاريوسُ الكبيرُ الإسكندريُّ نوعًا واحدًا من النّسكِ، بل أنواعًا مختلفة. فإن سَمِعَ أنّ مجاهدًا روحيًّا أتمَّ عملاً نسكيًّا، لم يَكُنْ يَعتني بإنجازِهِ فحسبُ، بل بتجاوزِهِ أيضًا. عندما عَلِمَ من أحدِهم أنّ الطّابنسيّينَ لا يَأكُلونَ شيئًا مطبوخًا على النّارِ طولَ الصّومِ الأربعينيِّ المُقدّسِ، قرّرَ أن يُعرِضَ عن استعمالِ النّارِ، لمدّةِ سبعِ سنين. صارَ يأكلُ الخضارَ النّيّئة، ويُبَلِّلُ بعضَ الحبوبِ إنِ استطاعَ إيجادَها.

٢- لاحقًا، سَمِعَ أحدَهم يَروي عن شيخٍ أنّه لا يأكلُ سوى قطعةِ خبزٍ صغيرة. حينئذٍ، قطّعَ الخبزَ عندَه، ووَضَعَهُ في وعاءٍ فَخّاريٍّ، وقرّرَ أن يأكلَ، كلَّ يومٍ، قدرَ ما تُخرجُ يدُهُ منه. أخبرَنا لاحقًا وهو يضحكُ: «طبعًا، كنتُ أحاولُ التقاطَ عددٍ كبيرٍ من القِطَعِ، لكنّني لم أستطِعِ استخراجَها كلَّها، بسببِ ضيقِ فَتحَةِ الوعاءِ، ومثلَ عشّار[٢٠٩]، لم يَكُنْ يُسمَحُ لي بسدِّ جوعي».

٣- بعد ذلك، فَرَضَ على نفسِهِ، لمدّةِ ثلاثِ سنواتٍ أخرى، أن يكتفيَ بأكلِ أربعِ أو خمسِ أونصاتٍ من الخبزِ، ويَشرَبَ كَمِيَّةَ ماءٍ مقدارَ ذلك.

٢٠٩. أي البطن.

٤- هذا النّاسكُ الصّلبُ قرّرَ أيضًا أن يغلبَ النّوم. وكما أخبرَنا لاحقًا، حتّى يبلغَ هدفَه، لم يَحْتَمِ تحتَ سقفٍ، لمدّةِ عشرينَ نهارًا وعشرينَ ليلةً، لكنّه بَقِيَ في الهواءِ الطّلقِ، مُحترقًا من حرارةِ النّهارِ، ومتَجَمِّدًا من برودةِ اللّيل[٢١٠]. وكانَ يقولُ: «لو لم أَحْتَمِ سريعًا تحتَ سقفٍ، وأستسلمْ للنّومِ، لكنتُ فقدتُ عقلي لأنّ دماغي بدأَ يجفُّ. هكذا، بما يختصُّ بإرادتي، غلبتُ النّوم. لكن، بما أنّ طبيعتي البشريّةَ تحتاجُ إلى النّومِ، توجّبَ عليَّ أن أخضعَ لها، قابلاً بهذه الضّرورةِ الطّبيعيّة».

٥- مرّةً كانَ القدّيسُ جالسًا في قلاّيتِه، فلَسَعَتْهُ بعوضةٌ في رجلِه. جعلَهُ الألمُ يسحقُها بيدِه، بعد أن شبعَتْ من دمِه. ندمَ لاحقًا لأنّه دفعَ الحشرةَ الّتي جرحَتْهُ وانتقمَ منها، وفرضَ على نفسِهِ العقابَ بأن يذهبَ إلى مستنقعاتِ الإسقيطِ، في عمقِ الصّحراءِ، حيثُ البعوضُ كبيرٌ مثلَ الدّبابيرِ، ويستطيعُ أن يثقبَ، حتّى جلدَ الخنازيرِ البَرّيّةِ بمناخسِه. بقيَ هناك عاريًا لمدّةِ ستّةِ أشهرٍ، وقد نهشَ البعوضُ جلدَهُ بالكلّيّةِ حتّى امتلأَ جسمُهُ كلُّه بالبثور. عندما عادَ إلى قلاّيتِه، لم يتعرَّفْ إليه رفاقُهُ من شكلِه، بل فقط من صوتِه. عندما رآه آخرونَ لم يعلموا بالحدثِ، ظنّوا أنّ برصًا أصابَه. وبذلك، أظهرَ مُجاهدُ المسيحِ جَلَدًا كبيرًا.

٦- عندما علمَ مكاريوسُ نفسُهُ أنّ الطّابنسيّينَ يُمارسونَ نسكًا شديدًا، بدّلَ ملابسَه، ولبسَ لباسَ العامّةِ، وسارَ لمدّةِ خمسةَ عشَرَ يومًا للوصولِ إلى «طيبة». عندما وصلَ إلى منسكِ الطّابنسيّينَ، طلبَ أن يُقدِّموه إلى الأرشمندريتِ باخوميوس، رجلٍ يتمتّعُ بموهبةٍ نبويّة. لكنّ الرّوحَ، وبتدبيرٍ إلهيٍّ، لم يظهرْ له حينها ما يتعلّقُ بمكاريوس. فعندما دُعِيَ هذا الأخيرُ إلى مقابلةِ باخوميوس، قالَ له: «أتوسَّلُكَ، يا سيّدي، أن تقبلَني في ديرِكَ لأصيرَ راهبًا». أجابَهُ باخوميوسُ الكبيرُ: «أنتَ متقدّمٌ في السّنِّ، فكيف ستحتملُ

---

٢١٠. في الصّحراء حيثُ عاش الأب، كانَ الطّقس يظهر درجات حرارة متفاوتة: بعد الحرّ اللاّهب في النّهار، تسقط درجة الحرارة إلى ما تحت الصّفر خلال اللّيل.

الحياةَ النّسكيّة؟ هنا إخوةٌ يُمارسونَ النّسكَ منذ شبابِهم، وكبروا مع مُتطلّباتِه الشّاقّةِ، ويَستطيعونَ اليومَ احتمالَ قسوتِه. أمّا أنتَ، فلن يكونَ لديكَ القوّةُ في سِنِّكَ لاحتمالِ صعوباتِ النّسكِ وأتعابِه. على العكسِ، سيُسيطرُ عليكَ اليأسُ، وستعودُ إلى العالمِ حيثُ ستتحدّثُ عنّا بالسّوءِ، مُسبّبًا لنفسِكَ ضررًا كبيرًا».

وهكذا، لم يَقْبَلْهُ باخوميوس. بل طَرَدَهُ. فوقفَ مكاريوسُ ينتظرُ عند أبوابِ الدّيرِ، صائمًا لمدّةِ سبعةِ أيّام. عندما علمَ باخوميوسُ بذلكَ، دعاه من جديدٍ، وردّدَ له ما سبقَ وقالَ له. فأجابَ مكاريوسُ: «إقبَلْني، يا أبتِ، وإن لم أصُمْ كالإخوةِ، أو لم أعمَلْ مثلَهم، فَمُرْ حينئذٍ أن يرموني خارجَ الدّير». فقَبِلَهُ باخوميوس، وأدرَجَهُ في مصفِّ رهبانِه، وكانَ عددُهم في ذلك اليومِ ألفًا وأربعمئة. بعد وقتٍ قليلٍ، بدأ الصّومُ الأربعينيُّ المُقدّس.

رأى مكاريوسُ أنَّ الإخوةَ اختاروا عدّةَ أشكالٍ للنّسكِ: الواحدُ يأكلُ كلَّ مساءٍ كالعادةِ، آخرُ كلَّ يومَيْن، وآخرُ كلَّ خمسةِ أيّام. بينما يقفُ آخرُ طولَ اللّيلِ في الصّلاةِ، ويجلسُ في النّهارِ للعملِ اليدويّ. باختصارٍ، مارسَ كلُّ واحدٍ نوعًا خاصًّا من النّسكِ، بحسبِ استعدادِهِ وقوّتِه. أمّا بالنّسبةِ إلى مكاريوسَ، فكانَ يُبلِّلُ أوراقَ نخيلٍ كثيرةً، ويقفُ في زاوية. وإلى أن انتهى الصّومُ الكبيرُ، وأتى وقتُ الاحتفالِ بعيدِ الفصحِ، لم يضَعْ في فمِهِ خبزًا ولا ماءً، ولم يثنِ ركبةً، بل بقيَ من دونِ أن يجلسَ أو يستلقي. لم يأكُلْ شيئًا سوى بعضِ أوراقِ ملفوفٍ نيّئةٍ، نهارَ الأحدِ، وهذا عَمِلَه، كما أعتقدُ، كي يبدوَ أنّه يأكلُ، ولا يقعَ في الكبرياء. كذلك، لم يتكلَّمْ مع أحدٍ بكلمةٍ، بل وقفَ صامتًا، ومُنتبهًا إلى ذاتِه، ومُتحدّثًا، بغيرِ انقطاعٍ، مع اللّهِ، في قلبِه من خلالِ الصّلاةِ، وهو يحبُكُ بيدَيْهِ أغصانَ النّخيل.

عندما رأى الإخوةُ جَلَدَهُ البالغَ، ذهبوا إلى باخوميوسَ، وقالوا له: «يا أبتِ، من أين أتَيْتَنا بهذا اللاّجسميِّ ليدينَنا؟ إمّا أن تطرُدَه من هنا، أو اعلَمْ أنّنا نرحلُ عنك اليومَ جميعُنا». عندما علمَ باخوميوسُ الكبيرُ بكلِّ ما يتعلّقُ به، وبنسكِهِ الّذي يتخطّى قدرةَ البشرِ، صلّى إلى اللّهِ ليكشفَ له من هو هذا الّذي أظهرَ صبرًا مُماثلاً. فكشفَ اللّهُ له أنّ هذا هو الرّاهبُ مكاريوس.

حينئذٍ، ذهبَ باخوميوسُ إليه، وأخذَهُ من يدِه، وأحضرَهُ إلى الكنيسة. هناك، عانقَهُ وقالَ له: «تعالَ، أيّها الرّاهبُ المُكرَّم. أنتَ مكاريوس إذًا؟ ولماذا أخفيتَ ذلك؟ منذ سنواتٍ كثيرةٍ، أسمَعُ عنكَ، وأرغَبُ في رؤيتِك. أَدينُ لك بشكرٍ لأنّك تصرّفْتَ برباطةِ جأشٍ مع أولادي، لئلاّ يظُنّوا أنّ نسكَهُم عظيم. أتوسّلُكَ، عُدِ الآنَ إلى موضعِكَ لأنّك قد أفدتَنا كفايةً، وصلِّ من أجلِنا». وبعد أن كرَّمَهُ هو والإخوةُ، قامَ مكاريوسُ، وعادَ إلى قلاّيتِه.

أخبرَني هذا الإنسانُ السّماويُّ ما يلي: «أردْتُ مرّةً أن أحفظَ ذهني، لمدّةِ خمسةِ أيّامٍ، مُلتصقًا باللهِ، من دونِ أن أفكّرَ مُطلقًا في أيِّ شيءٍ ماديٍّ، أن ألبثَ بثباتٍ متوجِّهًا إليه فقط، وأتأمّلَ الحقائقَ العُلويّة. بما أنّني قرّرْتُ ذلك، أغلقتُ قلاّيتي وبابَ السّورِ لئلاّ أجيبَ أيَّ زائرٍ، وبدأتُ بعملي منذ نهارِ الاثنين. حثثتُ ذهني، وقلتُ له: «انتبِهْ لئلاّ تنزلَ من السّماوات. هناك ملائكةٌ، ورؤساءُ ملائكةٍ، وكلُّ القوّاتِ السّماويّةِ، الشّاروبيمُ والسّيرافيمُ، واللّهُ خالقُ الكون. إبقَ هناك. لا تنزِلْ من السّماءِ، ولا تسقُطْ في أفكارٍ مادّيّة».

بقيتُ يومَيْن على هذه الحالِ الّتي أغاظَتِ الشّيطانَ، فتحوّلَ إلى كتلةِ نارٍ، وأحرَقَ كلَّ ما في قلاّيتي، وحتّى البساطَ الّذي أنا واقفٌ عليه. حينئذٍ، خِفْتُ وأنا أُفكِّرُ في أنّني قد أحترقُ أنا أيضًا، وتركْتُ تلك الرّؤيةَ العُلويّةَ في اليومِ الثّالثِ، لأنزلَ إلى رؤيةِ هذا العالمِ، وبدأتُ، من جديدٍ، أفكِّرُ في الأشياءِ المادّيّةِ، لئلاّ يُحسَبَ عملي عليَّ كبرياءً أعمى.

- عنه نفسه -

في مصرَ جبلٌ على الطّريقِ نحو الإسقيطِ الّذي يُدعى الفرميَّ، وفيه يقطنُ خمسُ مئةِ رجلٍ تقريبًا يَسلكونَ السّيرةَ النّسكيّة. أحدُهم كانَ يُدعى بولسَ، راهبٌ بارزٌ اعتمدَ طولَ فترةِ نسكِهِ السّلوكَ الآتي: لم يتعاطَ بتاتًا أيَّ عملٍ يَدويٍّ أو تجاريٍّ، ولم يقبَلْ مِنّةً من أحدٍ، ما عدا طعامَه اليوميّ. انشغالُهُ الدّائمُ كانَ الصّلاةَ غيرَ المنقطعة، وقانونُهُ أن يعملَ ثلاثَ مئةِ صلاةٍ يوميًّا. جمعَ حصًى بهذا العددِ، ووضعَها في ثَنيةِ لباسِه، وبها راحَ يعدُّ الصّلواتِ، راميًا حصاةً على الأرضِ بعد انتهاءِ كلِّ صلاة.

مرّةً، زارَ مكاريوسَ الكبيرَ، المدعوَّ المدينيَّ[٢١١]، وقالَ له: «أيّها الأبُ مكاريوسُ، أنا حزينٌ جدًّا». فألحَّ عليه عبدُ اللّه مكاريوسُ، ليقولَ له سببَ حزنِه. أجابَه بولسُ: «في إحدى القرى راهبةٌ تسلكُ السّيرةَ النّسكيّةَ، منذُ ثلاثينَ سنة. أخبروني أنّها لا تأكُلُ أبدًا، ما عدا السّبتَ والأحد. ومع أنّها لا تأكُلُ إلاّ بعدَ خمسةِ أيّامٍ، فهي تعملُ يوميًّا سبعَ مئةِ صلاة. عندما علمْتُ بذلك، يئستُ من نفسي لأنّني، وأنا رجلٌ، خُلقتُ بقوّةٍ جسديّةٍ أكبرَ منها، لا أستطيعُ أن أعملَ أكثرَ من ثلاثِ مئةِ صلاة». أجابَهُ القدّيسُ مكاريوسُ: «أنا لي ستّونَ سنةً أعملُ الصّلواتِ المئةَ المُحدَّدةَ في قانوني، وأعملُ بيدَيَّ من أجلِ طعامي، وأؤدّي للإخوةِ خدمةَ التّحدّثِ إليهم. ومع هذا، لا يُدينُني ضميري على أنّني إنسانٌ مُتهامل. فإن كانَ ضميرُك يُدينُكَ، وأنت تعملُ ثلاثَ مئةِ صلاةٍ، فهذا يشيرُ بوضوحٍ إمّا إلى أنّكَ لا تُصلّي بنقاوةٍ، وإمّا إلى أنّكَ تَقومُ بصلواتٍ أقلَّ ممّا أنتَ قادرٌ عليه».

- عنه نفسه -

كان دوروثيوسُ ناسكًا يعيشُ في طيبةَ الصّحراويّةِ البعيدةِ خمسةَ أميالٍ عن مدينةِ الإسكندريّة. إليه قد سلَّمَني القدّيسُ إيسيذورسُ، كاهنُ كنيسةِ الإسكندريّةِ، ومضيفُ الغُرباء. فقد ذهبْتُ إليهِ أوّلاً لأنّي شابٌّ، وأخذتُ أتوسَّلُهُ أن يرشدَني في الحياةِ الرّهبانيّةِ؛ ولكنّه أخرجَني من المدينةِ، وأخذَني إلى النّاسكِ دوروثيوس، وسلَّمَني إليه، وطلبَ إليه أن يُعلِّمَني ما يختصُّ بالرّهبان. عاشَ هذا الشّيخُ بتقشُّفٍ كبير. طولَ اليومِ، في حرِّ الظّهيرة، يَجمَعُ حصًى من شاطئِ البحرِ المُحاذي للصّحراءِ، ويبني بها قلاّياتٍ، ثمّ يتركُها للّذينَ لا يقدِرونَ على البناءِ بأنفسِهم، بسببِ ضعفِهم. وعندما سألتُه مرّةً: «ماذا تفعلُ، يا أبتِ، وأنتَ في هذه الشّيخوخةِ، أتُميتُ جسدَكَ المسكينَ في هذا الحرِّ القاسي؟» أجابَ الشّيخُ: «هو يُميتُني، وأنا أميتُه».

اعتادَ أن يأكلَ، كلَّ يومٍ، ستّةَ أونصاتٍ من الخبزِ، أحيانًا مع قليلٍ

---

٢١١. هكذا كانوا يدعون مكاريوس الإسكندريّ لأنّه كانَ ينحدر من المدينة.

من الخُضارِ، ويشربُ قصعةَ ماء. يشهَدُ اللّهُ عليَّ أنّني لم أرَهُ يمدُّ رجلَيْه، أو يستلقي على بساطٍ أو سريرٍ لينامَ، ولكنّه ما فتئ يجلسُ طولَ اللّيلِ، ويحبكُ الخوصَ من أغصانِ النّخيلِ ليقيتَ ذاتَه. ظننتُ أنّه يتصرّفُ هكذا أمامي. لكنّني علمتُ ممّن يعرفونَهُ جيّدًا، وقد تتلمذوا عليه في الحياةِ النّسكيّةِ، أنّه اعتنقَ طريقةَ الحياةِ هذه، منذُ شبابِه، فلم يستلقِ البتّةَ لينام. كانَ فقط يُغلِقُ عينَيْه قليلاً، ويحني رأسَهُ في الوقتِ الّذي يعملُ فيه أو يأكلُ، وغالبًا ما كانَ الخبزُ يسقطُ من فمِه، خلالَ الطّعامِ، بسببِ النّعاسِ الطّاغي.

حدثَ، ذاتَ يومٍ، أنّني أصررْتُ عليه، ليستلقيَ قليلاً على البساطِ، وتوسّلتُهُ بحرارةٍ، فأجابَني بحزنٍ: «إن أقنَعْتَ الملائكةَ بأن يناموا، فستقنعُ حينئذٍ المُجاهدَ». في يومٍ آخرَ، نحو السّاعةِ التّاسعةِ، أرسلَني لأجلبَ ماءً من النّبع. رأيتُ في أسفلِه صلاً[٢١٢]. عدتُ مُرتعبًا وأنا أركضُ، وقلتُ له: «سنموتُ، يا أبتِ. رأيتُ أسفلَ النّبعِ أفعى». أمّا هو، فنظرَ إليّ طويلاً وهو يبتسمُ بوقارٍ، وحرّكَ رأسَهُ بهدوءٍ، وأجابَني: «لو فكّرَ الشّيطانُ في أن يضعَ في الينابيعِ كلِّها أفاعيَ أو حيّاتٍ، أو سلاحفَ، أو سواها من الزّواحفِ السّامّةِ، ألن تشربَ بتاتًا؟» فخرجَ حينئذٍ، وذهبَ إلى النّبعِ، واغترفَ منه ماءً بنفسِه، وبعد أن رسمَ إشارةَ الصّليبِ على الماءِ، شربَ، ثمّ قالَ لي: «حيثُما ترسُمْ إشارةَ الصّليبِ، لا قوّةَ لخبثِ الشّيطانِ وشرِّه».

- عن كتابِ الشّيخ -

١- حدّثنا أيضًا الأبُ دانيالُ عن الأبِ أرسانيوسَ أنّه، ذاتَ يومٍ، دعا الأبوَيْن اسكندرَ وزويلوسَ، وقالَ لهما باتّضاعٍ: «إنّ الشّياطينَ يُحاربونَني، ولا أدري هل ينالونَ منّي، أثناءَ النّومِ، فاتعبا معي هذه اللّيلةَ، وانتبِها إن كنتُ أنعسُ أثناءَ السّهرانيّة». فجلسا، طولَ اللّيلِ، صامتَيْن، الواحدُ عن يمينِه، والآخرُ عن يسارِه. وأخبرا فيما بعدُ: «نِمْنا واستيقَظْنا، ولم ننتبِهْ إن نعس. عند الصّباحِ فقط، رأيناه يَتَنَهّدُ عميقًا ثلاثَ مرّاتٍ، وينهضُ للحالِ سائلاً: لقد

٢١٢. أفعى صغيرة سامّة توجد في مصر.

نعستُ، أليس كذلك؟ أمّا نحن، فأجَبْناه: لا نَعرف».

٢- هو نفسُهُ أخبرَ عن الأبِ أرسانيوسَ أنّه كانَ يسهرُ، طولَ اللّيل. وعند خلودِهِ إلى النّومِ في الصّباحِ، بسببِ الحاجةِ البشريّةِ، كانَ يجلسُ ويقولُ للنّومِ: «هلمَّ أيّها العبدُ الشّرّير». وبعد أن يخطفَهُ النّومُ قليلاً، ينهضُ للحال.

٣- قالَ الأبُ أرسانيوسُ: «يكفي الرّاهبَ أن ينامَ ساعةً واحدةً فقط، إذا كانَ مُجاهدًا».

٤- قالَ الأبُ بيصاريون: «لقد أمضيتُ أربعينَ يومًا وأربعينَ ليلةً، وأنا أقفُ في وسطِ عُلّيقةٍ[٢١٣]، من دونِ أن أنامَ لأغلبَ النّومَ».

٥- هو نفسُهُ قالَ: «خلالَ أربعينَ سنةً، لم أستلقِ على جنبي، بل كنتُ أنامُ جالسًا أو واقفًا».

لقد أمضى هذا الشّيخُ، كطيورِ السّماءِ، أيّامَ حياتِهِ كلَّها، من دونِ اضطرابٍ ولا همٍّ، لا يملكُ شيئًا أرضيًّا، لا كتابًا، ولا لباسًا سوى واحدٍ مُمزّق. كذلك، لم يَخْتَمِ تحتَ سقفٍ، بل بَقِيَ دائمًا في الفلاءِ، مُتجوّلاً في البراري والأماكنِ غيرِ الصّالحةِ للسَّكَنِ، يُحاربُ البردَ والحرَّ، وأصبحَ مُتساميًا على حاجاتِ الجسدِ الضّروريّة.

وإن حدثَ أن أتى مرّةً إلى مكانٍ مأهولٍ، أو زارَ منسكًا ما، كانَ يجلسُ، خارجَ البابِ، باكيًا كإنسانٍ نجا بعد تحطُّمِ السّفينة. وعندما يسألونَهُ عن سببِ بُكائِه، كانَ يقولُ: «أبكي على الغنى الّذي أضعتُهُ، وعلى مَجدي القديمِ، وشَرَفي الّذي سقطتُ منه، وأنا الآن بحالٍ يُرثى لها». حينئذٍ، كانوا يَدعونَهُ للدّخولِ إلى الدّيرِ، وتناولِ الطّعامِ معهم. وبما أنّه لا يَرضى بذلك، كانوا يُعطونَهُ خبزًا، ويقولونَ له: «خُذْ هذا، يا أبتِ، أمّا ما فقدتَه، فللّهِ القدرةُ أن

٢١٣. العلّيقة فيها أشواك.

يعيدَهُ لكَ ثانية». بعد أخذِ الخُبزِ، كانَ يتنهّدُ، ويقولُ: «لا أعرفُ إن كنتُ سأجدُ ما أضعتُهُ، لكنّني لن أتوقّفَ عن طلبِه». واستمرَّ على هذا المنوالِ حتّى نهايةِ حياتِه.

الفصل الثّامن عشر

كيف نؤمِّنُ حاجاتِ الجسدِ، وما هما النّسكُ والإمساكُ الصّحيحان.

- من حياةِ القدّيسِ أنطونيوس -

عندما يحينُ وقتُ الطّعامِ، أو النّومِ، أو أيّةِ حاجةٍ جسديّةٍ أخرى، كانَ أنطونيوسُ الكبيرُ يخجلُ من نفسِه، مُتَفكِّرًا في الرّوحيّات. فعند اجتماعِ الإخوةِ الرّهبانِ لتناولِ الطّعامِ، كثيرًا ما تَرَكَهم ورَحَلَ بعيدًا عنهم، وذلك لتذكُّرِهِ الطّعامَ الرّوحيَّ، وخجلِهِ من أن يراه الآخرونَ وهو يأكُل.

إذًا، اعتادَ أن يأكلَ وحدَهُ ليكفيَ حاجةَ الجسدِ، ولكنّه غالبًا ما كانَ يُشاركُ الإخوةَ مائدتَهم أيضًا. تخطّى شعورَهُ بالخجلِ، إذ وجدَها فرصةً ليفيدَهم بكلامِه. قالَ في ذلك: «يجب أن نُوليَ النّفسَ عنايةً أكبرَ من الجسد. نَمنحُ القليلَ من الوقتِ للجسدِ، بحكمِ الضّرورةِ، ونَتفرَّدُ في الانشغالِ بالنّفسِ، والتّفتيشِ عمّا يُفيدُها، لئلاّ تَنجرَّ إلى الأسفلِ بلذّاتِ الجسدِ، بل بالأحرى لتَستعبدَ الجسدَ لها. في الواقعِ، هذا ما يَعنيه قولُ المُخلّصِ: «فلا تشغلوا نفوسَكُم بما تأكلونَ، وتشربونَ، ولا تَسودَنَّ الاهتماماتُ عليكم. فإنّ هذه كلَّها يطلبُها أناسُ العالم. وأمّا أنتم، فأبوكم يعلمُ أنّكم تحتاجونَ إلى هذه كلِّها. لذا اطلبوا ملكوتَهُ فقط، وهذه كلُّها تُزادُ لكم[٢١٤]».

- عن حياةِ القدّيسِ إفثيميوس -

كان إفثيميوسُ الكبيرُ يقولُ إنّ الإمساكَ الكاملَ هو الّذي يجنِّبُنا

---

٢١٤. أنظر لو ١٢: ٢٩ - ٣١.

بلوغَ الشّبعِ، حتّى وإن تَوَفَّرَ الطّعامُ لسدِّ حاجاتِنا. يعني علينا أن نأكلَ أقلَّ ممّا نحتاجُ إليه.

- عن حياةِ القدّيسةِ سينكليتيكي -

قالَتِ القدّيسةُ سينكليتيكي: «ليس كلُّ نسكٍ مَقبول. فهناك نسكٌ من العدوِّ، يمارِسُهُ تابعوه. فكيف نُميِّزُ بين النّسكِ الإلهيِّ الملكيِّ[٢١٥] والنّسكِ المُستبدِّ الشّيطانيّ؟ بداهةً من المقياس. إتَّخِذِ الصّومَ المُنتظمَ والمُستمرَّ كقاعدةٍ، ولا تَصُمْ أربعةَ أو خمسةَ أيّامٍ، لئلاّ تُبَدِّدَ طاقتَكَ، فيما بعدُ، بالمآكلِ الكثيرة. الإفراطُ مُضِرٌّ دائمًا. لا تستنفِدْ أسلحتَكَ دفعةً واحدةً، لئلاّ تَجِدَ ذاتَكَ خاليًا من سلاحٍ في المعركةِ، فتكونَ فريسةً سهلةً للخصم. سلاحُنا الجسدُ، والنّفسُ هي الجنديُّ، فاهتَمّ بإشباعِ حاجاتِهما كِلَيْهما.

صُمْ ما دُمتَ شابًّا، وتتمتّعُ بصحّةٍ جيّدةٍ، لأنّ الشّيخوخةَ ستُوافيكَ مع عِلَلِها. ما دمتَ تتمتّعُ بالقوّةِ بعدُ، ادّخِرْ - بالصّومِ - مؤونةً من الثّرواتِ الرّوحيّةِ؛ ستجدَها عندما تخورُ قواك. صُمْ بتعقّلٍ ودِقّة. إحذَرْ ألاّ ينسلَّ العدوُّ سرًّا في تجارةِ صومِكَ، ولكن صِرْ «صرّافًا خبيرًا»، بحسبِ كلامِ الرّبِّ[٢١٦]، وتحقَّقْ بدقّةٍ من خَتْمِ العُملةِ المَلَكيّة. فهناك عملاتٌ مُزيّفةٌ، مصنوعةٌ أيضًا من الذّهبِ، ولكنّها مختلفةٌ عن العملةِ الرّسميّةِ في الخَتْم. الذّهبُ هو الصّومُ، والتّقشُّفُ، والإحسانُ، الّتي يضعُ عبّادُ الأصنامِ عليها خَتْمَهم غيرَ الشّرعيِّ، ويفتخرُ بها الهراطقةُ. أمّا أنتَ، فاحترِسْ من هؤلاءِ الأشخاصِ، اهربْ منهم كما من مُزَيِّفي النّقودِ، واسهَرْ بانتباهٍ لئلاّ تتضرّرَ بسقوطِكَ في فخاخِهم على غفلةٍ منك».

- عن كتابِ الشّيخ -

١- سألَ الأبُ يوسفُ الأبَ بيمن قائلاً: «كيف ينبغي أن نصوم؟» قالَ له الأبُ بيمنُ: «أنا أفضِّلُ أن يأكُلَ الرّاهبُ قليلاً كلَّ يومٍ ولا يشبَع».

---

٢١٥. الكلمة هنا تعني النّسك الصّحيح، أي من دونِ مبالغات أو نواقص.

٢١٦. أنظر مت ٢٥، ٢٧.

فقالَ له الأبُ يوسفُ: «لمّا كنتَ شابًّا، ألم يَكُنْ صومُكَ يومَيْن يومَيْن، يا أبتِ؟» قالَ الشّيخُ: «في الحقيقةِ، بلى، وحتّى ثلاثةَ وأربعةَ أيّامٍ، وأسبوعًا كاملاً. ولقد اختبرَ الآباءُ كلَّ هذا لأنّهم كانوا أقوياءً، ووجَدوا أنّه من الأفضلِ أن يأكلَ الإنسانُ قليلاً كلَّ يومٍ، ثمّ سلَّمونا الطّريقَ الملوكيّةَ، لأنّها خفيفةٌ ومُفيدةٌ معًا».

٢- قالَ الأبُ بيمنُ أيضًا: «المبالغاتُ كلُّها تأتي من الشّياطين».

٣- كانَ إنسانٌ يصطادُ في البَرّيّةِ حيواناتٍ مُفترسةً، فرأى الأبَ أنطونيوسَ يمزَحُ مع الإخوةِ، فتعثَّرَ. أمّا الشّيخُ، فأرادَ أن يُقنعَهُ بأنّه ينبغي أن نُراعي حاجاتِ الإخوةِ أحيانًا، فقالَ له: «ضَعْ سهمًا في قوسِكَ، وشُدَّهُ!» فَشَدَّه. فقالَ له الشّيخُ ثانيةً: «شُدَّهُ أيضًا بقوّةٍ». نفَّذَ الصّيّادُ الأمر. ثمّ قالَ له الشّيخُ ثالثةً: «شُدَّهُ أكثر». أجابَ الرّجلُ: «إذا بالغتُ في شدِّ القَوْسِ، سأكسرُه!» حينئذٍ، قالَ له الشّيخُ: «هكذا الحالُ تمامًا في عملِ اللّه. إذا ما ضغَطْنا على الإخوةِ أكثرَ ممّا يجبُ، يَيأسونَ سريعًا. لذلك، ينبغي لنا، في الوقتِ الملائمِ، أن نتنازلَ لهم».

٤- زارَ الأبُ إسحقُ الأبَ بيمنَ، فلمّا رآهُ يسكُبُ قليلاً من الماءِ على قدمَيْه، سألَه بالدّالّةِ الّتي له عليه: «لماذا يعامِلُ بعضُهم أجسادَهم بقساوةٍ، من دونِ أيِّ تساهلٍ؟» أجابَهُ الأبُ بيمنُ: «نحن لم نتعلَّمْ قتلَ الجسدِ، بل قتلَ الأهواء».

٥- طلبَ أخٌ نصيحةَ الأبِ سارماتا قائلاً: «أفكاري تقولُ لي: لا تعمَلْ، بل كُلْ واشرَبْ ونَمْ». أجابَهُ الشّيخُ: «كُلْ عندما تجوعُ، واشرَبْ عندما تعطَشُ، ونَمْ عندما تَنْعَسُ». ورحلَ الأخ. صادفَ أنّ شيخًا آخرَ ذهبَ إلى ذلك الأخِ، فأطلعَهُ هذا الأخيرُ على كلِّ ما قالَهُ له الأبُ سارماتا. فشرحَ الشّيخُ: «إليكَ ما أرادَ الأبُ سارماتا قولَه: عندما تجوعُ كثيرًا، كُل. وعندما لا تستطيعُ احتمالَ

عطشِكَ أكثرَ، اشرَب. وعندما يتراكمُ عليكَ السّهرُ وتنعَسُ، نَم. ولكن، لا تفعَلْ شيئًا من هذا، إن لم تَكُنْ بأمسِّ الحاجةِ إليه».

٦- قالَ شيخٌ: «من النّاسِ مَن يأكلُ كثيرًا ويبقى جائعًا، ومنهم مَن يأكلُ قليلاً ويشبَع. الأوّلونَ سيلقَونَ مكافأةً أكبرَ من الآخِرين».

٧- قالَ أيضًا: «إن كانَ جسدُكَ ضعيفًا، فاعتَنِ به بحسبِ حاجتِه، لئلاّ يمرَضَ فتُجبَرَ على طلبِ الأطعمةِ، وتصيرَ على عاتقِ ذاك الّذي يخدمُكَ».

٨- قيلَ عن الأبِ نتراس، تلميذِ الأبِ سلوان إنّه، عندما أقامَ في قلاّيتِه، في جبلِ سيناءَ، كانَ يحفظُ حاجةَ الجسدِ باعتدال. ولكنّه عندما صارَ أسقفًا على فاران، التزمَ نظامًا نُسكيًّا أشدَّ. فقالَ له تلميذُه: «يا أبتِ، عندما مكَثْنا في الصّحراءِ، لم تُمارِسْ نسكًا كهذا». أجابَهُ الشّيخُ: «هناك، كانَتِ الصّحراءُ والسّكينةُ والفقرُ، فأردتُ أن أحفظَ جسدي لئلاّ أمرضَ وأضطرَّ إلى الاستعطاءِ من أجلِ حاجاتي. ولكن، ههنا العالمُ والوسائل. إذا مرضتُ الآن، فسأجدُ مَن يَعتني بي. هدفي ألاّ أفقدَ الرّاهب».

٩- عندما كانَ الأبُ مياثيوس الثّاني يسكنُ في سيناءَ، زارَهُ أحدُ الشّيوخِ، وسألَه: «كيف تعيشُ في هذه الصّحراءِ، يا أخي؟» أجابَه: «آكُلُ كلَّ يومَيْن رغيفًا واحدًا فقط». قالَ له الشّيخُ: «إذا أردْتَ أن تسمعَ نصيحَتي، فكُلْ يوميًّا نصفَ رغيف». ففعلَ هكذا، ووجدَ راحة.

١٠- سأل أخٌ شيخًا: «كيف يجبُ أن أمارسَ الصّوم؟» أجابَ الشّيخُ: «لا تَفعَلْ أكثرَ من المُحدّد. فكثيرونَ ممّن أرادوا فعلَ أكثر لم يتمكّنوا لاحقًا من إكمالِ جزءٍ بسيطٍ منه».

- عن أنطيوخيوس البَنْديكتي -

ليس الصّومُ أن يأكلَ المرءُ في فتراتٍ مُتباعدةٍ فحسبُ، إنّما أيضًا أن يأكلَ كميّةً قليلة. فالنّسكُ لا يشتمِلُ على أن يأكُلَ الواحدُ مرّةً كلَّ يومَيْن أو ثلاثةِ أيّامٍ، بل ألاّ يكونَ هناك تنوّعٌ في الأطعمة. إنّه وجبةٌ مُحدّدةٌ بنوعٍ واحد. ليس صومًا مقبولاً أن ننتظرَ ساعةَ الطّعامِ المُحدّدةِ، لنهجمَ حينئذٍ على المائدةِ بشراهةٍ، ونتعلّقَ، جسدًا وروحًا، باللّذّةِ الّتي يُزوِّدُنا بها الطّعامُ الموضوع.

- عن الأبِ أشعيا -

عندما تهدأُ في قلاّيتِكَ، حدِّدْ لذاتِكَ مقياسًا للطّعامِ، بحيثُ تُعطي جسدَكَ ما يحتاجُهُ كي يسندَكَ في إقامةِ صلواتِك، ولا تستولي عليكَ رغبةُ الذّهابِ في زيارةٍ خارجَ قلاّيتك. لا تسمَعْ للشّياطينِ إن حثّوكَ على نسكٍ فوقَ طاقتِك. فإنّهم يَدفعونَ الإنسانَ بالحماسةِ إلى كلِّ عملٍ يتخطّى قوّتَه، ليقعَ تحت سيطرتِهم، فيفرحوا.

فأعطِ جسدَكَ ما يَحتاجُه، ثمّ قُمْ عن المائدةِ فيما لا تزالُ شهيّتُكَ مفتوحة. كذلك، لا تأكُلْ شيئًا بلذّةٍ أو برغبةٍ في تَذَوّقِهِ، إن كان طيّبًا أم رديئًا. إن اضطُررتَ إلى شُرْبِ النّبيذِ، فلا تشربْ أكثرَ من ثلاثةِ كؤوسٍ، ولا تتعدَّ هذا القياسَ بداعي الصّداقة. لا تَكُنْ شَرِهًا لئلاّ تتجدّدَ فيكَ خطاياك السّابقة. لا تُحِبّ النّبيذَ حتّى الثّمالةِ لئلاّ تُحرَمَ فرحَ اللّه. يكمُنُ نسكُ النّفسِ في كُرْهِ التّشتّتِ، ونسكُ الجسدِ في اختبارِ الحرمان. سقوطُ النّفسِ هو محبّةُ التّشتّتِ، أمّا إصلاحُها ففي التّأمُّلِ في المعرفةِ الإلهيّة. إن أردتَ، يا أخي، أن تُبديَ توبةً للّهِ، فاحفَظْ ذاتَكَ من الإسرافِ في شُرْبِ النّبيذِ لأنّه يُجدِّدُ الأهواءَ كلَّها، ويطردُ خوفَ اللّهِ من النّفس.

- عن الأبِ مرقس -

يليقُ بالمبتدئينَ في النّسكِ أن يُتمّوا عملَهُم جيّدًا، وبالشّبابِ والأكبرِ سنًّا، الّذينَ يتمتّعونَ بجسدٍ قويٍّ، ويحتملونَ القساوةَ، أن يُمارسوا الصّومَ المُفيدَ والنّافعَ بحماسة. عليهم أن يأكلوا وزنًا محدّدًا من الخبزِ، ويشربوا

الماءَ بمعيارٍ محدّدٍ، في أوقاتٍ محدّدةٍ، بحيثُ يتركونَ الطّعامَ فيما لا يزالونَ يَشعرونَ قليلاً بالجوعِ والعطشِ، ولا تمنَعُهم اللّذّةُ من إكمالِ واجباتِ صلاتِهم إلى اللّه. إن أرَدْنا الشّبعَ من الأكلِ، فسنفقدُ شهيّتَنا إليه سريعًا، وسنشتهي شيئًا آخر. حتّى وإن أرضَيْنا هذه الشّهوةَ الجديدةَ، وأكَلْنا حتّى الشّبعِ، فسنُهمِلُها أيضًا كالطّعامِ السّابق. في الواقعِ، يستحيلُ علينا أن نشعرَ بشبعٍ مستديمٍ بتحقيقِ رغباتِنا الّتي نتصوّرُ أنّها تُعزّينا.

أيُّ طعامٍ كانَ أطيبَ أو أفخرَ من المنّ[٢١٧]؟ ومع ذلك، عندما شبعَ منه الإسرائيليّونَ، ولم يَعُدْ لديهم طعامٌ أفضلُ يشتهونَه، رغبوا في الأدنى، بالثّومِ والبصل[٢١٨]. فمن طبيعةِ الشّبعِ أن يُولِّدَ رغبةً جديدة. إن كنّا شبِعْنا من الخبزِ، وأتَيْنا إلى الرّغبةِ في طعامٍ آخرَ، فلا نأكلَنَّ منه حتّى الشّبع. هكذا، سننجو من الضّررِ الّذي يُسبِّبُه تعاقبُ الشّهواتِ، ونكتسبُ، بهذه الطّريقةِ، فضيلةَ الإمساك.

ولكن، قد يقولُ أحدُ الّذينَ لا يميلونَ كثيراً إلى الصّومِ: «وهل الأكلُ خطيئةٌ؟» إلاّ أنّنا لا ننصحُ بالإمساكِ لأنّ الأكلَ خطيئةٌ، بل لأنّ الأكلَ يُمكنُه أن يترافقَ والخطيئة. لم يخطِئِ الإسرائيليّونَ برغبتِهم في الطّعامِ، بل بكفرِهم بسببِ الرّغبةِ، وتكَلُّمِهم بالسّوءِ على اللّه. قالوا: «ألا يستطيعُ اللّهُ أن يُجهِّزَ لنا مائدةً في البرّيّة؟»[٢١٩] وبعد أن جهَّزَها لهم اللّهُ كما أرادوا، انفجرَ غضبُهُ عليهم مثلَ النّارِ، وألقى الأقوى فيما بينهم أمواتًا[٢٢٠]، لئلاّ يَرغبوا، وهم بعدُ أحياءٌ، في طعامٍ آخرَ، ويُجدِّفوا على العليِّ، فيتسبّبونَ بدمارِ بقيّةِ الشّعبِ أيضًا. من الصّعبِ أن يَلْجُمَ أحدُهم البطنَ الشَّرِه. إنّ مَن يخضعونَ له يُطعِمونَهُ كإلهٍ[٢٢١]، ومَن لا يستطيعُ أن يسودَ عليه، لن يُبرَّر.

مع ذلك، فالخطرُ ليس في الشّبعِ فحسبُ، إنّما أيضًا في الضّجر. فعندما نُمضي أيّامًا كثيرةً، من دونِ أن نقتاتَ شيئًا، يجدُ الضّجرُ مقرًّا فينا، ويهجمُ لمحاربتِنا؛ يحوّلُ سهرَنا اللّيليَّ إلى نومٍ، وصلاةَ نهارِنا إلى أفكارٍ جسديّةٍ، بحيثُ لا نستفيدُ بتاتًا من النّومِ، ونتضرّرُ كثيراً من الأفكارِ الجسديّة. نبدأُ

---

٢١٧. أنظر خر ١٦، ٣١.
٢١٨. عدد ١١، ٥-٧.
٢١٩. مز ٧٧، ١٩.
٢٢٠. مز ٧٧، ٣١.
٢٢١. انظر في ٣، ١٩.

بتكوينِ فكرةٍ عظيمةٍ عن ذواتِنا، ونتصوّرُ أنّنا نمارسُ نسكًا أكبرَ من الآخرينَ، ونحتقرُ مَن يمارسونَ نسكًا أخفَّ، وهنا الطّامةُ الكبرى. كما لو أنّ فلاّحًا أنفقَ ثروةً في سبيلِ تحضيرِ حقولِه، ولكنّه لم يُلْقِ البذارَ، فآلَتْ أتعابُهُ إلى الدّمارِ، كذلك نحن، إن أخضَعْنا جسدَنا بانتباهٍ شديدٍ، ولكنّنا لم نَبْذُرِ الصّلاةَ، نَكُنْ قد جاهَدْنا بالأحرى ضدَّ ذواتِنا.

قد يقولُ أحدُهم: «هل يحتاجُ فعلاً رجلُ الصّلاةِ، أو رجلُ الفضيلةِ، إلى الصّوم؟» طبعًا! إنّها الحاجةُ الكبرى من كلِّ النّواحي. فكما أنّ فلاحًا فقيرًا، إن بذَرَ في أرضٍ بائرةٍ، من دونِ أن يقلبَ الأرضَ أوّلاً، فسيحصدُ أشواكًا عوضًا عن القمحِ، هكذا نحن أيضًا: إن زرَعْنا فينا مبدأَ الصّلاةِ، من دونِ أن نُهيِّئَ جسدَنا بالصّومِ، فسنحصدُ الخطيئةَ عوضًا عن البِرّ. ذلك أنّ أصلَ هذا الجسدِ من التّرابِ، كالحقلِ، وإن لم يعتنِ به المرءُ، كما يُعتنى بالأرضِ، فلن يتكوّنَ ثمرُ البِرّ.

نقولُ هذا، لا لنمنعَ الصّومَ عن الأشخاصِ الّذينَ يستطيعونَ الاستفادةَ منه، بل لننصحَ هؤلاءِ الّذينَ لا يُريدونَ أن يتضرّروا منه. فكما أنّ الصّومَ يُفيدُ الّذينَ يمارسونَه بتبصّرٍ، هو يضرُّ أيضًا الّذينَ يمارسونَهُ من دونِ تمييز. لذلك، على الأشخاصِ المهتّمينَ بفائدتِهم، أن يحترسوا ممّا يُمكنُ أن يضرَّهم في الصّومِ، أي من المجدِ الباطل. الخبزُ الّذي كنّا سنأكُلُه، بعد إتمامِ الصّومِ الّذي حدّدناه لأنفسِنا، لنوزّعْهُ على فترةِ الإمساكِ كي، باستهلاكِ كمّيةٍ قليلةٍ كلَّ يومٍ، يصمُتَ فكرُنا الجسديُّ، ويتشدّدَ قلبُنا[222] في الصّلاةِ المفيدةِ جدًّا، ولكي، ونحن محفوظونَ من الكبرياءِ بقدرةِ اللّهِ، ننتبهَ أن نضيءَ أيّامَ حياتِنا بالتّواضُعِ الّذي، من دونِه، لا أحدَ يُرضي اللّه.

- عن القدّيسِ ذياذوخس -

كما أنّ الجسدَ، إذا أُثقِلَ بكثرةِ الأطعمةِ، يجعلُ الذّهنَ جبانًا وكسولاً، كذلك أيضًا، إذا أُرهِقَ بإمساكٍ مُفرطٍ، فإنّه يُدخِلُ، إلى قوّة التّأمّلِ في النّفسِ،

٢٢٢. انظر مز ١٠٣: ١٥: وخبزًا يشدّد قلب الإنسان.

الحزنَ، والاشمئزازَ من الكلامِ في اللّه. علينا إذًا تحديدُ الطّعامِ طبقًا لحركاتِ الجسدِ، حتّى يُهذِّبَ بشكلٍ لائقٍ حينما يكونُ بصحّةٍ جيّدةٍ، ويُغَذّى بتعقُّلٍ حينما يكونُ واهنًا. إذ يجبُ ألاّ يكونَ المجاهدُ واهنَ الجسدِ، بل أن يمتلكَ القوّةَ الكافيةَ للجهادِ، لتتنقّى النّفسُ كما يليقُ، بفضلِ طاقاتِ الجسدِ أيضًا.

للصّومِ سببٌ للفخرِ في ذاتِه، ولكن ليس أمامَ اللّهِ، إذ هو نوعٌ من أداةٍ لتدريبِ طالبي العفّة. يجبُ إذًا ألاّ يكونَ للمُجاهدينَ في التّقوى مَدعاةً للتّباهي، بل أن ينتظرَ هؤلاءِ تحقيقَ الغايةِ منه بإيمانِهم باللّهِ، لأنّ ذوي الحِرَف، أيًّا كانَتْ حرفتُهم، لا يسندونَ أبدًا فخرَ نجاحِهم المهنيِّ إلى أدواتِهم ووسائلِهم، بل ينتظرُ كلُّ منهم اتّخاذَ مشروعِه شكلَه الأخيرَ، ليُظهِرَ كمالَ فنِّه.

كما أنّ الأرضَ، إذا سُقِيَتْ باعتدالٍ، تجعلُ البذرةَ الملُقاةَ فيها تنبتُ من تلقاءِ ذاتِها، وتُثمرُ ثمرًا وفيرًا، بينما إذا أغرقَتْها الأمطارُ الغزيرةُ، فلا تُطلعُ سوى العلّيقِ والشّوكِ، كذلك أيضًا أرضُ القلبِ، إذا شرِبْنا الخمرَ باعتدالٍ، لا تُنبِتُ غيرَ بذورِها الطّبيعيّةِ، وتُطلعُ، بخصبٍ وفيرٍ، ما يزرَعُهُ فيها الرّوحُ القدس. أمّا إذا نُقِعَتْ في خمرٍ كثيرةٍ، فالأفكارُ الّتي تخطُرُ لها لا تكونُ كلُّها في الحقيقةِ سوى علّيقٍ وشَوْك.

عندما يغوصُ الذّهنُ في فيضِ الخمرِ، لا تتوقّفُ نظراتُهُ الشّهوانيّةُ عند الصُّوَرِ الّتي يُبدِعُها له الشّياطينُ أثناءَ النّومِ فحسبُ، بل يتذكّرُ بعضَ الصُّوَرِ المُمتعةِ للنّظرِ، ويتعاطى مع تخيُّلاتِه الجنسيّةِ، هائمًا بها كنساءٍ حبيبات.

لأنّه إذا حمَّتْ حدّةُ الخمرِ الأعضاءَ التّناسليّةَ، تَصَوَّرَ الذّهنُ، لا محالةَ، طيفَ تلكَ الشّهوةِ المُستلذّة. يجبُ إذًا الاعتدالُ في شُرْبِ الخمرِ، درءًا لضررِ الإسرافِ في تناولِه. فإنّ الذّهنَ، عندما لا يُحِسُّ بلذّةٍ تستدرجُهُ إلى تَصَوُّرِ الخطيئةِ، لا يأتي إلى التّخيّلِ، وبالتّالي لا يَسترخي.

- عن الأبِ كاسيانوس -

لم يُسَلِّمْ آباؤُنا إلى الإخوةِ جميعِهم قانونًا واحدًا للصّومِ، ولا طريقةً واحدةً للتّغذيةِ، ولم يسمَحوا طبعًا لكلِّ واحدٍ أن يأكُلَ حسبَ ذوقِهِ، بما أنّ

الجميعَ لا يمتلكونَ القوّةَ نفسَها، نظرًا للسّنِّ، أو المرضِ، أو البُنيةِ الجسديّةِ بحسبِ قدرتِها. مع ذلك، فقد سلَّمَ الآباءُ إليهم جميعًا التّقيُّدَ بأمرٍ واحدٍ، وهو الهربُ من الشّبعِ، وتجنُّبُ التّخمة. كذلك، اختبَروا أنّ الإمساكَ اليوميَّ أكثرُ إفادةً، للتّقدُّمِ في النّقاوةِ، من صومٍ صارمٍ لثلاثةِ أيّامٍ، أو أربعةِ أيّامٍ، أو أسبوعًا كاملاً[٢٢٣]. فبالنّسبةِ إليهم، غالبًا ما يحدثُ مع مَن يُطيلُ صومَهُ أكثرَ ممّا يجبُ أن يأكُلَ أيضًا لاحقًا أكثرَ ممّا يجب.

ينجمُ عن ذلك أوّلاً ضعفُ الجسدِ بسببِ المُبالَغةِ في الصّومِ، ويصيرُ المرءُ كسلانًا في الأعمالِ الرّوحيّة. ثانيًا، يُثَقَّلُ الجسدُ بفائضٍ من الأطعمةِ، فيستولي، على النّفسِ، الضّجرُ والرّخاوة. كذلك، اختبرَ الآباءُ أنّ استهلاكَ الخُضارِ لا يوافقُ الإخوةَ كلَّهم، أي الأصحّاءَ، بل المرضى[٢٢٤]. والأمرُ ذاته بالنّسبةِ إلى الحبوبِ والخبزِ الجافِّ، إذ لا يوافقانِ المرضى، بل الأصحّاء. يستطيعُ شخصٌ أن يأكُلَ رغيفَيْ خبزٍ ويبقى جائعًا، فيما يأكُلُ آخرُ رغيفًا واحدًا، أو نصفَ رغيفٍ، ويَشبع. مع ذلك، فقد أعطى الآباءُ قانونَ إمساكٍ للجميعِ، لئلاّ يخدَعنا امتلاءُ البطنِ، ولا تَجذبَنا لذّةُ المَذاق. فليس التّنوّعُ في تحضيرِ المآكلِ وحدَهُ ما يُضرِمُ عادةً سهامَ الزّنى الحارقةَ، بل أيضًا كميّةُ الطّعامِ المفرطة. فإن امتلأَ البطنُ بأيِّ نوعٍ من الطّعامِ، يَلِدْ بذورَ الفسق. بالإضافةِ إلى ذلك، ليس فقط الإفراطُ في شُرْبِ النّبيذِ ما يُسكِرُ الذّهنَ عادةً، بل أيضًا الاستهلاكُ المُفرِطُ للماءِ والطّعامِ يُغرِقُ الذّهنَ في البلادةِ والفتور. لم يَكُنْ سببَ دمارِ سكّانِ سدومَ التّثاقلُ النّاتجُ عن النّبيذِ، وتنوّعِ الأطعمةِ، بل شبَعُهم من الخبزِ[٢٢٥]، كما يقولُ النّبيّ.

مرضُ الجسدِ لا يتناقضُ ونقاوةَ القلبِ إن أعطَيْنا الجسدَ ما يتطلّبُهُ المرضُ، وليس ما تَقتضيه اللّذّة. يجبُ أن تكونُ كمّيّةُ الطّعامِ كافيةً لحفظِ الحياةِ، ولكن يجبُ أن تكونَ مقنّنَةً، لئلاّ نُستعبَدَ لاندفاعاتِ الشّهوة. الاستعمالُ المُعتدلُ للأطعمةِ يحفَظُ صحّةَ الجسدِ، ولا يُلغي القداسة. قانونُ الإمساكِ الّذي سلَّمَنا إيّاه الآباءُ هو التّالي: «مَن يأكُلْ فليتوقَّفْ وهو بعدُ

---

٢٢٣. يعني أن يأكل أحدهم قليلاً كلّ يوم، أفضل من أن يأكل كلّ ثلاثة، أو أربعة أيّام، أو أسبوعًا كاملاً.

٢٢٤. أنظر رو١٤، ٢: أمّا الضّعيف فليأكل بقولاً.

٢٢٥. حز ١٦، ٤٩.

جائعٌ، من دونِ الاستمرارِ حتّى الشّبع». وعندما قالَ الرّسولُ: «لا تَستسلموا لاهتماماتِ الجسدِ لترضوا رغباتِه»[٢٢٦]، لم ينقضْ إشباعَ الحاجاتِ الضّروريّةِ للحياةِ، ولكنّه حَرَّمَ التّعلّقَ بملاحقةِ اللّذّة.

- عن كتابِ الشّيخ -

أُقيمَ في جبلِ القدّيسِ أنطونيوس قدّاسٌ احتفاليٌّ، وكانَ ثمّةَ وعاءُ خمر. فأخذَ أحدُ الشّيوخِ إبريقًا وكأسًا، وقدَّمَ منه للأبِ سيسوي فشرِبَها. ثمّ قدَّمَ له كأسًا ثانيةً فقبِلَها. ولمّا همَّ بتقديمِها للمرّةِ الثّالثةِ، لم يقبَلْهُ الأبُ وقالَ: «توقّفْ، يا أخي. ألا تعرفُ أنّ فيها شيطانًا؟»

- عن القدّيسِ إسحق -

ظلامُ النّفسِ يسبِّبُهُ نقصُ النّظامِ في الحياةِ النّسكيّةِ، بينما الاعتدالُ وحفظُ البرنامجِ فيها يُنيرانِ الذّهنَ، ويَطردانِ التّشويش. فتشويشُ الذّهنِ، الّذي يأتي من عدمِ تنظيمِ السّيرةِ، يُظلِمُ النّفسَ، فيجلبُ البلبلةَ والاضطّراب. وبالعكسِ، من حُسْنِ النّظامِ يولدُ السّلامُ، ومن السّلامِ يولدُ نورٌ في النّفسِ، ومن نورِ السّلامِ يهبُّ هواءٌ نقيٌّ في الذّهن[٢٢٧]. هكذا، بمقدارِ ما يقتربُ القلبُ من الحكمةِ، يقبلُ النّعمةَ الإلهيّة.

إن أردتَ أن تقتربَ من اللّهِ بقلبِكَ، فأظهِرْ له شوقَكَ من خلالِ النّسكِ الجسديِّ، أي بتقليصِ حاجاتِكَ، واستهلاكِ صنفٍ واحدٍ من الطّعامِ باعتدالٍ، وبسائرِ أعمالِ النّسكِ، والتّضييقِ على الجسدِ بتمييزٍ واعتدال. فالرّبُّ وضعَ أساسَ الكمالِ في هذه الأمور، بما أنّه، هو نفسُه، بدأ عملَهُ مُقاسيًا الآلامَ في الصّحراء[٢٢٨]. بسلوكِ هذه الطّريقِ نفسها، تسمو نحوَ الكمالِ، وتقتربُ من اللّهِ بالمُشاهدةِ، بمعونةِ النّعمة.

إنّ للعملِ النّسكيِّ الصّغيرِ، الّذي يواظَب عليه، قوّةٌ كبيرةٌ، فإذا

---

٢٢٦. رو ١٣: ١٤.

٢٢٧. يعني الرّوح القدس. (نسكيّات، المقالة ٧٣ صفحة ٢٨٤).

٢٢٨. مت ٤: ١- ٢.

تساقطَتْ قطرةُ الماءِ باستمرارٍ على الصّخرةِ القاسيةِ تَثْقُبُها. لا تظُنَّ، يا أخي، أنّنا نستطيعُ صدَّ الأفكارِ الدّاخليّةِ بطريقةٍ أخرى، سوى بحلولِ الانسجامِ وحُسْنِ النّظامِ في الجسد.

الفصل التّاسع عشر

كيف يَحتَفِلُ مَن يحبُّ الله. وطعامُ الآباءِ في الأعياد.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ شيخٌ: «إن قالَ لك فكرُكَ، في يومِ عيدٍ، أن تُهيِّئَ أطعمةً مُختلفةً، فلا تسمَعْ له، لأنّك ستُعَيِّدُ يهوديًّا، فاليهودُ يَفعلونَ هذا. الطّعامُ الجيّدُ للرّاهبِ هو النّوحُ والدّموع».

٢- قيلَ عن الأبِ ألاذيوس إنّه لم يَكُنْ يأكُلُ سوى الخبزِ والملحِ، كسائرِ رهبانِ الإسقيط. وعندما يأتي الفصحُ، يَقولُ في نفسِه: «الآن، يأكُلُ الإخوةُ خبزًا وملحًا كالعادةِ، أمّا أنا، فعليّ أن أبذلَ قليلاً من الجهدِ من أجلِ الفصح. بما أنّني، في الأيّامِ السّالفةِ، كنتُ آكُلُ وأنا جالسٌ، إنّه الفصحُ الآن، فسأبذلُ قليلاً من الجهدِ لآكُلَ وأنا واقفٌ». وهذا ما كانَ يقومُ به دائمًا في الفصح.

٣- قالَ أحدُ الآباءِ: «أعرفُ أخًا من منطقةِ القلالي اعتادَ أن يصومَ أسبوعَ الفصح. وعندما يجتمعُ الإخوةُ في المساءِ من أجلِ الفصحِ، يهربُ لئلاّ يأكُلَ في مائدةِ الكنيسةِ العامّةِ، ثمّ يسلقُ بعضَ النّباتاتِ، ويأكلُها من دونِ خبزٍ».

٤- قالَ شيخٌ: «لنتمتّعنْ بأقوالٍ إلهيّةٍ، ولنحتفلنَّ بأخبارِ الآباءِ القدّيسينَ، فلا تطيبَ لنا ملذّاتُ البطنِ، بل نبتهجَ روحيًّا».

٥- أخبرَنا الأبُ بولسُ الكبادوكيُّ: «في عصرِ غزوةِ الفرسِ[٢٢٩]، هرَبنا بعيدًا عن ديرِنا، وتفرَّقنا. ذهبت أنا إلى مدينةِ القسطنطينيّةِ، حيثُ صادفتُ سفينةً على وشكِ الإبحارِ إلى الإسكندريّة. فركبتُها، بعد أن دفعتُ ثمَنَ تذكرةِ السّفر. وبعد أيّامٍ قليلةٍ، وصَلْنا إلى الإسكندريّة. هناك، وجدتُ رهبانًا من جبلِ النّطرون ورافقتُهم. بعد وصولي إلى الجبلِ، سكنتُ مع أحدِ الشّيوخِ، وبقيتُ معه لمدّةِ سنةٍ وثلاثةِ أشهر. ثمّ ذهبتُ إلى رئيسِ الجبلِ، وقلتُ له: «أشفِقْ عليَّ، يا أبتِ، وأعطِني قلاّيةً لأعيشَ في الهدوئيّة. لا أستطيعُ العيشَ مع الشّيخِ، لأنّه لا يتبَعُ ترتيبَ الرّهبانِ ولا ترتيبَ العلمانيّين. يُجبِرُني على الصّومِ نهارَ الأحدِ، وفي سائرِ الأعيادِ، وفي فترةِ الخمسين. أمّا أكثرَ ما يعسُرُ عليّ احتمالُه، فهو أنّه لا يدَعُني أرتِّلُ القوانينَ والطّروباريّاتِ، كما اعتادَ الكلُّ على فعلِه. وفي أيّامِ الصّومِ الأربعينيِّ المُقدّسِ، ما خلا السّبتَ والأحدَ، لا نضعُ في فمِنا خبزًا، ولا نبيذًا، ولا زيتًا. وعلينا أن نكتفيَ بـالفاكهةِ كلَّ يومَيْن».

أمّا الشّيخُ الّذي يُديرُ الجبلَ، فأجابَني: «عُدْ، يا أخي، وابقَ مع الشّيخِ إن أردتَ أن تَخلُص. لأنّ مَن يرغبُ في الخلاصِ، لا يترُكُ، لا في عيدٍ ولا في نهارِ أحدٍ، تمجيدَ اللّهِ الّذي يتقوّى ويُحفَظُ بالصّومِ والسّهر.

كما أنّ السّمكةَ لا تستطيعُ أن تعيشَ من دونِ ماءٍ، هكذا الرّاهبُ لا يستطيعُ أبدًا أن يعيشَ ويسلكَ بحسبِ اللّهِ، من دونِ صلاةٍ مُستمرّةٍ، وصومٍ، وسهر. الصّومُ ليومَيْن متتاليَيْن يُناسبُ المتوحّدينَ فقط. كذلك أن يأخُذَ الرّاهبُ حصّتَه من الفاكهةِ، ويُمسكَ عن الخبزِ، لا يُفيدُ ولا يُمتَدَحُ لأنّه يُشيرُ إلى المجدِ الباطل. أن يصومَ المرءُ أربعينَ يومًا، أي الصّومَ الأربعينيَّ المُقدّسَ، ليأكلَ ويرتاحَ خمسينَ يومًا، أي خلالَ فترةِ الخمسين، يليقُ بالعالميّينَ والأغنياءِ، لا بالرّهبان. كذلك ترتيلُ الطّروباريّاتِ والقوانينِ، بحسبِ الألحانِ المختلفةِ، يليقُ بالكهنةِ والمسيحيّينَ، الّذينَ يعيشونَ في العالمِ، لأنّه لهذا اعتادَ الشّعبُ أن يجتمعَ في الكنائس.

أمّا بالنّسبةِ إلى الرّهبانِ، الّذينَ ابتعدوا عن ضجيجِ العالمِ، فهذا

---

٢٢٩. في بداية القرن السّابع.

ليس من دونِ فائدةٍ فحسبُ، إنّما يسبّبُ ضررًا أيضًا. فكما أنّ الصّيّادَ يلتقطُ السّمكةَ بصنّارةٍ ودودةٍ، هكذا الشّيطانُ، بهذه الطّروباريّاتِ والتّرتيلِ الملُحّن، يُدخِلُ الرّاهبَ في المجدِ الباطلِ، ومحبّةِ إرضاءِ البشرِ، والبحثِ عن اللّذّةِ، ولاحقًا في الزّنى أيضًا. في الواقعِ، لا علاقةَ للتّرتيلِ بالرّاهبِ الّذي يُريدُ حقًّا الخلاص».

- عن القدّيسِ أفرام -

العيدُ للرّاهبِ هو في حفظِ وصايا المسيحِ، وتعزيتُهُ هي في عدمِ ارتكابِ الشّرّ. فرحُ الرّاهبِ انطلاقُهُ نحوَ المسيحِ، ومجدُه مخافةُ الرّبّ.



الفصل العشرون

الأكلُ خفيةً شرٌّ كبيرٌ بإمكانِهِ وحدَهُ أن يُدمِّرَ الرّاهب.

- عن القدّيسِ غريغوريوس الذّيالوغوس -

راهبةٌ من ديرٍ يرأسُهُ أكويتيوسُ العظيمُ، دخلَتْ إلى الحديقة. ولدى رؤيتِها خسّةً، اشتهَتْ أكلَها، وبادرَتْ إلى تناولِها بشراهةٍ، من دونِ حتّى أن تَرسُمَ إشارةَ الصّليب. وللحالِ، دخلَ فيها الرّوحُ النّجسُ، وألقاها أرضًا. عندما شاهدَ الأشخاصُ المُحيطونَ بها ما حصلَ، سارعوا لِيُعلموا الأبَ أكويتيوسَ ليأتيَ بسرعةٍ لنجدةِ الرّاهبةِ من الخطرِ المُحدِقِ بها.

حالما دخلَ الأبُ إلى الحديقةِ، بدأ الشّيطانُ الّذي كانَ يسحقُ الرّاهبةَ على الأرضِ، يصرُخُ وكأنّه يُبرِّرُ ذاتَه: «ما الّذي فعلتُهُ أنا؟ كنتُ جالسًا فوق الخسّةِ عندما أتَتْ هذه المرأةُ وعضّتني». فأمرَهُ رجلُ اللّهِ بصرامةٍ أن يخرجَ من الرّاهبةِ، وألاّ يبقى فيها مطلقًا. فخرجَ للحالِ الرّوحُ النّجسُ منها، ولم يجرؤْ بعدَ ذلك على الاقترابِ منها.

- عنه نفسه -

أخبرَني الكاهنُ أثناسيوسُ، المُقرَّبُ منّا، أنّ في وطنِهِ «إيقونيوم»، في ديرٍ يُدعى «غالاتون»، راهبٌ حَسِبَهُ النّاسُ كافّةً هامّةً في النّسكِ والفضائل. ولكنّه، كما برهنَتْ أواخرُ حياتِه، كانَ بعيدًا عمّا بدا في الظّاهر. فبينما أظهرَ للإخوةِ أنّه يصومُ، أخذَ يأكلُ خفيةً عنهم.

ومَرِضَ مرّةً، فأوشكَ أن يموت. عندما فَهِمَ أنّ النّهايةَ قريبةٌ، دعا

إخوةَ الدّيرِ جميعًا إلى جانبِه. سارعوا بحماسةٍ، ظانّينَ أنّهم سيسمعونَ شيئًا مُهمًّا ومَرغوبًا، من إنسانٍ كاملٍ في الفضيلة. أمّا هو، فقالَ لهم وهو يَنتحبُ ويَرتجفُ: «كنتم تظنّونَ أنّني أصومُ معكم، فيما أنا كنتُ آكلُ في الخفاءِ، والآن، ها أنا قد سُلِّمتُ إلى التّنّينِ ليلتهمَني. لقد ربطَ رجليّ وركبَتَيّ بذنَبِهِ بإحكام. وضعَ رأسَهُ في فمي الّذي كنتُ آكلُ به خفيةً، وأخذَ يسحبُ نفسي منه». بالكادِ تلفّظَ بهذه الكلماتِ حتّى توفّيَ، من دونِ أن يُسمَحَ له بالبقاءِ أكثرَ على قيدِ الحياةِ، ليتسنّى له أن يتحرّرَ من ذاك التّنّينِ بالتّوبة.

هذا يُبرهِنُ جليًّا أنّه لم يرَ هذه الرّؤية، سوى لمنفعتِنا ومنفعةِ الحاضرينَ، بما أنّه، بعدما أظهرَ العدوَّ الّذي أُسلِمَ إليه، عَجِزَ هو نفسه عن الهربِ منه.

الفصل الحادي والعشرون

يليقُ بالرّاهبِ أن يأكلَ مرّةً واحدةً في اليومِ، بينَ السّاعةِ التّاسعةِ والمساء، إن كانَ يهتمُّ بالنّظامِ الدّقيقِ الّذي حفظَهُ جميعُ الآباءِ، لا الهدوئيّونَ فحسبُ، إنّما أيضًا غالبيّةُ العائشينَ في أديارِ الشّركة.

- من حياةِ البارِّ خاريطن المعترف -

كان خاريطنُ الكبيرُ يعيشُ في مغارةِ اللّصوصِ[٢٣٠]، ويسلكُ سيرةً نسكيّةً سامية. اجتذبَ مسلكُهُ هذا إلى قربِهِ كثيرًا من التّلاميذِ الّذينَ كانوا يتدفّقونَ نحوَه كالسّيلِ، مُحوِّلينَ الصّحراءَ إلى مدينة. عندما رأى المغبوطُ أنّ هذه الجلبةَ تَحرمُهُ من هدوئيّتِهِ العزيزةِ، وعرفَ، من ناحيةٍ أخرى، أنّ مجدَ البشرِ خَطِرٌ يُسَبِّبُ البلبلةَ في الحياةِ الرّوحيّةِ، اعتنى بتجنُّبِه، فأعطى تلاميذَهُ وصايا تتعلّقُ بكلِّ ما يُناسبُ الحياةَ الرّهبانيّة. حدّدَ ساعةَ الطّعامِ في نهايةِ النّهارِ، على أن ينتهوا من تناولِهِ، وهم لا يزالونَ جائعينَ قليلاً. كذلك، حدّدَ أن يقتصرَ طعامُهم على الخبزِ، وأن يُتَبَّلَ بالملحِ فقط لإعطائِهِ طَعْمًا، وأن يقتصرَ شرابُهم على الماءِ بكمّيّةٍ قليلةٍ، وفي أوقاتٍ محدّدة. أوصاهم أيضًا أن يكرَهوا البطالةَ لأنّها علّةٌ لشرورٍ كثيرةٍ[٢٣١]، وأن يعكُفوا على عملٍ يدويٍّ، وهم يرتّلون[٢٣٢].

---

٢٣٠. أسر لصوص عائشون في مغارة البارّ خاريطن. بعد موتهم بسبب شربهم النّبيذ، الّذي سبق أن دخلت فيه حيّة، ووضعت سُمَّها، بقي البارّ ليتنسّك في مغارتهم.

٢٣١. أنظر حكمة سيراخ ٣٣، ٢٨

٢٣٢. بعد وضع هذا النّظام، أوكل البارّ إلى أخٍ البقاء مكانه، ورحل في طلب الهدوئيّة.

- عن كتابِ الشّيخ -

زارَ مرّةً الأبُ أنطونيوسُ الأبَ عمّونَ في جبلِ النّطرون. خلالَ الحديثِ، قالَ له الأبُ عمّونُ: «بما أنّ عددَ الإخوةِ ازدادَ بشكلٍ ملحوظٍ بصلواتِك، يُريدُ بعضُهم بناءَ قلاّياتٍ مُتباعدةٍ، ليتسنّى لهم العيشُ في الهدوئيّة. كم من المسافةِ تأمُرُ أن تبعُدَ القلاّياتُ الّتي سيبنونَها عن الّتي هنا؟» أجابَ: «سنأكلُ عندَ السّاعةِ التّاسعةِ، ثمّ نخرجُ ونسيرُ في الصّحراءِ لمعاينةِ الموضع». بعدما سارا في الصّحراءِ حتّى مغيبِ الشّمسِ، قالَ الأبُ أنطونيوسُ: «فلنصلِّ ولنضَعْ هنا صليبًا، لكي يأتيَ مَن يشاءُ ويَبني هنا. هكذا، عندما يزورُ أولئك هؤلاءِ، أو العكسُ، يبقونَ غيرَ مشتّتينَ أثناءَ هذه الزّياراتِ المُتبادلة[٢٣٣]».

- من حياةِ البارّةِ فيلوثاي -

عاشَ يوليانوسُ الكبيرُ سنواتٍ عديدةً في مغارةٍ طبيعيّةٍ، حيثُ تفرّغَ لنسكٍ كبيرٍ: يتغذّى من خبزٍ مَصنوعٍ من الذّرةِ البيضاءِ والنُّخالةِ، ومُتبّلٍ بالملح، ويشرَبُ من ألذِّ المشروباتِ، أي من ماءِ النّبع. أمّا وليمتُهُ اللّذيذةُ والغنيّةُ، فكانَت حديثَهُ المستمرَّ مع اللّه. طريقةُ عيشِهِ هذه اجتذبَتْ إليه كثيرينَ سَمِعوا عن سموِّ حياتِهِ النّسكيّة. أتى بعضُهم من أماكنَ مجاورةٍ، وبعضُهم الآخرُ من أماكنَ بعيدةٍ، ورغِبوا جميعُهم من تلك السّاعةِ في البقاءِ معه، والعيشِ تحتَ إرشادِه. في البدءِ، رفضَ يوليانوس. ولكنّه، فيما بعد، اقتنعَ بأنّ اللّهَ أرسلَ هؤلاءِ النّاسَ، فقبلَهم بفرح. وبعد مدّةٍ قصيرةٍ، وصلَ عددُ المُقبلينَ إليه إلى المئةِ، وكانتِ المغارةُ تأويهم جميعًا. كانوا يتغذّونَ، هم أيضًا، مثلَ معلّمِهم من الخبزِ المصنوعِ من الذّرةِ، والمتبّلِ بالملح.

لقد علّمَهم أن يُقدِّموا التّسبيحَ للّهِ في خدمةٍ مشتركةٍ تُقامُ داخلَ المغارةِ خلالَ اللّيلِ، وأن يَخرجوا، اثنَيْنِ اثنَيْنِ، بعد شروقِ الشّمسِ، إلى الصّحراء. هناك، يُقدِّمُ أحدُهما العبادةَ الواجبةَ للّهِ بصنعِ المطّانيّاتِ، فيما يقفُ الآخرُ، ويُرتِّلُ خمسةَ عشَرَ مزمورًا من مزاميرِ داوود. بعدَ ذلك، يتبادلانِ

٢٣٣. كي يتسنّى لهم، بعد طعام السّاعة التّاسعة، أن يعودوا إلى قلاّياتهم قبل حلول اللّيل.

الأدوارَ، فيقفُ الأوّلُ ويرتّلُ، فيما الآخرُ الّذي كانَ قبلُ واقفًا يركعُ ويسجد. كانوا يتمّمونَ هذا العملَ من الصّباحِ حتّى ساعةٍ متأخّرةٍ من بعد الظّهرِ، ويجتمعونَ كلُّهم قبلَ غروبِ الشّمسِ، ليقدّموا للّهِ معًا تسبحةَ المساء. ثمّ يجلسونَ ضمنَ جماعاتٍ في المغارةِ، لتناولِ طعامِهم البسيطِ.

- عن الأبِ أشعيا -

يا مَن تعيشُ هادئًا في قلاّيتِك، حدِّدْ مقياسًا لطعامِك، بحيثُ أنّك تُعطي جسدَكَ ما هو ضروريٌّ لكي يسندَكَ في عملِ صلواتِكَ، ولئلاّ تستوليَ عليكَ رغبةُ الخروجِ للقيامِ بزياراتٍ في الخارجِ. تناوَلِ الطّعامَ مرّةً واحدةً في النّهارِ، وأعطِ الضّروريَّ لجسدِكَ، بحيثُ تَنهضُ عن المائدةِ وأنتَ راغبٌ في أكلِ المزيد.

- عن القدّيسِ غريغوريوس الذّيالوغوس -

كانَ في ديرِ الأبِ البارِّ بنديكتوس قانونٌ وضَعَهُ بنفسِه، ينصُّ على أنّه عندما يُرسَلُ إخوةٌ في أعمالٍ خارجيّةٍ، لا يأكلونَ ولا يَشربونَ، حتّى عودتِهم إلى الدّير. طبّقَ الرّهبانُ جميعُهم في الدّيرِ هذا القانونَ بدقّة.

ولكن، ذاتَ يومٍ، أرسلَ البارُّ بعضَ إخوةِ الدّيرِ، لإتمامِ مهمّةٍ خارجيّة. بعد مسيرةٍ طويلةٍ، حلَّ المساءُ، ولم يبقَ لديهم متّسعٌ من الوقتِ للعودةِ مباشرةً إلى الدّيرِ، لأنّ طريقَ العودةِ طويلةٌ جدًّا. اضطرّتهمِ السّاعةُ المتأخّرةُ إلى التّوقّفِ في قلاّيةِ راهبةٍ تقيّةٍ جدًّا، حيثُ تناولوا الطّعام. عندما استهلّوا المسيرَ، أرسلوا أمامَهم أحدَ الإخوةِ إلى البارِّ ليطلبوا بركتَه، حسبَ العادةِ، ليأكلوا. عندما رأى بنديكتوسُ الكبيرُ الأخَ الّذي وصلَ ليلاً، سألَه: «أين أكَلْتُم؟» أجابَ الرّاهبُ: «لم نأكُلْ في أيِّ مكانٍ، يا أبتِ». سألَه القدّيسُ موبِّخًا: «لماذا تكذب؟ ألم تتوقّفوا في قلاّيةِ الرّاهبةِ الفلانيّةِ، وتحلّوا صومَكم؟ ألم تشربوا كؤوسًا بهذه الكمّيّة؟» عندما تلقّى الأخُ التّوبيخَ، سقطَ عند قدمَيْه، وطلبَ المغفرة.

سامحَهُ الأبُ الرّؤوفُ على خطيئتِه. وفي الصّباحِ، عندما وصلَ الرّهبانُ

الآخرونَ إلى الدّيرِ، تفحّصَهم الأبُ بالطّريقةِ عينِها، ووبّخَهم بصرامة. لكن، عندما اعترفوا بأنّهم أخطأوا، وسقطوا على الأرضِ، متوسّلينَ إليه أن يسامحَهم، سامحَهم على خطيئتِهم بعدَ أن وعدوه بأنّهم، منذ ذلك الحينِ، لن يتعدَّوا الوصيّةَ الّتي سلَّمَهم إيّاها، حتّى نَفَسِهِم الأخير.



الفصل الثّاني والعشرون

لا نأكلُ من أجلِ اللّذّةِ، بل بداعي الضّرورة. من لا يأكلْ من أجلِ اللّذّةِ، لا يتأذَّ، مهما تكُنِ الأطعمةُ لذيذة.

- من حياةِ القدّيسِ سابا -

في شبابِهِ، عاشَ البارُّ سابا في ديرِ فلافيانيس، في كبادوكيا، الّذي يبعُدُ عشرينَ غَلوةً[٢٣٤] عن قريةِ «موتالاسكي»، مَسقَطِ رأسِه. عَكَفَ على النّسكِ، وجميعِ أشكالِ الإمساك. لم يُبالِ بلذّةِ الحلقِ، ولا اهتمَّ بإشباعِ المَعِدة.

ذاتَ يومٍ، فيما راحَ يعملُ في حديقةِ الدّيرِ، أثارَتْ شجرةُ التّفّاحِ المَليئةُ بالثّمارِ شهيّتَهُ، وجُرِّبَ بالأكلِ منها، قبلَ أوانِ الطّعام. فغلبَهُ مَظهرُ التّفّاحِ اللّذيذِ بالفعلِ، إذ إنّه إنسانٌ ويَخضَعُ لرغباتٍ بشريّةٍ، فقطفَ واحدة. عقبَ ذلك، أدركَ أنّ هذا فخٌّ من الشّرّيرِ الّذي من عادتِهِ أن يُقدِّمَ اللّذّةَ صنّارةً، ليستحوذَ على النّاسِ بالحيلة. وتَذكَّرَ الحيّةَ المُختبئةَ خلفَ الثّمرةِ الّتي ذاقَها الجدّانِ الأوّلانِ، فطُرِدا من الفردوسِ، ونالا بعدَها جمًّا من الآلام.

بعدَ تأمُّلِهِ بهذا طويلاً، رمى سابا التّفّاحةَ للحالِ على الأرضِ، وداسَها مع رغبتِه. كذلك، اضمحلَّتْ شهوةُ النّظرِ تحتَ قدمَيْه. ثمّ وضعَ قانونًا على ذاتِهِ يَقضي بألاّ يأكُلَ تفّاحًا طولَ حياتِهِ، وألاّ يَخضَعَ لشهوةِ بطنِه.

---

٢٣٤. الغلوة وحدة طول قديمة تعادل ١٨٥ مترًا تقريبًا.

- من حياةِ القدّيسةِ سينكليتيكي -

أحبَّتِ القدّيسةُ سينكليتيكي الصّومَ كثيرًا، إلى حدٍّ أنّها لم تشأْ أبدًا حلَّه، ولو قليلاً. كانَتْ تعتَبِرُهُ حارسًا لسائرِ الفضائلِ، وأساسًا لها. إن أكلَتْ مرّةً أكثرَ من المُعتادِ، بداعي الحاجةِ، أُصيبَتْ بعكسِ ما يحصُلُ عادةً للنّاسِ؛ يَشحُبُ وجهُها، ويَنقُصُ وزنُها. والحقُّ يُقالُ إنّنا عندما نَتصرَّفُ قَسرًا، نَحصُدُ النّتيجةَ المُعاكسة. فالاستعدادُ الأساسيُّ يَتعلَّقُ حتمًا بما يتبعُه. في الواقعِ، إنّ مَن يتناولونَ الطّعامَ بلذّةٍ يَسمَنونَ، أمّا الّذينَ يأكلونَ من دونِ لذّةٍ وشهيّةٍ، فيُصيبُهم العكس. يَضعُفُ جسدُهم ويَشحبون. والمرضى شهودٌ لذلك.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- كانَ شيخٌ في طيبةَ، اسمُه أنديانوس، نَسَكَ في شبابِهِ نسكًا شديدًا. ولكنّه، في شيخوختِهِ، مَرِضَ وأُصيبَ بالعمى. وبسببِ عجزِهِ، كانَ الإخوةُ يَعتنونَ به كثيرًا، ويُطعِمونَهُ بأيديهم. سألَ بعضُ الإخوةِ الأبَ أيوا العظيمَ الشّهيرَ عن هذا الموضوعِ: «ما نتيجةُ هذا الاهتمامِ الكثير؟» أجابَ الشّيخُ: «أقولُ لكم إنّه، إن كانَ يَشتهي الطّعامَ في قلبِهِ، ويستلذُّ به، حتّى ولو كانَتْ تَمرَةً واحدةً، فسيُنْقِصُها اللّهُ من حسابِ تعبِه. لكن، إن كانَ يأكُلُ على مضضٍ، من دونِ التّلذّذِ، فسيحفَظُ اللّهُ له تعبَهُ كاملاً، لأنّه مُرغَمٌ. أمّا الإخوةُ، فسينالونَ أجرَهم».

٢- سألَ بعضُ الآباءِ الأبَ مياثيوسَ، قائلين: «إذا بَقِيَ طعامٌ لليومِ التّالي، فهل تُريدُ أن يأكُلَهُ الإخوة؟» قالَ: «لا يَحْسُنُ أن نُلزِمَ الإخوةَ به إذا فَسُدَ، لئلاّ يمرَضوا، بل ليُرْمَ. أمّا إذا كانَ لا يزالُ صالحًا للأكلِ، ورُمِيَ بسببِ التّرفِ، وطُبِخَ سواه، فهذا أمرٌ رديء».

٣ - قالَ أحدُ الآباءِ: «عينا الخنزيرِ، في تكوينِهما الطّبيعيِّ، تُجبِرانِهِ على النّظرِ إلى الأرضِ، من دونِ أن يستطيعَ أبدًا رفعَهما إلى السّماء. هكذا مَن يتركُ نفسَهُ تنجذِبُ إلى المَلذّاتِ: إن انزلَقَ مرّةً إلى وَهْدَةِ اللّذّةِ، فلن يستطيعَ

أن يُوجِّهَ فكرَه نحوَ الحقائقِ السّماويّة».

- عن الأبِ أشعيا -

إن حاربَتْكَ الشّراهةُ باشتهاءِ الطّعامِ، فتذكَّرْ نتانةَ رائحتِهِ فيما بعدُ، وستجِدُ الرّاحة.

- عن الأبِ مرقس -

إنّ مَن يَستمتعُ بالمَلذّاتِ الجسديّةِ أكثرَ من اللاّزمِ، سيدفَعُ ثمنَها مئةَ ضعفٍ من الآلام. مَن يؤمِنْ بالخيراتِ الآتيةِ، يُعرِضْ تلقائيًّا عن المَلذّاتِ الّتي هنا. أمّا الّذي لا يؤمنُ، فيصيرُ مُحِبًّا للّذّةِ وعديمَ الإحساس. لا تَقُلْ: «كيف يستطيعُ الفقيرُ، بما أنّه لا يملُكُ الوسائلَ، أن ينغمسَ في اللّذّة؟» فهو يمكنُه أن يَسترسِلَ في اللّذّةِ، بجهدٍ قليلٍ، وذلك من خلالِ فكرِهِ فقط.

- عن القدّيسِ ذياذوخس -

على المُلتَمسينَ ضبطَ ثوراتِ الجسدِ ألاّ يَطلبوا المشروباتِ الرّوحيّةَ الّتي يُعِدُّها المتخصّصونَ، ويُصنّفونَها كمقبّلاتٍ للطّعامِ، على أساسِ أنّها تُسَهِّلُ عمليّةَ هضمِ كميّةِ الطّعامِ في المَعِدة. فنوعيّةُ هذه المشروباتِ لا تؤذي أجسامَ المُجاهدينَ الرّوحيّينَ فحسبُ، بل أيضًا خليطُها المُصطنعُ يهزُّ بعمقٍ الضّميرَ الخائفَ اللّه. فما الّذي يَنقُصُ طبيعةَ الخمرِ حتّى يُعمَدَ إلى تخفيفِ حدّتِهِ بإضافةِ نكهاتٍ مختلفةٍ إليه؟

إنّ يسوعَ المسيحَ، ربَّنا ومُعلِّمَنا، في هذه السّيرةِ المُقدّسةِ، قد سقاه مُنفِّذو الأوامرِ الشّيطانيّةِ خَلاًّ، وهو يتألّمُ، لكي يَرْسُمَ، كما يبدو، صورةً واضحةً عن الاستعدادِ اللاّزمِ للحروبِ الرّوحيّةِ المُقدّسةِ، فيقولَ إنّه على محاربي الخطيئةِ ألاّ يتناولوا مشروباتٍ روحيّةً، أو أطعمةً طيّبةَ المَذاقِ، بل أن يحتمِلوا مرارةَ المعركةِ بصبر. أمّا إضافةُ الزّوفى المُطَهِّرَة إلى إسفنجةِ الهوانِ، فلكي تنطبقَ أداةُ تطهيرِنا تمامًا على نموذجِ المسيح. فما هو مرٌّ يَنطبِقُ على المعركةِ، وما يُطَهِّرُ على ما تُحقِّقُه، ولا شكَّ في ذلك.

- عن القدّيسِ مكسيموس -

تمامًا كما يعقُبُ اللّيلُ النّهارَ، والشّتاءُ الصّيفَ، هكذا الأحزانُ والمَشقّاتُ تعقبُ اللّذّةَ، إمّا في هذه الحياةِ، وإمّا في الآتية.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ شيخٌ: «يَجتهِدُ الشّيطانُ دائمًا في أن يَهجُمَ على الرّاهبِ من خلالِ نقطةِ ضعفِه. كما قالَ أحدُ القدّيسين: «العادةُ الّتي تُمارَسُ لفترةٍ طويلةٍ من الزّمنِ، تكتسبُ قوّةً طبيعيّةً»[٢٣٥]، خاصّةً عندَ الأكثرِ تهاونًا. فارفُضْ تناولَ أيِّ طعامٍ عندما ترغَبُهُ بشدّةٍ، لا سيّما عندما تتمتّعُ بصحّةٍ جيّدة. كُلْ ممّا يُرسِلُهُ اللّهُ إليكَ، شاكرًا إيّاه في كلِّ ساعة».

٢- سألَ بعضُ الآباءِ الأبَ مكاريوسَ المصريَّ، قائلين: «كيف يظلُّ جسمُكَ نحيلًا، سواءَ أكلتَ أم لم تأكُلْ؟» أجابَهم الشّيخُ: «إنّ الخشبةَ الّتي نُحرِّكُ بها الجمرَ المُشتعلَ تنتهي دائمًا إلى أن تَلتهِمَها النّارُ بسرعة. هكذا هو الحالُ مع الإنسانِ، فمتى نقّى ذهنَهُ بمخافةِ اللّهِ، تلتَهِمُ مَخافةُ اللّهِ هذه جسدَه».

٣- سألَ أخٌ الأبَ إيسيذورسَ، قائلاً: «لماذا يَخشاكَ الشّياطينُ جدًّا؟» أجابَ الشّيخُ: «لأنّني مُذ أصبحتُ راهبًا، وأنا أحاولُ ألاّ أسمَحَ للغضبِ أن يرتَفِعَ إلى حلقي». وأظنّ أنّ الأبَ إيسيذورسَ يعني بالغضبِ لذّةَ الطّعامِ الّتي بها نَستدعي غضبَ اللّهِ علينا، ونجتذبُ مشقّاتٍ عديدةً جدًّا.

٤- هو نفسُهُ قالَ: «لي أربعونَ سنةً، وأنا أشعرُ بالخطيئةِ في الفكرِ، ولكنّني لم أُذعِنْ لها أبدًا، لا بالشّهوةِ، ولا بالغضب».

---

٢٣٥. باسيليوس الكبير، القوانين بحسبِ بلاتوس.

٥- مرّةً قدّمَ أحدُهم عنبًا إلى الأبِ مكاريوسَ، واشتهى أن يأكُلَ منه. ولكنّه، مع ذلك، أمسكَ عنه، وأرسلَهُ إلى أخٍ مريضٍ يَشتهي العنب. عندما أخذَها الأخُ فَرِحَ جدًّا، ولكنّه، هو أيضًا، لم يشَأْ أن يُرضيَ شهوتَه، فأرسلَها إلى أخٍ آخرَ، قائلاً إنّه لا يَرغَبُ في تناولِه، مُخفيًا بذلك عملَ إمساكِه. وهذا أيضًا فَعَلَ الشّيءَ نفسَه؛ فَعلى الرّغمِ من أنّه يَستطيبُ العنبَ لم يأكُلْهُ، وأرسلَهُ إلى آخرَ، وهذا فَعَلَ مثلَه، وأرسلَهُ إلى آخر.

هكذا مرَّ العنبُ على إخوةٍ كثيرين. لكنّ أحدًا منهم لم يتذوَّقْه. أخيرًا، عادَ العنبُ إلى الأبِ مكاريوس. في الواقعِ، لم يعلَمِ الأخُ الّذي أخذَها أخيرًا أنّ مكاريوسَ هو أوّلُ مَن أرسَلَها، وجلَبَها إليهِ كأنّها هديّةٌ ثمينة. تعرَّفَ الشّيخُ على عناقيدِ العِنَبِ، فاستخبرَ عن الموضوعِ، وعَلِمَ بما حصلَ، فامتلأَ عَجَبًا، وشكرَ اللّهَ على إمساكِ الإخوةِ المُذهل.

٦- كانَ الأبُ بيورُ عندما يتحضَّرُ للطّعامِ، يبدَأُ بالسّيرِ ويأكُلُ ماشيًا. سألَهُ أحدُ الإخوةِ عن سببِ تصرّفِهِ هذا، فقالَ: «لا أريدُ اعتبارَ الطّعامِ مهنةً، بل عملاً ثانويًّا». ثمّ أجابَ أخًا آخرَ طرحَ عليه السّؤالَ عينَه: «أشغَلُ نفسي بالسّيرِ، وأوجِّهُ انتباهي إلى مكانٍ آخرَ، لئلاّ تشعرَ نفسي بلذّةِ الطّعامِ، ويلتصِقَ ذهني بالأطعمة».

٧- سألَ أخٌ الأبَ سيسوي أن ينصحَهُ في طريقةِ عيشِه. أجابَهُ الشّيخُ: «قالَ النّبيُّ دانيالُ: لم آكُلْ خبزًا برغبةٍ[٢٣٦]».

٨- أُخبِرَ عن شيخٍ أنّه رَغِبَ مرّةً في تناولِ حبّةِ تين. فأخذَها من دونِ أن تغلبَهُ الشّهوةُ، وعلّقَها أمامَ عينيْه، وهكذا تمالَكَ نفسَه لأنّه اشتهاها.

---

٢٣٦. دا ١٠، ٣.

الفصل الثّالث والعشرون

كيف يجلسُ الرّاهبُ إلى المائدة، ويتناولُ من الأطعمةِ المقدَّمةِ، وبأيّةِ نيّةٍ، وما يجبُ أن ينتبهَ إليه بعدَ المائدة.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ أحدُ الآباءِ إنّ ثلاثةَ أمورٍ تُعتبَرُ الأهمَّ عندَ الرّهبانِ، ولذلك، توجّبَ التّقدُّمُ إليها بخوفٍ وفرحٍ روحيٍّ، ألا وهي: تناولُ الأسرارِ المُقدّسةِ، والمائدةُ المُشتركةُ، وغسلُ الأرجل[٢٣٧].

٢- هو نفسُه أخبرَ التّالي: «حدثَ مرّةً أنّ شيخًا عظيمًا يتمتّعُ بموهبةِ الرّؤيا جلسَ إلى المائدةِ، برفقةِ إخوةٍ كثيرين. أثناءَ تناولِ الطّعامِ، تفحّصَ الشّيخُ الإخوةَ بعينَيْهِ الرّوحيّتَيْن، وشاهدَ بعضَهم يتناولُ عسلاً، وبعضَهم الآخرَ خبزًا، والبعضَ الآخرَ أوساخًا. تحيّرَ من ذلك، وتوسّلَ إلى اللّهِ، قائلاً: يا سيّدُ، اكشفْ لي هذا السّرَّ، فالطّعامُ هو نفسُهُ على المائدةِ، ولكنّ نوعيّتَهُ بدَتْ مُختلفةً عندَ تناوُلِه. فَسَمِعَ صوتًا من السّماءِ يقولُ له: إنّ الّذينَ يأكلونَ عسلاً هم الّذينَ يَجلسونَ إلى المائدةِ بخوفٍ وخشيةٍ وفرحٍ روحيٍّ، ويُصلّونَ بلا انقطاعٍ، وتصعَدُ صلاتُهم كالبخورِ إلى اللّه. والّذينَ يَتناوَلونَ خبزًا هم الّذينَ يَشكُرونَ اللّهَ على ما أعطاهم ليأكلوا. أمّا الّذينَ يأكُلونَ أوساخًا، فهم الّذينَ يَتذمّرونَ ويَقولونَ: هذا حسنٌ، وذاك مُقرِف».

٢٣٧. ربّما يذكر عادة الرّهبان، في ذلك الوقت، بأن يغتسلوا بعد الوجبة العامّة الّتي تُقام بعد القدّاس الإلهيّ. هذه الثّلاثة تذكّر بالعشاء السّرّيّ الّذي امتزج بغسل السّيّد أرجلَ التّلاميذ، وتقليد الأسرار المُقدّسة. أو ربّما يعني شيئًا مشابهًا للاغتسال الّذي يذكر في الجزء الرّابع من الأفريتينوس، الفصل ٤٠، أو من الياروندِيكون، القصّة الثّانية.

فقالَ: «يجبُ ألاّ نُفَكِّرَ هكذا، بل بالأحرى أن نُمَجِّدَ اللّهَ، ونُسَبِّحَه، كي يتمَّ قولُ الرّسولِ: «إن أكَلْتُم، أو شَرِبْتُم، أو عَمِلْتُم أيَّ شيءٍ آخرَ، فافعلوا كلَّ شيءٍ من أجلِ مجدِ اللّه[٢٣٨]».

٣- سألَ أخٌ شيخًا: «يَحدُثُ أنّني أذهبُ إلى مكانٍ ما، مع إخوةٍ آخرينَ، ويُقدِّمونَ لنا الطّعامَ لنأكُلَ، فيمتنعُ الإخوةُ عن الطّعامِ، إمّا بداعي التّقشّفِ، وإمّا لتناولِهم الطّعامَ مُسبقًا، فيما أنا أشعرُ بالجوع. فماذا أفعل؟» أجابَ الشّيخُ: «إن جعتَ أنت، فأحصِ الجالسينَ على المائدةِ، ولاحِظِ الطّعامَ أيضًا، وتناوَلِ الجزءَ الّذي تُقَدِّرُ أنّه لك. هكذا، لا تُخطئُ لأنّك تُلبّي حاجتَكَ الطّبيعيّة. لكن، إن انزلقتَ وأكلتَ أكثرَ، فهذا يكونُ هزيمةً لك».

- عن الأبِ أشعيا -

يا أخي، عندما تجلسُ إلى المائدةِ مع إخوةٍ آخرينَ، إن كنتَ أصغرَهم، فلا تَقُلْ لنفسِك: «هنيئًا لكَ»، بل تذكَّرْ خطاياك، كي لا تأكُلَ بِنَهم. مُدَّ يدَكَ أمامَكَ فقط، كأنَّ أحدًا يُجبِرُكَ على الطّعام. لا تَمُدَّ يدَكَ لتأخُذَ ما هو أمامَ الآخر. لتُغَطِّينَّ ثيابُكَ رجلَيْكَ، ولتَكُنْ ركبتاك مَضمومتَيْن. عندما تأكُلُ، لا ترفَعْ وجهَكَ نحوَ جارِك. لا تنظُرْ إلى هنا وهناك، ولا تتفوَّهْ بكلمةٍ إلاّ إن دعَتْكَ الحاجةُ القُصوى. إن أردتَ شيئًا، فقُلْ: «بارِك»، قبلَ أن تَمُدَّ يدَكَ إليه. عندما تشرَبُ الماءَ، لا تَدَعْ حلقَكَ يُصدِرُ صوتًا، كما يَفعَلُ أناسُ العالم. عندَ انتهاءِ الطّعامِ ونهوضِ الإخوةِ، انهَضْ أنتَ أيضًا معهم. لا تَبْقَ جالسًا لتتحدّثَ مع أحدٍ، حتّى ولو بكلامِ اللّهِ، إنّما ادخُلْ إلى قلاّيتِك، وابكِ خطاياك.

إن ذهبتَ لتزورَ أخًا، أو ديرَ شَركةٍ، فلا تسمَحْ لنفسِكَ بأكلِ كمّيّةٍ كبيرةٍ من الطّعامِ اللّذيذِ، كي ترغبَ في العودةِ إلى قلاّيتِكَ سريعًا، ولا تخدَعْ ذاتَك. إن جلستَ مع الإخوةِ وسُدَّ حلقُكَ، فلا تبصُقْ أمامَهم، بل انهَضْ واذهَبْ لتبصُقَ خارجًا. لا تَمُطَّ جسدَك أمامَ آخرين. إن احتجتَ إلى التّثاؤبِ،

---

٢٣٨. ١ كور ١٠، ٣١.

فلا تفتَحْ فمَكَ أمامَ الإخوةِ، وسيزولُ عنك. لا تفتَحْ فمَكَ ضاحكًا، لأنّ هذا يُشيرُ إلى غيابِ خوفِ اللّه.

أثناءَ جلوسِكم إلى المائدةِ، إن لم يرغَبْ أحدُكم في الطّعامِ، فلا يَقُلَنَّ: «أنا لا أستطيعُ الأكلَ منه»، بل ليغصِبْ ذاتَهُ حتّى الموتِ، وسيُريحُهُ اللّه. إن هيّأَ أخوكَ طعامًا، ولم يطهُهُ جيّدًا، فلا تَقُلْ له: «أنتَ لم تَطْهُهُ جيّدًا»، لأنّ هذا موتٌ لنفسِك. أنظُرْ أنتَ كم يُحزِنُكَ لو سمعتَ ذلك من آخرَ، وستَهدَأ».

- عن القدّيسِ ذياذوخوس -

أن يَتَناوَلَ المرءُ من جميعِ الأطعمةِ والأشربةِ المقَدَّمَةِ له وهو يشكرُ اللّهَ، لا يتعارَضُ البتّةَ مع ناموسِ المعرفةِ الرّوحيّةِ، لأنّ كلَّ ما خَلَقَهُ اللّهُ حسنٌ جدًّا[٢٣٩]. أمّا الامتناعُ الطّوعيُّ عن الأطعمةِ الشّهيّةِ الكثيرةِ بطيبةِ خاطرٍ، فيُحسَبُ أنّه عملُ الّذينَ يتمتّعونَ بتمييزٍ ثاقبٍ، ومعرفةٍ وافرة. فنحن لا نَستطيعُ أن نرذُلَ ملذّاتِ هذه الحياةِ، بطيبةِ خاطرٍ، إن لم نتذوّقْ حلاوةَ اللّهِ، بإحساسٍ عميقٍ ويقينٍ كامل.

- عن الأبِ كاسيانوس -

تعلَّمْنا أنّ القراءةَ، أثناءَ تناولِ الطّعامِ، في أديارِ الشَّركةِ في الشّرقِ، تأتي من تَقليدِ الكبادوكيّينَ، لا من تقليدِ المِصريّين. لم يُحَدِّدِ الكبادوكيّونَ هذه القراءاتِ من أجلِ الفائدةِ الرّوحيّةِ فحسبُ، بل بالأحرى من أجلِ منعِ المُحادثة. أمّا عندَ المصريّينَ، لا سيّما الطّابنسيّينَ، فيحتفِظُ الإخوةُ الكثيرو العددِ، عند اجتماعِهم لتناولِ الطّعامِ، بهدوءٍ لا مَثيلَ له في أيِّ مكانٍ آخرَ تقريبًا. لا يجرؤُ أحدٌ أن يتلفَّظَ بهمسةٍ، باستثناءِ المسؤولِ عن المائدةِ الّذي، إن برزَ نقصٌ ما، يُنَبِّهْ إليه بطرقةٍ خفيفةٍ، لا بالكلام. هؤلاءِ يَعتمِرونَ قَلَنْسَوتَهم، ويُنزِلونَها إلى وجوهِهم، لئلاّ تشرُدَ عيونُهم ويتفحَّصَ الواحدُ الآخرَ بفضول. فهم يُرَكِّزونَ فقط على تناولِ الطّعامِ، شاكرينَ اللّهَ الّذي يَعولُهم، ويَنتبِهونَ

---

٢٣٩. تكوين ١، ٣١.

كثيرًا إلى ألاّ يأكُلَ أحدٌ شيئًا، خارجَ المائدةِ العامّة.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ الآباءُ إنّه، ذاتَ مرّةٍ، فيما الإخوةُ يأكُلُونَ في «مأدُبةٍ» أي مائدةٍ احتفاليّةٍ، ضَحِكَ أحدُهم. عندما رآه الأبُ يوحنّا، بكى وقالَ: «تُرى، ماذا يعتمِلُ في قلبِ هذا الأخِ كي يضحكَ، بينما تَوَجَّبَ عليه أن يبكيَ لأنّه يأكُلُ في مأدبةٍ كهذه».

٢- مَرِضَ أحدُ الشّيوخِ، ولم يستطِعْ تناولَ الطّعامِ لأيّامٍ عديدة. توسَّلَ إليه تلميذُهُ أن يطهوَ له طعامًا خاصًّا له، فَقَبِلَ الشّيخ. وللحالِ، سارَعَ الأخُ إلى إعدادِه. ويبدو أنّ وعاءَيْنِ عُلّقا هناك، الواحدُ يَحوي عسلاً، والآخرُ زيتَ كتّانٍ مرٍّ، مُضِرٍّ للأكلِ، يُقتَصَرُ استعمالُهُ على إشعالِ القناديل. أرادَ الأخُ أن يَضَعَ عسلاً في طعامِ الشّيخِ، ولكنّه سَكَبَ سهوًا بعضًا من هذا الزّيتِ بدلاً من العسلِ، ثمّ قدَّمَهُ إلى الشّيخ. وحالما تَذَوَّقَهُ هذا الأخيرُ فَهِمَ خطأَ الأخِ، ولكنّه تناوَلَ منه بصمتٍ، من دونِ أن يتفوَّهَ بكلمة. ألحَّ الأخُ عليه أن يتناولَ منه ثانيةً، فَغَصَبَ نفسَهُ، وتناوَلَ قليلاً منه. لكن، عندما أصرَّ الأخُ، وتوسَّلَ إليه أن يأكُلَ مرّةً ثالثةً، قالَ الشّيخُ: «في الحقيقةِ، يا بُنيَّ، لا أستطيعُ أن آكُلَ المزيد». وهو، كي يشجّعَ الشّيخَ، ويَفتَحَ له شهيّتَهُ الّتي انقطعَتْ بسببِ المرضِ، قالَ له: «إنّه لذيذٌ، يا أبتِ. أنظُرْ إليّ، فأنا سآكُلُ معك». ولكنّه، حالما تذوّقَهُ، أدركَ فعلتَهُ، فسقطَ بوجهِهِ عند قدمَيْه، قائلاً: «ويلٌ لي، يا أبتِ، لقد قتلتُك. وأنت تركْتَني أُخطئُ باحتفاظِكَ بالصّمت». أجابَهُ الشّيخُ: «قُمْ، يا بُنيَّ، ولا تَحزَن. لو أرادَ اللّهُ أن آكُلَ عسلاً، لَكُنْتَ سكبتَ عسلاً».

٣- قالَ أحدُ الشّيوخِ: «عندما تَجلِسُ للطّعامِ، أُغلُبْ شيطانَ الشّراهةِ بالإبطاءِ، واضبطْهُ قائلاً: انتظِرْ، لن تجوع. كُلْ بوقارٍ وهدوءٍ مهما حاوَلَ استعجالَكَ، لأنّ هذا الشّيطانَ يَدفَعُ الإنسانَ إلى الرّغبةِ في أكلِ كلِّ شيءٍ دفعةً واحدةً».

- عن القدّيسِ أفرام -

من الأفضلِ أن يأكُلَ المرءُ ويَشكُرَ السّيّدَ من ألاّ يأكُلَ ويُدينَ أولئك الّذينَ يَأكلونَ شاكرينَ السّيّد. يا أخي، هل جلستَ إلى المائدة؟ تناوَلِ الخبزَ، ولا تنتقِدْ أخاك الإنسان، لئلاّ يُباغِتَكَ الرّبُّ وأنت تَنْهَشُ لحمَ أخيك بالنّميمة. فالكتابُ المُقدّسُ يقولُ: «الّذينَ يأكلونَ شعبي كما يأكلونَ الخبزَ والرّبَّ لم يدعوا»[٢٤٠].

تناوَلْ من كلِّ ما يُقدَّمُ إليكَ، بإيمانٍ حسنٍ باسمِ الرّبّ. إن قرّرَ الإخوةُ تناولَ الطّعامِ، شاكرينَ الرّبَّ، وقدّموا إليكَ صِنفًا لا تَستسيغُه، فلا تَضَعْهُ جانبًا.

متى جلستَ إلى المائدةِ، انتبِهْ إلى ذاتِكَ جيّدًا، ولا تنظُرْ يمينًا وشمالاً كعديمِ التّربيةِ، فالرّاهبُ يُظهِرُ نقصًا في التّربيةِ، إن أكَلَ من الأشياءِ الكاملةِ، فيما يوجدُ على المائدةِ فضلات. لا تَزدرِ الفضلاتِ لأنّ الرّبَّ قالَ لتلاميذِهِ أن يَجمَعوا الكِسَرَ الباقيةَ[٢٤١]، لئلاّ يضيعَ شيءٌ سُدًى.

يا أخي، إن شربتَ كأسَ نبيذٍ، فسارِعْ إلى قلاّيتِك فورَ انتهاءِ صلاةِ الشّكرِ، بعدَ الطّعامِ، وأغلِقِ البابَ، واشكُرِ السّيّدَ الّذي يُعطينا الصّالحاتِ، لأنّ التّلهّيَ بالأحاديثِ بعد الطّعامِ يؤذي نفسَك. الإنسانُ الثّمْلُ يعمَلُ ويقولُ أشياءً غيرَ لائقةٍ في المساءِ، ويندَمُ عليها في الصّباح. وإن شَرِبَ نبيذًا من جديدٍ، يُكَرِّرْ فعلتَه. إن أصابَكَ الأمرُ مرّةً، فاحترِسْ فيما بعدُ، لأنّ الكتابَ يقولُ: «كلُّ من وُلِدَ من اللّهِ لا يُخطِىءُ، بل يحفَظُ نفسَهُ، والشّرّيرُ لا يَمَسُّه»[٢٤٢].

كرِّمْ سائرَ الإخوةِ محبّةً بالرّبِّ، من دونِ أن تنتظِرَ أن يُكَرِّموك، وستجدُ نعمةً لدى الرّبّ. يقولُ الكتابُ: «إنّ مَن لا يُبدي احترامًا للأبرارِ ليس إنسانًا صالحًا. مثلُ هذا الإنسانِ يستطيعُ أن يبيعَ إنسانًا من أجلِ كسرةِ خبز»[٢٤٣]. وكلُّ مَن لا يُبدي احترامًا لأخيه، سيعاقَبُ بشدّة.

إن أكلتَ مع الإخوةِ، فمُدَّ يدَكَ إلى الطّبقِ تبعًا للنّظامِ، أي بدورِكَ، فاليمامُ والسّنونو واللّقلقُ هم أيضًا يَنتظِرونَ وقتَهم المُحَدَّدَ للعودة[٢٤٤].

---

٢٤٠. مز ١٣، ٤.
٢٤١. يو ٦، ١٢.
٢٤٢. ١ يو ٥، ١٨.
٢٤٣. أم ٢٨، ٢١.
٢٤٤. إر ٨، ٧.

أُسْكُبْ طعامَكَ من دونِ أن تعتبرَ ذاتَكَ مُهِمًّا لأنّ آخرينَ يَمُرّونَ بعدَكَ، أي لا تَحتَقِرْهم بسببِ مرتبتِهم الأكثرِ وضاعةً، ولأنّ دورَهم يأتي بعدَكَ. أمّا أنتَ، يا عزيزي، فلا تضطرِبْ أثناءَ انتظارِكَ إيّاهم. ألا تَصبِرُ قليلاً وقد بَقيتَ صائمًا طولَ النّهار؟ «هنا، يحثُّ القدّيسُ المرءَ على أن ينتظِرَ الجميعَ، بِمَن فيهم الأصغرَ أيضًا، وألاّ يبتدئَ بالأكلِ أوّلاً، بل أن يَمُدَّ يدَهُ مع الإخوةِ إلى الصّحنِ في الوقتِ نفسِه»[٢٤٥].

إنّ مَن يَصمُتُ على المائدةِ، هو شَبيهٌ بِمَن يأكُلُ خبزَه بالعسل. أمّا مَن يُثرثِرُ، فهو يجعلُ حتّى الهادئَ مضطربًا. كُلْ بهدوءٍ، يا أخي، واشرَبْ من دونِ أن تُصدِرَ صوتًا. هل أكلتَ خبزًا وشبعت؟ فمَجِّدِ اللّهَ الّذي أشبَعَك. إن اكتفَيْتَ بالقليلِ، ولم تأكُلْ بقدرِ ما تحتاجُ إليه، فمَجِّدِ الرّبَّ الّذي يُقوّيكَ في داخلِك، ولا تَقُلْ أمامَ الإخوةِ جميعِهم: «لم آكُلْ سوى القليلِ من الخبز». لأنّكَ إن قلتَ ذلك، أو سعيتَ لأن يُعلمَ ما فعلْتَ، تخسَرْ أجرَكَ، وإن قلتَ هذا لتُدينَ الّذينَ يأكلونَ ويشكرونَ اللّهَ، تخسَرْ تعبَكَ كلَّه، وتُسَلِّمْ ذاتَكَ إلى أيدي أعدائِك.

---

٢٤٥. هذه الجملة هي تعليق من الرّاهب بولس كاتب هذا الكتاب، لأنّ نصّ القدّيس أفرام غير واضح كفاية. إنّها عادة رهبانيّة = يأمر المتقدّم أن ينتظر الجميع مع الرّهبان الصّغار، من دونِ أن يبدأ أحد أوّلاً، إنّما يضع الإخوة يدهم في صحنهم في الوقت نفسه.

الفصل الرّابع والعشرون

الطّعامُ والشّرابُ: متى، وكيف، وماذا نقبَلُ، وماذا نرفض.

- عن بالاديوس، إلى لافسوس المأمور -

من فضلِكَ، يا عبدَ اللّهِ لافسوس، تَصَرَّفْ بشجاعةٍ ووعيٍ، ولا تُقَيِّدْ حرّيّةَ اختيارِكَ بأيِّ قَسَمٍ لتُرضيَ البشر. أُصيبَ بهذا كثيرونَ ممّن أَقسَموا، بلا وعيٍ، ألاّ يأكلوا هذا أو ألاّ يشربوا ذاك بسببِ مجدٍ باطل. أخضَعوا حرّيّتَهم قسرًا بقسمٍ، ولكنّهم سقطوا، عقبَ ذلك، بطريقةٍ يُرثى لها، إمّا بمحبّةٍ للحياةِ مُرتبطةٍ بالضّجرِ، وإمّا بسببِ ضعفٍ في الجسدِ مُرتبطٍ بلذّةِ الشّهوةِ، مُختبِرينَ بذلك ألَمَ الحنثِ باليمين. هكذا إذًا، بالتّمييزِ، إن أكلتَ شيئًا أو أمسكتَ عنه، فلن تُخطِئَ أبدًا. فخيرٌ للمرءِ أن يشربَ النّبيذَ بتمييزٍ من أن يَشرَبَ الماءَ ويكونَ مُظلِمًا بالكبرياء. لاحِظْ هؤلاءِ الّذينَ شربوا النّبيذَ بنيّةِ تقوى، وأولئك الّذينَ رفضوا الشّربَ بجهل.

قديمًا، شَرِبَ يوسفُ النّبيذَ في مصرَ، وكذلك ربُّنا يسوعُ المسيحُ شَرِبَ منه مع تلاميذِه، فاتّهموه بأنّه شَرِهٌ وسِكّير[٢٤٦]. أمّا المانويّونَ، وبعضُ الوثنيّينَ الحكماءِ الّذينَ لم يَشربوا سوى الماءِ، مُغَلَّفينَ بكبريائِهم، فلم ينجوا من آفةِ جهلِ اللّه. فليسَت مادّةُ الطّعامِ والشّرابِ مُستحقّةً للذّمِّ أو المديحِ، بل استعدادُ الّذينَ يَستعمِلونَها بطريقةٍ حسنةٍ أو سيّئة.

في ما يختصُّ بهؤلاءِ الّذينَ يَستعمِلونَ المادّةَ، أو الّذينَ يُمسكونَ عنها، قالَ الرّبُّ: «تعرفونَهم من ثمارِهم»[٢٤٧]. وبحسبِ الرّسولِ، هذه الثّمارُ هي

٢٤٦. مت ١١، ١٩. لو ٧، ٣٤.

٢٤٧. مت ٧، ١٦.

المحبّةُ، والفرحُ، والسّلامُ، وطولُ الأناةِ، والإحسانُ، والخيرُ، والإيمانُ، والوداعةُ، والعفّةُ[٢٤٨]. كلُّ مَن يُجاهِدُ لاكتسابِ هذه الثّمارِ، يَضبُطُ نفسَهُ في كلِّ شيءٍ، ولا يأكُلُ أو يَشرَبُ من دونِ تَعقُّلٍ، ولا يسكُنُ مع أحدٍ ذي ضميرٍ رديءٍ. عندما يكونُ بصحّةٍ جيّدةٍ، يُمسِكُ عمّا يَجعَلُهُ يَسمَن. أمّا عندما يكونُ مريضًا، أو يُعاني الألَمَ، أو يَمُرُّ في ظروفٍ صَعبَةٍ، أو يُحارِبُهُ المجدُ الباطلُ، فيستطيعُ أن يأكُلَ ويشرَبَ باعتدالٍ وشكرٍ للّهِ أطعمةً ومشروباتٍ مقوّيةً، كأدويةٍ هدفُها الوحيدُ شفاءُ نفسِهِ وجسدِه.

- عن كتابِ الشّيخ -

صعدَ ذاتَ يومٍ الأبُ كُسَنثيا من الإسقيطِ إلى «ترينوثي». ولدى وصولِهِ، قدَّموا له قليلاً من الخمرِ من أجلِ المجهودِ الّذي بَذَلَه. جاءَهُ بعضُ النّاسِ بإنسانٍ فيه شيطانٌ، وأخذَ الشّيطانُ يَشتُمُ الشّيخَ، قائلاً: «أإلى هذا السّكرانِ أتَيتُم بي؟» أمّا الشّيخُ، فلم يَكُنْ في نيّتِهِ أن يُخرِجَهُ، ولكنّه، بسببِ سخريتِهِ، قالَ: «أؤمنُ باللّهِ أنّني لن أنتهيَ من هذه الكأسِ حتّى تخرجَ». فلمّا بدأَ يشرَبُ، صرخَ الشّيطانُ، قائلاً: «أنتَ تُحرقُني، أنت تُحرقُني!» وقبلَ أن يُنهيَ الشّيخُ كأسَهُ، خرجَ الشّيطانُ بنعمةِ المسيح.

- عن أنطيوخوس البَنْديكتي -

في وقتِ الصّومِ، يجدُرُ بنا الانتباهُ إلى عدمِ الإمساكِ عن أيِّ طعامٍ لأنّنا نَجِدُهُ مَمقوتًا، أو كريهًا في ذاتِه، فهذا الموقفُ ملعونٌ وشيطانيٌّ بالكامل. ولا نبتعِدَنَّ عن الأطعمةِ الدّسمةِ لأنّها سيّئةٌ - فهذا لا يُرضي اللّه! - بل لنكبَحْ، نوعًا ما، أهواءَ الجسدِ المُلتهبة، عبرَ نظامِ الأكلِ الخفيفِ والبسيط. وهكذا، نضبطُ الجسدَ جيّدًا عندما يكونُ بصحّةٍ جيّدة. أمّا عندما يكونُ مريضًا، فنقوِّيهِ باعتدالٍ، وذلك ليُساعدَ النّفسَ على إتمامِ واجباتِها، ويُجاهِدَ معها الجهادَ الحَسَن.

---

٢٤٨. غلا ٥، ٢٢.

- عن القدّيسِ أناستاسيوس السّينائيّ -

سؤال: إن أقسمَ المرءُ بأن يقومَ بعملٍ صالحٍ، مثلاً، ألاّ يذوقَ النّبيذَ لفترةٍ مُعيّنةٍ، أو أن يصومَ، أو يفعلَ شيئًا مُماثلاً، ولاحقًا، لم يستطِعْ إتمامَ قسمِهِ بسببِ الكسلِ، فماذا عليه أن يفعل؟

جواب: بشكلٍ عامٍّ، من الخَطَرِ أن يُعطيَ المرءُ وعودًا كهذه بقسمٍ، وينبغي تجنّبُ ذلك. ليست القاعدةُ الإجباريّةُ هي الّتي تجعلُنا نُحسِنُ التّصرّفَ، بل اختيارُنا الحرّ. يجبُ ألاّ نُخضِعَ إرادتَنا الحرّةَ بغصبِها بالقسمِ، وألاّ نبتعدَ عن شيءٍ من خلائقِ اللّهِ على اعتبارِ أنّه سيّئٌ، بل يجبُ أن نستعملَ كلَّ شيءٍ بتمييزٍ. مع ذلك، فالآباءُ القدّيسونَ الّذينَ ألّفوا لنا الصّلواتِ المُقدّسةَ، كتبوا أيضًا صلاةً[٢٤٩] لهذه الحالة. هذه الصّلاةُ، بوساطةِ الكاهنِ، تُحِلُّ الإنسانَ من قَسَمِه. لقد قيلَ في كهنةِ اللّهِ الحقيقيّين: «كلُّ ما تَحِلّونَهُ على الأرضِ يكونُ محلولاً في السّماء»[٢٥٠]. ولكن، على مَن يحنُثُ بقَسَمِه ويخرقُهُ أن يعترفَ إلى اللّهِ بخطئِهِ، مُدينًا ذاتَهُ بالكسلِ والإهمال. إن تعهّدَ أحدٌ بشيءٍ لملكٍ زائلٍ، فلا يتجرّأُ أن ينكُثَ بوعدِهِ حتّى الموتِ، فكم بالأحرى يكونُ عقابُ مَن أعطى وعدًا بقسمٍ للملكِ السّماويِّ الّذي لا يموتُ، ثمّ نكثَ به؟ مع ذلك، التّوبةُ لها قوّةٌ عظيمةٌ.

- عن القدّيسِ ذياذوخس -

على المجاهدينَ تدريبُ أنفسِهم على بُغضِ الشّهواتِ الجسديّةِ حتّى يكتسِبوا عادةَ هذا البُغض. أمّا الأطعمةُ، فيجبُ، في إمساكِنا، ألاّ نأتيَ يومًا إلى كُرْهِ أيٍّ منها، فهذا الأمرُ شنيعٌ وشيطانيّ. ونحن لا نُمسِكُ عن الأطعمةِ كشيءٍ رديءٍ، لا سَمَحَ اللّهُ، بل، لكي، بإقلاعِنا عن الأطعمةِ الكثيرةِ واللّذيذةِ، نَكبَحَ غليانَ الجسدِ المُلتَهِبِ كما يَنبغي، وليتسنّى لنا من بعد ذلك أن نوزِّعَ على الفقراءِ ما يفيضُ عنّا. وفي هذا علامةُ محبّةٍ صادقة.

---

٢٤٩. أنظر في الأفخولوجي الكبير.

٢٥٠. مت ١٨: ١٨.

ذاتَ يومٍ، ذهبَ الآباءُ إلى الإسكندريّةِ، لتلبيةِ دعوةِ المغبوطِ ثيوفيلس، رئيسِ الأساقفةِ، للصّلاةِ وهدمِ الأصنام[٢٥١]. أثناءَ تناولِ الطّعامِ معه، قُدِّم على المائدةِ لحمُ عجلٍ، فأكلوا منه من دونِ أن ينتبهوا إلى ذلك. فأخذَ رئيسُ الأساقفةِ جزءًا، وأعطاه إلى الشّيخِ الجالسِ إلى جانبِهِ، قائلاً: «هذه قطعةٌ جيّدة. كُلْ، يا أبتِ». فلمّا سَمِعَهُ الشّيوخُ، قالوا: «حتّى الآنَ، كُنّا نظنُّ أنّنا نأكُلُ الخضار. لكن، إن كان لحمًا، فنحن لا نأكُلُ منه». ولم يقبَلْ أحدٌ منهم، بعد ذلك، أن يأكُلَ المَزيد.

٢٥١. ثيوفيلس، رئيس أساقفة الإسكندريّة (٣٨٥- ٤١٢)، بعد المرسوم (٣٩١) الّذي حرّره ثيوذوسيوس الكبير لإقفال المعابد الوثنيّة.

الفصل الخامس والعشرون

أشكالٌ مختلفةٌ لحربِ الزّنى، وكيف نُجاهِدُ ضدَّها.

- عن بالاديوس -

أخبرَنا المغبوطُ أفاغريوسُ الشّمّاسُ أنّ شيطانَ الزّنى حاربَهُ مرّةً بضراوةٍ، فوقفَ طولَ اللّيلِ عاريًا، في عزِّ الشّتاءِ، داخلَ النّبعِ، حتّى تجمَّدَتْ شهوتُهُ الجنسيّة.

- عنه نفسِه -

يُذكَرُ عن المغبوطِ أمونيوس، تلميذِ البارِّ بامبو، هذا التّفصيلُ: عندما كانَ يُثارُ بالشّهوةِ، لم يُراعِ جسدَه الخاصّ. بالعكسِ، كانَ يُحمّي الحديدَ على النّارِ، ويضعَهُ على أعضائِه، بحيثُ أنّه كانَ دائمًا مليئًا بالجراح.

- عنه نفسِه -

يُخبِرُ الأسقفُ الشّجاعُ فيلورونيموس أنّه حوربَ بالزّنى بضراوةٍ، في بدءِ حياتِهِ الرّهبانيّة. ولكنّه تخلّصَ من هذا الهوى، بعد أن سادَ عليه بوساطةِ أقصى حدٍّ من الإمساكِ، كمَن يُطفئُ حريقًا كبيرًا بكمّيّةٍ كبيرةٍ من الماء. لبسَ سلاسلَ من حديدٍ، وعاشَ حبيسًا، وأمسكَ عن كلِّ طعامٍ مَطبوخٍ على النّارِ، بما فيه خُبزُ الحنطة. ثابرَ على هذه الممارسةِ ثمانيةَ عشرَ عامًا، وبمعونةِ اللّهِ، انتصرَ على هذا الهوى.

- عن القدّيسِ غريغوريوس الذّيالوغوس -

ذاتَ يومٍ، كانَ القدّيسُ بنديكتوسُ هادئًا في قلاّيتِه. اقتربَ منه

الشّيطانُ المُجَرِّبُ بشكلِ طائرٍ أسودَ يُقالُ له «الشُّحرورُ»، وطارَ حولَ وجهِهِ بوقاحةٍ كبيرةٍ، إلى حدٍّ أنّ القدّيسَ، لو أرادَ أن يَقبِضَ عليه بيدِه لاستطاعَ ذلك. فَهِمَ القدّيسُ أنّ العدوَّ ينصُبُ له فخًّا، فتسلَّحَ بعلامةِ الصّليبِ المُحيي الّتي جعلَتِ العدوَّ يختفي. إلاّ أنّه، بعد وقتٍ قليلٍ، هوجِمَ بتجربةٍ جسديّةٍ شديدةٍ لم يسبِقْ له أن تعرّضَ لمثلِها من قبل. تنكّرَ شيطانُ الزّنى بشكلِ امرأةٍ رآها القدّيسُ مرّةً في شبابِه، وظهرَ له بهذا الشّكلِ، وأشعلَ نارًا في جسدِه حتّى كادَ يتزعزعُ بسببِ الضّجرِ الرّوحيِّ، ويعودُ إلى العالم.

لكنّ نعمةَ اللّهِ الخلاصيّةَ قَوّتْهُ ليهزمَ العدوَّ، وينتصرَ على الأهواء. في الواقعِ، نهضَ من جديدٍ بعزمٍ شجاعٍ وعاقل. رأى بالقربِ آلافَ القُرّاصِ[٢٥٢] والأشواك. نزعَ ثيابَهُ عنه، وارتمى عليها عاريًا، وتدحرجَ لساعاتٍ عديدةٍ فوقَها، بحيثُ أنّ جسدَهُ كلَّهُ تجرّحَ من الأشواكِ والقُرّاصِ، وسالَ دمُهُ بغزارة. باحتمالِهِ آلامًا كبيرةً كهذه بشجاعةٍ، غلبَ الحربَ الجسديّة. من حينِها، بنعمةِ اللّهِ، لم يجرؤْ شيطانُ الزّنى ذاك أن يزعجَهُ ثانيةً، طولَ حياتِه، كما أخبرَ القدّيسُ تلاميذَه لاحقًا.

- من حياةِ القدّيسِ بولس الطّبيبِيّ -

في زمنِ الملكَيْنِ المُلحِدَيْن داكيوس وفاليريانوس، أمسكَ الملحدونَ أحدَ القدّيسين. وبعدَ أن تعرّضَ لعذاباتٍ كثيرةٍ، أُخضِعَ للعذابِ الآتي أيضًا: عندما رأى المُلحدونَ أنّه شابٌّ جميلٌ، في زهرةِ شبابِه، فكّروا في استغلالِ ذلك. أرادوا أن يدنِّسوا، لا جسدَهُ الشّجاعَ فقط، بل نفسَهُ أيضًا. ماذا فعلوا إذًا؟ وأيّةَ حيلةٍ استنبطوا ليصلوا إلى غايتِهم؟ اقتادوه إلى حديقةٍ جميلةٍ مليئةٍ بالورودِ حيثُ وَضَعوا فراشًا ناعمَ الملمسِ، ومُريحًا للجسد. ألقَوا بالمُجاهدِ هناك، نائمًا على ظهرِه، ثمّ تركوه وحدَه، من دونِ أن يَحِلّوا له يدَيْه. كانَتْ في رأسِهم خطّةٌ مُشينةٌ ودَنيئة.

عند خروجِهم، دخلَتْ فتاةٌ ذاتُ جمالٍ أخّاذٍ، بعكسِ نفسِها المشوّهَةِ

٢٥٢. القُرّاص هو نوع من النّباتات الشّائكة يغرزُ في اليد إذا مسّته.

والفاسدة. أتَتْ لتستلقيَ إلى جانبِ الشّابِّ الشّجاعِ، واجتهدَتْ في سلسلةِ أعمالٍ فاحشةٍ: أخذَتْهُ بينَ ذراعَيْها، وضمَّتْهُ إليها بشدّةٍ، وقبّلَتْهُ بشَغَفٍ، وداعبَتْهُ من دونِ خجلٍ - يا لليَدِ الأثيمة! - كانَتْ بكلِّ هذا تُثيرُهُ باللّذّة.

فما كانَ على ذلك الشّابِّ العفيفِ أن يفعلَ؟ ما كانَ أمامَهُ ليفعَلَ، وهو لا يَملِكُ أيّةَ وسيلةٍ للتّخلُّصِ من شرٍّ كبيرٍ كهذا، وهو عاجزٌ عن إبعادِ الفاسقة؟ جعلَهُ مَقتُهُ للزّنى يَجِدُ الحلَّ، فلم يتردّد. واجَهَ الرّغبةَ الحسِّيّةَ الفاسقةَ بعشقِ اللّه. وليبرهِنَ أنّ الإنسانَ النّقيَّ والمُحِبَّ للّهِ لا يوفِّرُ جسدَهُ أو أعضاءَهُ ليحفظَ عفّتَهُ سالمةً، قَطَعَ لسانَهُ بأسنانِهِ، ومَضَغَهُ، ثمّ بَصَقَهُ في وجهِ الزّانيةِ بدلاً من أن يُقبِّلَها. هكذا، فكّرَ في الحلِّ الصّالحِ ليُطفِئَ الهوى بالعذابِ، واللّذّةَ بالألم.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- سألَ أحدُهم شيخًا: «من أين تأتيني تجربةُ الزّنى؟» أجابَ الشّيخُ: «من أنّك تأكُلُ وتنامُ كثيرًا».

٢- قالَ أيضًا: «إن أثارَتِ الطّبيعةُ الشّهواتِ، يُطفِئُها الجهادُ النّسكيّ».

- عن الأبِ مرقس -

يجبُ على الرّجُلِ الشّابِّ أن يُخضِعَ شبابَهُ لـكلمةِ اللّهِ، ما تطلبُهُ هي نفسُها، قائلةً: «قدِّموا أجسادَكم ذبيحةً حيّةً مُقدَّسةً مَرضيّةً للّه. هذه هي عبادتُكم الرّوحيّة»[٢٥٣]. يجبُ على الرّجُلِ الشّابِّ أن يُبَرِّدَ رطوبةَ الشّهوةِ الجسديّةِ، ويُنَشِّفَها كلَّها باعتدالِ الحاجاتِ، أي بتقنينِ الطّعامِ والشّرابِ، والسّهرِ طولَ اللّيلِ، بحيثُ تَجعَلُهُ حالتُه يقولُ بدورِه: «صرتُ كالزّقِّ في الجليدِ ولم أنسَ فروضَك»[٢٥٤]. عليه أيضًا، عارفًا أنّه للمسيحِ، أن يصلبَ جسدَهُ مع الأهواءِ والشّهواتِ[٢٥٥]، وأن يُميتَ أعضاءَه الأرضيّةَ[٢٥٦]، لا بالامتناعِ عن الزّنى

---

٢٥٣. رو ١٢، ١.
٢٥٤. مز ١١٨، ٨٣.
٢٥٥. غلا ٥، ٢٤.
٢٥٦. كو ٣، ٥.

فحسبُ، إنّما أيضًا بدرءِ الحركاتِ الدّنسةِ الّتي يُثيرُها الشّياطينُ في الجسد.

مَن تلقّ إكليلَ البتوليّةِ الحقيقيّةِ الطّاهرةِ الكاملةِ لا يواصلْ جهادَهُ فقط إلى هذا الحدِّ، إنّما، طبقًا لتعليمِ الرّسولِ، يُجاهِدْ ليميتَ أيضًا كلَّ علامةٍ أو وَثبَةٍ لهذا الهوى. وحتّى في ذلك الحينِ، لا يطمئنُّ كلّيًّا ذاك الّذي، بسببِ عشقِهِ، تلقّى في جسدِهِ البتوليّةَ الملائكيّةَ النّقيّةَ بطريقةٍ ثابتةٍ، ولكنّه يُصلّي من أجلِ اختفاءِ التّصوّرِ الكاملِ لأقلِّ رغبةٍ، ولو بالفكرِ وحدَه. فهذه الرّغبةُ من شأنِها أن تَجعَلَ الذّهنَ يضطربُ وقتيًّا من دونِ حركةِ الهوى الجسديِّ ولا فعلِه. غيرَ أنّ هذا لا يُمكِنُ أن يتمَّ إلاّ بالقوّةِ الّتي من العُلى، وبمعونةِ الرّوحِ القدسِ وإرشادِه... إن وُجِدَ طبعًا أناسٌ يَستأهِلونَ نوالَ هذه النّعمة.

هكذا، مَن تلقّ إكليلَ البتوليّةِ النّقيّةِ الّتي لا عيبَ فيها، وجُرِحَ بالعشقِ الإلهيِّ، يَصلِبْ جسدَهُ بالأتعابِ النّسكيّةِ، ويُمِتْ أعضاءَهُ الجسديّةَ بالإمساكِ الدّقيقِ والمُستمرّ. يَهْدِمُ الإنسانَ الخارجيَّ ويُضعِفُهُ. يُذيبُهُ ويُجَفِّفُهُ، بحيثُ أنّ الإنسانَ الدّاخليَّ، بالإيمانِ والجهاداتِ وفعلِ النّعمةِ، يتجدّدُ يومًا بعدَ يومٍ[٢٥٧]، ويتقدَّمُ إلى الأفضلِ: يزدادُ بالمحبّةِ، ويتقوّى بالرّجاءِ، ويفرحُ بالإبتهاجِ الرّوحيِّ، ويسودُ عليه سلامُ المسيحِ[٢٥٨]، ويُقادُ بالوداعةِ، ويَستنيرُ بالوعيِ والمعرفةِ، ويلمَعُ بالحكمةِ، ويَسلُكُ في إثرِ التّواضع.

بهذه الفضائلِ وما يُشابِهُها، يتجدّدُ الذّهنُ بالرّوحِ القدسِ، ويَكتَشِفُ في ذاتِهِ ختمَ الصّورةِ الإلهيّة. يفهَمُ الجمالَ الرّوحيَّ الّذي لا يوصفُ لمشابهةِ الرّبِّ، ويَتزيّنُ بغنى حكمةِ النّاموسِ المَنقوشِ فينا، حكمةٍ لا مُعَلِّمَ لها، ويَتعلّمُها المرءُ من ذاتِه.

- عن القدّيسِ مكسيموس -

إنّ شيطانَ الزّنى لا يُحتَمَل. يَهجِمُ بضراوةٍ على المُجاهدينَ ضدَّ هذا الهوى، لا سيّما إن أهملوا نظامَ غذائِهم، وتحادَثوا مع النّساء. يَستحوذُ إحساسُ اللّذّةِ المُمتعُ على الذّهنِ خلسةً، ثمّ عندما يَخلُدُ الذّهنُ إلى التّأمُّلِ،

---

٢٥٧. ٢ كور ٤، ١٦.

٢٥٨. أنظر كو ٣، ١٥.

يَهجمُ عبرَ الذّاكرةِ مُظهِرًا له (أي للذّهنِ) أشكالاً متنوّعةً، ومُلهِبًا الجسد. حينئذٍ، يَدعوهُ إلى قبولِ الخطيئة. إن أردتَ عدمَ بقاءِ هذه الأشكالِ في ذهنِك، فاستخدِمِ الصّومَ، والسّهرَ، والهدوئيّةَ الجيّدةَ مع الصّلاةِ الحارّة.

عندما يُبعِدُ الشّياطينُ العفّةَ عن ذهنِك، ويُحيطونَك بأفكارِ الزّنى، قُلْ للسّيّدِ بدموعٍ: «ألقَوا بي الآن إلى الخارجِ، وأحاطوا بي. أنتَ بهجتي فتنقذُني من الّذينَ يُحيطونَ بي»[٢٥٩].

- عن كتابِ الشّيخ -

١- سألَ أخٌ الأبَ بالاذيوسَ: «قُلْ لي، يا أبتِ، ماذا يجبُ أن أفعل؟ منذُ ثلاثِ سنينَ، أصومُ ليومَيْن، وآكُلُ في اليومِ الثّالثِ، ومعَ ذلك، لا أستطيعُ أن أتخلّصَ من شيطانِ الزّنى». أجابَهُ الشّيخُ: «يا بُنيَّ، عندما أَرسَلَ اللّهُ النّبيَّ أشعيا إلى الإسرائيليّينَ، قالَ له: نادِ بصوتٍ عالٍ، ولا تُمسِكْ ذاتَك، وأخبِرْ شعبي بخطاياهم. يَطلبونني كلَّ يومٍ، ويَرغبونَ في التّقرّبِ منّي قائلين: لِمَ صُمْنا ولَمْ تَنظُر؟ وذَلّلنا أنفسَنا ولَمْ تَلحَظ؟ فيُجيبُهم اللّهُ: في أيّامِ صومِكم تعملونَ مشيئاتِكم، وتُسيئونَ معاملةَ من هم تحتَ سلطانِكم، وتَجرحونَ أعداءَكم كلّهم. يُوَلِّدُ صومُكم مَحاكمَ وخصوماتٍ إلى حدٍّ أنّ صراخَكم يَصِلُ إلى اللّه. ليس هذا هو الصّومُ الّذي أبتغيه، يقولُ الرّبُّ، ولو حَنَيتَ عنقَكَ كالأَسِلة[٢٦٠]، ولبستَ مسحًا، وجلستَ على الرّمادِ، فلا يُسمّى هذا صومًا مَقبولاً عند اللّه.

وأنت، يا بُنيَّ، إن حرمتَ نفسَكَ من الأطعمةِ، وتكلّمتَ بالسّوءِ على أحدٍ أو أدنْتَهُ، أو حقدتَ عليه، أو قَبِلتَ أفكارًا سيّئةً، أو رغبتَ في شيءٍ من المَسرّاتِ أو المَمنوعاتِ، وقبلتَ الشّهوةَ بفكرِكَ، فكيف ستتخلّصُ من حربِ الزّنى؟ أتجهَلُ أنّ مَن يُرضي شهوتَهُ بفكرِه، يَشبَعُ ويَسكَرُ من دونِ أطعمةٍ مادّيّة؟ إن أردتَ أن يكونَ صومُكَ مَقبولاً عندَ اللّهِ، فاحترِسْ، قبلَ كلِّ شيءٍ، من كلِّ كلمةٍ سيّئةٍ وإدانةٍ وثرثرةٍ، ولا تَقبَلْ أقوالاً كاذبةً، كما يقولُ الكتابُ

٢٥٩. مز ١٦، ١١. ٣١، ٧.

٢٦٠. أسَل: نوع من النّباتات العشبيّة الّتي تُستعمل أغصانها لصُنْع السّلال.

المُقدّس[٢٦١]. نقِّ قلبَكَ من كلِّ ما يُلَوِّثُ الجسدَ والنّفسَ[٢٦٢]، ومن كلِّ ضغينةٍ، ومن كلِّ بُخْلٍ. روِّضْ جسدَكَ بكثرةِ المطّانيّاتِ، والسّهرانيّاتِ، والأتعابِ النّسكيّةِ الأخرى، والصّلاةِ التّأمّليّة. في وقتِ الاستراحةِ، لا تَستلقِ، إنّما نَمْ جالسًا. لأنّه بهذه الممارساتِ وغيرِها، يستطيعُ الشّبّانُ، بنعمةِ اللّهِ، أن يَربحوا حربَ الزّنى.

لهذا، حدّدَ الآباءُ للشّبّانِ ألاّ يَبقَوا في قلاّيةٍ، أو في ديرٍ هدوئيٍّ، بل في ديرِ شَركةٍ، وأن يَتروّضوا بأتعابٍ كثيرة. بالإضافةِ إلى ذلك، حدّدوا أن يَلبسوا ثيابًا خشنةً مُمزّقةً غيرَ مُريحةٍ، وأن يُوضَعوا بأمانٍ كلّيٍّ تحتَ سلطةِ الشّيوخِ وحمايتِهم. فمن عادةِ البطالةِ والرّخاوةِ، والأكلِ مرّتَيْنِ في اليومِ، والنّومِ الكثيرِ، أن تُثيرَ فينا، لا شيطانَ الزّنى فحسبُ، بل شيطانَ الضّجرِ، وشيطانَ المجدِ الباطلِ، وشيطانَ الكبرياءِ أيضًا».

٢- قالَ القدّيسُ أنطونيوسُ: «أعتقدُ أنّ للجسدِ حركةً طبيعيّةً فطريّةً فيه. إلّا أنّ هذه الحركةَ لا تعملُ من دونِ إرادةِ النّفس. إنّما تَظهَرُ ببساطةٍ في الجسدِ كحركةٍ خاليةٍ من الهوى. هناك أيضًا حركةٌ أخرى مَصدَرُها تُخمَةُ الجسدِ، وتَحمِيَتُهُ بالأكلِ والشُّرْب. حرارةُ الدّمِ هذه تُثيرُ الجسدَ وتُحَرِّكُهُ نحو إتمامِ الشّهوة. لذلكَ يقولُ الرّسولُ ليُحذِّرَنا: «لا تَسكَروا بالخمرِ الّذي يَقودُ إلى الفسق»[٢٦٣]. وفي الإنجيلِ، يوصي الرّبُّ أيضًا تلاميذَه: «احترِزوا أن تصيرَ قلوبُكم مُثقَلَةً بالفسقِ والسّكر»[٢٦٤]. أمّا عند المُجاهدينَ، فهناك حركةٌ أخرى تأتي من حِيَلِ الشّياطينِ وحَسَدِهم. لذا، يَنبغي أن نَعرِفَ أنّ هناك ثلاثَ حركاتٍ جسديّةٍ: واحدةٌ تأتي من الطّبيعةِ، وأخرى من كثرةِ المآكِل، وثالثةٌ من الشّياطين. فعلى المُجاهدِ أن يَعرِفَ اختلافَ كلِّ واحدةٍ عن الأخرى، وألاّ يَجهلَ أسبابَها، ليُجاهِدَ ضدَّ كلِّ واحدةٍ بعزمٍ بالطّريقةِ المُلائمة».

٣- سألَ أخٌ الأبَ بيمن: «ماذا يجبُ أن أعملَ، إذ أحارَبُ بالزّنى

٢٦١. خر ٢٣، ١.
٢٦٢. أنظر ٢ كور ٧، ١.
٢٦٣. أف ٥، ١٨.
٢٦٤. لو ٢١، ٣٤.

والغضب؟» أجابَهُ الشّيخُ: «قالَ داوودُ: سَحَقتُ الأسدَ، وخَنَقتُ الدّبَّ. هذا يعني أنّه يجبُ استئصالُ الغضبِ بطولِ الأناةِ، ودرءُ الزّنى بالأتعابِ والصّوم».

٤- أخبرَ الأبُ فوقا: «عندما أتى الأبُ يعقوبُ إلى الإسقيط، حاربَهُ شيطانُ الزّنى بضراوة. ولمّا أشرفَ على الاستسلامِ له، أتى إليّ وعرضَ عليّ أمرَه. ثمّ قالَ لي: غدًا، سأنطلقُ إلى تلك المغارة. وأرجوك، باسمِ الرّبِّ، لا تَقُلْ لأحدٍ شيئًا عنّي. بل عُدَّ أربعينَ يومًا، وعند اكتمالِها، إعمَلْ لي مَعروفًا، وتعالَ إليّ حامِلاً معكَ المُناولةَ المُقدّسة. إن وجدتَني ميتًا، فادفُنّي. وإن كنتُ لا أزالُ على قيدِ الحياةِ، فناوِلْني جسدَ الرّبِّ ودمَه الطّاهرين. وعلى ذلك رحل.

عندَ اكتمالِ الأربعينَ يومًا، أخذتُ المناولةَ المُقدّسةَ، وخبزًا أبيضَ مع قليلٍ من الخمرِ، وخرجتُ إليه. ولمّا دَنَوتُ من المغارةِ، شَمَمتُ رائحةً نتنةً تنبعثُ من مدخلِها، فقلتُ في نفسي: لقد تنيّحَ المُطَوَّب. ولكن، لمّا اقتربتُ منه، وجدتُهُ بين حيٍّ وميت. حالَما رآني، أومَأَ إليّ مُحَرِّكًا يدَهُ اليُمنى قليلاً قدرَ استطاعتِه، من أجلِ المناولةِ المُقدّسة. فقلتُ له: إنّها معي. بجهدٍ فتحتُ فمَهُ قليلاً، وسكبتُ جزءًا صغيرًا من الجسدِ المُقدّسِ مع الدّمِ المُحيي. ثمّ بلّلتُ قطعةً من الخبزِ، وقدّمتُها له، فأكَلَها. ثمّ ألحقتُها بأخرى، بقدرِ ما استطاعَ ابتلاعَه. وهكذا، تقوّى بنعمةِ المسيحِ، وفي اليومِ التّالي، استطاعَ الخروجَ من المغارةِ، والسَّيرَ معي ليعودَ إلى قلاّيتِه مُعتَقًا، بنعمةِ اللّهِ، من حربِ الزّنى المُهلِكة.

٥- حورِبَ أحدُ الإخوةِ بالزّنى، وكانَتِ الحربُ، ليلاً ونهارًا، كنارٍ حارقةٍ في قلبِه. كانَ الأخُ يُجاهِدُ لئلاّ يَقبَلَ الفكر. بعد وقتٍ طويلٍ، انتهَتِ الحربُ بانتصارِهِ على الزّنى بصبرِه. وللحالِ، أتى نورٌ إلى قلبِه.

٦- أخٌ آخرُ، تلميذٌ لشيخٍ كبيرٍ، حورِبَ أيضًا بالزّنى، وكان يُجاهِدُ بشجاعة. فسألَهُ الشّيخُ لدى رؤيةِ شقائِه: «أتريدُ أن أتوسّلَ إلى اللّهِ ليُريحَكَ من هذه الحرب؟» وقالَ الآخرُ: «وإن كنتُ أتعَبُ، يا أبتِ، إلاّ أنّني أرى أنّ

تعبي يُنتجُ ثمرًا فيّ. لكن، ابتهلْ إلى اللّهِ أن يُعطيَني الصّبرَ لأحتمل». فقالَ له الشّيخُ: «لقد أحرزتَ تقدُّمًا وتَخَطّيتَني».

٧- قالَ أحدُ الشّيوخِ لأخٍ يُحارَبُ بالزّنى: «أتريدُ أن تَخلُصَ وأنتَ نائم؟ إذهَبْ واعمَلْ واتعَبْ. أطلُبْ فتجد. إسهَرْ واقرَعْ على بابِ اللّهِ، فيُفتَحَ لك[٢٦٥]. في العالمِ مُصارِعونَ يَتكلّلونَ، لأنّهم تَلقّوا ضرباتٍ كثيرةً، وبَقَوا يُقاوِمونَ بحيويّة. غالبًا ما يكونُ الواحدُ في مواجهةِ اثنَيْن، ويتلقّى منهما الضّرباتِ، لكنّه يحتَمِلُها ويغلِبُ مُصارعيه. إن أظهرَ هؤلاءِ صبرًا كبيرًا ليحصلوا على مكافأةٍ عالميّةٍ، فكم بالأحرى عليكَ أنتَ أن تقفَ بثباتٍ، وتجاهدَ من أجلِ ملكوتِ السّماواتِ، لا سيّما إن كانَ اللّهُ مُعينَك؟»

٨- كانَ في الإسقيطِ أخٌ مجاهد. جلبَ العدوُّ إلى ذهنِهِ ذكرى امرأةٍ جميلةٍ جدًّا رآها مرّةً في مصرَ، وكانَ يتعذّبُ كثيرًا من جرّاءِ ذلك. وبتدبيرٍ إلهيٍّ، التقى بأخٍ آتٍ من مصرَ إلى الإسقيطِ، وخلالَ المُحادثةِ، قالَ له: «لقد ماتَتِ امرأةُ فلان». والحالُ أنّ ذكرى هذه المرأةِ بالذّاتِ كانَتْ تُضايقُ الأخ. لدى سماعِهِ هذا الخبرَ، أخذَ جُبّتَهُ، وذهبَ إلى مكانِ سكنِها، واستعلمَ عنها. بعد أن عَلِمَ بمكانِ قبرِها، ذهبَ إليهِ ليلاً، وفتحَهُ، وبلّلَ جُبّتَهُ برطوبةِ جثمانِها. ثمّ عادَ إلى قلاّيتِهِ، لابسًا الجبّةَ الّتي ألقاها على الجسدِ المهترئِ الّذي لا تُحتَمَلُ رائحتُه. عندما كانَ ينزعجُ من فكرِ الزّنى، كانَ يضعُ جبّتَهُ أمامَه، ويقولُ لفكرِه: «هاكَ موضوعُ شهوتِكَ، اشبَعْ منه». هكذا كانَ يُعَذِّبُ ذاتَهُ بتلك الرّائحةِ النّتنةِ، إلى أن فارقَتْهُ الحربُ كلّيًّا.

٩- أتى مرّةً أحدُهم إلى الإسقيطِ ليصيرَ راهبًا. وكانَ معه ابنُهُ الّذي فُطِمَ لتوِّه. بقيا سويّةً في قلاّيةٍ لوقتٍ طويل. كَبُرَ الولدُ، وأصبحَ شابًّا، وبدأَتْ حربُ الجسدِ تُزعِجُهُ بضراوة. وبما أنّه لم يقدِرْ على مواجهتِها، قالَ لأبيه:

---

٢٦٥. أنظر مت ٧: ٧ - ٨، لو ١١: ٩ - ١٠.

«سأعودُ إلى العالمِ لأنّني لا أستطيعُ احتمالَ الحربِ». أصرَّ عليه والدُهُ متوسِّلاً إيّاه ألاّ يفعلَ ذلك، لكنّ الشّابَّ قالَ له: «يا أبتِ، لم أعدْ أستطيعُ بعد، دَعْني أرحل». حينئذٍ، قالَ له والدُه: «اسمَعْني، يا بُنيَّ، مرّةً واحدةً أيضًا. خُذْ معكَ أربعينَ مكيالاً من الخبزِ، وأغصانَ نخيلٍ تكفيكَ لتعملَ أربعينَ يومًا، واذهَبْ إلى البرّيّةِ الدّاخليّةِ، وابقَ فيها لمدّةِ أربعينَ يومًا، ولتَكُنْ مشيئةُ الرّبّ». أطاعَ الشّابُّ أباه، ونَهضَ، وتَوَغّلَ في البرّيّةِ حيثُ بَقِيَ عاملاً بقسوةٍ، حائكًا أغصانَ النّخيلِ الجافّةَ، وآكلاً خبزًا جافًّا.

بعد أن أمضى، هكذا في الهدوئيّةِ، عشرينَ نهارًا، وعشرينَ ليلةً، رأى الشّيطانَ آتيًا إليه بشكلِ زنجيّة. وقفَتْ أمامَهُ، وأخرَجَتْ رائحةً نتنةً إلى حدِّ أنّ الشّابَّ لم يستطِعِ احتمالَها، فطرَدَها بقوّة. وقالَتْ له: «في العادةِ، أنا أبدو حلوةً في قلوبِ الرّجالِ، وأنتَ الآن تطردُني؟ اعلَمْ إذًا أنّه من أجلِ طاعتِكَ وتَعبِكَ الشّاقِّ، لم يترُكْني اللّهُ أخدَعُكَ، لكنّه جعلَكَ تشمُّ رائحتي النّتنة». حينئذٍ، نهضَ الشّابُّ، وشكرَ اللّهَ، ثمّ عادَ إلى أبيه، وقالَ له: «لم أعُدْ أريدُ الذّهابَ إلى العالمِ، يا أبتِ، لأنّني رأيتُ الفعلَ الشّيطانيَّ، وعرفتُ رائحتَهُ القبيحة». فأجابَهُ والدُهُ الّذي أعلمَهُ اللّه برؤيا عمّا حدثَ: «لو بقيتَ لأربعينَ يومًا كما أوصيتُكَ، لَكُنتَ رأيتَ رؤيا أعظم».

١٠- بطريقةٍ مُماثلةٍ، أتى شيخٌ آخرُ إلى الإسقيطِ، جالبًا معه ابنَهُ الّذي ما زالَ في عمرِ الرّضاعةِ، ويجهَلُ ماهيّةَ المرأة. عندما كَبُرَ وصارَ رجلاً، أراهُ الشّياطينُ في أحلامِهِ صورَ نساء. وباحَ بما يراه لأبيه الّذي تعجّبَ من خداعِ الأعداء. ذاتَ يومٍ، صعدَ الشّيخُ إلى مصرَ برفقةِ الرّجلِ الشّابِّ، والتقيا بنساء. قالَ الشّابُّ لأبيه: «يا أبتِ، هؤلاءِ هم الأشخاصُ الّذينَ يأتونَ إليّ ليلاً في الإسقيطِ». فقالَ له والدُه: «هؤلاءِ هم رهبانُ القرى، يا بُنيَّ، وهم يَختلفونَ بالشّكلِ عن رهبانِ الصّحراء». وللحالِ، عادا إلى قلاّيتِهما.

١١- قالَ أخٌ لشيخٍ: «ماذا أعملُ، لأنّ الأفكارَ الدّنسةَ تقتلُني؟» أجابَ الشّيخُ: «عندما تريدُ الأمُّ أن تفطمَ ابنَها، تَضَعُ على ثَدْيِها عصيرَ نبتةٍ مرٍّ

المَذاق. وعندما يذهبُ الولدُ ليرضعَ كعادتِه، يَجعَلُهُ طعمُ المرارةِ يُعرِضُ عنه. وأنتَ، إعمَلِ الشّيءَ نفسَه». سألَهُ الأخُ: «ماذا تعني، يا أبتِ؟» فأجابَ الشّيخُ: «ضَعْ فيكَ ذكرَ الموتِ، وعذاباتِ الدّهرِ الآتي».

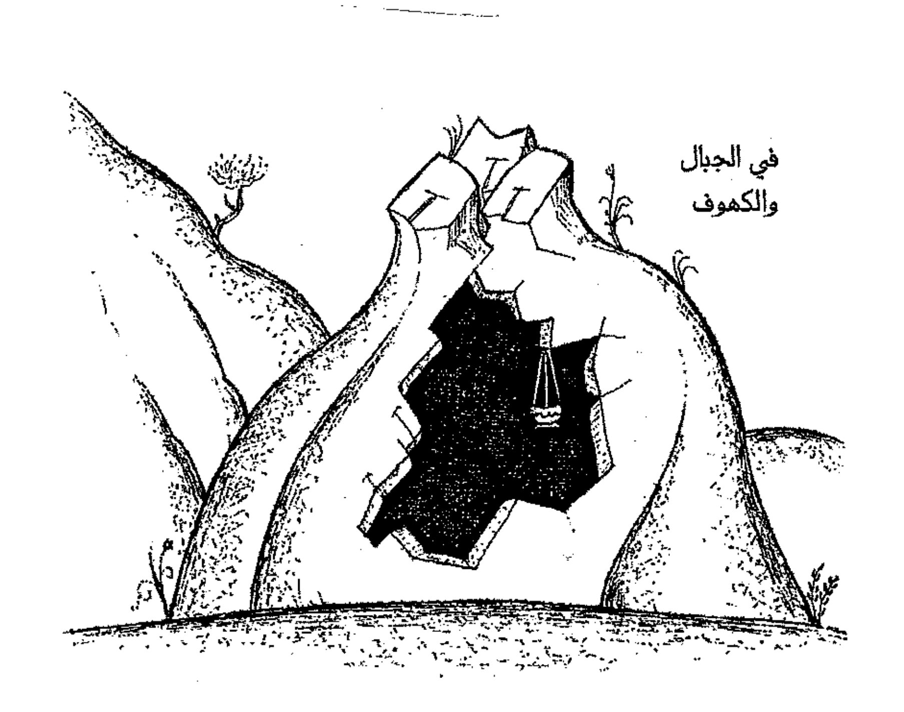
١٢- سألَ الأخُ نفسُهُ شيخًا آخرَ عن الفكرِ نفسِه. وأجابَهُ الشّيخُ: «أنا لم يُحارِبْني أمرٌ كهذا البتّة». فتعثّرَ الأخ. نهضَ ورحلَ حتّى من دونِ أخذِ بركةِ الشّيخ. ثمّ ذهبَ إلى شيخٍ آخرَ، وقالَ له: «هاك ما قالَهُ لي الشّيخُ فلان. وأنا تعثّرتُ لأنّ كلمتَهُ تتخطّى الطّبيعةَ البشريّة». قالَ له الشّيخ: «لم يَقُلْ لك رجلُ اللّهِ هذا عبثًا. لذا، عُدْ إليهِ عاجلاً؛ إعمَلْ له مطّانيّةً، وتوسَّلْ إليه أن يشرحَ لك معنى كلمتِه».

عادَ الأخُ للحالِ إلى الشّيخِ، وصنعَ مطّانيّةً أمامَه، وقالَ له: «سامِحْني، يا أبتِ، لقد تصرّفتُ كجاهلٍ برحيلي من دونِ أخذِ بركتِك. ولكنّني أتوسَّلُكَ أن تشرحَ لي كيف أنّك لم تحارَبْ مطلقًا بالزّنى؟» قالَ له الشّيخُ: «مُذْ أصبحتُ راهبًا، لم أشبَعْ أبدًا من الخبزِ، ولا من الماءِ، ولا من النّوم. ولقد عذّبَني الحرمانُ منها كثيرًا إلى حدٍّ أنّه لم يترُكْني أشعرُ بالحربِ الّتي تتكلّمُ عليها». وعادَ الأخُ إلى قلاّيتِهِ مُنتفِعًا نفعًا جزيلاً.

١٣- حورِبَ أخٌ بضراوةٍ بتجربةِ الزّنى. هاجَمَهُ أربعةُ شياطينَ بشكلِ نساءٍ رائعاتِ الجمالِ، واستمرّوا يُصارِعونَهُ لأربعينَ يومًا ليحمِلوه على الفعلِ الرّديء. أمّا هو، فجاهدَ بشجاعةٍ ولم يُغلَب. واللّهُ، مُشاهدًا صبرَهُ، أبعدَ هذه الحربَ عنه، ومنحَهُ ألاّ يختبرَ ثانيةً الالتهابَ الجسديّ.

١٤- اعترفَ أخٌ لأحدِ الشّيوخِ: «يا أبتِ، بطني يَضغَطُ عليَّ، ولا أستطيعُ أن أسودَ عليه، وبسببِهِ يَهتاجُ جسدي». أجابَهُ الشّيخُ: «إن لم تُخضِعِ الجسدَ بالخوفِ والصّومِ، فلن تَسيرَ مُستقيمًا في طريقِ اللّه». وقالَ له هذا المثَلَ: «سافرَ أحدُ الأشخاصِ راكبًا على حمارٍ، لكنّ هذا الأخيرَ كانَ يميلُ عن الطّريقِ من هنا ومن هناك. أخذَ الرّجلُ عصاه وضربَه. حينئذٍ، قالَ الحمارُ:

«توقَّفْ عن ضربي، ومن الآن فصاعدًا، سأسيرُ مُستقيمًا». عندما تقدّمَ قليلاً، ترجّلَ الرّجلُ، ووضعَ العصا في كيسٍ على ظهرِ الحمار. والحالُ أنّ الحمارَ لم يعرِفْ أنّه يحملُ العصا، وحالما رأى أنّ سيّدَهُ لم يعدْ يحمِلُها، احتقرَهُ وبدأَ من جديدٍ بالتّعرّجِ من هنا وهناك باتّجاهِ الحقول. حينئذٍ، سارعَ سيّدُهُ إليه، وأخذَ العصا، ولم يتوقّفْ عن ضربِهِ إلى أن سارَ مُستقيمًا. هذا ما يحصلُ مع الجسدِ: عندما يتغطرَسُ، ويجعلُكَ تحيدُ عن طريقِ اللّهِ، اضرِبْهُ بالصّومِ، وسيسيرُ مُستقيمًا. وليبقَ عصا الصّومِ دائمًا فوقَهُ بخوفِ اللّه».



الفصل السّادس والعشرون

استحالةُ التّخلّصِ من حربِ الزّنى كلّيًّا من دونِ معونةِ اللّهِ، الّتي تؤازرُ المجاهدين. وما هي النّقاوة الكاملة.

- عن بالاديوس -

كانَ المغبوطُ موسى الأسودُ، أوّل أمرِه، رئيسَ عصابةِ لصوصٍ خطيرةٍ قبلَ أن يصيرَ، لاحقًا، راهبًا مُختبَرًا وكاهنًا، ولقد أُحصِيَ في عدادِ الآباءِ الكبار. في بدءِ سلوكِهِ في الحياةِ الرّهبانيّةِ، حاربَهُ شيطانُ الزّنى كثيرًا، حتّى أوشَكَ على التّخلّي عن عزمِه. ولكنّه تصدّى للعدوِّ بهجومٍ مُضادٍّ من خلالِ الصّومِ القاسي والهدوئيّة. عَمِلَ بنصيحةِ إيسيذورسَ الكبيرِ، فأقفلَ على نفسِهِ في قلاّيتِه، ولم يخرُجْ منها لوقتٍ طويل. كانَ يكتفي، كلَّ يومٍ، بتناولِ القليلِ من الخبزِ الجافِّ، ويُتِمُّ عملاً كثيرًا، ويتلو خمسينَ صلاة. بالإضافةِ إلى ذلك، حاربَ عدوَّ النّفوسِ بسهرٍ حثيثٍ، باقيًا من دونِ نومٍ، طولَ اللّيلِ، لمدّةِ ستِّ سنواتٍ تقريبًا. وعلى الرّغمِ من انحلالِ جسدِه، بَقِيَ مُشتَعِلاً بالرّغباتِ الّتي كانَتْ توقِظُ أحلامًا متنوّعة. بعدَ هذا، أخضعَ ذاتَهُ لطريقةٍ نسكيّةٍ أخرى: كانَ يَخرُجُ في اللّيالي من قلاّيتِه، ويَذهَبُ إلى قلاّياتِ الرّهبانِ المُسنّينَ، الّذينَ لا يستطيعونَ بأنفسِهم تأمينَ الماءِ الضّروريِّ، ويأخُذُ جرارَهم من دونِ أن يَروه، ويذهَبُ لملئِها بالماءِ، على الرّغمِ من بُعدِ مسافةِ قلاّياتِ بعضِ الرّهبانِ عن البئرِ خمسينَ ميلاً.

ذاتَ ليلةٍ، فيما انحنى فوقَ البئرِ لملءِ جرّةِ أحدِ الرّهبانِ، ضربَهُ الشّيطانُ على ظهرِهِ بهراوةٍ، وتركَهُ مُمَدَّدًا على الأرضِ كالميت. لم يستطِعِ

الشّيطانُ الحسودُ احتمالَ مواظبةِ هذا المُجاهدِ الرّوحيّ. في اليومِ التّالي، أتى أحدُ الرّهبانِ إلى البئرِ، ووجدَهُ مُمَدَّدًا على الأرضِ بين حيٍّ وميت. حينئذٍ، عادَ ليُعلِمَ إيسيذورس الكبير.

أتى هذا الأخيرُ إلى المكانِ مع رهبانٍ آخرينَ، وحَمَلوه إلى الكنيسة. كانَ مريضًا إلى درجةِ أنّه استَلْزَمَتْهُ سنةٌ كاملةٌ ليستعيدَ قواه. حينئذٍ، قالَ له إيسيذورسُ، كاهنُ المسيحِ العظيم: «من الآن فصاعدًا، أوقِفْ حربَكَ مع الشّياطينِ، يا أخي موسى، ولا تَهجُمْ عليهم بهذه الطّريقةِ، لأنّ هناك قياسًا حتّى في الجهادِ النّسكيِّ الّذي يسلُكُهُ المرءُ ضدَّ الشّياطين». على هذا أجابَ موسى، خادمُ المسيحِ الّذي لا يلينُ: «لن أتوقَّفَ عن محاربتِهم ما لم تتوقَّفْ خيالاتي اللّيليّة». فقالَ له إيسيذورسُ الكبيرُ: «باسمِ المسيحِ يسوعَ، لتتوقَّفْ أحلامُكَ غيرُ اللائقةِ منذُ هذه اللّحظة. فتقدَّمْ بشجاعةٍ، وتناولِ القرابينَ المُقدّسة. لقد تعرّضتَ لضغطٍ كبيرٍ من جرّاءِ هذا الهوى، لئلاّ تفتخرَ أنّكَ سُدتَ عليه بنسكِكَ، وهذا من أجلِ منفعتِكَ، لئلاّ تسقُطَ بسببِ الكبرياء».

بعد أن سَمِعَ موسى هذا الكلامَ، عادَ إلى قلاّيتِه. وبتخلُّصِهِ من الهوى الجامحِ، عاشَ منذُ ذلك الحينِ بهدوئيّةٍ ونسكٍ معتدل.

- عنه نفسِه -

في الإسقيطِ، أقامَ شخصٌ، يُدعى باخونَ، يبلُغُ السّبعينَ من عمرِهِ تقريبًا. مرّةً، حصلَ لي أن انزعجتُ من شيطانِ الزّنى، وعذّبَتْني الأفكارُ، وعانَيتُ من الخيالاتِ اللّيليّة. لم أُرِدِ الاعترافَ لأحدٍ بذلك، فرحلتُ من الصّحراءِ والهوى يُطارِدُني، ووصلتُ إلى الصّحراءِ الدّاخليّة. هناك، تحادَثْتُ وآباءَ الإسقيطِ، وكان باخونُ أيضًا من بينِهم.

وبما أنّني وجدتُهُ الأنقى والأكثرَ تقدّمًا في النّسكِ من الآخرينَ، أفضَيتُ له بأفكاري. فكلَّمَني الرّجلُ القدّيسُ بالطّريقةِ التّاليةِ: «لا تستَغْرِبْ هذا الأمرَ الّذي تتعرَّضُ له! ليستِ الرّخاوةُ هي السّببَ لأنّ المكانَ الّذي تَعيشُ فيه، ونقصَ الحاجياتِ، وعدمَ مقابلةِ النّساءِ تشهدُ لك. هذا يُسبِّبُهُ العدوُّ، لأنّك تُجاهِدُ في سبيلِ الفضيلة. فحربُ الزّنى ثلاثةُ أنواعٍ: أحيانًا، يثورُ

علينا الجسدُ عندما يتنعّم. وأحيانًا، تقومُ الأهواءُ علينا بسببِ الأفكار. ومرّاتٍ عديدةً، يُعذِّبُنا الشّيطانُ بسببِ حسدِهِ. وكما تراني، ها أنا شيخٌ، ولي أربعونَ سنةً أهتمُّ من أجلِ خلاصي في هذه القلاّية. و على الرّغمِ من كِبَرِ سنّي، ما زلتُ أُجَرَّب».

وأضافَ الشّيخُ التّالي، وأكّده بقسمٍ: «منذ عامي الخمسينَ، وخلالَ اثنَيْ عشَرَ عامًا، لم يَكُفَّ هذا الشّيطانُ عن مهاجمَتي ليلاً ونهارًا. وأنا اعتقدتُ أنّ اللّهَ تركَني، ولهذا أتعذَّب. ففضّلتُ الموتَ على تسليمِ نفسي، تحت تأثيرِ الهوى، لعملٍ مُهينٍ ومُعيبٍ كهذا. خرجتُ من قلاّيتي، وهُمْتُ على وجهي في الصّحراءِ إلى أن وجدتُ مغارةَ ضباع. هناك، خَلَعْتُ ملابسي واستلقَيْتُ عاريًا لتأكُلَني الوحوش. وعندما تقدَّمَ المساءُ، خرجَ وحشانِ، ذكرًا وأنثى، وشمَّاني من الرّأسِ حتّى القدمَيْن، ولَحَساني، ثمّ ابتعدا عنّي.

بقيتُ مُستلقيًا هناكَ طولَ اللّيلِ، مُعتَقِدًا أنّ وحشًا ما سيلتهِمُني، ولكن، في الصّباحِ، استنتجتُ أنّ اللّهَ حَفِظَني، فقمتُ وعدتُ إلى قلاّيتي. انتظرَ الشّيطانُ بضعةَ أيّامٍ، ثمّ هجمَ عليَّ من جديدٍ بعنفٍ أشدَّ، إلى حدِّ أنّني كدتُ أُجَدِّف. اتّخذَ مظهرَ شابّةٍ زنجيّةٍ، رأيتُها مرّةً في شبابي، خلالَ فصلِ الصّيفِ، وهي تجمَعُ سنابلَ القمحِ، في وقتِ الحصاد. جلسَتْ على ركبتَيَّ، وأثارَتْني إلى حدِّ أنّني اعتقدتُ نفسي معها. ثرتُ غاضبًا، وصفَعتُها فاختَفَتْ. وصدِّقْني إن قلتُ لكَ إنّني، لمدّةِ عامَيْن، لم أستطِعِ احتمالَ رائحةِ يدي النّتنة.

جعلَني هذا الحدثُ أفقدُ شجاعتي أكثرَ، وأغرقُ في اليأسِ، فخرجتُ لأهيمَ على وجهي، في الصّحراءِ الدّاخليّة. وجدتُ أفعًى صغيرةً سامّةً، أمسكتُ بها، وقرّبتُها من أعضائي التّناسليّةِ لتعضَّني فأموت. فَرَكْتُ رأسَ الحيّةِ على هذه الأعضاءِ الّتي اعتبَرتُها سببَ تجربتي، ولكنّها لم تعضَّني لأنّ النّعمةَ الإلهيّةَ حَفَظَتْني. بعد ذلك، سمعتُ في ذهني صوتًا يقولُ: «أترُكْ هذا المكانَ، يا باخون، وجاهِدْ! لقد تركتُكَ تتعرّضُ لكلِّ هذا الضّيقِ، لئلاّ تتكبّرَ معتقدًا أنّكَ انتصرتَ بقوّتِكَ الشّخصيّةِ على هذا الشّيطانِ، فعندما تَعي ضعفَكَ، لن تفتخرَ في نسكِكَ، إنّما ستلجأُ دائمًا إلى معونةِ اللّه».

هكذا، اقتنعتُ وعدتُ إلى قلاّيتي. منذ ذلك الحينِ، جلستُ فيها من

دونِ أن أهتمَّ بتاتًا بمحاربةِ هاجسِ النّساءِ، ومن هناك فصاعدًا، ارتحتُ من تلك المعركة. وبعد أن رأى الشّيطانُ أنّني أتجاهَلُه، خَجِلَ، ولم يَعُدْ يستطيعُ الاقترابَ منّي».

بهذه الكلماتِ وهذا الوصفِ لمعركتِهِ مع الشّيطانِ شدّدَني القدّيسُ باخونُ، وشجَّعَني أكثرَ على الأتعابِ النّسكيّةِ، وعلَّمَني أن أصبرَ على هذه الحربِ بسهولةٍ أكبر. ثمّ أرسَلَني بسلامٍ، وهو يحثُّني على أن أكونَ شجاعًا في كلِّ شيء.

- عنه نفسه -

رجلٌ يُدعى إيليّا، ناسكٌ كبيرٌ، كرّسَ ذاتَهُ لخدمةِ العذارى. في الحقيقةِ، نفوسٌ كهذه مَشهودٌ لنواياها الفاضلة. لقد أشفَقَ على النّساءِ النّاسكاتِ، وبما أنّه رجلٌ غنيٌّ، بنى ديرًا كبيرًا في مدينةِ «أثريفي». هناك، جمعَ الرّاهباتِ المُشرّداتِ جميعَهنّ، واهتمَّ بإعالتِهنّ في كلِّ شيءٍ، مؤمّنًا لهنّ كلَّ أنواعِ الرّاحةِ وكلَّ ما تتطلّبُهُ الحياةُ النّسكيّة. ولكنّهنّ عندما اجتمعنَ، بعدما سلكنَ أنواعَ حياةٍ مُختلفةً، وتكوّنَتْ لدى كلِّ واحدةٍ منهنّ عاداتُها الخاصّةُ، لم يتوقفْنَ عن المشاجرة. على الرّغمِ من ذلك كلّه، امتازَ إيليّا بكونِهِ رَجُلَ سلامٍ يُصلِحُ فيما بينهنّ. ظلَّ على هذه الحالِ سنتَيْن.

وحدثَ بعد ذلك أنّ العدوَّ جَرَّبَهُ بفكرِ الشّهوة. حينئذٍ، تركَ الدّيرَ صائمًا، وتاهَ في البرّيّةِ لمدّة يومَيْن، وهو يتوسّلُ إلى اللّهِ، قائلاً: «يا ربُّ، ضَعْ حدًّا لحياتي، ولا تَدَعْني أكونُ سببًا لبلبلةِ أحدٍ، أو ارفَعْ عنّي هذه الرّغبةَ الجسديّةَ لأتمكّنَ من مساعدةِ أخواتي العذارى». وكانَ عددُ الأخواتِ ثلاثمئة.

عندما حلَّ المساءُ، نامَ في البرّيّةِ، وأتاه، كما أخبرَ لاحقًا، ثلاثةُ ملائكةٍ، وقالوا له: «لِمَ انصرفتَ عن الدّيرِ النّسائيّ؟» شرحَ لهم المسألةَ، قائلاً: «خشيتُ أن أسبِّبَ لهنّ ولنفسي الأذى». قالوا له: «إن حرَّرْناكَ من هذه الرّغبةِ الجسديّةِ، فهل تعودُ لمساعدتهنّ؟» ولمّا وَعَدَ إيليّا بذلك، وضعوا عليه الأيدي، ورفَعوا عنه القتال. فسألَهُ الملائكةُ: «هل تشعرُ بالتّحسّن؟» أجابَهم: «أنا مرتاحٌ كلّيًّا، ومتأكّدٌ أنّني تخلّصْتُ من هذا الهوى القاسي». قالوا له: «حسنًا،

عُدْ إلى الدّيرِ!».

عادَ النّاسكُ إلى الدّيرِ بعد خمسةِ أيّامٍ، فوجدَ الرّاهباتِ جميعَهنّ يَنتَحِبْنَ عليه. ومن هناك فصاعدًا، بَقِيَ في الدّاخلِ، في قلّايةٍ قريبةٍ من الدّيرِ، وكانَ يُرشِدُهنّ باستمرار. عاشَ أربعينَ سنةً أخرى، وأكّدَ للآباءِ أنّه لم تصعَدْ إلى فكرِهِ أيّةُ رغبةٍ شهوانيّةٍ، وأكمَلَ سَعْيَهُ مُزَيَّنًا بموهبةِ اللّاهوى.

- عن الأبِ أشعيا -

إن مارستَ النّسكَ، فلا يعتمِدَنَّ قلبُكَ عليه ليحفظَكَ، إنّما قُلْ لفكرِكَ: «بسببِ إماتةِ جسدي، يَسمَعُ اللّهُ لي أنا البائس».

- عن الأبِ كاسيانوس -

١- بحسبِ الرّسولِ، إن عقَدْنا العزمَ على المحاربةِ بشجاعةٍ لننالَ إكليلَ النّصرِ[٢٦٦]، فلا نضعنَّ، بعد غلبةِ فكرِ الزّنى الدّنسِ، ثقتَنا بقدرتِنا أو بنسكِنا، بل بمعونةِ اللّهِ سيّدِنا. فالإنسانُ لن يتوقّفَ أبدًا عن التّعرُّضِ لمقاتلةِ هذا الفكرِ، حتّى يقتنعَ كلّيًّا أنّه لن يتحرّرَ من هذا المرضِ، ويرتَفِعَ إلى أعالي النّقاوةِ، إلاّ بحمايةِ اللّهِ ومعونتِه، وليس بحماستِهِ وجُهْدِهِ الشّخصيّ.

فهذا العملُ يتخطّى الطّبيعةَ البشريّةَ، ومَن يَرغَبْ في أن يسودَ على هَيجانِ الجسدِ وشهواتِه، توجَّبْ عليه، بطريقةٍ ما، أن يخرُجَ من جسدِه. مع ذلك، يستحيلُ على الإنسانِ أن يتوصّلَ – وإن جاز لي التّعبيرُ – إلى أن يصعدَ بأجنحتِهِ الخاصّةِ، وأن يطيرَ نحو المكافأةِ السّماويّةِ للقداسةِ، وأن يقتديَ بالملائكةِ، إن لم ترفَعْهُ نعمةُ اللّهِ فوقَ هذه الأرضِ ووَحْلِها. فالنّاسُ المُرتبطونَ بالجسدِ لا يَصيرونَ مُشابهينَ للملائكةِ الرّوحيّينَ والعقليّينَ، إلاّ بفضيلةِ العفّة. في الواقعِ، بهذه الفضيلةِ يَصيرُ النّاسُ، بحسبِ الرّسولِ[٢٦٧]، مواطِني السّماءِ، فيما هم لا يَزالونَ بعدُ يَعيشونَ على الأرض.

علامةُ اقتنائِنا الكاملِ لهذه الفضيلةِ تَكْمُنُ في أنّ نفوسَنا لا تستسلِمُ

---

٢٦٦. ٢ تيم ٢، ٥.

٢٦٧. في ٣، ٢٠.

لصورٍ وخيالاتٍ غيرِ لائقةٍ أثناءَ النّوم. لأنّه، وإن لم تُحسَبْ حركةٌ كهذه خطيئةً، إلاّ أنّها مؤشّرٌ إلى مَرَضِ النّفسِ الّتي لم تتخلّصْ بعدُ من هذا الهوى. يجب أن نؤمنَ أنّ الخيالاتِ غيرَ اللائقةِ، الّتي تأتينا من الهوى أثناءَ النّومِ، تُظهِرُ تكاسُلَنا وضعفَنا السّابقَيْن. كذلك، التّلوّثُ الّذي يحدثُ لنا، خلالَ استرخاءِ النّومِ، يوضِحُ المرضَ المختبئَ في طيّاتِ نفوسِنا. أمّا الّذينَ وصَلوا إلى قمّةِ القداسةِ والنّقاوةِ، فلا تتراءى لهم الخيالاتُ خلالَ نومِهم، وكذلك، لا يَختبِرونَ أيّةَ حركةٍ شهوانيّةٍ وهم مستيقظون.

٢- عرفتُ إنسانًا من هذا النّوعِ في الإسقيطِ، رجلاً مُحاطًا بإكليلِ نقاوةٍ أَلمعَ من إكليلِ الآباءِ الآخرينَ، وصفاءُ نفسِه يُجَمِّلُ وجهَه. لقد تخطّى، بنعمةِ اللّهِ، حدودَ الطّبيعةِ البشريّةِ، ورمى عنه تَحَرُّكَ الرّغبةِ الطّبيعيّ. علمتُ ذلك من أشخاصٍ يَعرفونَهُ معرفةً وثيقة. توسَّل، لوقتٍ طويلٍ، إلى اللّهِ بأصوامٍ وأسهارٍ ودموعٍ أن يهبَهُ هبةَ العفّةِ، واستجابَ المُعلّمُ الصّالحُ لطلبِه. ذاتَ ليلةٍ، شاهدَ، في رؤيا، ملاكًا يفتَحُ بطنَه، وينزَعُ بيدِهِ كتلةَ لحمٍ مُشتعِلةً من أحشائِه، ثمّ يُعيدُ البطنَ إلى حالتِهِ الأولى. ثمّ قالَ له الملاكُ: «ها أنا انتزَعْتُ وقودَ الرّغبةِ الجسديّةِ، فاعلَمْ أنّه، منذُ اليومَ، أعطاكَ اللّهُ النّقاوةَ الّتي ما لبِثْتَ تطلُبُها بإيمانٍ وصبر».

- عن كتابِ الشّيخ -

١- سألَ أخٌ، مُعَذَّبٌ بالزّنى، الشّيخَ أغاثونَ، قائلاً: «ماذا أفعل؟» وأجابَهُ الشّيخُ: «إذهَبْ واطرَحْ ضعفَكَ أمامَ اللّهِ، فتجدَ راحة».

٢- قيلَ عن الأمِّ ساره إنّ شيطانَ الزّنى بَقِيَ يُهاجِمُها بضراوةٍ، لمدّةِ ثلاثةَ عَشَرَ عامًا، ولكنّها لم تُصَلِّ ليَكُفَّ القتالُ عنها، إنّما كانَتْ تقول: «يا إلهي، أعطِني القوّة!» مرّةً، هجمَ روحُ الزّنى نفسُهُ عليها بقوّةٍ أكبرَ، وصَعِدَتْ إلى حجرتِها كي تصلّيَ، فظهرَ لها روحُ الزّنى جسديًّا، وقالَ لها: «لقد غلبتِني، يا ساره!» ولكنّها أجابَتْ: «لستُ أنا مَن غلبَكَ، بل المسيحُ سيّدي».

٣- أنكرَ أحدُهم العالَمَ، وأتى إلى الإسقيطِ، وأصبحَ راهبًا. كانَ مُجاهدًا. ولكنّه، بسببِ حسد الشّرّيرِ، حورِبَ بالرّغبةِ في النّساء. وبما أنَّ الحربَ لم تَكُفَّ عنه، قالَ ذلكَ للآباء. وهم، كونَهم عالمينَ أنّه مجاهدٌ روحيٌّ، وضعوا له أعمالاً نسكيّةً عديدةً، فقَبِلَها، وتمّمَها من كلِّ قلبِه، إلى حدِّ أنّه أضنى جسدَه، ولم يَعُدْ يستطيعُ الوقوف.

بتدبيرٍ إلهيٍّ، أتى أحدُ الآباءِ من الخارجِ إلى الإسقيطِ، وقامَ بزيارةِ عدّةِ شيوخٍ، ومرَّ أيضًا بقلاّيةِ هذا الأخِ، ووجدَها مَفتوحةً، وتحيّرَ لأنَّ أحدًا لم يخرُجْ للقائِه. ولكنّه قالَ في نفسِه: «ربّما الأخُ الّذي يقطنُ هنا مريض». فاقتربَ من البابِ، وقَرَعَه. وبما أنّ أحدًا لم يخرُجْ إليه، دخلَ من تلقاءِ ذاتِه، ووجدَ الرّاهبَ مُستلقيًا، وواهنًا جدًّا. قالَ له: «ما بكَ، يا أبتِ؟» فأخبرَهُ الآخرُ بكلِّ شيءٍ، كيف يُحارِبُهُ الزّنى، وأنّه أخبرَ الآباءَ الّذينَ حدّدوا له بعضَ المُمارساتِ النّسكيّةِ، وكيف أرهقَ جسدَه بتطبيقِها. وعلى الرّغمِ من ذلك كلِّه، ازدادَ القتال.

بعدَ أن سَمِعَهُ الشّيخُ، قالَ: «الآباءُ، بما أنّهم أقوياءُ، فَرَضوا عليكَ هذه المُمارساتِ، ولكن، إن أردتَ أن تسمَعَني أنا الوضيعَ، فدَعْ عنك هذه الممارساتِ، من الآن فصاعدًا، بما أنّك لم تستفِدْ منها شيئًا. تناوَلِ القليلَ من الطّعامِ في وقتِه، واعمَلْ صلاتَكَ الصّغيرةَ، وألْقِ على الرّبِّ همَّكَ[٢٦٨] وعجزَكَ. فأنتَ لن تَصِلَ إلى نتيجةٍ في هذه الحربِ بأتعابِك. واعلَمْ أنَّ جسدَنا هو مثلُ رداء. إن اعتنَيْتَ به يَدُم، وإن أهملتَه يَفسُدْ». هكذا فعلَ الرّاهبُ، وتَخَلَّصَ من هذا القتالِ، في غضونِ أيّامٍ قليلة.

٤- كانَ أحدُ النّسّاكِ بتولاً، ويَجهَلُ تقريبًا وجودَ النّساءِ والزّنى. كانَ يقولُ إنَّ الإنسانَ مزوّدٌ بهذا العضوِ ليُفرِغَ الماءَ، كما يُوجَدُ عُنُقٌ في الإبريقِ ليُفرِغَهُ من محتواه. ولكنّه، ذاتَ مرّةٍ، رَفَعَ عينَيْه، ورأى الشّياطينَ بمظهرِ زنوجٍ يُحيطونَ به، ويُهَيِّجونَ فيه الهوى. فشعرَ باشتعالٍ ورغبة. ولكنّه، بسببِ عدمِ

---

٢٦٨. مز ٥٤، ٢٣.

خبرتِهِ، جَهِلَ ما يَرغَبُ فيه.

ذاتَ يومٍ، أراهُ الشّيطانُ – بالخيالِ - رجلاً يَزني مع امرأة. ولكنّ اللّهَ، وهو يَرى خبثَ الشّيطانِ المُفرِطَ، حمى الأخَ بنعمتِه، وقادَهُ إلى شيخٍ كبير. عَلَّمَهُ هذا الأخيرُ كيف يُجاهِدُ ضدَّ الشّياطينِ، وأرسَلَهُ مُجَدّدًا. عادَ الأَخُ إلى قلاّيتِه، وجاهَدَ داعيًا اللّه. ولقد أعطاهُ اللّهُ أن يُحْرِزَ تقدُّمًا كبيرًا، إلى حدٍّ أنّه أُهِّلَ لموهبةٍ كبيرةٍ: لدى موتِ أحدِ الإخوةِ، كانَ يعرِفُ، بعلمٍ خاصّ، إن كانَ في حالةٍ جيّدةٍ أو سيّئةٍ، وإلى أيِّ موضِعٍ يذهب.

٥- أخٌ يَسكُنُ في الصّحراءِ، أزعجَهُ الزّنى. ذهبَ ووجدَ مغارةَ ضِباع. دخلَ إليها، وبَقِيَ فيها من دونِ طعامٍ لمدّةِ ستّةِ أيّام. عندما عادَتِ الضّبعةُ، خافَ الأخُ لدى رؤيتِها، وقالَ: «يا ربُّ، إن كنتُ سأُدَنِّسُ جسدي، فَسَلِّمْني لقوّتِها، وإلاَّ، فأنقِذْني منها!» وللحالِ، سَمِعَ صوتًا يقولُ: «أُخصوه ودَعوه يذهب». وللحالِ كفَّتِ الحربُ عنه.

الفصل السّابع والعشرون

شرفُ النّقاوةِ، وعارُ الزّنى، ونهايةُ كلٍّ منهما وأجرُه، في هذا الدّهرِ والدّهرِ الآتي.

- عن القدّيسِ أفرام -

يا أخي، هل تُريدُ أن تعلمَ كم يؤذي الزّنى، ويقودُ إلى الموت؟ تأمّلْ في أولئك الإسرائيليّينَ الّذينَ لم تستطِعْ أن تُميتَهم لَسعاتُ الحيّاتِ في الصّحراءِ[٢٦٩]، ولكنّهم صُرِعوا في مديانَ بالزّنى، ممّا جَعَلَهم يَصِلونَ إلى حدِّ قبولِ الأكلِ من الذّبيحةِ المقدَّمَةِ للأصنام. وبسببِ هذه المعصيةِ، ماتَ ثلاثةٌ وعشرونَ ألفَ شخصٍ[٢٧٠] منهم، في يومٍ واحد.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- سألَ أخٌ شيخًا: «إنّ الزّنى يُحارِبُني بشدّةٍ، يا أبتِ، فماذا يجبُ أن أفعل؟» أجابَهُ الشّيخُ: «احترِسْ بكلِّ قوّتِكَ من هذا الفكرِ، لأنّ مَن غُلِبَ منه، يَصِلُ إلى اليأسِ من خلاصِه. إنّه كمركبٍ يُصارِعُ اضطرابَ الأمواجِ: إن فُقِدَ المِقْوَدُ، يَصِرْ في خطرٍ فعليٍّ، ولكنّه يَستَمِرُّ في الإبحار. كذلك، إن كُسِرَتْ عارضةُ السّاري، أو فُقِدَ شيءٌ من المُستلزماتِ الّتي تؤمِّنُ سلامةَ الإبحارِ، يَحفَظِ الرّكّابُ الرّجاءَ في سلامةِ الإبحارِ أخيرًا.

هكذا الرّاهبُ. إن أظهرَ تهامُلاً في الأهواءِ الأخرى، وغلبَهُ أحدُها، يترجَّ أنْ ينتصرَ عليه بالتّوبة. ولكن، إن سَقَطَ مرّةً في هوى الزّنى، يفقدْ كلَّ أملٍ كالغريقِ، ويَغرَقْ مركَبُهُ حتّى القعر.

---

٢٦٩. أنظر عد ٢١، ٦ – ٩.

٢٧٠. عد ٢٥، ١ – ٩. أنظر ١ كور ١٠، ٨.

٢- قالَ شيخٌ: «قليلٌ من الأفسنتينِ[٢٧١] يُفسِدُ وعاءً كاملاً من العسلِ، وخطيئةٌ جسديّةٌ واحدةٌ تَطرُدُ من ملكوتِ السّماواتِ، وتُرسِلُ إلى جهنّمِ النّار. أهرُبْ بعيدًا، أيّها الرّاهبُ الذّليلُ، من الخطيئةِ الجسديّةِ كمن النّارِ لئلاّ تَحتَرِق».

- عن القدّيسِ أفرام -

كما يَفْتِنُ البخّورُ الإحساسَ، هكذا، تجتذِبُ طهارةُ النّفسِ الرّوحَ القدسَ ليجعلَ الإنسانَ مسكنًا له. وعلى العكسِ، كما الخنزيرةُ تُسَرُّ في التّمرّغِ في الحمأةِ[٢٧٢]، هكذا يُسَرُّ الشّياطينُ برائحةِ الزّنى العَفِنَة. في طهارةِ النّفسِ يسكُنُ نورٌ وفيرٌ، وفرحٌ، وسلامٌ، وصبرٌ. بينما الزّنى متّحدٌ، بشكلٍ وثيقٍ، بحزنٍ، وضجرٍ، ويأسٍ، ونومٍ لا يُشبَعُ منه، وظلمةٍ حالكة. أيّها الرّاهبُ، أحِبَّ طهارةَ النّفسِ، بمحبّةِ المسيحِ، لأنّها ملائمةٌ لطريقةِ حياتِك، كالفأسِ بيدِ النّجّار.

يا أخي، لا تضَعْ كلَّ عنايتِكَ في تزيينِ جسدِك، ناسيًا خوفَ اللّه. بل بالأحرى، إسمَعْ ما يقولُهُ الرّسولُ: «اجتنِبِ الشّهواتِ الشّبابيّة»[٢٧٣]. ألا تعرفُ أيَّ عدوٍّ يُهاجمُك؟ ألا تعرفُ أنّه لشرٌّ كبيرٌ أن تصيرَ فخًّا لنفسٍ أخرى؟ إعلَمْ هذا أيضًا: إن كانَ الإنسانُ الخارجيُّ مُزَيَّنًا وجميلَ المَظهرِ، فيما النّفسُ في الدّاخلِ مُوسَّخَةٌ، فلن يتأخّرَ هذا الجمالُ عن الذّبول. أمّا إن اكتسبتَ جمالَ النّفسِ، فسينفَذُ إلى الإنسانِ الخارجيِّ، وسيبقى هذا الجمالُ فيكَ دائمًا.

٢٧١. عشبة مشهورة بمرارتها.
٢٧٢. ٢ بط ٢، ٢٢.
٢٧٣. ٢ تيم ٢، ٢٢.

الفصل الثّامن والعشرون

كلُّ مَن يَقبَلُ أفكارًا دنسةً ولا يَدفَعُها عنه للحالِ بحزمٍ، يستحقُّ العقاب. وكذلك الأمرُ لِمَن ينظرُ بفضولٍ ويقولُ أو يسمعُ أمورًا دنسة. قبولُ الفكرِ له قصاصُ الفعل. روحُ الزّنى يهجمُ بحيَلٍ كثيرةٍ ومتنوّعةٍ، لهذا يجبُ أن ننتبهَ دائمًا.

- من حياةِ القدّيسِ أفثيميوس -

كان في لافرا القدّيسِ أفثيميوس أخٌ رومانيُّ المَولِد، اسمُهُ أميليانوس، يسلُكُ حياةً فاضلةً، ويتمسَّكُ بفضيلةِ العفّةِ منذُ مطلعِ شبابِهِ، بحماسةٍ خاصّة. ذاتَ ليلةٍ، فجرَ نهارِ الأحدِ، شنَّ عليه العدوُّ حربًا جسديّةً مُضنيةً، بحيثُ لم يستطِعِ الصّمودَ حتّى النّهاية. فاستسلمَ للأفكارِ الدّنسةِ، وخضعَ لها. ذاتَ صباحٍ، وهو على هذه الحالِ من الاستعبادِ للهوى، التقى بالقدّيسِ أفثيميوس، وهو في طريقِهِ إلى الكنيسة. شمَّ القدّيسُ رائحةً مُنْفِرةً تخرُجُ من أميليانوس، كشفَتْ له جليًّا الهوى الجامحَ المُتفشّيَ في راهبه.

عند ذلك، فَهِمَ رجلُ اللّهِ أفثيميوسُ المكيدةَ الشّيطانيّةَ بسببِ هذه الرّائحةِ النّتنةِ، ووبّخَ الشّيطانَ المُعذِّب. للحالِ، سقطَ الأخُ أرضًا على وجهِه، وبدأَ يتلوّى من الألمِ ويتشنّجُ، فيُرغي ويُزبِدُ[٢٧٤]. فاجتمعَ حولَه كثيرٌ من الرّهبان.

---

٢٧٤. يُخرِجُ رغوةً من فمِه.

وبما أنّ العتمةَ كانَتْ تعمُّ المكانَ، طلبَ أفثيميوسُ الكبيرُ إحضارَ ضوءٍ له، وقالَ لهم: «أيّها الآباءُ والإخوةُ، هل تَرَونَ هذا الرّاهب؟ لقد عاشَ في الفضيلةِ منذ صغرِه، واعتنى بحفظِ العفّة. ولكنّه الآن مُلقًّى أمامَنا لأنّه خضعَ قليلاً للأهواءِ الجسديّة. يا للمشهدِ الّذي يُرثى له! إليكم لِمَ يجبُ على كلِّ واحدٍ منّا أن يَحرُسَ ذهنَهُ بانتباهٍ كبيرٍ، لئلاّ نتغافَلَ عن العدوِّ، فيسخرَ منّا بإحدى التّخيّلاتِ، ويُلقينا في وَهْدَةِ الهلاك. في الواقعِ، إن أتانا فكرٌ غيرُ لائقٍ يَحثُّنا على الزّنى، ولم نُحارِبْهُ من كلِّ قوانا، منذُ بدءِ ظهورِه، بل فكَّرْنا فيه بشيءٍ من التّرحيبِ، فحينَ ذلك، لا نكُنْ خالينَ من الخطيئةِ حتمًا. سنُدانُ من اللّهِ كزناةٍ بالفكرِ، وحتّى ولو لم نُتِمَّ الفعلَ جسديًّا».

ثمّ ذكرَ لهم القصّةَ التّاليةَ الّتي، كما قالَ، أخبرَهُ إيّاها بعضُ الشّيوخِ المصريّينَ: كانَ في إحدى المدنِ إنسانٌ يَظُنُّ جميعُ النّاسِ فيه أنّه يسلُكُ حياةً عجيبةً أكسَبَتْهُ دالّةً كبيرةً لدى اللّه. ولكنّه، في الحقيقةِ، غالبًا ما كانَ يُغضِبُ اللّهَ بحركاتِ قلبِهِ الخَفيّةِ، بقبولِهِ سريعًا الأفكارَ الدّنسةَ، بحيثُ أنّه كانَ يُخطِئُ من دونِ مقاومةٍ، إن لم يَكُنْ بالفعلِ، فعلى الأقلِّ، بالفكر.

ذاتَ يومٍ، مَرِضَ هذا الرّجلُ مرضًا ثقيلاً، وشعرَ أنّه سيكونُ في عدادِ الأمواتِ قريبًا. وبدأَ سكّانُ المدينةِ جميعًا ينتحبون. شعرَ النّاسُ بالإحباطِ، وتمنَّوا جميعُهم، شبّانًا ومُسنّينَ، بشدّةٍ، لو أمكَنَهم أن يموتوا قبلَه. فضّلوا الموتَ على أن يَشْهَدوا رحيلَ إنسانٍ يمتدِحُهُ الجميع.

في تلك الأثناءِ، أتى إلى المدينةِ شيخٌ يتمتّعُ بموهبةِ الرّؤيا. رأى النّاسَ رازحينَ تحت ثقلِ الفاجعةِ يَنوحونَ بأجمعِهم، وسَمِعَهم يُعبِّرونَ عن ألمِهم، قائلينَ: «إنّه رجلٌ قدّيس! إنّه أبونا! إنّه مخلِّصُنا الّذي بشفاعاتِهِ إلى اللّهِ نَخلُصُ جميعُنا! أيُّ رجاءِ خلاصٍ يبقى لنا، من الآن فصاعدًا؟ وأيُّ أمانٍ يكونُ لنا، بعدَ موتِه؟»

برؤيتِهِ وسماعِهِ لكلِّ ذلك، سارَعَ الرّجلُ الرّائي إلى قربِ المُحتَضَرِ، ليستأهِلَ أخْذَ بركتِهِ ونعمةِ صلاتِه. باقترابِهِ من منزلِ المُحتَضَرِ، رأى المواطنينَ، أعيانَ المدينةِ، والأسقفَ نفسَهُ مُنتظرينَ، والمشاعلُ في أيديهم، من أجلِ الجنازةِ ليُشَيِّعوا الجسد. فتحَ طريقَهُ في وسطِ الزّحمةِ، ووصلَ إلى المُنازِعِ

الّذي كانَ بالكادِ يَتنفَّس. ولكنّه رأى بعينَيْهِ الرّوحيّتَيْنِ مشهدًا مُخيفًا للنّظرِ، كما للسّماعِ، ومَرثِيًّا له.

في الواقعِ، رأى، ويا للويلِ، أحدَهم يغرِزُ في قلبِ المُحتَضَرِ شوكةً ثلاثيّةً مُلتهبةً، ليقتلعَ النّفسَ من هناك، بحركةٍ عنيفةٍ ومؤلمة. ثمّ سَمِعَ صوتًا من العُلى يقولُ: «كما أنّ هذه النّفسَ لم تمنَحْني يومَ راحةٍ، هكذا تمامًا، أنتَ أيضًا، لا تتوقَّفْ عن اقتلاعِ هذه النّفسِ؛ اقتلِعها بعنفٍ لمعاقبتها».

عندما أنهى أفثيميوسُ القصّةَ، أكملَ حديثَهُ حاثًّا الإخوةَ الحاضرينَ: «انتَبِهوا إلى ذواتِكم، وكونوا مستعدّينَ دائمًا. خُذوا احتياطاتِكم بما يَخُصُّ خروجَ نفوسِكم من أجسادِكم. ليَكُنْ لكم أخونا أميليانوسُ مثلاً. لقد أعرضَ اللّهُ عنه كلّيًّا، وسمحَ أن يتعذّبَ هكذا أمامَ أعينِ الجميعِ بشيطانِ الزّنى القاسي، لتتحسَّنوا أنتم، وتَستفيدوا من العقابِ الّذي تلقّاه. ولكن، لنتوسَّلْ إلى اللّهِ ليُخلِّصَهُ من هذا الفخّ.

حينئذٍ، صلّى القدّيسُ من أجلِ الأخِ، وللحالِ، امتلأَ المكانُ برائحةٍ نتنةٍ، كأنَّ كبريتًا أصفرَ يحترقُ، وفي الوقتِ نفسِه، سُمِعَ صوتٌ يقولُ: «أنا روحُ الزّنى». نهضَ الأخُ أميليانوسُ، وعاشَ بعد ذلك بالعفّةِ واليقظةِ، وأصبحَ، هو أيضًا، «إناءً مختارًا» كالرّسولِ الإلهيّ[٢٧٥].

وختمَ أفثيميوسُ الكبيرُ قولَهُ بالوصيّةِ التّاليةِ: «كلُّ مَن يُحارَبُ بالأفكارِ غيرِ المُلائمةِ من الإخوةِ، فليلجأْ دائمًا إليّ، ويقبَلِ النّصحَ باستمرارٍ، والتّعليمَ، والإرشادَ، لئلاّ يجذبَهُ الشّيطانُ، على غفلةٍ، ويَجُرَّهُ رويدًا رويدًا إلى سقطةٍ رهيبة».

- من حياةِ القدّيسِ سابا -

ذهبَ مرّةً المَغبوطُ سابا إلى الأردنِّ برفقةِ شابٍّ مُبتدئ. التقيا، على الطّريقِ، بأناسٍ علمانيّينَ، ومن بينِهم فتاةٌ جميلةٌ، فخٌّ غرّارٌ يَصعُبُ أن يتجنّبَهُ ذاك الّذي لا يَحرُسُ عينَيْه. عندما تجاوزوا هذه الجماعةَ، سألَ القدّيسُ سابا

٢٧٥. أع ٩، ١٥.

تلميذةٌ ليُجرِّبَه: «كيف بدَتْ لكَ الفتاة؟ يبدو لي أنّها عوراء». أجابَ المُبتدئُ: «لا، يا أبتِ، لديها عينان اثنتان». أصرَّ سابا: «أنتَ مُخطئٌ، يا بُنيَّ، لقد قُلِعَتْ إحدى عينَي الفتاةِ كلِّيًّا». ولكنّ التّلميذَ الّذي لم يفهَمْ أنّ الشّيخَ الحكيمَ يَطرَحُ عليه هذا السّؤالَ، ليُجرِّبَهُ، ويجعَلَهُ يعترِفُ بما لاحظَهُ جيّدًا بنفسِه، أصرَّ قائلاً: «لا، يا أبتِ، على العكسِ، كانَ لديها عينانِ لامعتانِ وجميلتانِ جدًّا». حينئذٍ، سألَ القدّيسُ سابا: «وكيف تعرفُ هذا التّفصيلَ، وتُصِرُّ على رأيِكَ إلى هذا الحدّ؟» أجابَ المبتدئُ: «لقد نظرتُ إليها بانتباهٍ، ورأيتُ جيّدًا أنّ لها عينَيْنِ اثنتَيْن».

عندما وقعَ التّلميذُ في الشّباكِ، شرعَ القدّيسُ سابا يُوبِّخُهُ علنًا: «وأين وضعتَ الوصيّةَ القائلةَ بألاّ تُحدِّقَ في امرأةٍ، وألاّ تتركَ نفسَكَ تنجذِبُ إليها[٢٧٦]؟ لهذا السّببِ، من الآن فصاعدًا، لن ترافِقَني، ولن تسكُنَ في قلاّيتي، إلى أن تعتادَ على ألاّ تتركَ نظرَكَ يَشردُ، بل أن تحفظَهُ ثابتًا على الأرض».

بعد أن وبَّخَهُ هكذا، أرسلَهُ سابا للحالِ إلى ديرِ «كاستيليو»[٢٧٧] حيثُ بَقِيَ لوقتٍ طويلٍ، وتلقّى تربيةً جيّدة. لقد تعلَّمَ أن يُهَذِّبَ نظرَةً بالتّوبةِ الحقيقيّةِ، والألمِ القلبيّ. حينئذٍ، قَبِلَهُ القدّيسُ ثانيةً، وحَسِبَهُ في عدادِ رهبانِ اللاّفرا.

- من حياةِ القدّيسة سينكليتيكي -

قالتَ القدّيسةُ سينكليتيكي للرّاهباتِ: «يجبُ على كلِّ واحدةٍ منكنّ أن تتذكّرَ الوعدَ الّذي قطعَتْهُ، وذلك لئلاّ تتوجَّهَ إلى الأمورِ الأرضيّةِ، بل بالأحرى لتتشوّقَ باستمرارٍ إلى الحقائقِ العلويّة. أنتنّ لا تجهَلنَ المثَلَ الإنجيليَّ المُتعلِّقَ بالبذارِ الّتي أعطَتْ ثمارًا مئةً، وستّينَ، وثلاثين[٢٧٨]. فالمئةُ تُمَثِّلُ دعوتَنا الرّهبانيّةَ، والسّتّين يُمَثِّلُ حالةَ مَن يلتزمونَ التّبتّلَ وهم في وسطِ العالمِ، والثّلاثين تُمَثِّلُ حالةَ مَن يعيشونَ العفّةَ في الزّواج.

---

٢٧٦. أنظر أم ٦، ٢٥.

٢٧٧. كان الكاستيليو جبلاً في أورشليم، حيثُ أسس القدّيس سابا ديرًا مشهورًا. أنظر الجزء الثّالث من الأفريتينوس، الفصل ٢١. عن حياة القدّيس سابا.

٢٧٨. مت ١٣، ٨. مر ٤، ٨ و٢٠.

من الجيّدِ الذّهابُ من الثّلاثينَ إلى السّتّينَ، لأنّ التّقدّمَ من الأصغرِ إلى الأكبرِ جيّدٌ. أمّا الانحدارُ من الأكبرِ إلى الأصغرِ، فخَطِرٌ. فمَنْ يَتوجَّهْ مرّةً إلى الأسوأِ، لا يستطعْ أن يقفَ هناك، ولكنّه يُتابِعُ حتّى يصلَ إلى وَهْدَةِ الهلاك.

قد تُعطي بعضُ الفتياتِ وعدًا بالبتوليّةِ، ثمّ يَنجَذِبنَ إلى ما هو أقلُّ تَطلُّبًا بسببِ ضعفِ عزمِهنّ، ويستُرنَ خطاياهنّ بأعذارٍ واهيةٍ[٢٧٩]، قائلاتٍ لذواتهنّ: «لو أنّنا نعيشُ العفّةَ الزّوجيّةَ، لَرَبِحْنا على الأقلِّ الثّلاثينَ» - يا لها من جهالةٍ، فالعكسُ هو الصّحيح! - هذه الفكرةُ مُوحاةٌ من العدوّ. إنّ من يتركُ نفسَهُ تنجَرُّ من الأكبرِ إلى الأصغرِ يَنخَدِعُ من العدوّ. في الواقعِ، الإنسانُ الّذي يَسلُكُ بموجبِ ذلك، يُعتَبَرُ كهاربٍ من الجنديّةِ، ولا يُبَرِّرُهُ عذرُ انسحابِهِ ليلتَحِقَ بفوجٍ عاديّ. ولكنّه يعاقَبُ بسببِ تَخلّيهِ عن جيشِ النّخبة.

علينا أن نتقدّمَ، باطّرادٍ، مُنتقلينَ من الدّرجةِ الدُّنيا إلى العُليا، ناسينَ ما هو وراءُ، وممتّدينَ نحو الأمامِ، بحسبِ وصيّةِ الرّسولِ[٢٨٠]، وأن نعيشَ بعفّةٍ كلّيّةٍ، كما يليقُ بخاصيّتِنا الرّهبانيّة. فبعضُ النّساءِ يُفكِّرْنَ، وهنّ في العالمِ في أن يسلُكنَ بعفّةٍ، إلاّ أنّ في ذلك بعضَ الشّططِ، لأنّهنّ، أحيانًا، يتركنَ العنانَ لحواسِّهنّ، ناظراتٍ بطريقةٍ غيرِ لائقةٍ، وضاحكاتٍ من دونِ تحفّظ. أمّا نحن، فلنرمِيَنّ هذا كلَّه، ولنصعدنَّ إلى أعلى صوبَ الفضائلِ، ولتتحفَّظْ عيونُنا من كلِّ مشهدٍ باطلٍ، لأنّ الكتابَ يقولُ: «فلتنظُرْ عيناكَ إلى قدّام»[٢٨١].

كذلك، يجبُ أن نحفظَ لسانَنا من الخطايا المَنسوبةِ إليه، لأنّه غيرُ مسموحٍ للعضوِ المُخصّصِ لترنيمِ التّسابيحِ، أن يتلفّظَ بأقوالٍ شائنة. نستطيعُ تطبيقَ هذا كلِّه، إن تجنَّبْنا الخروجَ المستمرَّ. فاللّصوصُ يندسّونَ في نفوسِنا، عبرَ حواسِّنا، ورغمًا عنّا. كيف يُمكِنُ ألاّ يتسرّبَ دخانٌ خارجيٌّ إلى بيتٍ تُرِكَتْ أبوابُهُ مُشرّعة؟

إذًا، من الضّروريِّ لنا تجنُّبُ الذّهابِ إلى الأماكنِ العامّة. إن اعتبَرْنا رؤيةَ إخوتِنا أو ذوينا عارينَ ثقيلةً وغيرَ لائقةٍ، فكم بالأحرى ستؤذينا رؤيةُ النّاسِ عارينَ، علنًا بطريقةٍ مُثيرةٍ، أو مُتلفّظينَ بكلماتٍ بذيئة؟ أمّا عندما

---

٢٧٩. أنظر مز ١٤٠، ٤.
٢٨٠. في ٣، ١٤.
٢٨١. أم ٤، ٢٥.

نُغلِقُ على ذواتِنا في بيوتِنا، فيجبُ ألاّ نتركَها تنساقُ إلى اللاّمُبالاةِ، إنّما لِيَكُنْ لدينا سهرٌ مُتواصلٌ، كما هو مكتوبٌ في الكتابِ المُقدّس[٢٨٢]. فبقدرِ ما نحرُسُ ذواتِنا في العفّةِ، تكونُ الأفكارُ الّتي تُهاجِمُنا خدّاعةً أكثر. هذا بمعنى أنّه بقدرِ ما يصيرُ المصارعونَ أقوياءَ، يكونُ عليهم أن يواجِهوا خصومًا أقوى.

أنظُري الأخطارَ الّتي نجوتِ منها، ولا تَجْبَني لما ستواجهينَه الآن. هل انتصرتِ على الزّنى بالفعلِ الجسديّ؟ سيقترحُ عليك العدوُّ الزّنى الّذي يُقتَرَفُ عبرَ الحواسِّ. وعندما ترفُضينَ عرضَه، سيذهبُ ليختبئَ في طيّاتِ الذّهنِ، ويشنُّ عليكِ حربًا غيرَ منظورة. فمن عادتِهِ أن يُدخِلَ خلسةً ذكرى وجوهٍ جميلةٍ، ورفقةٍ قديمةٍ في أذهانِ هؤلاءِ اللّواتي يَعِشْنَ في الهدوئيّة.

إذًا، يجبُ عدمُ قبولِ تَخيّلاتٍ كهذه، لأنّه مكتوبٌ في الكتابِ المُقدّسِ: «إن صعدَتْ عليكَ روحُ المُتسلّطِ، فلا تترُكْ مكانَك»[٢٨٣]. قبولُ هذه الإيحاءاتِ يُعادِلُ الزّنى في العالمِ. يقولُ الكتابُ: «سيُدانُ الأقوياءُ بقسوة»[٢٨٤]. فعظيمٌ هو الجهادُ ضدَّ روحِ الزّنى، لأنّ الزّنى، من بين الرّذائلِ، هو السّلاحُ الأساسيُّ الّذي يستعملُهُ العدوُّ ليقودَ النّفسَ إلى الهلاك. هذا ما كانَ يعنيه أيّوبُ عندما قالَ عن الشّيطانِ إنّ له قوّةً في عضَلِ بطنه[٢٨٥].

كثيرةٌ ومتنوّعةٌ الحيلُ الّتي يُثيرُ بها الشّيطانُ الحروبَ الجسديّةَ على مُحِبّي المسيح. ويحدثُ، مرّاتٍ عديدةً، أن يندسَّ الشّيطانُ الخبيثُ في المحبّةِ الأخويّةِ ليخدمَ بها نواياه الخبيثة. في الواقعِ، لقد خدَعَ عذارى رَفَضْنَ الزّواجَ وأوهامَ الحياةِ كلّها، عبرَ علاقاتهنّ الأخويّة. جَرَحَ أيضًا، عبرَ محادثاتٍ تَقَويّةٍ، رهبانًا تجنّبوا الدّنسَ بكافّةِ أشكاله. في الحقيقةِ، هذا هو أسلوبُ العدوِّ: يُخفي، تحت ستارٍ مُموّهٍ، الخبثَ الّذي من طبيعته. هو يُقدّمُ حبّةَ حنطةٍ، ويخفي فيها زؤانَ فخّه.

هذا ما قصدَهُ الرّبُّ بقولِه: «يأتونكم بثيابِ حملانٍ، وهم من داخلٍ ذئابٌ خاطفة»[٢٨٦]. إذًا، فلنكن حكماءَ كالحيّاتِ، وودعاءَ كالحمامِ[٢٨٧]، ولنواجهْ

---

٢٨٢. مت ٢٤، ٤٢. ٢٥، ١٣. مر ١٣، ٣٥ - ٣٧. ١ تس ٥، ٦.
٢٨٣. جا ١٠، ٤.
٢٨٤. حكمة سليمان ٦، ٦.
٢٨٥. أي ٤٠، ١٦.
٢٨٦. مت ٧، ١٥.
٢٨٧. مت ١٠، ١٦.

فخاخَ الشّيطانِ بكلِّ ملكاتِ ذهنِنا، بحيثُ لا تَخفى علينا حِيَلُه، لأنّ الشّبيهَ يُعرَفُ بالشّبيهِ، ونَظهَرُ، بشكلٍ كاملٍ، مثلَ الحمائمِ بأعمالِنا النّقيّة.

علينا أن نسهرَ دائمًا مُنتبهينَ إلى حِيلِ العدوِّ الخبيثةِ، ومُحترسينَ من هجماتِهِ المختلفة. لأنّه، كما قُلنا، يُحارِبُ ويُهاجِمُ بالأشياءِ الخارجيّةِ وبالأفكارِ الدّاخليّةِ، وخصوصًا بهذه الأخيرة.

فيلزَمُنا إذًا نسكٌ مُجِدٌّ، وصلاةٌ مستمرّةٌ لخوضِ هذا القتال. فلنجابِهْ أيَّ فكرٍ يُعرَضُ علينا بفكرٍ مضادّ. يجبُ أن نستعملَ بعضَ الاعتباراتِ المعيّنةِ ضدَّ هذا الوباء[٢٨٨]. إن أتَتْ مثلاً إلى فكرِنا صورةٌ لوجهٍ جميلٍ، فليقاصِصْ ذهنُنا بعقلانيّتِهِ ذاك الصّنمَ الّذي بدا أمامَه؛ فليُخْرِجْ له عينَيْهُ، ويُخَدِّشْ وجنتَيْه، ويَقطَعْ شفتَيْه، ثمّ ليتأمّلْ مجموعةَ العظامِ المجرّدةِ ليفهمَ موضوعَ شهوتِه. هكذا، يمتلئُ الذّهنُ بالاشمئزازِ من هذا الوجهِ، ويقدِرُ على مقاومةِ هذه الغوايةِ الباطلةِ، مُعتبرًا أنّ موضوعَ رغبتِهِ هو مجرّدُ مزيجٍ من الدّمِ الّذي ينتنُ، والأعضاءِ الّتي تصيرُ طعامًا للدّودِ، كما يحدثُ لأجسادِ المائتين. وسيتخلّصُ حينَها من هوى اللّذّة. فلنتصوَّرْهُ إذًا جثّةً هامدة.

كذلك، حذارِ الشّراهةَ لئلاّ تسودَ علينا، فامتلاءُ المعدةِ يُولِّدُ الشّهواتِ والملذّاتِ الرّديئة.

- عن القدّيسِ أفرام -

أيّها الإخوة، قدَّمَ القدماءُ ذبائحَ، وكِباشًا، وحملانًا كأضاحٍ للرّبّ. أمّا نحن، فقدَّمْنا له جسدَنا نفسَهُ بنعمةِ الرّوحِ القدس. فلا نلطِّخنَّه بوصمةِ عارٍ، ولا نلوّثنّه بارتكابِ المحظوراتِ، لئلاّ يُحكَمَ علينا بالموتِ كمُدنّسينَ للقدسات. بل بالأحرى، فلنحفظْه في قداستِهِ وطهارتِه. لحفظِ القداسةِ[٢٨٩]، لا يحتاجُ النّاسُ اليقظونَ والحُكماءُ إلى شيءٍ آخرَ، سوى إلى ذكرِ اللهِ الّذي تُنيرُ إشعاعاتُه القلبَ. ولكن، للتّوصّلِ إلى تحقيقِ هذه الفضيلةِ السّاميةِ، يحتاجُ

٢٨٨. يعني فكر الزّنى.

٢٨٩. كما يبدو من سياق النّصّ، هذه الكلمة هنا تعني النّقاوة من التّلوّثات الجسديّة. أنظر ٢ كور ٧: ١ «فلننقِّ ذواتِنا من كلّ دنس جسد وروح، مكمّلينَ القداسة بخوف الله».

المؤمنونَ الّذينَ لا يزالونَ بعدُ ضعفاءَ، وبعيدينَ عن هذا الذّكرِ، إلى بعضِ الأمثلة.

فلنأخُذْ مثالَ المواطنينَ الّذينَ برهنوا أنّهم جنودٌ شجعانٌ في الحروب. تُرسَمُ أشكالُهم على الجدرانِ واللّوحات. تُصَوَّرُ مآثرُهم الحربيّةُ بالتّفاصيلِ: يَظهَرُ أعداؤُهم هاربينَ، وهم يُلاحقونَهم، ويُلقونَ السّهامَ، ويُجرِّحونَهم، ويَحصدونَهم كسنابلِ الحنطةِ، ويَسقُطُ أعداؤُهم بطريقةٍ يُرثى لها، ويَلفظونَ أنفاسَهم بخزي. هكذا أيضًا، يُصَوِّرُ كثيرٌ من الفنّانينَ مآثرَ القدّيسينَ في الكنائسِ، ليوقِظوا حماسةَ المؤمنينَ الكسالى، عبرَ تذكيرِهم بمَن جاهدوا وانتصروا على أعدائِهم.

فبما أنّ تفاصيلَ حياتِنا مُزمِعةٌ أن تُرسَمُ، وسيعرِفُها في يومِ الدّينونةِ جميعُ من في السّماءِ، وعلى الأرضِ، وفي الجحيمِ، معرفةً دقيقةً جدًّا، فلنجاهِدْ لاكتسابِ الفضيلةِ، بحيثُ لا يَحوي هذا الرّسمُ أيَّ شيءٍ دنسٍ، أو مُستحقٍّ للدّينونة. ولأنّه، كما يُقالُ، «ليس مكتومٌ إلاّ سيُعلَنُ، ولا خفيٌّ إلاّ سيُعرف»[٢٩٠].

بالحقيقةِ، مربكٌ جدًّا أن يرى رجلٌ نفسَه مصوَّرًا وهو يَرتكِبُ الإثمَ مع امرأةٍ، لا سيّما إذا كانَ يلبَسُ الإسكيمَ الرّهبانيّ. فكم بالأحرى سيعْظُمُ ارتباكُه، إن أَظْهَرَه الرّسمُ في حميميّةٍ مع رجلٍ آخر. - كما يقولُ الرّسولُ: «فاعلينَ الفحشاءَ ذكورًا بذكور»[٢٩١] – من سيستطيعُ النّظرَ إليه؟ سيكونُ المنظرُ مُقرِفًا وبَغيضًا. إن أرَدْنا ألاّ ترانا الخليقةُ كلُّها في هذه الحالةِ من الخزيِ والانحطاطِ، فلنحفَظْ هذا في ذهنِنا، في كلِّ مرّةٍ تُحارِبُنا الأفكارُ الدّنسةُ، وسنخجلُ بالطّبعِ، وننهضُ من غفلتِنا، ونتغلّبُ على الهوى، بمؤازرةِ النّعمة.

إذًا، بهذه الطّريقةِ، علينا أن نحرُسَ جسدَنا من الخطيئةِ، لئلاّ نظهرَ مُنافقينَ أمامَ الخالق. في الواقعِ، لقد قدَّمْنا ذواتِنا هديّةً للرّبِّ، وليس لدينا بعدُ سلطةٌ على أجسادِنا. إن صادَفْنا صعوبةً، أو حربًا روحيّةً، فلا نستطيعُ استردادَ هديّتِنا لنستعملَها كما نشاءُ نحن. عندما يُقَدِّمُ أحدُهم نذرًا إلى اللّهِ، ويُكَرِّسُ الكاهنُ عطيّتَهُ في الكنيسةِ، لا يعودُ يَحِقُّ له أن يسترجعَ ما قدّمَهُ إلى

---

٢٩٠. أنظرمت ١٠، ٢٦.

٢٩١. رو ١، ٢٧.

اللّهِ، حتّى ولو افترَضْنا أنّه غَيَّرَ رأيَه. وإن ضُبِطَ وهو يحاولُ أن يأخُذَ تقدمتَهُ خلسةً، فلا يُبَرَّرُ بحجّةِ أنّه يأخُذُ ما كانَ يخصُّهُ سابقًا، ولكنّه يُعاقَبُ كسارقٍ للمُقدّسات. بالطّريقةِ نفسِها، إنّ مَن كرَّسوا ذواتِهم إلى اللّهِ، لا يسودونَ بعدُ على أجسادِهم.

ولكن، على الرّغمِ من ذلك كلِّه، إن بقيَتِ الشّهوةُ تُضايقُنا، فلنَنْحنِ على أحدِ القبورِ، ونتفحَّصِ الأقسامَ المَستورةَ من طبيعتِنا البشريّةِ: الهياكلَ العظميّةَ، والجماجمَ المُجَرَّدَةَ من اللّحمِ، والعظامَ الأخرى. وعندما نراها، فلنُفكِّرْ في أنّنا نرى ذواتِنا، ولنتأمَّلْ بما آلَ إليه الجمالُ المخلوقُ الباهرُ، والوجهُ الورديُّ، وتناسقُ الجسد. بهذه الفكرةِ سينطفئُ سعيرُ الجسد.

ولكن، نستطيعُ أن نحارِبَ ضدَّ هذا الهوى بأفكارٍ أخرى، وننتصرَ عليه بمعونةِ اللّه. فالعدوُّ الّذي يُعَذِّبُ الأخَ باستمرارٍ بالسّعيرِ الجسديِّ يُوسوسُ له، قائلاً: «إلى متى ستحتملُ الشّقاءَ، وهجماتِ الهوى القاسية؟ إرْضِ شهوتَكَ مرّةً واحدةً لتتخلّصَ من القتال. ثمّ تتوبُ من بعدِها. فالأمرُ قليلُ الأهميّة. يدومُ قليلاً ثمّ يعبر. اللّه شفوقٌ ورحومٌ، وسيقبَلُكَ من جديدٍ عندما تتوب». فليُقصِ الأخُ العدوَّ بالجوابِ الآتي: «يا عدوَّ جنسِنا البشريِّ، ومُحارِبَ خلاصِنا! لقد دسَسْتَ في ذهني هذه الفكرةَ: إلى متى سأحتملُ الشّقاء؟ وأنا أقولُ لكِ: إلى أن يرى اللّهُ تواضُعي، وتعبي، ويغفِرَ لي خطاياي كلَّها[٢٩٢]، ويُحرِّرَني منك، يا عدويّ، كما فعلَ مع أرملةِ الإنجيل[٢٩٣]. ألا تعرفُ، أيّها الشّيطانُ، أنّه إن اعتادَ وحشٌ ما على أكلِ اللّحومِ، يَطلُبُ باطّرادٍ أن يُرضِيَ شهوتَه؟ فكيف تقترحُ عليّ فكرةَ أنّني إن أتمَمْتُ شهوتي مرّةً، فلن أنزعجَ فيما بعد؟ ومن سيؤكِّدُ لي أنّني إن لوَّثْتُ جسدي، فسأجدُ الوقتَ للتّوبةِ، ولن يقتادوني مع مُرتكبي الإثم[٢٩٤]؟ فحياتُنا على الأرضِ هي كظلٍّ[٢٩٥]. والأمرُ يبدو كأنّني آخُذُ سكّينًا، وأذبَحُ نفسي. ولكنّ السّببَ الأساسيَّ الّذي من أجلِه يجبُ ألاّ أسمَعَكَ، أنّني لا أريدُ أن أُضَيِّعَ كنزًا أبديًّا، في وقتٍ قليلٍ، لأُصبِحَ أسيرَكَ، بعدَ أن أبدِّدَ، في لحظةٍ قصيرةٍ، الخيراتِ الّتي اكتسبْتُها، عبرَ سنينَ طويلةٍ،

٢٩٢. أنظر مز ٢٤، ١٨.
٢٩٣. أنظر لو ١٨، ٢ – ٥.
٢٩٤. أنظر مز ٢٧، ٣.
٢٩٥.أنظر أي ٨، ٩.

بأتعابٍ جزيلة.

وتقولُ إنّ الأمرَ قليلُ الأهميّةِ؟ إسمَعْ إذًا، يا عدوَّ حياتِنا، أيَّ شَرَفٍ يَنتَظِرُ أولئك الّذينَ بتقواهم يَغلبونَ هذا الهوى الّذي تقولُ أنت عنه إنّه قليلُ الأهميّةِ، وأيُّ عقابٍ يَنتَظِرُ الّذينَ يَنغلبونَ منه. ألا تَمتَدحُ الأجيالُ كلُّها يوسفَ العفيفَ الّذي سادَ على هذا الهوى، وهو يُمَجَّدُ في السّماءِ وعلى الأرضِ، فيما يُسخَرُ من سلوكِ المِصريّةِ في العالمِ بأسرِهِ، ويَصِفونَها بالعار؟[٢٩٦] كذلك، ألا يمتَدحُ الجميعُ سوسنّةَ المَغبوطةَ حتّى اليومِ، وفي كلِّ الدّهورِ، بما أنّها رفضَتِ الخضوعَ لهذا النّوعِ من الشّهوةِ، ووصلَتْ إلى حدِّ احتقارِ الموتِ من أجلِ الحفاظِ على عفّتِها؟[٢٩٧] بينما الكهنةُ والكتبةُ الّذينَ كانوا يُعتَبَرونَ حاكمي الشّعبِ، رُجِموا بالحجارةِ حتّى الموتِ[٢٩٨]، بسببِ انغلابِهم لهذا الهوى، وتَركوا للأجيالِ اللاّحقةِ صيتًا رديئًا عنهم؟

فارحَلْ بعيدًا عنّي، يا صانعَ الإثمِ، وعدوَّ النّفوس. يستطيعُ الرّبُّ الإلهُ الّذي أعطى البشرَ روحَهُ القدّوسَ[٢٩٩]، أن يُجازيَكَ ويُبطِلَ حِيَلَكَ وكمائِنَكَ. لأنّك تكمُنُ مثلَ أسدٍ لتلتهِمَ نفسي. في الواقعِ، ما تُظهِرُهُ عذبًا يكونُ بالحقيقةِ مُرًّا، وطريقُكَ المَيسورَةُ حُفرَةٌ تَقودُ إلى الهلاكِ، وهداياك مليئةٌ بالدّمارِ والموت.

تَقتَرِحُ عليَّ أن أُنكِرَ النّعمةَ الكبيرةَ الّتي أخذتُها من ربّي، وأن أُحْزِنَ الرّوحَ القدسَ الّذي خُتِمْتُ به في يومِ الفداءِ[٣٠٠]، وأن أجعلَ أعضاءَ المسيحِ أعضاءَ زانية[٣٠١]؟ تَقتَرِحُ عليّ أن أفقدَ القداسةَ الّتي من دونِها لا أحدَ يرى الرّبَّ[٣٠٢]، لأُحرَمَ الفرحَ اللاّمتناهيَ والمجدَ الإلهيَّ، وأَرِثَ معكَ النّارَ الّتي لا تُطفَأُ، والدّودَ الّذي لا ينامُ، والعقاباتِ الأبديّةَ الأخرى الّتي جهّزَها اللّهُ لكَ ولملائكتِك[٣٠٣]؟ هل هذا ما تَقْتَرِحُ عليَّ أن أفعلَ بطريقةٍ وجيزةٍ، لأغرَقَ في الألمِ فيما بعد؟ وتقولُ لي إنّ المسألةَ تافهة؟

أعلَمُ أنّني إن استمعْتُ إليكَ، فستذهَبُ لتزفَّ الخبرَ السّعيدَ عن هلاكي إلى أبيكِ الشّيطانِ، وتبتهجانِ بسقوطي، فيما أنا سأخجلُ جدًّا أمامَ أبي

---

٢٩٦. تك ٣٩، ٧ – ١٢.

٢٩٧. دا. سوسنة ٢٣.

٢٩٨. دا. سوسنة ٦٢.

٢٩٩. أنظر ١ تس ٤، ٨.

٣٠٠. أف ٤، ٣٠.

٣٠١. ١ كور ٦، ١٥.

٣٠٢. عب ١٢، ١٤.

٣٠٣. مت ٢٥، ٤١.

السّماويّ. ولكنّك لن تُقنِعَني، أيّها الشّيطانُ، فإنّني أُفَضِّلُ أن تُزعِجَني أنتَ مثلَ كلبٍ، وألّا أُعطيَكَ سببًا لتضحَكَ على حسابي. الرّبُّ سندي الثّابتُ وملجأي ومُخلّصي[٣٠٤]. الرّبُّ حامي حياتي[٣٠٥]، وعليهِ أضَعُ رجائي، وهو سيُخَلِّصُني من فخاخِك[٣٠٦].

علاوةً على هذه الاعتباراتِ، يا عزيزي، إحفَظْ خوفَ جهنّمَ، وتذكَّرْ قسوةَ العذاباتِ، بحيثُ تذبُلُ نارُ شهوتِكَ بخوفِ النّارِ الأبديّة. إن أردْتَ، فسأضَعُ أمامَ عينَيْكَ صورةً تقريبيّةً عن عقابِ جُهنّمَ، بحيثُ تفهَمُ قليلاً ذلك الألَمَ، الّذي لا نهايةَ له، والّذي يتخطّى حدودَ الاحتمال. ألم تَدْخُلْ أبدًا إلى حمّاماتٍ تُشاهِدُ فيها أناسًا يَخرجونَ منها بعجلة، بسببِ شدّةِ الحرارةِ، ليُلقوا بأنفسِهم في الماءِ الباردِ المُنعش؟ ولكن، في ذلك الأتّونِ المُزمعِ أن يُغلَقَ فيه على الخطأةِ، لا يوجدُ خزّانُ ماءٍ باردٍ، ولا بابٌ، ولا مَخرجٌ، ولا نورٌ، ولا نسمةُ هواء. ولا يوجدُ أحدٌ ليُعينَ، أو يُعزّيَ مَن يَصيحُ بقوّةٍ فيما يَحترِقُ، لأنّه مكتوبٌ: «الدّينونةُ بلا رحمةٍ لِمَن لم يفعَلْ رحمةً»[٣٠٧].

ألم ترَ أيَّ خوفٍ تُسَبِّبُهُ النّارُ المُشتعلةُ تحتَ الحمّاماتِ لمجرّدِ الاقترابِ منها؟ ولكن، في جهنّمَ، ليست الأخشابُ هي الّتي تُشعِلُ النّارَ الإلهيّةَ الّتي يَحترِقُ بها الأشرارُ، بل المعاصي والخطايا، الّتي تزيدُ من حدّةِ النّارِ، وتجعَلُ العقابَ لا يُحتمَل. لأنّه مكتوبٌ: «سخطٌ وغضبٌ، شدّةٌ وضيقٌ على كلِّ نفسِ إنسانٍ يَفعَلُ الشّرّ»[٣٠٨].

فتأمَّلْ، يا أخي، هذه الاعتباراتِ، وستنحَلُّ رغبةُ اللّذّةِ من ذهنِكَ، كما يَنحَلُّ الشّمعُ من أمامِ النّار[٣٠٩]. واحرُسْ عينَيْكَ من الجَولانِ هنا وهناك، لئلاّ تُعاينا الباطلَ[٣١٠]، لأنّ النّظرةَ الجسورةَ خائنٌ رهيب. في الواقعِ، عندما تَهجُمُ التّجربةُ عبرَ الحواسِّ الأخرى، ما خلا حاسّةِ النّظرِ، يكونُ القتالُ مُباشرًا. وإن اختفى الإحساسُ الّذي يُسَبِّبُها، أو حَدَثَ شيءٌ آخرُ غيرُ ملائمٍ للأولى، تبتعِدِ التّجربةُ وتَختفِ مع القتالِ الّذي ولّدَها. أمّا عندما تعمَلُ التّجربةُ

---

٣٠٤. أنظر مز ١٧، ٣. ٨٨، ٢٧. ٣٠٥. مز ٢٦، ١. ٣٠٦. مز ١٧، ٣ – ٤. مز ٢٦، ١.
٣٠٧. يع ٢، ١٣. ٣٠٨. رو ٢، ٨ – ٩. ٣٠٩. مز ٦٧، ٢.
٣١٠. أنظر مز ١١٨، ٣٧.

من خلال حاسّةِ النّظرِ، فيدومُ القتالُ بشكلٍ رهيبٍ، بحضورِ السّببِ، أو عندَ زوالِه. أو بالأحرى، نلاحظُ أنّ النّفسَ تتعذّبُ في غيابِ السّببِ أكثرَ ممّا تتعذّبُ في حضورِه، لأنّ هذا الغيابَ يَزيدُ الشّهوةَ حدّةً.

إليكَ ما أريدُ قولَه: إن سَمِعَ أحدُهم موسيقى عذبةً وابتعَدَ، ثمّ سَمِعَ غناءَ نحيبٍ وألمٍ، يَختفِ لحنُ الموسيقى المُسِرُّ بتأثيرِ اللّحنِ الكئيب. كذلك، إن ذاقَ العسلَ، ثمّ تناولَ طعامًا مُرًّا، تَزُلْ حلاوةُ العسلِ بالمرارةِ الّتي تَبِعَتْه. يحصلُ الأمرُ ذاتُه تقريبًا مع الشّمّ. إن شمَّ أحدُهم عطرًا فوّاحًا، ثمّ رائحةً كريهةً، يطردْ قرفُ الرّائحةِ الكريهةِ الإحساسَ المُسِرَّ الّذي مَنَحَهُ العطر. يحصُلُ الأمرُ ذاتُهُ مع اللّمس. إن بلّلَ أحدُهم أصابعَهُ بالماءِ البارِدِ، ثمّ بالماءِ الحارِّ جدًّا، تُفقِدِ الحرارةُ الانتعاشَ السّابق.

بالمقابلِ، الحربُ الّتي تُسَبِّبُها جسارةُ النّظرِ، تجعَلُ الذّهنَ يَشتَعِلُ بالشّهوةِ، حتّى بعدَ غيابِ السّبب. وليس هذا فقط، بل خلالَ هذا القتالِ، تُعْرَضُ صورٌ للقلبِ من خلالِ أحلامٍ دنسةٍ، لأنّ الشّياطينَ، بعدما اندّسَتْ الصّورُ في الفكرِ عبرَ العيونِ، يَرسُمونَ التّجربةَ في العقلِ. وبعد أن يُشغِلوا الذّهنَ بها، يَحمِلُونَه على إرضاءِ اللّذّةِ المحظورة.

لهذا يقولُ الكتابُ المُقدّسُ: «دوارُ الشّهوةِ يُطَيِّشُ العقلَ السّليم»[٣١١]. في الواقعِ، بغلبةِ العينَيْنِ تبدَأُ الخطيئةُ، الّتي بها طبعًا سيتوغّلُ الذّهنُ كلّيًّا ما لم يتدارَكِ الأمرَ سريعًا، كما يؤكّدُ الرّبُّ: «كلُّ مَن نَظَرَ إلى امرأةٍ ليَشتهيَها، فقد زنى بها في قلبِه»[٣١٢]. يُستأصَلُ هذا الزّنى إن كانَ النّظرُ متّجهًا إلى الأرضِ دائمًا، والنّفسُ مُوَجَّهَةً نحوَ السّماء. في النّهايةِ، يُساعِدُنا الإمساكُ، لأنّه يُقالُ إنّ مَن يَسودُ على بطنِه، يَسودُ أيضًا على نَظَرِه. تَجَنَّبِ الأقوالَ الدّنِسةَ، وهكذا ستنجو من الأفكارِ الدّنسة.

- عن الأبِ أشعيا -

إن وُجِدتَ في مدينةٍ أو في قريةٍ، فلتَنْظُرْ عيناك إلى الأرضِ، لئلاّ تُثيرَ

---

٣١١. حكمة سليمان ٤، ١٢.

٣١٢. مت ٥، ٢٨.

في نفسِكَ نزاعًا داخليًّا عند رجوعِكَ إلى قلاّيتِك. إن توقّفْتَ لشُرْبِ الماءِ، أو لحاجةٍ مُلحّةٍ، فلا تُظهِرْ تهاملاً، وتذكّرْ أنّ اللّهَ يراك. عندما تذهَبُ لتنامَ، إبقِ زنّارَكَ مربوطًا. تَدَرَّبْ على ألاّ تَضَعَ يدَيْكَ داخلَ ثيابِك، لأنّ في جسدِكَ أهواءً كثيرةً يَستخدِمُها القلب. طالما أنتَ شابٌّ، لا تَقْبَلْ بتاتًا أن تنامَ مع آخرَ، على البساطِ نفسِه، سوى مع أخيكَ، أو شيخِكَ، وهذا أيضًا بخوفٍ، ومن دونِ تهامل.

لا تَدَعْ عينَيْكَ من دونِ احتراسٍ حين ارتداءِ ملابسِكَ، وأنت لا زلتَ شابًّا. لا ترتدِ ملابسَ جميلةً، وانتظِرْ حتّى تبلغَ سنَّ النّضوج. هذا سبيلُ شفائِك. لا تَسكُنْ في مكانٍ خَطئتَ فيه إلى اللّه. احترِسْ لئلاّ تُصبِحَ أسيرَ خطايا فعلْتَها، فتتجدَّدَ في داخلِك. أحرُسْ عينَيْكَ، فيستحيلَ على قلبِكَ أن يُواجِهَ أفعالاً رديئة. مَن يَنظُرْ إلى شخصٍ آخرَ بلذّةٍ، يَرتكِبِ الزّنى[٣١٣]. إن جَذَبَ جمالُ أحدِ الأجسامِ قلبَكَ، فتذكّرْ رائحتَهُ الكريهةَ الّتي يُصدِرُها، وستجدُ راحة. إن كنتَ تَشتهي لذّةَ النّساءِ كثيرًا، فتذكّرِ المكانَ حيثُ ذهبَ الأمواتُ الّذينَ سبَقونا ولن تعودَ تَتأثّر.

انتبِهْ جيّدًا إلى ذاتِكَ كي تُمسِكَ كذلك عن شهوةِ العيونِ والسّمعِ واللّسانِ واللّمسِ كما تُمسِكُ عن الزّنى، بحيثُ تكونُ عيناك دائمًا موجّهةً إلى ذاتِك، وإلى عملِكَ اليدويِّ، من دونِ أن تنظُرَ إلى إنسانٍ عن قُربٍ، إلاّ لسببٍ وَجيه. لا تُعِرِ انتباهَكَ إلى جمالِ وجهٍ، سواءَ كانَ وجهَ امرأةٍ أو وجهَ رجل. لا تسمَحْ لأذنَيْكَ أن تسمعا أحاديثَ غيرَ مُفيدة. ليصمُتْ فمُكَ، ولا يتكلَّمْ مُطلقًا، من دونِ ضرورة.

- عن الأبِ كاسيانوس -

كلُّ الأهواءِ، بخلافِ هوى الزّنى، تُحارِبُ في حَلَبَةِ النّفسِ وحدَها. أمّا حربُ الزّنى، فتَنْشُبُ في النّفسِ والجسدِ معًا، أي تَحصُلُ على جَبهتَيْن. لهذا، يجبُ أن نلتزِمَ ضدّهُ جهادًا مُضاعَفًا. في الواقعِ، لاكتسابِ العفّةِ الكاملةِ،

٣١٣. أنظر مت ٥، ٢٨.

والنّقاوةِ الحقيقيّةِ، لا يكفي الصّومُ الجسديُّ، إن لم يتبَعْهُ تَخشُّعُ القلبِ، والصّلاةُ الحارّةُ إلى اللّهِ، والتّأمّلُ المُتواتِرُ في الكتابِ المُقدّسِ، والتّعبُ، والعملُ اليدويُّ المُنظّم. هذه الأمورُ يُمكِنُها حصرَ وَثْباتِ النّفسِ المضطربةِ، وتَحريرَها من الخيالاتِ الدّنسة. مع ذلك، وقبلَ كلِّ شيءٍ، يجب اكتسابُ تواضُعِ النّفسِ الّذي، من دونِه، لا يستطيعُ أحدٌ أن يتغلّبَ على هوى الزّنى، ولا أيٍّ من الأهواءِ الأخرى.

إذًا، يلزَمُ أوّلاً حفظُ القلبِ من الأفكارِ الدّنسةِ بانتباهٍ كبيرٍ، لأنّه، بحسبِ قولِ الرّبِّ، «من القلبِ تَخرُجُ أفكارٌ شرّيرةٌ: قتلٌ، زنًى، فسقٌ ...»[٣١٤]. في الواقعِ، لم يحدَّدْ لنا الصّومُ من أجلِ مُعاناةِ الجسدِ فحسبُ، بل أيضًا من أجلِ يقظةِ الذّهن، لئلاّ يتلوّثَ بكثرةِ المآكلِ، ويُصبِحَ عاجزًا عن تمييزِ الأفكار.

بالتّالي، يجبُ أن نوليَ عنايةً كبيرةً، لا للصّيامِ الجسديِّ فحسبُ، بل للانتباهِ إلى أفكارِنا وللتّأمّلِ الرّوحيِّ اللّذَيْن، من دونِهما، لا يُمكِنُنا أن نصعدَ إلى ذروةِ النّقاوةِ الحقيقيّة.

فلنُسارِعْ إذًا إلى اتّباعِ أمرِ الرّبِّ، «بتنقيةِ داخلِ الكأسِ والصّحنِ، كي يكونَ خارجُهما أيضًا نقيًّا»[٣١٥]. لأنّ طبيبَ النّفوسِ عرفَ أنّ المرضَ يَكمُنُ في خبايا النّفسِ، فوَضَعَ الدّواءَ حيثُ عَرَفَ بوجودِ مسبِّبِه، قائلاً: «كلُّ مَن نَظَرَ إلى امرأةٍ ليشتهيَها، فقد زنى بها في قلبِه»[٣١٦]. قالَ هذا، لا لإصلاحِ النّظَراتِ الفضوليّةِ والشّبِقَةِ فحسبُ، بل بالأكثرِ لإصلاحِ سريرةِ النّفسِ، الّتي أساءَتِ استعمالَ الأعيُنِ، وقد مَنَحَ اللّهُ هذه لهدفٍ صالح. لهذا السّببِ، لا يقولُ المثلُ الحكيمُ: «أحرُسْ عينَيْكَ بكلِّ انتباه»، بل: «أحرُسْ قلبَكَ بكلِّ انتباه»[٣١٧]. فإن كانَ القلبُ يقظًا، يستعمَلِ العينَيْنِ كما يشاء.

بالتّالي، فلنحفَظِ النّقاوةَ المُكتَسَبَةَ في المعموديّةِ، بحيثُ إن ذكّرَنا الشّيطانُ الخبيثُ بامرأةٍ – حتّى ولو كانَتْ والدتَنا، أو أختَنا، أو أيّةَ امرأةٍ تقيّةٍ أخرى- نَطرُدْ من قلبِنا سريعًا هذه الذّكرى، لأنّنا إن تباطَأْنا فيها، يَجِدْ خدّاعُ النّفوسِ وسيلةً ليُقلقَنا، وليجعلَ ذهنَنا يخضَعُ لأفكارٍ دنسةٍ ومؤذية.

---

٣١٤. مت ١٥، ١٩.
٣١٥. مت ٢٣، ٢٦.
٣١٦. مت ٥، ٢٨.
٣١٧. أم ٤، ٢٣.

كلّ هذا يتلاءَمُ مع الوصيّةِ الّتي أعطاها اللّهُ إلى الجدِّ الأوّلِ، والّتي تنصُّ على «سحقِ رأسِ الحيّةِ»[318]، ويعني بذلك أولى هجماتِ الأفكارِ المؤذيةِ الّتي يُحاوِلُ الشّيطانُ، من خلالِها، أن يندسَّ في نفوسِنا. لأنّنا إن قَبِلْنا الرّأسَ الّذي هو هَجمَةُ الفكرِ، نقبَلْ باقي جسمِ الحيّةِ، أي الموافقةَ على اللّذّةِ، ومن هنا، يَقَعُ ذهنُنا في الفعلِ الأثيم. يجبُ إذًا، بحسبِ قولِ الكتابِ، «أن نستأصِلَ بالغداةِ جميعَ خطأةِ الأرض»[319]، أن نُميِّزَ بنورِ المعرفةِ ما يَحُثُّنا على الخطيئةِ، وأن نستأصِلَها من الأرضِ، من قلبِنا، بحسبِ تعليمِ الرّبِّ[320]، فيما لا تزالُ هذه الإيحاءاتُ الّتي يدعوها الكتابُ المُقدّسُ «أولادَ بابل»[321] غيرَ ناضجةٍ. لأنّه إن نضجَتْ هذه الأفكارُ الشّرّيرةُ بقبولِنا لها، فلن تُغلَبَ حينئذٍ من دونِ تنهُّدٍ عميقٍ ومَشقّةٍ. علينا أن نعرفَ أيضًا أنّ جهادَ السّهرِ يُساعِدُ كثيرًا في هذه الحرب. فكما تُهَيِّئُ النّقاوةُ واليقظةُ في النّهارِ للقداسَةِ في اللّيلِ، هكذا السّهَرُ اللّيليُّ في الإلفةِ مع اللّهِ، يَفتَحُ الطّريقَ لنقاوةِ النّفسِ أثناءَ النّهار.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- سأل أخٌ مُعذّبٌ بأفكارِ زنى الأبَ كيرلُّس الإسكندريَّ: «ماذا يجبُ أن أفعلَ، يا أبتِ؟» أجابَ الشّيخُ: «إن لم يَكُنْ لديكَ أفكارٌ، فهذا يعني أنّ لديكَ الأفعال. أريدُ القولَ إنّه إن كانَتِ الأفكارُ لا تُحارِبُكَ، فمن الواضحِ أنّك تَضَعُها قيدَ التّطبيقِ، ولذا، لا تنزَعِجْ منها بتاتًا. في الواقعِ، كيف يُمكِنُ أن تُعذِّبَ الأفكارُ مَن يُمارِسُ ما تَقتَرِحُه؟» ثمّ سألَ الشّيخُ الأخَ: «ألديكَ عادةُ التّحدُّثِ إلى النّساءِ؟» أجابَ الأخُ: «لا، أفكاري هي صورٌ قديمةٌ وجديدةٌ. إنّها ذكرياتٌ تُزعِجُني، وتصوّراتٌ فكريّةٌ». حينئذٍ، قالَ له الشّيخُ: «لا تَخَفْ من الأمواتِ، إنّما تجنَّبِ الأحياءَ، وثابِرْ أكثرَ على الصّلاة». عنى بقولِهِ إنّ الأمواتَ هي الذّكرياتُ القديمةُ، والأحياءَ هي الأحاديثُ وجهًا لوجه.

---

٣١٨. تك ٣، ١٥.   ٣١٩. مز ١٠٠، ٨.

٣٢٠. ربّما يعني مثل الزّارع (مت ١٣، ١٨ – ٢٣)، حيثُ فعلاً يشبه قلبنا الأرض الّتي تبذر.

٣٢١. أنظر مز ١٣٦، ٨ – ٩.

٢- سألَ الأبُ أنوبُ الأبَ بيمنَ عن الأفكارِ الدّنسةِ الّتي يَلِدُها قلبُ الإنسانِ، فأجابَهُ ذاك: «وهل تَفتَخِرُ الفأسُ من دونِ ذاك الّذي يَستخدِمُها ليقطعَ بها؟[٣٢٢]. وأنت أيضًا، لا تُعْطِها مجالاً، فتبقَى عقيمة».

٣- قال الأبُ نفسُه: «يجبُ على الإنسانِ أن يُجاهدَ ضدَّ فكرَيْن، فكرِ الزّنى وفكرِ الثّرثرة. يجبُ ألاّ يُثَرثِرَ بتاتًا، ولا يكونَ له أفكارٌ دنسةٌ في قلبِه. في الواقعِ، إن قرّرَ فحصَ هذه الأفكارِ بدقّةٍ، لا يجنِ أيّةَ فائدةٍ، بل بالأحرى يَتضرّر. أمّا إن ابتعدَ عنها، فسيجدُ الرّاحة. يبتعِدُ المرءُ عن الأفكارِ عندما يَطرُدُها ويَلجَأُ إلى اللّه».

٤- سأل أخٌ أحدَ الآباءِ: «ماذا أفعلُ، ففكري يميلُ دائمًا إلى الزّنى، ولا يسمَحُ لي بهدنةٍ، ولا ليومٍ واحدٍ، ونفسي تَحزَنُ بسببِ ذلك؟» أجابَهُ الشّيخُ: «عندما يَبذُرُ الشّياطينُ الأفكارَ، لا تتحاوَرْ معها. فعَمَلُ الأعداءِ يَكمُنُ في أن يُوَسْوِسوا الأفكارَ دائمًا، وهم لا يَعدَمونَ وسيلة. ولكنّهم لا يَستطيعونَ إجبارَك. يتعلَّقُ الأمرُ بكَ أن تقبَلَ، أو لا تقبَل. ألا تعرفُ ماذا فعلَ الميديانيّونَ؟ كيف زَيّنوا بناتِهم، وأقاموهنّ أمامَ الإسرائيليّين؟ لم يُجبِروا أحدًا، ولكن خَطِئَ معهنّ كلُّ مَن شاء. وآخرونَ غَضِبوا، وهَدّدوهنّ، وقَتَلوهنّ.[٣٢٣] هكذا يحصُلُ مع الأفكار. في كلِّ مرّةٍ تبدأُ الأفكارُ تُحَدِّثُكَ، لا تُجِبْها، بل انهَضْ وصَلِّ، واسجُدْ قائلاً: «يا ابنَ اللّهِ، ارحَمْني، وساعِدْني أنا الضّعيف». وسترى أنّه سُرعانَ ما تَنحَلُّ الأفكارُ كالشّمعِ أمامَ النّارِ، وتتلاشى».

٥- قالَ أحدُ الآباءِ: «يَتّخِذُ هوى الزّنى أشكالاً متنوّعة. يقولُ الرّسولُ: وأمّا الزّنى، وكلُّ نجاسةٍ، أو طمعٍ، فلا يُسَمَّ بينكم، كما يليقُ بالقدّيسين[٣٢٤]. الزّنى هو في اقترافِ الخطيئةِ في الجسد. النّجاسةُ هي في مُلاطفةِ الجسد. إنّ مَن هو ضحيّةُ هذا الهوى يَضحَكُ ويَتَصرّفُ بدالّة. وغالبًا ما يَحصُلُ، أنّه بحجّةِ

---

٣٢٢. أش ١٠، ١٥. ٣٢٣. عد ٢٥، ١ – ٩. ٣٢٤. أف ٥، ٣.

مُناقشاتٍ تُقَوِيّةٍ، وإصلاحِ الآخرِ، يُرضي شهوتَهُ أحيانًا برائحةِ لباسِ المَحبوبِ، من دونِ لمسِهِ أو إقامةِ علاقةٍ حميمةٍ معه. على الرّاهبِ أن يكونَ يَقِظًا في كلِّ وقتٍ، لئلاّ يَنزلِقَ، في رخاوَتِه، إلى ما قُلْناه، فيزيدَ من هواه، ويجعَلَه مُلِحًّا، وصعبَ المقاومةِ، ويَجني منه، علاوةً على ذلك، أضرارًا جسيمةً، ويتكبَّدَ عقوباتٍ صارمة.

٦- قالَ أحدُ الآباءِ بشأنِ أفكارِ الزّنى الّتي تُولَدُ في القلبِ، ولا تنتهي إلى الفعلِ الجسديِّ: «لنتخيَّلْ أنّ إنسانًا شاهدَ كرمًا، ورغبَ من كلِّ قلبِهِ في أَكْلِ عنقودِ عنبٍ منه. مع ذلك، لم يدخُلْ خوفًا من أن يُباغِتوه، ويَقتُلوه بسببِ السّرقةِ، واكتفى بأن يدورَ حولَ السّورِ مُراقبًا الكرمَ من جميعِ جوانبِه. إن باغتوه وهو يفعلُ ذلك، لا يَقتلوه لأنّه لم يَجتَزِ السّورَ، ولا ذاقَ العنبَ. مع ذلك، يَضربونَهُ لأنّهم وَجَدوه يُراقِبُ بشهوة. يحدثُ الأمرُ ذاتُهُ لمَن يَرغَبُ في الخطيئةِ من دونِ مُمارستِها: لا يستحقُّ الموتَ، ولكنّه سيتلقّى الضّربات.

٧- سألَ أحدُ الإخوةِ شيخًا نصيحةً، قائلاً: «إنّ الزّنى يُحارِبُني». قالَ له الشّيخُ: «إنِ كانَ شيئًا حسنًا، فلِمَ تهرُبُ منه (وهذا يعني: لماذا أنكرتَ العالم)؟ وإن كانَ شيئًا فاسدًا، فلِمَ تطلُبُه؟»

٨- أخٌ مسافرٌ مع أحدِهم، غَلَبَتْهُ أفكارُ الزّنى. فذهبَ ليعترفَ للآباءِ، قائلاً: «ليست في قلبي تعزيةٌ لأنّني خَضَعتُ لهجمةِ العدوِّ الأولى. ويبدو لي الأمرُ كأنّني ارتكبْتُ الخطيئةَ بالفعلِ، فماذا يجبُ أن أفعل؟» قالَ له الآباءُ: «لم تُقترَفِ الخطيئة. أتى العدوُّ ليُجرِّبَكَ، ولكنّ اللّهَ وقاك».

لكنّ هذه الأقوالَ لم تُقنعِ الأخَ بسببِ الحزنِ المُسيطرِ عليه. فروى له الآباءُ القصّةَ التّالية: «أُرسِلَ أخوانِ من ديرِهما إلى إحدى القرى، وكانا سائرَيْنِ معًا. على خمسِ دفعاتٍ، حثَّ الشّيطانُ الأكبرَ سنًّا على الخطيئةِ، ولكنّه ما لَبِثَ يَنهَضُ ويُصَلِّي، ولم يَدَعِ الأفكارَ تُسَيطِرُ عليه، مع أنّه اضطربَ كثيرًا. عندما عادا إلى شيخِهما، بدا الاضطرابُ على ذاك الأخ. عندما سُئِلَ عن سببِ

هذا الاضطرابِ، عَمِلَ مطّانيّةً قائلاً: «صلِّ من أجلي، يا أبتِ، لأنّني سقطتُ في الزّنى»، وأخبرَهُ عن هجومِ الأفكارِ عليه. وبما أنّ الشّيخَ كانَ رائيًا، رأى خمسةَ أكاليلَ على رأسِ تلميذِه، وقالَ له: «تشجّعْ، يا بُنيَّ، أنتَ لم تَنهَزِم. ولكنّكَ، على العكسِ، انتصرتَ بما أنّك لم ترتكِبِ الخطيئة».

تابعَ الآباءُ: «وأنتَ، يا أخي، تشجَّعْ ولا تستسلِمْ للحزنِ، لأنّك لم تُتِمَّ الخطيئةَ بالفعل. إنّه جهادٌ مُستَبْسِلٌ حينما يُمسِكُ الإنسانُ نفسَهُ في وقتِ التّجربةِ، ولكنّ المكافأةَ جزيلةٌ لأنّه لا يوجدُ حربٌ أشرسُ وأعنفُ من هذه الحرب. لهذا لا نصِلُ إلى الغلبةِ، من دونِ صعوبةٍ ومشقّة. ماذا تعتقدُ بشأنِ المغبوطِ يوسف؟[٣٢٥] هل نجحَ في فضيلةٍ كبيرةٍ كهذه، من دونِ تعب؟ لا، بل أتمَّ ذلك بتعبٍ كثيرٍ وجهادٍ، كأنَّ الحدثَ يحصَلُ في حلبةٍ، واللّهَ نفسَه، من العُلى، مع جموعِ الملائكةِ القدّيسينَ، يُشاهِدونَ المجاهدَ وهو يُصارِعُ.

حاربَ الشّيطانُ وكلُّ جحافِلِهِ الشّرّيرةِ يوسفَ لإشعالِ شهوتِهِ من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى لجعلِ المرأةِ أكثرَ هياجًا. عندما غَلَبَ المُجاهِدُ، مَجَّدَتْ طغماتُ الملائكةِ كلُّها اللّهَ بصوتٍ قويٍّ، قائلةً: «لقد أحرزَ المُجاهِدُ انتصارًا لا يُضاهى!» إنّه لحَسَنٌ إذًا، يا أخي، ألاّ تُخطئَ بالفكر. ولكن، إن داهمتكَ تجربةٌ، فجاهِدْ لئلاّ تُغلَبَ، أي لئلاّ ترتكبَها بالفعل».

٩- قالَ شيخٌ: «إن حاربَكَ الزّنى في جسدِك، أو قلبِك، فتفحَّصِ السّببَ الّذي أشعلَ الحربَ، وبادِرْ إلى إصلاحِه، أكانَ من التّنعُّم، أو من كثرةِ النّومِ، أو من الكبرياءِ، أو من أنّك ظَنَنْتَ نفسَكَ أفضلَ من أحدٍ، أو دِنْتَ أحدًا عندما أخطأ. في الواقعِ، خارجَ هذه الحالاتِ، لا نُحارَبُ بالزّنى».

١٠- قالَ أيضًا: «إن سقطتَ في الزّنى، وكان الشّخصُ الّذي أخطأتَ معه يَسكُنُ قريبًا من مكانِ سكنِكَ، فغادِرِ المكان. غيرَ ذلك، لن تتوب».

---

٣٢٥. تك ٣٩، ٧ – ١٢.

١١- سألَ أخٌ شيخًا عن الأهواءِ الجسديّة. فأجابَهُ الشّيخُ: «إنّها تُشبِهُ المُنشدينَ لتمثالِ نبوخذنصر[٣٢٦]. إن لم يلعَبْ عازفو المزمارِ والقيثارةِ بآلاتِهم، فلن يَسجُدَ النّاسُ للتّمثال. هذا ما يَسري على الشّياطين. إنّهم يُغنّونَ في النّفسِ عبرَ الأهواء؛ يُثيرونَ هذه الأخيرةَ كي يخدعوها ويُقنعوها بأن تسقطَ بارتكابِها الخطيئةَ بالفعل».

- عن القدّيسِ أفرام -

١- رُدَّ عنكَ بقسوةٍ شيطانَ الزّنى كأنّه كلبٌ، ولا تقبَلْ بتاتًا أن تنجذِبَ لفكرٍ كهذا. فالفحمُ يَشتَعِلُ من أقلِّ شرارةٍ[٣٢٧]، والرّغباتُ الرّديئةُ تتوالى من أقلِّ قبولٍ لفكرةٍ سيّئة. أهرُبْ من ذكراه بعزمٍ أشدَّ ممّا تهرُبُ من رائحةِ المُستنقعِ النّتنة.

٢- أخٌ محارَبٌ من الزّنى، ذمَّ الشّيطانَ، قائلاً: «إذهَبْ إلى الظّلمةِ، أيّها الشّيطان! تُرى، ألا تَعرِفُ أنّني، وإن كنتُ غيرَ مُستحِقٍّ، فأعضائي هي أعضاءُ المسيح[٣٢٨]؟» وللحالِ، توقّفَ السّعيرُ، مثلما يُطفَأُ القنديلُ بنفخِه، إلى حدِّ أنّ الأخَ نفسَه تعجّبَ من هذا، ومجّدَ الرّبّ.

٣- إن عذّبَكَ روحُ الزّنى أثناءَ عملِك، فبادِرْ إلى رفعِ يدَيْكَ للصّلاة. وإن ضاعَفَ هجومَهُ عليكَ، فَقُمْ واسْجُدْ مُصَلّيًا، وصلاةُ الإيمانِ تُحارِبُ من أجلِك.

---

٣٢٦. دا ٣، ٧.　　٣٢٧. حكمة سيراخ ١١، ٣٢.　　٣٢٨. أنظر ١ كور ٦، ١٥.





الفصل التّاسع والعشرون

تجنّبُ محادثةِ النّساءِ، وكلُّ ما يُثيرُ الشّهوة.

- عن بالاديوس -

عندما أتَيْنا لزيارةِ الرّاهبِ يوحنّا الّذي يَقطُنُ قمّةَ جبلٍ، خارجَ مدينةِ «ليكو»، أخبرَنا القصّةَ التّالية: «في الصّحراءِ القريبةِ، عاشَ راهبٌ بنسكٍ شديدٍ، وكانَ يكسَبُ قوتَهُ من عملِهِ اليدويِّ، ويتقدّمُ في الفضائلِ بمواظبتِهِ على الصّلاة. ولكنّه وَضَعَ ثقتَهُ بنفسِه، وبطريقةِ حياتِهِ الفاضلة. عند ذلك، طلبَ الشّيطانُ الإذنَ من اللّهِ ليُجرِّبَهُ، كما حصلَ مع أيّوب[٣٢٩]. ذاتَ مساءٍ، أظهرَ الشّرّيرُ لهذا الرّاهبِ طيفَ امرأةٍ جميلةٍ جدًّا، تائهةٍ في الصّحراءِ، أتَتْ إلى بابِ قلاّيتِه، ووجدَتْهُ مفتوحًا، فاندفعَتْ إلى داخلِ المغارةِ، وتوسّلتَ إليه ساجدةً على رُكبتَيْها، أن يدَعَها ترتاحُ عنده، لأنّ سقوطَ اللّيلِ داهمَها.

ولانعدامِ تمييزِه، أشفقَ الرّاهبُ عليها واستقبلَها في مغارتِه، وكانَ الأجدرُ به ألاّ يقومَ بهذا أبدًا. ثمّ سألَها كيف تاهت. فاستهلّتِ الكلامَ، تُخبِرُهُ قصّةً طويلةً مفصّلةً، وهي تبثُّه أقوالاً مُتملِّقةً لخداعِه. تبعَ ذلك ابتساماتٌ، وضحكٌ، وملاطفاتٌ على اليدِ واللّحيةِ والعنقِ، من خلالِها، جعلَتِ النّاسكَ تحتَ رحمتِها. بعدما غلبَتْهُ الأفكارُ، وكانَ موضوعُ شهوتِهِ في متناولِ يدَيْه، ظنَّ الرّاهبُ أنّ اللّحظةَ مؤاتيةٌ لإتمامِ اللّذّةِ الجسديّةِ الّتي قَبِلَها بفكرِه، وصارَ مثلَ حصانٍ شاردٍ ومولعٍ بالأنثى[٣٣٠]، وحاولَ أن يُجامِعَها.

فجأةً، أطلقَتِ المرأةُ صرخةً قويّةً، واختفَتْ من بين ذراعَيْهِ كالظّلّ. حينئذٍ، دوَّتْ في الجوِّ أصواتُ ضحكٍ عارمٍ لشياطينَ كثيرينَ وهم يتّهمونَهُ

---

٣٢٩. أي ١، ١١- ١٢.

٣٣٠. أنظر إر ٥، ٨.

بانقيادِهِ لخداعِهم، صارخينَ بصوتٍ عالٍ: كلُّ مَن يَرفَعُ ذاتَهُ يتّضع[٣٣١]. أنتَ رفعْتَ ذاتَكَ حتّى السّماءِ، أمّا الآن، فقد انحدرْتَ إلى عمقِ اللّجّة. وبعد أن أمضى ليلَتَهُ في النّحيبِ والتّنهّدِ ندمًا على ما أزمَعَ فعلَه، يَئِسَ من خلاصِه، ورجعَ إلى العالم. في الواقعِ، هذه عادةُ الشّرّيرِ: عندما يتغلّبُ على أحدِهم، يجعلُهُ أحمَقَ بحيثُ يصيرُ عاجزًا عن النّهوض. نتعلّمُ من هذه الحوادثِ، يا أبنائي، أنّ معاشرةَ النّساءِ لا تُفيدُنا، بل تؤذينا كثيرًا بجعلِنا تحتَ رحمةِ الذّكرى الّتي يتعذّرُ مَحوُها، والّتي تَطبَعُ فينا وجهَهنّ أو حديثَهنّ».

- عن القدّيسِ غريغوريوس الذّيالوغوس -

غريغوريوس: فيما أنا أُخَبِرُك عن أعمالِ الرّجالِ العُظماءِ، يا بطرسُ، تذكّرتُ فجأةً أندريا أسقفَ «فوندي» وما فعلَتْ رحمةُ اللّهِ من أجله. لهذا أحثُّ القرّاءَ على الحذرِ الشّديدِ، فلا يتجرّأَنَّ الّذينَ كرّسوا أجسادَهم لحياةِ الإمساكِ على السّكنِ مع نساءٍ، لئلاّ يتعرّضوا، من جرّاءِ ذلك، لسقطةٍ قاسيةٍ مثلِ سقطتِه. فحضورُ الجمالِ يؤجِّجُ الشّهوة. لن أتردّدَ في سردِ المسألةِ لأنّ جميعَ سكّانِ مدينتِنا شهودٌ على ذلك.

كان هذا الإنسانُ التّقيُّ الوَرِعُ يَقضي حياةً فاضلةً، وبإمساكِهِ يَحفَظُ اليقظةَ الدّاخليّةَ بقداسة. كانَ يسكُنُ، منذ وقتٍ طويلٍ، برفقةِ إحدى الرّاهباتِ الّتي لم يشأْ إبعادَها عن المسكنِ الأسقفيِّ، ولا التّوقّفَ عن الإهتمامِ بها. بل تركَها تُشارِكُهُ المسكنَ الأسقفيَّ، كونَهُ مُتأكّدًا من نقاوتِهِ الشّخصيّةِ ونقاوتِها. وهذا ما جعلَ العدوَّ، رئيسَ الشّرِّ، يجتهدُ في وضعِ نفسِ الأسقفِ في تجربة. بدأ يُظهِرُ جمالَ الرّاهبةِ أمامَ مُخيّلتِه، وهيّأَه، في حين رقادِه، ليُفكِّرَ في أمورٍ غيرِ لائقةٍ به.

ذاتَ يومٍ، كانَ يهوديٌّ مسافرًا من «كامبانيا» إلى روما، وحلَّ الظّلامُ وهو بعدُ في الطّريق. وبما أنّه لم يَدْرِ أينَ يُمضي ليلتَه، لجأَ إلى هيكلِ «أبولّو» القريب. ولكنّه شعرَ بالخوفِ بسببِ الخدمِ الدَّنسةِ الّتي تحصلُ هناك،

---

٣٣١. لو ١٤: ١١، ١٨: ١٤.

فاحتمى بإشارةِ الصّليبِ، على الرّغمِ من أنّه لا يؤمنُ بها، ونام. عند منتصفِ اللّيلِ، فيما الجوُّ هادئٌ، استيقظَ قَلِقًا بسببِ وِحشةِ المكانِ ووحدَتِه.

فجأةً، فتحَ عينَيْهِ واسعًا، ورأى جمهرةَ أرواحٍ شرّيرةٍ تأتي في موكبٍ لرئيسِ شياطين. أخذَ هذا الشّيطانُ المتقدّمُ مكانَهُ على عرشِ هيكلِ «أبولّو»، وبدأً بفحصِ تصرّفاتِ تابعيه وسلوكيّاتِهم، راغبًا في تقييمِ كمّيّةِ الشّرورِ الّتي استطاعَ كلُّ واحدٍ منهم إحداثَها. وفيما أخذوا جميعُهم يُخبرونَه عن مدى الأضرارِ الّتي يُلحقونَها بالبشرِ، اندفعَ أحدُ الشّياطينِ إلى الوسطِ، وكشفَ عن التّجربةِ الّتي أثارَها في نفسِ الأسقفِ أندريا، وذلك من خلالِ جمالِ الرّاهبةِ الّتي تُشارِكُهُ المسكنَ الأسقفيَّ، من دونِ أن يغفلَ عن الاضطرابِ الجسديِّ الّذي نتجَ عن ذلك.

هذا التّقريرُ ملأَ رئيسَ الشّياطينِ برضًى كبيرٍ، فوعدَ الشّيطانَ بمكافأةٍ عظيمةٍ، إن اجتذبَ نفسَ رجلٍ قدّيسٍ إلى خطيئةٍ مُميتة. حينئذٍ، أضافَ هذا الأخيرُ: «حتّى البارحةِ، لم أتوقّفْ عن إزعاجِه، إلاّ أنّني لم أتوصّلْ إلى نتيجة. ولكن، مساءَ أمسِ، نجحتُ في جعلِهِ يقومُ بحركةٍ غيرِ لائقةٍ تجاهَ الرّاهبة». حينئذٍ، استقدمَ رئيسُ الشّياطينِ، العدوُّ الأوّلُ للجنسِ البشريِّ، الشّيطانَ الّذي يُقدِّمُ هذا التّقريرَ إلى جانبِهِ، وبعد أن أجزلَ في مدحِه، قالَ له: «سارِعْ في إكمالِ ما بدأْتَهُ. إن نجحتَ في جَعْلِ الأسقفِ يَسقُطُ، فستحصَلُ أنتَ وحدَكَ على إكليلِ النّصر».

بعد أن رأى اليهوديُّ هذا المشهدَ وسَمِعَ كلَّ هذا الحوارِ، سادَ عليه الخوفُ والقلق. ثمّ أمَرَ رئيسُ الشّياطينِ الأرواحَ الشّرّيرةَ أن تمضي لتستعلمَ عن الشّخصِ الّذي تجرّأَ وجاءَ ليبيتَ في هيكلِهم. اقتربَتِ الأرواحُ الشّرّيرةُ من اليهوديِّ، وتفحّصَتْهُ بعناية. ولكنّها ما إن رأَتْهُ مَختومًا بعلامةِ الصّليبِ، حتّى تعجَّبَتْ من ذلك، وقالَت: «يا للعَجَبِ، إنّه إناءٌ فارغٌ، ولكنّه مَختوم!» أعلمَ الشّياطينُ رئيسَهم بذلك، واختفوا للحين.

بعد ذلك، نهضَ اليهوديُّ على الفَورِ، وذهبَ مُسرِعًا إلى الأسقف. وعندما وَجَدَهُ في الكنيسةِ، أخذَهُ على حِدةٍ، وحاولَ جَعْلَهُ يُقِرُّ بالتّجربةِ الّتي أصابته. ولكنّ الأسقفَ لم يُقِرَّ بها بسببِ خجلِه. حينئذٍ، قالَ له اليهوديُّ:

«ألم تنظُرْ إلى أمَةِ اللّهِ هذه برغباتٍ دنسة؟» أمّا الأسقفُ، فأنكرَ ذلك أيضًا. حينئذٍ، قالَ له اليهوديُّ: «لماذا تُنكِرُ؟ ألم تَدَعْ نفسَكَ تتوصَّلُ، مساءَ البارحةِ، إلى القيامِ بحركةٍ غيرِ لائقة؟»

حينئذٍ، بدا الأسقفُ مُرتَبِكًا بسببِ هذه الأقوالِ، وأقرَّ بتواضُعٍ كبيرٍ ما سبقَ أن أنكرَهُ بشدّة. وإذ أرادَ اليهوديُّ أن يُعزِّيَه بسببِ خجلِهِ من خطيئتِه، أخبرَهُ كيف عَلِمَ بذلك، وبكلِّ ما سَمِعَهُ في اجتماعِ الأرواحِ الشّرّيرة. حينئذٍ، فَهِمَ الأسقفُ عِظَمَ خطيئتِه، وارتمى على الأرضِ، وأسلمَ ذاتَهُ للصّلاة. ثمّ، من دونِ إبطاءٍ، طردَ من المَسكَنِ الأسقفيِّ، لا أمَةَ اللّهِ تلك فحسبُ، بل جميعَ النّساءِ الأخرياتِ اللّواتي كُنَّ في خدمتِهِ أيضًا، وحَوَّلَ هيكلَ «أبولّو» إلى كنيسةٍ مُكَرَّسَةٍ على اسمِ القدّيسِ الرّسولِ أندراوس.

تحرَّرَ الأسقفُ كلّيًّا من تجربتِهِ الجسديّةِ بنعمةِ اللّهِ، واجتذبَ اليهوديَّ إلى الحياةِ الأبديّة. في الواقعِ، لقد علَّمَهُ أسرارَ الإيمانِ، وبعد أن طَهَّرَهُ بماءِ المعموديّةِ، جلبَهُ إلى أحضانِ الكنيسة. هكذا، فاليهوديُّ الّذي سارَعَ ليُخلِّصَ آخرَ، خَلُصَ بدورِه، وعبرَ هذه الحادثةِ المُزعجةِ، قادَهُ اللّهُ الكلّيُّ القدرةِ إلى الحياةِ الكاملةِ، كما رَضِيَ ألاّ يسقُطَ الأسقفُ منها.

بطرس: ما سمعتُهُ للتوِّ يُثيرُ الخوفَ، ويَبعَثُ الرّجاءَ بالخلاصِ، في الوقتِ نفسِه.

غريغوريوس: لَعَمري، يَليقُ أن نضعَ ثقتَنا دائمًا في رحمةِ اللّهِ، وأن نخافَ ضعفَنا. إنّ قصّةَ أرزةِ الفردوسِ – أي الأسقفِ - الّتي اهتزَّت، ولكنّها لم تُقتَلَعْ، تُليَتْ على مسامعِنا حتّى نَشعُرَ، نحن الضّعفاءَ، بالخوفِ لسماعِنا عن اهتزازِها، ثمّ نستعيدَ الثّقةَ لمعرفتِنا بثباتِها.

- عنه نفسه -

عاشَ إنسانٌ تقيٌّ جدًّا، يُدعى مارتينوسَ، الحياةَ التّوحّديّةَ، في مقاطعةِ «كامبانيا»، في جبلِ «مارسيك»، وبقي حبيسًا، لسنواتٍ كثيرةٍ، في مغارةٍ ضيّقة. وقد سمحَ اللّهُ الكلّيُّ القدرةِ، أن ينضَحَ من الصّخرةِ ما يكفي من الماءِ، لسدِّ حاجاتِهِ اليوميّة. ولكنّ العدوَّ باعثَ الشّرِّ حَسَدَ صبرَ القدّيسِ،

وحاولَ أن يطرُدَهُ من مغارتِه. لذلك، دخلَ في حيّةٍ، هذا الحيوانِ المتواطئِ معه، وحثَّها على الدّخولِ إلى المغارةِ، لتنتصِبَ أمام مارتينوس في وقتِ صلاتِه. ولكنّ الرّجلَ القدّيسَ لم يشعُرْ بأيِّ خوف. بل قَرَّبَ يدَه ورجلَه من فمِ الحيّةِ، قائلاً: «إن أخذتِ إذنًا لتؤذيَني، فلن أمنعَك».

تكرَّرَ ذلك، بانتظامٍ، خلالَ ثلاثِ سنوات. فتغلَّبَ الرّجلُ القدّيسُ بقوّةِ صبرِهِ على العدوِّ الّذي أصدرَ زئيرًا، واندفعَتِ الحيّةُ لترميَ نفسَها من على الجرفِ إلى أسفلِ الجبلِ حيثُ فَنِيَتْ. واحترقَتِ الغابةُ كلُّها في ذلك المكانِ بالنّارِ الّتي خرجَتْ من جسدِها. تقهقرَ الشّيطانُ مَغلوبًا خازيًا، بعد أن سمحَ اللّهُ بإظهارِ ضعفِ قوّتِه. فافهمْ، يا بطرسُ، مقدارَ اليقظةِ الرّوحيّةِ المُميَّزةِ الّتي مارسَها رجلُ اللّهِ هذا، الّذي عاشَ برفقةِ حيّةٍ لمدّةِ ثلاثِ سنواتٍ، من دونِ قلق.

بطرس: أرتجفُ لمجرّدِ سماعِ ذلك.

غريغوريوس: هذا الرّجلُ التّقيُّ غايةَ التُّقى، منذُ بدءِ احتباسه في المغارةِ، حدّدَ لنفسِهِ قاعدةَ ألاّ يرى امرأةً، لا لأنّه يَشعُرُ بالاشمئزازِ منها، بل لأنّه كانَ يخشى خطرَ الوقوعِ في التّجربةِ الّتي تُسبِّبُها رؤيتُها. علمَتْ إحدى النّساءِ بذلك، وصعدَتْ بوقاحةٍ إلى الجبلِ، وذهبَتْ، من دونِ أدنى خجلٍ، إلى مغارةِ الرّجلِ القدّيس. عندما رآها هذا الأخيرُ آتيةً من بعيدٍ، وعَلِمَ من لباسِها أنّها امرأةٌ، باشرَ الصّلاةَ ووجهُهُ مُلتصِقٌ بالأرض. بقيَ على هذا الوضعِ مُثابرًا على الصّلاةِ لوقتٍ طويلٍ، حتّى فقدَتْ هذه المرأةُ الوقحةُ صبرَها، وغادرَتِ القلاّية. لدى نزولِها من الجبلِ، ماتَتْ على الفورِ في ذلك اليومِ نفسِه. من ذلك، فَهِمَ جميعُ سكّانِ البلدةِ أنّها أغاظَتِ اللّهَ الكلّيَّ القدرةِ كثيرًا، بسببِ تجاسُرِها على مضايقةِ خادمِه.

- من حياةِ البارِّ سمعان الّذي من الجبلِ العجيب -

مرّةً، سادَتْ على إحدى النّساءِ رغبةٌ مُقدَّسَةٌ في رؤيةِ سمعانَ الكبيرِ بأمِّ العينِ، والحصولِ منه على نعمةٍ وبركة. ولكنّ ما مَنَعَها من إتمامِ رغبتِها هي الأرضُ المسوّرةُ المُحيطةُ بالعامودِ، الّتي كانَ يُمنَعُ دخولُ النّساءِ إليها. أمّا

هذه المرأةُ الفاضلةُ، فما لَبِثَتْ تُفكِّرُ في إيجادِ طريقةٍ لحلِّ هذه الصّعوبةِ، مأخوذةً بالرّغبةِ الحارّةِ في هذا العملِ الرّوحيِّ الصّالح.

ذاتَ يومٍ، فيما كانَ بعضُ الجنودِ ذاهبينَ لرؤيةِ القدّيسِ، ارتدَتْ لباسًا مُشابهًا لِلِباسِهم، وتنكّرَتْ بحيثُ صارَتْ تُشبِهُهم كليًّا. بعد أن أزالَتْ كلَّ شكٍّ، امتطَتِ الحصانَ، وذهبَتْ برفقتِهم، وسُرعانَ ما وصَلوا إلى مقصدِهم.

عند وصولِهم إلى بابِ السّورِ، تَرَجَّلَ الجنودُ عن أحصنتِهم، وتركوها في عُهدَةِ المرأةِ لتحرسَها، كأنّها واحدٌ منهم، لأنّ شيئًا لم يكن ليَفضَحَ جنسَها. وهي قَبِلَتْ هذه المهمّةَ بطيبةِ خاطرٍ، لأنّها صَبَتْ إلى القيامِ بالمثلِ، وأن تعهَدَ إليهم بدورِها بحصانِها لدى عودتِهم من زيارتِهم. عندما قابلَ الجنودُ الرّجلَ القدّيسَ، وحصلوا على مُبتغاهم، قالَ سمعانُ لهم: «لقد بقيَ جنديٌّ من رفقتِكم عند السّور. حالما تعودونَ إليه، قولوا له: «لقد صَعِدَتْ صلاتُكَ إلى أذُنَي الرّبِّ، وباركَكَ الرّبُّ الإلهُ الّذي يعرفُ الأفكارَ والقلوبَ[٣٣٢]. وهكذا، بما أنّك حصلتَ على ما تصبو إليه، فلا حاجةَ بكَ بعدُ أن تأتيَ إليّ».

فيما كانَ الجنودُ يُغادرونَ الأرضَ المُسوَّرةَ، بعد سماعِهم أقوالَ سمعانَ العجيبِ، تعجَّبوا من موهبتِهِ النّبويّةِ، وأيضًا من فضيلةِ ذاك الّذي ظنّوه جنديًّا، والّذي بَقِيَ خارجَ السّور. ما إن خرجوا حتّى نقلوا إليه الرّسالة. ثمّ ما لبِثوا يَتوسّلونَ إليه بإلحاحٍ أن يُخبرَهم عن هويّتِه، وأن يكشفَ لهم شيئًا من علاماتِ فضيلتِهِ العظيمةِ، وأضافوا: «في الواقعِ، لم يَكُنْ سمعانُ ليتكلّمَ عنك بهذا الرّضى والحلاوةِ والاحترامِ لو لم تُخبِّئْ في نفسِكَ كنزًا من الفضائل».

فلمّا فَهِمَتِ المرأةُ أنّ شيئًا ممّا يَتعلّقُ بها لم يَخْفَ على القدّيسِ، كشفَتْ كلَّ ما عمِلته للجنودِ على الرّغمِ من تردُّدِها، قائلةً: «يا إخوةُ، منذ زمنٍ طويلٍ، استولَتْ عليّ رغبةٌ مُقدَّسَةٌ في الذّهابِ لرؤيةِ هذا الرّجلِ القدّيسِ، والاستفادةِ من رؤيةِ نعمةِ الرّوحِ السّاكنِ فيه. ولكن، بما أنّه لا يُسمَحُ للنّساءِ بدخولِ الأرضِ المُسوَّرةِ، فكّرْتُ في إخفاءِ جنسي - لأنّني امرأةٌ - ورؤيتِهِ

٣٣٢. أنظر عب ٤، ١٢.

بالحيلة. ولكن، بما أنّ القدّيسَ يَعرِفُ الأفكارَ الخفيّة، ويستحيلُ عليّ خداعُه، أرحَلُ الآنَ من دونِ مخالفةِ أمرِه. في الواقعِ، لقد استأهَلتُ أخذَ بركتِه، لا عن طريقِ الحيلةِ، بل باستعدادِ المحبّة». عندما سَمِعَ الجنودُ أقوالَ هذه المرأةِ الفاضلةِ، ازدادَ إعجابُهم بالقدّيسِ، ثمّ عادَ كلُّ واحدٍ إلى بيتِه.

- من حياةِ القدّيسِ مارتينيانوس -

بعد أن عاشَ القدّيسُ مارتينيانوسُ سنواتٍ كثيرةً في الصّحراءِ، وأتمَّ كلَّ نوعٍ من أنواعِ الفضيلةِ، تعرَّضَ، لاحقًا، لخطرٍ كبيرٍ، وذلك بتحريضٍ من الشّرّير. فقد استقبلَ في قلاّيتِهِ امرأةً ادَّعَتْ أنّها أضاعَتْ طريقَها في اللّيلِ، لئلاّ تهلكَ. أمّا هي، في الحقيقةِ، فكانت مدفوعةً من الشّيطانِ لتجرِّبَ البارّ. تأثَّرَ ذهنُهُ بأقوالِها الخدّاعةِ، حتّى كادَ يُوافِقُها على ارتكابِ الخطيئةِ، لو لم تتدارَكْهُ رحمةُ اللّهِ، ويرفُضْ هذا الهوى، ويعاقِبْ نفسَهُ بشدّة؛ أشعلَ نارًا، ووقفَ في وسطِها لوقتٍ طويلٍ، إلى أن احترَقَتْ رجلاه بشكلٍ مُريع. وهكذا، أطفأَ بشعلةِ النّارِ شعلةَ الرّغبةِ، ونجا من الخطر.

بَقِيَ لمدّةِ سبعةِ أشهرٍ حبيسًا في قلاّيتِه، غيرَ قادرٍ على السّيرِ بسببِ الحُروق. عندما كفَّ الألمُ، رحلَ عن القلاّية، وذهبَ إلى شاطئِ البحر. هناك، قادَهُ أحدُ البحّارةِ بعيدًا في البحرِ، إلى جزيرةٍ صغيرةٍ استقرَّ فيها. كانَ البحّارُ التّقيّ يُزوِّدُهُ بما يَحتاجُهُ من الماءِ والخبز. ولكن، حتّى هناك، حرّكَ العدوُّ عليه تجربةً أسوأ من الأولى.

مرّت ستُّ سنواتٍ على اختيارِ مرتينيانوسَ العيشَ في النّقاوةِ على تلك الجزيرةِ الصّغيرةِ، بعيدًا عن كلِّ عين. في بدءِ السّنةِ السّابعةِ، بتدبيرٍ من الشّرّيرِ، تعرّضَتْ سفينةٌ عابرةٌ مليئةٌ بالرّجالِ والنّساءِ لعاصفةٍ بحريّةٍ، وانجرَفَتْ إلى صخورِ الجزيرةِ الصّغيرة. للحالِ، تحطّمَتِ السّفينةُ، وغرقَ الرّكّابُ جميعُهم في البحرِ، ما عدا فتاةً واحدةً استطاعَتِ التّمسّكَ بلوحٍ خشبيٍّ، وما إن وصلَتْ إلى مُحاذاةِ شاطئِ الجزيرةِ الصّغيرةِ، حتّى أفلَتَ اللّوحُ من يدِها، وبدأَتْ بالصّراخ: «أشفِقْ عليَّ، يا عبدَ اللّه. ترأَّفْ بي لأنّني أهلك. مُدَّ يدَكَ، وأسرِعْ لأنّني أغرق».

عندما رأى المغبوطُ أنّها على وشكِ الهلاكِ، وأنّه لا أملَ لها بالخلاصِ في شيءٍ، أو في أحدٍ آخرَ سواه، ابتسَمَ في سرِّه، وقالَ: «هذه حيلةٌ أخرى من حِيَلِكَ، أيّها الشّرّيرُ، ولكنّك لن تغلبَ قوّةَ المسيحِ الّتي وضعْتُ ثقتي فيها». ثمّ رفعَ عينَيْهِ إلى السّماءِ، وقالَ: «يا ربُّ، يا ربُّ، أنا أثِقُ بكَ، لا تَسمَحْ بأن أهلِكَ لأنّني أريدُ إنقاذَ هذه المخلوقةِ من الخطرِ، بل دبِّرْ بأن أفعلَ ما يوافِقُها روحيًّا».

عند ذلك، مدَّ يدَهُ إلى الفتاةِ الشّابّةِ، وأخرجَها من الماء. عندما رأى أنّها على قدرٍ وافرٍ من الجمالِ، قالَ: «في الحقيقةِ، لا يُمكِنُ للعشبِ والنّارِ أن يكونا معًا. يستحيلُ أن نعيشَ على مقربةِ بعضِنا من بعضٍ، لأنّ الشّرّيرَ سيقودُنا نحن الإثنَيْنِ إلى الدّمار. لذلك، إبقَي أنتِ هنا، ولا تخافي: يوجَدُ ما يكفيكِ من الخبزِ والماءِ، حتّى يعودَ البحّارُ الّذي اعتادَ أن يجلبَ لي ما أحتاجُه. عندما يأتي، أخبِريه بما جرى، وهو يأخذُكِ من هنا لتتمكّني من العودةِ إلى مدينتِك».

ثمّ رسمَ إشارةَ الصّليبِ على البحرِ، وصلّى من جديدٍ، قائلاً: «يا إلهي الّذي يُطيعُهُ البحرُ والرّياحُ[٣٣٣]، أنظُرْ إليّ ولا تَدَعْني أهلك. ها أنا، على اسمِكَ المَرهوبِ، أستسلمُ لأمواجِ البحرِ، معتبرًا أنّه من الأفضلِ لي أن أهلكَ على أن أنغلبَ للهوى الجسديّ». ثمّ استدارَ نحو الفتاةِ، مبتهِلاً من أجلِ خلاصِ نفسِها، وارتمى في البحر. للحالِ، أتى دلفينان لحمايتِه، وبعد أن حملاه على ظهرِهما بكلِّ أمانٍ، نقلاه إلى الضّفّةِ الأخرى.

ما إن داسَ البارُّ اليابسةَ حتّى شكرَ اللّهَ على انتقالِهِ العجيبِ، ثمّ واجهَ مستقبَلَه، وحَكّمَ في الخياراتِ المُتعارضةِ، قائلاً لنفسِه: «لم يدَعْني العدوُّ بهدوءٍ، لا في الجبالِ، ولا على الصّخرةِ في المياه. إذًا، عليَّ أن أثِقَ بالمسيحِ الّذي أوصى بأنّه عندما نُطرَدُ من مدينةٍ، لنَفُرَّ إلى مدينةٍ أخرى[٣٣٤]». بعد أنِ اتّخَذَ قرارَه، أسلَمَ نفسَهُ للسّياحةِ، قائلاً: «أهرُبْ، يا مارتينيانوسُ، لئلاّ تلحَقَ بكَ تجربةٌ. أهرُبْ، أيّها الرّاهبُ البائس». وهكذا أمضى بقيّةَ حياتِه، حتّى آخرِ

٣٣٣. أنظر مت ٨، ٢٦ – ٢٧.
٣٣٤. أنظر مت ١٠، ٢٣.

نَفَسٍ، هاربًا من مكانٍ إلى آخر.

- من حياةِ القدّيسِ أرسانيوس -

لمّا كانَ أرسانيوسُ الكبيرُ يعيشُ في كانوبي، عندَ أحدِ مَصَبّاتِ النّيلِ السّبعةِ، أتَتْ من روما زوجةُ أحدِ الحُكّامِ، وهي غنيّةٌ وتقيّةٌ جدًّا، لرؤيةِ أرسانيوس، بهدفِ الاستفادةِ الرّوحيّةِ منه ومن صلواتِه، ولتقدِّمَ هباتٍ جزيلة. استضافَ رئيسُ الأساقفةِ ثيوفيلس هذه السّيّدةَ، الّتي طلبَتْ منه بإلحاحٍ إقناعَ القدّيسِ بأن يسمَحَ لها برؤيتِه.

ذهبَ رئيسُ الأساقفةِ إلى زيارةِ أرسانيوس، وألحَّ عليه كثيرًا في طلبِه، مُضيفًا في حججِه، ليقنعَهُ ويحمِلَهُ على الموافقةِ، المَشقّةَ الّتي تكبّدَتْها المرأةُ خلالَ سفرِها الطّويلِ، ولكنّ هذا الأخيرَ رفضَ. عندما علمَتْ هذه السّيّدةُ بالرّفضِ، لم تحتمِلِ الأمرَ بسببِ إيمانِها بالقدّيسِ، وتكريمِها له. فأخذَتِ الطّريقَ المؤدّيَةَ إلى قلاّيتِه، عاقدةً العزمَ على رؤيتِه، غيرَ حاسبةٍ أيَّ حسابٍ لا للتّعبِ، ولا لرتبتِها، ولا لأيِّ اعتبارٍ آخر.

لدى وصولِها، التقَتْ بالقدّيسِ مُنشغِلاً خارجَ قلاّيتِه، وسقطَتْ عند قدمَيْه. ولكنّه أنهضَها بفظاظةٍ، ونظرَ إليها مباشرةً، قائلاً: «إن أردتِ رؤيةَ وجهي، فانظُري إليه!». ولكنّ المرأةَ لم تستطِعْ، تحتَ تأثيرِ الخوفِ والخجلِ، أن تركِّزَ نظرتَها عليه، ولا بأيّةِ طريقة.

فأضافَ: «ألم تسمَعي عن أعمالي، فلِمَ رغبتِ في المجيءِ إليَّ؟ كيف تجرّأتِ وخُضتِ رحلةً طويلة؟ ألا تعرفينَ أنّك امرأةٌ، ولا يُسمَحُ لكِ بالسّفر؟ ولكن، يبدو لي أنّكِ وضعتِ في عقلِكِ أن تعودي إلى روما مُخبِرَةً نساءً أخرياتٍ أنّك رأيتِ أرسانيوس. ونتيجةً لذلك، سيمخُرُ عُبابَ البحرِ قوافلُ مُستمرّةٌ من النّساءِ الآتياتِ لزيارتي».

أجابَتْه: «بمعونةِ اللّهِ، لن أسمحَ لأيّةِ امرأةٍ أن تأتيَ إلى هنا، يا أبتِ. ولكنّني أطلبُ إليكَ أن تُصلّيَ من أجلي، وأن تتذكَّرَني باستمرار». حينئذٍ، قالَ القدّيسُ: «وأنا، على العكسِ، أُصلّي إلى اللّهِ أن يمحوَ ذكراكِ من قلبي».

أحزنَتْ هذه الأقوالُ المرأةَ كثيرًا، إلى حدِّ إصابتِها بالحمّى، وقرّرَتِ

العودةَ إلى الإسكندريّة. عندما عَلِمَ رئيسُ الأساقفةِ بما حصلَ، سارَعَ في الذّهابِ لزيارتِها.

سألَها عن سببِ مرضِها، وعندما عَلِمَ السّببَ، كلَّمَها بوداعةٍ وطيبةٍ، قائلاً لها: «يجبُ ألاّ يُحزِنَكِ ما قالَهُ لكِ إلى هذا الحدِّ، لأنّه لم يَقُلْهُ بداعي البغضِ، بل لأنّه يحترِسُ روحيًّا بقوّة. أتَجهلينَ أيّةَ حروبٍ اعتادَ الشّرّيرُ أن يُقيمَها، عبرَ النّساءِ، على مختاري اللّه؟! لهذا قالَ لكِ الشّيخُ كلَّ ما قالَهُ لك. ولكنّه لن يتوقّفَ عن الصّلاةِ باستمرارٍ، لا من أجلِ نفسِكِ فقط، بل من أجلِ نفوسِ جميعِ المسيحيّين». بهذه الأقوالِ شُفِيَتِ المرأةُ من حزنِها، وعادَتْ إلى موطنِها.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- سألَ أخٌ شيخًا: «إن خرجَ أحدُ الإخوةِ في إتمامِ خدمةٍ ما، وقابلَتْهُ امرأةٌ في الطّريقِ، فكيف يُمكن أن ينجوَ من حربِ الزّنى؟» أجابَهُ الشّيخُ: «ربّما لا يستطيعُ أن يتجنّبَ الحربَ، ولكنّه يستطيعُ عدمَ إتمامِ الفعلِ إن صَمَتَ في ساعةِ اللّقاء. كما أنّ الشّعلةَ الّتي تتّصِلُ بالكبريتِ الأصفرِ تُخرِجُ نارًا، هكذا يُسبِّبُ الخطيئةَ كلامُ المرأةِ المُوَجَّهِ إلى رجل».

٢- قالَ الأبُ إسحقُ: «لا تقبَلوا أن يسكنَ الرّهبانُ مع أولاد. في الواقعِ، أصبحَتْ أربعةُ كنائسَ في الإسقيطِ قاحلةً بسببِ الأولاد».

٣- قالَ شيخٌ: «إنّ الولدَ الّذي يُطلِقُ محادثةً وسطَ أناسٍ أكبرَ منه سنًّا، يُشبِهُ إنسانًا يَرمي نارًا في حضنِ أخيه».

- عن القدّيسِ أفرام -

يا أخي، إن كنتَ تتحادَثُ مع فتاةٍ شابّةٍ تتألّقُ جمالاً، فانتبِهْ لعينَيْكَ لئلاّ تُلَوِّثَ الرّغبةُ ذهنَك، وتبدأَ في توجيهِ كلماتٍ مَشوبةٍ بالعاطفةِ، وتأتيَ منها إلى الكلامِ على العفّةِ من طرفِ شفتَيْك، بينما تستسلمُ نفسُكَ إلى الفُسق.

عندما تُفرَضُ عليكَ محادثةٌ كهذه، تكلَّمْ وأنت تَنظُرُ أسفل. أسرِعْ في إنهاءِ المحادثةِ، وعُدْ إلى الصّمت. لأنّ الكتابَ يقولُ: «أغوَتْهُ بكلامٍ كثيرٍ»[٣٣٥].

- عن أنطيوخوس البَنْديكتي -

يليقُ بنا، يا إخوةُ، نحن الّذينَ تركْنا العالَمَ بعزمٍ، ووعَدْنا اللّهَ بأن نحفظَ ذواتِنا نقيّةً لا دنسَ فيها، أن نتبعدَ عن محادثةِ النّساءِ، وعن رؤيتِهنَّ، لو أمكَن. إنّ رؤيةَ المرأةِ سهمٌ مليءٌ بالسّمِّ، يحقُنُ سُمَّهُ في النّفسِ الّتي توصَّلَ إلى جرحِها. وقدرَ ما يَبقى السُّمُّ أكثرَ، يُسَبِّبُ أضرارًا كبرى. كما أنّ الشّرارةَ الّتي تحترقُ ببطءٍ في القَصَبِ تُسَبِّبُ حريقًا، هكذا يُشعِلُ تَذَكُّرُ النّساءِ الرّغبةَ، عندما يُطيلُ المكوثَ. كمثلِ الزّيتِ الّذي يُغذّي شعلةَ القنديلِ، هكذا رفقةُ النّساءِ تُلهِبُ شعلةَ الرّغبة. لنهربْ من النّساءِ، يا إخوةُ، لأنّ معاشرتَهنّ سمٌّ بإمكانِهِ أن يُهلِكَ نفوسَنا.

لنسمعْ ما يُوصي الكتابُ المُقدّسُ بخصوصِهنّ. يقولُ كاتبُ سفرِ الأمثالِ: «المرأةُ بدءُ الخطيئةِ، وبسببِها نموتُ جميعُنا»، ويُضيفُ: «لا تُعطِ للماءِ مَخرجًا، ولا لامرأةٍ شرّيرةٍ دالّةً عليك»[٣٣٦]. أيضًا يقولُ: «يا بُنيَّ، لا تغلبَنَّكَ شهوةُ امرأةٍ جميلةٍ، ولا تجتذبَنَّكَ بعينَيْها. لأنّ المرأةَ تصطادُ نفوسَ الرّجالِ الكريمة»[٣٣٧]. أجل، إنّها تغوي الرّجلَ بأقوالِها، وتجتذبُه بتملّقاتِها. ومَن يتبَعْها مثلَ الغبيِّ، يَسِرْ وراءَها مثلَ الثّورِ الذّاهبِ إلى الذّبحِ، أو كمثلِ الكلبِ المَربوطِ بالرّسنِ، من دونِ أن يعيَ أنّ نفسَهُ في خطر[٣٣٨]. فلا ينجذبَنَّ قلبُكَ بطرائقِها، لأنّها طرحَتْ كثيرينَ جرحى، والّذينَ قتلَتْهم عددُهم لا يُحصى! طريقُ بيتِها يؤدّي إلى الجحيمِ، ويُحدِرُ إلى مَثوى الأموات[٣٣٩]. أبعِدْ طريقَكَ عنها، ولا تقترِبْ من عتبةِ بيتِها، لئلاّ يَشبَعَ غرباءُ من خيراتِك، فتندمَ في أواخرِ حياتِك»[٣٤٠].

فلنثِقْ في هذه الأقوالِ، نحن أيضًا، ولنبتعدْ عن رؤيةِ النّساءِ،

٣٣٥. أم ٧، ٢١.
٣٣٦. حكمة سيراخ ٢٥، ٢٤ - ٢٥.
٣٣٧. أنظر أم ٦، ٢٥ - ٢٦.
٣٣٨. أنظر ٧، ٢١- ٢٣.
٣٣٩. أنظر ٧، ٢٥ - ٢٧.
٣٤٠. أنظر ٥، ٨ - ١١.

ومعاشرتِهنّ. علمنا كيف طُرِحَ شمشونُ نذيرُ اللهِ[٣٤١]، الّذي كانَ روحُ الرّبِّ يرافقُه، في وهدةِ الهلاكِ بسببِ امرأة[٣٤٢]. والنّبيُّ داوود انغلَبَ بعدَ رؤيتِهِ لامرأةٍ غيرِ مُتحَفِّظَة، وأضافَ إلى الزّنى جريمةَ القتلِ[٣٤٣]، وحصدَ بسببِ ذلك آلامًا جمّة. وماذا حصلَ لسليمانَ الّذي فاقَتْ حكمتُه وتعقُّلُه وطيبَتُه رملَ البحرِ، ولم يساوِهِ أحدٌ في مجدِهِ وقوّتِه؟ ألم يسقُطْ ويتغرَّبْ عن اللهِ بسببِ النّساءِ؟[٣٤٤]. وأيضًا الكهنةُ وكتبةُ الشّعبِ، الّذينَ نظروا جمالَ المرأةِ بتمعُّنٍ من دونِ احتراسٍ، وبسببِ هذا الفعلِ أشعلوا في ذواتِهم أتّونَ الشّهوةِ المُحمّى، وهجموا على سوسنّةَ المبارَكةِ، من دونِ التّوصُّلِ إلى غايتِهم. لذلك، لجأوا إلى الافتراءِ عليها، مُلصِقينَ تُهمةَ جريمتِهم بها، هي البريئة. ولكنّ فعلتَهم انكشفَتْ، وماتوا ميتةً شنيعة[٣٤٥].

إنّ الاقترابَ منَ النّارِ المُشتعلةِ أهونُ من الاقترابِ من المرأة. فإنّك إن اقتربتَ من النّارِ، فسيجعَلُكَ الألمُ تتراجعُ. أمّا إن اقتربتَ من امرأةٍ، وتعلّقتَ بأقوالِها، وضاعَفْتَ لقاءاتِكَ بها، فلن تستطيعَ أن تتمالَكَ نفسَكَ فيما بعدُ، لا سيّما إن كنتَ شابًّا وضعيفَ العزم. ولكنّك ستتعرَّضُ لخطرِ الوقوعِ في شباكِها، مثلما تَقَعُ الحشرةُ في نسيجِ العنكبوت.

إذًا، على مَن يُريدُ أن يحفَظَ العفّةَ الهروبُ بعيدًا عن المرأةِ، كما يهرُبُ أحدُهم من الحيّةِ، لأنّ رفقتَها ليست سُمًّا مُميتًا للنّفسِ فحسب، بل ذكراها أيضًا. قيلَ: «النّبيذُ والنّساءُ أمرانِ يُفسِدانِ الحُكماء[٣٤٦]». ويقولُ سِفرُ الجامعة: «وأجِدُ أنّ رفقةَ النّساءِ أمرُّ من الموتِ والمرارة»[٣٤٧]. والرّبُّ الرّؤوفُ، عارفًا أنّ هذا الهوى مُفسِدٌ للنّفسِ ومُهلِكٌ، قالَ: «إنّ مَن نَظَرَ إلى امرأةٍ ليشتهيَها، فقد زنى بها في قلبِه»[٣٤٨].

---

٣٤١. نذير: تأتي من كلمة عبريّة وتعني «ينفصل» أو «يتكرّس» أو «يتعفّف». النّذير كانَ الشّخص الّذي ينفصل عن الآخرينَ بوعد خاصّ ليتكرّس إلى الله. قوانين الحياة الّتي تطبّق على النّذراء مذكورةٌ في الإصحاح السّادسِ من سفر العدد.

٣٤٢. قضاة الإصحاح ١٦.

٣٤٣. ٢ مل الإصحاح ١١.

٣٤٤. ٣ مل ١١، ١-٨.

٣٤٥. دا. سوسنّة ١٦ -٦٢.

٣٤٦. حكمة سيراخ ١٩، ٢.

٣٤٧. أنظر جا ٧، ٢٦.

٣٤٨. مت ٥، ٢٨.

- عن الأبِ أشعيا -

إن ذهبتَ إلى مدينةٍ أو قريةٍ، فأَبقِ عينَيْكَ مُنخفِضَتَيْنِ إلى الأسفلِ، لئلاّ توقظَ فيكَ حروبًا داخليّةً عند عودتِكَ إلى قلاّيتِك. فيما تَمشي في الطّريقِ، إن حيّتْكَ امرأةٌ، قائلةً: «السّلامُ لكَ»، فأجِبْها من داخلِك، وأنتَ تَحفَظُ عينَيْكَ مُنخفِضَتَيْن. إن استطعتَ، فلا تنظُرْ حتّى إلى ملابسِ النّساء. لا تقبَلْ تناولَ الطّعامِ مع امرأةٍ، ولا تعقُدْ صداقاتٍ مع الشّبّان. إن كنتَ شابًّا، فلا تَنَمْ مع آخرَ على البساطِ نفسِه، إلاّ إن كانَ أخاك، أو شيخَك. وليكنْ هذا أيضًا بخوفٍ، ومن دونِ تهامل.

- عن القدّيسِ برصانوفيوس -

أُرسِلَ أحدُ الإخوةِ بعيدًا في خدمةٍ للدّيرِ، فسألَ الشّيخَ هل يستطيعُ، لدى دعوةِ الأصدقاءِ له، تناولَ الطّعامِ مع نساء. أجابَهُ الشّيخُ ألاّ يأكُلَ معهنّ، ولا بأيّةِ حال. فقالَ الأخ: «وكيف أعلَمُ، عندما أُدعى، هل ستأتي امرأةٌ لتناولِ الطّعامِ معنا كي أختارَ عدمَ الذّهاب؟»

أجابَ الشّيخُ: «اسأَلْ مَن يدعوكَ إن كانَ يَستقبِلُ امرأة. إن قالَ: نعم، فاعتَذِرْ قائلاً: سامِحْني، لديّ وصيّةٌ بألاّ أتناولَ الطّعامَ مع امرأة». تابعَ الأخُ: «وإن حَدَثَ لي أن ذهبتُ من دونِ طرحِ السّؤالِ عن وجودِ امرأةٍ، وأتَتْ لتناولِ الطّعامِ معي إلى المائدةِ، فماذا أفعل؟» أجابَ الشّيخُ: «عليكَ أن تأخُذَ مَن دَعاكَ على حِدةٍ، وتقولَ له: سامِحْني، نسيتُ أن أُعلِمُكَ مُسبقًا أنّ لديّ وصيّةً بألاّ أتناولَ الطّعامَ مع امرأة. فاسمَحْ لي بالرّحيل. إن أَبْعَدَ المرأةَ، فابقَ. وإلاّ، فانسحِبْ ولا تتعدَّ الوصيّةَ، لئلاّ تجلبَ على نفسِكَ الموتَ بسببِ العصيان. ولا تَخَفْ، لأنّ ذلك لن يُسَبِّبَ عثرةً، بل، على العكسِ، سيجلِبُ منفعةً روحيّة.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ الأبُ مكاريوسُ: «لا تَنَمْ في قلاّيةِ أخٍ ذي سمعةٍ رديئة».

٢- قالَ الآباءُ: «إنّ الأولادَ، أكثرَ من النّساءِ، فخُّ الشّيطانِ للرّهبان».

٣- قالوا أيضًا: «هناك حيثُ يوجَدُ نبيذٌ وأولادٌ، لا حاجةَ للشّيطان».

٤- قالَ شيخٌ: «يا أولادي، يُستَخرَجُ الملحُ من الماء. ولكن، إن غَمَرْناه بالماءِ، ينحلّ ويضمحلّ. كذلك الرّاهبُ، إنّه يأتي من امرأةٍ، ولكنّه إن اقترَبَ منها، ينحلّ وينفسدْ».

٥- قالَ تلميذُ الأبِ سيسوي له: «يا أبتِ، لقد شختَ، لنذهَبْ إلى القربِ من المنطقةِ المأهولة». أجابَهُ الشّيخُ: «لنذهَبْ حيثُ لا يوجَدُ نساء». قالَ له تلميذُه: «وأينَ يوجَدُ مكانٌ من دونِ نساءٍ، سوى الصّحراء؟» فقالَ الشّيخُ: «إذًا، اذهَبْ بي إلى الصّحراء». سلكَ هذا الشّيخُ الحياةَ التّوحّديّةَ في جبلِ الأبِ أنطونيوسَ اثنَتيْنِ وسبعينَ سنةً، وقبلَ ذلك، أمضى سنواتٍ كافيةً في الإسقيطِ مع الأبِ أور. وانظُرْ كيف، على الرّغمِ من هذه الخبرةِ، لا يزالُ يَحرُسُ ذاتَه.

٦- سألَ أخٌ شيخًا: «إن كانَ من الضّروريّ لقاءُ امرأةٍ، فكيف ينبغي التّصرّف؟» أجابَ الشّيخُ: «إنّ ضرورةً كهذه هي من الشّيطانِ، أي من الخدّاعِ الّذي يُظهِرُ حججًا كثيرةً ومتنوّعةً، مدّعيًا أنّها ضروريّةٌ، ليستطيعَ، عبرَ إحداها، أن يُخْضِعَ المجاهدَ الرّوحيَّ، ويأخُذَه معه إلى وَهْدَةِ الهلاك. ولكن، إن حدثَ، كما قلتَ، وبرزَتْ ضرورةٌ للتّحدّثِ مع امرأةٍ، ذاتَ يومٍ، فلا تَدَعْها تسترسلُ كثيرًا في التّكلّمِ معك. من جهتِك، عندما تتكلّمُ، أدخُلْ في صلبِ الموضوعِ مُختصِرًا الكلامَ، وبسرعةٍ أرسِلْها بسلام. أمّا إن تباطَأْتَ معها، فلن تنجوَ من تأثيرِها الضّارّ، وسيمتلئُ ذهنُكَ بالأفكارِ الدّنسةِ، ويسترخي، ثمّ يَسقط».

٧- ذهبَ أحدُ الإخوةِ ليزورَ أختَهُ المريضةَ في أحدِ الأديار. ولكنّها كانَتْ مؤمنةً كثيرًا، ولم تقبَلْ حضورَ رجل. ولم يَكُنْ هذا سببَ رفضِها، بل لأنّها

لم تشأْ مجيءَ أخيها بين النّساءِ بسببِها. فأرسلَتْ إليه تقولُ: «إرحَلْ من هنا، يا أخي، وصلِّ من أجلي، وبنعمةِ المسيحِ، سأراكَ في ملكوتِ السّماوات».

٨- كانَ أخٌ يسيرُ مع أمِّه المسِنّة. عند وصولِهما إلى النّهرِ، لم تستطِعِ المرأةُ العجوزُ عبورَه. فأخذَ ابنُها معطفَه، وغلَّفَ يدَيْهِ به، وهكذا حملَها، وذهبَ بها إلى الشّاطئِ المقابل. حينئذٍ، قالَتْ له أمُّه: «يا بُنيَّ، لماذا غلّفتَ يدَيْك؟» أجابَها: «إنَّ جسدَ المرأةِ نارٌ، ومنه يأتي ذكرى نساءٍ أخريات. لهذا حرصتُ على عدمِ لمسِ جسدِكِ بيدَيْنِ عاريتَيْن».

٩- قالَ الأبُ دانيالُ لأخٍ كانَ الزّني يُزعجُه: «لا تَمُدَّ يدَكَ بتاتًا إلى الصّحنِ نفسِهِ مع امرأةٍ، ولا تأكُلْ معها. بهذا تتجنّبُ شيطانَ الزّنى».

١٠- قالَ الأبُ يوحنّا القصير: «ذاك الّذي يأكُلُ من دونِ اعتدالٍ، ويتكلَّمُ مع ولدٍ، قد زنى معه بفكرِه».

١١- قالَ الأبُ كاريون: «الإنسانُ الّذي يَسكُنُ مع ولدٍ، وهو ليس قويًّا، يسقُط. وإن كانَ قويًّا ولم يسقُطْ، فهو، على أيِّ حالٍ، لا يتقدَّم».

١٢- كان، في نواحي مصرَ، متوحِّدٌ مَشهورٌ يسكُنُ في قلاّيةٍ مُنعزلةٍ في الصّحراء. ولكن، بتحريضٍ من الشّيطانِ، سمعَتْ عنه امرأةٌ قليلةُ الحِشمةِ، فقالَتْ لبعضِ الشّبّانِ: «ماذا تُعطوني إن رَمَيْتُ مُتوَحِّدَكم في الخطيئة؟» فوافقوا على إعطائِها شيئًا. ذهبَتْ في المساءِ، ووصلَتْ إلى قلاّيتِهِ مُدَّعيةً أنّها أضلَّتِ الطّريق. وقفَتْ بالبابِ، وقرعَت. خرجَ الشّيخُ، فاضطربَ لدى رؤيتِها، وسألَها: «كيف أتيتِ إلى هنا؟» أجابَتْ باكيةً: «وصلتُ إلى هنا لأنّني أضللتُ طريقي. ولكن، أشفِقْ عليَّ، ولا تسمَحْ أن تَدَعَني خارجًا لتلتهِمَني الوحوش». أشفقَ عليها الشّيخُ، وأدخلَها إلى القلاّية.
خلالَ اللّيلِ، بدأَ الشّيطانُ يَبذُرُ في رأسِهِ أفكارَ زنى. أمّا هو، ففهمَ

حربَ العدوِّ، وقالَ لذاتِه: «حيلُ العدوِّ ظلمةٌ، بينما ابنُ اللّهِ نور». فنهضَ وأشعلَ القنديل. وقالَ لذاتِهِ فيما شعلةُ الرّغبةِ تَشتدُّ في داخلِهِ وتُحرِقُهُ بشكلٍ رهيبٍ: «مُرتكِبو هذه الأفعالِ يَذهبونَ إلى الجحيم. إذًا، اختبِرْ من هنا إن كنتَ تَستطيعُ احتمالَ النّارِ الأبديّة». حينئذٍ، وضعَ إصبعَهُ في شعلةِ القنديلِ، ولم يسحَبْهُ إلى أن احترقَ كليًّا. مع ذلك، لم يشعُرْ بهذا الحرقِ، لأنّ احتراقَهُ الجسديَّ كانَ قد تجاوزَ الحدّ. عندما احترقَ الإصبعُ الأوّلُ، وضعَ الثّاني، ثمّ الثّالثَ، بحيثُ أنّه لم يأتِ الصّباحُ إلاّ وكان قد أحرقَ أصابعَ يدَيْهِ كلَّها.

خلال ذلك، عندما رأَتْ تلك المرأةُ البائسةُ ما يفعَلُ الشّيخ، وكيف يُحرِقُ أصابعَه، تجمّدَتْ من الخوفِ، وانتهى بها الأمرُ أن أسلَمَت روحَها. عند الصّباحِ، أتى الشّبّانُ الّذينَ عقدوا الاتفاقيّةَ مع المرأةِ إلى المتوحّدِ، وسألوه: «هل أتَتْ إلى هنا امرأةٌ مساءَ أمس؟» أجابَهم: «نعم، إنّها نائمةٌ في الدّاخل». دخلوا، ووجدوها ميتةً، وقالوا للشّيخِ: «يا أبتِ، لقد ماتَتْ!» حينئذٍ، كشفَ الشّيخُ عن يدَيْه، وأراهم إيّاها قائلاً: «إليكم ما فعلَتْ بي ابنةُ الشّيطان. لقد أتلفَتْ أصابعي». وبعد إخبارِهم بالحادثِ، أضافَ: «يقولُ الكتابُ: لا تُقابِلِ الشّرَّ بالشّرّ[٣٤٩]. فلنُصَلِّ لتعودَ إلى الحياة». وبعدَ أن صلّى أقامَها وأرسلَها بسلام. بعد رحيلِها، عاشَتْ في العفّةِ بقيّةَ أيّامِ حياتِها.

١٣- قيلَ عن شيخٍ إنّه فيما كانَ يمشي، وجدَ آثارَ خُطى امرأةٍ على الطّريق. فمحاها قائلاً: «لئلاّ يراها أحدُ الإخوةِ ويتجرّب».

١٤- قيلَ عن أحدِ الشّيوخِ الكبارِ إنّه أتى إلى ديرِ شَركةٍ، ورأى هناك ولدًا صغيرًا. فلم يُرِدْ أن ينامَ في ذلك المكان. سألَهُ الإخوةُ الّذينَ يُرافقونَه: «أنت أيضًا تخافُ، يا أبتِ؟» أجابَ: «في الواقعِ، أنا لا أخافُ، يا أولادي، ولكن، ما الحاجةُ إلى حربٍ زائدة؟»

٣٤٩. أنظر ١ تس ٥، ١٥. ١ بط ٣، ٩.

١٥- يُقالُ إنّه، ذاتَ يومٍ، ذهبَ الشّيطانُ وقرعَ بابَ دير. فأتى ولدٌ ليُجيبَه. لدى رؤيتِه للمُراهقِ، قالَ الشّيطانُ: «بما أنّكَ أنتَ هنا، فلا حاجةَ لي».

١٦- قالَ الآباءُ إنّ اللّهَ لا يجلبُ الأولادَ إلى الصّحراءِ، بل الشّيطانَ، ليُدَمِّرَ الّذينَ يُريدونَ أن يعيشوا بتقوى.

١٧- أتَتْ مرّةً إلى «ذيوكلو» سفينةٌ، ورسَتْ في جبلِ الرّهبان. نزلَتِ امرأةٌ منها، وأتَتْ لتجلِسَ على تلّة. رآها أحدُ الإخوةِ، الّذي أتى كالعادةِ ليغترِفَ ماءً من النّهرِ، وقفلَ راجعًا ليقولَ للكاهنِ: «هناك امرأةٌ جالسةٌ على حافّةِ النّهرِ، يا أبتِ، وهذا لم يسبِقْ له أن حصلَ هنا». لدى سماعِ ذلك، تناولَ الشّيخُ عصاه، وبدأَ يجري صارخًا: «النّجدةَ، يا إخوةُ، أتى لصوص». عند هذا الإنذارِ، تناولَ الإخوةُ جميعُهم عِصِيَّهم، وركضوا إلى النّهر. عندما رأى البحّارةُ هذه الهجمةَ، فَهِموا ما يجري، فأسرعوا إلى سحبِ المرأةِ إلى السّفينةِ، وقطعِ الحبالِ، وتركِ السّفينةِ تَتْبَعُ التّيّار.

١٨- قالَ شيخٌ: «فخُّ الشّيطانِ للإنسانِ، وطبعًا الشّابّ، هو جسدُه، كما ينصَحُنا الأبُ أشعيا: لا تُمسِكْ أحدًا بيدِه، ولا تَقرُبْ جسدًا آخرَ، إلاّ في حالةِ المَرَضِ الشّديدِ، وافعَلْ ذلك بخوف. ولا تَدَعْ أحدًا آخرَ يُقَرِّبُ يدَهُ منك، أو يُداعِبُكَ بأيّةِ حركة. لا تطلُبْ أبدًا من أحدٍ أن ينتزِعَ قملةً من لحيتِك، أو شعرِك، أو اللّباسِ الّذي ترتديه. طولَ حياتِك، لا تَنَمْ بتاتًا بالقربِ من أحدِهم، ولا تُقَبِّلْ ولدًا أمرد[٣٥٠]، حتّى ولو في الكنيسةِ، وإن كانَ آتيًا من الخارج. لا تُمازِحْ ولدًا لئلاّ تَهلَكَ نفسُك. ولا تجلِسْ، ولا تَمْشِ بالقربِ منه. حتّى خلالَ حاجتِكَ الجسديّةِ، لا تجلُسْ بتاتًا مع آخرَ، لأنّ التّقيَّ حقيقةً يخجَلُ من ذاتِه. كثيرونَ، بسببِ اعتبارِهِم هذه الأمورَ تافهةً، وقَعوا في الهُوَّةِ وهَلَكوا، لأنّ كلَّ رذيلةٍ تبدَأُ بشيءٍ صغيرٍ، ثمّ تَصيرُ كبيرة.

٣٥٠. أمرد أي بلا لحية.

- عن القدّيس أفرام -

إنّ وجودَ ولدٍ في ديرٍ شَركةٍ يُعَدُّ غايةً في الخَطَرِ، إن لم يَسُدِ النّظامُ الحَسَن. أمّا مَن يُربِّي ولدًا بطريقةٍ مَرضيّةٍ للّهِ، فمُبارك. يا عزيزي، هل تَفُرُّ من رُماةِ السّهامِ القادرينَ على جرحِ الجسد؟ فُرَّ بالأحرى ممّن يثقبونَ النّفسَ بسهامِهم. هل تهرُبُ من الحيّةِ المُزمِعةِ أن تعضَّ الجسد؟ أهرُبْ بالأحرى من المرأةِ الّتي تُهاجِمُ نفسَك. مَن يُراقِبْ جمالَ النّساءِ، يزرَعْ في نفسِهِ الشّهوة. ومَن يَتجاوَزْ عتبةَ بيتِها، يُشبِهْ إنسانًا يَمشي فوقَ الجليدِ، ولن يتأخّرَ عن الانزلاق. يا عزيزي، هل تتجنّبُ النّارَ خشيةَ الاحتراق؟ تجنّبْ كذلك الخطيئةَ خشيةَ أن تُرسِلَكَ إلى النّارِ الّتي لا تُطفَأُ، ويَحترِقَ جسمُكَ فيها أبديًّا مع نفسِك. عندما يلتقي راهبٌ بامرأةٍ، يكونان مثلَ متصارعيْن. المُتيقِّظُ فيما بينهما يُعرّي الآخرَ، ولكنّه يَتعرّى بدوره. إنّ ربطَ العفّةِ مع رفقةِ امرأةٍ يكونُ مثلَ سُكنى اللّبوةِ مع الخروف.

الفصل الثّلاثون

على المؤمنِ ألاّ يحتملَ مطلقًا سماعَ المزمارِ أو القيثارةِ أو أيّةِ موسيقى من المسارحِ، بل أن يتجنّبَها كمسبِّبةٍ للموت.

- عن غريغوريوس الذّيالوغوس -

طلبَ رجلٌ نبيلٌ جدًّا يُدعى فورتوناتوس إلى عبدِ اللّهِ بونيفاتيوس، أسقفِ «فرنتيس»، الّذي لمعَ بأعمالِه العجيبةِ، أن يأتيَ إلى بيتِهِ ويُباركَه. قَبِلَ الأسقفُ ذلك بطيبِ خاطرٍ لأنّه عَرَفَ أنّ الرّجلَ يطلبُ إليه ذلك بإيمانٍ، وذهبَ إلى بيتِ فورتوناتوس. بعد تحضيرِ المائدةِ، وقبلَ أن يقدِّمَ بونيفاتيوسُ صلاةً إلى اللهِ قبلَ تناولِ الطّعامِ، ظَهَرَ مُعوزٌ في البابِ، وضَرَبَ على الصّنوجِ ليعطوه الطّعام. انزعجَ الأسقفُ كثيراً من هذا الضّجيجِ، وقالَ بحزنٍ: «الويلُ، ثمّ الويلُ! لقد ماتَ هذا المسكين! أنا أتيتُ إلى مائدةِ الفرحِ، وقبلَ أن أفتحَ فمي لأمجِّدَ اللّهَ، أتى هذا الرّجلُ، وخَلّفَ صدًى بصنوجِه». ثمّ أضافَ: «أعطوه طعامًا وشرابًا بداعي المحبّة. ولكن، اعلموا أنّه قد مات».

أمدَّ أصحابُ المنزلِ هذا الإنسانَ الشّقيَّ بالخبزِ والنّبيذِ، وأثناءَ خروجِهِ من البابِ، انفصلَتْ حَجرةٌ قرميدٍ من علوِّ السّقفِ، وسقطَتْ على رأسِهِ وهشّمَتْه. فحملوه وهو بين حيٍّ وميت. ولكنّه ما لَبِثَ أن فارقَ الحياةَ في اليوم التّالي، كما تنبّأَ رجلُ اللّه. هذه القصّةُ، يا بطرسُ، تَجعَلُنا نَفهَمُ عظمةَ القدّيسين. إنّهم بالفعلِ هياكلُ اللّه. ومتى غضبوا، يَعملُ اللّهُ قوّتَهُ بوساطتِهم، ويُتمِّمُ القرارَ الّذي اتّخذوه.


IC XC



الفصل الحادي والثّلاثون

الاحتلامُ وأسبابُهُ المُختلفة.

- عن كتابِ الشّيخ -

سُئِلَ شيخٌ عن الاحتلامِ، فأجابَ: «يجبُ ألاّ تُعيرَهُ انتباهَكَ مُطلقًا، بل أن تَعتَبِرَهُ مثلَ سيلِ أنفِك. في الواقعِ، إن رأيتَ مَلْحَمَةً أثناءَ سيرِكَ في السّوقِ، وشمَمْتَ رائحةَ اللّحومِ عند مرورِكَ من أمامِها، فهل تعتبِرُ أنّك أكلتَ أم لا؟ طبعًا ستقولُ: لا. وهكذا، لا يُلوِّثُكَ الاحتلام. أمّا إن رأى العدوُّ أنّ هذا يُفزِعُك، فسيهجُمُ عليكَ أكثر. مع ذلك، عندما تعودُ إلى وعيِك، انتبِهْ ألاّ تتنازلَ لفكرِكَ. أي عندَ استيقاظِك، لا تُعِدِ الحُلْمَ إلى ذاكرتِك وتَرضَ به.

- عن الأبِ أشعيا -

إن تعرّضتَ، خلالَ اللّيلِ، لتجربةٍ مُشاهِدًا أحلامًا دنسةً، فاحترِسْ ألاّ تُفَكِّرَ خلالَ النّهارِ في الأجسادِ الّتي رأيتَها، فيُلوِّثَكَ مَشهدُ لذّتِها، وتجلِبَ لذاتِكَ عقابًا شديدًا، إنّما اطرَحْ ذاتَكَ أمامَ اللّهِ من كلِّ قلبِك، وهو سيأتي إلى نجدتِكَ لأنّه يَرأفُ بضعفِ الإنسان.

- عن القدّيسِ مكسيموس -

يقولُ بعضُ النّاسِ إنّ الشّياطينَ يقتربونَ، أثناءَ النّومِ، من أعضاءِ الجسدِ التّناسليّةِ، ويُثيرونَ هوى الزّنى. ثمّ يَجلبُ الهوى المُثارُ شكلَ امرأةٍ إلى الذّهن من خلالِ الذّاكرة. ويقولُ بعضُهم، على عكسِ ذلك، إنّ التّخيّلاتِ، أثناءَ النّومِ، تأتي من الشّياطينِ الّذينَ يَظهرونَ للذّهنِ بشكلِ امرأةٍ، ومن جهةٍ أخرى يُثيرونَ الشّهوةَ الجنسيّةَ باقترابِهم من أعضاءِ الجسدِ التّناسليّة.

آخرونَ أيضًا يقولونَ إنّ الهوى الّذي يُسيطِرُ على الشّيطانِ، عندما يقترِبُ من الإنسانِ، يُحرِّك فيه هواه الخاصّ، وهكذا تتعلّقُ النّفسُ بأفكارٍ وتَستدعي الأشكالَ من الذّاكرة. يحدُثُ الأمرُ ذاتُهُ مع تخيّلاتِ الأهواءِ الأخرى: يقولُ بعضُهم إنّها تحدُثُ بشكلٍ أو بآخر. مع ذلك، مهما تَكُنِ الطّريقةُ، فأمرٌ واحدٌ أكيدٌ: إن سكنَتِ المحبّةُ والزّهدُ في النّفسِ، لا يستطِعْ أيٌّ من الأساليبِ الحربيّةِ الّتي تكلّمْنا عليها أن يجعَلَ الشّياطينَ قادرينَ على إثارةِ أيِّ هوى، سواءَ كانَ الجسدُ صاحيًا أو نائمًا.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ شيخٌ: «عَوِّدْ قلبَكَ، رويدًا رويدًا، أن يقولَ بصدقٍ عن كلِّ واحدٍ من إخوتِك: «هذا يسبِقُني في طريقِ اللّه». وأيضًا: «هذا يفوقُني حماسة». بهذه الطّريقةِ، ستصِلُ إلى اعتبارِ ذاتِكَ أدنى من الجميعِ، وسيسكُنُ روحُ اللّهِ فيك. بينما، إن احتقرتَ أحدًا، تَنسَحبْ منك نعمةُ اللّهِ وتُسلِّمْكَ إلى أدناسِ الجسدِ، ويقسُ قلبُكَ، ولن يوجدَ فيكَ أيُّ تخشّع».

٢- سُئِلَ الأبُ بيمنُ عن التّلوّثاتِ، وأجابَ: «إن توقّفْنا عن الممارسةِ، أي عن ارتكابِ الخطيئةِ بالفعلِ، وبَقينا صاحينَ باجتهادٍ فيما يتعلّقُ بالأفكارِ، فلن يوجدَ في داخلِنا تلوّث».

٣- قالَ شيخٌ: «إنّ حسدَ الشّيطانِ تجاهَ البشرِ كبيرٌ، لأنّه غيرُ قادرٍ على تشتيتِ مُختاري اللّهِ بالأفكارِ الدّنسةِ عندما يكونونَ صاحين. لذا، على الأقلّ، يجلُبُ لهم تخيّلاتٍ خلالَ اللّيل. ولكنّ المُخادعَ لا يربَحُ شيئًا. فكما أنّ السِّقْطَ لا يَرِثُ أباه، هكذا هذه التّخيّلاتُ اللّيليّةُ، لا يَحسِبُها اللّهُ خطايا عند مُختاريه».

- عن القدّيسِ أفرام -

لا تَنَمْ ولديك شيءٌ ضدَّ أحدِهم، لئلاّ تزعجَكَ، خلالَ اللّيل، تخيّلاتٌ دنسة.

الفصل الثّاني والثّلاثون

عملُ النّوحِ الجزيلُ الفائدة. أشكالُه وأنواعُ الدّموعِ المختلفة.

- عن القدّيسِ غريغوريوس الذّيالوغس -

النّوحُ عدّةُ أنواعٍ صالحةٍ، يا بطرسُ. لذلك، يقولُ إرميا: «سَكَبَتْ عيناي ينابيعَ ماء»[٣٥١]. ولكن، مبدئيًّا، النّوعُ نوعان: عندما تَعطَشُ النّفسُ إلى اللّهِ، تبدأُ بشعورِ التّخشُّعِ أوّلاً بسببِ الخوفِ، ولاحقًا بسببِ الشّوق. في البدءِ، تُلَيِّنُ النّفسُ بالدّموعِ، وهي تتذكّرُ أعمالَها السّيّئةَ، خشيةَ أن تقَعَ في الجحيمِ الأبديِّ بسببِها. ثمّ بعدَ أن تبقى طويلاً في الحزنِ والضّيقِ، يزولُ شعورُ الخوفِ من النّفسِ، ويَختفي قلقُها بشأنِ المُسامحةِ، ومن هناك فصاعدًا، تشعُرُ بنوعٍ من الثّقةِ، وتشتَعِلُ بالشّوقِ للفرحِ السّماويّ. وهذه النّفسُ، الّتي بَكَتْ سابقًا بسببِ الخوفِ من اقتيادِها إلى المُحاكمةِ، تبدأُ بعدَ ذلك بالبُكاءِ المُرِّ من جديدٍ، لسببٍ مُختلفٍ، لأنّها بعيدةٌ عن الملكوتِ السّماويّ. في الواقعِ، عندما يَتنقّى الذّهنُ، يؤهَّلُ لرؤيةِ أجواقِ الملائكةِ، والنّفوسِ القائمةِ في الغبطةِ السّماويّةِ، في المجدِ والنّورِ، ولرؤيةِ اللّه نفسِه.

هكذا، تنوحُ النّفسُ بتواترٍ مُتصاعدٍ لأنّها محرومةٌ من الخيراتِ الثّابتةِ، وبذلك تُقادُ من الخوفِ إلى المحبّة. تصِفُ ذلك، بشكلٍ رائعٍ، القصّةُ الشّريفةُ الحقيقيّةُ لعَكْسَة، ابنةِ كالب: «فيما هي جالسةٌ على الحمارِ، تنهّدَتْ، فسألَها والدُها: ما بكِ؟ أجابَتْه: أريدُ أن تُهديَني أرضًا مَرويّةً، لأنّ هذه الّتي سَبَقَ

---

٣٥١. أنظر مراثي إر ٣، ٤٨.

وأعطيتَني إيّاها جافّة. وأعطاها والدُها الينابيعَ العُليا والينابيعَ السُّفلى»[٣٥٢]. ترمزُ عَكْسَةُ الجالسةُ على الحمارِ إلى النّفسِ الّتي تسودُ على حركاتِ جسمِها البهيميّة. ويشيرُ عملُ تنهّدِها وطلبُها إلى والدِها الأرضَ المَرويّةَ إلى أنّنا يجبُ أن نطلُبَ من خالقِنا موهبةَ الدّموعِ بتنهّداتٍ كثيرة.

فكثيرونَ استحقّوا نوالَ موهبةِ التّعليمِ، وبشّروا بدالّةٍ بالحقيقةِ، وعزّوا الحزانى، وساعدوا المُحتاجينَ، وكانَ لديهم إيمانٌ حارٌّ، ولكنّهم لم يتوصّلوا بعدُ إلى نوالِ موهبةِ الدّموع. لقد امتلَكوا الأرضَ الجنوبيّةَ الجافّةَ، وما ينقُصُهم الآن هو الأرضُ المَرويّة. طبعًا، إنّهم يَعيشونَ عاكفينَ على الأعمالِ الحسنةِ، ولكن، ما يُحسَبُ أكثرَ أهميّةً هو أن ينوحوا على الأعمالِ السّيّئةِ الّتي فعلوها سابقًا - إمّا خوفًا من الدّينونةِ، وإمّا شوقًا إلى ملكوتِ السّماواتِ - وهكذا يدخلونَ، هم أيضًا، إلى هناك حيثُ دخلَ العُظماءُ الّذينَ اشتعلوا شوقًا إلى الملكوت.

على الرّغمِ من ذلك، كما قلتُ، من النّوحِ نوعان: فقد أعطى كالبُ ابنتَه الينابيعَ العُليا، والينابيعَ السُّفلى. تحصُلُ النّفسُ على الينابيعِ العُليا، عندما تنوحُ بسببِ شوقِها إلى الملكوتِ السّماويِّ، وتحصلُ على الينابيعِ السّفليّةِ، عندما تنوحُ بسببِ خوفِها من الجحيمِ الأبديّة. وبحسبِ الخبرةِ، لا بدَّ من أن تُعطى الينابيعُ السُّفليّةُ قبلَ الينابيعِ العُليا، إذ إنّ حالةَ نوحِ الأخيرةِ أسمى من حالةِ نوحِ الأولى، لذلك، كانَ يليقُ بالرّوايةِ أن تَذكُرَ أوّلاً الينابيعَ العُليا، وثانيًا الينابيعَ السُّفلى.

- عن القدّيسِ أفرام -

بدءُ النّوحِ أن يعرفَ المرءُ ذاتَه. ولكن، يجبُ ألاّ يكونَ نوحُنا عاطفةً بشريّةً، ولا مشهدًا للنّاسِ، بل مَوقِفًا صحيحًا أمامَ اللّهِ الّذي يعرفُ خفايا القلوبِ، على رجاءِ أن نحظى بتطويباتِه[٣٥٣]. بالتّالي، ليَكُنْ وجهُنا فرحًا أمامَ

٣٥٢. يشوع ١٥، ١٨- ١٩. الرّواية مأخوذةٌ من النّصّ اللاّتينيّ للكتاب المُقدّس.

٣٥٣. أنظر مت ٥، ٤.

النّاسِ، أمّا داخليًّا، فَقَلْبُكِ ولنحفَظِ النّوحَ، لأنّه يعمَلُ وَيَحرُس[٣٥٤]. النّوحُ يغسِلُ النّفسَ بوساطةِ الدّموعِ، ويُجدِّدُ نقاوتَها. يَلِدُ العفّةَ، يُخمِدُ اللّذّاتِ، يُنمّي الفضائل. ماذا أستطيعُ القولَ بعد؟ إنّ مَن لديه نوحٌ يُطوِّبُه اللّهُ، وتُعزِّيهِ الملائكة.

أيُّها الرّبُّ الصّالحُ والرّؤوفُ وحدَه، هَبْني دموعَ تخشُّعٍ، لأستطيعَ أن أبكيَ ذاتي، وأبتهِلَ من أجلِ رأفتِك. نقِّني من دَنَسِ الخطيئة. ويلٌ لي، كيف سأحتمِلُ جهنّمَ النّارِ، والظّلمةَ الخارجيّةَ حيثُ يَسودُ البكاءُ وصريفُ الأسنان[٣٥٥]؟ ويلٌ لي، كيف سأحتمِلُ الجحيمَ، والعذاباتِ الأبديّةَ الّتي هناك، والدّودَ السّامَّ الّذي لا يموت[٣٥٦]؟ ويلٌ لي، كيف سأحتمِلُ التّهديداتِ الرّهيبةَ للملائكةِ المُخيفينَ والقُساةِ المُشرِفينَ على التّعذيبات؟ مَن سيُعطي ماءً وفيرًا لرأسي، لتصيرَ عيناي ينابيعَ دموعٍ[٣٥٧]، لأجلسَ وأبكي، ليلاً ونهارًا، وأستعطفَ اللّه الّذي أغضبتُه؟

هل خطئتِ، يا نفسي، هل خطئتِ؟ فتوبي. أنظُري كيف تَمُرُّ أيّامُنا كالخيال[٣٥٨]. بعدَ قليلٍ، تترُكينَ هذا العالم. لا بدَّ من أن تجتازي أماكنَ رهيبةً، يا نفسُ، ومُستحيلٌ أن تتجنَّبيها. لن تجِدي إنسانًا من هذا العالم ليرافقَكِ ويساعدَكِ، لا أبًا، ولا أمًّا، ولا أخًا، ولا صديقًا، ولا أحدًا آخر. ولكنّكِ ستَمْثُلينَ وحدَكِ معَ أعمالِكِ أمامَ رؤساءِ الظّلمة. هؤلاءِ لا يَخافونَ الملوكَ، ولا يُكرِّمونَ المُقتدرينَ، لا يهابونَ كبيرًا ولا صغيرًا. وحدَهُ الإنسانُ الّذي عاشَ بتقوى، يَحميه اللّهُ منهم بسببِ أفعالِهِ الحسنة. أمامَ شخصٍ كهذا يَرتَدّونَ إلى الوراءِ خائفينَ، ويتركونَهُ يَمُرُّ من دونِ عائق. ففضيلتُه تتقدَّمُه، ومجدُ اللّهِ يُحيطُ به[٣٥٩].

يا إلهي، عندما أُفكِّرُ في تلك السّاعةِ، أرتمي على الأرضِ أمامَ صلاحِكَ، قائلاً: لا تُسلِّمْني إلى الّذينَ يُريدونَ لي الشّرَّ، أيّها الرّبُّ الصّالحُ، لئلاّ يفتخرَ، على

---

٣٥٤. أنظر تك ٢، ١٥، حيثُ يذكر أنّ اللّه وضع آدم في الفردوس، «ليعمل فيها ويحرسها». غالبًا ما يطبّق الآباء النّسّاك هذا التّعبير في الحياة الرّوحيّة، فبينما يحفظ المرء كلّ ما لديه بالحراسة، يكتسب أشياء أخرى بالعمل.

٣٥٥. مت ٢٢، ١٣. ٢٤،٥١ . لو ١٣، ٢٨.

٣٥٦. أنظر مر ٩، ٤٤. ٤٦. ٤٨.

٣٥٧. إر ٩، ١.

٣٥٨. أنظر مز ١٤٣، ٤.

٣٥٩. أنظر أش ٥٨، ٨.

حسابِ عبدِكَ، أعداؤُك الّذينَ يَصرفونَ بأسنانِهم، ويُخيفونَ نفسي الخاطئةَ، ولا يقولوا: «لقد وقعتَ بين أيدينا! ها هو اليومُ الّذي انتظرناه». يا ربُّ، لا تنسَ رأفتَك. لا تُكافِئْني بحسبِ آثامي، ولا تصرِفْ وجهَكَ عن عبدِك[٣٦٠].

أدِّبْني، يا ربُّ، ولكن، برأفتِكَ، لأنّني ضعيف. لا يفرحَنَّ العدوُّ بسببي. أَخْرِسْ تهديدَه وأَبِدْ قوّتَه، وامنَحْني أن أعبرَ الطّريقَ الّتي تقودُ إليكَ، من دونِ أن أتعرَّضَ للذُّلِّ والضّربات. اسمَعِ ابتهالي، أيّها الرّبُّ الصّالحُ، لا لفضائلي، بل لرأفتِكَ ورحمتِكَ الّتي لا قياسَ لها، وخَلِّصْ من الموتِ نفسًا تدعو باسمِكَ القدّوس.

تذكَّرْ، أيّها الرّبُّ الكثيرُ الرّحمةِ، أنّني بعد أن أخطأتُ، وتجرّحتُ حتّى الموتِ، لم أرفَعْ يدَيَّ إلى إلهٍ غريبٍ[٣٦١]، ولم ألجَأْ إلى طبيبٍ آخرَ، بل إلى صلاحِك. لأنّك أنتَ، يا ربُّ، إلهُ الكونِ وتسودُ على كلِّ نفس. نقِّني من خطاياي كلِّها قبلَ النّهايةِ، يا ربُّ، ولا تَرذُلْ طلبتي. أيّها الرّبُّ الصّالحُ، فمٌ دَنِسٌ يُناديك، وقلبٌ مُلوَّثٌ، ونفسٌ مُدنَّسَةٌ بالخطايا.

اسمَعْني، يا ربُّ، أنا غيرَ المُستحقِّ، من أجلِ صلاحِكَ الّذي يفوقُ الحدَّ، ولا يُمكنُ وصفُه، وأعطِني توبةً نقيّةً وحقيقيّةً، لأنَّ توبتي لا فائدةَ منها: أتوبُ ساعةً، وأُغْضِبُكَ ساعتَيْن. وطِّدْ قلبي بخوفِك، أيّها الرّبُّ الصّالح. ثبِّتْ قدمَيَّ على صخرة[٣٦٢] توبةٍ صادقة. ليغلِبْ صلاحُكَ الشرَّ الّذي فيَّ، يا ربُّ، وليبدِّدْ نورُ نعمتِكَ ظلماتي.

يا ربُّ، أنتَ فتحتَ أعينَ العميانِ[٣٦٣]، فافتحْ عينَيْ قلبي المُظلمتَيْن. أنتَ الّذي بكلمةٍ طهّرتَ البُرْصَ[٣٦٤]، فطهِّرْ أيضًا أوساخَ نفسي. لتَكُنْ نعمتُكَ، يا ربُّ، كالنّارِ الّتي تُحرِقُ خطاياي. لأنّك أنتَ وحدَكَ طبيبُ النّفوسِ، والنّورُ الّذي يسمو على كلِّ نورٍ، والفرحُ، والرّاحةُ، واللّذّةُ، والحياةُ الحقيقيّةُ، والخلاصُ الباقي من جيلٍ إلى جيلٍ، ولكَ يَليقُ المجدُ والإكرامُ والسّجودُ، الآنَ وكلَّ آنٍ وإلى دهرِ الدّهور. آمين.

أمّا أنتم، يا أحبّاءَ اللّهِ المُختارينَ، فأرجوكم أن تتوسّلوا إلى صلاحِهِ

---

٣٦٠. أنظر مز ١٢، ٢.
٣٦١. أنظر مز ٤٣، ٢١.
٣٦٢. أنظر مز ٣٩، ٣.
٣٦٣. مر ٨، ٢٥. ١٠، ٥٢. لو١٨، ٤١-٤٣ . يو ٩، ٧.
٣٦٤. لو ١٧، ١٢- ١٤.

من أجلي أنا الخاطئ، كما فعلَ الرّسُلُ من أجلِ المرأةِ الكنعانيّة[٣٦٥]. أنتم أيّها المستحقّونَ، صلّوا من أجلي أنا غيرَ المُستحقّ. أنتم أيّها المُكرَّمونَ، ابتهِلوا من أجلي أنا العامّيِّ والعديمَ الفائدةِ، كي يمتزجَ ابتهالي إلى اللّهِ بابتهالاتِكم المقبولةِ لديه، فيُعطى لي الحلُّ من طُغيانِ الشّيطانِ، ويُكتَبَ اسمي في سفرِ الحياةِ[٣٦٦]، وأؤهَّلَ للسّجودِ، من دونِ خجلٍ، أمامَ عرشِ ملكوتِه، لأنّ له الملكَ والقوّةَ والمجدَ إلى الدّهور. آمين.

- عن الأبِ أشعيا -

١- الويلُ لي، ثمّ الويلُ، لأنّني لم أتحرَّرْ ممّا يقودُ إلى جهنّم. هؤلاءِ الّذينَ يُريدونَ أن يُلقوا بي إلى النّارِ ما زالَتْ ثمارُ أعمالِهم في جسدي، وكلُّ أفعالِهم تتحرّكُ في قلبي. فأنا لا أعلمُ إلى أين أذهبُ بعد رحيلي عن هذا العالم. لم تتمهَّدْ لي الطّريقُ المُستقيمةُ بعد. لم أتحرَّرْ من القوّاتِ الّتي ستحمِلُني في الجوِّ بسببِ الأعمالِ الشّرّيرةِ الّتي تمَّمتها فيّ. لم أختبِرْ بعد ثقةً كاملةً في علاقتي بالدّيّانِ، ولم يشهَدْ أحدٌ أنّني لا أستحِقُّ الموت. كما وأنّني لا زلتُ أفعلُ الشّرّ.

أيُّ فرحٍ لفاعلِ الشّرِّ المُغلَقِ عليه في السّجنِ، المُقيَّدِ بالسّلاسلِ، فهو لا يستطيعُ فعلَ مشيئتِه. مَن حُصِرَ في الغُلِّ[٣٦٧] لا يَعِظِ الآخرين. مَن هو في الآلامِ لا يتذكَّرُ الرّفاهية. مَن غُلَّ عُنُقُه لا يأكُلْ بلذّةٍ. لا يُفكِّرُ في صنعِ شرورٍ أخرى، ولكنّه يَذرِفُ الدّموعَ بقلبٍ حزينٍ على ما ارتكَبَهُ من الخطايا. ويقولُ عن كلِّ الآلامِ والعذاباتِ الّتي يُكبِّدونَهُ إيّاها: «نعم، أستحقُّ ذلك». يَحْسَبُ بلا توقُّفٍ ما الّذي سيَحدُثُ في النّهايةِ، ويتساءَلُ عن العقوباتِ الّتي تَستوجِبُها خطاياه. لا يَنشَغِلُ قلبُهُ بإدانةِ سواه، فالألمُ الّذي تُوحيهِ العذاباتُ يَعتَصِرُ قلبَه.

واحسرتاه! هذا التّفكيرُ يُمرمِرُهُ دائمًا. لا يَعضُدُ الآخرينَ في الضّجر. لا يَهتَمُّ بالطّعامِ مُطلقًا، والأمرُ مُتعلِّقٌ بالآخرينَ إن أشفقوا عليه وأعطوه. عندما

---

٣٦٥. مت ١٥، ٢٢-٢٣. ٣٦٦. رؤ ٢٠، ١٥.

٣٦٧. الغُلّ خشبة بفتحات كانوا يحصرونَ فيها رجلَي السّجين ويديه وعنقه أيضًا (أنظر أع ١٦، ٢٤).

يُهانُ، لا يُجيبُ مُهينيهِ بغضبٍ. أمسى الضّحِكُ غريبًا عنه. يَهزُّ رأسَهُ مُتنهِّدًا، وهو يُفكِّرُ في المحكمةِ الّتي هو مُزمِعٌ أن يمثُلَ أمامَها. إن سَمِعَ كلامًا، لا يقُلْ: «حسنًا»، أو «قبيحًا»، ولا يُعِرْهُ انتباهًا. تَجري من مقلتَيْهِ الدّموعُ من جرّاءِ الآلامِ الّتي تُضَيِّقُ على صدرِه. وهو يَحزَنُ أكثرَ إن كانَ يتحدَّرُ من عَائلَةٍ نبيلةٍ، بسببِ العارِ الّذي سيُلحِقُه بها عندما تَراهُ في المحكمة.

عندما تُعقَدُ الجلسةُ لمُحاكمتِه، لا يُراقِبُ النّاسَ ليرى إن كانوا صالحينَ أو أشرارًا، ولكنّه يَقِفُ مُرتَجِفَ القلبِ، وهو يَقْرَعُ صدرَه. إن وُجِدَ آخرونَ مَربوطينَ بالسّلاسلِ نفسِها معه، لا ينتَبِهْ لهم، ولا يَتباحَثْ معهم فيما يجبُ أن يفعلوه، لأنّ كلَّ واحِدٍ يَحمِلُ حِمْلَ نفسِه[٣٦٨]. وبعد أن يُدانَ، يَسوقونَه إلى الإعدامِ، فيكونُ وجهُهُ قاتمًا. لا أحدَ يَتفوَّهُ بكلمةٍ للدّفاعِ عنه خشيةَ القصاص. أمّا هو، فيعترِفُ بما فعلَهُ ويُقِرُّ بأنّه أُدينَ بعدلٍ عمّا ارتكبَهُ من الخطايا.

فإلى متى أسكَرُ من دونِ خمرٍ، غيرَ مُبالٍ بمستقبلي؟ قساوةُ قلبي جفّفَتْ عينَيَّ، والانشغالُ بالأعمالِ أنساني ساعةَ الظّلمة. فابكوا معي أنتم جميعًا، يا إخوتي، الّذينَ تعرفونَني، وتوسّلوا إلى اللّهِ ليرسلَ لي معونةً تفوقُ قُدرتي لتسودَ عليّ وتُحرِّرَني من الّذينَ يَسوقونَني إلى جهنّم.

يا إخوةُ، فَلنُجاهِدْ لنكتسِبَ مرتا ومريم، أي فضيلتَي الإماتةِ والنّوحِ، اللّتين تَبكيانِ أمامَ المُخلِّصِ ليقيمَ لعازرَ، أيّ الذّهنَ المُقمَّطَ بشرائطَ عديدةٍ من المشيئاتِ الخاصّة. والمُخلِّصُ يُظهِرُ رأفتَهُ ويُقيمُ صديقَهُ من أجلِهما. يَبقى للمَرأتَيْنِ أن تَحُلاّهُ وتَدعانِهِ حُرًّا[٣٦٩]. وفي حينِ تحريرِ لعازر، يَظهَرُ استعدادُ مريم ومرتا بوضوحٍ. من هناك فصاعدًا، يجلسُ لعازرُ المُتحرِّرُ من كلِّ همٍّ مع يسوعَ على المائدةِ، فيما مرتا تُكمِّلُ خدمتَها[٣٧٠] بحماسةٍ وفرحٍ، ومريمُ تجلبُ إناءً من المرمرِ مملوءًا بالطّيبِ، وتَدهَنُ قدمَي الرّبّ[٣٧١]. يَقبَلُ الرّبُّ النّوحَ كما قَبِلَ الطّيب. الإماتةُ الّتي تَصيرُ بمعرفةٍ تُصلِحُ مظاهرَ الإهمالِ السّابقةَ، فيما يَشفي تَخشُّعُ الحواسِّ الجراحَ الّتي يُحدِثُها الأعداءُ من الدّاخل.

---

٣٦٨. غلا ٦، ٥. ٣٦٩. يو ١١، ٤٣ – ٤٤. ٣٧٠. لو ١٠، ٤٠.
٣٧١. يو ١٢، ٢ – ٣.

إليكَ أعمالُ النّاسِ الّذينَ يَنوحونَ نوحًا صادقًا: يَجمعونَ الذّهنَ والحواسَّ بعيدًا عن العالمِ المَنظور. لا يُدينونَ القريبَ، لأنّ مَن يُكرِّسُ انتباهَهُ كلَّه لخطاياهِ يَحيدُ عن خليقةِ اللّهِ لئلاّ يُدينَها. لا يَنتقمونَ ممّن أساؤوا إليهم. لا يَحزنونَ لكلِّ ما يفعَلُهُ السّاكنونَ معهم من دونِ أن يأخذوا رأيَهم. لا يَعمَلونَ مشيئتَهم. لا يقولونَ عن أحدٍ إنّه صالحٌ أو شرّيرٌ، لأنّهم يَرَونَ من دواعي الخجلِ أن يسمحوا لأنفسِهم بسماعِ كلمةٍ واحدةٍ عن أحدٍ أنّه أسوأُ منهم. لا يُريدونَ أن يَعلَموا ما لا يتعلّقُ بهم. لا يتكدّرونَ عندما يوبَّخون. لا يستاؤونَ إن أُغفِلوا خلالَ التّوزيعِ العامّ[٣٧٢]. لا يضطربونَ عندما يُفتَرى عليهم بمسألةٍ غريبةٍ عنهم، ولكنّهم يُسارعونَ إلى طلبِ المغفرة. لا يَقبلونَ مديحًا، والإهانةُ لا تؤثِّرُ فيهم. لا يَسعَونَ وراءَ صداقةِ المُقتدِرينَ في هذا العالم. يَرفضونَ أن يَفرِضوا آراءَهم، حتّى ولو كانوا على حقٍّ، ولا يَدخلونَ في خصامٍ مع أحدٍ على شيء.

إذا اجتمعَتْ علاماتُ الفضائلِ هذه كلُّها، وكلُّ ما ينتُجُ عنها، في إنسانٍ، تُظهِرُ أنّه يمتلكُ نوحًا صادقًا، وأنّه يُدركُ، بعينَيْ ذهنِه، طبيعتَهُ الحقيقيّةَ وضعفَها، ويَرى مجدَ اللّهِ، عارفًا حقَّ المعرفةِ أنّه لا يستطيعُ إرضاءَ اللّهِ قياسًا بهذا المجد. لهذا السّببِ، يَكتفي بحزنِهِ الدّاخليِّ، باكيًا على ذاتِه، من دونِ أن ينشغلَ بالخليقةِ الّتي سيُدينُها اللّه. وهكذا، يَحفَظُ البناءَ الّذي بناه له النّوحُ سالمًا. والحقُّ، إنّ الحزنَ الّذي يُرضي اللّه[٣٧٣] القابضَ على قلبِ ذلك الإنسانِ يستطيعُ أن يُعطيَه السّيادةَ على حواسِّهِ الجسديّة. إلى ذلك، فمواجهتُهُ اليَقِظةُ للأفكارِ تَحفَظُ حواسَّ ذهنِهِ سالمة. فالإنسانُ لا يستطيعُ أن يَبقى لامُباليًا، أو أن يثقَ بذاتِهِ، ما لم يَصِلْ بعدُ إلى المَحكمةِ، ليسمعَ الحُكمَ، ويعلمَ إلى أين سيذهب. ما دامَ في الجسدِ، عليه أن يتعبَ بغيرِ انقطاع.

طوبى لمَن لا يَضعونَ ثقتَهم في أعمالِهم، مُعتقدينَ أنّها مرضيةٌ للّهِ، بل يَخشَونَ الذّهابَ للقائِه. ينوحونَ باستمرارٍ لعدمِ استطاعتِهم تطبيقَ مشيئةِ اللّهِ كلِّها. فسيَجدونَ بالحقيقةِ تعزيةً لا توصَف. عندما تَشهَدُ الملائكةُ

---

٣٧٢. يشير إلى أنواع عديدة من أطعمة، ألبسة، إلى آخره، الّتي كانَ يجلبها الزّوّار لتُوَزّع على النّسّاك.

٣٧٣. ٢ كور ٧، ١٠.

عنهم أنّهم أفلَتوا من رؤساءِ الظّلام[٣٧٤]، سيُحصَونَ أيضًا مع مواطني السّماء. ولكن، ما دامَتِ الحربُ مستمرّةً، يعيشُ الإنسانُ في حالةِ الخوفِ والرُّعبِ، بين الغلبةِ والانغلاب، اليومَ وغدًا. التّردّدُ في الجهادِ يُقلِقُ القلب. أمّا الإنسانُ الّذي بلغَ اللاّهوى، فلا يُواجِهُ حربًا. قد نالَ جائزةَ النّصرِ، ولم يَعُدْ يقلَقُ لأنّ نفسَهُ وجسَدَهُ وروحَهُ الّتي كانَتْ منفصلةً، هي الآن بسلامٍ، فيما بينها، بعد اتّحادِها.

فإذا توحّدَتْ هذه الثّلاثةُ بفعلِ الرّوحِ القدسِ، بحسبِ الرّسولِ[٣٧٥]، لا تستطيعُ أن تنفصلَ من بعدُ: «لقد ماتَ المسيحُ وقامَ، ولن يموتَ بعدُ؛ لم يَعُدْ للموتِ من سلطانٍ عليه»[٣٧٦]. موتُهُ صارَ خلاصًا لنا، لأنّه بهِ أماتَ الخطيئة. وقيامتُه صارَتْ حياةً أبديّةً لمَن يؤمنونَ به. أمّا أنتَ، فلا تَظُنَّ أنّكَ مُتَّ مهما يَضْغَطْ عليكَ الأعداءُ في اليقظةِ أو في النّوم. لأنّه، مهما يَشْقَ الإنسانُ في حلبةِ النّضالِ، لا يستطِعْ أن يطمئِنَّ، ولا أن يفتخِرَ بأعمالِهِ، حتّى يَصِلَ إلى النّهاية. أمّا الجاهلُ، فعلى الرّغمِ من سقوطِهِ كلَّ يوم، يعتقدُ أنّه يَربَحُ من دونِ أن يُجاهِدَ في الحلبة.

لهذا، أوصى الرّبُّ تلاميذَه قبلَ إرسالِهم إلى التّبشيرِ: «لا تُسَلِّموا على أحدٍ في الطّريق. وأيُّ بيتٍ دخلتُموه، فسلِّموا على مَن فيه. فإن كانَ هناك ابنُ السّلامِ، يَحِلَّ سلامُكم عليه»[٣٧٧]. فالتّلاميذُ كانوا لا يزالونَ يحتاجونَ إلى الاحتراس.

٢- هو نفسُه قالَ: «لهذا نشقى إلى هذا الحدِّ من أعدائِنا، لأنّنا لم نعرِفْ بعد نواقصَنا بدقّةٍ، ولا اكتسَبْنا معرفةَ النّوح. لأنّنا إن اختبَرْنا النّوحَ، فهو سيُظهِرُ لنا خطايانا. وإن تركْنا أعداؤنا نعرِفُ خطايانا حقيقةً، فسنخجَلُ من النّظرِ إلى الزّانياتِ، لأنّهنّ محترَماتٌ أكثرَ منّا؛ يرتكِبن خطاياهنّ جهارًا

٣٧٤. في النّصّ الأصليّ: رؤساء اليسار. يذكر الأب أشعيا مسيرة النّفس بعد الموت. (أنظر مقطعًا تحليليًا أكبر في الفصل الأوّل من الكتاب الأوّل).

٣٧٥. لا تُذكر أقوال كهذه في النّصوص الرّسوليّة. ربّما الأب أشعيا يستند على مقطع ١ تس ٥، ٢٣: «وإله السّلام نفسه يقدّسكم بالتّمام، ولتُحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم عند مجيء ربّنا يسوع المسيح».

٣٧٦. رو ٦، ٩.

٣٧٧. لو ١٠: ٤ – ٦.

لأنّهنّ لا يعرِفْنَ اللّهَ، بينما نحن المؤمنينَ نوافِقُ في داخلِنا على خطاياهنّ.

٣- قالَ أيضًا: «الإنسانُ الّذي ينظرُ إلى خطاياه باستمرارٍ، ليس له لسانٌ ليتكلّمَ مع إنسانٍ آخر».

٤- قالَ أيضًا: «ويلٌ لي، يا نفسي الشّقيّة. قلبي حزينٌ يُكابِدُ ألمًا مستمرًّا لأنّ سهامَ العدوِّ الملتهبة[٣٧٨] تسمّرَتْ عليّ، وأَعْمَتْ إنساني الدّاخليَّ، وغطّاني ظلُّ الموت[٣٧٩]. ويلٌ لي، يا نفسي البائسةَ، لأنّني اخترتُ الحزنَ عوضًا عن الفرحِ، وفضّلتُ الأرضَ ورمادَها على متعةِ الفردوسِ وملكوتِ السّماوات. مَن لا يرثي لي؟ مَن لا يسكبُ دموعًا مُرّةً عليّ، لأنّني أنفقتُ زمانَ حياتي باطلاً؟

أشفقوا عليّ! أشفقوا عليّ، يا أصدقائي، وتوسّلوا بلجاجةٍ إلى المسيحِ، ربّي الصّالحِ العديمِ الشّرّ، ليُحرِّرَني من عاداتي السّيّئةِ، علَّ ابتهالاتِكم تُثيرُ شفقتَه عليّ. وليطرِدْ عن ذهني الظُّلمةَ الرّهيبةَ الّتي يُسدِلُها عليَّ الشّيطانُ، عدوُّ الخيرِ، لأرى في أيّةِ وَهْدَةٍ أنا ساقطٌ، وليس لي إرادةٌ للخروجِ منها، ولو كانَ ذلك في طاقتي، إذ أخشى أن يكونَ زمانُ حياتي قصيرًا، ويَنقطِعَ منّي الرّجاء.

ليسَ ألمٌ مثلَ ألمي[٣٨٠]، ولا جُرحٌ مثلَ جُرحي، ولا حزنٌ مثلَ حزنِ قلبي، لأنّ آثامي قد تعالَتْ فوقَ رأسي[٣٨١]، وغرقتُ في حمأةٍ عميقةٍ ولا مُستقرَّ لي فيها[٣٨٢]. الويلُ لكِ، يا نفسي. إرفَعي ألحاظَكِ وانظُري: هذا العالمُ وقتيٌّ، وبعد قليلٍ يضمحلّ. فكِّري في الحياةِ المُستقبلةِ الحقيقيّة الباقيةِ إلى الأبد. لا تُسقِطي من حسابِكِ عِظَمَ الصّالحاتِ الّتي ستُحرَمينَ منها، ووفرتَها، وأيَّ عذاباتٍ لا نهايةَ لها سترَثينَ، من غير أن يستطيعَ أحدٌ أن يحلَّ مكانَكِ أو يُعزِّيَكِ. هيّا، قبلَ أن ينحجِبَ عنكِ نورُ الشّمسِ! بادِري واسجُدي متوسِّلةً ومُبتهلةً بتنهّداتٍ ودموعٍ إلى واهبِ النّورِ الّذي لا يموتُ، ليُخلِّصَكِ من النّارِ

٣٧٨. أنظر أف ٦، ١٦.
٣٧٩. أنظر مز ٤٣، ٢٠.
٣٨٠. مراثي إر ١، ١٢.
٣٨١. مز ٣٧، ٥.
٣٨٢. نو ٦٨ – ٣.

المُظلمةِ الّتي لا تُحتَمَلُ، ومن سائرِ العذابات. لأنّه وحدَه يستطيعُ أن يغفِرَ خطايانا، وأن يَمحوَ آثامَنا نحن غيرَ المُستحقّينَ لرأفتِه، وله المُلْكُ والقوّةُ والمجدُ إلى الأبد. آمين».

- عن القدّيسِ إسحق -

من الدّموعِ ما هو مُحرِقٌ، ومنها ما هو مُفرِح. الأولى سببُها الخوفُ، فيما الثّانيةُ سببُها المحبّة. الأولى، بما أنّها تجري عندما يبكي المرءُ من أجلِ خطاياه، تُجفِّفُ الجسدَ وتُحرِقُهُ، وتَتدفّقُ مُترافقةً والألم. في الواقعِ، غالبًا ما يُدرِكُ الذّهنُ، لدى جريانِ الدّموعِ، الأذى الّذي سبّبَتْهُ الخطايا. أمّا الدّموعُ الثّانيةُ، فتأتي إلى الإنسانِ بعد أن يكونَ قد سكبَ الدّموعَ الأولى كفايةً، وتَطهَّرَ بها من خطاياه برحمةِ الله. وهي تجري من دونِ غصبٍ، بلذّةٍ روحيّةٍ، فيما النّفسُ تتذوّقُ النّعمةَ الإلهيّة. وتتدفّقُ الدّموعُ من دونِ جهدٍ، بفرحٍ وعطشٍ إلى المحبّة. هذه الدّموعُ تَقودُ الجسدَ إلى الشّعورِ بالأمانِ وتُفَرِّحُه، وتُغيِّرُ وجهَ الإنسانِ، بحسبِ قولِ الكتابِ: «القلبُ الفَرِحُ يَجعَلُ الوجهَ مُشرقًا. أمّا عندما يكونُ القلبُ حزينًا، يكونُ الوجهُ مُقطّبًا»[٣٨٣]. إن تمنّينا التّوصّلَ إلى اكتسابِ الدّموعِ الثّانيةِ، فَلْنُنَمِّ الأولى قدرَ المستطاعِ، وسنحصُلُ عاجلاً على دموعِ الفرحِ، بنعمةِ الله.

سؤال: «هل ممكنٌ أن ننوحَ باستمرار؟»

جواب: «أجل، يمكنُ ذلك، لأنّ تأمّلَ الرّاهبِ برمّتِهِ في قلاّيتِهِ ليس سوى الدّموعِ، وعملُهُ هو النّوح. سِمَةُ الرّاهبِ هي النّوحُ. إنّها تدفَعُهُ وتُحَرِّكُه. يُدعى «إنسانًا في حِداد»، أي إنسانًا مُتمرمِرَ القلب. لقد فارقَ القدّيسونَ جميعُهم هذه الحياةَ نائحين. إن كانَ القدّيسونَ قد اختبَروا النّوحَ غيرَ المُنقطعِ، فكيف يَحتَمِلُ إنسانٌ مليءٌ بالجراحِ أن يتوقّفَ عن البكاءِ للحظة؟ نفسُكَ العزيزةُ عليكَ أكثرَ من العالمِ بأسرِهِ، المُثخَنَة بجراحاتِ الخطيئةِ، ترقُدُ الآنَ أمامَكَ ميتةً، أفلا تحتاجُ إلى البكاء؟ إنّ تعزيةَ الرّاهبِ تولَدُ من دموعِه.

---

٣٨٣. أم ١٥، ١٣.

في الواقعِ، من المُستحيلِ على مَن ينوحُ باستمرارٍ أن تُزعِجَهُ أهواؤه. وكلُّ مَن لا يحفَظُ في داخلِهِ ذكرَ ما تقترِحُهُ الأهواءُ يتنقّى، وبفضلِ هذه التّنقيةِ، يَستأهِلُ أن ينالَ تعزيةَ اللّهِ الّتي وعدَ الرّبُّ أن يُعطيَها لمَن ينوحونَ باستمرار[٣٨٤]».

- عن القدّيسِ برصانوفيوس -

سأل أخٌ شيخًا، قائلاً: «كيف أستطيعُ أن أقطعَ الدّالّةَ، وأسودَ على لساني؟» أجابَ الشّيخُ: «بالنّوح». وسألَ الأخُ ثانيةً: «وكيف أستطيعُ أن أحفظَ النّوحَ وأنا أدورُ باستمرارٍ بين النّاسِ بحُكمِ الطّاعةِ، وأهتمُّ بتوزيعِ الخدمة. وهل يوجدُ نوحٌ قلبيٌّ من دونِ دموع؟» أجابَ الشّيخُ: «لا يأتي النّوحُ من الدّموعِ، إنّما الدّموعُ من النّوحِ. إنّ مَن يُقيمُ بين النّاسِ، يكتسِبُ النّوحَ إن قَطَعَ مشيئتَهُ ولم ينتَبِهْ لأخطاءِ الآخرين. بالنّوحِ تَتَّحِدُ أفكارُ هذا الإنسان. وعندما تتّحِدُ، تَلِدُ في القلبِ الحزنَ بحسبِ مشيئةِ اللّهِ، والحُزنُ يُنبِعُ الدّموع».

- عن كتابِ الشّيخ -

١- سأل أخٌ شيخًا: «كيف يتوصّلُ الإنسانُ إلى البكاءِ، يا أبتِ؟» أجابَ الشّيخُ: «البكاءُ عادَة. ومَن يرغَبْ في هذه العطيّةِ عليهِ أن يُكرِّسَ ذاتَهُ لها لوقتٍ طويلٍ، إلى أن يتأمّلَ ذهنُهُ باستمرارٍ بالخطايا الّتي ارتكبَها والعقابِ، وأن يتذكّرَ باستمرارٍ القبرَ، وبكلّ بساطةٍ، أن يتأمّلَ كيف أمضى آباؤه وقتَهم، وأين هم الآن». سألَ الأخُ: «هل يجبُ أن يُفكِّرَ الرّاهبُ في أهلِه، حتّى ولو ماتوا، يا أبتِ؟» أجابَ الشّيخُ: «إن علِمتَ أنّ هذا الفكرَ يجلبُ تخشُّعًا إلى نفسِكَ، فتعلّقْ به. وعندما تأتي الدّموعُ، حينئذٍ، وجِّهها في الاتّجاهِ الّذي تُريدُه: إمّا نحو خطاياك، وإمّا نحو فكرةٍ حسنةٍ أخرى».

٢- أعرفُ إنسانًا عاكفًا على العملِ الرّوحيّ، غالبًا ما كانَ يجلدُ ذاتَهُ

---

٣٨٤. مت ٥: ٤.

بسببِ قساوةِ قلبِه. وعندما يُبكيهِ الألمُ الشّديدُ، كانَ يُفكِّرُ في موضعِ العذابِ، وفي خطاياه كلِّها.

٣- كذلك، علمتُ عن أخٍ تغرّبَ عن العالمِ، وسكنَ في جبلِ النّطرون. وكانت قلاّيتُه قريبةً من قلاّيةِ أخٍ آخرَ، فصارَ يسمَعُهُ يوميًّا يبكي خطاياه، من دونِ توقُّف. وعندما يَمُرُّ وقتٌ من دونِ أن تأتيَهُ الدّموعُ، يقولُ لنفسِه: «ألا تبكينَ وتَنوحينَ أيّتها الشّقيّة؟ صدِّقيني، إن رفضتِ ذلك، فأنا سأجعلُكِ تبكين». فيقومُ ويأخذُ سوطًا ذا مسكةٍ ذهبيّةٍ، معلّقٌ به حبلٌ مَعقودٌ، ويجلدُ به ذاتَهُ بكثرةٍ إلى أن يُبكيَه الألم.

تعجَّبَ جارُهُ من هذه الممارسةِ، وتوسَّلَ إلى اللّهِ أن يُظهِرَ له إن كانَ ما يفعلُهُ جيّدًا بتعذيبِ ذاتِه. وذاتَ ليلةٍ، رأى في حُلُمِ الأخَ لابسًا إكليلاً وواقِفًا في وسطِ جوقِ الشّهداءِ، وسَمِعَ أحدَهم يقولُ: «ها هو المُجاهِدُ الحَسَنُ، الّذي لم يتساهَلْ مع ذاتِهِ من أجلِ المسيحِ، قد تكلَّلَ مع الشّهداء!»

٤- طولَ زمانِ حياتِه، كلّما جلسَ الأبُ أرسانيوسُ للعملِ اليدويِّ، جعلَ في حضنِهِ منديلاً يلتقطُ به الدّموعَ الّتي تنهمِرُ من عينَيْهِ من دونِ انقطاع. ولمّا رآه الأبُ بيمنُ، قالَ: «طوبى لك، يا أرسانيوسُ، لأنّك، مكافأةً على الدّموعِ الّتي ذرفْتَها في الدّهرِ الحاضرِ، لن تحتاجَ إلى دموعٍ في الدّهرِ الآتي». لقد تذكّرَ ثيوفيلسُ أسقفُ الإسكندريّةِ الأبَ أرسانيوسَ لحظةَ موتِه، وقالَ: «طوبى لك، يا أرسانيوسُ لأنّك لم تَكُفَّ عن تذكّرِ هذه السّاعةِ بتخشُّعٍ لا يَمَلّ».

٥- سألَ أخٌ الأبَ أمونَ قائلاً: «قُلْ لي كلمة. كيف سأخلُص؟» أجابَ الشّيخُ: إذهَبْ وافحَصْ أفكارَكَ كما يعملُ فاعلو الشّرِّ في السّجن. لأنّ هؤلاءِ يسألونَ النّاسَ أين القاضي، ومتى يأتي؟ ويبكونَ مُنتظرينَ الحُكْمَ والعقاب. هكذا الرّاهبُ، عليه أن يتيقّظَ في نفسِهِ دائمًا، قائلاً: ويلٌ لي! كيف سأقِفُ أمامَ المنبرِ الرّهيبِ للمسيحِ، الحاكمِ الّذي لا يُمكِنُ رشوتُهُ؟ بمَ سأجيبُهُ؟ وأنتَ أيضًا، إذا تفكّرتَ دائمًا في هذا، تقدِرُ أن تَخلُص».

٦- قالَ الأبُ لونجينس: «الصّومُ يُذَلِّلُ الجسدَ، والسّهرُ يُطَهِّرُ الذّهن. الهدوئيّةُ تجلبُ النّوحَ، وهذا الأخيرُ يُعَمِّدُ الإنسانَ بالدّموعِ، ويُحَرِّرُهُ من الخطيئة». أحرزَ الأبُ لونجينسُ تخشّعًا كبيرًا في صلاتِهِ وترتيلِه. فقالَ له تلميذُهُ، ذاتَ يومٍ: «يا أبتِ، هل ينصُّ القانونُ الرّوحيُّ على أن يبكيَ الرّاهبُ دائمًا في صلاتِه؟» أجابَ الشّيخُ: «نعم، يا بُنيَّ، هذا هو القانونُ الّذي يُريدُهُ اللّهُ منّا الآن. ففي البَدءِ، لم يصنَعِ اللّهُ الإنسانَ ليبكيَ، إنّما ليفرَحَ ويُسَرَّ وليمجِّدَ اللّهَ بنقاوةٍ وبِرٍّ، مثلَ الملائكة. ولكن، عندما سقطَ الإنسانُ في الخطيئةِ، احتاجَ إلى الدّموع. وكلُّ هؤلاءِ الّذينَ سقطوا مثلَه يحتاجونَ، هم أيضًا، إلى الدّموع. حيثُ لا توجدُ خطيئةٌ، لا حاجةَ إلى الدّموع».

٧- قالَ الأبُ مكاريوسُ المصريُّ: «في صِغَري، كنتُ أرعى البقر. ذهبتُ مرّةً مع صبيةٍ آخرينَ لسرقةِ التّين. وأثناءَ فرارِنا، وقعَتْ حبّةُ تين. أخذتُها وأكلتُها. والآن، كلّما تذكّرتُ ذلك، أجلِسُ وأبكي».

٨- قالَ الأبُ موسى: «هل غلبَنا هوى جسديٌّ ما؟ فلا نتهامَلَنَّ إذًا في التّوبةِ والنّوحِ على ذواتِنا، قبلَ أن يُداهِمَنا نوحُ الدّينونة».

٩- وقالَ هو نفسُهُ: «بالدّموعِ يَكتسِبُ الإنسانُ الفضائلَ، وبالدّموعِ تُغفَرُ الخطايا. ولكن، عندما تبكي، لا تتنهَّدْ بصوتٍ عالٍ، لئلاّ تَعرِفَ يدُكَ اليُسرى، أي المجدُ الباطلُ، ماذا تفعَلُ اليُمنى[٣٨٥]».

١٠- سألَ أخٌ الأبَ موسى: «ماذا يجبُ أن يفعَلَ الإنسانُ في كلِّ تجربةٍ تأتيه، أو في أيِّ فكرٍ يزرعُهُ العدوّ؟» أجابَ الشّيخُ: «يلزَمُ أن يبكيَ أمامَ صلاحِ اللّهِ ليبادِرَ إلى مساعدتِه. سيجِدُ سريعًا الرّاحةَ إن توسَّلَ بمعرفة. فالكتابُ المُقدَّسُ يقولُ: الرّبُّ قريبٌ من جميعِ الّذينَ يَدعونَه[٣٨٦]».

---

٣٨٥. مت ٦، ٣.

٣٨٦. مز ١٤٤، ١٨.

١١- فيما مرَّ الأبُ بيمنُ في مصرَ، رأى امرأةً جالسةً عند قبرٍ تبكي بمرارةٍ، فقالَ: «إذا انسكَبَتْ مباهجُ هذه الدّنيا كلِّها، لا تقدرُ أن ترفعَ النّوحَ عن نفسِ هذه المرأة. هكذا الرّاهبُ، يجبُ عليه أن يقتنيَ النّوحَ في قلبِهِ على الدّوام».

١٢- سألَ أخٌ الشّيخَ نفسَه: «ماذا أعمَلُ لأخلُص؟» أجابَهُ الشّيخُ: «عندما دخلَ ابراهيمُ أرضَ الميعادِ، اشترى لنفسِهِ قبرًا، ولأجلِ القبرِ وَرِثَ الأرض[٣٨٧]». قالَ له الأخُ: «وما هو القبر؟» أجابَ الشّيخُ: «إنّه مكانُ البكاءِ والنّوح».

١٣- وعن السّؤالِ نفسِهِ، ماذا يَفعَلُ ليَخلُصَ، أجابَ هو نفسُهُ أخًا آخرَ هكذا: «عندما يفتقدُنا اللّهُ، بِمَ ينحصِرُ اهتمامُنا؟» قالَ له الأخُ: «بخطايانا». فقالَ الشّيخُ: «فلندخُلْ إلى قلاّيتِنا، ونبقَ فيها، مُتذكّرينَ خطايانا أمامَ صلاحِهِ، إلى أن يُظهِرَ لنا رحمتَه».

١٤- أخبرَ الأبُ إسحقُ: «مرّةً، كنتُ جالسًا بالقربِ من الأبِ بيمن، ورأيتُهُ يدخُلُ في نشوةٍ مُمتلِئًا بالخشوع. وبما أنّ لي دالّةً عليه، صنعتُ له مطّانيّةً، وسألتُه: «قُلْ لي أين كنت؟» فقالَ لي بعدَ إلحاحي عليه: «كانَ فكري هناك حيثُ القدّيسةُ والدةُ الإلهِ مريمُ واقفةٌ تبكي بالقربِ من صليبِ المخلّص[٣٨٨]. وأنا أودُّ أن أبكيَ هكذا على الدّوام».

١٥- قالَ الأبُ بولسُ: «أنا غارقٌ في حَمْأَةٍ عميقةٍ حتّى عُنُقي، وأبكي أمامَ يسوعَ، قائلاً: «ارحَمْني».

١٦- كانَ الأبُ سلوانُ يَنوحُ بلا انقطاعٍ، ولم يُردِ البتّةَ الخروجَ من

---

٣٨٧. انظر تك ٢٣، ١- ٢٠.
٣٨٨. أنظر يو ١٩، ٢٥.

قلاّيتِه. وإذا اضطرَّ مرّةً للخروجِ لحاجةٍ ما، كانَ يُغطّي وجهَهُ باللاّطية. وعندما سألوه لماذا يفعَلُ ذلك، قالَ: «لماذا أريدُ أن أرى نورَ هذا العالمِ الّذي لا يُفيدُني بشيء؟»

١٧- أخبرَنا الأبُ ثيودورسُ أنّ أخًا كانَ يَسكُنُ في القلالي اكتسبَ موهبةَ النّوح. وحدثَ ذاتَ يومٍ أنّ هذا الشّعورَ جعلَهُ يسكُبُ دموعًا غزيرة. عندما أدركَ الأخُ ذلك، قالَ في نفسِه: «هذه بالتّأكيدِ علامةٌ أنّ يومَ موتي قد اقترب». وبهذه الفكرةِ أخذَتِ الدّموعُ تتضاعف. وكلّما شاهدَها تتضاعَفُ، قالَ من جديدٍ في نفسِه: «بالتّأكيدِ حانَ الوقت». وكلَّ يومٍ، كانَتْ دموعُهُ تزدادُ بسببِ هذه الفكرة.

فسألْنا الأبَ ثيودورسَ عن موضوعِ الدّموعِ: «لماذا أحيانًا تأتي من تلقاءِ ذاتِها، وأحيانًا أخرى لا نستطيعُ إحداثَها، حتّى ولو بجهد». وأجابَ الشّيخُ: «تُشبِهُ الدّموعُ المطرَ الغزيرَ، والإنسانُ هو الفلاّح. عليه، عندما تأتي، أن يُجْهِدَ نفسَهُ لحراثةِ أرضِ قلبِهِ، لئلاّ يُضَيِّعَ قطرةً من المطرِ، وللدّخولِ إلى حديقتِهِ وريِّها. وأقولُ لكم، يا أولادي، إنّه غالبًا ما يَحدُثُ يومُ مطرٍ في بَدءِ السّنةِ، ويُخَلِّصُ الثّمارَ كلَّها. لهذا علينا أن نتيقّظ. عندما نفهَمُ أنّ هذا اليومَ أتى، فَلْنُجهِدْ أنفسَنا لحِفْظِ ذواتِنا، ولنُصَلِّ إلى اللهِ بحرارةٍ، لأنّنا لا نَعلَمُ إن كنّا سنَجِدُ هذا المطرَ في يومٍ آخر».

١٨- وسألناه أيضًا: «وكيف يحرسُ المرءُ النّوحَ عندما يأتي؟» أجابَ الشّيخُ: «يجب أن ينتَبِهَ إلى ألاّ يَلتقيَ إنسانًا في ذلك اليومِ، أو طولَ الوقتِ الّذي يفعَلُ النّوحُ فيه. كذلك، ليحترِسْ من الإفراطِ في تناولِ الطّعامِ ومن تعالي الفكرِ، لئلاّ يتخيَّلَ ذاتَهُ يبكي لأنّه صالحٌ، وألاّ يُدينَ أحدًا. بل بالأحرى ليتكرّسْ أكثر للصّلاةِ والقراءة. إلى ذلك، عندما يأتي النّوحُ، هو نفسُهُ يُعلِّمُنا ما يُسَهِّلُ مجيئَه، وما يَحْفَظُهُ، وما يَمنَعُه.

أعرفُ أخًا كانَ يجلسُ في قلاّيتِهِ ويُحيكُ الحبال. كلّما أتَتْهُ الدّموعُ، وقفَ للصّلاةِ، فجفّتْ للحال. حينئذٍ، يُمسِكُ الحياكةَ من جديدٍ جامعًا ذهنَهُ،

وحالاً كانَتِ الدّموعُ تأتي. والأمرُ نفسُهُ في القراءةِ: كلّما يقرَأُ يأتيه النّوحُ، وحالما يقومُ للصّلاةِ يفقُدُه. ولكنّه حالما يَنحني من جديدٍ على الكتابِ، كانَتِ الدّموعُ تَنهَمِر. ففهِمَ الأخُ سببَ هذا العائقَ، وقالَ لنفسِه: حسنًا قالَ الآباءُ إنّ النّوحَ مُعَلِّمٌ لأنّه يُعَلِّمُ الإنسانَ كلَّ ما يُفيده.

يبدو لي أنّ النّوحَ فارَقَ الأخَ، خلالَ الصّلاةِ، لسببَيْن. الأوّلُ لأنّه لم يكتسَبْ بعدُ الصّلاةَ النّقيّةَ الثّابتة. عدمُ الثّباتِ كانَ يُشتِّتُ ذهنَهُ، فلا يَحفَظُ النّوحَ الأوّلَ الّذي يأتيه أثناءَ العملِ اليدويِّ أو القراءةِ، وهما نشاطانِ كانَ يجمَعُ ذهنَهُ أكثرَ من خلالِهما. أمّا السّببُ الآخرُ لحدوثِ ذلك له، فهو لئلاّ يتخيَّلَ أنّه تَوصَّلَ إلى هذا النّوحِ بجهدِهِ الخاصِّ وصلاتِه، إنّما ليفهَمَ أنّ هذا يعودُ إلى رحمةِ اللّهِ ونعمتِه، فيحمِلَهُ ذلك على شكرِ المُحسِنِ إليه ويَكتسِبَ تواضُعًا أكبرَ، به يترسَّخُ النّوحُ أكثرَ في داخلِه. إن حدثَ لنا شيءٌ مماثلٌ، أعني إن شعرْنا بتخشُّعِ القلبِ وبَكَيْنا بحرارةٍ، فَلْنَحِدْ عن كلِّ شيءٍ آخرَ، ونُسْرِعْ إلى الصّلاةِ مُثابرينَ عليها حتّى نشعرَ أنّ الشّعلةَ التهبَتْ فينا، لأنّنا قد لا نَحظى مرّةً أخرى بفرصةٍ مُماثِلة.

١٩- قالَ شيخٌ: «إن رأيتَ أنّ اللّهَ وهبَكَ النّوحَ من حيثُ لا تنتظرُ، فاترُكْ للحالِ عملَكَ اليدويَّ إن فهمتَ أنّ ذلك يُفيدُك – هذا يعني إن وَجدتَ أنّ عملَكَ يُخفِّفُ النّوحَ - واعكُفْ على النّوحِ الرّوحيِّ علَّ يومَ موتِكَ اقترَبَ، ولهذا وهبَكَ اللّهُ الدّموعَ لتجدَ بها رحمة. لأنّه، كما أنّ الشّيطانَ، في أواخِرِ حياةِ الإنسانِ، يجتهِدُ في أن يقودَه إلى الضّياعِ، هكذا اللّهُ أيضًا، في أواخرِ حياتِه، يُخلِّصُهُ بحجّةٍ يُزَوِّدُهُ هو بها».

٢٠- قالَ شيخٌ: «كما أنّنا نحمِلُ شرَّنا، أي أهواءَنا وخطايانا في كلِّ مكانٍ، هكذا علينا، حيثُما وُجِدْنا، أن نملكَ في داخلِنا، على الدّوامِ، النّوحَ والتّخشّع».

٢١- سألَ أخٌ شيخًا: «ماذا أعملُ، يا أبتِ؟» فأجابَهُ الشّيخُ: «علينا

دائمًا أن نبكي. حصلَ مرّةً أنّ أحدَ الآباءِ مَرِضَ وتوفّيَ، ثمّ عادَ للحالِ إلى الحياة. سألناه، قائلينَ: «ماذا رأيتَ هناك حيثُ ذهبت؟» فروى لنا: «سمعتُ جلبةَ بكاءِ هؤلاءِ الّذينَ يقولونَ باستمرارٍ: ويلٌ لي، ويلٌ لي. هكذا علينا، نحن أيضًا، أن ننوحَ باستمرار».

٢٢- زهدَ أخوانِ في العالمِ، وذهبا ليُقيما تحتَ طاعةِ شيخٍ في جبلِ النّطرون. والحالُ أنّ اللّهَ أعطى الاثنَيْنِ موهبةَ الدّموعِ والنّوح. وذاتَ يومٍ، رأى الشّيخُ، في حلمٍ، الأخوَيْن يقفانِ في الصّلاةِ: كانَ يحملُ كلُّ واحدٍ منهما في يدِهِ رَقًّا، ويُبلّلانِه بدموعِهما. كانَتْ كتابةُ الأوّلِ تُمحَى بسهولة. أمّا كتابةُ الآخرِ، فبصعوبةٍ كبيرة؛ في الواقعِ، يستطيعُ المرءُ أن يقولَ إنّها مكتوبةٌ بحبرِ الوَرْنَش[٣٨٩]. فتوسَّلَ الشّيخُ إلى اللّهِ أن يشرحَ له الحلمَ، وأتى ملاكُ الرّبِّ ليقولَ له: «المكتوبُ على رَقِّ كلِّ واحدٍ هي خطاياه. الواحدُ أخطأَ بحسبِ الطّبيعةِ، ولهذا تُمحى خطاياه بسهولة. أمّا الآخرُ، فلقد تلوَّثَ بخطايا دنسةٍ ووسخةٍ بما يُخالِفُ الطّبيعةَ، ولهذا يحتاجُ إلى جهدٍ أكبرَ، ليتوبَ حقيقةً، ويتواضَعَ بعمق».

منذ ذلك الحينِ، كانَ الشّيخُ يقولُ لذاك الأخِ: «اتعَبْ، يا أخي. إنّها من الوَرْنَشِ، وبالتّعبِ تُمحى». ولكنّه لم يُظهِرْ له الحلمَ حتّى موتِه، لئلاّ يُنْقِصَ حماستَهُ، إنّما ما لَبِثَ يقولُ له على الدّوامِ هذا القولَ: «اتعَبْ، يا أخي، لأنّها من الوَرْنَش».

٢٣- كانَ أخٌ وَرِعٌ يعمَلُ قانونَهُ مع أخيه، ولكنّه لم يستطِعْ حَبْسَ دموعِه، فصارَ يسهى عن آيةِ المزمور. ذاتَ يومٍ، توسَّلَ إليه أخوه أن يقولَ له ما يفكّرُ فيه خلالَ الخدمةِ، ليبكيَ هكذا بمرارة. قالَ له ذاك: «سامِحْني، يا أخي. خلالَ الخدمةِ، أرى دائمًا الدّيّانَ وأنا واقفٌ أمامَه كمُتّهمٍ يَخضَعُ للمحاكمة. وبما أنّي لا أعرفُ بما أجيبُ، أنذَهِلُ، ويُقفَلُ فمي، وأسهى عن

٣٨٩. الوَرْنَش: حبر ثابت لا يُمحى.

آيةِ المزمور. ولكن، سامِحْني لأنّني أُضايقُكَ. وإن كانَ يُريحُكَ، فليعمَلْ كلُّ واحدٍ منّا قانونَ الخدمةِ لوحدِه». أجابَهُ الأخُ: «لا، يا أبتِ، لأنّني وإن كنتُ لا أملكُ النّوح، إلاّ أنّني عندما أراكَ أُشفِقُ على ذاتي المسكينة». عندما رأى اللّهُ تواضُعَهُ، مَنَحَهُ، هو أيضًا، النّوحَ الّذي لأخيه. فلنعتنِ إذًا، نحن أيضًا، بأن نلتصِقَ بِمَن ينوحونَ، لنربحَ الخيراتِ نفسَها الّتي لهم.

٢٤- قالَ شيخٌ: «كما أنّ كلَّ خطيئةٍ يَرتكبُها الإنسانُ هي خارجَ الجسدِ، باستثناءِ خطيئةِ الزّنى الّتي تجعَلُ الزّاني يُخطئُ إلى جسدِهِ الخاصّ[٣٩٠] لأنّ الوسخَ يَخرُجُ منه، هكذا كلُّ عملٍ صالحٍ يَعمَلُهُ الإنسانُ هو خارجَ جسدِه، باستثناءِ البكاءِ لأنّه يُنقّي النّفسَ والجسدَ في الوقتِ نفسِه. فالدّموعُ تنزِلُ من العلاءِ، وتَغسِلُ الجسدَ كلَّه، وتُقدِّسُه».

٢٥- قالَ الشّيخُ نفسُه: «التّحدّثُ عن الإيمانِ، وقراءةُ المؤلّفاتِ العقائديّةِ، تُجفِّفُ النّوحَ من الإنسانِ وتُزيلُه. ولكنّ حياةَ الشّيوخِ وأقوالَهم تُنيرُ النّفسَ، وتملأُها بالدّموعِ الرّوحيّة».

٢٦- قالَ شيخٌ: «إنّ من يجلسُ في قلاّيتِه، ويتأمّلُ في المزاميرِ يُشبِهُ إنسانًا واقفًا في الخارجِ يَطلُبُ المَلِك. أمّا الّذي يبتهلُ بدموعٍ، فيُشبِهُ إنسانًا مُمْسِكًا بقدمَي المَلِكِ يَطلبُ إليه الرّحمةَ، كما فعلَتِ الزّانيةُ الّتي، بوقتٍ قليلٍ، تنقّتْ بدموعِها من خطاياها كلِّها[٣٩١]».

٢٧- قالَ شيخٌ: «بالحقيقةِ، إن كانَ الإنسانُ مُجاهدًا، يطلبِ اللّهُ منه ألاّ يتعلّقَ بأيِّ شيءٍ ماديٍّ، حتّى ولو كانَ إبرةً صغيرةً، لأنّها قادرةٌ أن تمنعَ فكرَهُ عن الالتصاقِ بيسوعَ وعن النّوح».

---

٣٩٠. ١ كور ٦، ١٨.

٣٩١. لو ٧، ٣٧ – ٥٠.

٢٨- ذهبَ شيخٌ إلى مدينةٍ من أجلِ عملٍ ما مُصطَحِبًا معه تلميذه. بقيا هناك أسبوعًا، ورأيا عددًا كبيرًا من الرّجالِ والنّساءِ في المدينةِ يَذهبونَ كلَّ يومٍ عند الفجرِ إلى القبورِ ويَنتحِبُ كلُّ واحدٍ منهم على مَيتِه حتّى السّاعةِ الثّالثة. قالَ الشّيخُ لتلميذِه: «هل ترى، يا أخي، ماذا يفعلُ هؤلاءِ منذُ الصّباحِ الباكر؟ صدّقْني إن لم نفعَلْ نحن أيضًا هكذا، فسنذهَبُ إلى الهلاكِ الأبديّ». عندما عادا إلى قلاّيتِهما، بنى كلُّ واحدٍ منهما للحالِ قبرَهُ على مسافةٍ بينهما، وكلَّ يومٍ كانَ يذهبُ كلُّ واحدٍ منهما ويجلِسُ إلى جانبِ قبرِهِ، ويبكي نفسَهُ كما يبكي المرءُ ميتَهُ، من الفجرِ حتّى المساء. وإن صادفَ في الصّباحِ أن ذهبَ التّلميذُ لينامَ مُتعَبًا بعد الانتهاءِ من خدمةِ الصّلاةِ، كانَ الشّيخُ يُوقِظُهُ، صائحًا: «قُمْ، يا أخي. ها هي السّاعةُ الّتي فيها يعمَلُ سكّانُ المدينةِ عملَهم بالقربِ من القبور».

ذاتَ يومٍ، قالَ الأخُ للشّيخِ: «إنّ نفسي قاسيةٌ، ولا أستطيعُ أن أبكي». أجابَ الشّيخُ: «جاهِدْ، يا بُنيَّ لوقتٍ قليلٍ، واتعَبْ. وعندما يرى اللّهُ تعبَكَ، يُظهِرُ لكَ رحمتَه. كما إن أُصيبَ القلبُ بسهمٍ، فلا يَعُودُ يُشفى، هكذا متى جَرَحَهُ اللّهُ بالتّخشُّعِ، لا يفارقُهُ الألمُ أبدًا، إنّما يبقى مَجروحًا حتّى الموت. إنسانٌ كهذا حيثُما ذهبَ، يحفَظْ في داخلِهِ نوحًا مستمرًّا».

ذاتَ مساءٍ، كانَ لديهما زوّارٌ، ورأى الشّيخُ الأخَ مُتخمًا بطعامٍ كثيرٍ فقالَ له على حِدة: «ألا تعرفُ أنّ النّوحَ مصباحٌ مُضاءٌ، وإن لم تنتبِهْ إليه جيّدًا، يَختنقْ ويَنطفئْ سريعًا؟ فالأطعمةُ الكثيرةُ تُطفئُ التّخشّعَ، والنّومُ الكثيرُ يُعيقُهُ، والنّميمةُ تُدمِّرُه، وكذلكَ الثّرثرة. وباختصارٍ، كلُّ ما يُريحُ الجسدَ يَطردُهُ ويُبدّده. فعلى مَن يُحِبُّ اللّهَ، ويريدُ أن يحفظَ النّوحَ أن يُراعيَ، في كلِّ أفعالِهِ، حصّةَ المسيح».

سألَ الأخُ: «ما معنى هذا الكلامِ، يا أبتِ؟» وأجابَ الشّيخُ: «هل تريدُ أن تعلمَ كيف يُراعي المرءُ حصّةَ المسيحِ في كلِّ الأمور؟ فاسمَعْ: إن وُجِدَ لديكَ خبزٌ أبيضُ[٣٩٢]، فاترُكْهُ لأخٍ آخرَ، وكُلْ أنتَ الخبزَ الأسودَ من أجلِ المسيح.

---

٣٩٢. في النّصّ الأصليّ: خبزٌ نظيف. هكذا كانوا يدعونَ الخبزَ الّذي يُصنَع من طحين القمح المنقّى. في ذلك الوقت كانَ يُعتبر نوعًا من الرّفاهية.

كذلك، إن وُجدَ لديكَ نبيذٌ جيّدٌ، فامزجْهُ بقليلٍ من الخلِّ لأجلِ المسيحِ الّذي شَرِبَ الخلّ[٣٩٣]. لا تأكُلْ حتّى الشّبعِ، إنّما اترُكْ قليلاً جانبًا، قائلاً: «ها هي حصّةُ المسيحِ». إن وَجدْتَ وسادةً مُريحةً، فاتركْها، وَضَعْ حجرًا لأجلِ المسيحِ.

إن بردتَ أثناءَ النّومِ، فاحتمِلْ قائلاً إنّ آخرينَ لا ينامونَ أبدًا. إن طهوتَ طعامًا، فأفسِدْهُ قليلاً قائلاً: «آخرونَ ممّن يَستحِقّونَ لا يأكلونَ حتّى الخبزَ، فكم بالأحرى كانَ ينبغي عليَّ، أنا غيرَ المستحقِّ الّذي طَهوتُ لنفسي طعامًا، أن آكُلَ ترابًا ورمادًا، بسببِ قذارةِ أفعالي. باختصارٍ، في كلِّ عملٍ من أعمالِكَ امزجِ القليلَ من الضّيقِ. عِش بتواضُعٍ مُفكِّرًا في طريقةِ عيشِ القدّيسينَ، حتّى إذا أتَتْ ساعةُ الموتِ وجدَتْنا هنا في بعضِ الشّقاءِ والضّيقِ، فنجدَ هناكَ الرّاحة».

٢٩- قالَ شيخٌ: «إن خرجتَ من قلاّيتِك، وذهبتَ إلى مكانٍ ما، وفَتَرَ نوحُكَ قليلاً، بسببِ طريقةِ الحياةِ في هذا المكانِ، أو لأيِّ سببٍ آخرَ، فعُدْ سريعًا، واسترجِعْ نسكَكَ السّابقَ، كي يتجدّدَ النّوحُ في داخلِك، وكي لا تفقدَهُ بالكلّيّة».

٣٠- قالَ أيضًا: «إن أردتَ اقتناءَ النّوحِ، فجاهِدْ لكي تكونَ أوعيتُك وأغراضُك كلُّها فقيرةً، مثلَ أوعيةِ وأغراضِ إخوتِنا الّذينَ يجلسونَ ويستعطونَ في السّوق».

٣١- قالَ أيضًا: «إن لم يَكُنْ لديك تخشّعٌ، فاعلَمْ أنّك مريضٌ بحبِّ المجدِ الباطلِ أو بحبِّ اللّذّةِ، لأنّ هذا ما يَمنَعُ النّفسَ من أن يلمُسَها التّخشُّع».

٣٢- قالَ أيضًا: «إن منحَكَ اللّهُ النّوحَ الدّاخليَّ، فلا تظُنَّ أنّك تفعَلُ شيئًا عظيمًا لأنّك تبكي باستمرارٍ، ولا تسمَحْ أن تُبذَرَ في قلبِكَ أفكارُ تعالٍ. غير

---

٣٩٣. مت ٢٧، ٤٨. يو١٩، ٣٠.

ذلك، سيحرمُكَ اللّهُ من الدّموعِ، ومن هناك فصاعدًا سيبقى قلبُكَ قاسيًا ومن دونِ تخشّع».

٣٣- قالَ أيضًا: «إن وُجِدَتْ قبورٌ قربَ مكانِ سكنِكَ، فقُمْ بزيارتِها بشكلٍ دؤوبٍ، وتأمّلْ في الّذينَ يَرقدونَ هناك، لا سيّما إن كنتَ تتعرّضُ لحربٍ جسديّة. وإن علمتَ أنّ أخًا ينطلِقُ إلى الربِّ، فاذهَبْ وابقَ إلى جانبِه، لترى كيف تنفصِلُ نفسُهُ عن جسدِه، وهذا سيحمِلُكَ على التّخشّع».

٣٤- قالَ أيضًا: «عندما يرى الشّيطانُ أنّ اللّهَ يرأفُ بك، ويُعطي تخشّعًا لنفسِك، حينئذٍ، يقترحُ عليكَ عملاً هامًّا في قلاّيتِك، قائلاً: «إفعَلْ هذا اليومَ، لأنّه مُلِحٌّ»، أو يحثُّكَ على زيارةِ أحدٍ في مسألةٍ عاجلةٍ، إمّا لدافعٍ روحيٍّ، وإمّا لحجّةٍ تبدو منطقيّة. يفعَلُ العدوُّ ذلك كلّه، ليَحرمَكَ من التّمتّعِ بحلاوةِ النّوحِ إن بقيتَ في قلاّيتِك. ولكنّك إن فهمتَ حيلتَه، واحترستَ، وانصرفتَ إلى الصّلاةِ والقراءةِ، فانتظرْ تجربةً للحالِ، إمّا من البشرِ، وإمّا من الشّياطين. فالشّيطانُ يُحارِبُ الإنسانَ بشكلٍ سيّئٍ عندما يُجاهِدُ بشهامة. إنّ الغضبَ، أكثر من كلِّ هوى، يَقضي على التّخشُّعِ وتواضُعِ النّفس».

٣٥- قالَ أيضًا: «عندما ضربَ اللّه مصرَ بالموتِ، لم ينجُ بيتٌ من النّوح[٣٩٤]. إن أماتَ الخوفُ وكلمةُ اللّهِ الخطيئةَ في داخلِنا، فلا نتوقّفَنَّ عن النّوحِ، لأنّ للنّوحِ مفعولاً مضاعفًا: يعمَلُ ويحرُسُ[٣٩٥]. فلنبتهِلْ ليهبَنا اللّهُ هذه النّعمة».

---

٣٩٤. خر ١٢، ٣٠.

٣٩٥. خر ٢، ١٥.



الفصل الثّالث والثّلاثون

هجومُ الشّياطينِ على الإنسانِ يزدادُ عُنفًا في نهايةِ حياتِه، لهذا يجبُ الحذر.

- عن بالاديوس -

رَجُلٌ مِلْفانٌ من الإسكندريّةِ يُدعى إفلوجيوسَ، جُرِحَ بالعشقِ الإلهيِّ، فزهِدَ بالدّنيا. بعد أن وَزَّعَ مُمتلكاتِهِ، باستثناءِ قسمٍ صغيرٍ احتفظَ به ليقضيَ به حاجاتِه، لأنّه لم يَكُنْ قادرًا على العملِ بيدَيْه، تساءلَ عن القرارِ الّذي يتّخذُه. لم يستطِعْ أن يقرّرَ الانضواءَ في أخويّةٍ رهبانيّةٍ، ولا شَعَرَ بالارتياحِ لفكرةِ بقائِهِ وحيدًا. وفيما هو مُتحيِّرٌ هكذا، لَحَظَ إنسانًا مُعوَّقًا، ليس لديه رجلان ولا يدَان، مَطروحًا في السّاحةِ العامّة. لم يَكُنْ له سوى لسانٍ يُنادي به المارّةَ، كي يستطيعَ الحصولَ منهم على صَدَقَة. لدى رؤيةِ إفلوجيوسَ له، انقبضَ قلبُه. فصلّى في داخلِهِ إلى اللّهِ، وتعهّدَ إلى الرّبِّ بالتّالي: «يا ربُّ، على اسمِكَ آخُذُ هذا العليلَ، وأعتني به حتّى الموتِ، فأخلصَ بسببِه. فهَبْني، يا سيّدُ، نعمةَ الصّبرِ لأخدُمَه». ثمّ اقتربَ من المُعوَّقِ، وقالَ له: «أتريدُ أن آخُذَكَ إلى بيتي، وأعتنيَ بك؟» فأجابَ ذاك: «ليتني أستحقُّ ذلك، ولكنّني غيرُ مستحقّ». فقالَ له إفلوجيوسُ: «أنا ذاهبٌ لأحضِرَ حمارًا، وآخُذَكَ إلى بيتي؟» قَبِلَ المُعوَّقُ ذلك بفرحٍ كبير.

بعدَ أن أحضرَ إفلوجيوسُ حمارًا، أصعدَ المُعوَّقَ عليه، وقادَهُ إلى منزلِهِ حيثُ باشرَ الاعتناءَ به في جميعِ حاجاتِه؛ يَغْسِلُهُ، ويَمْسَحُهُ بالزّيتِ، ويَنْقُلُهُ من مكانٍ إلى آخرَ، ويَخْدِمُهُ بكلِّ حماسة. استمرَّ على هذه الحالِ مدّةَ خمسةَ عَشَرَ عامًا. ثمّ هجمَ الشّيطانُ بضراوةٍ على المُعوَّقِ: جعلَهُ يشعُرُ بالكراهيةِ نحو إفلوجيوسَ، من دونِ سببٍ، ودَفَعَهُ إلى إمطارِه بالشّتائمِ

والإهانات. بدأَ يقولُ له: «أيّها العديمُ النّفعِ، لقد سرقتَ مالَ الآخرين. يبدو أنّكَ كنتَ عبدًا، وسرقتَ سيّدَك، وتنوي أن تجعلَ ذلك يُنتسى، بحجّةِ جلبي إلى بيتِكَ بداعي المحبّة. لَعَمري، أنتَ تريدُ أن تخلُصَ بسببي!»

حينئذٍ، توسّلَ إليه إفلوجيوسُ قائلاً: «لا تتكلَّمْ هكذا، يا سيّدي، بل قُلْ لي بِما أحزنْتُكَ، وسأُقَوِّمُ ذاتي». ولكنّ المُعَوّقَ أجابَهُ بفظاظةٍ: «لا أريدُ سماعَ هذه المالقات. أعِدْني إلى السّاحةِ العامّة. سأكونُ هناك أفضلَ من أن تُحيطَني بعنايتِك». أصرّ إفلوجيوسُ: «أرجوكَ، يا سيّدي، اهدَأْ إن أحزنَكَ شيءٌ». ولكنّه احتدَّ أكثرَ، وبدأَ يصرُخُ: «لا يسرُّني أن أكونَ معكَ لوحدي، أريدُ الجموعَ!» فقالَ له إفلوجيوسُ: «سأدعو عددًا كبيرًا من الإخوة». ولكنّ المُعَوّقَ اشمئزَّ من ذلك، وعاودَ الصّراخَ: «يا لتَعاستي! لا أريدُ أن أرى وجهَكَ، وأنت تريدُ أن تجلبَ لي عديمي النّفعِ أمثالك؟» وأخذَ يصيحُ، فريسةً لنوباتِ الغضبِ: «لا أريدُ أن أكونَ هنا، لا أريد! أريدُ أن أكونَ في السّاحةِ العامّة! يا للهول! إرمِني هناك حيثُ وجدتَني!» لقد جعلَهُ الشّيطانُ غايةً في الوحشيّةِ، حتّى أنّه لو كانَتْ له يدان، لم يَكُنْ ليتردّدَ في شنقِ نفسِهِ أو طعنِها بالسّيف.

لم يَدْرِ إفلوجيوسُ ما العمل. فنصحَهُ نسّاكُ الجوارِ بالذّهابِ لرؤيةِ أنطونيوسَ الكبيرِ برفقةِ المُعَوّقِ، وعَرْضِ المسألةِ برمّتِها عليه، ثمّ تنفيذِ ما يُشيرُ به عليه. بعد أن هدَّأَ إفلوجيوسُ المُعَوّقَ بكلماتٍ لطيفةٍ، ووضعَهُ في مركبٍ، اصطحبَهُ إلى ديرِ تلاميذِ أنطونيوسَ الكبير. هناك، قالَ له الإخوةُ إنّ هذا الأخيرَ يزورُهم كلَّ عشَرةِ أيّامٍ، أو عشرينَ يومًا، لدى نزولِهِ من الجبلِ من أجلِ منفعةِ الزّائرين.

ولكن، في اليومِ التّالي لمجيءِ إفلوجيوس، وكما أخبرَني الأبُ كرونيوس، الّذي كانَ حاضرًا هناك في ذلك الحينِ، أتى أنطونيوسُ الكبيرُ في ساعةٍ متأخّرةٍ من المساءِ، لابسًا معطفًا من جلد. بعد أن جلسَ، حَيَّى جميعَ الحاضرينَ، ونادى إفلوجيوسَ باسمِه، من دونِ أن تسبقَ له رؤيتُه، أو معرفةُ شيءٍ بشأنِه. أمّا إفلوجيوسُ، فلم يُجِبْ، على الرّغمِ من أنّ القدّيسَ ناداه ثلاثَ مرّاتٍ، لِظنِّه أنّ أنطونيوسَ يُنادي شخصًا آخرَ، معروفًا بالاسمِ نفسِه. فأوضحَ أنطونيوسُ: «أنا أكلّمُكَ أنتَ، يا إفلوجيوسُ الآتي من الإسكندريّة».

حينئذٍ، أجابَهُ هذا الأخيرُ: «من فضلِكَ، ماذا تُريد؟» قالَ أنطونيوسُ: «لماذا أتيتَ إلى هنا؟» فردَّ عليه إفلوجيوسُ بهذا الجوابِ: «الّذي كشفَ لك اسمي، لا بدَّ أنّه كشفَ لكَ مسألتي برمّتها». قالَ له القدّيسُ: «أعرفُ لماذا أتيتَ، ولكن، قُلْ ذلك أمامَ جميعِ الإخوةِ، ليعلموا هم أيضًا بالمسألة». حينئذٍ، قالَ إفلوجيوسُ أمامَ الجميعِ، وأمام المُعوّقِ: «يا رجلَ اللّهِ، وجدتُ هذا المُعوّقَ مُهمَلاً، من دونِ عنايةٍ، في السّاحةِ العامّة. فأشفقتُ عليه، وصلّيتُ إلى اللّهِ أن يُعطيَني نعمةَ الصّبرِ، واعدًا المسيحَ أنْ أوليَه العنايةَ الكافيةَ، ليرتاحَ هو حتّى آخرتِهِ، وأخلُصَ أنا بسببِه. ثمّ أخذْتُهُ إلى بيتي، ولي الآن خمسةَ عشَرَ عامًا أخدُمُهُ، على قدرِ المستطاع. أمّا الآن، وبعد هذه السّنينَ، فهو مُستاءٌ، ولا أعرفُ بما عساي أَسَأتُ إليه، وهو يُنَغِّص لي عَيشي، ويُعاملُني بفظاظةٍ كبيرةٍ، إلى حدِّ أنّني أفكِّرُ في الاستجابةِ لمطلبِه، الّذي يَقضي بِرَمْيِهِ حيثُ وجدتُه قبلُ. لهذا السّببِ، أتيتُ إلى قداستِكَ لتنصحَني بما يجبُ فعلُهُ، ولتصلّيَ من أجلي، لأنّه يُنَغِّصُ لي عَيشي». حينئذٍ، قالَ له أنطونيوسُ الكبيرُ بلهجةٍ قاسيةٍ وصارمة: «أتَرميه، يا إفلوجيوسُ؟ ولكنّ مَن خلقَهُ لن يرميَهُ! هل سترميهِ أنتَ؟ سيحرِّكُ اللّهُ مَن هو أفضلُ منكَ ليتّخذَهُ رفيقًا». عندما سَمِعَ إفلوجيوسُ ذلك، طأطأَ رأسَهُ، وانكمَشَ على نفسِه.

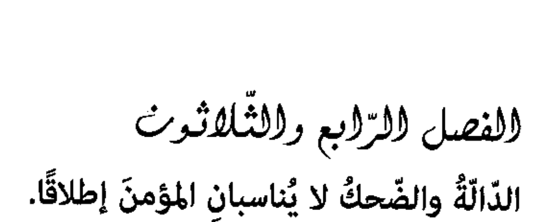
ثمّ توجَّهَ القدّيسُ نحوَ المُعوَّقِ، وبدأ يوبِّخُهُ بأقوالٍ لاذعةٍ: «أيّها الكسيحُ الأجدعُ، غيرُ المستحقِّ للأرضِ والسّماءِ، ألن تتوقّفَ عن محاربةِ اللّهِ وتكديرِ أخيك؟ ألا تعرفُ أنّ المسيحَ هو من يخدُمُكَ؟ كيف تتجرّأُ وتتلفّظُ بأقوالٍ كهذه ضدَّ المسيح؟ ألم يَصِرْ إفلوجيوسُ عبدًا ليخدمَكَ من أجلِ المسيح؟» بعد أن وبّخَهُ بصرامةٍ بالقدرِ اللاّزمِ، شرعَ يتكلّمُ مع الإخوةِ الآخرينَ، في موضوعاتٍ تُفيدُ كلَّ واحدٍ منهم.

ثمّ عادَ إلى إفلوجيوسَ والمعاقِ، من جديدٍ، قائلاً: «إذهبا بسلامٍ، يا ولديَّ، ولا ينفصلَنَّ أحدُكما عن الآخر. اطرُدا كلَّ هذا الحزنِ الّذي يبثُّهُ الشّيطانُ فيكما، وتَزَوَّدا بمحبّةٍ نقيّةٍ، وعودا إلى القلاّيةِ الّتي عُشتما فيها سنينَ كثيرة. لقد أثارَ الشّيطانُ عليكما هذه التّجربةَ، لأنّه يعرفُ أنّكما أصبحتُما على مشارفِ نهايةِ حياتِكُما، وأنتما مُزمعانِ أن تُكَلّلا من اللّهِ، هو بسببِكَ، وأنتَ

بسببِه. إذًا، لا تُفَكِّرا في أيِّ أمرٍ آخرَ، مخافةَ ألاّ يجدَكُما معًا الملاكُ المُرسَلُ من اللّهِ إليكما، في المكانِ نفسِه، فتُحرَما الأكاليل».

هكذا، عادا سريعًا إلى موضعِهما، مزوَّدَيْنِ بمحبّةٍ كاملة. ماتَ المغبوطُ إفلوجيوسُ بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ، وبعدَ سبعةٍ وثلاثينَ يومًا، غادرَ إلى الرّبِّ من كانَ مُعَوّقًا بالجسدِ، وقويًّا بالنَّفْس.

مكثَ الأبُ كرونيوسُ لبعضِ الوقتِ في نواحي طيبة، ثمّ، بعدَ أربعينَ يومًا، نزلَ إلى أديارِ الإسكندريّة. وحدثَ، في ذلك اليومِ بالذّاتِ، أنّ شَركةَ الإخوةِ كانَتْ تحتفلُ بأربعينيّةِ إفلوجيوس، وثلاثيّةِ المُعَوّق. عندما علمَ كرونيوسُ بذلك، اندهشَ وأخبرَ الآباءَ بما تنبّأَ أنطونيوسُ عنهما، إذ إنّه كانَ المترجمَ خلالَ اللّقاءِ، ناقلاً أقوالَ إفلوجيوسَ إلى أنطونيوسَ الّذي لا يتكلّمُ اليونانيّةَ، ومُترجِمًا إلى اليونانيّةِ كلامَ أنطونيوسَ لإفلوجيوسَ وللمُعَوّقِ باللّغةِ القبطيّةِ، الّتي كانَ يكلّمُ الجميعَ بها، إذ إنّه لا يعرفُ لغةً سواها.



الفصل الرّابع والثّلاثون

الدّالّةُ والضّحكُ لا يُناسبانِ المؤمنَ إطلاقًا.

التّقوى[٣٩٦] وصِفاتُها.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- ذهبَ مرّةً أخٌ، وهو الشّيخُ مكاريوسُ، إلى الشّيخِ أغاثونَ، وقالَ له: «أريدُ أن أسكنَ مع إخوة. فَقُلْ لي كيف أعيشُ معهم؟» أجابَهُ الشّيخُ: «احفَظْ غربَتَكَ، طولَ أيّامِ حياتِك، كما حينِ مجيئِكَ إليهم في اليومِ الأوّلِ، ولا تكتسبْ دالّةً معهم». فسألَهُ الشّيخُ مكاريوسُ: «وماذا تفعلُ هذه الدّالّة؟»، أجابَهُ الشّيخُ: «تُشبِهُ الدّالّةُ ريحًا قويّةً حارقةً، عندما تهبُّ تطردُ النّاسَ جميعًا من أمامِها، وتُفسِدُ ثمارَ الأشجارِ كلِّها». فقالَ له الشّيخُ مكاريوسُ: «أإلى هذا الحدِّ سيّئةٌ هي الدّالّة؟» قالَ الشّيخُ أغاثون: «ليس هوًى يُدَمِّرُ أكثرَ من الدّالّةِ لأنّها تَلِدُ الأهواءَ كلَّها».

٢- قيلَ عن الأبِ بامبو إنّه لم يَكُنْ يضحَكُ بتاتًا. فأرادَ الشّياطينُ، ذاتَ يومٍ، أن يجعلوه يضحكُ، فربطوا ريشةً بخشبةٍ، وراحوا يُجرجرونَها، مُحدِثينَ ضجّةً، وهاتفين: «هيّا، هيّا!» فضحكَ الشّيخُ بامبو لدى رؤيتِهم، وبدأَ الشّياطينُ يَرقُصونَ فرحًا، قائلين: «حسنًا! حسنًا! لقد ضَحِكَ بامبو!» أمّا هو، فقالَ لهم: «لم أضحَكِ البتّةَ، بل سَخِرْتُ من وَهَنِكم، إذ لَزِمَكُم أن تكونوا بهذه الكثْرةِ، لتحملوا ريشةً».

---

٣٩٦. في هذا الفصل كلمة «تقوى» لها معنى الحياة بانتباه كنتيجةٍ لخوفِ الله.

٣- قالَ شيخٌ: «الدّالّةُ والضّحكُ يُشبهانِ النّارَ الّتي تلتهِمُ حقلَ القصب. فكما تقضي النّارُ في وقتٍ قليلٍ، على حقلِ القصبِ، هكذا الدّالّةُ سريعةٌ في القضاءِ على الفضيلة».

٤- قالَ الشّيخُ موسى: «لنقتَنِيَنَّ التّقوى، والوقارَ، والوداعةَ، والتّفهّمَ تجاه البشرِ جميعًا، فنتمكّنَ من تجنُّبِ الدّالّةِ، أمِّ الرّذائلِ كلِّها».

٥- قالَ الشّيخُ نيسثيروس: «الحِلَفانُ، والكذبُ، واللّعنُ، والشّتمُ، والضّحكُ، كلّها غريبةٌ عن الرّاهب».

٦- رأى أحدُ الشّيوخِ راهبًا شابًّا يضحكُ، فقالَ له: «لا تضحَكْ، يا أخي، لأنّك بذلكَ ستطردُ خوفَ اللّهِ منك».

٧- قالَ شيخٌ: «إنّ التّقوى المقرونةَ بالتّواضُعِ صالحةٌ في كافّةِ الأحوال. يُمكنُ لأحدٍ أن يمزحَ، ويعطيَ الانطباعَ بأنّه فرح. ولكنّه، إن بالغَ في فعلِ ذلك، يَصِرْ مُستحقَّ اللّعنة. أمّا الإنسانُ التّقيُّ الّذي يحترسُ بالتّواضُعِ، فمكرّمٌ دائمًا».

- عن القدّيسِ أفرام -

بدءُ الدّمارِ للرّاهبِ الدّالّةُ والضّحك. عندما تجدُ ذاتَكَ عُرضَةً لهما، أيّها الرّاهبُ، إعلم أنّك على وشكِ السّقوطِ إلى وَهْدَةِ الرّذائلِ، وابتهِلْ إلى اللّهِ، بغيرِ انقطاعٍ، لينجّيَكَ من هذا الموت. فالضّحكُ والدّالّةُ يقضيانِ على ثمارِ الرّاهبِ، ويجذبانِهِ إلى أهواءٍ مُخجلةٍ، لا في شبابِهِ فحسبُ، بل في سنِّ الشّيخوخةِ أيضًا. فالضّحكُ يطردُ تطويبةَ النّوحِ[٣٩٧]، ويُحزِنُ الرّوحَ القدسَ، ويُقصي خوفَ اللّهِ، وذكرَ الموتِ والعذاباتِ، ويدمّرُ كلَّ ما بناه الرّاهبُ، ويقودُهُ إلى الهلاكِ الكامل. أبْعِدْ عنّي، يا ربُّ، الضّحكَ، وامنَحْني التّخشّعَ

---

٣٩٧. مت ٥، ٤.

والدّموعَ، اللّذيْنِ تطلبُهما منّي.

- عن أنطيوخوس البَنْديكتي -

إنّ القهقهةَ ممنوعةٌ على المسيحيّينَ كلّيًّا[٣٩٨]. فكم بالأحرى على الرّهبانِ الّذينَ صلَبوا ذواتِهم للعالمِ[٣٩٩]. يقولُ السّيّدُ: «من أرادَ أن يتبَعَني، فليُنكِرْ ذاتَهُ، ويحمِلْ صليبَهُ، ويتبَعْني»[٤٠٠]. فكيف يُمكنُ لإنسانٍ مسمَّرٍ بالمساميرِ على الصّليبِ أن يختبرَ الهناءَ والقهقهة؟ فاللهُ لم يَدْعُنا إلى التّسليةِ والضّحكِ، لئلاّ نرثَ «الويلَ»[٤٠١]، كالعالميّينَ والوثنيّينَ، بل دعانا إلى نوحٍ غيرِ منقطعٍ، وبه نحصلُ على التّعزية[٤٠٢].

- عن الأبِ أشعيا -

إن قيلَ بينكم شيءٌ يدعو إلى الضّحكِ، فاحترسوا لئلاّ تسترسلوا فيه، لأنّ عدمَ احتراسِكم الدّاخليِّ يُشيرُ إلى نقصٍ في التّنشئةِ الرّهبانيّةِ ومخافةِ اللّه. ففي أيّامِنا، حلَّ الغضبُ على المسكونةِ كلِّها.

- عن القدّيسِ إسحق -

لا تمتَدِحْ مَنِ يعكفُ على النّسكِ الجسديِّ، من دونِ الانتباهِ إلى حواسِّهِ، وأعني بالقولِ: أذنيْه، وفمَه المفتوحَ على الدّوامِ من دونِ انضباطٍ، وعينيْهِ اللّتيْنِ تجولانِ في كلِّ مكان. البَساطةُ هي نتيجةٌ طبيعيّةٌ للمحبّةِ، ولكن، يحدثُ للإنسانِ البسيطِ ألاّ يبقى في حدودِ الاحترامِ الواجبِ، بل يتخطّاه. أمّا أنتَ، يا أخي، فتيّقَظْ في كلِّ شيءٍ، وتصرَّفْ دائمًا باحترامٍ مع أحبّائِكَ، في جميعِ الأحوال. بتصرُّفِكَ هذا، ستُفيدُهم وتُفيدُ ذاتَكَ، من دونِ أن ترميَ لجامَ اليقظة.

---

٣٩٨. أنظر لو ٦، ٢٥.
٣٩٩. أنظر غلا ٦، ١٤.
٤٠٠. مت ١٦، ٢٤.
٤٠١. لو ٦، ٢٥.
٤٠٢. أنظر مت ٥، ٤.

- عن القدّيسِ أفرام -

١- يُظْهِرُ الرّاهبُ نقصًا في التّربيةِ إن جلسَ في وسطِ إخوتِهِ، وجعلَهم يَرَونَ جزءًا من رجلَيْه العاريتَيْن. فالرّاهبُ التّقيُّ يجلسُ بوقار.

٢- الرّاهبُ الشّابُّ، الّذي يجولُ بين قلاّياتِ إخوتِهِ، لا يعتادُ على البطالةِ فحسبُ، بل أيضًا على الثّرثرةِ، والتّطفّلِ، والكلامِ غيرِ اللاّئق[٤٠٣]. أمّا مَن يعيشُ بتواضُعٍ في الهدوئيّةِ، فيصيرُ محبوبًا. تليقُ التّقوى بالرّاهبِ مثلَ قلادةِ الذّهبِ حولَ عُنُقِ الإنسان[٤٠٤].

٣- يا أخي، تجنَّبِ المُزاحَ، لئلاّ يجعلَكَ وقِحًا، لأنّ الوقاحةَ هي أمُّ الفسق.

- عن كتابِ الشّيخ -

رأى شيخٌ أحدَهم يضحكُ، فقالَ له: «علينا أن نُعطيَ حسابًا عن حياتِنا كلِّها أمامَ جميعِ الملائكةِ والبشرِ، وأنتَ تضحك؟»

٤٠٣. أنظر ١ تيم ٥، ١٣.

٤٠٤. كعلامة سلطة وغنى في ذلك العصر.

الفصل الخامس والثّلاثون

في عدمِ الغضبِ بتاتًا على إنسان، وعدمِ الصّراخ.
أسبابُ الغضبِ وعلاجُه.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ الأبُ أغاثون: «الغضوبُ، وإن أقامَ ميتًا، ليس مقبولاً لدى اللّه».

٢- قالَ الأبُ بيمنُ: «ليس راهبًا مَن يندبُ حظَّه. ليس راهبًا مَن يُبادلُ الشّرَّ بالشّرّ. ليس راهبًا مَن يغضَبُ». يعني أنّ مَن هذه أحوالُهم ليسوا برهبانٍ، وإن اعتقدوا أنّهم كذلك.

٣- قالَ الأبُ إيسيذورسُ: «ذهبتُ مرّةً إلى السّوقِ لبيعِ بعضِ الأواني، وعندما رأيتُ الغضبَ يقتربُ منّي، تركتُ الأوانيَ وهربتُ».

٤- ذهبَ مرّةً آريوسيّونَ إلى الأبِ سيسوي، في جبلِ الأبِ أنطونيوس، وأخذوا يتحدّثونَ عن الأرثوذكسيّينَ بالسّوء. لم يُجِبْهم الشّيخُ بشيء. نادى تلميذَهُ، وقالَ له: «يا ابراهيمُ، أحضِرْ كتابَ القدّيسِ أثناسيوس، واقرَأْه». وفيما احتفظوا بالصّمتِ، انكشفَتْ هرطقتُهم، وأرسلَهم بسلام.

٥- أصبحَ أحدُ المتوحّدينَ أسقفًا. ولمّا كانَ تقيًّا وسلاميًّا، لم يوبِّخْ أحدًا، مُحتملاً، بطولِ أناةٍ، أخطاءَ الجميع. ولكنّ مدبِّرَه لم يَكُنْ يديرُ مسائلَ الكنيسةِ بشكلٍ مناسبٍ، فأتى أناسٌ يقولونَ للأسقفِ: «لِمَ لا توبِّخُ هذا

المدبِّرَ المُتهاملَ في عملِه؟» أرجأَ الأسقفُ التّوبيخ. في اليومِ التّالي، عاد متّهمو المُدبِّرِ إلى الأسقفِ مُغتاظينَ منه. حالما عَلِمَ بقدومِهم، اختبأَ في مكانٍ ما، ولم يستطيعوا رؤيته. فتّشوا عنه طويلاً، وحالما وجدوه قالوا له: «لماذا اختبأتَ عنّا؟» أجابَ الأسقفُ: «لأنّ ما نجحتُ بإتمامِه، في ستّينَ سنةً، متوسِّلاً إلى اللّهِ، تُريدونَ أنتم أن تسرقوه منّي في يومَيْن».

أظنُّ أنّ الشّيخَ أُجبِرَ على أن يصيرَ أسقفًا، ولهذا، أولى عنايةً كبرى في حفظِ ناموسِ المتوحّدينَ أكثرَ من واجبِ الأسقف.

٦- سَمِعَ الأبُ بيمنُ عن أحدٍ أنّه يصومُ ستّةَ أيّامٍ في الأسبوعِ، ممّا يجعلُهُ يغضَبُ، وقالَ: «هذا تعلَّمَ أن يصومَ لستّةِ أيّامٍ، ولم يتعلَّمْ أن يطردَ الغضب».

٧- شعرَ أحدُ الإخوةِ بالغضبِ ضدَّ أحدِهم، فوقفَ ليُصلّيَ طالبًا إلى اللّهِ أن يُعينَهُ ليظهِرَ رأفةً تجاهَ الأخِ، ويتخطّى التّجربةَ من دونِ ضرر. وللحالِ رأى دخانًا يخرجُ من فمِه.

- عن الأبِ أشعيا -

يا أخي، إن جرحَكَ أحدُهم لأيِّ أمرٍ كانَ، ولَزِمَ أن تُوبِّخَهُ، ولكنّك لاحظتَ أنّك غضبانٌ وثائرٌ، فلا تُكلِّمْهُ مُطلقًا لتتجنّبَ ازديادَ اضطرابِك. ولكن، عندما ترى ذاتَكَ في سلامٍ معه ووداعةٍ، فحينئذٍ تكلَّمْ، لا مُوبِّخًا إيّاه، بل مُحذِّرًا إيّاه بكلِّ تواضُع.

- عن الأبِ مرقس -

إنّ الكبرياءَ توطِّدُ هوى الغضبِ، وتقوّيه، وتجعَلُهُ متعذِّرَ الكبح. إن أرادَ أحدٌ هدمَ بناءِ الإثمِ في ذاتِهِ من أساساتِه، هذا البناءِ الّذي يلتزمُ الشّرّيرُ بناءَه في النّفسِ في كلِّ مناسبةٍ (يسوّي كالحجارةِ حججًا مختلفةً منطقيّةً، وغيرَ منطقيّةٍ، مؤسَّسةً على أفعالٍ ماديّةٍ، أو أقوالٍ، ويوصلُها إلى الأفكارِ، ويصنَعُ

منها بناءً للشّرِّ في داخلِ النّفسِ)، فالواجبُ أن يُحْفَظَ تواضُعُ الرّبِّ في القلبِ، من دونِ شرود. نفعلُ ذلك إن تأمَّلْنا مَن هو الرّبُّ، ومَن صارَ من أجلِنا؛ من أيِّ علوٍّ للنّورِ الإلهيِّ نزلَ، ذلك النّورِ المكشوفِ للكائناتِ العُلويّةِ بحسبِ قياسِ قدرتِهم، النّورِ المُمَجَّدِ في السّماواتِ من الطّبائعِ الرّوحانيّةِ جميعًا. علينا أن نتأمّلَ أيضًا، إلى أيِّ عمقٍ من التّواضُعِ نزلَ، بداعي صلاحِهِ الّذي لا يُعَبَّر عنه. لم يخجَلْ ربُّ الخليقةِ كلِّها، المنظورةِ وغيرِ المنظورةِ، أن يأخذَ على عاتِقِهِ إنسانيّةً خاضعةً لأهواءٍ مَعيبَةٍ، ومُدانةً بالحكمِ الإلهيِّ. بل تَواضَعَ، وصارَ مُشابِهًا لنا في كلِّ شيءٍ، ما خلا الخطيئة[٤٠٥]، أي من دونِ الأهواءِ المَعيبة. لأنّ الآلامَ الّتي فُرِضَتْ على الإنسانِ بالحكمِ الإلهيِّ، كعقابٍ على خطيئةِ التّعدّي، هي: الموتُ، والشّقاءُ، والجوعُ، والعطشُ، وأشياءُ أخرى مشابهةٌ، أخذَها كلَّها على عاتِقِهِ، صائرًا ما نحن عليه، حتّى نصيرَ ما هو عليه. اللّهُ الكلمةُ صارَ إنسانًا، ليصيرَ الإنسانُ إلهًا. صارَ مشابهًا لنا حتّى نصيرَ نحن مشابهينَ له، عبرَ كافّةِ الفضائل. لإتمامِ هذا التّدبيرِ، قَبِلَ، من أجلِنا، الاحتقارَ، والإهاناتِ، والشّتائمَ، والجَلدَ، والبصاقَ، واللّطماتِ، والسّخريةَ، وحتّى الصّلبَ، والحربةَ الّتي طُعِنَ بها جنبُهُ، والموتَ، والنّزولَ إلى الجحيمِ، إلى جانبِ أمورٍ أخرى.

فلنُعَدِّدْ باختصارٍ الثّمارَ الّتي حمَلَتْها آلامُ الرّبِّ: القيامةَ من بينِ الأمواتِ، وتجريدَ الجحيمِ والموتِ من النّفوسِ الّتي أُعيدَ إحياؤها مع الرّبِّ، والصّعودَ إلى السّماواتِ، والجلوسَ عن ميامنِ الآبِ، وشرفَ مَن اسمُهُ فوقَ كلِّ رئاسةٍ وسلطانٍ واسمٍ ومجدِه[٤٠٦]، وسجودَ جميعِ الملائكةِ[٤٠٧] للبكرِ من بين الأمواتِ[٤٠٨] بسببِ آلامِهِ، بحسبِ أقوالِ الرّسول[٤٠٩].

فمَن يَحفظْ في قلبِهِ هذه الذّكرياتِ، من دونِ تشتّتٍ، فلن يسودَ عليه هوى العداوةِ والغضب. فإن قُوِّضَتْ مرّةً أساساتُ هوى الكبرياءِ، بتأثيرِ التّأمُّلِ بتواضُعِ المسيحِ، يتهدَّمْ بناءُ الإثمِ كلُّه بسهولةٍ، من تلقاءِ ذاتِه. أيُّ قلبٍ صخريٍّ سيبقى قاسيًا ولا ينسحِقُ، ولا يُقادُ إلى التّواضُعِ، ولا يأتي إلى التّخشُّعِ،

---

٤٠٥. عب ٤، ١٥.   ٤٠٦. أف ١، ٢١.   ٤٠٧. عب ١، ٦.

٤٠٨. أنظر كو ١، ١٨. رؤ ١، ٥.

٤٠٩. «بحسبِ كلمات الرّسول». في نصّ الأب مرقس الأساسيّ، هذا الجزء من الجملة يُدخِل استشهادًا من في ٢، ٥- ١٠ الّتي لم تُحفَظ أو اختفت خلال سرد قصّة النّصّ.

ولا يُحمَلُ على احتسابِ نفسِهِ أرضًا ورمادًا ليدوسَهُ الجميعُ، إن فكَّرَ باستمرارٍ في التّواضُعِ الأقصى لألوهةِ الابنِ الوحيدِ من أجلنا، وصبرِهِ الّذي لا يُقاسُ على آلامِهِ الرّهيبة؟ فأيُّ غضبٍ أو أيُّ عداوةٍ من الممكنِ أن يستوليا على نفسٍ منسحقةٍ بهذا الشّكل؟

هكذا، أفكِّرُ في أنّه إن لم يسلبِ النّسيانُ، مسبِّبُ الأهواءِ، هذه الأفكارَ المحييةَ الخلاصيّةَ من قلبِ الإنسانِ، فلن يغلبَهُ الغضبُ بتاتًا.

- عن القدّيسِ ذياذوخس -

على المُجاهدينَ أن يصونوا فكرَهم دائمًا من الاضطراباتِ، ليتسنّى للذّهنِ تمييزُ الإيحاءاتِ الخاطرةِ له، فيدّخِرَ، في كنوزِ الذّاكرةِ، الإيحاءاتِ الصّالحةَ الآتيةَ من اللّهِ، ويطردَ الإيحاءاتِ الشّرّيرةَ الشّيطانيّةَ، خارجَ المخزَنِ الّذي مَهَرتْنا به الطّبيعة. فعندما يكونُ البحرُ هادئًا، ينفذُ نظرُ الصّيّادينَ حتّى إلى تحرّكاتِ قعرِهِ، فيكادُ لا يَخفى عليهم أيٌّ من الأسماكِ الّتي تسبحُ فيه. أمّا إذا كانَ البحرُ عاصفًا، فإنّه يُخفي في تموّجِهِ المعتمِ ما يَتباهى بإبرازِهِ في بسمةِ صحوه.

كذلك، عندما يكونُ الطّقسُ رديئًا، نشهدُ عجزَ حِيَلِ الصّيّادينَ في حرفتِهم. هذا ما يحدثُ، في كلِّ الأحوالِ، للذّهنِ المتأمّلِ في أمورِ اللّهِ، لا سيّما حينما يضطربُ قعرُ النّفسِ من جرّاءِ غضبٍ غيرِ مُبَرَّر.

- عن القدّيسِ كاسيانوس -

مَن يُرِدْ أن يسلكَ الجهادَ الرّوحيَّ، بحسبِ الأصولِ، فليَكُنْ غريبًا عن كلِّ خطأٍ، عن الغضبِ والغيظِ، وليسمَعْ ما ينصحُ به بولسُ، «الإناءُ المختار»[٤١٠]: «ليُرفَعِ من بينِكم كلُّ مرارةٍ، وسخطٍ، وغضبٍ، وصياحٍ، وتجديفٍ، مع كلِّ خبثٍ»[٤١١]. بقولِهِ «كلّ» يمنعُنا من التّحجّجِ بالغضبِ لضرورتِهِ أو لصوابيّتِه.

---

٤١٠. أع ٩، ١٥.

٤١١. أف ٤، ٣١.

فمَن يرغبْ في إصلاحِ أخيه لارتكابِهِ خطأً ما، أو في فرضِ عقابٍ عليه، فليبذُلْ جهدًا في أن يحفظَ ذاتَهُ حرّةً من أيِّ اضطرابٍ، لئلاّ يمرضَ هو نفسُه، في عزمِهِ لشفاءِ الآخرينَ، فينطبقَ عليه قولُ الإنجيلِ: «أيّها الطّبيبُ، اشفِ نفسَك»، وأيضًا: «لماذا تنظرُ القشّةَ الّتي في عينِ أخيك، وأمّا الخشبةُ الّتي في عينِكَ، فلا تفطنُ لها؟»[٤١٢] كيف سترى القشّةَ في عينِ أخيكَ لتنزعَها، وفي عينِكَ خشبةُ الغضبِ تُعميكَ؟ في الواقعِ، إنّ الحركةَ الغاضبةَ، مهما يَكُنْ سببُها، إذا بلغَتِ الغليانَ، تُعمي عينَي النّفسَ، ولا تتركُها ترى شمسَ العدل[٤١٣].

إن وضعَ أحدُهم على عينَيْهِ ذهبًا أو رصاصًا، يَصِرْ في كلا الحالتينِ غيرَ قادرٍ على الرّؤيةِ (أي أنّ قيمةَ الذّهبِ لا تُحدِثُ أيَّ فرقٍ في العمى). هكذا، مهما يَكُنِ السّببُ الّذي أشعلَ الغضبَ، منطقيًّا أو غيرَ منطقيٍّ، فهو يَشُلُّ قدرةَ النّفسِ على الرّؤية. نستعملُ الغضبَ بحقٍّ، إن وجهّناه ضدَّ الأفكارِ الشّهوانيّةِ والأهوائيّة.

هذا ما يُعلِّمُنا إيّاه النّبيُّ داوودُ عندما يقولُ: «اغضَبوا ولا تُخطئوا!»[٤١٤] هذا يعني: وجّهوا الغضبَ ضدَّ أهوائِكم وأفكارِكم السّيّئةِ، ولا تُخطئوا فاعلينَ ما توحيه هذه الأخيرةُ إليكم من أعمال. يتّضِحُ معنى ذلك كلِّه من الجملةِ التّاليةِ: «من أجل أقوالِ قلوبِكم، على مراقدِكم، تخشَّعوا». هذا يعني: عندما تأتي الأفكارُ السّيّئةُ إلى قلوبِكم، أطردوها بغضبِكم ضدَّها، وبعدَ أن تبتعدَ، وتَصيروا في هدوءٍ كأنّكم على مراقدِكم، أتركوا ذواتِكم تشعرُ بالتّخشّعِ الّذي يُفضي إلى التّوبة.

يؤكّدُ المغبوطُ بولسُ هذا لأنّه يذكرُ هذه الآيةَ من المزمورِ، ويضيفُ قائلاً: «لا تغربُ الشّمسُ على غضبِكم لئلاّ تُعطوا مكانًا للشّيطان»[٤١٥]. هذا يعني: لا تَدَعوا، بغضبِكم، شمسَ العدلِ، المسيحَ إلهَنا، يغربُ بسببِ موافقتِكم الأفكارَ الدّنسةَ في قلوبِكم، كما قيلَ، لئلاّ، برحيلِهِ، يجدَ الشّيطانُ موضعًا فيكم.

لهذا، يليقُ بمَن يُطبّقونَ النّواميسَ الإلهيّةَ، أن يُجاهدوا، من كلِّ

---

٤١٢. لو ٤، ٢٣.

٤١٣. يعني المسيح. أنظر ملا ٤، ٢ وطروباريّة الميلاد.

٤١٤. مز ٤، ٥.

٤١٥. أف ٤، ٢٦ – ٢٧.

قوّتِهم، ضدّ روحِ الغضبِ والمرضِ الرّوحيِّ الكامنِ فينا، الّذي يدفعُنا، لئلاّ نغضبَ ضدّ البشرِ، إلى أن نَنْشُدَ العزلةَ والصّحراءَ، بحجّةِ أنّه ليس فيها ما يُمكنُه أن يجعلَنا نغضبُ، وأنّه سيسهُلُ علينا أن نكتسبَ فضيلةَ طولِ الأناةِ، لأنّنا لوحدِنا.

والحقُّ إنّنا، بداعي الكبرياءِ، ورفضِنا أن نُدينَ أنفسَنا، وننسِبَ سببَ اضطرابِنا لكسلِنا، نَرغبُ في الرّحيلِ بعيدًا عن الإخوة. ما دُمنا نرى الأمورَ هكذا، وما دُمنا ننسبُ أسبابَ كسلِنا وضعفاتِنا إلى الآخرينَ، فلن نستطيعَ أن نتوصّلَ إلى كمالِ طولِ الأناة. فإنّ مبدأَ إصلاحِنا لا ينطلقُ من طولِ أناةِ الآخرِ علينا، بل من امتناعِنا عن الشّرّ.

إن نشَدْنا الصّحراءَ والعزلةَ، هاربينَ من جهادِ طولِ الأناةِ، فلنعرِفْ جيّدًا أنّ أهواءَنا الدّاخليّةَ، لا سيّما الغضبَ، ستصبحُ أكثرَ وحشيّةً، بعد أن انتفى التّدرّبُ في الحياةِ المشتركة. وحتّى ظلُّ الصّبرِ وطولِ الأناةِ، الّذي ظنَنّا أنّنا نملكُه، عندما كنّا مع الإخوةِ – على الرّغمِ من أنّه ظاهريٌّ – نفقِدُهُ، عندما نُحرَمُ التّدرّبَ في الحياةِ المشتركةِ والإصلاحَ الأخويّ.

لهذا، على الّذينَ يُريدونَ اكتسابَ الوداعةِ أن يَتمرّسوا على عدمِ الغيظِ، لا من النّاسِ فحسبُ، بل أيضًا من الحيواناتِ، وحتّى من الجوامد. أتذكّرُ أنّني عندما سكنتُ في الصّحراءِ، غضبتُ من قصبةٍ بسببِ عدمِ ملاءمةِ عرضِها أو رقّتِها. مرّةً أخرى، غضبتُ من قطعةِ خشبٍ لأنّني أردتُ أن أقطعَها، ولم أتوصّلْ إلى ذلك بسرعة. وأيضًا غضبتُ من حجرِ الصّوّانِ، لأنّني كنتُ مُستعجلاً لإشعالِ النّارِ، وتأخّرَتِ الشّرارةُ عن الانطلاق. تضخّمَ هوى الغضبِ عندي جدًّا، حتّى جعلَني أغضبُ من الجوامد.

فلنُلْقِ عنّا كلَّ غضبٍ، خشيةَ ما قالَهُ الرّبُّ في الإنجيلِ: «كلُّ من يغضَبُ على أخيه، يكونُ مستحقًّا الدّينونة»[٤١٦] – هذه هي الأمثولةُ الّتي نجدُها في التّرجماتِ الدّقيقةِ للنّصّ. تحديدُ «باطلاً» أضافَهُ أشخاصٌ يرفضونَ اقتلاعَ هوى الغضب كلّيًّا. لأنّ الرّبَّ أرادَ أن نقطعَ، ونستأصلَ جذرَ هذا

---

٤١٦. مت ٥، ٢٢.

الهوى، كما الأهواءُ الأخرى، بكلِّ الوسائلِ المُتاحةِ، وألاّ نَدَعَ، في ذواتِنا، أيّةَ حجّةٍ للغضبِ، خشيةَ أن نغضبَ في البدءِ لافتراضِنا سببًا منطقيًا، ثمّ نستسلمَ لجنونِ الغضبِ غيرِ المَنطقيّ.

أمّا العلاجُ الكاملُ لهذا المرضِ، فيكونُ بأن نعتنيَ بألاّ نَغضَبَ عن حقٍّ أو عن غيرِ حقٍّ، لأنّه عندما يُظلمُ هذا الهوى الأعمى ذهنَنا، لن يبقى فينا لا نورُ تمييزٍ، ولا ضمانُ قرارٍ مستقيمٍ، ولا تصرّفٌ عادل. وسيبتعدُ الرّوحُ القدسُ عنّا، مطرودًا بسببِ اضطرابِنا الدّاخليّ.

بالإضافةِ إلى كلِّ ما قُلناه، يجبُ أن تكونَ ساعةُ الموتِ المجهولةِ نصبَ أعيُنِنا دائمًا. فهي تحفَظُنا من الغضبِ، وتُحوِّلُنا عن السّخطِ كلّيًا، كما يحثُّنا النّبيُّ[417]، عارفينَ بوضوحٍ أنّ لا العفّةَ، ولا نكرانَ العالمِ، ولا الأصوامَ، ولا الأسهارَ، ولا أيَّ نسكٍ آخر سيُعينُنا في يومِ الدّينونةِ، بل سنَظهَرُ مُذنبينَ لأنّنا كنّا تحتَ سيطرةِ الغضبِ والحقد.

- عن القدّيسِ مكسيموس -

كلّما نشطَتِ القوّةُ الشّهوانيّةُ، تُنْتِجُ في النّفسِ استعدادًا لمحبّةِ اللّذّةِ صعبٌ التّغلّبُ عليه. إن اضطربَتِ القوّةُ الغضبيّةُ باستمرارٍ، جعلَتِ النّفسَ خائفةً وجبانة. إنّ الدّواءَ، في الحالةِ الأولى، ممارسةُ الصّومِ المُنتظمِ، والسّهرُ، والصّلاة. أمّا في الحالةِ الثّانيةِ، فالصّلاحُ، والإحسانُ، والمحبّةُ، والرّأفة.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ شيخٌ: «جعلَ الوثنيّونَ من الأهواءِ المُعاكسةِ للطّبيعةِ، والّتي ضيّقَتْ على البشرِ، آلهةً، وعبَدوها. أمّا الّذينَ رفَضوا عبادتَها، فعُذِّبوا وقُتِلوا، وصاروا شهداء. ونحن لا نختلفُ بشيءٍ عن الوثنيّينَ، إن خضَعنا للأهواء. في الواقعِ، إنّ من ينغلِبُ للغضبِ والسّخطِ، ويتركُ ذاتَهُ تنجرفُ إلى جنونِ هذا الهوى، من دونِ أن يقطعَه، يُنكرُ يسوعَ، ويصنَعُ من آريسَ إلهًا له، ويعبُدُ

---

٤١٧. مز ٣٦: ٨.

صنمَ جنونِهِ، كما يفعلُ الوثنيّون.

مُحِبُّ المالِ، الّذي يُغلِقُ بابَ قلبِهِ دونَ أخيهِ الإنسانِ ولا يُشفقُ عليه، هو وثنيٌّ أيضًا، يُكرِّمُ صنمَ هرمس، ويعبدُ الخليقةَ دونَ الخالق[٤١٨]. يسري الأمرُ نفسُهُ على سائرِ الأهواءِ الأخرى، لأنّ كلَّ ما غُلبَ منه المرءُ، هو مستعبَدٌ له[٤١٩]، بحسبِ قولِ الرّسولِ، الّذي يُسمّي محبّةَ المالِ عبادةَ أوثانٍ أخرى[٤٢٠]. ولكن، كلُّ من غَلَبَ الأهواءَ وطَرَدَها عنه، أو على الأقلّ حَفِظَ ذاتَهُ من ممارستِها، يدوسُ الأصنامَ، ويُنكرُ العبادةَ الباطلةَ، ويصيرُ شهيدًا من دونِ أن يُسفَكَ دمُهُ، لأنّه قد اعترفَ الاعترافَ الحسن[٤٢١]».

٢- قالَ المغبوطُ زوسيما إنّ بدءَ السّيطرةِ على الغضبِ هو ألاّ يتكلّمُ المرءُ عندما تثورُ أعصابُه. من هنا، يتوصّلُ، بنعمةِ اللّهِ، إلى السّيطرةِ على أعصابِهِ كلّيًّا. هذا ما حصلَ مع الأبِ موسى، في أوّلِ حياتِهِ الرّهبانيّةِ، عندما أهانَهُ الآباءُ قائلينَ في حضورِه: «لماذا يأتي هذا الأسودُ بينَنا؟» اضطربَ بسببِ ذلك، ولكنّه لم يتكلّمْ، كما قالَ لاحقًا لِمَن سألوه عن ذلك. ولكنّه، بعد وقتٍ طويلٍ، عندما أهانَهُ الإكليريكيّونَ وطردوه من الهيكلِ المُقدّسِ، لم يكتفِ بعدمِ الاضطراب، بل وبّخَ ذاتَهُ قائلاً: «أيّها العبدُ الأسودُ، لقد فعلوا بكَ حسنًا! بما أنّك لستَ إنسانًا، لِمَ تأتي بين البشرِ؟»

أمّا نحن، الأدنى بكثيرٍ من المبتدئينَ، بسببِ تهامُلِنا الكبيرِ، نعتبرُ أنّ هذه الوصايا متطرّفةٌ ومستحيلةُ التّطبيق. نقول إنّه يستحيلُ على الإنسانِ ألاّ يضطربَ البتّةَ، ولا نسمَعُ قولَ النّبيِّ: «أهانوني، ولم أضطرب». في الحقيقةِ، لا نسعى لوضعِ انطلاقةٍ حازمةٍ، ولا نظهرُ عزمًا شجاعًا ونبيلاً، بحيثُ نجتذبُ، في القياسِ نفسِهِ، نعمةَ اللّهِ، الّتي بها يُصبح ما يبدو لنا صعبًا، سهلَ الإنجاز.

جلستُ، ذاتَ يومٍ، مع المغبوطِ سرجيوس، رئيسِ دير «بيذياس» أقرأُ في كتابِ الأمثالِ، وأتيتُ إلى الآيةِ الّتي تقولُ: «بالحطبِ الكثيرِ تشتعلُ النّارُ، وحيثُ لا محبَّ للخصامِ، يهدأُ الشّجار»[٤٢٢]. وطلبتُ من المغبوطِ سرجيوس أن

---

٤١٨. أنظر رو ١، ٢٥. ٤١٩. ٢ بط ٢، ١٩. ٤٢٠. كو ٣، ٥.
٤٢١. أنظر ١ تيمو ٦، ١٢. ٤٢٢. أم ٢٦، ٢٠.

يفسِّرَها لي، فأجابَني: «كما أنّ الحطبَ يسبِّبُ اشتعالَ النّارِ، وعندما نتوقّفُ عن مدِّها بالحطبِ تنطفئُ، هكذا الأهواء. لهذه أسبابٌ، إن قطعَها أحدٌ، فلا تُفَعَّلُ الحركةُ الأهوائيّة. على سبيلِ المثالِ، أسبابُ الغضبِ هي الأخذُ والعطاءُ، وأن يريدَ المرءُ أن يَفعلَ مشيئتَه، وأن يُعجبَه أن يقومَ بدورِ المُعلِّم، وأن يظهرَ أمامَ النّاسِ، وأن يعتقدَ أنّه ذكيٌّ وحكيم.

إن قطعَ أحدُهم هذه الأسبابَ، يُضعِفْ هوى الغضب. هذا ما أرادَ الأبُ سيسوي قولَه لدى سؤالِ أحدِهم له: لِمَ لا تفارقُني الأهواءُ؟ أجابَه: لأنّ أدواتِها، أي أسبابَها، في داخِلك. أعطِها رعبونَها وهي ستبتعد. الإنسانُ المحبُّ الخصامَ، الّذي لا يهدَأُ العنفُ فيه، لا يكتفي بأوّلِ حركةٍ لهواه، بل يَحتَدِمُ غيظُهُ من جديد. لفهمٍ أفضلَ، لنَقُلْ إنّنا لا نصفُ بالمُخاصِمِ إنسانًا تركَ نفسَهُ يُعبِّرُ عن غضبِهِ بحركةٍ، ولكنّه استدركَ للحالِ، وأقرَّ بخطيئِهِ، وذهبَ يطلبُ المغفرةَ من أخيهِ الّذي غضبَ منه. في هذا الإنسانِ، هدَأَ الخصامُ، لأنّه، بذهابِه لطلبِ المغفرةِ، مَنَعَ هدْمَ صداقتِهِ مع أخيه. وبهذا العملِ على ذاتِهِ، سيصلُ، فيما بعد، إلى حالةِ سلامٍ وعدمِ اضطراب.

في المقابلِ، ندعو بمحبِّ الخصامِ ذاك الّذي يغضبُ ولا يُدينُ ذاتَهُ، بل بالأحرى، يحتدمُ غيظُهُ من جديدٍ، ويندمُ لأنّه لم يَقُلْ أكثرَ ممّا قالَه، خلالَ سَوْرةِ غضبِه. في هذا الإنسانِ لا يهدَأُ الحقدُ أبدًا. في الواقعِ، أثناء الخصامِ، تحلُّ الضّغينةُ، والحزنُ، والخبثُ مكانَ اضطرابِ قلبه. وما إن تنتهي المُشاجرةُ، يتضاعفُ اضطرابُ الغضبِ في داخِله حتّى يملأَ كيانَهُ كلَّه. في الواقعِ، ما إن يثورُ فيه الحقدُ، يأخذُ ينمو في البائسِ الّذي يصيبُه، إلى أن يحوِّلَهُ إلى شيطانٍ، بعد أن يُسيطرَ عليه كلّيًّا. ولكنّ معلِّمَنا الصّالحَ، ربَّنا يسوعَ المسيحَ، سيُخلِّصُنا من المصيرِ المُعَدِّ لهذا النّوعِ من النّاس».

٣- قالَ الأبُ زوسيما أيضًا: «نحتاجُ إلى يقظةٍ وحِنكَةٍ كبيرتَيْن، لنُحْبِطَ حِيَلَ الشّيطانِ المتنوّعة. فإنّ حقدَهُ على البشرِ يحملُه أحيانًا على جعلِ أحدِهم يفقدُ سلامَهُ من لا شيءٍ، وأحيانًا على اقتراحِ حجّةٍ تبدو منطقيّةً ظاهريًّا ليعتقدَ أنّه يحِقُّ له أن يغضب. فالإنسانُ الّذي يرغبُ بصدقٍ في سلوكِ دربِ

القدّيسينَ غريبٌ كلّيًّا عن الغضبِ، ضدَّ أيٍّ كان. كما يقولُ مكاريوسُ الكبيرُ: غريبٌ عن الرّهبانِ أن يَغضبوا أو أن يُغضِبوا أحدًا».

٤- قالَ الأبُ يوحنّا القصيرُ: «مرّةً، سلكتُ طريقَ الإسقيطِ مع جمّالٍ، وكانَ جَمَلُه يحملُ لي السّلالَ، وبدا لي أنّ الجمّالَ يحمِلُني بكلامِهِ على الغضبِ، فتركْتُ السّلالَ وهربت».

٥- قالَ الأبُ إيبريخيوس: «إنّ مَن لا يضبطُ لسانَهُ ساعةَ الغضبِ، لا يُمكنُهُ أن يضبطَ أهواءه».

٦- قالَ الأبُ عمّون: «لقد قَضَيتُ أربعَ عشْرةَ سنةً في الإسقيطِ، مُتضرّعًا إلى اللّهِ، ليلَ نهارَ، أن يمنحَني القوّةَ لأتغلّبَ على الغضب».

٧- سُئِلَ شيخٌ: «ما هو الغضبُ؟» أجابَ: «خصامٌ، وكذبٌ، وجَهْلٌ».

- عن القدّيسِ أفرام -

إنّ غَضَبَ الإنسانِ حفرةٌ، ومَن يتخطَّ الغضبَ، يقفِزْ فوقَ الحفرة. مغبوطٌ الإنسانُ الّذي حملَ بوداعةٍ نيرَ المسيحِ ربِّنا[٤٢٣] حتّى نهايةِ حياتِه. أمّا المتكبّرُ، فيُضاعِفُ في داخلِهِ الاضطراباتِ والعداوات. الإنسانُ الّذي يغضبُ ويصرخُ، يلعَنُ لأتفهِ سبب. أمّا الإنسانُ الهادئُ، فهو حكيم. الغضبُ هوًى سفيهٌ وممقوت. يتبَعُهُ النّدمُ والحزنُ اللّذان يلتهمان قلبَ مَن ينقادُ إليهما.

- عن القدّيسِ إسحق -

الإنسانُ المُتطَرِّفُ لا يصلُ أبدًا إلى سلامِ الذّهن. الغريبُ عن السّلامِ غريبٌ عن الفرح. سلامُ الذّهنِ صحّةٌ كاملةٌ، كما يُقالُ عنه. لكنّ المُتطَرِّفَ

---

٤٢٣. أنظر مت ١١، ٢٩.

عدوُّ السّلام. فالمُتطَرِّفُ مُصابٌ بمرضٍ عُضال. يا إنسانُ، ليس حسنًا ولا مفيدًا لك أن تُريدَ مساعدةَ الآخرينَ بتعريضِ ذاتِكَ لخطرٍ كبير. ليس التَّطَرُّفُ شكلاً من أشكالِ الحكمةِ، بل مرضًا من أمراضِ النّفس. في الواقعِ، يحوي ضيقُ المشاعرِ ومحدوديّتُها جهلاً كبيرًا. إن أردتَ شفاءَ المرضى، فاعلمْ أنّهم يَحتاجونَ إلى الرّأفةِ والعنايةِ المُنتبهةِ، لا إلى التّوبيخات. فالرّسولُ يقولُ: «عليكم أنتمُ الأقوياءَ أن تحتمِلوا أوهانَ الضّعفاء»[٤٢٤]. وفي مكانٍ آخرَ، يحثُّنا الرّسولُ على أن نصلحَ الّذينَ يخطئونَ، لا بالغضبِ، بل بالوداعةِ[٤٢٥].

٤٢٤. رو ١٥، ١.

٤٢٥. غلا ٦، ١.

الفصل السّادس والثّلاثون

التّائقونَ إلى الكمالِ لا يحسَبونَ اضطرابَهم الدّاخليَّ، ضدَّ مَن يَظلمُهم و يُهينُهم، أمرًا خاليًا من الخطيئة.

- من حياةِ القدّيسِ باخوميوس -

عندما سَمِعَ يوحنّا، شقيقُ باخوميوس بالجسدِ، كلامًا على هذا الأخيرِ، ذهبَ للتّفتيشِ عنه في موضعِ توحُّدِه. وعندما رآه باخوميوسُ، عانقَهُ وفَرِحَ به كثيرًا، لأنّه لم يَقُمْ بزيارةِ أهلِهِ أبدًا، منذ معموديّتِهِ وموافقتِهِ المسيحَ، واختيارِهِ الحياةَ التّوحّديّة. وبما أنّ يوحنّا عقدَ النّيّةَ على ما هدفَ إليهِ باخوميوسُ نفسُه، بَقِيَ الاثنانِ معًا، متأمِّلَيْن، من دونِ انقطاعٍ، في ناموسِ اللّهِ[٤٢٦]، ومزدريَيْن كلَّ ما يتعلّقُ بالأرضيّاتِ تمامَ الازدراء.

في وقتٍ لاحقٍ، تذكّرَ باخوميوسُ ما أعلنَهُ له الملاكُ[٤٢٧] بخصوصِ النّفوسِ الّتي لا تُحصى وستخلُصُ بوساطتِه، وباشَرَ، بمساعدةِ أخيه، بناءَ ديرٍ أوسعَ، ليستقبلَ فيه الّذينَ يودّونَ أن يزهدوا بحياةِ العالمِ، ويأتوا إلى اللّه. أثناءَ البناءِ، شَرَعَ باخوميوسُ يبني سورًا أكبرَ، وقد عزمَ على توسيعِ مساحةِ البناءِ بما يوافقُ مقصدَه. أمّا يوحنّا، الّذي كانَتْ في ذهنِهِ الحياةُ التّوحّديّةُ، فأرادَ أن يُقلِّصَ مساحةَ البناء. وبما أنّه يكبرُ أخاه في السّنِّ، غضبَ، وقالَ له: «أقلِعْ عن الكبرياءِ والانتفاخ».

لدى سماعِ ذلك، غَضِبَ باخوميوسُ لأنّه أُهينَ ظلمًا. مع ذلك، لم يُجِبْ بكلمةٍ، وتمالَكَ نفسَهُ لأنّه كانَ مُتسامحًا بطبعِه. وفي تلك اللّيلةِ، نزلَ

---

٤٢٦. أنظر مز ١، ٢.

٤٢٧. أنظر في الجزء الأوّل من كتاب الأفريتينوس (كيف نحيا مع الله)، الفصل ٣٦، عن بالاديوس.

إلى قبوٍ في الجزءِ الّذي كان يبنيه من المنزلِ، وبدأ يبكي بدموعٍ حارّةٍ، ويكشفُ عن خبايا قلبِهِ للّهِ، قائلاً: «الويلُ لي، ما زالَ الفكرُ الجسدانيُّ فيَّ؛ ما زال يحيا فيّ الإنسانُ الجسدانيّ"[428]. أقومُ بنسكٍ شديدٍ، وما زلتُ عُرضةً للغضب. إرحمني، يا سيّدُ، لئلاّ أهلكَ. إن لم تسنُدْني أنتَ بطولِ أناتِكَ، فسيجدُ العدوُّ فيّ شيئًا من أعمالِه، وسأقعُ بينَ يديه، كما هو مكتوبٌ: «من حفظَ النّاموسَ كلَّه، وإنّما عثرَ في واحدةٍ، فقد صارَ مُجرمًا في الكلّ»[429]. ولكنّي أؤمنُ، يا سيّدُ، أنّ رأفاتِكَ الغزيرةَ ستُعينُني، وسأتعلَّمُ أن أسلكَ الطّريقَ الّتي سارَ عليها قدّيسوك، مُتقدِّمًا دائمًا إلى الأمامِ، وناسيًا ما هو في الخلف"[430].

عبرَ العصورِ، أخزى قدّيسوك العدوَّ، وصاروا كواكبَ لامعةً، بمعونةِ نعمتِكَ. أمّا أنا، يا سيّدُ، فكيف سأعُلِّمُ الّذينَ وعدْتَ أن تدعوَهم بوساطتي إلى طريقةِ الحياةِ الرّهبانيّةِ، إن لم أَسُدْ أوّلاً على الأهواءِ الّتي تحاربُ النّفسَ عبرَ الجسدِ، وإن لم أحفَظِ النّاموسَ كاملاً؟ ولكنّي أؤمنُ، يا سيّدُ، أنّك تُعينُني في الجهادِ، وستغفرُ خطاياي كلَّها».

هكذا، أمضى طولَ اللّيلِ مُعترفًا للّهِ بتنهّداتٍ حتّى الصّباحِ، ساكبًا من وفرةِ الدّموعِ ما أوحلَ الأرضَ تحت قدمَيْه، على الرّغمِ من حرارةِ المكانِ في فصلِ الصّيف. في الواقعِ، كانَتْ لديه عادةٌ، أثناءَ وقوفِهِ للصّلاةِ، أن يرفَعَ يدَيْه ولا يُنزلَهما أبدًا، كأنّه مشدودٌ إلى الصّليبِ، مُضنيًا هكذا الجسدَ، وحافظًا نفسَهُ في اليقظة. باستعداداتِ نفسِهِ هذه، عاشَ باخوميوسُ مع أخيهِ بسلامٍ ووداعةٍ كبيرة.

- عن الأبِ كاسيانوس -

إن أرَدْنا أن نكتسبَ وداعةً كاملةً، ونستحقَّ تطويبةَ السّيّدِ[431]، فعلينا أن نتخلَّصَ، لا من الغضبِ المُعَبَّرِ عنه خارجيًّا فحسبُ، إنّما أيضًا من الاضطرابِ الدّاخليّ. لأنّ حفظَ اللّسانِ في ساعةِ الغضبِ، وعدمَ التّلفُّظِ بكلماتٍ نابيةٍ، ليس مفيدًا بمقدارِ تنقيةِ القلبِ من الضّغينةِ، وعدمِ التّفكيرِ بأمورٍ بَغيضةٍ

٤٢٨. أنظر رو ٨، ٦ و١. ٤٢٩. يع ٢، ١٠. ٤٣٠. في ٣، ١٤.
٤٣١. مت ٥، ٥.

تجاهَ أخينا. في الواقعِ، يدعونا التّعليمُ الإنجيليُّ إلى اقتطاعِ جذورِ الخطايا، لا ثمارِها فقط.

عندما يُقتطَعُ جذرُ الغضبِ من القلبِ، لا يستطيعُ لا البغضُ ولا الحقدُ أن يَتَحَرّكا. إنّ من يكرهُ أخاه يدعوهُ الرّسولُ قاتلَ نفسٍ[٤٣٢]، لأنّه يَقتلُ أخاه بموقفِ الكُرْهِ الّذي يشغلُ فكرَه. نحن لا نرى دمَ هذا الأخِ يُسفَكُ بالسّيف. ولكنّ اللّهَ يرى استعدادَ القلبِ الدّاخليَّ، ويعطي النّاسَ الأكاليلَ أو العقوباتِ، لا على أفعالِهم فحسبُ، إنّما أيضًا على أفكارِهم ونيّاتِهم، كما يُشدّدُ بفمِ النّبيِّ: «سآتي لأجمعَ أعمالَهم وأفكارَهم ورغباتِهم»[٤٣٣]. وهذا نعلَمُه أيضًا من الرّسولِ الّذي يقولُ: «ستشتكي الأفكارُ فيما بينها، وتحتجُّ في اليومِ الّذي فيه يُدينُ اللّهُ سرائرَ النّاس»[٤٣٤].

---

٤٣٢. ١ يو ٣، ١٥.

٤٣٣. أنظر أش ٦٦، ١٨.

٤٣٤. رو ٢، ١٥ – ١٦.

الفصل السّابع والثّلاثون

على الرّاهبِ أن يكونَ طويلَ الأناةِ معَ من يعاديهِ، وألاّ يأخذَ إلى المحكمةِ من يظلمونَه.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قيلَ عن الأبِ إيسيذورس، كاهنِ الإسقيطِ، إنّه إن كانَ عندَ أحدِ الشّيوخ أخٌ مريضٌ أو مهمِلٌ أو سريعُ الغضبِ، وأرادَ طردَهُ، يقُلْ له: «أحضِرْهُ إليّ هَهُنا»، ثمّ يَعتني بأمرِه، وبطولِ أناتِه يُخلِّصُه. كذلك، ما لبثَ يقولُ للإخوةِ في الكنيسةِ القولَ التّالي: «يا إخوةُ، اغفُروا وسيُغفرُ لكم»[٤٣٥]!

٢- أخبرَ بعضُ الآباءِ عن شيخٍ كبيرٍ أنّه، كلّما أتى أحدٌ ليطلبَ منه نصيحةً، يُجيبُهُ في العادة: «أنا الآن سأمثّلُ دورَ اللّهِ، وأجلسُ على عرشِ الدّينونة. فماذا تريدُ أن أفعلَ لك؟ إن قلتَ: ارحَمْني، فسيُجيبُكَ اللّهُ: إن أردتَ أن أرحمَكَ، فارحَمْ أنتَ أيضًا أخاك. وإن قلتَ من جديدٍ: اغفرْ لي، يُجِبْكَ: اغفرْ أنت أيضًا لأخيكِ الإنسان. ألعلّ اللّهَ ظالمٌ؟ حاشا![٤٣٦] إن أرَدْنا أن نخلُصَ، فالأمرُ يعودُ إلينا».

٣- أُسيءَ إلى أحدِ الإخوةِ، فذهبَ إلى الأبِ سيسوي، وقالَ له: «لقد أساءَ إليّ أخي، وأريدُ أن أنتقمَ لنفسي». فتوسّلَ إليه الشّيخُ قائلاً: «لا، يا ولدي، من الأفضلِ أن تُسلّمَ المسألةَ إلى اللّه». أمّا الأخُ، فأصرَّ: «لن أرتاحَ حتّى أثأرَ منه». حينئذٍ، قالَ الشّيخُ: «لنصلِّ، يا أخي». عندما نهضا للصّلاةِ، قالَ

---

٤٣٥. أنظر مت ٦، ١٤. مر ١١، ٢٥. ٤٣٦. رو ٩، ١٤.

الشّيخ: «يا إلهي، لم نعدْ بحاجةٍ إلى عنايتِك، لأنّنا نحن نثأرُ لأنفسِنا». فلمّا سَمِعَ الأخُ هذا، سقطَ عند قدمَي الشّيخِ قائلاً: «لن أخاصمَ أخي بعد اليوم. سامِحْني، يا أبتِ».

٤- ذهبَ أخٌ من ليبيا لزيارةِ الأبِ سلوان في جبلِ «بانيفو»، وقالَ له: «يا أبتِ، لي عدوٌّ أساءَ إليّ كثيراً. سرقَ منّي حقلي عندما كنتُ في العالمِ، وغالبًا ما ينصبُ لي الأحابيل. الآن، استأجرَ أناسًا ليُسَمِّموا لي، وأريدُ أن أسلِّمَهُ إلى القاضي». أجابَه الشّيخُ: «افعَلْ ما يُريحُكَ، يا بُنيَّ». فتابعَ الأخُ قائلاً: «أليس صحيحًا، يا أبتِ أنّ عقابَه سيكونُ مفيدًا جدًّا لنفسِه؟». فقالَ له الشّيخُ ثانيةً: «افعل ما يَحْسُنُ لديك، يا بُنيَّ». حينئذٍ، قالَ الأخُ: «انهَضْ، يا أبتِ، لنصلّيَ، وسأذهبُ إلى الحاكم».

فنهضا، وبدآ الصّلاةَ، وعندما وصلا إلى عبارةِ: «واترُكْ لنا ما علينا كما نترُكُ نحن لمن لنا عليه»، قالَ الشّيخُ: «ولا تترُكْ لنا ما علينا، كما لا نترُكُ نحن لمن لنا عليه». فقاطعَ الأخُ الشّيخَ قائلاً: «ليس هكذا، يا أبتِ». «بل هكذا، يا بُنيَّ، لأنّك، في الحقيقةِ، إن أردْتَ الذّهابَ إلى الحاكمِ لينتقمَ لك، فسلوانُ لن يُقدِّمَ صلاةً أخرى من أجلك». عند ذلك، سجدَ الأخُ، وسامحَ عدوَّه.

٥- رأى راهبٌ أحدَ محبّي التّعبِ[٤٣٧] ينقُلُ ميتًا على حمّالةٍ، فقالَ له: «أتحملُ الأمواتَ؟ إذهَبْ، واحمِلِ الأحياءَ[٤٣٨]».

٦- أتى إخوةٌ إلى شيخٍ قدّيسٍ يسكنُ في مكانٍ صحراويٍّ، ووجدوا خارجَ قلاّيتِه أولادًا يَرعونَ المواشيَ، ويتلفّظونَ بكلماتٍ غيرِ لائقة. بعد اعترافِهم بأفكارِهم للشّيخِ، والاستفادةِ من معرفتِه الرّوحيّةِ، قالوا له: «كيفَ تحتمِلُ، يا أبتِ، هؤلاءِ الأولادَ، ولا تُوبِّخُهم حتّى لا يُظهروا وقاحتَهم بهذا

٤٣٧. فيلوبونو: محبُّ التّعبِ أو محبُّ الألمِ كما تعني العبارةُ في اليونانيّة. هكذا كانوا يدعونَ المسيحيّينَ الّذينَ يكرّسونَ ذواتِهم لعملِ الإحسانِ: الاهتمامِ بالمرضى، إراحةِ النّفوس، الضّيافةِ، دفنِ الأمواتِ الغرباء، ...
٤٣٨. أي أحتملهم أو أصبر عليهم.

الشّكل؟» أجابَ الشّيخُ: «في الحقيقةِ، يا إخوةُ، منذ يومَيْن أردتُ أن أوبِّخَهم، ولكنّني لُمْتُ ذاتي، قائلاً: إن لم أحتمِلْ هذا الأمرَ الصّغيرَ، فكيف سأحتملُ تجربةً كبيرةً إن حصلَتْ لي؟ لهذا لا أقولُ لهم شيئًا، لأعتادَ على احتمالِ ما يأتي عليّ».

٧- كانَ لأحدِ الشّيوخِ خادمٌ يَعيشُ معه، وعندما رآه يفعلُ ما لا يُفيدُه، قالَ له مرّةً واحدةً: «لا تُعاوِدْ فعلَ هذا الأمر». ولكنّ الخادمَ لم يَسمعْ له. حينئذٍ، توقّفَ الشّيخُ عن الانشغالِ به، تاركًا إيّاه لحكمِهِ الخاصّ. ذاتَ يومٍ، أغلقَ الخادمُ بابَ القلاّيةِ حيثُ الخبزُ الجافّ. ثمّ رحلَ، مُتغيّبًا لمدّةِ ثلاثةَ عشَرَ يومًا. فبقيَ الشّيخُ صائمًا. غيرَ أنّ جارَهُ، لدى معرفتِهِ بتأخُّرِ الأخِ الشّابِّ وحاجةِ الشّيخِ الضّروريّةِ للطّعامِ، هيّأَ قليلاً منه، وقدّمَه له من فوقِ الجدارِ، وحثّهُ على تناولِ الطّعامِ، قائلاً: «لقد تأخّرَ الأخُ». ولكنّ الشّيخَ أجابَ: «سيأتي عندما يستطيعُ».

٨- سألَ أخٌ شيخًا: «أريد أن أستشهدَ، حبًّا باللّه». أجابَه الشّيخُ: «عندما نصبرُ على قريبِنا عند الضّرورةِ، هذا يُوازي أتّونَ الفتيةِ الثّلاثة[٤٣٩]».

٩- قالَ شيخٌ: «إن قالَ لكَ أحدُهم شيئًا مُزعجًا، وأنكرَ ما قالَهُ، فلا تُعارِضْه قائلاً: بل قُلتَه. لأنّه سيردُّ ويقولُ: نعم، لقد قلتُه. وماذا بعدُ؟ وسيتبعُ ذلك شجارٌ كبير. أمّا أنتَ، فعلى العكسِ، لا تُعِرْ أهمّيّةً لهذا الكلامِ، وسيتبَعُ ذلك سلامٌ عظيم».

- عن أنطيوخوس البَنْديكتي -

قيلَ عن يعقوبَ، أخي يوحنّا اللاّهوتيّ، إنّه، عندما رآهُ مَن وشى به أنّه مسيحيٌّ مُقادًا إلى الموتِ، نَدِمَ، وسقطَ عند قدمَيْه قائلاً: «سامِحْني».

---

٤٣٩. دا ٣، ٢٣.

فتوقَّفَ يعقوبُ للحظةٍ قصيرةٍ، وقبَّلَهُ، وقالَ له: «السّلامُ لك». للحالِ، صاحَ الرّجلُ مُعلنًا بصوتٍ عالٍ أنّه مسيحيّ. ثمّ أُدينَ مَن سبقَ ووشى به، واستحقَّ أن ينالَ جائزةَ الدّعوةِ السّماويّة[٤٤٠].

- عن الأبِ أشعيا -

يا أخي، إن علمتَ أنّ أحدَهم أضرَّكَ بشيءٍ، فجاهِدْ في ضبطِ مشاعرِكَ بإرادتِكَ الصّالحةِ، كي لا تحنقَ في داخلِكَ على مَن أحزنَكَ وتلومَهُ، أو تُدينَهُ، أو تحكُمَ عليه، أو تنمَّ عليه أمامَ الآخرينَ، فيصبحَ فريسةً لألسنتِهِم. إن كانَ خوفُ جَهنّمَ فيكَ، فسيسيطرُ على فكرةِ مبادلةِ قريبِكَ بالشّرِّ، قائلاً لنفسِكَ: «أيّها الإنسانُ البائسُ، أنتَ تُصلّي من أجلِ خطاياك، واللهُ يحتمِلُكَ حتّى اليومِ من دونِ أن يُظهرَها. كيف تتجرّأُ أنتَ، بغضبِكَ على قريبِكَ، وتَجعَلُ منه فريسةً لألسنةِ الآخرين؟» إن قبلتَ فكرَكَ السّيّئَ، فلن يكتفيَ اللّهُ بعدمِ مُسامحتِكَ على خطاياك، بل سيُظهرُها أمامَ أعينِ الخليقةِ كلِّها.

إن رقَّ قلبُكَ بما يُوحيه خوفُ جَهنّمَ، وتجنّبْتَ مبادلةَ قريبِكَ بالشّرِّ، فسيرحمُكَ اللّه. أمّا إن قَسا قلبُكَ الشّرّيرُ على قريبِك، فاعلَمْ أنّك بائسٌ ولا تتذكّرُ خطاياك أمامَ اللّهِ، وأنّ خطيئتَكَ ماكثةٌ فيكَ بما أنّك لم تتلقَّ المسامحةَ.

لا نغضبَنَّ على قريبِنا بسببِ أقوالٍ قد يتلفَّظُ بها بخفّةٍ، من غيرِ قصدٍ، بل بتحريضٍ من الشّرّيرِ الّذي يحثُّ هؤلاءِ الّذينَ هم أعضاؤُنا[٤٤١] على معاداتِنا لنسقطَ تحتَ ضربتِهِ بحَملِنا على كُرْهِهم. بل لنتمسّكنَّ، بالأحرى، بوصايا مخلِّصِنا المُقدّسةِ ونقطعنَّ مشيئتَنا الخاصّة. إن أحبَبْنا من يُكرِّمُنا ويُطيعُنا، فبماذا نفوقُ الوثنيَّ؟ وإن صلّينا للمحسنينَ إلينا، فالعشّارُ يفعلُ الشّيءَ ذاتَه[٤٤٢]. إن فرِحْنا بمَن يَمدَحُنا، فالخاطئُ يفعلُ الشّيءَ ذاتَه[٤٤٣]. إن كَرِهْنا من يُريدُ لنا الشّرَّ، أو يعصينا، أو يكرهُنا، فنحنُ لا نختلفُ بشيءٍ عن اليهود.

فبماذا تفوقُه، أنتَ الّذي اعتمدتَ بالمسيحِ وفي موتِه[٤٤٤]، وعليكَ،

---

٤٤٠. في٣، ١٤.
٤٤١. أنظر تعبير الرّسول: «..». (نحن أعضاءُ بعضِنا البعض. أف ٤، ٢٥).
٤٤٢. أنظر مت ٥، ٤٦ – ٤٧.
٤٤٣. أنظر لو ٦، ٣٢ – ٣٤.
٤٤٤. أنظر رو ٦، ٣.

من الآنَ فصاعدًا، ألاّ تعيشَ لذاتِكَ، بل للّذي ماتَ وقامَ من أجلك[٤٤٥]؟ إفحَصْ ذاتَكَ لتعلَمَ إن كنتَ تتبعُ آثارَ خطواتِ المسيح. هو عديمُ الخطأِ، ويُعطيكَ مثلاً بذاتِهِ في كلِّ شيء. سلكَ بالفَقرِ، أمّا أنتَ، فلا تحتمِلُ الفقرَ. لم يَكُنْ له مكانٌ يُسنِدُ إليه رأسَه[٤٤٦]، فيما أنتَ لا تحتمِلُ غربتَكَ بفرح. هو احتمَلَ الإهاناتِ، بينما أنتَ لا تحتمِلُ أيّةَ إهانة. هو لم يُقابلِ الشّرَّ بالشّرِّ، بينما أنتَ تؤثرُ الانتقام. هو لم يغضَبْ عندما كانَ يتألّمُ، بينما أنتَ تهتاجُ غضبًا حتّى عندما تجعلُ الآخرَ يُعاني الألم. هو بَقِيَ هادئًا تجاهَ شاتميه، بينما أنتَ تضطربُ حتّى من دونِ أن يشتموك. هو كانَ يُعزّي المُخطئينَ إليه بتواضُعٍ، بينما أنتَ تُوجِّهُ كلماتٍ جارحةً لمُحبّيك. هو كانَ يحتملُ جميعَ التّجاربِ بفرحٍ، بينما أنتَ تسخَطُ عند أقلِّ خبرٍ مزعج. هو كانَ وديعًا مع السّاقطينَ في الخطايا، بينما أنتَ تتعالى على مَن هم أفضلُ منك. هو سلّمَ ذاتَهُ من أجلِ المُخطئينَ إليه إلى أن افتداهُم، بينما أنتَ لا تستطيعُ أن تُضَحّي بذاتِك، حتّى من أجلِ مُحبّيك.

فانظُرْ ما أعطاكَ المسيحُ، وبِما بادلتَهُ أنت. إعرَفْه من أعمالِه، واعرَفْ ذاتَكَ من أفعالِك. إن مُتَّ معه في المعموديّةِ المُقدّسة[٤٤٧]، فلماذا ترتكبُ هذه الخطايا؟ كيف ستستطيعُ الذّهابَ لمُلاقاتِهِ في يومِ مجدِهِ عندما سيظهَرُ آتيًا من السّماءِ، وستراهُ جميعُ الأممِ في مجدِهِ العظيمِ، حاملاً في ذاتِهِ العلاماتِ الّتي احتمَلَها من أجلِنا؟ هل ستظهرُ أنتَ من دونِ أن تحمِلَ في جسدِكَ أيّةَ علامةٍ من آلامِه؟ حتمًا سيقولُ لك: «أنا لا أعرفُكَ!» في تلك السّاعةِ، سترى جميعَ القدّيسينَ يحمِلونَ علامتَهُ، هم الّذينَ أعطَوا حياتَهم من أجلِ اسمِه، بينما أنت ستخجلُ في حضرتِهم.

فتّشْ في حياةِ القدّيسينَ جميعِهم، فستجدُ أنّهم احتملوا الشّرورَ ولم يُقابِلوا بها. أعني بهم الأنبياءَ، والرّسلَ، والشّهداءَ، وجميعَ القدّيسينَ الآخرينَ، الّذينَ تَصرُخُ دماؤُهم إلى السّماءِ: «انتقِمْ لنا من سكّانِ الأرضِ!»[٤٤٨]. فهؤلاءِ القدّيسونَ جميعًا احتمَلوا الإساءاتِ بصبرٍ، من دونِ مبادلةِ أحدٍ بالشّرِّ، ومن

---

٤٤٥. ٢ كور ٥، ١٥.
٤٤٦. مت ٨، ٢٠. لو ٩، ٥٨.
٤٤٧. أنظر كو ٢، ١٢.
٤٤٨. أنظر رؤ ٦، ١٠.

دونِ أن يغضبوا. قُتِلوا، ورُجِموا، وحُرِقوا، ورُميوا في البحرِ، وقُطِّعوا، وصَبَروا على جلّاديهم، وصلّوا من أجلِ أن يمنحَ اللّهُ هؤلاءِ الغفران. فقد عَلِموا أنّ جلّاديهم لا يتصرّفونَ بحسبِ إرادتِهم الطّبيعيّةِ، بل أنّ الشّيطانَ أعمى بصيرتَهم، وأجبرَهم على فعلِ هذه الأمور.

فافحَصْ أنتَ أيضًا ذاتَكَ، يا أخي العزيزَ، لتعرفَ إن كنتَ في وضعٍ مشابهٍ لهم أمامَ عينِ اللّه، لأنّكَ في يومِ الدّينونةِ، لن تستطيعَ إخفاءَ شيء. حينئذٍ، سيستحيلُ على أحدٍ أن يتكلّمَ على هواه. ستتكلّمُ أعمالُ كلِّ واحدٍ، أيًّا تكُن. عندما تصيرُ قيامةُ الأمواتِ، سيقومُ كلُّ واحدٍ لابسًا، كثوبٍ، إمّا الرّذيلةَ وإمّا الفضيلةَ، وهما اللّتان ستتكلّمانِ، وتُعيِّنان لكلِّ واحدٍ موضعَه.

مغبوطٌ إذًا من جاهَدَ وخلعَ عنه الملابسَ الّتي تقودُ إلى جهنّم، وارتدى الملابسَ الّتي تقودُهُ إلى الملكوتِ السّماويّ. فالرّسولُ يقولُ: «نعلَمُ أنّه إن نُقِضَ بيتُ خيمتِنا الأرضيُّ، فلنا في السّماواتِ بناءٌ من اللّهِ، بيتٌ غيرُ مصنوعٍ بأيدي بشرٍ، بيتٌ أبديّ»[٤٤٩].

- عن الأبِ مرقس -

سألَ مُحامٍ ذائعُ الصّيتِ ناسكًا مسنًّا: «من فضلِكَ، أفهِمني. أريدُ أن أعلمَ ماذا يجولُ في خاطرِكم، أنتم الرّهبانَ، عندما تقولونَ إنّه يجبُ ألّا نُحاكِمَ الظّالمين؟» أجابَ الشّيخُ: «ألّا نردّ بالسّوءِ على مَن يظلمونَنا هي وصيّةٌ من اللّه، أطلقَها بفمِ نبيِّه: «لي الانتقامُ، وأنا أجازي، يقولُ الرّبُّ»[٤٥٠]. كذلك، قالَ في الإنجيلِ: «اغفِروا، يُغفَرْ لكم»[٤٥١]. وَرَدَتْ هذه الوصيّةُ في أماكنَ كثيرةٍ من الكتابِ المُقدّس. بعدَ ذلك، مَن يستطيعُ الادّعاءَ أنّ بمقدوره سنَّ قوانينَ أكثرَ عدلاً من قوانينِ اللّهِ، ويحكمُ على فاعلي الشّرِّ قبلَ الوقتِ، بحجّةِ أنّه هو نفسَه بلا خطيئة؟» حينئذٍ، طرحَ ذلك المُثقّفُ السّؤالَ التّالي: «في هذه الحالِ، هل يرتكبُ القضاةُ أخطاءً، وهم الّذينَ يمنعونَ الأشرارَ من الإساءةِ، ويردّونَ

---

٤٤٩. ٢ كور ٥، ١.

٤٥٠. رو ١٢، ١٩. عب ١٠، ٣٠. أنظر لاو ٣٢، ٣٥. إر ٢٨، ٣٦.

٤٥١. أنظر مت ٦، ١٤ مر ١١، ٢٥.

الحقُّ للمَظلومين؟» أجابَ الشّيخُ: «ليس القضاةُ من يُخطِئونَ عندما يَضعونَ حدًّا للضّررِ الّذي يُلحقُه فاعلو الشّرّ، بل أولئك الّذينَ وَشَوا بهم لديهم، ولم يُسلِّموهم إلى الله.

أوّلاً، لأنّ كلَّ تجربةٍ حدَثَتْ لهم تُعزى إلى رذائِلِهم الخاصّةِ، وتهدفُ إلى حملِهم على التّوبةِ، لا على الشّكوى. وثانيًا، لأنّ عليهم، على الرّغمِ من أنّهم يُعانونَ بغيرِ عدلٍ من الظّلمِ الحاصلِ، مُسامحةُ الظّالمِ، بحسبِ وصيّةِ الرّبِّ، بحيثُ تُغفَرُ خطاياهم، ولا تَبقى من دونِ مسامحةٍ لأنّهم التجأوا إلى العدالةِ البشريّة.

بحسبِ الرّسولِ: يجب ألاّ يخافَ القضاةُ من فعلِ الخيرِ، بل من فعلِ الشّرِّ[٤٥٢]. في الواقع، هم لا يُجبرونَ النّاسَ المؤمنينَ والأتقياءَ على رفعِ الشّكوى ضدَّ الظّالمينَ، ولا يُدينونَ مَن لا يَعرفونَ الشّرّ لأنّهم لا يَلجأونَ إلى المَحاكمِ عندما يُظلَمون. إنّهم ببساطةٍ يُعطونَ العدلَ لمن يَلتمسونَه. إلى جانبِ ذلك، يُكرِّمونَ مَن يَصبرونَ على الظّلمِ من أجلِ الله، ويَعتبِرونَهم أكثرَ حِكمة. فكما أنّ القضاةَ لا يُخطئونَ عندما لا يُجبِرونَ مَن لا يُريدونَ رفعَ شكواهم على ذلك، هكذا، هم أيضًا، لا يُخطئونَ بإحقاقِ العدلِ للمشتكين.

لهذا، يا صديقي الكلّيَّ الحِكمةِ، من الضّروريِّ، إلى جانبِ معاهداتِ هذا العالمِ ونواميسِه، تَعلُّمُ النّاموسِ الرّوحيِّ، واحتمالُ المُحزناتِ الحاصلةِ كأنّها واجبةٌ علينا، وعدمُ محاكمةِ مَن يُسبِّبونَها لنا، بل أن نُحبَّهم ونُطبِّقَ نحوَهم وصايا المحبّة. لأنّ المحبّةَ - كما يقولُ الكتابُ المُقدّسُ- لا تَحسِبُ حسابًا للشّرِّ، بل تحتمِلُ كلَّ شيءٍ، وترجو كلَّ شيءٍ، وتصبِرُ على كلِّ شيء»[٤٥٣]. إن كانَتِ المحبّةُ تتصرّفُ هكذا، يَستحِلُ عليها أن تُحاكِمَ من يُعتبَرُ مُتعدّيًا عليها. بخصوصِ المحبّةِ، كلُّ واحدٍ لديه قدرةٌ مختلفةٌ عن الآخرِ، ولكنّها تَفوقُنا جميعَنا بكرامتِها، ونحن نرجو أن تملأَ نقائِصَنا بنعمةِ المسيحِ، ما لم نُهمِلْ من ناحيتِنا أن نطبِّقَها على قدرِ طاقتِنا.

لهذا، يظنُّ الحكماءُ بالكلامِ أنّ فاعلي الشّرِّ وحدَهم يُخطئون. أمّا

---

٤٥٢. رو ١٣: ٣.

٤٥٣. ١ كور ١٣: ٥ و ٧.

الحكماءُ بالرّوحِ، فيُدينونَ ذواتِهم عندما لا يَقبلونَ احتمالَ الأخطاء. وأكثرَ من ذلك، هم يَرونَ أنّ أخطاءَهم القديمةَ هي سببُ تجاربِهم، حتّى ولو اختلفَتْ خطيئةٌ عن أخرى في فداحتِها. إنّ مَن يُبرِّرُ ذاتَهُ يُشبِهُ مَن يُدينُ اللّهَ لنقصِ عدلِهِ، بينما مَن يحتملُ التّجربةَ الّتي تَحدُثُ له كأنّها مناسِبةٌ له، يَعترفُ بحالتِهِ الخاطئةِ السّابقةِ[٤٥٤]، ولهذا السّببِ، يحتمِلُ، بصبرٍ، المُحزناتِ الّتي تتبعُها».

إنّ الّذي يُظلَمُ من البشرِ يَتخلَّصُ من الخطايا، ويَجدُ معونةً على قياسِ ما يُحزِنُه.

كلُّ مَن يثقُ بالمسيحِ أنّه يُكافِئُ كلَّ واحدٍ بحسبِ الواجبِ، يحتمِلُ كلَّ ظلمٍ، على قدرِ إيمانِه.

مَن يُصَلِّ من أجلِ النّاسِ الّذينَ أخطأوا إليه، يسحَقِ الشّياطينَ. أمّا مَن يُدافِعُ عن نفسِهِ ضدَّ الأوّلينَ، فيَصِرْ قابلاً للانجراحِ من الثّانين.

إساءاتُ البشرِ خيرٌ من تلك الّتي يُسبِّبُها الشّياطين. أمّا مَن عرفَ كيف يُرضي اللّهَ، فيربحُ في كلا الحالتين.

كلُّ مَن يغضَبُ على قريبِهِ بسببِ الممتلكاتِ، أو المجدِ، أو اللّذّةِ، لم يفهَمْ بعدُ أنّ اللّهَ يَسوسُ الأمورَ بعدلٍ.

مَن يسمَعْ بطيبةِ خاطرٍ مصائبَ أعدائِه، يحصُدْ ثمارَ مواقفِهِ الخاصّة.

من المستحيلِ أن يغفِرَ المرءُ أخطاءَ الآخرِ من عُمقِ قلبِه، إن لم يملِكِ المعرفةَ الحقيقيّة. فهذه الأخيرةُ تدلُّ كلَّ واحدٍ على ما يحدثُ له وما يُناسبُه.

من يُهَنْ ولا يُخاصِمِ الّذي أهانَهُ، سواءً بالكلامِ أو بالفكرِ، فقد اكتسبَ المعرفةَ الحقيقيّةَ، وبرهنَ عن إيمانٍ ثابتٍ بالرّبّ.

أبناءُ البشرِ يَغشّونَ مَوازينَهم ليَظْلِموا[٤٥٥]. ولكنّ اللّه يهَيِّئُ لكلِّ واحدٍ ما يستحقُّه. فلا الظّالمُ سيحصُدُ الوَفرةَ، ولا المظلومُ سيُعاني القَحْط. فالحالُ هذه، يمرُّ الإنسانُ في الحياةِ كالخيالِ، وباطلاً يضطرب[٤٥٦].

من الواضحِ أنّ مَن يرأفُ سيجدُ رأفةً. ومَن يرحَمُ سيجِدُ رحمةً. أمّا

---

٤٥٤. في النّصوص النّسكيّة، الكلمة تعني التّذكّر أو العادة الّتي تتركها الخطايا السّابقة.

٤٥٥. مز ٦١، ١٠. ٤٥٦. مز ٣٨، ٧.

مَن لديه استعداداتٌ مُعاكسةٌ، فسيحصدُ النّتائجَ الّتي تُناسبُها.

- عن القدّيسِ ذياذوخس -

سمعتُ أناسًا مشهورينَ بالتّقوى يَقولونَ إنّه يجبُ ألاّ نسمحَ لأحدٍ بأن يُجرِّدَنا ممّا نملكُ سواءَ لمعيشتِنا أو لإعانةِ الفُقراءِ، لا سيّما إذا كانَ مَن يُهاجمُنا من المسيحيّينَ، لئلاّ، برضوخِنا، نشجِّعَ الّذينَ يؤذونَنا على الخطيئة. ولكنّ زعمَهم هذا لا يُعبِّرُ سوى عن إرادتِهم للاحتفاظِ بما يملكونَ لاستعمالِهم الخاصّ، مَدعومًا بحجّةٍ باطلة. في الواقعِ، إن كَفَفْتُ عن الصّلاةِ، وحفظِ القلبِ، للانصرافِ إلى مقاضاةِ الّذينَ أساءوا إليَّ، فسأروحُ أتردّدُ كلَّ يومٍ على المحاكم. وهذا يعني جليًّا أنّني أحسَبُ قراراتِ العدالةِ أهمَّ من خلاصي، لئلاّ أقولَ أهمَّ من وصيّةِ المُخلِّصِ بمحبّةِ الأعداء[٤٥٧].

فكيفَ نستطيعُ أن نحفظَ الوصيّةَ الإنجيليّةَ الّتي تأمُرُ بألاّ نطلبَ استعادةَ ما لنا مِمّن أخذَهُ منّا[٤٥٨]، إن لم نحتمِلْ بفرحٍ أن يسلبونا ما نمتلكُهُ وأن يختلسوهُ منّا حسبَ قولِ الرّسولِ[٤٥٩]، وإن كنّا، بعدَ مقاضاةِ السّارقِ، واسترجاعِنا كلَّ مُبتغانا، لم نُحرِّرْهُ من خطيئتِه؟ فمَحاكِمُ الفسادِ لا تستطيعُ أن تحكُمَ بحسبِ شريعةِ اللهِ غيرِ القابلةِ للفساد. في الواقعِ، بعدَ أن يخضَعَ المُدَّعى عليه، بهذه القضيّةِ، للأحكامِ القانونيّةِ، ويَفيَ ما عليه، يعتبِرُ نفسَهُ بريئًا.

حسنٌ إذًا أن نصبرَ على الضَّيْمِ من الّذينَ يُريدونَ الإضرارَ بنا، وأن نصلّيَ من أجلِهم لكي يبرَأوا من جُرمِ السّرقةِ بالتّوبةِ، لا بإرجاعِ ما سلبونا إيّاه. هذا ما تَنشدُهُ عدالةُ الرّبِّ: أن نستعيدَ، لا الأملاكَ المُختلَسةَ، بل الإنسانَ المُختلِسَ، مُعتَقًا من خطيئتِهِ عن طريقِ التّوبة.

- عن القدّيسِ إسحق -

كلُّ مَن يقولُ إنّه أهمَلَ العالمَ، ثمّ يتخاصمُ والآخرينَ على شيءٍ لئلاّ

---

٤٥٧. أنظر لو ٦، ٢٨. ٤٥٨. لو ٦، ٣٠. ٤٥٩. عب ١٠، ٣٤.

يُحرَمَ رفاهيةً ما، هو أعمى بالكلّيّة. فمعَ أنّه أهملَ طَوعيًّا جسدَهُ كلَّه، إلّا أنّه يُباشِرُ المساعي، ويُحارِبُ من أجلِ أحدِ أعضائِه. إعلَمْ أنّ إيفاءَ الدّيونِ لدائنينا[٤٦٠] هو عملٌ من أعمالِ البِرِّ، وحينئذٍ سترى الهدوءَ يَسطَعُ في ذهنِك. إن اتّبعتَ طريقَ البِرِّ الصّاعدةَ إلى العُلى، فستلتزمُ الحرّيّةَ في سائرِ الأمور. من ماتَ العالَمُ بالنّسبةِ إليهم، يحتمِلونَ التّجاربَ بفرح. أمّا مَن لم يَزَلِ العالَمُ حيًّا بالنّسبةِ إليهم، فلا يستطيعونَ احتمالَ الظُّلم: إمّا يُغلَبونَ من المجدِ الباطلِ، وإمّا يَثورونَ غضبًا، أو يستحوذُ عليهم الحزن.

آه! ما أصعبَ تحقيقَ هذه الفضيلةِ، أي احتمالِ الظُّلمِ بطولِ أناة! وما أعظمَ المجدَ الّذي ينالُهُ مِن اللهِ الّذينَ اقتنَوها! مَن أرادَ تحقيقَها، فعليه أوّلاً أن يرحلَ عن أخصّائِهِ ويتغرَّبَ، لأنّه من المستحيلِ تحقيقُها في وطنِه. فاحتمالُ ثقلِها وسطَ الأخصّاءِ هو من شيمةِ الأقوياءِ والعُظماءِ الّذينَ ماتَ العالَمُ بالنّسبةِ إليهم كلّيًّا، الّذينَ يَحرمونَ أنفسَهم كلَّ تعزيةٍ ويَزدرونَها.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- أخبرَ المغبوطُ زوسيما ذاتَ يومٍ ما يلي: «عندما كنتُ مرّةً مع المغبوطةِ ديونيسيا، طلبَ أخٌ منها صدَقةً وأعطَتْهُ ما استطاعَت. أمّا هو، بما أنّه لم يحصُلْ على المبلغِ المطلوبِ، أخذَ يُهينُها ويوجّهُ إليها ملاحظاتٍ غيرَ لائقةٍ بصددِ كِلَيْنا. حزِنَتْ ديونيسيا لدى سماعِها ذلك، وراحَتْ تُفتِّشُ عن طريقةٍ لإيذاءِ هذا الأخِ. وما إن عَلِمْتُ بذلك، حتّى قلتُ لها: «ماذا تفعلينَ؟ أتريدينَ أن تَضُرّي ذاتَكِ؟ أنتِ على وشكِ اقتلاعِ كلِّ فضيلةٍ من نفسِك. أيُّ ألمٍ عليكِ احتمالُهُ يقارَنُ بتلكَ الآلامِ الّتي احتمَلَها المسيحُ من أجلِك؟ أعرفُ، يا سيّدتي، أنّك توزِّعينَ المالَ كأنّه بلا قيمة. لكن إن لم تكتسبي الوداعةَ، فستُشبهينَ الحدّادَ الّذي يضرِبُ قطعةَ حديدٍ، من دونِ التّوصّلِ إلى صنعِ إناء».

وأضافَ: «قالَ إغناطيوسُ المتوشِّحُ باللّه: «أحتاجُ إلى هذه الوداعةِ

---

٤٦٠. أنظر مت ٦، ١٢.

الّتي بها تنسحِقُ كلُّ قوّةِ رئيسِ هذا العالم»[٤٦١]. ألاّ يضطرِبَ المرءُ دليلٌ على أنّه أنكرَ العالم. يحصلُ أحيانًا أن يزدريَ المرءُ كميّةً كبيرةً من النّقودِ الذّهبيّة، ولكنّه يتعلّقُ بإبرةٍ، وهذا التّعلّقُ يُثيرُ الاضطرابَ، فيعطي الإبرةَ قيمةَ مئةِ قطعةِ نقودٍ ذهبيّة. هكذا يصيرُ عبدًا للإبرةِ أو اللاّطيةِ أو الرّداءِ أو الكتابِ، ولا عبدًا للّه. وقالَ أحدُ الحكماءِ، وهو محقٌّ في قولِه: «بقدرِ ما في النّفسِ من أهواءٍ، يزدادُ أسيادُها»، ويقولُ الرّسولُ: «كلُّ ما غُلبَ منه أحدٌ، هو مستعبَدٌ له»[٤٦٢]. بعد سماعِها هذا الحديثَ، ندِمَتْ ديونيسيا، وقالَتْ لي: «هل تستطيعُ أن تجدَ اللّهَ، الّذي تتشوّقُ له!»

٢- قالَ المغبوطُ أيضًا: «في الحقيقةِ، إنّ وصايا اللّهِ خفيفةٌ جدًّا[٤٦٣] بطبيعتِها، ولكنّ خطايانا الطّوعيّةَ تجعَلُها تبدو ثقيلةً. إن كانَتِ النّفسُ مُتعلّقةً بخطاياها، فلن تستطيعَ حفظَ الوصايا. أمّا إن حادَتْ عنها، تجدْ أنّ تطبيقَ الوصايا سهلٌ عليها، ولا تعُدْ تشعرُ بأيِّ ثقلٍ، بأيّةِ صعوبة. في البقاءِ مُتعلّقينَ بأمورِ هذا العالمِ، والتّشاجرِ مع النّاسِ بسببِها، ما يُثيرُ الغضبَ. يجبُ إذًا الاستغناءُ باللّهِ، ووضعُ الرّجاءِ عليه وحدَهُ، هو الّذي خلقَنا ويسودُ علينا، والتّشوّقُ إلى الدّخولِ إلى ملكوتِه. وهذا لا يُبرِزُ أيّةَ صعوبة.

في الواقعِ، خلالَ السّفَرِ في البحرِ، وحينَ تَعرُّضِنا لخطرِ الغرقِ أو لسطوةِ قراصنةٍ، اعتَدْنا أن نزدريَ كلَّ مُمتلكاتِنا، ونَرميَ متاعَنا من السّفينةِ من دونِ تردّدٍ، لكي نُخلّصَ حياتَنا العابرةَ، الّتي سيضَعُ الموتُ لها حدًّا، رُغمًا عنّا. هكذا إذًا، كي لا نُحرَمَ الحياةَ الوقتيّةَ، نزدري كلَّ شيء، ونغتبطُ إذا استطَعْنا أن ننجوَ من القراصنةِ أو من نَوْءِ البحرِ، على الرّغمِ من خسارتِنا كلَّ شيء. فالّذي كانَ يحتدُّ منذُ قليل، ويناضِلُ بكلِّ قواه ليربحَ فلسًا واحدًا، يُسارِعُ لرمي كلِّ شيءٍ من السّفينةِ عندما يتعرَّضُ لهذا النّوعِ من الخطرِ، ليحفظَ حياتَهُ الوقتيّة.

فلِمَ لا نُفكّرُ بالطّريقةِ نفسِها عندما يتعلّقُ الأمرُ بالحياةِ الأبديّة.

---

٤٦١. الرّسالة إلى تراليانوس.

٤٦٢. ٢ بط ٢، ١٩.

٤٦٣. أنظر ١ يو ٥، ٣.

ولِمَ لا يحمِلُنا تفكيرُنا، واستعدادُنا على ازدراءِ الممتلكاتِ المادّيّةَ كلِّها بشهامةٍ، والتّخلّصِ منها، لئلاّ نُحرَمَ الحياةَ الخالدة؟ لِمَ لا نخافُ الرّبَّ مثلما نخافُ القراصنةَ أو نَوْءَ البحرِ؟» ولتأكيدِ أقوالِه، أخبرَ الشّيخُ القصّةَ التّالية الّتي سَمِعَها من غيرِه: «كانَ حِرَفِيٌّ يعمَلُ بالحجارةِ الكريمةِ، صائغٌ كما نَدعوه عادةً. صعدَ مع ابنِهِ على متنِ سفينةٍ، حاملاً معه حجارةً كريمةً ولآلئَ، للذّهابِ إلى مكانٍ آخرَ، والاتّجارِ بها. وحدثَ أنّه تعرّفَ إلى أحدِ البحّارةِ الشّبّان، وأصبحا صديقَيْن حميمَيْن. هذا الشّابُّ كانَ يخدمُهُ في كلِّ احتياجاتِهِ الضّروريّة، ويشارِكُهُ مائدتَه. ذاتَ يومٍ، سَمِعَ البحّارُ الشّابُّ سائرَ أفرادِ الفريقِ يَتهامَسونَ فيما بينهم، ويَتآمَرونَ على رميِ الصّائغِ في البحرِ، ليستولوا على حجارتِهِ الكريمةِ وكلِّ ما يملُكُه. لدى سماعِه ذلك، ذُعِرَ البحّارُ الشّابُّ.

عندما أتى لإتمامِ خدمتِهِ المُعتادةِ للصّائغ، رآهُ هذا الأخيرُ مُتجهِّمًا حزينًا، فسألَهُ عن السّببِ. في أوّلِ الأمرِ، لم يُجِبِ الشّابُّ بشيءٍ، مؤجِّلاً كشفَ ما سَمِعَهُ إلى وقتٍ آخر. أمّا التّاجرُ، فأصرَّ عليه أن يُظهِرَ له سببَ حُزنِه، فأخبرَهُ الشّابُّ عن قرارِ البحّارةِ بشأنِه، مُتنهِّدًا باكيًا. توقّفَ الصّائغُ هُنيهةً للتّفكيرِ، ثمّ نادى ابنَهُ، وأمرَهُ بإتمامِ كلِّ ما سيقولُهُ له، من دونِ تردّد.

بسطَ ملاءةً، وأمرَ ابنَه والبحّارَ الشّابَّ بإحضارِ الصّناديقِ الّتي تحوي الحجارةَ الكريمةَ واللّآلئ. ما إن أحضراها حتّى فتحَها، وأفرَغَها من محتوياتِها في الملاءة. عندما انتهى، قالَ: «أَمِنْ أجلِ هذه الأشياءِ سأتعرّضُ لخطرِ رَميي في البحرِ؟ أَمِنْ أجلِ هذه الأشياءِ أمضيْتُ حياةً كاملةً مليئةً بالمَشقّات؟ هذه الأشياءُ كلُّها، في ساعةِ موتي الوشيكةِ، سأخلّفُها ورائي في الدّنيا، ولن آخذَ معي شيئًا. إرموها كلَّها في البحرِ!» وللحالِ، أمسكَ بالملاءةِ، يُساعدُه الشّابّان، ورموها كلَّها في قعرِ البحرِ. لدى رؤيةِ البحّارةِ ذلك، انذَهَلوا، وعدَلوا عن المؤامرةِ الّتي حبَكوها ضدَّه.

أيّها الإخوةُ، لنتأمّلَنَّ كيف قطعَ هذا الرّجلُ تعلّقَهُ بهواه ليحفظَ حياتَهُ العابرةَ، ما إن حثَّهُ فكرُهُ على ذلك، على الرّغمِ من أنّه مُجَرّدُ إنسانٍ عائشٍ في العالمِ، وصارَ فيلسوفًا في القولِ والعملِ. ونحن، ألا يجبُ أن نكونَ قادرينَ على تلقّي الضّررِ، واحتمالِهِ من دونِ حزنٍ، من أجلِ وصيّةِ المسيح،

ومن أجلِ ملكوتِ السّماوات؟

إن لَزِمَ أن نحزَنَ على شيءٍ، فَلْنحزَنْ على هلاكِ مَن يُضِرُّ بنا، لا على سرقةِ مقتنياتِنا. فنحن لم يُصِبْنا أيُّ سوءٍ، بل أصابَ ذاك الّذي، بإثمِهِ، أخرجَ ذاتَهُ من ملكوتِ السّماوات، كما يقولُ الكتابُ المُقدّس. «الظّالمونَ لا يَرِثونَ ملكوتَ اللّه»[٤٦٤]. بينما، بتحرُّرِنا من الممتلكاتِ الوقتيّةِ، تُمنَحُ لنا الحياةُ الأبديّة. كما يقولُ الرّبُّ: «افرَحوا وابتَهِجوا لأنّ أجرَكم عظيمٌ في السّماوات»[٤٦٥].

أمّا نحنُ، فنفعلُ العكسَ: نجلسُ ونحبُكُ الأفكارَ ضدَّ الأخِ من أجلِ الأمورِ الفاسدةِ التّافهةِ الّتي لا قيمةَ لها، مُهمِلينَ حزنَنا على هلاكِ عضوٍ من جسدِ المسيح. لأنَّ اللّهَ، بالإيمانِ، نظّمَنا كأعضاءِ جسدٍ رأسُهُ المسيحُ، كما يقولُ الرّسول. «كلُّ أعضاءِ الجسمِ، وإن كانَتْ كثيرةً، تؤلِّفُ جسدًا واحدًا، ورأسُ الجميعِ المسيح»[٤٦٦].

إذًا، عندما يُحزِنُكَ أخوك، إحسَبْ أنّ يدَكَ، أو عينَكَ، أو أيَّ عضوٍ آخرَ من أعضائِك، يَتَألّمُ، ويُحزنُك. فقدْ قالَ الرّسولُ: «إن كانَ عضوٌ واحدٌ يتألّمُ، فجميعُ الأعضاءِ تتألّمُ معه...»[٤٦٧]. هذا ما يحصلُ لِجسدِنا: إن أُصيبَ عضوٌ من أعضائِنا بمرضٍ، ينقلِ الألمَ إلى باقي الجسمِ، لأنّه مرتبطٌ به، ولكنّنا لا نستأصِلُهُ منّا، ولا نبترُهُ لوضعِ حدٍّ للألم. بل، نَجِدُ حِرمانَنا إيّاه ضررًا جسيمًا، ولو رغمًا عنّا. فبينما نُعاني مع العضوِ المُتألّمِ، نحاولُ بكلِّ الوسائلِ المُتاحةِ أن نشفيَه، فنختُمُهُ بعلامةِ صليبِ المسيحِ المُقدّسةِ، وندهَنُهُ بالزّيتِ المُقدّسِ، وفي الوقتِ نفسِهِ، نُريهِ للطّبيبِ، ونعملُ كلَّ ما يُمكنُ أن يُساهِمَ في شفائِه.

فكما أنّنا نأمَلُ في شفاءِ العضوِ المُتألّم، ليتوقّفَ عن نقلِ ألمِهِ إلينا، هكذا علينا أن نُفكِّرَ ونتصرّفَ مع إخوتِنا. إن حدثَ وأخطأَ أحدٌ منهم إلينا، أو أحزَنَنا بغيرِ عدلٍ، بتحريضٍ من عدوِّنا المُشتَرَكِ، وسمحَ اللّه بذلِكَ ليختبرَنا ويقوِّمَ أحدَ أهوائِنا، فعلينا أن نحزنَ، لا بسببِ الضّررِ المادّيِّ أو الظُّلمِ، بل من أجلِ أخينا الّذي أضرَّ بنا – أو بالأحرى الّذي أضرَّ بنفسِهِ كثيرًا، كما قلتُ سابقًا، وسقطَ من ملكوتِ السّماواتِ، بحالٍ يُرثى لها. لِنحزنْ من أجلِه، ونَنُحْ،

---

٤٦٤. ١ كور ٦، ٩.

٤٦٥. مت ٥، ١٢.

٤٦٦. ١ كور ١٢، ١٢.

٤٦٧. ١ كور ١٢، ٢٦.

ونَدْعُ اللّهَ المُحبَّ البشرِ بحرارةٍ، ليغفرَ لهذا الأخِ كلَّ ما فعلَهُ عن جهلٍ.

إن تصرَّفْنا هكذا، نقتدِ حقيقةً بالمسيحِ، الّذي صلّى من أجلِ صالبيه، ودعا إلى الآبِ ليغفرَ لهم[٤٦٨]، صائرًا من أجلِنا في هذا مثالاً للوداعة. على مثالِهِ، فلنغفِرْ للإخوةِ إساءاتِهم، ليغفِرَ هو لنا زلاّتِنا[٤٦٩] ويجعلَنا مشاركينَ مجدَهُ وورثَتَه».

٣- أخبرَ الشّيخُ نفسُه: «مرّةً أوصيْتُ ناسخًا ماهرًا أن ينسخَ لي عدّةَ كتب. فحالما انتهى هذا الأخيرُ من عملِهِ، أرسلَ لي رسالةً يقولُ فيها: «لقد أنهيْتُها. أرسِلْ لي المبلغَ الّذي تَراهُ مُناسبًا، وتعالَ لتأخذَها». عَلِمَ أحدُ الإخوةِ بذلك، وذهبَ إلى النّاسخِ مُدَّعِيًا أنّه من قِبلي، وأخذَ الكتبَ مُسدِّدًا الأجر. وأنا، أرسلْتُ أحدَ الإخوةِ الّذينَ معي، مزوِّدًا إيّاه برسالةٍ مع السّعر، لجلبِ الكتبِ، جاهلاً ما حدثَ.

عندما وصلَ هذا الأخُ، فهمَ النّاسخُ خدعةَ الّذي أخذَ الكتبَ، فقالَ غاضبًا: «في الحقيقةِ، سأذهبُ لأعاقِبَهُ للسّبَبَيْنِ الآتيَيْن: أوّلاً، لأنّه سخِرَ منّي، ثمّ لأنّه أخذَ ما لا يخصُّه». عندما علمْتُ بذلك، أرسلْتُ إليه الرّسالةَ التّالية: «أنتَ تعرفُ، يا أخي، أنّنا نتزوّدُ بالكتبِ، لنتعلّمَ منها المحبّةَ، والتّواضُعَ، والوداعة. أمّا إن توجّبَ أن نتخاصَمَ من أجلِ اقتناءِ الكتبِ، فأنا لا أريدُ شراءَها، وذلك فقط من أجلِ عدمِ التّورّطِ في خصامٍ، لأنّ الرّسولَ يقولُ إنّه يجبُ على عبدِ الرّبِّ ألاّ يُخاصِمَ[٤٧٠]».

٤- أتى لصوصٌ ليهجموا على أحدِ الرّهبانِ الهدوئيّين. حالما شعرَ الشّيخُ بذلك، بدأَ بالصّراخ. سَمِعَهُ جيرانُهُ، وخرَجوا من قلاّياتِهم، وقبَضوا على اللّصوصِ، وقادوهم إلى الحاكمِ الّذي رَماهم في السّجن. عندما عَلِمَ الإخوةُ بذلك، حزِنوا وقالوا: «لقد سُجِنوا بسببِنا». فنهضوا وذهبوا إلى الأبِ بيمنَ، وعَرَضوا عليه المسألة. كتبَ هذا الأخيرُ إلى الرّاهبِ الهدوئيِّ: «فكِّرْ في الخيانةِ

---

٤٦٨. لو ٢٣، ٣٤.

٤٦٩. أنظر مت ٦، ١٤. مر ١١، ٢٥.

٤٧٠. ٢ تيمو ٢، ٢٤.

الأولى وما سببُها، وحينئذٍ، ستُدْرِكُ الثّانية. فَلَو لم يَخُنْكَ داخلُكَ أوّلاً (أي نقصُ الإيمانِ الّذي جعلَكَ تَجْبَنُ)، لم تَكُنْ لترتكبَ الخيانةَ الثّانيةَ (أي أن تُسلِّمَ اللّصوصَ إلى الحاكم)».

بعد قراءتِهِ رسالةَ الأبِ بيمن، نهضَ الشّيخُ، وعلى الرّغمِ من أنّه لا يخرُجُ من قلاّيتِه، ذهبَ إلى المدينةِ، وأخرجَ اللّصوصَ من السّجنِ، لأنّه كانَ مَعروفًا في تلكَ المنطقةِ، وحرَّرَهم علانيّةً.

- عن القدّيسِ أفرام -

إن أقرضْتَ أخاكَ شيئًا، وتأخَّرَ في إعادتِهِ لك، وأردْتَ أن تُذَكِّرَه، فذَكِّرْهُ مرّةً واحدة. في الواقعِ، إنّ النّاسَ ينسَونَ في غالبِ الأحيان. إن استدَنْتَ شيئًا من أحدٍ، وهو لم يُذكِّرْكَ بداعي الاحترامِ، فلا تحرِمْهُ أنتَ ما يخصُّهُ، من أجلِ مخافةِ اللّهِ، فالكتابُ يقولُ: «لا تكونوا مَدينينَ لأحدٍ بشيءٍ، ما خلا المحبّةَ المُتبادلة[471]».

---

٤٧١. رو ١٣، ٨.

الفصل الثامن والثلاثون

على المسيحيِّ ألاّ يُعرِضَ عن الانتقامِ ممّن يسيئونَ معاملتَه فحسب، بل أن يحتملَ الظّلمَ بطولِ أناةٍ، ويحملَ أعداءَه على الابتعادِ عنَ الشّرّ.

- عن القدّيسِ غريغوريوس الذّيالوغوس -

عاشَ في ديرِ القدّيسِ هونوريوس أحدُ تلاميذِه، ليبيرتينوس، وهو إنسانٌ تَقيٌّ، يَشغَلُ خدمةَ نائبِ الرّئيس. ذاتَ يومٍ، التقى كونتُ القوطِ داريدا خادمَ اللّهِ، وهو بصحبةِ حرَسِهِ العسكريّ. جعلَ بعضُ الجنودِ ليبيرتينوسَ يترجَّلُ عن حصانِهِ، وسرَقوه منه. فقَبِلَ بحميّةٍ فقدانَ حصانِهِ الّذي انتزَعوه منه، وذهبَ إلى حدِّ إعطائِهم المِهمازَ، الّذي كانَ يُمسِكُهُ بيدِهِ قائلاً: «خُذْ هذا أيضًا، حتّى تستطيعَ جعلَ الحيوانِ يتقدّمُ». ثمّ شرعَ يُصلّي. أمّا القوطُ، فقطعوا مسافةً طويلةً، وهم يَمتطونَ الأحصنةَ، ووصلوا إلى نهرٍ يُدعى «فولتورنا».

هناكَ، بدأَ كلُّ واحدٍ يَخِزُ حصانَهُ بطرفِ سيفِهِ، ويدفَعُهُ إلى الأمامِ بضرباتِ مهمازِه. ولكنَّ الأحصنةَ، على الرّغمِ من شعورِها بالألمِ، رفضَتِ التّقدّمَ لأنّها خافَتِ الاقترابَ من ماءِ النّهرِ، كأنّه حفرةٌ مُميتة. بعد أن تَعِبوا من ضربِ الأحصنةِ لوقتٍ طويلٍ، قالَ أحدُ الجنودِ: «لقد أصابَنا هذا بسببِ إساءتِنا إلى خادمِ اللّهِ، أثناءَ قدومِنا». وللحالِ، عادوا على أعقابِهم، ووجدوا ليبيرتينوس ساجدًا يُصلّي، وقالوا له: «هيّا، استَعِدْ حصانَك». فأجابَهم: «إذهبوا بسلامٍ، أنا لا أحتاجُ إلى الحصان». ولكنّهم ترجّلوا، وأصعَدوه بالقوّةِ على الحصانِ من حيثُ أنزَلوه، وانطلقوا للحال. لدى وصولِهم، من جديدٍ، إلى النّهرِ حيثُ

رفضَتْ أحصنتُهم الاقترابَ من قبلُ، عبرَتْهُ الآن بسهولةٍ، كأنّها على اليابسة.

يجبُ أن نعجَبَ لصبرِ هذا الإنسانِ البارِّ، كيفَ احتملَ الظّلمَ بوداعةٍ، وكيفَ وضعَ حكمُ اللهِ العادلُ حَدًّا، وأعادَ الصّوابَ إلى أشخاصٍ عاقِلينَ بفضلِ أحصنةٍ غيرِ عاقلةٍ، وكيفَ مَجَّدَ اللّهُ خادمَهُ بطريقةٍ مُذهلة.

- عن حياةِ القدّيسِ مركيانوس -

اعتادَ المغبوطُ مركيانوسُ الذّهابَ إلى أحدِ الصّيارفةِ، في وسطِ اللّيلِ، في وقتٍ يُفتَرَضُ ألاّ يستطيعَ أحدٌ رؤيتَه. تردّدَ إليه ليستبدِلَ قطعَ نقودٍ ذهبيّةً بكميّةٍ كبيرةٍ من قطعِ النّقودِ النّحاسيّةِ، ويوزِّعَها على الفقراء. فإذا أتمَّ ذلك، قَفَلَ راجعًا في الحالِ إلى بيتِه. أمّا الصّيرفيُّ، فانتهزَ فرصةَ أنّ أحدًا لا يراهُ تحت جنحِ الظّلامِ، وما لَبِثَ يَزينُ الذّهبَ بميزانٍ مُزوَّرٍ ليزيدَ ربحَه. لم يعترِضْ مركيانوسُ، ولم يطالِبْ بحسابٍ عادل. ولكنّه تصرَّفَ كأنّه يترُكُ المسألةَ كلّيًّا لضميرِ مَن يَزينُ قطعَ النّقود.

مع ذلك، تكرّرَت هذه الخدعةُ مرارًا، من دونِ أن يوجِّهَ مركيانوسُ أدنى مَلامَةٍ للصّيرفيِّ (وقد ادّعى عدمَ المُلاحظةِ)، فاستولى على هذا الأخيرِ قلقٌ كبير. وبما أنّه لاحظَ أنّ هذا كلَّه يحصَلُ في نصفِ اللّيلِ، بدأَ يَزينُ الأمورَ بطريقةٍ أفضل، وجعلَتْهُ ظنونُهُ يقترِبُ أكثرَ من الحقيقةِ، ومن واقعِ حياةِ مركيانوس. أمَرَ خادمَه بأن يتبعَ ماركيانوسَ لدى خروجِهِ من عندِهِ، ليعلَمَ أينَ يذهبُ بكلِّ تلك الأموال. فتبعَ الخادمُ مركيانوس. عندما وجدَ الرّجلُ القدّيسُ ميتًا ملقًى على قارعةِ الطّريقِ، ذهبَ ليشتريَ خمرًا من عندِ البائعِ، وكما هي العادةُ، غسَلَ الجثّةَ، ولفَّها بكفن. هنا، نهضَ الميتُ، وقبّلَ المُحْسِنَ إليه[٤٧٢]، ثمّ رقدَ من جديد.

عند رؤيتِهِ هذا المشهدَ، ارتعَبَ الخادمُ، وعادَ بأقصى سرعتِهِ إلى الصّيرفيِّ، وأخبرَهُ بالتّفاصيلِ كلِّها. جعلَتْ هذه الأحداثُ الصّيرفيَّ يتوبُ، ويَبكي

---

٤٧٢. كانَ القدّيسُ ماركيانوس، إلى جانب أفعالِه الحسنةِ الأخرى، يعتني بالأمواتِ الفقراءِ الملقَين على قارعةِ الطّريق. بعد أن يغسلَ ميتًا ويكفِّنَه، كانَ يطلبُ منه القبلةَ الأخويّةَ، فكان الميتُ ينهضُ، وبعدَ القبلةِ يرقدُ من جديد. نعيّدُ لتذكاره في ١٠ كانون الثّاني.

على كلِّ ما ارتكبَهُ من ظلمٍ بحقِّ الرّجلِ القدّيسِ، وشعرَ بوخزِ ضميرِهِ الحادّ. لهذا، حالما رجعَ القدّيسُ إليه كي يصرّفَ قطعَ نقودِهِ الذّهبيّةَ، سقطَ الصيرفيُّ عند قدمَيْه، واعترفَ بأفعالِهِ الشّرّيرةِ، وأعادَ إليه كلَّ ما أخذَهُ منه زيادةً.

هكذا، يستطيعُ عملٌ صالحٌ واحدٌ مُتمَّمٌ بصمتٍ أن يفعلَ أكثرَ من أقوالٍ كثيرةٍ، وأولئك الّذينَ لا تُفيدُهم التّقريعاتُ، ولا النّصائحُ، قد يُغَيِّرونَ موقفَهم من خلالِ عملٍ ممدوحٍ مُتمَّمٍ بهدوءٍ يلمُسُ ضمائرَهم سرّيًّا، ويجعَلُهم أفضلَ حالاً، ويحمِلُهم على تعلُّمِ الصّلاحِ بملءِ رغبتِهم.

مع ذلك، أعلنَ مركيانوسُ أنّه لم يتعرَّضْ لأيِّ ظُلمٍ، ورفضَ أن يأخذَ المبلغَ المُضافَ الّذي أرادَ الصّيرفيُّ إعطاءَهُ إيّاه. توقّفَ أيضًا عن التّردّدِ إلى هذا الأخيرِ، لا ليبتعدَ عن شخصٍ اعتبَرَه سيّئًا، بل ليتجنّبَ الضّررَ الّذي يُسبِّبُهُ المجدُ الباطلُ، ولأنّه أرادَ أن يبقى عملُهُ مجهولاً من البشرِ، وألّا يأخذَهُ أحدٌ بعينِ الاعتبارِ سوى اللّه.

- من حياةِ القدّيسِ اسبيريدون -

١- ذاتَ يومٍ، ذهبَ رجلٌ لزيارةِ القدّيسِ اسبيريدون، ليشتريَ مئةَ عنزةٍ من قطيعِه. طلبَ إليه القدّيسُ دفعَ المالِ أوّلاً، ثمّ أخْذَ الحيواناتِ. اكتفى الشّاري بدفعِ ثمنِ تسعةٍ وتسعينَ منها، واحتفَظَ بثمنِ واحدة، ظانًّا أنّه سيخدَعُ البائعَ لسذاجتِهِ، وعدمِ خبرتِهِ بالبيع. عندما دخلا إلى الصّيرةِ، دعا القدّيسُ اسبيريدونُ زائرَه ليأخذَ من العنزاتِ قدرَ ما دفع. ولكنّ الشّاريَ لم يلحَظِ الإشارةَ، وأخرجَ مئةَ عنزةٍ من الصّيرة.

إلاّ أنّ إحدى العنزاتِ، كخادمةٍ صالحةٍ، فهمَتْ أنّ سيّدَها لم يتلقَّ ثمنَ بيعِها، ولكنّه فضّلَ أن يَدَعَ الأمورَ تأخُذُ مَجراها، فعادَتْ سريعًا، ودخلَتِ إلى الصّيرة. ولكنّ الشّاريَ الوقحَ أخرجَها ثانيةً وهو يَسحَبُها بالقوّة. حصلَ هذا الأمرُ العجيبُ مرّتَيْن وثلاثَ مرّاتٍ: كانَتِ العنزةُ تَعودُ والمُشتري يُحاولُ إخراجَها بعنفٍ وغضب.

فما الّذي حصلَ؟ لم يتوصَّلْ إلى نتيجةٍ بهذه الطّريقة. عندئذٍ، رفَعَ الرّجلُ العنزةَ، ووضعَها على كتفَيْه ومشى. حينئذٍ، بدأَتِ العنزةُ تُصدِرُ ثُغاءَها

بكلِّ قوّتِها، وتنطَحُهُ بقرنَيْها على رأسِهِ، مُحتجَّةً، بتصرُّفِها، على عُنْفِ الرّجلِ وجشعِه. هذا جعلَهُ يُعاقَبُ على إثمِهِ، أمّا الحاضرونَ، فامتلأوا دهشةً غيرَ قادرينَ على تفسيرِ سببِ هذا المَشهدِ الغريب.

لم يُرِدِ القدّيسُ أن يُخجِلَ الظّالمَ علانيّةً، فقالَ له بصوتٍ مُنخفضٍ: «أنظُرْ، يا بُنيَّ، ربّما لا تتصرّفُ العنزةُ هكذا باطلاً. قد يكونُ لإصرارِها على العودةِ سببٌ؟ هل نسيتَ أن تدفعَ ثمنَها؟» لمسَتْ هذه الكلماتُ قلبَ الشّاري، فعادَ إلى تقديرِ الأمورِ بشكلٍ صحيحٍ، وفَهِمَ فعلتَهُ، واعترَفَ بها طالبًا المُسامحة. بعدما دفعَ ثمنَ العنزةِ الباقيةِ، توقَّفَتْ هذه الأخيرةُ عن الثّغاءِ والمُقاومةِ، وتبعَتِ العنزاتِ الأخرياتِ بهدوء. في الواقعِ، قيلَ إنّ القدّيسَ اسبيريدونَ الكبيرَ اهتمَّ بواجباتِهِ الأسقفيّةِ، وفي الوقتِ نفسِهِ، لم يُنقِصْ عنايتَه بحيواناتِه، مجرَّدًا من أيِّ غرورٍ، وبداعي محبّةِ اللّه.

٢- ذاتَ ليلةٍ، في ساعةٍ مُتأخّرةٍ، أتى لصوصٌ إلى المَرعى لسرقةِ بعضِ أغنامِ القدّيسِ اسبيريدون. ولكنّ اللّهَ، الّذي يعتني بالرّاعي، لم يَكُنْ غيرَ مُبالٍ بقطيعِه: رُبِطَتْ أيدي اللّصوصِ، وسمَّرَتْهُم قوّةٌ غيرُ منظورةٍ في أماكنِهم، وجعلَتْهُم غيرَ قادرينَ أبدًا على الهرب.

ولمّا أطلَّ الصّباحُ، أتى القدّيسُ اسبيريدونُ الكبيرُ، وعرفَ ما حصل. عندما رأى أيديَهم مربوطةً خلفَ ظهورِهم، حرّرَهم من رباطاتِهم بصلاتِه، ونصحَهُم لوقتٍ طويلٍ بكسبِ عيشِهم بعملٍ شريف. ثمّ قدَّمَ لهم كبشًا مُمازحًا إيّاهم بقولِه: «كي لا يذهبَ سهرُكُم باطلاً».

٣- شخصٌ آخرُ من سكّانِ مدينةِ «تريميثوسَ»، كانَ مالكَ سفينةٍ، واحتاجَ إلى رأسمالٍ ليتاجر. فأتى إلى الرّجلِ القدّيسِ ليستدينَ منه المال. إلى جانبِ الوصايا الأخرى، كانَ الرّجلُ القدّيسُ يُتمِّمُ تلك الوصيّةَ الّتي تقولُ: «مَن أرادَ أن يقترضَ منك، فلا تَرُدَّه»[٤٧٣]. أعطى القدّيسُ هذا الرّجلَ القليلَ

٤٧٣. مت ٥، ٤٢.

من المالِ الّذي يحتفِظُ به جانبًا من أجلِ حاجاتِ أبرشيّتِهِ، بطيبةِ خاطر. أخذَ البحّارُ قطعَ النّقودِ الذّهبيّةَ، وبعدَ سفرٍ مُوَفَّقٍ درَّ عليه ربحًا، عادَ إلى القدّيسِ ليَفِيَ دينَه. وهذا الأخيرُ، من دونِ طرحِ أيِّ سؤالٍ، ومن دونِ عدِّ المالِ كما يفعَلُ الكثيرُ من النّاسِ عادةً، دعا المَدينَ إلى إعادةِ المالِ إلى الصّندوقِ من حيثُ أخذَهُ سابقًا.

إحترامًا لطيبةِ الدّائنِ وبساطتِهِ، أعادَ القبطانُ قطعَ النّقودِ الذّهبيّةَ إلى الصّندوقِ، كما أشارَ عليه. لاحقًا، احتاجَ إلى المالِ من جديدٍ، فأتى كالمرّةِ الأولى لأخذِهِ، ثمّ أعادَهُ إلى الصّندوقِ بكلِّ نزاهة. تكرّرَ هذا الأمرُ إلى أن استولى على التّاجرِ هوى محبّةِ المالِ، وجعلَهُ يتصرّفُ بخداعٍ، ويستعملُ طريقةً غيرَ مَشروعةٍ نحو ذاك الّذي أولاهُ الثّقةَ، فَصارَ يُشَوِّهُ الحقيقة. وجدَ في الحرّيّةِ المُعطاةِ له فرصةً للتّصرّفِ بغشٍّ، فادّعى أنّه يُعيدُ المالَ إلى الصّندوقِ، وأقفلَ الصّندوقَ فارغًا، من دونِ وَضْعِ شيءٍ فيه.

صرفَ المالَ بتجارةٍ خاسرةٍ، وعندما احتاجَ إلى المالِ من جديدٍ، فَكَّرَ في سلوكِهِ السّابق. ذهبَ لرؤيةِ اسبيريدونَ الكبيرِ، طالبًا إليه قطعَ النّقودِ الذّهبيّةَ الّتي ادّعى إيداعَها. ولكنّ القدّيسَ لم يجهَلِ الخدعةَ، ودعاه بوداعةٍ ليذهبَ ويأخذَ من الصّندوقِ كالعادة. ذهبَ الرّجلُ إلى الصّندوقِ ليأخذَ مالاً، كأنّه لم يفعَلْ شيئًا قذِرًا ومُعيبًا. عندما فتحَهُ ووجدَهُ فارغًا، في الحالةِ الّتي ترَكَهُ فيها تمامًا، أبلغَ القدّيسَ بذلك مُفكِّرًا في خداعِه. ولكنّ هذا الأخيرَ دعاه إلى النّظرِ بانتباهٍ، موضِحًا: «منذ وَضَعتَ قطعَ النّقودِ في الصّندوقِ، لم تَلمَسْهُ يدٌ أخرى». ادّعى الرّجلُ أنّه يبحثُ من جديد. ولكن، بما أنّه من المستحيلِ أن يجدَ في الصّندوقِ ما هو بالفعلِ غيرُ موجودٍ، تظاهرَ بالجهلِ، وقالَ إنّه لم يَجِدْ شيئًا على الإطلاق.

حينئذٍ، قالَ اسبيريدونُ الطّيّبُ الوديعُ: «يا صديقي العزيزَ، إن كنتَ وضعتَ المالَ فعلاً في الصّندوقِ، فستجدُهُ بسهولةٍ. ولكنّك إن احتفظتَ به في جيبِكَ، والآن تفتّشُ عن كسبِه منّي، فاعلَمْ أنّك لا تخدَعُني، بل تخدَعُ ذاتَك».

عندما سَمِعَ التّاجرُ هذا الكلامَ، وكانَ، في الوقتِ نفسِهِ، يشعُرُ بوخزٍ خفيٍّ في ضميرِه، لم يَعُدْ يحتمِلُ المزيدَ، فسقطَ للحالِ عند قدمَي القدّيسِ،

وطَلَبَ المغفرة. سامحَهُ رجلُ اللّهِ قبلَ أن يُكْمِلَ كلامَه، ونصحَهُ ألاّ يعودَ لاستغلالِ الآخرينَ أبدًا، وألاّ يُلوِّثَ ضميرَهُ بالخداعِ والأكاذيبِ، مُضيفًا: لأنّ ما ينتجُ عنها ليس بربحٍ أبدًا، بل، وبوضوحٍ، ضررًا كاملاً.

- من حياةِ القدّيسِ أفثيميوس الجديد، أسقف ماذيتو -

١- ذاتَ ليلةٍ، ثقبَ بعضُ منتهكي الحُرُماتِ حائطَ الكنيسةِ المُقدّسةِ، حيثُ كانَ يخدمُ المُكَرَّمُ أفثيميوس، وسرقوا ما فيها من الأواني المُقدّسة. في الصّباحِ، عندما اكتُشِفَ الفعلُ، تحرّكَتِ المدينةُ بأسرِها لكشفِ الفاعلين. وبما أنّ الحدثَ انتشرَ في كلِّ مكانٍ، أُمسِكَ حقًّا بفاعلي السّوءِ، ووُضِعوا تحتَ تَصرُّفِ المواطنينَ، الّذينَ لم يَكُنْ لديهم أدنى استعدادٍ للتّعاملِ وإيّاهم برأفة، وأعلَنوا عن عقوباتٍ رادعةٍ في حقِّ المُذنبين.

عندما عرفَ القدّيسُ أفثيميوس بنيّتِهم، ذهبَ ووقفَ في وسطِهم، وقالَ لهم: «ليس من العدلِ، يا أولادي، أن يُعاقِبَ هؤلاءِ المجرمينَ شخصٌ آخرُ سواي، أنا الّذي أملكُ الحقَّ أكثرَ من أيٍّ كان أن أغضبَ، بما أنّني الضّحية. سأعاقبُهم من دونِ رحمةٍ، وأعذِّبُهم بالجوعِ والعطشِ، وأجعلُهم يموتونَ ببطءٍ». اعتُبِرَتْ هذه الأقوالُ مُنصِفة. بعد أن تفرّقَ الجمعُ، اصطحبَ المُكَرَّمُ أفثيميوس السّارقينَ إلى بيتِه، حيثُ أعدَّ لهم وليمةً فاخرةً، وأعطاهم أيضًا مؤونةً، ليعودَ ويُحرِّرَهم لاحقًا من رباطاتِهم، ويَدَعَهم يذهبونَ حيثُ يشاؤون.

٢- في ليلةٍ أخرى، والقمرُ بدرٌ، كانَتْ عتمةٌ خفيفةٌ مُنتشرةٌ في شقوقِ الأرض. كانَ القدّيسُ أفثيميوسُ الكبيرُ قد انتهى للتّوِّ من تسبيحِ اللّهِ، في منتصفِ اللّيل. وبحسبِ عادتِهِ، أخذَ يجولُ على الكنائس. فجأةً، رأى في الباحةِ رَجُلَيْنِ يسرُقانِ القمحَ من مخزنِ القبو. اندسَّ أحدُهما في القبو ليملأَ الأكياسَ بالقمحِ، ويُسَلِّمَها إلى الآخرِ من فوقُ، لينقلَها إلى زاويةٍ لا يستطيعُ أحدٌ ملاحظتَها.

حالما فَطِنَ الرّجلُ الّذي ينقُلُ القمحَ إلى عبورِ البارِّ قُربَهُ، ولّى هاربًا،

تاركًا شريكَهُ في القبو. أمّا القدّيسُ أفثيميوسُ، الّذي اعتبرَ من السّيّئِ منعَ الفقراءِ عن أخذِ القمحِ، لا سيّما في تلك الحقبةِ حيثُ حُسِبَ الخبزُ ثمينًا كالذّهبِ بسببِ المجاعةِ، فقرّرَ أن يذهبَ إلى قربِ الرّجلِ الّذي بقيَ، ويحلَّ مكانَ ذاك الّذي فرَّ هاربًا. أمّا السّارقُ في القبوِ، فاستمرَّ في إصعادِ القمحِ، جاهلاً كلّيًّا ما حدثَ، وباتَ أفثيميوسُ يستلِمُها وينقُلُها.

بعدما أخرجَ الرّجلُ من القبوِ ما أمكَنَهُ من كميّةِ القمحِ، وأرادَ الصّعودَ، همَسَ له أفثيميوسُ الكبيرُ في أذُنِه: «هل سنرحلُ تاركينَ هذه الأجبانَ خلفَنا؟» وأشارَ، في الوقتِ نفسِهِ، بإصبعِهِ إلى مكانِ وجودِ الأجبان. أمّا الرّجلُ الّذي لم يكتشِفِ المخبأَ بسببِ خوفِهِ الشّديدِ، فسألَ: «ومن أين تَعرفُ أنتَ ذلك؟» أجابَ القدّيسُ: «سمعْتُ الأسقفَ يقولُ ذلك منذ قليل». وللحالِ، استكشَفَ المكانَ المُشارَ إليه، ووجدَ الأجبان. أخذَ منها قدرَ ما يُريدُ، وسلَّمَها إلى القدّيسِ أفثيميوس. ثمّ جذبَ هذا الأخيرُ اليدَ الّتي مَدَّها إليه السّارقُ ليصعدَ. لدى معرفتِهِ الّذي أدّى له هذه الخدمةَ، امتلأَ السّارقُ خوفًا وخجلاً، وتسمّرَ في مكانِهِ، ثمّ سقطَ عندَ قدمَيْ أفثيميوس.

رَبَّتَ هذا الأخيرُ على كتفِهِ، ورفعَهُ عن الأرضِ، وخاطبَهُ بلطفٍ، قائلاً: «لا تَخَفْ، يا بُنيَّ، كأنّك تجرّأتَ وأتيتَ عملاً مُشينًا. هذا كلُّهُ مُلكُكَ، ومُلكُ اللّه. وإن أخذتَ شيئًا، فاعلَمْ أنّكَ تأخذُهُ من مُلكِكَ، وليسَ ممّا للآخرين. وإن أردْتَ شيئًا من جديدٍ، فتعالَ وخُذْ كلَّ ما تحتاجُه. عزّتْ هذه الأقوالُ السّارقَ الّذي رَحَلَ مُتعجِّبًا من وداعةِ القدّيسِ وتعاطُفِهِ، وأخبرَ النّاسَ جميعًا بما حدثَ له. بسببِ فضيلتِهِ الكبيرةِ، لم يُعَلِّقِ القدّيسُ أفثيميوسُ أيّةَ أهميّةٍ على هذه الحادثةِ، لأنّه وَجَدَ أنّ المسيحيَّ الحقيقيَّ يَرى الممتلكاتِ المادّيّةَ كلَّها مُمتلكاتٍ عامّةً، وأنّه لا يملكُ ما يَخُصُّه[٤٧٤]. فقد فعلَت فيه المحبّةُ، وأضحى مَحروسًا بتواضُعٍ مُباركٍ جعلَهُ يكنزُ الكنوزَ في المخازنِ الّتي لا تبلى[٤٧٥].

٤٧٤. أنظر أع ٤، ٣٢.

٤٧٥. لو ١٢، ٣٣.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- سأل أخٌ الأبَ بيمنَ: «ما معنى أن يغضبَ الإنسانُ على أخيه باطلاً»؟[٤٧٦] فأجابَ الشّيخُ: «مهما يَكُنِ الضّررُ الّذي ألحَقَهُ أخوك بكَ، فباطلاً تغضَب. يجبُ ألاّ تغضبَ عليه، حتّى ولو قلعَ لك عينَكَ اليُمنى، وقطعَ يَدَكَ اليُمنى. أمّا إن فصلَكَ عن اللّه، فحينئذٍ اغضَبْ».

٢- قالَ شيخٌ: «من يُظلَمْ بطيبةِ خاطرٍ، ويُسامِحْ أخاه الإنسانَ، يتصرّفْ مثلَ المسيح. من لا يَظلِمْ ولا يُظلَمْ، يتصرّفْ مثلَ آدم. أمّا من يَظلِمُ، أو يَطلبُ فائدةً، أو يتعمّدُ الإضرارَ، فيتصرّفُ مثلَ الشّيطان».

٣- قيلَ عن الأبِ جيلاسيوسَ إنّه امتلكَ كتابًا قيمتُهُ ثماني عشْرةَ قطعةً نقديّةً، يحتوي على العهدَيْن القديمِ والجديد. وضعَهُ في الكنيسةِ، لكي يتمكّنَ من قراءَتِهِ كلُّ من أرادَ من الإخوة. وحدثَ أن جاءَ أحدُ الإخوةِ الغرباءِ لزيارةِ الشّيخِ، ورأى الكتابَ، فطمِعَ به، وسرقَهُ، ومضى. أمّا الشّيخُ، وعلى الرّغمِ من إدراكِه ما حصلَ، لم يُسرِعْ إلى الإمساكِ به. ثمّ مضى السّارقُ إلى المدينةِ مُلتمِسًا بيعَ الكتاب. ولمّا وجدَ مُشتريًا، طلبَ ثمَنَهُ ستَّ عشْرةَ قطعةً نقديّة. فقالَ له الشّاري: «أعِرْني الكتابَ أوّلاً لأتفحّصَهُ، ومن ثمَّ أدفعُ لكَ الثّمن». فأعطاهُ الكتابَ، ولمّا أخذَهُ، مضى به إلى الأبِ جيلاسيوسَ ليثمّنَهُ بعد أن قالَ له السّعرَ الّذي حدّدَهُ البائع.

بعد أن تفحّصَهُ الشّيخُ بالتّفصيلِ، مُدَّعِيًا عدمَ معرفتِهِ الكتابَ، قالَ للمشتري: «اشتَرِهِ لأنّه كتابٌ جَيِّدٌ، ويستحِقُّ الثّمنَ المَطلوب». ولكنّ الرّجلَ، عندما عادَ إلى البائعِ، نقلَ كلامًا مُختلفًا عمّا قالَهُ الشّيخُ: «أرَيْتُ الكتابَ للأبِ جيلاسيوسَ، وقالَ لي إنّك تبيعُهُ بسعرٍ مُرتفعٍ، ولا يستحقُّ هذه القيمة». عندما سَمِعَ الأخُ ذلك، سألَه: «ألم يَقُلْ لكَ الشّيخُ أمرًا آخرَ؟» أجابَ الرّجلُ: «لا». فشعرَ الأخُ بالتّخشّعِ بسببِ وداعةِ الشّيخِ، وقالَ للرّجلِ: «لقد عَدَلْتُ

---

٤٧٦. مت ٥، ٢٢.

عن بيعِهِ!» وأخذَ الكتابَ، وذهبَ إلى الشّيخِ، نادمًا، يتوسَّلُه أن يستعيدَه. أبى الشّيخُ أَخْذَ الكتاب. فقالَ له الأخُ: «لن أهدأَ ما لم تستعِدْه». أجابَهُ الشّيخُ: «إن كانَ الأمرُ كذلك، فسأستعيدُه». وأقامَ الأخُ هناك حتّى رقادِهِ، مُستفيدًا من سيرةِ الشّيخِ، ومُنتفِعًا من إرشادِهِ.

٤- مرّةً، ساعدَ الأبُ أفبريبوسُ هو نفسُه اللّصوصَ الّذينَ كانوا يَسلبونَهُ أمتعتَهُ على تحميلِها. بعدما أخرجوا كلَّ شيءٍ من قلاّيتِهِ، نَسِيَ أحدُ اللّصوصِ عصاه في الدّاخل. عنما رآها الشّيخُ حَزِنَ، فأخذَها، وشرعَ يركُضُ وراءَهم ليعيدَها له. ولكنّهم رفضوا أَخْذَها لأنّهم استعجَلوا مُغادرةَ المكان. فوجدَ الشّيخُ بعضَ المارّةِ الّذينَ يَسلكونَ الاتّجاهَ ذاتَه، فأعطاهم العصا، ورَجاهم أن يُسلِّموها إلى اللّصوص.

٥- مرّةً اقتحمَ ثلاثةُ لصوصٍ قلاّيةَ الشّيخِ ثيوذورس. أمسكَهُ اثنانِ منهم فيما كانَ الثّالثُ يَنقُلُ الأمتعة. وبعد أن أخرجَ الأغراضَ كلَّها بما فيها الكتبَ، همَّ بأخذِ العباءةِ الّتي يَلبَسُها الشّيخُ في الكنيسة. فقالَ له الشّيخُ: «هذه اترُكوها!» أمّا هم، فلم يعبَأوا به. فما كانَ من ثيوذورس إلاّ أن رمى الاثنَيْنِ على الأرضِ بحركةٍ واحدةٍ من يدَيْه. ففَزِعوا عندما رأَوا ذلك. ولكنَّ الشّيخَ قالَ لهم: «لا تخافوا، بل اقسِموا الغنائمَ إلى أربعةِ أقسامٍ، ثمّ خُذوا ثلاثةً، واترُكوا لي الرّبعَ الأخير. ففعلوا. قالَ هذا لكي تكونَ حصّتَهُ العباءةُ المُخصّصةُ للكنيسة».

٦- قيلَ عن الأبِ يوحنّا الفارسيِّ إنّه أتى إليه مرّةً فاعلو شرٍّ. أمّا هو، فأحضرَ طستًا، وأرادَ غَسْلَ أرجُلِهم. أمّا هم، فخَجِلوا ورحَلوا تائبين.

٧- ذاتَ يومٍ، عادَ الأبُ مكاريوسُ إلى قلاّيتِهِ، ووجدَ فيها إنسانًا، يملُكُ حيوانًا، يسرُقُ أغراضَه. فذهبَ هو نفسُه إليه، وعرّفَه عن نفسِهِ على أنّه

غريبٌ، وساعدَهُ في تحميلِ الحيوان. ثمّ رافقَهُ بهدوءٍ تامٍّ، قائلاً: «لم نأتِ إلى العالمِ ومعنا شيءٌ، ولا نقدِرُ أن نخرجَ منه ومعنا شيء[٤٧٧]. الرّبُّ أعطى، وحصلَ ما أرادَه. فليتمجَّدِ اللّهُ على كلِّ شيء[٤٧٨]!»

٨- مرّةً أخرى، أتى لصٌّ إلى قلاّيةِ الشّيخِ نفسِه، أثناءَ غيابِه. ولدى عودتِهِ، وجدَ هذا الأخيرُ اللّصَّ يسرُقُ الأغراضَ، ويضعُها على ظهرِ الجَمَل. فدخلَ مكاريوسُ إلى القلاّيةِ، وأخذَ ينقُلُ الأغراضَ مع اللّصِّ، ويضعُها على ظهرِ الجَمَل. ولمّا انتهيا، بدأَ اللّصُّ يضربُ الجَمَلَ لكي ينهضَ، ولكنّه لم ينهَضْ. فلمّا رأى الأبُ مكاريوسُ هذا، دخلَ إلى قلاّيتِه، ووجدَ فيها مِعولاً صغيرًا، فأخرجَهُ، ووضعَهُ فوقَ الجملِ، قائلاً: «يا أخي، يريدُ الجَمَلُ هذا أيضًا». ثمّ ضربَ الشّيخُ الجَمَلَ برجلِه، وقالَ: «انهَضْ!» وللحالِ، نَهَضَ الجَمَلُ، ومشى قليلاً من أجلِ طاعةِ الشّيخِ، ثمّ عادَ وجلسَ من جديد. ورفضَ النّهوضَ حتّى أفرغوا حمولَتَه. ورحلَ اللّصُّ خازيًا من دونِ أن يأخذَ شيئًا.

٩- ذاتَ يومٍ، أتى لصوصٌ إلى قلاّيةِ شيخٍ، وقالوا له: «أتَيْنا لنأخذَ كلَّ ما في قلاّيتِك». أجابَهم: «يا أولادي، خُذوا كلَّ ما تُريدون». فأخذوا كلَّ ما وجدوه في القلاّيةِ، ورحلوا. ولكنّهم نسَوا صرّةَ مالٍ معلّقةً هناك. تناولَها الشّيخُ، وركضَ خلفَهم مُناديًا: «يا أولادي، خُذوا ما نسيتموه في قلاّيتي». أمّا هم، فأُعجِبوا بوداعةِ الشّيخِ، وأعادوا كلَّ شيءٍ إلى مكانِهِ في القلاّيةِ، وتابوا قائلينَ بعضُهم لبعضٍ: «بالحقيقةِ، إنّه رجلُ اللّه».

١٠- يُخبِرونَ أنَّ بعضَ الفلاسفةِ أرادوا مرّةً أن يمتحِنوا الرّهبان. فمرَّ أحدُهم مُرتديًا لباسًا جميلاً، وقالوا له: «أنتَ، تعالَ إلى هنا». ولكنّه غضبَ وشتمَهم. عندما رحلَ من هناك، مرَّ راهبٌ آخرُ ليبيٌّ، فقالوا له: «وأنتَ، أيّها الرّاهبُ الخسيسُ، تعالَ إلى هنا!» وبادرَ الرّاهبُ بالمجيءِ، فأسدوه صفعة.

---

٤٧٧. ١ تيمو ٦، ٧.
٤٧٨. انظر أي ١، ٢١.

وللحالِ، أدارَ لهم الخدَّ الآخر[٤٧٩]. فانحنى الفلاسفةُ أمامَه، مُمتلئينَ بالإعجابِ، وقائلين: «هذا راهبٌ حقيقيّ!» فأجلَسوه في وسطِهم، وسألوه: «ماذا تفعلونَ أنتم أكثرَ منّا في الصّحراء؟ تصومونَ؟ ونحن نصومُ أيضًا. تَسهَرونَ؟ ونحن نَسهَرُ أيضًا. كلُّ ما تَفعلونَهُ، نحن نفعلُهُ أيضًا. فما الّذي تفعلونَهُ أنتم أكثرَ منّا، ماكثينَ في الصّحراء؟» أجابَهم الرّاهبُ: «نحن نضعُ رجاءَنا في نعمةِ اللّهِ، ونحرُسُ ذهنَنا». فقالوا له: «نحن لا نستطيعُ تطبيقَ ذلك»، وصرفوه مُنتفعين.

١١- قطنَ راهبانِ في أحدِ الأمكنة. وأتى شيخٌ لزيارتِهما، وفي نيّتِهِ أن يختبرَهما. تناولَ عصًا، وبدأ يُخرِّبُ خضارَ الأوّل. عندما رآهُ الأخُ، اختبَأَ إلى حينِ انتهائِهِ من تخريبِها. عندما بقيَتْ نبتةٌ واحدةٌ، قالَ للشّيخ: «يا أبتِ، إن أردْتَ، فدَعْها حتّى أسلقَها، ونتناولَها معًا». حينئذٍ، صنعَ الشّيخُ مطّانيّةً للأخِ، وقالَ: «بسببِ وداعتِكَ، يا أخي، يستريحُ عليكَ الرّوحُ القدس».

١٢- أخبرَ المغبوطُ زوسيما القصّةَ التّاليةَ عن أحدِ الشّيوخ: «كنتُ لا أزالُ في ديرِ صورَ، عندما زارَنا شيخٌ فاضل. أثناءَ قراءَتِنا لأقوالِ الشّيوخِ - فإنّنا اعتَدْنا قراءتَها بشكلٍ حصريٍّ تقريبًا - وصَلْنا إلى قصّةِ ذلك الشّيخِ الّذي أتى إليه لصوصٌ، وأخذوا أغراضَهُ كلَّها، ورحلوا غيرَ تاركينَ خلفَهم، سوى صرّةِ المال. وتقولُ القصّةُ إنّ الشّيخَ التقطَها، وركضَ خلفَ اللّصوصِ، مُناديًا إيّاهم: «يا أولادي، خُذوا ما نسيتموه في قلاّيتي». أمّا هم، فأُعجِبوا بوداعةِ الشّيخِ، وأعادوا إلى قلاّيتِهِ كلَّ ما سَبَقَ وأخذوه منها.

حالما انتهَينا من قراءةِ هذه القصّةِ، قالَ لي الشّيخُ الزّائرُ: «هذه القصّةُ جلبَتْ لي منفعةً كبيرة». وبعدَ أن توسَّلْتُ إليه ليقولَ لي ما جناه من فائدةٍ منها، أخبرَني: «مرّةً، عندما سكَنْتُ منطقةً قريبةً من الأردنِّ، قرأْتُ هذه القصّةَ، أنا أيضًا، فأُعجِبْتُ بهذا الشّيخِ لوداعتِهِ وحِلْمِهِ، وقلتُ للّهِ: يا سيّدُ، أنتَ الّذي أهّلتَني أن أرتديَ إسكيمَ الشّيوخِ القدّيسينَ، أهِّلْني أيضًا أن

٤٧٩. أنظر مت ٥، ٣٩. لو ٦، ٢٩.

أتّبعَ آثارَهم، وأن أسيرَ على الطّريقِ نفسِهِ الّذي ساروا هم عليه، مُقادينَ من نعمتِك.

بعد أن قدَّمْتُ للّه توسُّلي هذا، احتفظْتُ بهذه الرّغبةِ في داخلي. وبعد يومَيْن، فيما كنتُ جالسًا في قلاّيتي، شعرْتُ باقترابِ بعضِ النّاس. أتَوا إلى البابِ، وطرَقوه. فهمتُ أنّهم لصوصٌ، وقلْتُ لنفسي: أشكرُكَ، يا إلهي! أتى الوقتُ لتحقيقِ رغبتي. ففتحتُ البابَ، واستقبلْتُهم بفرح. وبعدَ أن أشعلْتُ قنديلاً، بدأْتُ أُريهم أغراضي، قائلاً: «لا تَقلقوا، أؤكِّدُ لكم، أمامَ الرّبِّ، أنّني لن أخفيَ عنكم شيئًا». سألَني السّارقون: «هل لديكَ ذَهَبٌ؟» أجبتُهم: «نعم، لديَّ ثلاثُ قطعٍ ذهبيّةٍ»، وفتحْتُ الصّندوقَ أمامَهم. أخذَ السّارقونَ القطعَ، وجميعَ أغراضي، ورحلوا بهدوء».

وتابعَ الشّيخُ زوسيما: «أمّا أنا، فقلْتُ له مازحًا: «وماذا حصلَ بعدَها؟ هل عادوا كما فعلَ اللّصوصُ الّذينَ تتكلَّمُ عنهم القصّةُ؟» للحالِ أجابَني الشّيخُ: «لا يسمَحَنّ اللّهُ بذلك! لم أشَأْ أن يعودوا». ويستنتجُ الأبُ زوسيما: «أنظروا إلى أيِّ تقدّمٍ وإلى أيّةِ درجةٍ من الإيمانِ باللّهِ أوصلَ هذا الشّيخَ شوقُهُ وتهيّؤُه الرّوحيُّ، هو الّذي لم يحزَنْ على فِقدانِ جميعِ أغراضِه، بل، علاوةً على ذلك، فَرِحَ بذلك، كأنّه أُهِّلَ بالفعلِ لنوالِ شيءٍ لا يُقدَّرُ بثمن».

١٣- شيخٌ آخرُ احتاجَ إلى رداءٍ، فذهبَ إلى السّوقِ، واشترى واحدًا قُدِّرَ ثمنُهُ بقطعةٍ ذهبيّةٍ واحدةٍ وبعضِ الفلوس. عندما استلمَ الرّداءَ من البائعِ، وضعَهُ، وجلسَ فوقَه. بعدما أعطى البائعَ قطعةَ الذّهبِ، شرعَ في عدِّ النّقودِ الصّغيرةِ على صينيّةِ الميزان. خلالَ هذه العمليّةِ، ذهبَ أحدُهم خلفَهُ، وشدَّ الثّوبَ، وفي نيّتِهِ أن يسرُقَه. عندما شعرَ الشّيخُ أنّ أحدَهم يجذِبُ الرّداءَ، نهضَ كأنّه يُريدُ الاقترابَ من المكانِ الّذي وضعَ فيه قطعَ النّقودِ الصّغيرةَ، وذلك ليتسنّى لذاك الّذي يشدُّ الرّداءَ أن يأخذَه ويرحل. وهكذا، بعد أن دفعَ الشّيخُ ثمنَ الرّداءِ كاملاً، ذهبَ خاليَ الوفاض.

الفصل التّاسع والثّلاثون

الّذينَ يحتملونَ الظّلمَ بشكرٍ، ولا ينتقمونَ، يُظهرُ اللّهُ برَّهم، هو الّذي يعوّضُ علينا أكثرَ ممّا فَقدْنا.

- من حياةِ القدّيسِ يوحنّا الرّحيم -

اقترحَ الشّيطانُ الشّرّيرُ على البطريقِ نيكيتاس أفكارًا وأقوالاً غيرَ لائقةٍ بفضيلتِهِ، ليقولَها لصديقِهِ الحميمِ، يوحنّا العجيبِ، في ما يختصُّ بعزمِهِ على توزيعِ إحساناتٍ جزيلة. خلالَ إحدى زياراتِهِ للقدّيسِ، قالَ له: «يا سيّدي، الملكُ يحتاجُ إلى مبلغٍ كبيرٍ من المالِ، من أجلِ مصاريفِهِ الجاريةِ الضّروريّة. وأنت نفسُكَ ترى نقصَ الموارِدِ في الصّندوقِ العامّ. لذلك، من المُناسبِ أن تُغذّيَ الخزينةَ العامّةَ المبالغُ الّتي تَصرفُها، كيفما كان، على العُمّالِ والبَطّالين.

أجابَ القدّيسُ، من دونِ أن يفقدَ هدوءَه: «ليسَ من العدلِ أن يُدفَعَ للمَلِكِ الأرضيِّ ما هو مخصّصٌ للمَلِكِ السّماويّ. في الواقعِ، يُحسَبُ هذا سرقةً واضحةً للمقدّساتِ، وخطيئةً كبيرةً إلى اللّه. ولكن، إنِ اتّخذْتَ قرارَك، فتَصَرَّفْ وفقَ مشيئتِكَ، وخُذْ أموالَ الكنيسةِ كلَّها، ما لم تَجِدْ سببًا يُنهيك عن ذلك. أمّا أنا، فمن تلقاءِ ذاتي، لا أُسَلِّمُ الأموالَ المُكرّسة، ولا حتّى فلسًا واحدًا». حينئذٍ، دعا هذا الإنسانُ المُميَّزُ أتباعَه، من دونِ أيِّ تردّدٍ – ولا أدري كيف -، وأمرَهُم أن يأخُذوا المالَ، ولم يترُكْ للبطريركِ سوى مئةِ ليرةٍ ذهبيّة.

في طريقِ العودةِ، التقى ناقلو المالِ أناسًا ذاهبينَ إلى البطريركِ، حاملينَ جرارًا مليئةً بالعسلِ، مكتوبٌ على قسمٍ منها «بابٌ أوّل» وعلى القسمِ الآخرِ «غيرُ مدخَّن»[480]. حالما رآها البطريقُ، وقرأَ ما كُتِبَ عليها، أرسلَ برقيّةً

480. بابٌ أوّل أي نوعيّة أولى، أو نوعيّة ممتازة. أمّا النّوعُ غيرُ المدخّنِ فهو الّذي استُخرِجَ من دونِ أن تُحرَقَ النّحلة.

إلى البطريركِ، طالبًا أن يرسلَ له جرّةً واحدة. بعد أن استلمَ البطريركُ الجرارَ، عهدَ بها كعادتِهِ إلى أحدِهم ليتذوّقَها. أمّا هذا الأخيرُ، فاكتشفَ أنّ عجيبةً قد تمَّتْ بها، وأبلغَ القدّيسَ أنّ جميعَ الأواني مليئةٌ بقطعِ نقودٍ ذهبيّة! فأمرَ البطريركُ مباشرةً بإرسالِ إحدى الجرارِ المكتوبِ عليها «عسلٌ- بابٌ أوّل» إلى السّيناتور.

أرفقَ الجرّةَ برسالةٍ تضمّنَتِ الآتي: «الرّبُّ الّذي قالَ: لا أتركُكَ. لا أُهمِلُكَ[٤٨١]، كونَهُ غيرَ كاذبٍ، وهبَنا اليومَ مالاً آخرَ عوضًا عن المالِ الّذي حرمَنا إيّاه معاليكُم. وبُرهانًا على ذلك، أُرسِلُ إليكَ إحدى الجرارِ الّتي وصلَتْنا، وستكونُ لك البرهان. فاعلَمْ جيّدًا أنّ ما من إنسانٍ مائتٍ قادرٌ أبدًا، ولا بأيّةِ طريقةٍ، على أن يُفْقِرَ اللّهَ الّذي يوزِّعُ على الورى جميعًا نسَمَةَ الحياةِ والغذاء». وأوصى حاملي الجرّةِ بفَتْحِها لدى مثولِهم أمامَ البطريقِ، ليكونوا شهودَ عيان، وأن يبلِّغوه أنّ كافّةَ الأواني الأخرى الّتي رآها، مليئةٌ أيضًا بقطعِ النّقودِ الذّهبيّة.

وجدَ مُرسَلو البطريركِ نيكيتاسَ يتناولُ الطّعام. سلّموه الرّسالةَ، وقرّبوا له الجرّة. حالما رآها، قالَ: «لا بدَّ أنّ سيّدي غاضبٌ منّي. وإلاّ، لأرسلَ لي أكثرَ من واحدة». أمّا ناقلو الجرّةِ، وتبعًا للتّعليماتِ، ففتحوها أمامَ عينَيْه، وأفرغوا منها الذّهبَ، وأعلموا البطريقَ أنّ الجرارَ الأخرى مليئةٌ أيضًا بالذّهبِ. وبعدما قرأَ في الرّسالةِ جملةَ «أنّه يستحيلُ على الإنسانِ أن يضعَ اللّهَ في موقفٍ صعبٍ»، خَجِلَ، واستولَتْ عليه المهابةُ (لأنّ النّفسَ النّبيلةَ والمُحبّةَ للفضيلةِ تندَمُ سريعًا، إن قامَتْ بعملٍ غيرِ صالحٍ)، وصاحَ: «باللّهِ الحيِّ، لا يُمكِنُ لنيكيتاسَ الوضيعِ أن يفعلَ ذلك!»

فنهضَ للحالِ، وتناولَ المالَ الّذي استولى عليه من الكنيسةِ، والإناءَ المُرسَلَ، وأضافَ إليهما ثلاثمئةَ ليرةٍ ذهبيّةٍ من مالِهِ الخاصّ، ثمّ ذهبَ إلى البطريركِ، وطلبَ منه المغفرةَ على نقصِ تمييزِه. استقبلَهُ البطريركُ بفرحٍ، من دونِ لومٍ، ولا كلامٍ جارحٍ. على العكسِ، أراحَهُ بكلماتٍ مُعزِّيةٍ لنفسِهِ ونصائحَ

---

٤٨١. عب ١٣، ٥. أنظر تك ٢٨، ١٥.

روحيّةٍ، ثمّ أطلَقَهُ بسلام. ومنذ ذلك الحينِ، ارتبطَ الاثنانِ بصداقةٍ كبيرةٍ إلى حدٍّ أنّ البطريركَ صارَ عرّابَ أولادِ البطريق.

- عن القدّيسِ مرقس -

إنّ الّذي يَتعرَّضُ للظّلمِ، ولا يسعى للانتقامِ ممّن ظَلَمَهُ، يُظهِرُ بهذا أنّه يؤمنُ بالمسيحِ، ويأخذُ منه أضعافًا مُضاعَفةً في هذا العالمِ، ويَرِثُ الحياةَ الأبديّةَ في العالمِ الآخر[٤٨٢].

- عن كتابِ الشّيخ -

١- ذاتَ يومٍ، أورثَ أحدُ الشّيوخِ الرّهبانِ قلاّيَتَهُ والحقلَ المُحيطَ بها إلى الأبِ جيلاسيوس، وكانَ ساكنًا في نيكوبوليس، في فلسطين. ولكنّ أحدَ المُزارعين، من خدّامِ فاكاتوس حاكمِ نيكوبوليس، وهو أحدُ أقرباءِ الشّيخِ المُتوفّى، أتى إلى معلِّمِهِ ليطلبَ نِسْبَةَ هذه المُلكيّةِ له، بما أنّها تعودُ له بحسبِ القانون. بدأَ فاكاتوسُ بالطّلبِ إلى الأبِ جيلاسيوس أن يُعيدَ المُلكيّةَ إلى المُزارع. ولكنّ هذا الأخيرَ رفضَ طلبَهُ (وقد حَرِصَ جيلاسيوس حِرصًا شديدًا على عدمِ التّنازلِ عن قلاّيةٍ رهبانيّةٍ إلى رجلٍ علمانيٍّ)، فحاولَ المُزارعُ أن يستوليَ على الأرضِ بالقوّة. ذاتَ يومٍ، شرعَ فاكاتوسُ يُراقِبُ الحيواناتِ الّتي استأجرَها الأبُ جيلاسيوس لنقلِ الزّيتونِ المقطوفِ من الحقلِ المَوروثِ. وعندما أصبحَتِ الحمولةُ جاهزةً، قادها عَنوةً إلى مسكَنِه. هناك، أفرغَ الحمولةَ كلَّها، وطردَ السّائقينَ مع حيواناتِهم، وهو يُمطِرُهم بالشّتائم.

لم يبحَثِ الشّيخُ المغبوطُ عن استعادةِ الغلّةِ قطّ، ولكنّه لم يتخلَّ عن الأرضِ للسّببِ الّذي ذكرْناه. أمّا فاكاتوس، فقرّرَ أن يرفعَ دعوى ضدَّ الشّيخِ، مُستشيطًا من الغيظ. ولمّا استدعَتْهُ لاحقًا مسائلُ أخرى لمعالجتِها، توجّهَ إلى القسطنطينيّة. وفيما هو مسافرٌ في الطّريقِ، قرّرَ أن يقومَ بجولةٍ لزيارةِ القدّيسِ سمعانَ العاموديِّ في الأرضِ المُسوّرة. ففي ذلك الوقتِ، لَمَعَ نجمُ القدّيسِ كالنّورِ، فرغِبَ كمسيحيٍّ في رؤيتِهِ، والحصولِ على زادِ صلواتِه.

---

٤٨٢. أنظر مر ١٠: ٣٠.

ما إن بلغَ مقصدَهُ، حتّى رآهُ القدّيسُ سمعانُ من أعلى العامودِ، وسألَه: «من أين تأتي، وإلى أين تتوجّهُ؟» أجابَ فاكاتوس: «آتي من فلسطين، وأنا ذاهبٌ إلى القسطنطينيّة».

سألَهُ القدّيسُ سمعانُ: «ولأيِّ سببٍ تقصدُ القسطنطينيّةَ؟» قالَ فاكاتوس: «لعدّةِ مسائلَ، وأرجو، بصلواتِكَ، أيّها الأبُ القدّيسُ، أن أعودَ إلى هنا، وأسجدَ لآثارِ قدمَيْكَ المُقدَّسة». فقالَ له القدّيسُ سمعانُ الكبيرُ: «لماذا تُخفي عملَكَ الجائرَ، أيّها الإنسانُ العديمُ الإيمانِ، ولا تقولُ إنّك ذاهبٌ إلى القسطنطينيّةِ لترفعَ دعوى ضدَّ رجلِ اللّهِ؟ على أيِّ حالٍ، لن تُفيدَكَ هذه السّفرةُ بشيءٍ، ولن ترى بيتَكَ بعدَ الآن. وإن أردْتَ سماعَ نصيحتي، فاترُكْ هذا المكانَ للحالِ، واذهَبْ لتجدَ الشّيخَ، واسجُدْ أمامَه تائبًا، هذا إن وصلْتَ إلى هناك حيًّا.

حينئذٍ، انتابَتْ فاكاتوس الحُمّى، فنقلَه خدّامُه على حمّالةٍ مُسرعينَ لإعادتِهِ إلى نيكوبوليس. ولكنّهم ما إن وصلوا إلى بيروتَ حتّى وافَتْهُ المَنِيّةُ من دونِ أن يرى مدينتَهُ ولا بيتَهُ، حسبَ نبوءةِ القدّيس.

٢- عمِلَ المَغبوطُ بيور في الحصادِ عند أحدِ المُزارعينَ، ثمّ ذَكَّرَ مُستخدِمَهُ أنّه يَدينُ له بأجرِه. وبما أنّ هذا الأخيرَ ما لبثَ يُرجئُ الدّفعَ، عادَ إلى منسكِه. ولمّا جاءَ وقتُ الحصادِ الثّاني، عادَ من جديدٍ ليعملَ عندَ هذا الرّجلِ الّذي دعاه، وكانَ يعملُ بكلِّ نشاط. ولكنّه عادَ إلى منسكِهِ من دونِ أن يدفعَ له الرّجلُ فلسًا. وكذلك حصلَ في السّنةِ الثّالثةِ؛ قامَ الشّيخُ بالعملِ نفسِهِ، وعادَ من دونِ أن يتقاضى أجرَه.

وبما أنّ الرّبَّ أنزلَ ببيتِ هذا المزارعِ سلسلةَ حوادثَ وأمراضٍ، قرّرَ زيارةَ المناسكِ، في طلبِ الشّيخِ، حاملاً معه المالَ المتوجِّبَ عليه. وجدَ صعوبةً في إيجادِهِ، ولكنّه عندما وجدَهُ، خرَّ عند قدمَيْه ساجدًا، وطلبَ المَغفرةَ، وأعطاه أجرَ عملِهِ لثلاثِ سنينَ، قائلاً: «لقد جازاني الرّبُّ». ولكنّ الشّيخَ لم يقبَلْ هذا المبلغَ، وأمرَهُ بالذّهابِ لإعطائِهِ للكاهنِ من أجلِ الكنيسة.

٣- صنعَ أحدُ الإخوةِ مفتاحًا مُزَيَّفًا، وفتحَ قلّايةَ أحدِ الشّيوخِ، وأخذَ مالَه. كانَ الشّيخُ قد كتبَ على ورقةٍ: «أيّها السّيّدُ أخي، كائنًا مَن كُنتَ، إعمَلْ مَعروفًا، واترُكْ لي النّصفَ من أجلِ حاجاتي». ثمّ قسمَ المالَ إلى قسمَيْن، ووضَعَ الورقةَ جانبًا. أمّا الآخرُ، عندما أتى ثانيةً، مزّقَ الورقةَ، وأخذَ المبلغَ كلَّه. بعد سنتيْن، مرِضَ الأخُ، وشارفَ على الموتِ، ولكنّ نفسَهُ ما لبثَتْ تتعذّبُ بقساوةٍ من دونِ أن تخرجَ من جسدِه. فأرسلَ في دعوةِ الشّيخِ، وقالَ له: «صلِّ من أجلي، يا أبتِ. لأنّني أنا من سرَقْتُ مالَكَ». قالَ الشّيخُ: «لِمَ لَمْ تَقُلْ ذلك من قبلُ؟» وبدأَ الشّيخُ بالصّلاةِ من أجلِه، وللحالِ أسلمَ الأخُ روحَه.

الفصل الأربعون

وجوبُ محبَّةِ أعدائِنا، والإحسانِ إليهم، والصَّلاةِ من أجلِ خلاصِهم، للفائدةِ الّتي نجنيها منهم.

- من قصّةِ استشهادِ القدّيسِ الشّهيدِ ميناس ورفاقِه -

عند مُثولِهِ أمامَ الحاكمِ أرموجانيس الّذي جلسَ يُحاكمُهُ ويُخضِعُهُ للعذاباتِ، تكلّمَ القدّيسُ ميناس بثقةٍ كبيرةٍ عن قوّةِ المسيحِ، مؤكّدًا له أنّه، بدعوةِ اسمِهِ، يستطيعُ أن يفعلَ كلَّ شيءٍ، بما في ذلك شفاءَ الأمراضِ الخطِرةِ، والآلامِ المُستعصيةِ، وسائرِ الأمراضِ الّتي لا يُمكِنُ شفاؤُها إلاّ بتدخّلِ اللّه. ودعا بعضَ المواطنينَ أن يشهدوا لأقوالِهِ ويؤكّدوها. ولكنَّ الحاكمَ أجابَه: «سأبرهنُ الآن أنّك تَهذي، وتَتفاخرُ باطلاً، عندما أقطَعُ، أو أَحْرِقُ أحدَ أعضائِكَ، فتقفُ أنتَ عابدَ المسيحِ، عاجزًا عن ترميمِه! كيف ستتمكّنُ من إظهارِ ذاتِكَ كمُوزّعٍ حقيقيٍّ على الآخرينَ لخيراتٍ لم تستطِعْ أن تهبَها لذاتِكَ، عند اللّزومِ؟» أجابَ القدّيسُ: «أتمنّى، أيّها الحاكمُ، أن تتحقّقَ من قوّةِ المسيحِ فيّ. أنا مُقتنعٌ أنّك ستتنازلُ للحالِ عن المنصبِ الّذي تحتلُّه الآن، وتُعلنُ ذاتَكَ كأحدِ تلامذةِ المسيح».

حينئذٍ، أرادَ الحاكمُ أن يشفيَ غليلَهُ، وأمِلَ في دحضِ كلِّ ما قالَهُ القدّيسُ، فأمَرَ بأن يفصلوا، بالسّكاكينِ، لحمَ أخمصِ قدمَيْه، الّذي ينتصبُ عليه جسمُهُ كلُّه، فيقفَ على عظامِهِ المُجرَّدةِ فيما يسألونَهُ عن الآلهةِ، بحيثُ يَجبَنُ بسببِ آلامِهِ المُبرِّحةِ، ويستصعبُ الإجابةَ والمجادلة. وفيما جعلوا يَقصّونَ لحمَهُ من دونِ شفقةٍ، ويقطَعونَ العروقَ المُتلاصِقةَ، ويُمزّقونَ الأعصابَ الّتي تؤمِّنُ الحركةَ، تنهّدَ القدّيسُ قليلاً، كأنّ النّعمةَ الإلهيّةَ تراجعَتْ لتمتحنَ المُجاهدَ، وتعطيَه الفرصةَ لربحِ الأكاليل. ولكنّه عرفَ جيّدًا أنّ الأكاليلَ تَعقُبُ

المَشقّاتِ، فاحتملَ الرّجلُ القدّيسُ الآلامَ المَفروضةَ عليه بثباتٍ.

عندما انتهَتِ التّعذيباتُ، نهضَ ميناسُ للحالِ، ووقفَ على عظامِ رجلَيْه، مُرتّلاً: «على أرضٍ مُستقيمةٍ قامَتْ قدماي. في الجماعاتِ، يا ربُّ، أُباركُكَ»[٤٨٣]. كانَ الدّمُ الغزيرُ يَسيلُ من جراحاتِه، ولكنّ وجهَهُ كانَ لامعًا، ونفسَهُ كانت منشرحةً إزاءَ المخاطر.

حينئذٍ، صفّقَ الحاضرونَ كما في حالةِ النّصر. أمّا الحاكمُ، فأرادَ أن يجدَ طريقةً لتجنُّبِ تبكيتِ القدّيسِ، وفي الوقتِ نفسِهِ أن يجعلَ خصمَهُ عاجزًا، فيهزمَهُ بسهولةٍ، فأمرَ أن يَقطَعوا لسانَ الشّهيد. جوابًا على ذلك، قالَ القدّيسُ: «وإن أعمَيْتَ حدقتَيْ عينَيَّ، فلن أتعثّرَ، لأنّ ناموسَ المسيحِ نورٌ لخطواتي. ولكنّني أؤكّدُ لك أنّه حالما أخسرُ لساني، ستكتسبُ أنت لسانًا ليرتّلَ بإطرابٍ لعظائمِ المسيح». لاحقًا، جرى كلُّ شيءٍ كما تنبّأَ القدّيس. بعد أن استعادَ القدّيسُ، بقوّةِ المسيحِ، الرّجلَيْن، والعينَيْن، واللّسانَ، تقدّمَ أمامَ الجمهورِ سليمًا معافًى، فدفعَ الحاكمَ إلى أن يعترفَ بالإيمانِ، ويتبعَهُ إلى الشّهادة.

- من قصّةِ أسفارِ الرّسولِ بطرسَ الّتي كتبَها القدّيسُ كليمنضس -

أنا كليمنضسَ، وجدْتُ نفسي في حيرةٍ من أمرِ بعضِ الأسئلةِ الّتي تختصُّ بموضوعِ الرّحمةِ، فسألْتُ بطرسَ، طالبًا معرفةَ الأعمالِ الّتي تجعلُ الإنسانَ رحومًا. فأجابَني قائلاً: «يكونُ رحومًا ذاك الّذي يتصرّفُ بإلفةٍ وطيبةٍ حتّى من ناحيةِ أعدائِه. إنّي أرى أنّ الرّحمةَ تتألّفُ من عنصريْن: الأوّلُ هو الإحسانُ، والثّاني هو محبّةُ القريب. وقريبُ الإنسانِ هو كلُّ إنسان. نجدُ بين النّاسِ من هو شرّيرٌ، ومن هو صالحٌ؛ نجدُ العدوَّ، ونجدُ الصّديق. فعلى مَن يُمارِسُ فضيلةَ الرّحمةِ أن يتشبّهَ باللّهِ، الّذي يُحسِنُ إلى الأبرارِ والأشرارِ، والّذي يُعطيهم جميعَهم، اليومَ، في هذا العالمِ، الشّمسَ والأمطار[٤٨٤]. أمّا إن قرّرتَ أن تُحسِنَ إلى الصّالحينَ، وأن تعاقِبَ الأشرارَ، فأنت تُنصّبُ ذاتَكَ ديّانًا».

---

٤٨٣. مز ٢٥، ١٢.

٤٨٤. أنظر مت ٥، ٤٥.

فقلْتُ له: «تُرى، ألن يرحَمَ اللّه البَشَرَ، وهو المُزمِعُ أن يُدينَنا في المجيءِ الثّاني؟»

أجابَ بطرسُ: «الأمرُ بعكسِ ما تقول. إنّه رحيمٌ تمامًا لأنّه يُدين. في الحقيقةِ، بما أنّه يُحِبُّ المَظلومينَ، ويَرأفُ بهم، يُعاقِبُ الظّالمين».

حينئذٍ، قلْتُ: «وبالتّالي، إن أنا أحسَنتُ إلى الصّالحينَ، وعاقَبْتُ الظّالمينَ، بحسبِ الأذى الّذي سبَّبوه للآخرينَ، ألا أكونُ رحيمًا؟»

أجابَ بطرسُ: «إن أُعطِيَتْ لكَ موهبةُ مَعرفةِ الخفيّاتِ، بالإضافةِ إلى سلطةِ الإدانةِ، فستُكَمِّلُ هذه المهمّةَ من دونِ ارتكابِ أيِّ خطأ، مُقيمًا العدالةَ بحسبِ التّفويضِ الّذي تلقّيتَه».

قلْتُ: «تكلّمْتَ بحقٍّ وعدلٍ، لأنّ أحدًا لا يستطيعُ أن يُدينَ بعدلٍ، من دونِ موهبةِ مَعرفةِ الخفيّاتِ، بما أنّه يحدُثُ أحيانًا أن يبدوَ بعضُهم أبرارًا، فيما هم يَعملونَ أعمالاً شائنةً في الخفية. ويحدثُ أحيانًا أخرى، عكسُ ذلك، فيُظَنُّ بالفاضلينَ أنّهم أشرارٌ، بسببِ افتراءِ أعدائِهم. لا يكفي أن يملُكَ أحدٌ سلطةَ الحُكمِ وإنزالِ القصاصِ، ليتأكّدَ أنّه يحكمُ باستقامةٍ كاملةٍ، فبعضُ النّاسِ، على الرّغمِ من كونِهم مُجرمينَ، أُطلِقَ سراحُهم كأبرياءٍ، لأنّهم احتمَلوا التّعذيباتِ خلالَ الاستجوابِ، بينما أبرياءٌ آخرونَ لم يستطيعوا احتمالَ التّعذيباتِ، فاتّهموا ذواتِهم باطلاً، وعوقِبوا كمُذنبين».

وتابعَ بطرسُ كلامَهُ قائلاً: «إذًا، على مَن يُريدُ أن يُمارسَ الفضيلةَ ممارسةً كاملةً أن يُحِبَّ أعداءَهُ، كما قالَ المسيحُ[٤٨٥]، ويُصلّيَ من أجلِهم، ويباركَ الّذينَ يُهينونَه، ويسامِحَ الّذينَ يُسيئونَ معاملتَه. هكذا سيحفظُ الوصايا بدقّةٍ، ويُفارِقُ هذه الحياةَ مُسامَحًا عن كلِّ خطاياه، بسببِ محبّتِهِ للقريب. إن اقتنعَ المرءُ أنّ الأعداءَ، الّذينَ يُسيئونَ إليه عندما تَسنَحُ لهم الفرصةُ، يُخلِّصونَهُ من الجحيمِ الأبديّةِ، فسيُحِبُّهم كمُحسنين. من المستحيلِ إتمامُ هذه الوصيّةِ ما لم يُحِبَّ أحدُهم اللّهَ حبًّا جمًّا، بعد أن يكونَ قد تربّى على مخافتِه. لأنّه يُقالُ: «بدءُ الحكمةِ مَخافةُ الرّبّ[٤٨٦]». فعندما يتربّى أحدُهم

---

٤٨٥. مت ٥، ٤٤. لو ٦، ٢٧ و٣٥.

٤٨٦. أم ١، ٧.

على مخافةِ اللّهِ، سيصلُ إلى المحبّةِ الكاملةِ، ويُحبُّ قريبَهُ مثلَ نفسِه. قُلْ لي، ما رأيُكَ؟ لنَفترِضْ أنّ ملكَيْنِ تعاديا، وأُقفِلَتْ حدودُ بلادِهما، ثمّ ضُبِطَ أحدُ التّابعينَ لواحدٍ منهما في بلدِ الآخرِ، وتَعرَّضَ للموت. في هذه الحالِ، إذا عوقِبَ الرّجلُ، لا بالموتِ، بل بصفعةٍ، ألا يبدو لك أنّ الملكَ، الّذي تركَهُ حُرًّا، قد أظهرَ رحمةً؟»

قلتُ: «طبعًا!»

وأردفَ بطرسُ: «والآن، لنَفترِضْ أنّ هذا الرّجلَ نفسَهُ سرقَ مُلكَ غيرِه، وقُبِضَ عليه، وحُكِمَ عليه بأن يعطيَ، كتعويضٍ، ما يُعادِلُ قيمةَ ما سرقَه أو ضُعفَ القيمةِ، فيما الأولى أن يُعطيَ أربعةَ أضعافٍ[٤٨٧]، وهو مُعرَّضٌ للموتِ لأنّه قُبِضَ عليه داخلَ حدودِ العدوِّ. ألا يبدو لكَ أنّ مَن أخذَ القيمةَ المُضاعَفةَ، وعفاه من الموتِ، قد أظهرَ رحمةً؟»

أجبْتُه: «لقد أقنعتَني بأنّ الّذينَ يَظلمونَ الآخرينَ، يَظلمونَ أنفسَهم، بينما الّذينَ تَعرَّضوا للظُّلمِ هم في موقفٍ أفضل. لهذا السّببِ، أجدُ هذه المسألةَ غيرَ عادلة. في الواقعِ، هؤلاءِ الّذينَ يُضِرّونَ بالآخرينَ ظاهريًّا، يُضِرّونَ بأنفسِهم بالأحرى، ويَنفعونَ الّذينَ أخطأوا بحقِّهم. أمّا الّذينَ يُحسَبُ أنّهم ظُلموا، بالأحرى يَظلمونَ أعداءَهم إن لم يُحِبّوهم، لأنّهم، على الرّغمِ من انتفاعِهم منهم، لم ينفعوهم بدورِهم.

قالَ بطرسُ: «ولكنّ هذا الرّأيَ لا يَنفَعُ مَن يُسيئونَ، بل مَن يتلقّونَ الإساءة».

إستحسنتُ أقوالَ بطرسَ، وأضَفْتُ: «يا مُعلّمُ، اشرَحْ لي ما قُلتَهُ سابقًا، في أنّنا نتلقّى الأضرارَ والآلامَ، من أجلِ مغفرةِ الخطايا».

أجابَني بطرسُ: «لَعَمري، هذه هي الحقيقة! فنحن البشرَ، نَميلُ دائمًا إلى زيادةِ ما نَملُكه، أتعلّقَ الأمرُ بالملابسِ، أو بالأطعمةِ، أو بأيّةِ مُلكيّةٍ أخرى. ونحن، في هذا لا نُحسِنُ التّصرُّفَ، لأنّ مَن أرادَ أن يعيشَ بالبِرِّ، يجبُ ألاّ يَملكَ شيئًا. في الواقعِ، إن كانَ امتلاكُ المادّيّاتِ يقودُ المالكينَ حتمًا إلى ارتكابِ

٤٨٧. أنظر لو ١٩، ٨.

الخطايا، فالحرمانُ منها، مهما تَكُنِ الطّريقةُ، خلاصٌ من الخطايا. لهذا، بسببِ محبّتِهِ الفائقةِ للبشرِ، يُحدِثُ اللّهُ تجاربَ تربويّةً لأولئكِ الّذينَ لا يعيشونَ بحسبِ مشيئتِه. وهكذا، باحتمالِهم العقوباتِ الوقتيّةَ الّتي تُحدِّدُها محبّةُ اللّهِ، يتخلّصونَ من العقوباتِ الدّهريّة.

- من قصّةِ استشهادِ القدّيسِ لونجينوس، قائدِ المئة -

حالما استلمَ بيلاطسُ حُكْمًا مكتوبًا من قيصر يقضي بموتِ لونجينوس لإيمانِهِ بالمسيح، أخطرَ اليهودَ، وسارعَ إلى إرسالِ جنودٍ مُتحمّسينَ لقتلِ السّعيدِ الذّكر. عندما وصلوا إلى كبادوكيا، عَلِموا أنّ لونجينوس يعيشُ بهدوءٍ، مُبتعدًا في إحدى أراضيه، الّتي وَرِثَها عن والدِه. للحالِ، ذهبوا إلى هناك، وبدأوا يتحدّثونَ إلى لونجينوس، غيرَ عالمِينَ أنّه هو الّذي من أجلِه كابدوا مَشقّةَ هذا السّفرِ المُتعبِ. لهذا سألوه عن لونجينوس الّذي يَطلبونَه، وعن مكانِ سَكَنِه. في تلك اللّحظةِ، كشفَ الرّوحُ القدسُ كلَّ شيءٍ للونجينوس. استدارَ بهدوءٍ نحو الجنودِ، وقالَ لهم بصوتٍ عذبٍ ودودٍ: «اتبَعوني، وأنا سأدلُّكُم على الّذي تَبحثونَ عنه».

حينئذٍ، شعرَ المغبوطُ بفرحٍ داخليٍّ كبيرٍ، كأنّه يتذوّقُ مُسبقًا لذّةَ الحياةِ الآتية. كذلك، قَبِلَ بطيبةِ خاطرٍ موتَ الشّهادةِ، حتّى قبلَ أن يتعرَّضَ له، وقالَ في نفسِه: «ما أجملَ أقدامَ المُبشّرينَ بالخيراتِ[٤٨٨]! الآنَ، سأرى السّمواتِ مَفتوحةً! الآنَ، سأعاينُ مجدَ الآب! الآن، ستُرافقُني أغاني النّصرِ اللاّمعةُ والغنائمُ المَجيدةُ، وسأصِلُ إلى مفاتنِ أورشليمَ العُلويّةِ الرّائعةِ، موطنِ الملائكةِ، المدينةِ حيثُ يسكنُ جوقُ القدّيسين! الآن، سأخلعُ الرّداءَ الأرضيَّ، وأفكُّ قيودَ الجسدِ المُكْرِبةِ! الآنَ، سأتخلّصُ من الفسادِ لألبسَ بفرحٍ عدمَ الفسادِ! ها أنا أفارقُ الحياةَ الوقتيّةَ بكلِّ عواصفِها، حيثُ الأمواجُ العاتيةُ تُسَبِّبُ الغرقَ المميتَ، وسوفَ أبلغُ الميناءَ الحقيقيَّ الوحيدَ، حيثُ الحياةُ الأبديّةُ الخاليةُ من الأحزانِ. إفرحي، يا نفسي، فيما تعودينَ إلى خالقِك.

---

٤٨٨. رو ١٠: ١٥.

فليُشرِقْ وَجهُكِ لامعًا لأنّ الوقتَ قد حضر. يا لونجينوسُ، أحسِنْ وِفادةَ الّذينَ سيُسبِّبونَ لكَ هذه الخيراتِ الجمّةَ، وابسُطْ مائدةً غنيّةً أمامَ الّذينَ يَدعونَكَ إلى العشاءِ المَلكيّ».

بعدَ هذه المحاورةِ الذّاتيةِ، قادَ لونجينوسُ زوّارَه إلى بيتِه. هناك، قدّمَ لهم عشاءً فاخرًا. ثمّ بعدَ الطّعامِ، سألَهم عن سببِ سفرِهم، ولماذا يبحثونَ عن لونجينوس بهذه الحماسة. ومع أنّ الزّوّارَ أقسَموا، في أوّلِ الأمرِ، ألاّ يُفضوا بسرِّهم لأحدٍ، نقلوا له ما كتبَ القيصرُ إلى بيلاطسَ، وأنّهم أتوا ليقطَعوا رأسَ لونجينوس، واثنَيْن من جنودِه. عندما علِمَ لونجينوس بهَويّةِ المُترتِّبِ عليهِما الموتُ معه، أعني هذَيْن الجنديّيْن اللّذيْن فضّلا المسيحَ على أن يرتشيا من اليهودِ، أرسلَ لهما رسالةً ليعودا سريعًا إليه، ويتمكّنا من مشاركتِهِ الخيراتِ الأبديّةَ، لأنّهما كانا قد رحلا للتّوِّ من عنده.

استضافَ لونجينوسُ مُرسَلي بيلاطسَ لمدّةِ يومَيْن، وفي اليومِ الثّالثِ، قادَهم إلى حقلٍ انتظرَ فيه الجنديَّيْن اللّذيْن استدعاهما. عندما أُعلِمَ بقربِ مجيئِهما، للحالِ، أعلنَ لرجالِ بيلاطسَ: «أنا لونجينوس الّذي تطلبونَه». في البدءِ، لم يصدّقوه. كيف يُمكِنُهم، في الحقيقةِ، أن يُصدِّقوا أنّه الرّجلُ المُشرِفُ على الموتِ، وهم يَرونَهُ يتعرَّضُ للخطرِ زاهيًا بفرحٍ كبيرٍ؟

عندما تأكّدوا من أنّه الرّجلُ الّذي يطلبونَه، وأُزيلَ كلُّ شكٍّ في ذلك، حزِنوا جدًّا، ووخزَهم ضميرُهم بتوبيخاتٍ لاذعة. قالوا: «يا للوليمةِ البائسةِ! يا للضّيافةِ المشؤومةِ! لماذا تصرّفْتَ بكلِّ هذه الطّيبةِ، أيّها العزيزُ لونجينوس؟ لماذا استقبلْتَ في بيتِكَ مَن أتَوا لقتلِكَ؟ أصبحَتِ الضّيافةُ، بالنّسبةِ إليكَ، طريقةً لإعطاءِ حياتِكَ. فبوليمةٍ ضحّيْتَ بذاتِك، بعدَ أن اكتشفْتَ، بطريقةٍ غيرِ متوقّعةٍ، أنّ ضيوفَكَ رجالٌ أشرار. أيُّ تصرّفٍ آخرَ يُمكِنُكَ أن تضيفَه لتدعوَ إلى النّدمِ مَن يُفترَضُ بهم أن يكونوا جلاّديكَ؟ فاهرُبْ، وانجُ بحياتِكَ مكافأةً على ضيافتِك. لا نحتمِلُ أن نرفعَ السّيفَ عليك. وليمَتُكَ تَجعلُنا نحمَرُّ خجلاً. مبادرةُ ضيافتِكَ تُخجِلُنا. عندما نُفكِّرُ في الإعدامِ، تَنشَلُّ أيدينا. تَنفُرُ نفوسُنا من قتلِ المُحسِنِ إلينا. إنّه لأسهلُ علينا أن نتلقّى العقوبةَ من بيلاطسَ من أن نحتملَ توبيخاتِ ضميرِنا. نحن، بالأحرى، مستعدّونَ لاحتمالِ كلِّ شيءٍ، على

أن نكونَ ناكري جميلِ لونجينوس».

هذه الأقوالُ وَجَّهَها الجنودُ لشهيدِ المسيحِ بحسرةٍ وأسًى، لكنّهم لم ينجحوا في إقناعِه. أجابَهم لونجينوس بلهجةٍ أبيّةٍ، مزوَّدًا بشهامةٍ حقيقيّةٍ: «لماذا، يا أصدقائي الأعزّاء، تُريدونَ أن تحرموني خيراتٍ جمّةً؟ لماذا تنتحِبونَ، حزانى، على موتي؟ هذا الحدثُ ليس موتًا بالنّسبةِ إليّ، بل بَدءَ الحياة. في الحقيقةِ، الموتُ بالنّسبةِ إليّ هو العيشُ هنا، في الدّنيا، لأنّني لستُ بقربِ سيّدي ولا أتمتّعُ بالغبطةِ السّماويّة. النّهايةُ نهايةُ الشّرّورِ، وليست نهايةَ الحياة. على العكسِ، هذه النّهايةُ ستوصلُني إلى الأبديّةِ الحقيقيّة».

فيما لونجينوس ينطقُ بهذه الأقوالِ، وسواها، ليقنعَ رجالَ بيلاطسَ بتنفيذِ ما أُمِروا به، حضرَ الجنديّانِ اللّذان حُكِمَ عليهما بالموتِ معه. لدى رؤيتِهِ إيّاهما، التَمَعَ وجهُ لونجينوس، فأمسكَ كلاًّ منهما بيدِهِ اليُمنى، وأحاطَ بعنقِه، وقبّلَه بفرحٍ في عينَيْه. وقالَ لهما: «افرحا، يا جنديَّيِ المسيحِ ووارثَيِ الملكوتِ. ها البوّابةُ السّماويّةُ فُتِحَتْ من أجلِنا، والملائكةُ آتون ليأخذوا أرواحَنا، ويقودوها إلى الابنِ الوحيد». ثمّ قالَ للمُرسَلين: «نفِّذوا الأمرَ الّذي تلقّيتموه».

ارتدى لونجينوس لباسَ الاحتفالِ، كأنّه مدعوٌّ إلى عرسٍ ويَستعجِلُ الذّهاب. ركعَ على ركبتَيْهِ مع مُرافِقَيْه، وأتمّوا جهادَهم - يا للموتِ المَغبوط! - بعدَ أن قُطِعَتْ هاماتُهم، سُجِّلَتْ أسماؤُهم في أجواقِ الشّهداء.

- من حياةِ القدّيسةِ ثيوذورا -

بعضُ الرّهبانِ الّذينَ كانوا يَنسكونَ مع القدّيسةِ ثيوذورا[489] حقَدوا عليها كثيرًا بداعي الحَسَدِ، لرؤيتِهم إيّاها ترتقي في سلّمِ الفضيلة. أرسلوها، خفيةً عن رئيسِ الدّيرِ، لتحمِلَ رسالةً إلى أحدِ المناسكِ، رسالةً طارئةً ظاهريًّا، وتستلزمُ جوابًا عاجلاً. ولكنّها، في الحقيقةِ، كانَتْ حيلةً لرميِها فريسةً للوحوشِ الضّاريةِ، بما أنّه عليها التّنقّلُ ليلاً. وعلى هذه الطّريقِ المُنعزلةِ،

٤٨٩. عاشت القدّيسة ثيوذورا في هذا الدّير متنكّرةً بلباس راهب..

كانَتِ الحيواناتُ المُتوحِّشةُ تترقّبُ غنيمتَها. إلاّ أنّ مؤامرةَ العدوِّ هذه باءَتْ بالفشلِ، أو بالأحرى جلبَتْ نتيجةً مُعاكسةً.

بتدخّلٍ إلهيٍّ، اقتربَ وحشٌ من القدّيسةِ بعدَ أن أضلَّتِ الطّريقَ، وصارَ مرشدَها الأمينَ، وبقيَ إلى جانبِها، حتّى وصلا إلى الدّيرِ الّذي أُرسلَت إليه. ولكن، حتّى في ذلك الحينِ، لم يترُكْها. عندما دخلَتِ القدّيسةُ إلى الدّيرِ، دخلَ الحيوانُ معها. وفيما ذهبَتْ إلى رئيسِ الدّيرِ لتُسلِّمَه الرّسالةَ، انقضَّ الوحشُ على البوّابِ، وكادَ يمزِّقُه إلى أشلاءٍ لو لم يصرُخْ هذا الأخير. تجمَّعَ الكلُّ، وكذلك استدارَتِ المغبوطة. عندما فهِمَتْ سببَ هذه الفوضى، سارعَتْ نحو الرّجلِ، وأمسكَتِ الوحشَ من عنقِهِ بشجاعةٍ، واختطفَتِ الرّاهبَ الّذي أزمَعَ الوحشُ أن يلتهمَهُ، وهكذا أنقذَتْهُ من الموت. ثمّ شَفَتْهُ بدهنِ أعضائِه المجروحةِ بالزّيتِ، داعيةً اسمَ المسيح. أمّا بالنّسبةِ إلى الوحشِ، فجعلَتْه يَسقُطُ على الأرضِ ويموت.

تمنَّتِ القدّيسةُ أن يبقى ذلك كلُّه سرّيًّا. ولدى عودتِها، لم تكشِفْ شيئًا للرّهبان. أمّا أولئك الّذينَ انتفَعوا من تدخُّلِها، فأتَوا في الصّباحِ الباكرِ ليخبروا عفويًّا ما حدثَ بصلواتِ ثيوذورس، وأنّ إنسانًا خَلُصَ من موتٍ شنيعٍ، من أنيابِ وحشٍ كادَ يلتهمُه. أذهلَتْ أقوالُهم رئيسَ الدّيرِ. وفي حَيْرَتِهِ، سألَ عمّن أرسلَ ثيوذورس إلى ذلك المكان. وبما أنّ الجميعَ أنكرَ ذلك، حدّقَ بنظرِهِ إلى القدّيسةِ، وسألَها: «مَن هو هذا، يا ثيوذورس، الّذي استعجلَكَ لتحمِلَ الرّسالةَ إلى ذلك المكانِ، في ساعةٍ غيرِ ملائمةٍ من اللّيلِ، والخطرُ مُحدِقٌ؟» أنظُرْ، أيّها القارئُ، إلى استقامةِ نفسٍ اكتسبَتِ التّواضُعَ، وتحترِسُ من إدانةِ الإخوة! أجابَ ثيوذورس: «في هذه السّاعةِ، بما أنّ عينَيَّ الرّوحيّتَيْنِ والجسديّتَيْنِ مُثقلتانِ بالنّعاسِ، لستُ بقادرٍ على أن أحدِّدَ بالقولِ أسماءَ مَن أرسلوني».

- عن كتابِ الشّيخ -

١- أخبرَ عن الأبِ موتيوس تلميذُهُ الأبُ اسحق أنّ الشيخَ بنى مَنسكَهُ أوّلاً في هيراقليا. ثمّ تركَهُ، ومضى إلى موضعٍ آخرَ حيثُ بنى منسكًا آخر. ولكن، بتحريضٍ من الشّيطانِ، وجدَ هناك أخًا يُعاديه ويُزعجُه. عندئذٍ،

عادَ الشّيخُ إلى قريتِهِ حيثُ بنى منسكًا، واعتزلَ فيه.

بعد مدّةٍ، جاءَ إليه شيوخُ النّاحيةِ الّتي غادرَها، جالبينَ معهم الأخَ الّذي كانَ يُعاديه، ليطلبوا إليه العودةَ إلى مَنسكِهِ القديم. لمّا دنَوا من مَسكَنِ الأبِ موتيوس، تركوا أمتعتَهم مع الأخِ الّذي أحزنَه. ولمّا قرَعوا البابَ، وضعَ الشّيخُ السّلّمَ على الحائطِ، وتسلّقَه، وانحنى من الشّباكِ لينظر. لمّا عرفَ زائريه، قالَ لهم: «أين أمتعتُكم؟» قالوا: «ليس بعيدًا من هنا، إنّها مع الأخِ فلان».

عندما سَمِعَ الشّيخُ اسمَ الأخِ الّذي كانَ يُزعِجُهُ، ضربَ البابَ بالفأسِ وكسرَه[٤٩٠] من فرحِهِ، وطَفِقَ يركضُ إلى موضعِ الأخ. ما إن رآه حتّى بادرَ إلى صنعِ مطّانيّةٍ له، وعانقَهُ، وأدخلَهُ إلى قلاّيتِه. ولثلاثةِ أيّامٍ اعتنى بهم، وابتهجَ معهم بدورِهِ، وهذا أمرٌ لم يعتدِ القيامَ به. ثمّ نهضَ وذهبَ معهم. في ما بعدُ، صارَ أسقفًا، وكان بالفعلِ صانعَ عجائب. أمّا تلميذُهُ إسحق، فقد رسمَهُ المغبوطُ كيرلُّس أسقفًا أيضًا.

٢- قالَ الأبُ بيمنُ: «الشّرُّ لا يُبطِلُ الشّرَّ أبدًا. فإن أساءَ إليكَ أحدُهم، فافعَلِ الخيرَ معه كي تدحضَ الشّرَّ ببرِّكَ».

٣- أُسلِم أحدُ المؤمنينَ المسيحيّينَ من أَمَتِه إلى الاستشهاد. عندما أخذوه ليقتلوه، رأى تلك الأمَةَ الّتي وشَتْ به، فأخرجَ خاتمَه الذّهبيَّ من إصبعِهِ، وأعطاها إيّاه، قائلاً: «أشكرُكِ لأنّك سبّبتِ لي خيراتٍ كهذه».

٤- يُخبِرونَ عن أخٍ، جارِ شيخٍ كبيرٍ، أنّه كانَ يسرقُهُ عندما يزورُهُ في قلاّيتِه. وكان الشّيخُ يراه ولا يوجِّهُ له أيّةَ مَلامةٍ، بل يُضاعِفُ عملَهُ، قائلاً: «لا شكَّ في أنّ الأخَ محتاجٌ»، مع أنّ الشّيخَ كانَ في ضيقٍ شديدٍ، وبالكادِ يُحَصِّلُ قوتَه. وعندما أشرفَ على الموتِ، أحاطَ به الإخوةُ. فلمّا رأى سارقَه، قالَ له:

---

٤٩٠. لشدّةِ استعجالِه، فالبابُ كانَ مغلقًا بما أنّ الشّيخَ كانَ يعيشُ حبيسًا.

«اقترِبْ!» وقبَّلَ يدَيْه، قائلاً: «أشكرُ هاتَيْن اليدَيْن لأنّني، بفضلِهما، أذهبُ إلى ملكوتِ السّماوات». حينئذٍ، شعرَ الأخُ بالتّخشّعِ وتابَ وصارَ راهبًا مختبرًا، بسببِ فعلِ الشّيخِ الكبيرِ معه.

٥- قالَ شيخٌ: «إن علمْتَ أنّ أحدَهم يَكرهُكَ، ويتحدّثُ عنكَ بالسّوءِ، فأرسِلْ له بركةً[٤٩١] صغيرةً أو أعطِهِ إيّاها، حسبَ مقدرتِكَ، لتكونَ لكَ الدّالّةُ في ساعةِ الدّينونةِ على أن تقولَ: «اغفِرْ لنا ما علينا كما غفَرْنا، نحن أيضًا، لِمَن لنا عليه»[٤٩٢].

٦- أضاعَ أخٌ مسافرٌ سيرًا على الأقدامِ طريقَه. فسألَ بعضَ النّاسِ أن يدلّوه على الطّريق. ولكنّهم كانوا أشرارًا، وسخِروا منه، مُرسِلينَ إيّاه إلى أماكنَ صحراويّة. رافقَهُ أحدُهم ليسلبَهُ مالَهُ بالقوّةِ، ودفعَهُ إلى اجتيازِ قناةِ مياهٍ. وفيما هما على وشكِ اجتيازِها، هجمَ تمساحٌ ناحيةَ اللّصّ. لم يُظهِرْ خادمُ اللّهِ لامبالاةً، بل نادى الإنسانَ الشّرّيرَ، مُنَبِّهًا إيّاه إلى هجومِ الوحش. هكذا نجا اللّصُّ، وشكرَ الأخَ مُتعجِّبًا من محبّتِه.

٧- قالَ شيخٌ[٤٩٣]: « إن أتى إلى فكرِكَ مَن أحزنَكَ، أو أهانَكَ، أو أضرَّ بكَ، فعليك أن تتذكّرَهُ كطبيبٍ أرسلَهُ إليك المسيحُ، وتحسَبهُ مُحسِنًا. إن تضايقْتَ بسببِهِ، فهذا يُظهِرُ، بوضوحٍ، أنّ نفسَكَ مريضةٌ. فلولا مرضُكَ، لَما كنتَ تعاني. عليكَ إذًا أن تشكرَ الأخَ، وتصلّيَ من أجلِه، لأنّك، بفضلِهِ، عَلِمْتَ بمرضِكَ. وعليك أن تقبلَ ما يفعلُهُ بكَ كأدويةٍ شافيةٍ أرسلَها يسوع. أمّا إن حَزِنْتَ من الأخِ، فكأنّك تقولُ ليسوعَ: «لا أريدُ تناولَ أدويتِك. أفضِّلُ أن أتعفّنَ في جراحاتي!».

فمَن يُريدُ أن يُشفى حقًّا من جراحاتِ نفسِهِ، عليه أن يحتمِلَ ما يفعلُهُ الطّبيبُ، مهما يَكُنِ الأمر. فالمريضُ جسديًّا لا يقبَلُ طوعيًّا الخضوعَ

٤٩١. هديّة، في اللّغةِ الرّهبانيّة. ٤٩٢. مت ٦، ١٢

٤٩٣. الأب زوسيما. أنظر المقطع المشابه في الفصل الثّاني.

لعمليّةٍ جراحيّةٍ، أو لعلاجٍ بالكيِّ، أو لأخذِ دواءٍ مُرّ. بل بالأحرى، ينفرُ من هذه الأمورِ، لِمجرّدِ التّفكيرِ فيها. ولكنّه، بعدَ أن يقتنعَ باستحالةِ التّخلّصِ من مرضِهِ من دونِها، يحتملُها بشجاعةٍ، شاكرًا الطّبيبَ، وعارفًا جيّدًا أنّه، بقليلٍ من الانزعاجِ، سيتخلّصُ من مرضٍ مزمنٍ.

الإنسانُ الّذي يؤذيكَ، أو يُهينُكَ، هو في الحقيقةِ مكواةٌ مُرسَلةٌ من يسوعَ، ليُخلِّصَكَ من المجدِ الباطل. هو كدواءٍ مرٍّ يَستعملُهُ يسوعُ، ليحرّرَكَ من الطّمع. ولكنّك إن تجنّبتَ تجربةً مُفيدةً، تجنّبتَ الحياةَ الأبديّة. فمَن الّذي وهبَ القدّيسَ استفانوسَ مجدًا كبيرًا سوى راجميه؟».

٨- كانَ بطريركٌ يُدعى ألكسندروسَ في مدينةٍ تُدعى «ثيوبوليس[٤٩٤]». سرقَ أحدُ أمناءِ سرِّهِ الذّهبَ الّذي يحفظُهُ من مُدّخراتِ الكنيسةِ، وفرّ. ولكنّه تاهَ في الطّريقِ، ووقعَ بين أيدي برابرةٍ متوحّشينَ من مصرَ سلبوه الذّهبَ، وقادوه إلى صقعٍ بعيدةٍ من بلادِهم. عندما علِمَ البطريركُ بذلك، أرسلَ أحدَهم ليفتديَهُ بخمسٍ وثمانينَ قطعةَ نقودٍ ذهبيّة. وعندما عادَ أمينُ السّرِّ، تصرّفَ البطريركُ ألكسندروسُ معه بكلِّ رأفةٍ ومحبّةٍ، بحيثُ أنّ بعضَ سكّانِ المدينةِ قالوا مُنذهلينَ إنّه لا شيءَ أكثرُ إفادةً من أن يُخطئَ أحدُهم إلى البطريرك.

٩- أخبرَ المغبوطُ زوسيما أنّ أحدَ الشّيوخِ كانَ يعيشُ بجوارِ ديرِ شَركة. تمتّعَ بطيبةٍ كبيرةٍ، ووداعةٍ فائقةٍ، ولهذا السّببِ، أحبَّهُ رهبانُ ديرِ الشّركة كثيرًا وكانوا يوقّرونَه. وسَكَنَ أخٌ آخرُ بالقربِ من الشّيخِ. ذاتَ يومٍ، فيما الشّيخُ غائبٌ، ذهبَ الأخُ، بتحريضٍ من الشّرّيرِ، وفتحَ قلاّيةَ الشّيخِ، ودخلَ إليها، وأخذَ كلَّ أغراضِهِ وكتبِهِ، ورحل.

بعد قليلٍ، عادَ الشّيخُ، ووجدَ قلاّيتَهُ مَفتوحة. دخلَ إليها، ولم يجِدْ أغراضَه. ذهبَ إلى الأخِ ليُعلِمَهُ بما حصلَ له. وقفَ خارجَ قلاّيةِ الأخِ، وناداه.

---

٤٩٤. ثيوبوليس = مدينة الله، أنطاكية الكبيرة، كانت عاصمة سوريا.

ولكنّه، عندما رأى أغراضَهُ في القلاّيةِ (لأنّه لم يتسنَّ للأخِ الوقتُ لإخفائِها)، لم يُرِدْ أن يوبِّخَهُ ولا أن يُضايقَهُ. فاتّخذَ حجّةَ ضرورةٍ عاجلةٍ - أنَّ بطنَهُ يُزعجُهُ - ليبتعدَ عن قلاّيةِ الأخِ، وانتظرَ وقتًا كافيًا ليتسنّى للأخِ أن يُلَملِمَ الأغراضَ من وسطِ قلاّيتِه. ثمّ عادَ إلى الأخِ، وبدأَ يُحَدِّثُهُ عن موضوعٍ آخرَ، من دونِ أن يذكرَ قلاّيتَهُ، أو الأغراضَ الّتي أضاعَها.

بعد أيّامٍ، تعرّفَ بعضُ أصدقاءِ الشّيخِ إلى أغراضِه، فأمسكوا بالأخِ، ووضعوه في السّجنِ، من دونِ إعلامِ الشّيخِ بذلك. لدى سماعِهِ باعتقالِ الأخِ، ومن دونِ أن يعرفَ السّببَ، ذهبَ الشّيخُ إلى رئيسِ الدّيرِ المجاورِ (كان رئيسُ الدّيرِ وجميعُ الإخوةِ يَحترمونَ هذا الشّيخَ لفضيلتِهِ الكبيرةِ، كما ذكرْنا أعلاه)، وقالَ له: «إعمِلْ مَعروفًا، وأعطِني بعضَ البيضِ والخبزَ الأبيض». سألَه رئيسُ الدّيرِ: «هل لديكَ زوّارٌ، يا أبتِ؟» أجابَ الشّيخُ: «نعم». فأمرَ رئيسُ الدّيرِ بإعطائِهِ مرادَه. أخذَ الشّيخُ الخبزَ والبيضَ، وذهبَ إلى السّجنِ لزيارةِ الأخ.

عندما رآه الأخُ، سارعَ إلى الارتماءِ عند قدمَيْه، قائلاً: «سامِحْني؛ بسببِكَ أنا هنا. لقد سرقْتُ أغراضَك. كتبُكَ في المكانِ الفلانيِّ، وثيابُكَ في المكانِ الآخر». وأخبرَهُ عن مكانِ وجودِ كلِّ غرض. أجابَهُ الشّيخُ: «اطمئِنَّ، يا بُنيَّ، فأنا لم آتِ إلى هنا من أجلِ ذلك. لم يَكُنْ لديَّ أدنى فكرةٍ أنّك هنا بسببي. سمعْتُ أنّهم رمَوك في السّجنِ، ولكنّني لم أعلَمِ السّببَ. ولأنّني شعرْتُ بالأسفِ لأجلِكَ، أتيتُ لأخفِّفَ من شدّتِكَ، وجلبْتُ لكَ بعضَ الطّعامِ. أنظُرْ هنا ما جلبْتُ إليكَ من بيضٍ وخبز. ولكن، بما أنّني علمْتُ الآنَ أنّكَ اعتُقِلتَ بسببي، سأفعلُ ما بوسعي لإخراجِكَ من السّجنِ، بمعونةِ اللّه».

فذهبَ الشّيخُ ليرفَعَ دعواه إلى بعضِ الأشخاصِ المُقتدرينَ في العالمِ، الّذينَ عرفوه جيّدًا بسببِ فضيلتِهِ، فأرسلوا أناسًا، وأخرجوا الأخَ من سجنِه.

الفصل الحادي والأربعون

يجبُ ألاّ نَمقُتَ إنسانًا.

- عن كتابِ الشّيخ -

زارَ أخٌ الأبَ بيمن. وأثناءَ جلوسِهِ مع آخرينَ من الإخوة، مَدَحَ هذا الأخُ أحدَهم لِمقتِهِ الشرّ. فسألَهُ الأبُ بيمن: «وما معنى مقتُ الشرِّ؟» فتحيّرَ الأخُ ولم يجِدْ ما يُجيبُهُ به. فنهضَ وعملَ مطّانيّةً أمامَ الشّيخ، قائلاً: «قُلْ لي، يا أبتِ، ما معنى مقتُ الشرِّ؟» أجابَ الشّيخُ: «إنّ مَقْتَ الشّرّ هو أن يمقتَ الإنسانُ خطاياه، ويُبَرِّئَ قريبَه».

- عن القدّيسِ ذياذوخس -

في أوّلِ المطافِ، تُزعجُ النّفسَ الّتي انجذبَتْ إلى اللّهِ أهواءٌ كثيرةٌ، لا سيّما الغضبُ والبغضُ. وليس هذا من فعلِ الشّياطينِ بقدرِ ما هو بسببِ تقدّمِها الرّوحيِّ عينِه. فإنّ النّفسَ ما دامَتْ تنجذِبُ إلى الفكرِ العالميِّ، لا تنفعِلُ ولا تضطربُ، بأيّةِ طريقةٍ، لرؤيتِها أناسًا يدوسونَ الحقَّ، بما أنّها منشغلةٌ برغباتِها، فلا تهتمُّ ببرِّ اللّه. أمّا إن بدأَتْ تتخطّى أهواءَها، فلا تحتمِلُ رؤيةَ مخالفةِ البرِّ، حتّى ولو في الحُلمِ، لأنّها تزدري الحاضراتِ، وتحبُّ اللّه. على العكسِ، تغضبُ وتغتاظُ ضدَّ فاعلي الشّرِّ، إلى أن ترى مُهيني العدلِ الإلهيِّ يتوبونَ بفكرٍ تقويٍّ أمامَ سلطتِه. لهذا، فهي تُبغِضُ الظّالمينَ، وتُحِبُّ الأبرارَ كثيرًا، لأنّ عينَي النّفسِ تتوقّفان عن التّيهِ عندما يَرُقُّ سترُها، أي الجسدُ، ويصيرُ شفّافًا. إلاّ أنّ البكاءَ على عدمِ إحساسِ الظّالمينَ أفضلُ بكثيرٍ من بُغْضِهم. فحتّى ولو كانوا يستحقّونَ البُغضَ، إلاّ أنّ العقلَ لا يُريدُ أن تنزعجَ النّفسُ المُحِبّةُ للّهِ بسببِهِ، لأنّه ما دامَ البغضُ قائمًا في النّفسِ، فالمعرفةُ

الرّوحيّةُ لا تفعلُ فيها.

- عن القدّيسِ إسحق -

لا تُبغِضِ الخاطئَ، لأنّنا كلّنا سنؤدّي حسابًا. وإن حثّتكَ غيرتُكَ للّهِ على الغضبِ منه، فابكِ من أجلِه ولا تكرَهْه. إكرَهْ خطاياه، أمّا هو، فصلِّ من أجلِه، لتُشبِهَ المسيحَ الّذي لم يسخَطْ على الخطأةِ، بل صلّى من أجلِهم بحرارةٍ[٤٩٥]، حتّى أنّه بكى على أورشليم[٤٩٦]. ولماذا نحتقِرُ بدورِنا مَن سخِرَ منه عدوُّنا المُشترَكُ ونبغضُه، فيما يسخرُ الشّيطانُ منّا نحن أنفسِنا في أحوالٍ كثيرةٍ؟ إن كرِهْتَ الخاطئَ لاعتبارِهِ غيرَ فاضلٍ مثلِك، تُظهِرْ بهذا أنّكَ أنتَ خاطئٌ بسببِ عدمِ امتلاكِكَ المحبّة. مَن لا يملُكِ المحبّةَ، لا يملُكِ اللّهَ، بما أنّ اللّهَ محبّة[٤٩٧].

إذًا، لا تكرَهِ الخاطئَ ولا تُدِنْه، بل بالرّأفةِ كُن مُبشِّرًا بصلاحِ اللّهِ الّذي يَعتني بكَ فيما أنتَ غيرُ مستحقٍّ، ولا يرذُلُكَ، ولا يُبغِضُكَ، ولا يُعاقِبُكَ على ديونكِ الكثيرةِ والكبيرة. اقْتَدِ أنتَ أيضًا، قدرَ المستطاعِ، برأفتِهِ وصلاحِه، وارأفْ بمَن هو عبدٌ مثلُكَ[٤٩٨]، حتّى إذا أظهرْتَ قليلاً من الرّأفةِ، تنالُ من اللّهِ رأفةً أكبرَ بكثير.

---

٤٩٥. أنظر لو ٢٣، ٣٤.
٤٩٦. لو ١٩، ٤١.
٤٩٧. ١ يو ٤، ٨ و ١٦.
٤٩٨. أنظر مت ١٨، ٣٣.

الفصل الثّاني والأربعون

الحقدُ مُميتٌ، ويُبْطِلُ كلَّ عملٍ روحيٍّ، ويُبعِدُ عنّا رأفةَ اللّه. كيفَ نتصدّى له.

- من قصّةِ استشهادِ القدّيسِ نيكيفورس -

ربطَتْ صداقةٌ حميمةٌ بينَ الكاهنِ سابريكيوس والمغبوطِ نيكيفورس الّذي كانَ علمانيًّا. أحبّا بعضَهما كثيرًا بحيثُ بدا لكلٍّ منهما أنّه يعيشُ في نفسِ الآخر. ولكنَّ خلافًا نَشَبَ بينهما، بتأثيرِ حَسَدِ العدوِّ، ودمَّرَ تلك الصّداقةَ، وحوَّلَها إلى عداوةٍ نافرةٍ، إلى حدِّ أنّه لم يعُدْ أحدُهما يستطيعُ احتمالَ رؤيةِ الآخرِ. فإنْ حدثَ والتقيا في مكانٍ ما، كانَ كلُّ واحدٍ منهما يُديرُ وجهَه، إذ إنّه لا يطيقُ النّظرَ إلى الآخر. في الواقعِ، عندما تتحوَّلُ الصّداقاتُ العظيمةُ إلى عداوةٍ، تصيرُ كُرهًا موازيًا للمَودّةِ السّابقة.

لكنّ نفسَ المغبوطِ نيكيفورسَ كانَتْ طيِّبةً ورؤوفةً، فتخطّى سريعًا هذا الهوى لأنّه عرفَ جيّدًا مَن هو المُسبِّبُ الحقيقيُّ للخلافِ، وسعى بحماسةٍ حارّةٍ ليستعيدَ جمالَ المحبّة. في البدايةِ، أرسلَ بعضَ معارفِهِ للتّكلُّمِ إلى صديقِهِ مُلقيًا الخطأَ على ذاتِه، وطالبًا المُسامحةَ بحرارة. ولكنّ سابريكيوسَ استمرَّ في عنادِهِ وقساوتِهِ غيرَ راغبٍ أبدًا في وضعِ حدٍّ لهذه العداوةِ، على الرّغمِ من أنّه كاهنٌ يحتفلُ بالذّبيحةِ الإلهيّةِ، وخادمُ المسيحِ المُسالمِ المُتواضعِ الحَليم، وهو يُعَلِّمُ رعيّتَهُ عن الفضائلِ، بما فيها عدمِ الضّغينة. حينئذٍ، ذهبَ نيكيفورسُ الوديعُ نفسُهُ إلى سابريكيوس، في وقتٍ مناسبٍ، وسجدَ عند قدمَيْه، وتوسّلَ إليه بدموعٍ حارّةٍ أن يتخلّى عن عداوتِهِ ليستعيدا صداقتَهما. ولكنّ سابريكيوس لم يتأثَّرِ البتّةَ، ولم يخفِّفْ حدّةَ غضبِه، على الرّغمِ من أنّه

المُذنبُ في سوءِ التّفاهمِ هذا. للحالِ، دفعَ عنه نيكيفورسَ، وتابعَ طريقَهُ، من دونِ أن يتوجَّهَ إلى صديقِهِ بكلمةٍ أو سلامٍ أو مجرّدِ نظرة.

فيما استمرَّ الوضعُ بينهما على هذه الحالِ، الواحدُ يَستَنْفِدُ الوسائلَ في سبيلِ استعادةِ صداقتِهما القديمةِ، والآخرُ يرفُضُ وضعَ حدٍّ لبُغْضِه، ثارَتْ موجةٌ جديدةٌ من الاضطهاداتِ ضدَّ المسيحيّين. فحالما صارَ يوليانوسُ إمبراطورًا، أمرَ أن يُخضَعَ جميعُ المسيحيّينَ في مملكتِهِ لعذاباتٍ رهيبةٍ، ويُقتَلوا إن لم يُنكِروا إيمانَهم.

عندما وصلَ هذا المرسومُ إلى المدينةِ الّتي يسكُنُها نيكيفورسُ وسابريكيوسُ، أُوقِفَ هذا الأخيرُ للحالِ، لأنّهُ معروفٌ أكثرَ بسببِ رتبتِهِ الكهنوتيّة. تمَّ استجوابُهُ بحسبِ أمرِ الحاكمِ، وضَغطوا عليه ليُنكِرَ إيمانَه. ولكنّه قاوَمَ بشجاعةٍ، ولم يتوصَّلْ أحدٌ إلى إقناعِهِ بالتّجديف. بعدَ أن فقدَ الحاكمُ الأملَ في إقناعِهِ، لجأَ إلى التّعذيب. في البَدءِ، وضعوه على الحمّالةِ الرّهيبةِ، وجعلوا يمّطونَ جسدَه ويَلوونَهُ بآليّاتٍ وطرائقَ مختلفة. ظنَّ النّاسُ جميعُهم أنّ قوّةَ احتمالِهِ ستنهارُ، أو أنّ جسدَه سينحلُّ ويَختفي، أو أنّ قواهُ ستضعُفُ، وتَحرمُهُ كثرةُ العنفِ الحياةَ الحاضرة. ولكنّ سابريكيوسَ احتملَ هذه السّلسلةَ من العذاباتِ، ولم يُنكِرْ إيمانَهُ بكلمةٍ، ففقدَ المضطهِدُ الأملَ بجعلِهِ يُغيِّرُ رأيَه، وأصدرَ بحقِّهِ حكمَ الموتِ، آمرًا بقطعِ رأسِهِ بالسّيف.

حينئذٍ، اقتيدَ المحكومُ عليه إلى مكانِ الإعدام. عندما عَلِمَ نيكيفورسُ أنّ سابريكيوسَ يسيرُ نحوَ مَثْواهُ الأخيرِ، وجدَهُ الوقتَ المناسبَ لإجراءِ المُصالحةِ الّتي يرغَبُ فيها. فسارعَ إلى قربِ سابريكيوسَ، وسجَدَ عندَ قدمَيْه، وتوسَّلَ إليه بحرارةٍ؛ رجاهُ ألاّ ينفصِلَ عن صديقِهِ من دونِ مسامحتِه، بل أن يعفوَ عن الخاطئ. معَ ذلك، فيما الواحدُ يبتهِلُ عند قدمَيْ أخيهِ ساكبًا دموعًا حارّةً، كانَ الآخرُ – يا للنّفسِ القاسيةِ البربريّةِ! – لا يُعيرُ صديقَهُ المُنطرحَ عندَ قدمَيْه أدنى التفاتةٍ، ولا يتأثّرُ بشكواهُ، ولا بإحساسِهِ العميق. بل خَتَمَ أذنَيْهِ بشمعِ الضّغينةِ، وأسرعَ الخُطى مُريدًا أن يبتعدَ بسرعةٍ عن ابتهالاتِ صديقِهِ الوديّةِ ونداءاتِه.

لكنّ هذا الموقفَ لم يُفقِدْ نيكيفورسَ المثيرَ للإعجابِ أملَه، بل أخذَ

طريقًا مُختصَرَةً، وركضَ بأقصى سرعتِهِ ليُلاقيَ سابريكيوسَ في مكانٍ آخرَ من المدينة. هناك، كرّرَ الابتهالاتِ الحارّةَ نفسَها، واستحضَرَ أشياءً مؤثِّرَةً أخرى أيضًا. توسّلَ الرّأفةَ، لا بكلامِهِ فحسبُ، بل بكلِّ حركاتِهِ، وتعابيرِهِ، ودموعِهِ الغزيرةِ، كأنّه عرّى نفسَهُ كلّيًا. ولكنَّ سابريكيوسَ بقيَ، كالصّخرِ، أصمَّ عن ابتهالاتِه، ووصلَ إلى مكانِ الإعدامِ في حالةٍ من العدائيّةِ، والغضبِ، والسّخط.

في اللّحظةِ الّتي كانَتْ يدُ الجلاّدِ المُمسِكةُ بالسّيفِ على وشكِ الارتفاعِ، وتوجَّبَ على سابريكيوسَ أن يحنيَ عُنُقَهُ، في السّاعةِ الّتي كانَ الإكليلُ فوقَ رأسِه، والمحكومُ عليه يَستعدُّ للانتقالِ إلى سيّدِ الجهادِ بمجدٍ كثيرٍ، في اللّحظةِ الّتي راحَ الجلاّدونَ يُطوونَ رُكبتَيْه ليقطعوا له رأسَه، حصلَ شيءٌ رهيبٌ: أظلمَتْ نفسُهُ كلّيًا بسببِ الضّغينة، كأنّه نَسِيَ الأكاليلَ الّتي في متناولِ يدَيْه، أو باتَ يجهَلُ بين يدَيْ مَن هو، فسألَ حُرّاسَهُ، وكأنّه فقدَ عقلَهُ وجُنَّ، عن سببِ إعدامِه. أجابوه: «لأنَّكَ احتقرْتَ الأوامرَ الملَكيّةَ، ورفضْتَ التّضحيةَ للآلهة». حينئذٍ، - يا للمُصيبة! يا لها من سقطةٍ رهيبةٍ بسببِ الضّغينة! - أعلنَ سابريكيوسُ أنّه غيرُ مؤمنٍ، على غرارِ هؤلاءِ الّذينَ يَقبضونَ عليه، ومن دونِ أيِّ خجلٍ، أنكرَ الإيمانَ أمامَ الجميع.

أغرقَ هذا المشهدُ نيكيفورسَ، رجلَ اللّهِ، في حزنٍ عميق. وبحرارةٍ أشدَّ، توسّلَ إلى سابريكيوسَ: «يا أخي وأبي، لا تقبَلْ بأن تخونَ اللّهَ الّذي جلبَكَ إلى الوجودِ، والّذي إليه ستعودُ عندما تموت. لا تحتقِرْ نواميسَ التّقوى، ولا تُنكِرِ الاعترافَ الّذي قدّمْتَهُ أمامَ اللّهِ والملائكة. احترِمْ عذاباتِكَ السّابقةَ من أجلِ المسيحِ، تلكَ التّلويات الرّهيبةَ للحمّالةِ، وإرهاقَ جسدِكَ غيرَ الاعتياديّ. احترِمْ رتبةَ الكهنوتِ العظيمة. لا تَصِرْ مثلاً سيِّئًا للآخرينَ، ونموذجًا لعدمِ التّقوى. أتوسَّلُكَ وأنا راكعٌ، يا صديقي، وأُقبِّلُ قدمَيْك، لا تُنْكِرِ اعترافَكَ بالثّالوثِ القدّوس. ها إنّ الأكاليلَ في مُتناولِ يدَيْك، وأكليلُ الاستشهادِ تقريبًا يكادُ يوضَعُ على رأسِك».

وجَّهَ نيكيفورسُ هذه الابتهالاتِ إلى صديقِهِ ونفسُهُ تتمزّق. إلاّ

أنّها لم تُلطِّفْ سابريكيوسَ، ولا لَيَّنَتْ قلبَهُ الّذي شابَهَ قلبَ فرعون[٤٩٩]. فَضَّلَ إنكارَ إيمانِهِ على التّخلّي عن الضّغينة. فما بَقِيَ لنيكيفورسَ الفاضلِ، المُشتعلِ بحماسةٍ حارّةٍ في سبيلِ التّقوى، سوى أن يأخذَ مكانَهُ في الاستشهاد. أعلنَ الاعترافَ بالإيمانِ نفسِهِ طالبًا الموتَ نفسَهُ، وحنى عُنَقَهُ أمامَ السّيفِ، مُسلِّحًا هكذا يدَ الجلاّدِ ضدَّ ذاتِهِ بشجاعةٍ كبيرة.

لكنّ المُعذِّبينَ امتنَعوا عن التّصرُّفِ حيالَ نيكيفورسَ بشيءٍ قبلَ أن تُعرَضَ مسألتُهُ على الحاكمِ، وهو يَبُتُّ في أمرِه. وما إن ذهبَ أحدُ الشّهودِ مُسرِعًا إلى الحاكمِ، وأعلَمَهُ بالمسألةِ، حتّى أصدرَ هذا الأخيرُ القرارَ بإعدامِ المُعترِفِ بإيمانِه. وعندما استلَمَ الجلاّدونَ حكمَ الإعدامِ المكتوبِ، أُعدِمَ نيكيفورسُ الشَّهمُ بالسّيف. هكذا، بوقتٍ قصيرٍ وألمٍ قليلٍ، ربحَ ملكوتَ السّماواتِ، وأُظهِرَ غالبًا بالفعلِ كما بالاسمِ[٥٠٠].

بالنّتيجةِ، لا تستطيعُ المشقّاتُ، ولا الأتعابُ، ولا الآلامُ الجسديّةُ أن تُتْحِدَنا باللّهِ، كما يستطيعُ حنوُّ النّفسِ، ورأفتُها، ومحبّةُ أخينا الإنسان. لقد أمرَنا ربُّنا[٥٠١] ومعلِّمُنا نفسُه بأن نُطبِّقَ هذه الفضائل.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ الأبُ مكاريوسُ: «إذا تذكَّرْنا الشّرورَ الآتيةَ إلينا من النّاسِ، فإنّنا بذلك نقطَعُ من نفوسِنا قوّةَ ذكرِ اللّه. أمّا إن لم نحفَظْ ذكرَ الشّرورِ الّتي تألَّمْنا بسببِها، فلا يستطيعُ الشّياطينُ شيئًا ضدَّنا».

٢- قالَ شيخٌ: «عادةً، مَن يسرُقْ أو يكذِبْ أو يرتكِبْ أيّةَ خطيئةٍ أخرى، تَجعَلْهُ الخطيئةُ المُقترَفةُ يدنو من التّوبة. أمّا مَن يحفَظُ الحقدَ في نفسِه، فإن أكَلَ أو نامَ أو سارَ، يتآكَلُهُ الحقدُ كأنّه سُمٌّ، وتبقى خطيئتُهُ فيه على الدّوامِ؛ تُصبِحُ صلاتُهُ مَلعونةً، ولا يَقبَلُ اللّهُ تعبَهُ كلَّه، حتّى ولو سَكَبَ

---

٤٩٩. أنظر خر ٧، ٣.

٥٠٠. أصلُ اسمِ نيكيفورسَ يونانيٌّ، وهو يعني في اللّغةِ العربيّةِ «غالب» أو «منتصِر».

٥٠١. أنظر يو ١٣، ٣٤. ١٥، ١٢.

دمَهُ من أجلِ المسيح».

٣- مضى أخٌ أهانَهُ آخرُ إلى شيخٍ يعيشُ في منطقةِ القلالي، وقالَ له: «يا أبتِ، لقد أهانَني أحدُ الإخوةِ، والشّيطانُ يُجرِّبُني لأنتقمَ منه». أجابَ الشّيخُ: «اسمَعْ، يا بُنيَّ، اذهَبْ إلى قلاّيتك، واحبِسْ نفسَكَ مُصلّيًا بحرارةٍ إلى اللّهِ من أجلِ هذا الأخِ الّذي ظلمَكَ، فتتخلّصَ سريعًا من هذا الهوى». تصرَّفَ الأخُ كما أشارَ عليه الشّيخُ، وبعد أسبوعٍ، محا اللّهُ منه كلَّ أثرٍ للغضبِ، بسببِ المجهودِ الّذي بذلَهُ، وطاعتِهِ للشّيخ.

٤- في زمنِ الاضطهاداتِ، قُبِضَ على مسيحيَّيْن، وَاقْتِيدا إلى الاستشهاد. بعدَ التّعذيباتِ الأولى، أُلقِيا في السّجن. ولكن، بمكيدةٍ شيطانيّةٍ، حصلَ بينَهما سوءُ تفاهمٍ، وشجارٌ عنيف. سُرعانَ ما تابَ أحدُهما، وصنعَ مطّانيّةً لأخيهِ قائلاً: «سنموتُ غدًا، فلنضَعْ حدًّا لعداوتِنا المُتبادَلةِ ونَستعِدِ المحبّة». ولكنّ الآخرَ لم يَقْبَلْ بذلك.

في اليومِ التّالي، اقْتِيدا ثانيةً إلى المُحاكَمةِ، وأُخضِعا للتّعذيب. ألّذي لم يقبَلِ التّوبةَ استسلَمَ عندَ الضّربةِ الأولى، فسألَهُ الحاكمُ: «لِمَ لَمْ تُطِعْني أمسِ، بعدَ تعرّضِكَ لتعذيباتٍ مشابهة؟» أجابَه: «لأنّني بالأمسِ كنتُ أحبُّ أخي، وكانَتْ نعمةُ اللّهِ تقوّيني. أمّا اليومَ، فأنا أحفظُ الحقدَ نحوه، ولهذا حُرِمْتُ عنايةَ اللّهِ وتعزيتَه».

- عن أنطيوخوس البَنْديكتي -

كما تعترِضُ الغيمةُ الشّمسَ فتُعَتِّمُها، هكذا يُظلِمُ فكرُ الحقدِ الذّهنَ. فالثّعالبُ تقطُنُ في نفسِ الإنسانِ الحقودِ، والوحوشُ تَلبُدُ في القلبِ المضطَربِ، أي الشّياطينُ الخُبثاءُ والطّغاة.

- عن الأبِ أشعيا -

إن أخطأَ أحدُ الإخوةِ إليكَ، واغتابَهُ أحدُهم أمامَكَ، فاحفَظْ قلبَكَ

لئلاّ يحيا الشّرُّ فيك. أذكُرْ خطاياكَ أمامَ اللّهِ إن أردْتَ أن يغفرَها لكَ، ولا تَرُدَّ الشّرَّ إلى قريبِك.

إن علِمْتَ أنّ أحدَهم تكلَّمَ ضدَّك، والتقيْتَه في مكانٍ ما، أو زارَكَ، فأظهِرْ له قدرَ المُستطاعِ وجهًا مبتهجًا ومرحِّبًا، ولا تُكَلِّمْه بما سمعْتَهُ، فالكتابُ يقولُ: «مَن يحفَظِ الحقدَ يتجاوزِ الشّريعة»[٥٠٢].

إن مكثْتَ هادئًا في قلاّيتِكَ، وتذكَّرْتَ أحدًا أضرَّ بكَ، فانهَضْ وصلِّ إلى اللّهِ من كلِّ قلبِكَ ليسامِحَه، فيفارِقَكَ فكرُ الانتقام.

لا تَرغَبْ في أن تسمعَ سوءًا عمَّن أحزنَكَ، كي لا تبادلَهُ الشّرَّ في قلبِكَ إن فَرِحْتَ بالسّوء.

- عن الأبِ مرقس -

عندما يتأمَّلُ المرءُ الشّرَّ بفكرِهِ، يقسو قلبُه. أمّا عندما يُستأصَلُ بالتّقشُّفِ والرّجاءِ، فيجلبُ له التّخشّع.

- عن القدّيسِ مكسيموس -

الحزنُ يتبعُ الحقدَ. عندما يستحضِرُ الذّهنُ وجهَ الأخِ بحزنٍ، فهذا يُبيِّنُ أنّه يشعرُ نحوَه بالحقدِ. مسالِكُ الحقدِ تقودُ إلى الموتِ[٥٠٣]، فكلُّ حاقدٍ هو مخالفٌ للشّريعة.

إن شعرْتَ نحوَ أحدِهم بالحقدِ، فصلِّ من أجلِهِ فتمنعَ الهوى من التّفاعلِ. فبفضلِ الصّلاةِ تتطهّرُ من الهوى والحزنِ اللّذَيْن يُسبِّبُهما ذكرُ الشّرِّ الّذي فعلَهُ لك. وعندما تكتسِبُ المحبّةَ والرّأفةَ، سيختفي هذا الهوى كلّيًّا من نفسِك. وإن كانَ لآخرَ حقدٌ عليكَ، فكُنْ مُتسامِحًا ومُتواضِعًا نحوَه، وادعُهُ وتناولا الطّعامَ معًا، وتناقَشا وترافَقا، وهكذا، ستُخلِّصُهُ من الهوى.

---

٥٠٢. أم ٢١، ٢٤ (المرجع غير دقيق).

٥٠٣. أم ١٢، ٢٨.

- عن القدّيسِ أفرام -

يطردُ الدّخانُ النّحلَ، والحقدُ يُبعِدُ المعرفةَ الرّوحيّةَ عن القلب. توسَّلْ إلى اللّه، واسكُبِ الدّموعَ أمامَ صلاحِهِ، واطرُدِ الحقدَ من نفسِك، فتكونَ صلاتُكَ كالبخورِ أمامَه.



الفصل الثّالث والأربعون

يجبُ ألاّ نلعنَ إنسانًا.

- عن القدّيسِ غريغوريوس الذّيالوغوس -

في مقاطعةِ نورسي، كانَ راهبانِ يَسكُنانِ معًا ويَسلُكانِ حياةً فاضلة. الواحدُ يُدعى أفتيخيوسَ، والآخرُ فلورنديوس. أمّا أفتيخيوسُ، فقد قادَتْهُ حماستُهُ الرّوحيّةُ، وحرارةُ طبعِهِ، إلى درجةٍ عُليا من الفضيلةِ، وكان يَجتَهِدُ بإرشادِهِ أن يقودَ نفوسًا كثيرةً إلى اللّه. في وقتٍ لاحقٍ، اختارَهُ إخوةٌ في المنطقةِ رئيسًا عليهم، فترأّسَ ديرَهم لسنواتٍ كثيرة. وبمثالِهِ المُقدَّسِ جعلَ كثيرينَ من الرّهبانِ يَتقدّمونَ صوبَ الكمال. ولهذا السّببِ، مجَّدَهُ اللّهُ بعدَ موتِهِ بعلاماتٍ وعجائبَ، بحيثُ أنّ ثوبَهُ أنهى الجفافَ، وحصلَتْ به شِفاءاتٌ عديدة.

بعدَ رحيلِ أفتيخيوسَ إلى الدّيرِ، بَقِيَ فلورنديوسُ وحدَهُ في المنسكِ، حيثُ عاشا معًا. سلَكَ بمثابرةٍ حياةً مليئةً بالبراءةِ والصّلاة. ذاتَ يومٍ، سألَ اللّهَ الكلّيَّ القدرةِ أن يمنحَهُ رفيقًا ليُساعدَهُ، ويأتيَ للسّكنِ معه.

وفي أحدِ الأيّامِ، وهو خارجٌ من قلاّيتِهِ بعدَ الصّلاةِ، رأى دبًّا واقِفًا أمامَ بابِهِ، ورأسُه مُنحَنٍ إلى الأرض. بدا واضِحًا أنّه مُرسَلٌ من اللّهِ لخدمتِهِ. فَهِمَ رجلُ اللّهِ سببَ مجيءِ الدُّبِّ، وشكرَ اللّه. ثمّ عَهَدَ إلى الحيوانِ بالنّعاجِ الأربعِ الّتي يَملُكُها، إذ لم يَكُنْ له إنسانٌ آخرُ ليقودَها إلى المَرعى، وأوصاه قائلاً: «إذهَبْ، اصطحِبْ هذه النّعاجَ الأربعَ إلى المَرعى، وارجِعْ عندَ الظّهر».

أخذَ الدُّبُّ النّعاجَ تحتَ حراستِهِ، واصطحَبَها لترعى، وعادَ بها في السّاعةِ المُحدَّدة. ومتى أرادَ البارُّ فلورنديوسُ أن يصومَ، كانَ يأمُرُ الدُّبَّ أن يعودَ في السّاعةِ الثّالثةِ بعد الظّهرِ، فلا يتأخّرَ عن الرّجوعِ في السّاعةِ المُعيّنة. استمرَّ حصولُ هذا الأمرِ في كلّ يومٍ؛ الدُّبُّ يصطحِبُ النّعاجَ إلى المَرعى، بكلّ طاعةٍ، لمدّةٍ طويلةٍ. شاعَ خبرُ هذه المعجزةِ في المنطقة. حينئذٍ، اندَسَّ

الشّيطانُ في نفوسِ أربعةٍ من تلاميذِ أفتيخيوسَ الكلّيِّ التّقوى، وأوحى إليهم بالغَيرةِ، لأنّ مُعَلِّمَهم لا يصنَعُ العجائبَ، فيما فلورنديوسُ كان قِبلَةَ الأنظارِ، بسببِ المعجزةِ الباهرةِ. وأثارَ الشّيطانُ غيرتَهم إلى حدٍّ أنّهم نَصبوا كميناً للدُّبِّ وقتلوه.

عندما أتَتِ السّاعةُ المُحدَّدةُ لعودةِ الدُّبِّ، انتظرَهُ فلورنديوسُ كالمُعتاد. ولكنَّ اللّيلَ هَبَطَ، والدُّبَّ لم يَظهَرْ في أيِّ مكانٍ، وهو كانَ، لبراءتِهِ الكبيرةِ، يَدعوه أخًا، وبدأَ يَقلق. بَقِيَ طولَ اللّيلِ مُتضايقًا، وفي الصّباحِ، ذهبَ إلى المَرعى للبحثِ عن الدُّبِّ والنّعاج. عندما وجدَ رفيقَهُ ميتًا، واكتشَفَ، بعدَ البحثِ والتّدقيقِ، هَويّةَ القتلةِ، بدأ ينتحِبُ، شاكيًا خبثَ الإخوةِ أكثرَ من موتِ الدُّبّ.

عندما عَلِمَ أفتيخيوسُ الوَقورُ بما حَدَثَ، جَلَبَ فلورنديوسَ إلى قربِهِ، وحاولَ تعزيتَه. ولكنَّ خادمَ اللّهِ فلورنديوسَ، عندما حضرَ أمامَ أفتيخيوسَ، دَفَعَهُ حزنُهُ الشّديدُ إلى إطلاقِ هذه الصّلاةِ: «رجائي في اللّهِ القديرِ أن ينالَ جزاءَهم، في هذه الحياةِ، وأمامَ المَلأ، قتلةُ دُبّي الّذي لم يؤذِهم بشيءٍ». لم يُنْهِ قولَهُ هذا حتّى أتى القصاصُ من اللّهِ: أصابَ الرّهبانَ الأربعةَ، قتلةَ الدُّبِّ، البَرَصُ الّذي أفسدَ أعضاءَهم كلّيًّا، وتسبَّبَ بموتِهم.

اضطربَ رجلُ اللّهِ فلورنديوسُ كثيراً من ذلك، وخافَ لأنّه لعنَهم، ودعا نفسَهُ قاتلَ أولئك الإخوةِ، ولم يتوقَّفْ، طولَ حياتِهِ، عن لومِ ذاتِهِ من أجلِهم، والتّوسّلِ إلى اللّهِ ليسامحَهُ على فعلِهِ الرّديء. وأظنُّ أنّ اللّهَ الكلّيَّ القدرةِ تصرَّفَ هكذا، لئلاّ يتجرّأَ هذا الرّجلُ العجيبُ والبريءُ، ويُطلقَ على إنسانٍ سهمَ اللّعنةِ، مَدفوعًا من ألمِهِ، مهما يَكُنْ عظيمًا.

بطرس: إذًا، هل تُعتَبَرُ خطيئةً عظيمةً إن حدثَ مرّةً أن لعنّا أحدًا مَدفوعينَ من الغضبِ عليه؟

غريغوريوس: لماذا تسألُني، يا بطرسُ، إن كانَتْ هذه الخطيئةُ عظيمةً، في حينِ أنّ بولسَ يؤكِّدُ أنّ مَن يَلعنونَ لا يَرِثونَ ملكوتَ اللّه[٥٠٤]؟ إفهَمْ إذًا فداحةَ هذه الخطيئةِ بما أنّها تَحرمُنا ميراثَ ملكوتِ اللّه.

---

٥٠٤. ١ كور ٦، ١٠.

الفصل الرّابع والأربعون

يوافِقُ ألاّ نسيءَ معاملةَ الآخرِ، وأن نباركَ مَن يسيئونَ معاملتَنا. وهكذا، نهدِّئُ غضبَهم.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قيلَ عن الأبِ مكاريوسَ المصريِّ إنّه صعدَ مرّةً من الإسقيطِ إلى جبلِ النّطرونِ، ولدى اقترابِهِ من المكانِ، قالَ لتلميذِه: «تقدّمْني قليلاً». سارَ التّلميذُ في المقدّمةِ، وصادفَ كاهنًا وثنيًّا يَجري حاملاً قطعةَ خشبٍ كبيرة. صاحَ الأخُ به، قائلاً: «إلى أين تجري، يا خادمَ الشّيطانِ؟» اغتاظَ منه الكاهنُ، وانهالَ عليه بضرباتِ العصا الّتي يُمسِكُها بيدِه، وتركَهُ بين حيٍّ وميت. ولمّا ابتعدَ قليلاً، التقى به الأبُ مكاريوسُ وهو مُسرِعٌ، فبادرَهُ بالقولِ: «فلتصحَبْكَ المعونةُ، فلتصحَبْكَ المعونةُ، يا رجلَ النّشاطِ!» حالما سَمِعَ كلامَهُ، اقتربَ منه، وقالَ: «أيُّ خيرٍ رأيتَهُ فيّ حتّى تُحَيِّيَني هكذا؟» أجابَهُ الشّيخُ: «رأيتُكَ تتعَبُ، ولا تَعرفُ أنّكَ تَتعَبُ باطلاً». تابعَ ذاك: «وأنا تأثّرتُ بتحيّتِكَ، وفهمتُ أنّكَ رجلُ اللّه. ولكنّ شخصًا آخرَ، راهبًا شرّيرًا، التقى بي وشتمَني، فما كانَ منّي سوى أن ضربتُهُ حتّى الموت». فعرفَ الشّيخُ أنّه تلميذُه. ثمّ سقطَ الكاهنُ عند قدمَي الشّيخِ، وقالَ له: «لن أتركَكَ حتّى تَجعَلَني راهبًا». وذهبا إلى حيثُ سقطَ التّلميذُ مثلَ الميتِ، من جرّاءِ الضّربات. حملاه، وأتيا به إلى كنيسةِ الجبل. عندما رأى الشّيوخُ الكاهنَ الوثنيَّ مع الأبِ مكاريوسَ، تعجّبوا ومجّدوا اللّهَ وصيّروه راهبًا، وبفضلِهِ، أصبحَ وثنيّونَ آخرونَ مسيحيّين.

٢- قالَ الأبُ مكاريوسُ إنّ كلمةَ الشّرِّ تجعلُ الصّالحَ شرّيرًا، أمّا

الكلمةُ الصّالحةُ، فمن شأنِها أن تجعلَ الشّرّيرَ صالحًا.

٣- قالَ أحدُ الآباءِ: «إن أهانَكَ أحدٌ، فبارِكْه أنت. وإن قَبِلَ بركتَكَ، فهذا يكونُ حسنًا لكما، كِلَيْكِما. أمّا إن لم يقبَلْها، فسيعاقِبُهُ اللّهُ على كلماتِهِ المُهينةِ، بينما تبقى البَرَكةُ لك».

٤- قالَ شيخٌ: «نحن نتأمّلُ بصليبِ المسيحِ، ونقرأُ عن آلامِهِ، فلِمَ لا نستطيعُ احتمالَ إهانةٍ صغيرة؟»

- عن الأبِ أشعيا -

إن قالَ لكَ أحدُهم كلمةً قاسيةً، فلا تَثُرْ ضدَّه، بل سارِعْ إلى صُنعِ مطانيّةٍ له، قبلَ أن تُدينَهُ في داخلِك. وإلاّ، فاجأَكَ الغضب. إن أهانَكَ أحدٌ بالكلام، فلا تُجِبْهُ إلى أن يَصمُت. وإن تفحَّصْتَ ذاتَكَ، ووجدْتَ في داخلِكَ ما قالَهُ لك، فتُبْ كأنّك أخطأتَ، وسيقبلُكَ اللّهُ بصلاحِهِ من جديد.

الفصل الخامس والأربعون

في ألاّ نكذبَ، بل أن نقولَ الصّدق.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- سُئِلَ أحدُ الشّيوخِ: «ما هي حياةُ الرّاهبِ؟» أجابَ: «فمٌ صادقٌ، وجسدٌ مقدَّسٌ، وقلبٌ طاهر».

٢- قالَ شيخٌ: «الكَذِبُ هو الإنسانُ القديمُ المُنفَسِدُ بشهواتٍ خدّاعة[505]. بينما الصّدقُ هو الإنسانُ الجديدُ المَجبولُ كما يُريدُهُ اللّه»[506].

٣- قالَ أيضًا: «جذرُ الصّالحاتِ جميعِها هو الصِّدق. أمّا الكَذِبُ فهو مَوتٌ».

- عن أنطيوخوس البَنْديكتي -

كما يَتقدَّسُ فمُ الإنسانِ الصّادقِ بقولِ الحقِّ، أي السَّيّدِ الّذي قالَ: «أنا هو الحقُّ»[507]، هكذا، مَن يَكذبْ يُلوِّثْهُ أبو الكَذِبِ، الشّيطانُ، لأنَّ المخلّصَ قالَ بوضوحٍ إنّ الكذبَ يأتي من الشّرّير[508].

- عن الأبِ أشعيا -

لا تَمدَحْ سوى ما تراهُ، ولا تتكلَّمْ عمّا سمِعْتَه من الآخرينَ كأنّك رأيْتَه. عَلِّمْ لسانَكَ قولَ كلامِ اللّهِ بمعرفةٍ، فيبتعدَ الكَذِبُ عنك. إنّ محبّةَ المجدِ

٥٠٥. أف ٤، ٢٢.
٥٠٦. أف ٤، ٢٤.
٥٠٧. يو ١٤، ٦.
٥٠٨. أنظر يو٨، ٤٤.

الّذي يأتي من البشرِ، تُولِّدُ الكذب. أمّا إن دفعْتَها عنكَ بالتّواضعِ، فيَكبُرُ خوفُ اللّهِ في قلبك. احترِزْ من الكَذِبِ لأنّه يَطرُدُ خوفَ اللّهِ منك.

- عن الأبِ مرقس -

فمُ الإنسانِ المتواضِعِ يقولُ الحقّ. أمّا مَن يُخالِفُ الحقَّ، فيُشبِهُ ذلك الخادمِ الّذي لَطَمَ السّيّدَ على وجهِه[٥٠٩].

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ الأبُ أنوبُ: «مُذ دُعيتُ راهبًا، لم تخرُجْ كذبةٌ من فمي».

٢- قالَ الأبُ غريغوريوسُ: «يطلبُ اللّهُ من كلِّ إنسانٍ نالَ المعموديّةَ المُقدّسةَ هذه الأمورَ الثّلاثةَ: الإيمانَ المُستقيمَ من النّفسِ، والحقيقةَ من الفمِ، والعفّةَ من الجسد».

- عن القدّيسِ أفرام -

في ليلةِ شتاءٍ، فيما الإخوةُ يُتمِّمونَ عملاً شاقًّا، شعرَ أحدُهم بقشعريرةٍ، وعادَ إلى قلاّيتِهِ، ولكنّ شخصًا آخرَ تذمّر منه. حينئذٍ، أُرسِلَ أخٌ لمناداتِه. ولكنْ، حالما رأى المُرسَلُ الرّاهبَ في وضعٍ صحّيٍّ صعبٍ جدًّا، قالَ له: «يسألُ الإخوةُ عن حالِكَ، ويَقولونَ لكَ ألاّ تقلقَ بشأنِ قسمِ العملِ الّذي يَنبغي أن تتمِّمَهُ، فنحنُ سنقومُ به». أجابَ المريضُ: «ليتذكّرِ اللّهُ محبّتَكم! أمّا أنا، فأردْتُ مشاركتَكم التّعبَ، ولكنّ وَهَني أعاقَني». عادَ الأخُ حينَها إلى مُرسِليه، وقالَ لهم: «الأخُ يُعاني كثيرًا، وقالَ لي إنّه أرادَ مشاركتَكم التّعبَ، ولكنّه لا يَقوى على ذلك». هذا الأخُ هو مثالُ الإنسانِ الّذي يُتمِّمُ مُقتضى المحبّةِ، باستعمالِ الكَذِب.

---

٥٠٩. يو ١٨، ٢٢.

- عن كتابِ الشَّيخ -

١- تشاجرَ شيخانِ، وحدثَ أن مَرِضَ أحدُهما. أتى أحدُ الإخوةِ لزيارتِهِ، فتوسّلَ إليه الشّيخُ قائلاً: «أنا والشّيخُ فلان مُتشاجرانِ، وأودُّ أن تطلبَ إليه أن نتصالحَ». أجابَ الأخُ: «سأفعلُ ما طلبتَهُ، يا أبتِ!» انطلقَ الأخُ من هناك، وهو يفكِّرُ بالطّريقةِ الّتي سيُعالِجُ فيها المسألةَ، لأنّه خافَ ألاّ يقبلَ الشّيخُ الوساطةَ، وقد يَكبُرُ سوءُ التّفاهم.

ولكنْ، بتدبيرٍ إلهيٍّ، جلبَ له أحدُ الإخوةِ خمسَ حبّاتِ تينٍ وبعضَ التّوت. فأخذَها الأخُ وذهبَ بها إلى قلاّيتِه. اختارَ حبّةَ تينٍ وبعضَ التّوتِ، وأحضرَها إلى الشّيخِ الّذي قصدَ زيارتَه. وقالَ له: «يا أبتِ، لقد جلبَ أحدُهم هذه للشّيخِ فلان، وبما أنّه مريضٌ، وصادفَ أنّني كنتُ هناك، قالَ لي: خُذْ هذه، وأعطِها للشّيخِ فلان. فجلَبتُها لك». لدى سماعِهِ بذلك، بقيَ الشّيخُ مُنذهِلاً لوقتٍ طويلٍ، ثمّ قالَ: «هل أرسلَها إليَّ؟» أجابَ الأخُ: «نعم، يا أبتِ»، فأخذَها الشّيخُ قائلاً: «أهلاً وسهلاً».

ثمّ رجعَ الأخُ إلى قلاّيتِه. أخذَ حبّتَيْ تينٍ وقليلاً من التّوتِ، وذهبَ بها إلى الشّيخِ الآخرِ المريض. ثمّ صنعَ مطّانيّةً، وقالَ له: «خُذْ هذه، يا أبتِ، لقد أرسلَها إليكَ الشّيخُ فلان». فرحَ الشّيخُ جدًّا، وقالَ: «هذا يعني أنّنا تصالَحْنا؟» أجابَ الأخُ: «نعم، يا أبتِ، بفضلِ صلواتِكَ»، ومجّدَ الشّيخُ اللّه. هكذا تصالحَ الشّيخانِ بنعمةِ اللّهِ، وحكمةِ الأخِ الّذي صالحَهما بثلاثِ حبّاتِ تينٍ، وقليلٍ من التّوتِ، من غيرِ أن يدريَ الاثنانِ بحيلةِ الأخ.

٢- سألَ الأبُ أغاثون الأبَ ألونيوسَ إن كان الكذبُ مَقبولاً، ولو لمرّةٍ. فأجابَ الأبُ ألونيوسُ أنّه مقبولٌ. سألَه ثانيةً: «متى؟» أجابَهُ الشّيخُ: «لنفترِضْ أنّ رَجُلَيْنِ ارتكبا أمامَكَ جريمةَ قتلٍ، ولجأَ أحدُهما إلى قلاّيتِك، ولاحقَهُ الضّابطُ، وسألَكَ إن حدَثَتْ أمامَكَ جريمةُ قتل. إن لم تكذِبْ، ستُسلِّمُ الإنسانَ إلى الموت. لذلك، من الأفضلِ أن تترُكَهُ حُرًّا أمامَ اللّهِ العارفِ بكلِّ شيء. يبدو واضحًا من هذا أنّ تفضيلَ الكذبِ على الحقيقةِ يُعتَبَرُ مَقبولاً في بعضِ الأحيان.

الفصل السّادس والأربعون

الافتراءُ خطيئةٌ فظيعة. وكثيراً ما يعاقِبُ اللّهُ المفترينَ في هذا العالمِ، في سبيلِ تمجيدِ المُفتَرى عليهم، عندما يحتملونَه بشكر.

- عن بالاديوس -

في قيصريّةِ فلسطين، سقطَتْ فتاةٌ بتولٌ في الخطيئةِ، وكانَتْ ابنةَ كاهنٍ، ووُجِدَتْ حُبلى. فحرَّضَها مُفسِدُها على أن تفتريَ على قارئٍ[٥١٠] المدينة. وعندما استجوبَها والدُها لمعرفةِ الفاعلِ، اتّهمَتِ القارئ. عرضَ والدُها الأمرَ على الأسقفِ، فدعا هذا الأخيرُ لاجتماعِ الكهنةِ، وأحضرَ أمامَهم القارئَ واستجوبَه. أجابَ هذا الأخيرُ: «أنا لا علاقةَ لي بالمسألة». غضِبَ الأسقفُ، وسألَهُ بصرامةٍ كبيرةٍ: «ألا تعترفُ بفعلتِكَ، أيّها البائسُ؟ ألا تتوبُ؟» أجابَ القارئُ: «أتوسَّلُكَ، لقد قلتُ الحقيقة. لا علاقةَ لي بالمسألة. أنا بريءٌ ممّا تتّهمُني به. أمّا إن أردتَني أن أقولَ لكَ ما لم يحصلْ، فاسمَعْ: لقد فعلْتُها!».

ما إن سَمِعَ الأسقفُ بذلك حتّى جَرَّدَهُ من درجتِهِ كقارئ. خرَّ هذا الأخيرُ عند قدمَي الأسقفِ، وتوسَّلَ إليه قائلاً: «إذا حكَمْتَ بسببِ اعترافي، يا سيّدي، بأنّني لستُ مُستَأهِلاً أن أكونَ إكليريكيًّا لدى قداستِك، فأمُرِ الآن أن تُعطَى لي هذه الفتاةُ زوجةً، لأنّني لستُ بعدُ إكليريكيًّا، وهي ليسَتْ عذراء». فظنَّ الأسقفُ والوالدُ أنّه يحبُّها، ولا يستطيعُ الابتعادَ عنها، ولهذا أعطياه إيّاها. ولكنَّ الرّجلَ الشّابَّ عَهَدَ بها إلى ديرٍ نسائيّ، وطلبَ إلى رئيسةِ الدّيرِ

---

٥١٠. يشكّل القرّاء الدّرجة الأولى من الإكليروس الأدنى.

أن تعتنيَ بها حتّى موعدِ ولادتِها. ثمّ تركَها هناك، وذهبَ إلى كوخٍ ناءٍ حيثُ أغلَقَ على نفسِهِ، ممارِسًا نُسكًا قاسيًا. لجأَ إلى السّيّدِ بانسحاقِ قلبٍ ودموعٍ كثيرةٍ، قائلاً: «أنتَ، يا سيّدُ، العارفُ قلوبَ الجميعِ[٥١١]، والعالِمُ بكلِّ شيءٍ حتّى قبلَ حدوثِهِ[٥١٢]، والعالِمُ أيضًا فكرَ كلِّ إنسان. أنتَ فاحصُ الأفكارِ العميقة. أنتَ مُنقِذُ المَظلومينَ والمُحامي عنهم، والمَعصومُ عن الخطأ. أنتَ أيضًا تعرفُ ما فعلْتُهُ، ولا تُسَرُّ بالظّلمِ أبدًا. وأنتَ وحدَكَ الّذي يُمسِكُ بميزانِ العدلِ بدقّة. لذلك، يعودُ لحكمِكَ العادلِ الّذي لا يُخطِئُ أن تُظهِرَ براءَتي وتَضَعَ حدًّا لتأديبي».

واستمرَّ القارئُ عاكفًا على الصّلواتِ والأصوامِ، إلى أن أتى الوقتُ لتلدَ الشّقيّة. حينئذٍ، جلبَ حكمُ اللّهِ العادلُ عليها وجعًا حادًّا لا يُحتمَل. لمدّةِ سبعةِ أيّامٍ، حاصرَتها رؤًى عن الجحيمِ وعذاباتٌ رهيبةٌ، وتعذَّرَ خروجُ الجنينِ من بطنِها، فيما تضاعفَتْ آلامُها بشكلٍ يتعذّرُ احتمالُهُ، فبدأَتْ تُخرِجُ صرخاتٍ قويّةً: «ويلٌ لي، أنا الشّقيّةَ! أُوشِكُ على خسارةِ حياتي، لأنّني سقطْتُ في رذيلتَيْنِ، الزّنى والافتراء. أفسدَني شخصٌ آخرُ، وأنا اتّهمتُ القارئَ». وفيما هي على حالِها، غيرُ قادرةٍ لا على العيشِ ولا على الموتِ ولا على الولادةِ، ولم تَعُدِ الرّاهباتُ تحتمِلْنَ صراخَها العالي، سارعَتْ بعضُهنَّ إلى الأسقفِ لإخبارِهِ بالأمر. فاجتمعَ النّاسُ كلُّهم في الكنيسةِ لإقامةِ صلاة. ولكنّ صلواتِهم لم تُقبَلْ بسببِ صلواتِ القارئِ البريء.

فنهضَ الأسقفُ، وذهبَ إلى القلاّيةِ، حيثُ أغلقَ القارئُ على نفسِه. قرعَ على البابِ طويلاً، ولكنّ هذا الأخيرَ لم يُبادِرْ إلى فتحِ البابِ، ولا أجابَ. فأمرَ الأسقفُ بخلعِ الباب. عند دخولِهِ، وجدَهُ ساجدًا على الأرضِ، فقالَ له بلهجةٍ نادمةٍ: «يا أخي القارئَ أفسطاثيوسَ، بسببِ صلواتِكَ، أظهرَ اللّهُ أنّ ما اتُّهِمْتَ به كانَ مجرّدَ افتراءٍ. فَأَشْفِقْ، أنتَ أيضًا، على تلك الّتي خَطِئَتْ بحقِّكَ لأنّها تتألّمُ كثيرًا وتتعذّبُ منذ وقتٍ طويلٍ، وسامِحْها على خطيئتِها لأنّ ما تُعانيهِ هو بسببِ صلواتِكَ. وتوسَّلْ إلى اللّهِ أن يُحرِّرَها من عذابِها، فتنجبَ

---

٥١١. أنظر أع ١، ٢٤.
٥١٢. أنظر دا. سوسانا ٤٢.

ولدًا إلى العالم».

صلّى القارئُ بحرارةٍ مع الأسقفِ فتحرَّرَتِ الشّقيّةُ للحالِ من ألمِها، وأنجبَتْ طفلاً. وتوسّلَتْ إلى الجميعِ مسامحتَها على خطيئتِها الّتي ارتكبَتْها بحقِّ البريء. ومنذ ذلك الحينِ، نظرَ جميعُ النّاسِ إلى القارئِ كأنّه في مصفِّ الشّهداء. أمّا هو، فترَكَ كلَّ اهتمامٍ، وصعدَ إلى أعالي الحياةِ الفاضلةِ، إلى حدِّ أنّه حُسِبَ مُستأهِلاً الموهبةَ الرّوحيّة.

رَوَيْتُ هذا كلَّهُ لنَعلَمَ أيّةَ عقوباتٍ، قبلَ العقوبةِ الآتيةِ في جهنّم، تُصيبُ المُفترينَ هنا أيضًا، وأيّةَ كراماتٍ ومَواهبَ يَستحِقُّ المُفتَرى عليهم، الّذينَ يَلتجئونَ إلى اللهِ، مُكرِّسينَ ذواتِهم للصّلواتِ والتّمجيداتِ، هنا في هذه الحياةِ، وفي الحياةِ الآتية.

- من حياةِ القدّيسِ غريغوريوس العجائبيّ -

بعدَ إنهاءِ علومِهِ الدّنيويّةِ كلِّها، أدركَ غريغوريوسُ الكبيرُ بالخبرةِ مدى وهنِها، وتنافُرِها، وقلّةِ فائدتِها، فأصبحَ تلميذًا للإنجيل. وعاشَ بطريقةٍ فاضلةٍ جدًّا، حتّى من قبلِ ولادتِهِ الجديدةِ بالمعموديّةِ، لئلاّ يجلبَ معه أيّةَ قذارةِ خطيئةٍ إلى جُرْنِ المعموديّة.

عندما عاشَ في الإسكندريّةِ، حيثُ يجتمعُ طلاّبُ الفلسفةِ والطّبِّ، لم يَكُنْ رفاقُهُ يحتمِلونَ رؤيتَهُ شابًّا مُزيّنًا بحكمةٍ تتجاوَزُ حكمةَ الشّيوخ. في الواقعِ، إنّ المديحَ الموجَّهَ إلى هذا الرّجلِ الّذي يَحفظُ ذاتَهُ نقيّةً، كانَ يُوَلِّدُ في أولئكَ المُتمرّغينَ في الخطيئةِ شعورًا بالخجل. فدبّرَ هؤلاءِ الفاسقونَ مؤامرةً لتلويثِ سمعةِ غريغوريوسَ، كأنّهم، بزعمِهم أنّهم ليسوا وحدَهم في الرّذيلةِ، يُبرِّرونَ ذواتِهم: جعلوا إحدى الزّواني، المعروفةَ بأعمالِها الشّائنةِ، تخرجُ من ماخورٍ كي تتّهِمَهُ زورًا.

فبينما كانَ غريغوريوسُ، على حسبِ عادتِهِ، يتناقَشُ بوقارٍ في مسألةٍ فلسفيّةٍ وأشخاصٍ مُثقّفينَ، اقتربَتِ المرأةُ منه متمايلةً بطريقةٍ مُثيرةٍ، مُدّعِيَةً معرفتَها الوثيقةَ به من خلالِ تصرّفاتِها وأقوالِها وحركاتِها كلِّها. ثمّ تذمّرَتْ لأنّه لم يدفَعْ لها، وذكرَتْ بوقاحةٍ الأوضاعَ الّتي لم تَنَلْ أجرًا عنها.

اغتاظَ مُحَدِّثو غريغوريوسَ، العارفونَ سلوكَهُ، وعبَّروا للمرأةِ الفاسدةِ عن غضبِهِم. ولكنّ غريغوريوسَ لم يُشارِكْ أصدقاءَهُ المُغتاظينَ اضطرابَهم. لم يَقُلْ كلمةً واحدةً ممّا يُنتظَرُ عادةً من شخصٍ يُفترى عليه، كما أنّه لم يَدْعُ العارفينَ مسلكَهُ ليشهدوا لمصلحتِه. لم يدحَضِ الاتّهامَ بقَسَمٍ، ولا بَرهَنَ عن خبثِ الّذينَ حاكوا هذه المؤامرةَ ضدَّه. على العكسِ، استدارَ نحو أحدِ أصدقائِه، وقالَ له بصوتٍ رصينٍ وهادئٍ: «أعطِها المالَ لئلاّ تستمرَّ في إزعاجِنا بقطعِ سياقِ حديثِنا».

استعلَمَ صديقُ غريغوريوسَ من الزّانيةِ عن المبلغِ المَطلوبِ، وحاسبَها فورًا. وهكذا، اكتملَتْ مؤامرةُ الفاسقينَ ضدّ الرّجلِ الشّابِّ العفيفِ، ونالَتِ الزّانيةُ الأجرَ في يدِها. إلّا أنّه في اللّحظةِ ذاتِها، شَهِدَ اللّهُ على عفّةِ الشّابِّ غريغوريوسَ، وكشفَ عن افتراءِ نُظرائِهِ بشأنِه.

إليكُم ما حدثَ: في اللّحظةِ نفسِها الّتي قبضَتِ المالَ في يدِها، أصبحَتِ الزّانيةُ ضحيّةَ روحٍ شيطانيّ. أصدرَتْ صوتَ زئيرِ حيوانٍ متوحّشٍ لا يَمُتُّ بصلةٍ لأيِّ صوتٍ بشريّ، وسقطَتْ على وجهِها على الأرضِ في وسطِ المُجتمعين. كانَ المشهدُ مُخيفًا ورهيبًا في آنٍ معًا. وكانَتْ تشدُّ شعرَها، وتنتفُه بيدَيْها الاثنتَيْن، وانقلبَتْ عيناها، وكان فمُها يُخرِجُ زبَدًا. ولم يتوقّفِ الشّيطانُ عن خنقِها إلى أن رفعَ غريغوريوسُ بنفسِهِ ابتهالاً إلى اللّهِ من أجلِها. هذه الأحداثُ الّتي جرَتْ في شبابِ غريغوريوسَ المثيرِ الإعجابَ كانَتْ مُقدِّمةً لِما سيفعلُه في حياتِهِ فيما بعد.

- من حياةِ القدّيسِ غريغوريوس الأغريغنتيّ -

هناك قصّةٌ مُشابهةٌ حصلَتْ مع القدّيسِ غريغوريوسَ الكبيرِ أسقفِ أغريغنتية، إذ احتمَلَ، هو أيضًا، الافتراءَ بوداعة. سُجِنَ لمدّةِ سنتَيْن كاملتَيْن في غرفةٍ مظلمةٍ كئيبةٍ خانقةٍ، واحتمَلَ كلَّ شيءٍ بشكرٍ، من غيرِ ضغينة. ثمّ مجّدَهُ اللّهُ أمامَ مجمعِ أساقفة. فالفتاةُ الّتي افترَتْ عليه، والّتي أصبحَتْ، منذ ذلكَ الحينِ، مَمسوسةً، شفاها هو نفسُه أمامَ المَلأ. بعد شفائِها، أقرَّتْ بالافتراءِ، واعترفَتْ بكذبتِها علانيّة.

إنَّ الّذينَ حاكوا هذه المؤامرةَ ضدَّ القدّيسِ غريغوريوسَ هم سابينوسُ الكاهنُ وكريشنسيوسُ الشّمّاسُ مع مناصريهما، الّذينَ أغلقوا على الفتاةِ في قلاّيةِ القدّيسِ، وذلك أثناءَ وجودِهِ في الهيكلِ وهو يرفَعُ صلواتِ منتصفِ اللّيلِ للّه. عند الفجرِ، سارعوا وأخرجوا من هناك الفتاةَ الّتي أقنعوها باتّهامِ القدّيس. غيرَ أنّ زوبعةً قاتمةً أتَتْ بسماحٍ إلهيٍّ، أثناءَ وجودِهم في المَجمعِ، وغلّفَتْ سابينوسَ وكريشنسيوسَ مع جماعتِهما لوقتٍ طويل.

بعدَ اختفاءِ الزّوبعةِ، بدَتْ وجوهُهم سوداءَ، وشفاهُهم زرقاءَ، لا سيّما قائدَا الافتراءِ، وما لبِثوا عاجزينَ عن إغلاقِ فمِهم أو التّفوّهِ بكلمة. بهذه الطّريقةِ، أخذوا عقابَهم من اللّهِ بشكلٍ ظاهرٍ، عقابًا ورِثَتْهُ عائلتُهم الّتي أُدينَتْ كملحدةٍ، ولم يُصبِحْ أيُّ عضوٍ منها كاهنًا للرّبّ.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- أخبرَ القدّيسُ مكاريوسُ عن ذاتِهِ، قائلاً: «في شبابي، وأثناءَ مكوثي في قلاّيةٍ في مصرَ، قبضوا عليّ وجعلوني كاهنًا في المدينة. وبما أنّي لم أشأْ قبولَ ذلك، فررْتُ إلى مكانٍ آخر. وهناك، ارتبطْتُ بعلمانيٍّ تقيٍّ دأبَ على المجيءِ إليَّ، وأخْذِ عملي اليدويِّ، وصارَ يخدمُني. فيما بعدُ، تعرّضْتُ لتجربةٍ؛ حدثَ أنّ إحدى العذارى أُخِذَتْ بزلّةٍ في القريةِ المُجاورة. وعندما بانَ حَمْلُها، وسألوها عَن الفاعلِ، قالَتْ: «المتوحّد». أتى سكّانُ القريةِ، وقبضوا عليَّ، وعلّقوا في عنقي قدورًا مُسوَدّةً من الدّخانِ وملاعقَ قذرةً، وجالوا بي في شوارعِ القريةِ كلِّها، وهم يَضربونَني ويقولون: «هذا الرّاهبُ أفسدَ عذراءَنا، خُذوه، خُذوه!» وضربوني كثيرًا حتّى شارفْتُ على الموت. ولكنّ شيخًا أتى، وقالَ: «إلى متى تَضربونَ هذا الرّاهبَ الغريب؟».

كانَ الّذي يخدمُني يمشي ورائي ويَعتريه الخجلُ الشّديدُ، لأنّهم راحوا يشتمونَه كثيرًا، ويقولون: «إليكَ ما فعلَ المتوحِّدُ الّذي تمدَحُهُ أمامَنا». في النّهايةِ، قالَ أهلُ الفتاةِ: «لن نَدَعَهُ يرحَلُ ما لم يتعهّدْ بإعالتِها». حينئذٍ، قلتُ لخادمي أن يتدخّلَ كوسيطٍ، فتركوني. رجعْتُ إلى قلاّيتي برفقتِه، وأعطيْتُهُ كلَّ ما لديَّ من سلالٍ، قائلاً: «بِعْها وأعطِ المرأةَ لتأكلَ». وقلتُ في نفسي: «يا

مكاريوسُ، ها قد وجدْتَ امرأةً. يجبُ أن تعملَ الآنَ أكثرَ لإعالتِها. ودأبْتُ على العملِ، ليلاً ونهارًا، لأُرسِلَ لها ما أجنيه».

عندما حانَ وقتُ ولادتِها، بقيَتِ الشّقيّةُ تتعذّبُ أيّامًا كثيرةً، من دونِ أن تستطيعَ الولادةَ. فبدأَتْ تصرخُ وتقولُ: «أشفِقوا عليَّ أنا الشّقيّةَ، أشفِقوا عليَّ لأنّني ارتكبْتُ رذيلةً مُضاعَفةً، الزّنى والافتراء. كذبْتُ في شأنِ المتوحِّدِ، واتّهمْتُه ظلمًا. هو لم يفعَلْ شيئًا. إنّه الشّابُّ فلانُ مَن أفسدَني». عندما عَلِمَ مَن يخدمُني بذلك، أتى إليَّ مسرعًا، وأخبرَني بما حصلَ، مُضيفًا: ها إنّ القريةَ كلَّها آتيةٌ إلى هنا لتطلُبَ المُسامحةَ وتُكرِّمَك. أمّا أنا، فخشيتُ الضّررَ الّذي تسبِّبُهُ المدائحُ البشريّةُ، وقُمْتُ للتّوِّ وفررْتُ إلى الإسقيط. هذا هو سببُ مجيئي إلى هنا.

٢- كانَ هناك شيخٌ مليءٌ بالرّأفةِ والمَحبّةِ الأخويّةِ، ولا يُفكِّرُ البتّةَ في السّوء. سرقَ أخٌ بعضَ الأواني، وجلبَها إليه، وتركَها عندَه من دونِ أن يعلمَ الشّيخُ بمسألةِ السّرقة. بعدَ بضعةِ أيّامٍ، تعرَّفوا على الأغراضِ المَسروقةِ، واتّهَموا الشّيخَ، فعملَ مطّانيّةً قائلاً: «سامِحوني، أنا أتوب». بعد وقتٍ قليلٍ، أتى الأخُ الّذي سرقَ الأوانيَ، وأودَعَها لدى الشّيخِ ليكلِّمَه. سألَه: «هل سرقْتَ أنتَ الأوانيَ؟» فعملَ الشّيخُ مطّانيّةً للأخِ، قائلاً: «سامِحْني». وإن صادفَ أن أخطأَ أحدُ الإخوةِ وأنكَرَ ذلك، كانَ هذا الشّيخُ يعمَلُ مطّانيّةً قائلاً: «سامِحوني». كانَ هذا الإنسانُ القدّيسُ تقيًّا ومتواضِعًا بالرّوحِ إلى درجةِ أنّه لم يُرِدْ أن يجرحَ أحدًا البتّةَ، ولا حتّى بكلمة.

٣- أخبرَ شيخٌ عن أخٍ شمّاسٍ، في أيّامِ إيسيذورسَ الكبيرِ كاهنِ الإسقيطِ، أرادَهُ هذا الأخيرُ أن يَرتسِمَ كاهنًا بسببِ فضيلتِهِ الكبيرةِ كي يخلفَهُ بعدَ موتِه. ولكنّه، بسببِ تقواهُ، لم يُمارِسِ الكهنوتَ، بل بقيَ شمّاسًا. غيرَ أنّ أحدَ الشّيوخِ غارَ منه، بتحريضٍ من الشّيطان. وفيما كان الإخوةُ كافّةً مُجتمعينَ في الكنيسةِ للصّلاةِ، ذهبَ هذا الشّيخُ، ووضعَ كتابًا يَخُصُّهُ في قلاّيةِ الشّمّاسِ، وذهبَ بعدَ ذلكَ ليقولَ للأبِ إيسيذورسَ إنّ أحدَ الإخوةِ سرقَ

كتابَه. تعجّبَ الأبُ إيسيذورسُ، وقالَ: «لم يحصُلْ أمرٌ كهذا البتّةَ في الإسقيطِ من قبل».

حينئذٍ، قالَ هذا الشّيخُ، الّذي أخفى الكتابَ، للكاهنِ: «أرسِلْ اثنَيْنِ من الآباءِ معي لنفتّشَ القلاّيات». فذهَبوا وفتّشوا أوّلاً قلاّياتِ الآخرينَ، ثمّ أتَوا إلى قلاّيةِ الشّمّاسِ، ووجدوا الكتابَ هناك. جلبوه إلى الكاهنِ في الكنيسةِ، وبحضورِ الشّمّاسِ الّذي كانَ يسمَعُهم، أخبروا عن المكانِ الّذي وجدوه فيه. حينئذٍ، عملَ الشّمّاسُ مطّانيّةً للأبِ إيسيذورسَ أمامَ الجميعِ، قائلاً: «لقد أخطأْتُ؛ أعطِني قصاصًا». وكقصاصٍ، منعَهُ إيسيذورسُ من المناولةِ لثلاثةِ أسابيع. ولدى مجيئِهِ إلى الكنيسةِ، كانَ الشّمّاسُ يَقِفُ أمامَها، وينطرِحُ عندَ أقدامِ الجميعِ، قائلاً: «سامِحوني لأنّني أخطأْتُ». بعدَ ثلاثةِ أسابيعَ، سُمِحَ له بالمناولةِ الإلهيّة. عندَ ذلك، أصابَ الشّيخَ الّذي افترى عليه مَسٌّ شيطانيٌّ، وبدأ يعترفُ ويصرُخُ: «لقد افترَيْتُ على عبدِ اللّه». صلّتِ الكنيسةُ كلُّها من أجلِه، ولكنّه لم يُشفَ. قالَ إيسيذورسُ الكبيرُ للشّمّاسِ أمامَ الإخوةِ جميعًا: «صلِّ من أجلِه، لأنّك أنتَ الّذي افتُرِيَ عليه، ولن يُشفى إلاّ بكَ». وبالفعلِ، حالما بدأ الشّمّاسُ بالصّلاةِ، شُفيَ الشّيخ.

٤- كانَ أحدُ الآباءِ المدعوُّ نيكُنَ يَسكُنُ في جبلِ سيناء. وكانَ فارانيٌّ[٥١٣] يسكُنُ مع ابنتِه في موضعٍ قريب. مرّةً، ذهبَ أحدُهم إلى بيتِهِ أثناءَ غيابِه، فوجدَ ابنتَهُ وحدَها وأخطأَ معها. ثمّ علّمَها أن تقولَ لأبيها: «الأبُ نيكُنُ المتوحِّدُ فعلَ بي ذلك». وما إن عادَ الفارانيُّ، وعَلِمَ بالأمرِ، حتّى أخذَ سيفَه، وسارَعَ إلى الشّيخِ، وقلبُهُ يشتعلُ بالغضبِ والحزن. طرقَ على البابِ، وحالما خرجَ الشّيخُ، استلَّ الفارانيُّ سيفَهُ لقتلِه، ولكنّ يدَهُ يَبِسَتْ للحال.

وبما أنّه عجزَ عن قتلِ الشّيخِ، ذهبَ إلى الكهنةِ وأخبرَهم، فأرسلوا في طلبِه. عندَ مجيءِ الشّيخِ، ضرَبوه كثيرًا، وأرادوا طردَه، ولكنّه توسّلَ إليهم قائلاً: «من أجلِ اللّهِ، اترُكوني هنا كي أتوب». حينئذٍ، منعوه لمدّةِ ثلاثِ سنواتٍ

٥١٣. كانَتْ فارانُ مدينةً في شبهِ جزيرةِ سيناء، شمالَ الدّيرِ المعروف.

عن تناولِ القرابينِ المُقدَّسةِ، والحضورِ إلى الكنيسةِ، وأصدروا أمرًا يقضي بألاّ يزورَهُ أحد. هكذا، أمضى ثلاثَ سنواتٍ يسجدُ عندَ أقدامِ الجميعِ، أمامَ الكنيسةِ، ويطلبُ منهم الصّلاةَ من أجلِه.

أخيرًا، أُصيبَ مُرتكِبُ الخطيئةِ، والمُفتري على الشّيخِ، بمَسٍّ شيطانيٍّ. وفيما كانَ الشّيطانُ يجلِدُه، اعترفَ في الكنيسةِ، وقالَ: «لم يفعَلْ عبدُ اللّهِ شيئًا، ولكنّي أنا مَن ارتكبَ الخطيئةَ، وقلْتُ لها أن تشيَ به». عندما سَمِعَ جميعُ النّاسِ بذلكَ، ذهبوا إلى الشّيخِ الّذي كانَ مُستغرِقًا في التّأمُّلِ في قلاّيتِه، وصنعوا له مطّانيّةً، قائلين: «سامِحْنا، يا أبانا». فأجابَهم: «ليسامِحْكُمُ اللّه. ولكنّي لن أسكُنَ فيما بعدُ معَكم، لأنّه لم يوجَدْ بينَكم شخصٌ مميّزٌ ليُظهرَ قليلاً من الرّأفةِ نحوي». ورحلَ الشّيخُ للحالِ من هناك.

في ظنّي أنّ الشّيخَ لم يرحَلْ للسّببِ الّذي قالَهُ لهم عندما وبَّخَهم على نقصِ الرّأفةِ والتّمييزِ، ودعاهُم إلى إصلاحِ ذواتِهم فحسبُ، بل لأنّه أرادَ أيضًا أن يتجنَّبَ مديحَهم والإكرامَ الّذي سَيُولونَهُ إيّاه من الآن فصاعدًا، بعد أن عرفوا بفضيلتِهِ الكبيرةِ، ونبالتِهِ، وشجاعتِهِ المَرضيّةِ للّه.

- عن الأبِ أشعيا -

إن افترى عليكَ أحدٌ في أمرٍ ما، فلا تَخَفْ، بل، سواءَ علمْتَ بالأمرِ أم لا، اعمَلْ له مطّانيّةً قائلاً: «سامِحْني، لن أكرِّرَ فعلتي».

- عن القدّيسِ مكسيموس -

عندما يرى الشّياطينُ أنّنا نحتقرُ أمورَ هذا العالَمِ كي لا تؤدّيَ بنا إلى كرهِ البشرِ بسببِها، والسّقوطِ من المحبّةِ، يُثيرونَ علينا الافتراءاتِ، لتحملَنا على كرهِ المُفتَرينَ، بسببِ عجزِنا عن احتمالِ الحزن. إنّ أقسى الآلامِ هو ألَمُ مَن يُفترى عليه بسببِ إيمانِهِ أو سلوكِه. ولا يستطيعُ أحدٌ أن يبقى لامُباليًا تجاهَ الافتراءِ، سوى ذاك الّذي ينظُرُ نحوَ اللّهِ القادرِ وحدَه على أن يُخلِّصَنا من الأحزانِ، وعلى إظهارِ الحقيقةِ كاملةً أمامَ النّاسِ، كما فعلَ من أجلِ سوسنّةَ في القديمِ. فهو الوحيدُ القادرُ على تعزيةِ النّفسِ بالرّجاء. بقدرِ ما تُصلّي من كلِّ

نفسِكَ لأجلِ مَن افترى عليكَ، يُظهِرُ اللّهُ الحقيقةَ أمامَ مَن تعثّروا من جرّاءِ الافتراء.

- عن القدّيسِ أفرام -

إن حدثَ أنِ افتُري عليكَ، ثمّ بُرهِنَ عن نقاوةِ ضميرِك، فلا تترفَّعْ، بلِ اخدُمِ الرّبَّ الّذي خلّصَكَ من افتراءِ البشرِ[٥١٤] بتواضُعٍ، لئلاّ تقعَ في ورطةٍ رهيبة.

---

٥١٤. أنظر مز ١١٨، ١٣٤.

الفصل السّابع والأربعون

الكلامُ والصّمتُ. كيفَ ومتى يجبُ استعمالُهما. والثّرثرةُ لا تخلو من العيب.

- عن بالاديوس -

يُحكى أنّ بامفو الكبيرَ، عندما أَوْشكَ أن يموت، وتحلّقَ حولَ سريرِهِ أوريجنّسُ، وأمّونيوسُ، وآباءٌ قدّيسونَ آخرونَ، أعلنَ قائلاً: «مُذْ أتيتُ إلى هذه الصّحراءِ وحتّى هذه السّاعةِ، ليس لي ما أندَمُ عليه من الأقوالِ الّتي تفوّهتُ بها. على الرّغمِ من ذلك، أنا ذاهبٌ إلى اللّهِ كأنّني لم أبدَأْ خدمتَهُ بعد». أخبرَني أوريجنّسُ وأمّونيوسُ أنّه، لدى سؤالِهِ عن كلمةٍ في الكتابِ المُقدَّسِ، أو عن سلوكٍ نسكيٍّ، لم يَكُنْ يُجيبُ للحال. بالأحرى، كانَ يقولُ: «لم أجِدِ الجوابَ بعد». غالبًا ما كانَتْ تمرُّ ثلاثةُ أشهرٍ من دونِ إعطاءِ جوابٍ، قائلاً إنّه لم يُدرِكْهُ بعد. كانَ جميعُ النّاسِ يقبلونَ الآراءَ الّتي يُعطيها بحذرِهِ الرّوحيِّ المُقدَّسِ، وبتوقيرٍ كبيرٍ، كأنّها آتيةٌ من اللّهِ نفسِه.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ شيخٌ: «إنسانٌ يبدو صامتًا، ولكنّه يُدينُ الآخرينَ في داخلِه. إنسانٌ كهذا يتكلّمُ باستمرار. وآخرُ يتكلّمُ من الصّباحِ حتّى المساءِ، ومع ذلك، يحفَظُ الصّمتَ لأنّه لا يقولُ شيئًا يخلو من الفائدةِ الرّوحيّة.

٢- سُئِلَ شيخٌ: «ماذا تعني عبارةُ: يُعطي حسابًا عن كلِّ كلمةٍ

بطّالة؟»[515] أجاب: «كلُّ كلمةٍ تُقالُ بشأنِ الأشياءِ المادّيّةِ من دونِ ضرورةٍ هي ثرثرة. وحدَهُ الحديثُ الّذي يُقالُ بشأنِ خلاصِ النّفسِ ليس بثرثرة. مع ذلك، حتّى بهذا الشّأنِ، يُفضَّلُ الكلامُ القليلُ، لأنّه، بينما تقولُ الحَسَنَ، يأتي السَّيِّئُ أيضًا».

٣- زارَ أخٌ شيخًا، وقالَ له: «يا أبتِ، قُلْ لي كلمةً تُرشِدُني إلى الخلاص». قالَ الشّيخُ: «عندما تزورُ أحدًا، لا تستهِلَّ الكلامَ قبل أن تُسأَل». فتخشّعَ الأخُ من هذا القولِ، وسجدَ له قائلاً: «في الحقيقةِ، لقد قرأْتُ الكثيرَ من الكتبِ، ولكنّني لم أتلَقَّ درسًا كهذا». وذهبَ مُنتفعًا للغاية.

٤- يُقال عن الأبِ عمواس إنّه، أثناءَ ذهابِهِ إلى الكنيسةِ، اعتادَ ألاّ يَدَعَ تلميذَهُ يمشي بقربِه، إنّما على مسافةٍ منه. وإن أتى هذا الأخيرُ ليسألَهُ عن أفكارِه، كانَ يُجيبُهُ بعبارةٍ مُختصرةٍ، ويطردُهُ للحالِ قائلاً: «قد تنزلِقُ كلماتٌ غريبةٌ أثناءَ الحديثِ من أجلِ المنفعةِ الرّوحيّة. لذلك، أنا لا أدعُكَ تبقى بالقربِ منّي».

٥- يُقالُ عن الأبِ عمّونَ إنّه ذهبَ ليزورَ الأبَ بيمنَ، وقالَ له: «إن ذهبتُ إلى قلاّيةِ جاري، أو إن أتى هو إليّ لأجلِ حاجةٍ، فنحن نخافُ أن نتحادثَ سويًّا خشيةَ انزلاقِ أقوالٍ غريبةٍ خلالَ المُحادثة». قالَ له الشّيخُ: «أنت تصنَعُ حسنًا، لأنّ الشّبّان يحتاجونَ إلى يقظة». حينئذٍ، سألَهُ الأبُ عمّونُ: «ماذا فعلَ الشّيوخُ؟» أجابَه: «لم يملِكِ الشّيوخُ أيَّ شرٍّ في داخلِهم، فلم تأتِ أيّةُ كلمةٍ غريبةٍ على أفواهِهم ليتكلّموا بها». قالَ عمّونُ ثانيةً: «ولكن، إن دعَتِ الحاجةُ إلى التّكلّمِ مع القريبِ، فهل تريدُ أن أتكلّمَ من الكتابِ المُقدّسِ، أو من أقوالِ الآباءِ الشّيوخ؟» أجابَ الشّيخُ: «إن لم تستطِعِ الاحتفاظَ بالصّمتِ، فمن الأفضلِ أن تتكلّمَ بأقوالِ الشّيوخِ على أن تتكلّمَ من الكتابِ

---

٥١٥. مت ١٢: ٣٠.

المُقدَّسِ، لأنَّ تفسيرَ الكتابِ المُقدَّسِ يَحوي خطرًا ليس بقليلٍ بالنّسبةِ إلى غيرِ الكاملين».

٦- قالَ الأبُ أشعيا: «الحكمةُ لا تَكمُنُ في الكلام. الحكمةُ هي في معرفةِ الوقتِ المُلائمِ للكلامِ، والإجابةِ بما يجب. إدَّعِ الجهلَ، بمعرفةٍ روحيّةٍ، فتنجوَ من مشقّاتٍ كثيرة. في الواقعِ، مَن يُظهِرْ علمَهُ يجلبْ لنفسِهِ مشقّاتٍ كثيرة. لا تفتخِرْ بعلمِكَ، فما من أحدٍ يعرفُ كلَّ شيء».

٧- سأل أخٌ الأبَ ماتوييسَ قائلاً: «ماذا أفعلُ، فإنّ لساني يُعذِّبُني عندما أقتربُ من النّاسِ، ولا أقدرُ على ضبطِه. أُدينُهم في كلِّ عملٍ صالحٍ يَقومونَ به، وألومُهم. فماذا أفعل؟» أجابَ الشّيخُ: «إن لم تستطِعْ، بسببِ ضعفِكَ، أن تتمالَكَ نفسَك، فاهرُبْ إلى الوحدة. على مَن يَسكنُ مع إخوةٍ ألاّ يكونَ مُكَعَّبًا، إنّما كُرَويًّا، لئلاّ يُسبِّبَ جروحًا لأحد. وأنا أيضًا، ليس بقائي في الوحدةِ بسببِ الفضيلةِ، إنّما بسببِ الضّعف. الأقوياءُ هم الإخوةُ الّذينَ يَسكنونَ بين البشر».

٨- قالَ الأبُ يوسفُ: «بينما كنّا جالسينَ ذاتَ يومٍ مع الأبِ بيمنَ، دعا أغاثونَ بالشّيخ. فقُلْنا له: إنّه شابٌّ أكثرَ منك، فلماذا دعوتَهُ بالشّيخ؟ فأعلنَ الشّيخُ: لأنّ فمَهُ جعلَني أدعوه شيخًا».

٩- قالَ شيخٌ: «إن اقتنيتَ الصّمتَ، فلا تَرَ نفسَكَ أنجزتَ أيّةَ فضيلةٍ، إنّما قُلْ: أنا لستُ مُستحِقًّا حتّى للتّكلُّم».

١٠- أخبرَ أحدُ الآباءِ أنّه، ذاتَ يومٍ، أثناءَ جلوسِ الشّيوخِ، وتكلُّمِهم بما يُفيدُ النّفسَ، رأى أحدُهم ملائكةً يَفرحونَ بهم، ويُظهِرونَ علاماتِ الرِّضا، وكانَ يتمتّعُ بموهبةِ رؤيةِ الحقائقِ الرّوحيّة. ولكن، حالما بدأوا بالتّحدّثِ عن أمورٍ أخرى، ابتعدَ الملائكةُ، وجالَتْ خنازيرُ نتنةٌ في وسطِهم وأخذَتْ تلحَسُهم.

أمّا عندما تكلّموا من جديدٍ عمّا يُفيدُ النّفسَ، استعادَ الملائكةُ فرحَهم بهم.

١١- قيلَ عن الأبِ أور إنّه لم يكذِبِ البتّةَ، ولا حلفَ، ولا أهانَ أحدًا، ولا تكلّمَ من دونِ ضرورة.

١٢- كانَ يقولُ دائمًا الأمرَ ذاتَهُ لتلميذِهِ بولسَ: «انتبِهْ ألاّ تأتيَ بأيّةِ كلمةٍ غريبةٍ إلى هذه القلاّية».

- عن القدّيسِ أفرام -

لن يحصلَ الرّاهبُ على الثّباتِ، ولن يجدَ الرّاحةَ ما لم يملُكْ، أوّلاً، محبّةَ الصّمتِ والتّقشُّف. إنّ مَن يُكثِرُ الكلامَ في وسطِ الإخوةِ، يُكثِرُ معه الشّجاراتِ، وسيَغدو مكروهًا أكثر. أمّا مَن يُقلِّلُ الكلامَ، فسيكونُ مَحبوبًا.

يا أخي، يَصُرُّ الرّياضيُّ على أسنانِهِ أثناءَ تمرينِه. هكذا أنتَ، أقفِلْ فمَكَ عن الكلماتِ غيرِ النّافعةِ، وستجدُ الرّاحة.

إنّ مَن يُكثِرُ الكلامَ، يجعَلُ نفسَهُ مَكروهةً، أمّا المُنتبِهُ إلى كلامِهِ، فمحبوبٌ. الإنسانُ الّذي يَضَعُ حارسًا على فمِهِ، يحفظُ نفسَهُ، أمّا المتسرّعُ في الكلامِ، فيصادفُ مفاجآتٍ مُحزِنةً[٥١٦]، كما قيلَ في موضعٍ آخرَ من الكتابِ المُقدّسِ، يُقادُ إلى دمارِ نفسِه[٥١٧].

حديقةٌ من دونِ سورٍ تُداسُ بالأقدامِ وتُتلَف. هكذا، مَن لا يحرسْ فمَهُ يُضَيِّعْ ثمارَهُ الرّوحيّة.

بما يتعلّقُ بالثّرثرةِ، ضَعْ جيّدًا في ذهنِك، أيّها الرّاهبُ، أنّ نهايةَ عشَرةِ آلافِ كلمةٍ هو الصّمت. أمّا إن فضّلتَ ما هو مُفيدٌ، وأعني الصّمتَ، فستتجنّبُ كلَّ أذيّة.

إنّ الصّمتَ للمبتدئِ هو كاللّجامِ للحصان. أمّا مَن يُعوِزُهُ الصّمتُ، فسيقعُ في خطايا عديدة.

---

٥١٦. أنظر أم ١٣، ٣.
٥١٧. أم ١٠، ١٤.

- عن أنطيوخوسَ البَنْديكتي -

يليقُ بالرّاهبِ أن يتحدّثَ كثيرًا إلى اللّهِ، وقليلاً إلى البشر. فالثّرثرةُ تُشتّتُ الذّهنَ كلّيًّا، وتَجعَلُهُ مُهمِلاً في عملِهِ الرّوحيِّ، إلى أن تُسلِّمَهُ إلى شيطانِ الضّجر. بالتّالي، وفي جميعِ الأحوالِ، خيرٌ لنا أن نصمُتَ لأنّه، كما أنّ الكنزَ المَلَكيَّ يطفَحُ بالذّهبِ، هكذا ذهنُ الرّهبانِ الحقيقيّينَ يَمتلِئُ من المعرفةِ الإلهيّة. قد يسأَلُ أحدُهم: «لماذا تابعَ بولسُ كلامَهُ حتّى منتصفِ اللّيل؟»[٥١٨]، نقولُ له: لأنّه توجّبَ عليه الانطلاقُ في سفرِهِ أوّلاَ، ثمّ، لأنه، في ذلك الحينِ عند بدءِ البشارةِ المسيحيّةِ، كانَ سامعوه موعوظينَ حديثينَ، وكانوا يحتاجونَ إلى دَعمٍ روحيٍّ كبير. بالإضافةِ إلى ذلكَ، لم يَكُنْ بولسُ المُتكلّمَ، بل، بامتلائِهِ من الرّوحِ القدسِ، كانَ الرّوحُ يتكلَّمُ من خلالِه، كما يقولُ بنفسِه: «ربّما تُفتِّشونَ عن البرهانِ أنّ المسيحَ يتكلّمُ فيّ»[٥١٩].

إنّ الّذينَ يَحمِلونَ الرّوحَ القدسَ فيهم، لا يتكلّمونَ لدى رغبتِهم في ذلك، إنّما عندما يَدفعُهم الرّوحُ السّاكنُ فيهم. مثلُ هؤلاءِ، وإن حدثَ لهم أن تكلّموا بوفرةٍ، لا تَلحَقُ بهم أيّةُ مَضرّةٍ، لأنّهم يَملكونَ نعمةَ الرّوحِ القدسِ الّتي تُنيرُهم وتَصونُ طهارةَ أذهانِهم. وهم يَحسَبونَ الصّمتَ المُصانَ في أوانِه، لأسبابٍ صالحةٍ، أكثرَ إفادة. علاماتُ حضورِ الرّوحِ القدسِ في الإنسانِ هي اللّطفُ، ومحبّةُ الهدوئيّةِ، وتواضُعُ الفكرِ، وحكمةٌ جزيلةٌ، ومَعرفةٌ عميقةٌ، وعدمُ اشتهاءِ مَلَذّاتِ هذا العالمِ وأمجادِهِ، ورغبةٌ لا تُشبَعُ في الحقائقِ السّماويّة.

- عن الأبِ أشعيا -

إن احتجتَ إلى التّكلُّمِ مع أخيكَ، فَتكلَّمْ بإيجازٍ، بتواضُعٍ وتُقًى، بما أنّ اللّهَ مُنتبِهٌ إلينا على الدّوامِ، ولا تبحَثْ عن قولِ ما لا يُفيدُ، أو سَماعِه.

إن لم يُكَرِّمِ الإنسانُ ذاتَهُ، وسَهِرَ على إبقائِها مجهولةً، وحَفِظَ الصّمتَ، فذلك يُشيرُ إلى أنّه لا يُطيعُ أهواءَهُ، بل يعمَلُ مشيئةَ اللّه. إنّ مَن

٥١٨. أع ٢٠، ٧.

٥١٩. ٢ كور ١٣، ٣.

يُريدُ الاستفاضةَ في الحديثِ أمامَ جمعٍ كثيرٍ، يُظهِرُ أنّ مخافةَ اللّهِ ليسَتْ فيه. مخافةُ اللّهِ حارِسَةٌ للنّفسِ، ومُساعِدةٌ لها، تَجعلُ الذّهنَ مُركّزًا، فيسحقُ جميعَ أعدائه. إن سَهِرَ إنسانٌ على لسانِه، أشارَ بوضوحٍ إلى أنّه فاضل. أمّا عدمُ ضبطِ اللّسانِ، فيُشيرُ إلى أنّ الإنسانَ خالٍ من أيّةِ فضيلةٍ داخليّة. إنّ حِفْظَ الفمِ يرفَعُ الذّهنَ إلى اللّهِ، شرطَ أن يصمُتَ المرءُ بمعرفة. أمّا الثّرثرةُ، فتُولِّدُ الضّجرَ والغضب.

يا أخي، إحفَظْ نفسَكَ دائمًا في النّوحِ، والتّواضُعِ، والدّمعةِ الدّاخليّة. أصمُتْ دائمًا حاسبًا نفسَكَ غيرَ مُستحِقٍّ وجاهلاً، ولا تتفوّهْ بكلمةٍ إن لم تَدْعُ الحاجةُ إلى ذلك. إن حَدَثَ وتَوجَّبَ عليك الكلامُ، فاحكُمْ أوّلاً إن كان مبارَكًا وموافِقًا لمشيئةِ اللّهِ أن تتكلَّمَ أو أن تَصْمُت. حينئذٍ فقط، افتَحْ فمَكَ بخوفٍ وخشيةٍ، ناظرًا إلى الأسفلِ، ومُتكلِّمًا بوقارٍ وصوتٍ منخفض. هكذا، إن تكلّمتَ مع أحدٍ، فقُلْ له بعضَ الكلماتِ بداعي المحبّةِ، واخلُدْ سريعًا إلى الصّمت. وإن سألَكَ أحدٌ أمرًا ما، فاكتَفِ بالإجابةِ بما هو ضروريّ، ولا تَقُلِ المزيد.

- عن القدّيسِ ذياذوخوس -

إذا ما فُتِحَتْ أبوابُ الحمّاماتِ باستمرارٍ، تَخرُجُ الحرارةُ منها سريعًا. هكذا النّفسُ أيضًا، إذا ما استسلمَتْ لرغبتِها في كثرةِ الكلامِ، حتّى وإن كانَ كلُّ ما تقولُهُ حسنًا، فإنّها تُبدِّدُ ذكرَها للّهِ عبرَ فمِها المَفتوح. ولذا، تُمسي مَحرومةً الأفكارَ الرّوحيّةَ الموافقةَ، وتُصبِحُ مُزعجةً عندما تَعرُضُ على القادمينَ الأوائلِ سيلَ أفكارِها، إذ باتَتْ لا تَقتني الرّوحَ القدسَ ليصونَ ذهنَها من التّخيّلات. فالرّوحُ الصّالحُ يهربُ دومًا من الثّرثرةِ، لأنّها مُسبِّبَةٌ لكلِّ نوعٍ من الاضطرابِ والتّخيّل. إذًا، الصّمتُ، في وقتِهِ المُناسبِ، أمرٌ جميلٌ، وهو خيرُ مُوَلِّدٍ للأفكارِ الحكيمةِ جدًّا.

- عن القدّيسِ مكسيموس -

مَن يَصْمُتْ برياءٍ، ينصُبْ فخًّا لقريبِه. إن فَشِلَ في ذلك، يَرحلُ مُضيفًا إلى هواهُ حزنَ الفشل. ولكنّ الّذي يَصمُتُ بهدفِ الإفادةِ، يُوطِّدُ الصّداقةَ،

ويَرحلُ فرِحًا، لأنّه تلقّى الاستنارةَ الّتي تُبدِّدُ الظّلمة.

إنّ الّذي يقطَعُ فجأةً سماعَ ما يُقال أثناءَ الاجتماعِ، يُظهرُ أنّه مَريضٌ بالمجدِ الباطل. وبتأثيرِ هذا الهوى يُقَدِّمُ اعتراضاتٍ لا تُحصى، بهدفِ قطعِ مَنطقِ المُتحدّث.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- سألَ الأبُ يوسفُ الأبَ نيستروسَ: «ماذا أفعلُ بلساني، لأنّني لا أستطيعُ حِفظَه؟» أجابَهُ الشّيخُ: «عندما تتكلَّمُ، هل تشعرُ بالرّاحة؟» قال: «لا». حينئذٍ، قالَ الشّيخُ: «إن لم تشعُرْ بالرّاحةِ، فلماذا تتكلَّمُ؟ الأفضلُ أن تحفظَ الصّمتَ، وإن جَرَتْ محادثةٌ، فاسمَعْ كثيرًا وتكلَّمْ قليلاً».

٢- قالَ الأبُ بيمنُ: «إن حفظتَ الصّمتَ، شعرتَ بالرّاحةِ حيثُما حَلَلْتَ».

٣- قرّرَ أخوانِ من الإسقيطِ أن يذهبا لرؤيةِ الأبِ أنطونيوس. أبحرا برفقةِ شيخٍ لا يعرفانه، ذاهبٍ بدورِهِ إلى الأبِ أنطونيوس. أثناءَ جلوسِهم في المركبِ، شرعَ الأخوان يتكلّمانِ في أقوالِ الآباءِ، وفي مقاطعَ من الكتابِ المُقدّسِ وحولَ عملِهما اليدويّ. أمّا الشّيخُ، فما لبِثَ صامتًا.

بعد نزولِهم من المركبِ، أتَوا إلى الأبِ أنطونيوس. هذا الأخيرُ قالَ للإخوة: «لقد وجدتُما رفقةً حسنةً في هذا الشّيخ». ثمّ قالَ للشّيخِ: «وأنتَ، يا أبتِ، وجدتَ أخوَيْن طيِّبَيْن». أجابَ الشّيخُ: «إنّهم طيّبون بالتّأكيد. ولكنْ، ليس لباحتِهما بابٌ. ويستطيعُ كلُّ مَن شاءَ أن يدخلَ إلى الاسطبلِ، ويَحُلَّ الحمار». قالَ هذا وهو يعني أنّهما كانا يتلفَّظانِ بكلِّ كلمةٍ تأتي إلى لسانِهما.

٤- يُقالُ عن الأبِ أغاثونَ إنّه وَضَعَ حصاةً في فمِهِ لمدّةِ ثلاثِ سنينَ، حتّى تعلّمَ الصّمت. فتأمَّلْ أنتَ، يا مَن تُجاهِدُ في سبيلِ الفضيلةِ، واقتَدِ بمثابرةِ هذا الشّيخ. وإن لم تستطِعِ الاقتداءَ به، فتواضَع.

٥- قالَ الأبُ بيمنُ: «لو تذكَّرَ الإنسانُ كلامَ الكتابِ المُقدّس: بكلامِكَ تَتبرَّرُ، وبكلامِكَ تُدانُ[٥٢٠]، لاختارَ بالأَولى الصّمت».

٦- هو نفسُهُ قالَ إنّ أخًا سألَ الأبَ بامبو إن كان حسنًا أن نمدَحَ القريب. وأجابَه: «من الأفضلِ أن نصمت».

٧- قالَ الأبُ سيسوي: «لي ثلاثونَ سنةً لا أطلبُ إلى اللّهِ من أجلِ أيّةِ خطيئةٍ أخرى، ما خلا خطيئةِ الكلامِ الكثير. أبتهِلُ هكذا: ربِّي يسوعَ، احمِني من لساني. وحتّى الآن، أنا أسقطُ كلَّ يومٍ بسببِهِ، وأرتكِبُ الخطيئة».

- عن القدّيسِ إسحق -

لقرارِ حِفْظِ الصّمتِ وصيانةِ الهدوئيّةِ ثلاثةُ أسبابٍ: إمّا المجدُ الّذي ننتظرُهُ من النّاسِ، وإمّا حرارةُ الحماسةِ الّتي نُغذّيها لأجلِ الفضيلةِ، وإمّا الحديثُ الدّاخليُّ مع اللّهِ، الّذي نخلُدُ إليه، والّذي يجذبُ الذّهنَ إليه. إنّ مَن ليس لديهِ أحدُ هذَيْن السّببَيْن الأخيرَيْن، أي الثّاني والثّالثِ، هو مريضٌ بشكلٍ فتّاكٍ بالأوّل.

إن حفِظْتَ لسانَكَ، يَهبْكَ اللّهُ نعمةَ تخشُّعِ القلبِ الّتي بها تتأمَّلُ نفسَكَ، أعني نورَ ذهنِكَ، وستمتلِئُ من فرحِ الرّوحِ القدس. أمّا إن غلبَكَ لسانُكَ، فلن تستطيعَ أن تنجوَ من الظّلمة. إن لم تَقْتَنِ قلبًا نقيًّا، فعلى الأقلِّ، اقتَنِ فمًا نقيًّا، كما قالَ أحدُ القدّيسين.

---

٥٢٠. مت ١٢، ٣٧.

الفصل الثّامن والأربعون

القَسَمُ البسيطُ خطيئةٌ، أمّا القَسَمُ الكاذبُ فعقابُه لا مفرَّ منه. إن أقسمَ أحدُهم بتسرُّعٍ أن يعملَ ما يُخالِفُ وصيّةَ اللّهِ، يجبْ أن يتراجعَ ويَتوب.

- من حياةِ القدّيسِ أفثيميوس -

كانَ رجلٌ من قريةِ «فاران» يُدعى كيرياكوسَ، راعيَ قطيعِ غنمٍ يصطحِبُها إلى المراعي العاليةِ المُنعزلة. أَمَّنَهُ رجلٌ من قريتِهِ، فقيرٌ مثلُه، على عشَرةِ خرافٍ له ليرعاها مع خرافِه. بعدَ حينٍ، عضَّتِ الفقيرَ الحاجةُ، وبما أنّه لم يَكُنْ يملُكُ شيئًا آخرَ، فكَّرَ للحالِ في بيعِ قطيعِهِ الصّغير.

لكنّ كيرياكوسَ كانَ إنسانًا شرّيرًا، على ما بدا، وآثَرَ الرّبحَ القليلَ على الاعترافِ بالحقيقةِ، فأعادَ له ثمانيةَ خرافٍ، مُدَّعِيًا أنّ هذا هو عددُ الخرافِ الّتي تسلَّمَها منه منذُ البدء. فطالبَه المسكينُ بالخروفَيْنِ الباقيَيْنِ، ولكنّ كيرياكوسَ أنكرَ الحقيقةَ، فتجادلا، واحتدمَ الجدالُ بينهما. تدخّلَ بعضُ النّاسِ لمُصالحتِهما، واقترحوا عليهِما أن يحلفَ مَن يُريدُ، لوضعِ حدٍّ للخلاف. قَبِلَ كيرياكوسُ أن يُقسِمَ، فطلبَ منه الفقيرُ أن يُقسِمَ أمامَ قبرِ أفثيميوسَ الكبيرِ، واتّفقا على الذّهابِ في يومٍ مُحدَّد.

في اليومِ المُحدَّدِ، نزلَ كيرياكوسُ مع الفقيرِ إلى الدّيرِ ليُقسِمَ، أو بالأحرى ليحلِفَ بالكَذِب. أثناءَ سَيْرِهما على الطّريقِ الّذي يقودُ من أورشليمَ إلى أريحا، لاحَ الدّيرُ من بعيد. عندما رأى الفقيرُ أنّ كيرياكوسَ مُزمِعٌ أن يحلفَ يمينًا كاذبةً، وكأنَّ القسمَ على طَرَفِ لسانِهِ، خافَ كأنّه هو نفسُهُ المُزمِعُ أن يفعلَ ذلك. لذلك، قالَ: «لنَعُدْ، يا أخي، يكفيني استعدادُكَ لتحلِفَ

حتّى أصدِّقَكَ، ولا أريدُ شيئًا آخرَا» فَلَم يَرضَ كيرياكوسُ، وكأنَّ الحقَّ إلى جانبِهِ، وأصرَّ بوقاحةٍ على القسم.

لدى دخولِهما الدّيرَ، تجاسرَ كيرياكوسُ، وحلفَ يمينًا كاذبةً أمامَ القبر. يقولُ الإنسانُ الجاهلُ في قلبِه: «إنّه لا يوجدُ إلهٌ»[٥٢١]، ولكنَّ كيرياكوسَ نفسَهُ نَسِيَ اللّهَ، مُعتقدًا أنَّ اللّهَ لا يراه. ثمّ عادَ إلى بيتِهِ مُتمتّعًا، عن جهلٍ، بالرّبْحِ غيرِ المُتوقَّعِ الّذي جناه باليمينِ الكاذبة.

في تلك اللّيلةِ، حوالي مُنتصفِ اللّيلِ، فيما كانَ كيرياكوسُ مُستلقيًا على السّريرِ، من دونِ أن يغفوَ، بدا له كأنَّ البابَ انفتحَ من تلقاءِ ذاتِه، ودخلَ راهبٌ شيخٌ مع خمسةِ شبّانٍ، وهو يُمسِكُ بيدِهِ اليُمنى عصًا، وملأَ النّورُ الّذي يَشُعُّ منه البيتَ كلَّه. نظرَ إليه هذا الرّاهبُ شَزْرًا، وقالَ له بصوتٍ قاسٍ: «أيّها الجاهلُ، كيفَ تجرّأتَ وحلفتَ يمينًا كاذبةً عند قبرِ أفثيميوسَ؟» فخَرِسَ كيرياكوسُ، ولم يَجِدْ جوابًا يُبَرِّرُ به نفسَه. فأمرَ القدّيسُ مُرافقيه بإنزالِ القصاصِ به. فمدَّدَهُ أربعةٌ منهم، فيما أعطى هو العصا للخامسِ آمرًا إيّاه أن يضربَه بقَسْوَةٍ، حتّى لا يتجرّأَ، ويُهينَ اللّهَ مرّةً أخرى، ويُقسِمَ قَسَمًا كاذِبًا، ويأخذَ ما ليسَ له.

عندما رأى أنّه ضُرِبَ ما فيه الكفايةُ، توقّفَتْ يدُ الشّابِّ، وأمسكَ كيرياكوسَ من شعرِهِ، وقالَ له: «ألا تعلَمُ، أيّها الأثيمُ، أنَّ هناك إلهًا يُدينُ أفعالاً كهذه على الأرضِ[٥٢٢]؟ فاعلَمْ أنّكَ، في هذه اللّيلةِ، تُسْلِمُ روحَك. فلِمَنْ يكونُ ما جمعْتَهُ بغيرِ حقٍّ[٥٢٣]؟ جعلْتُ عليكَ هذا العقابَ لإصلاحِ الآخرينَ، ولِيَفِرّوا من خطرِ القسمِ الكاذبِ، ويجتنِبوا حتّى القسمَ بحقٍّ!».

بعدَ هذه الأقوالِ المُهدِّدةِ، انصرفَ القدّيسُ للحالِ مع مُرافقيه. أمّا كيرياكوسُ، فاضطربَ من الرّؤيا، ولم يستطِعِ احتمالَ آلامِ الضّرباتِ، وبدأَ يَصرُخُ بقوّةٍ، وهو يَدعو جيرانَه. أراهم جراحاتِهِ، واعترفَ بأنّه أقسمَ يمينًا كاذبةً واصفًا لهم مُصابَهُ بدموع. ثمَّ رجاهم أن يأخذوه إلى قبرِ القدّيسِ، قائلاً: «ربّما مَن وجَّهَ لي هذه الضّرباتِ الّتي لا تُحتَمَلُ، يَشفيها بسهولةٍ، بما

---

٥٢١. أنظر مز ١٣، ١.   ٥٢٢. أنظر مز ٥٧، ١٢.   ٥٢٣. أنظر لو ١٢، ٢٠.

أنّه تلميذُ ذاك الّذي من طبيعتِهِ أن يؤثِرَ عملَ الصّلاحِ على أن يُعاقِب. فإنَّ معارِفَ الأطبّاءِ وعنايتَهم تبقى عاجزةً أمامَ هذا الجَمِّ من الآلام».

لدى سماعِهِ ورؤيةِ كثرةِ جراحِهِ، خافَ جيرانُهُ كثيرًا، ولكنّهم أرادوا تحقيقَ رغبتِهِ، ففكّروا في أن يحمِلوه على الشّكلِ التّالي: ملأوا كيسَيْنِ من القَشِّ، وثبّتوهما جيّدًا على جانبَيْ حمارٍ، ووضَعوه بينهما، وأخذوه إلى الدّيرِ، وتحديدًا، إلى القبر.

عندما أخبَرونا بما جرى له، وأرونا الجراحاتِ على ظهرِهِ، خافَ الإخوةُ جميعُهم خوفًا عظيمًا، إلى حدِّ أنّه، منذ ذلكَ الحينِ، لم يَعُدْ أحدٌ يجرُؤُ ويحلفُ يمينًا، لا فَرْقَ إن كانَتْ صادقةً أو كاذبةً، كما وأنّهم لم يُطالِبوا أحدًا بالقَسَمِ، أمامَ قبرِ القدّيسِ، في مسألةٍ تَخُصُّهم.

بَقِيَ أولئكَ النّاسُ معَنا طولَ اليوم. ولكنّهم، لدى رؤيتِهم حالةَ كيرياكوسَ تزدادُ سوءًا، وفِقْدانِهم الأمَلَ بنجاتِهِ من الموتِ - لأنّ مَعِدَتَهُ انفتَحَتْ، وكان يتقيَّأُ باستمرارٍ- حَمَلوه من جديدٍ، وأخذوه إلى بيتِهِ. بَقِيَ حَيًّا تلكَ اللّيلةَ فقط، وماتَ في اليومِ التّالي.

- عن كتابِ الشّيخ -

أخبرَ الأبُ زوسيما: «ذاتَ يومٍ، بينما كنتُ في المدينةِ المُقدَّسةِ أورشليمَ، اقتربَ منّي مسيحيٌّ تَقِيٌّ، وقالَ لي: «يا أبتِ، لي أخٌ أعيشُ معه، وبتحريضٍ من الشّيطانِ، تخاصَمنا. فيما بعدُ، طلبْتُ المغفرةَ، ولكنّه أبى أن نتصالَح. لذلك، أتوسَّلُكَ، حُبًّا بالرّبِّ، كلِّمْهُ كي يَحلَّ السّلامُ بيننا». حالما سمعْتُ هذه الكلماتِ، دَعَوْتُ أخاه، وقلتُ له كلَّ ما يحثُّ على المحبّةِ والمصالحة. في البدءِ، بدا مُقتنِعًا، ولكنّه، بعدَ التّفكيرِ، قالَ لي: «لا أستطيعُ مُصالحتَه، لأنّني أقسمْتُ على الصّليبِ، أنّني لن أصالحَه إلى الأبد».

حينئذٍ، ابتسمْتُ، وأجبْتُه: «كأنّك، يا أخي، بقسَمِكَ تُريدُ أن تقولَ: أيّها المسيحُ، بحقِّ صليبِكَ الكريمِ، أنا لن أحفظَ وصاياكَ، بل سأفعلُ مشيئةَ عدوِّكَ الشّيطان. ليسَ عليكَ أن تعودَ عن قَسَمِكَ فحسبُ، يا أخي، بل أن تتوبَ عنه، وتتأسّفَ، وتُدينَ تهوّرَكَ لئلاّ يسودَ عليكَ فيما بعد. فلو تابَ

هيرودسُ ولم يحفَظْ قسَمَهُ، لَما ارتكَبَ الجريمةَ الأفظعَ، وقطَعَ رأسَ سابقِ المسيح»[٥٢٤]. شعرَ الأخُ بالتّخشّعِ إزاءَ هذه التّقريعاتِ، فضرَبَ مطّانيّةً لرفيقِهِ ولي أيضًا. وهكذا، بنعمةِ اللّهِ، اتّحدا من جديدٍ بالمَحبّة.

٥٢٤. مت ١٤، ٧ - ١٠ ، مر ٦، ٢٣ - ٢٧.

الفصل التّاسع والأربعون

لا يكفي ألّا نغتابَ، بل يجبُ أيضًا ألّا نحتملَ المغتابَ، وأن نبتعد عن النّميمةِ والتّذمّر.

- من حياةِ القدّيسةِ سينكليتيكي -

قالَتِ المَغبوطةُ سينكليتيكي إنّ النّميمةَ أمرٌ جسيمٌ ومُهلِكٌ، لكنَّ بعضَ النّاسِ يتّخِذونَها غذاءً وتسلية. أمّا أنتَ، أيّها المؤمنُ، فلا تُصبِحْ إناءً لشرورٍ غريبةٍ، بل احفَظْ نفسَكَ نقيّة. لأنّكَ، إن قبلتَ أقوالَ النّمّامِ، فستُلَوِّثُ الأفكارُ صلاتَكَ، وستكرَهُ مَن يَعيشونَ معكَ من دونِ سبب. فكما تَنبَهِرُ العيونُ من جرّاءِ ضوءٍ قويٍّ، ولا تستطيعُ تمييزَ ما تراه، هكذا تتلطّخُ أُذُناك من قلّةِ محبّةِ النَّمّامينَ، فتحتقرُ جميعَ النّاسِ على حدٍّ سواءَ وتعتبرُهم غيرَ أنقياء.

إذًا، علينا أن نحفَظَ لسانَنا وآذانَنا كي نتجنّبَ النّميمةَ وسماعَها. فقد كُتِبَ: «لا تَقْبَلْ خَبَرًا كاذبًا»[٥٢٥]، وأيضًا: «طردْتُ المُغتابَ لقريبِهِ في الخفاء»[٥٢٦]. يقولُ صاحبُ المزاميرِ أيضًا في مكانٍ آخرَ: «كي لا يتكلَّمَ فمي بأعمالِ النّاس»[٥٢٧]. ونحنُ نتحدَّثُ بأعمالٍ لم يعمَلوها. بالتّالي، يليقُ بنا ألاّ نصدِّقَ أقوالاً كهذه ولا نقبَلَها بتاتًا، بل أن نتصرَّفَ كالنّبيِّ داوودَ، ونقولَ معهُ: «أصبحْتُ كإنسانٍ لا يسمَعُ ولا في فمِهِ تبكيت»[٥٢٨].

- عن كتابِ الشّيخ -

١- أتى هراطقةٌ إلى الأبِ بيمُنَ، وجعلوا يَغتابونَ رئيسَ أساقفةِ

---

٥٢٥. خر ٢٣، ١.
٥٢٦. مز ١٠٠، ٥.
٥٢٧. مز ١٦، ٤.
٥٢٨. مز ٣٧، ١٥.

الإسكندريّةِ، مُدَّعينَ أنَّ رسامتَهُ تمَّمَها كهنةٌ[٥٢٩]. فدعا الشّيخُ الأخَ الّذي يُقيمُ معَه، وقالَ له: «أفرُشِ المائدةَ، وأعطِهم ليأكلوا. ثمَّ أرسِلْهم بسلام».

٢- سألَ أخٌ شيخًا: «ما هي النّميمةُ، وما هي الإدانةُ؟» أجابَ الشّيخُ: «تكمُنُ النّميمةُ في أن تتكلّمَ على خطايا غيرِ مَنظورةٍ ومَخفيّة. بينما الإدانةُ هي التّكلُّمُ على خطايا منظورة. فكلُّ كلمةٍ لا يستطيعُ المرءُ قولَها بحضورِ الأخِ المَعنيِّ هي نميمة. إن قالَ أحدُهم مثلاً: الأخُ فلانٌ فاضلٌ وصالحٌ، ولكنّه مُهمِلٌ ولا تمييزَ عندَه، فهذا يُعتبَرُ نميمة. أمّا إن قالَ أحدُهم: «هذا الأخُ تاجرٌ ومُحِبٌّ للمالِ، فهذه إدانةٌ، لأنّه يُدينُ أفعالَ هذا الأخِ وكلَّ حياتِهِ، وهذا أسوأُ من النّميمة».

٣- قالَ أحدُ الشّيوخِ: «إن تكلّمْتَ بالسّوءِ على أخيكَ، ووبَّخَكَ ضميرُكَ، فاذهَبْ إليهِ، واصنَعْ أمامَه مطّانيّةً، وقُلْ لهُ: لَقدْ تكلّمْتُ عليكَ بالسّوء. ومن هناك فصاعدًا، احترِسْ ألاّ يسخَرَ منكَ العدوُّ فيما بعدُ لأنّ النّميمةَ موتٌ للنّفس».

٤- قالَ أيضًا: «إنِ اغتابَ أخٌ أخًا آخرَ أمامَكَ، فانتبِهْ ألاّ تخجلَ منهُ وتقولَ: نَعَم، هكذا هو الأمرُ. بَلِ اصمُتْ، أو قُلْ لهُ: أنا مُدانٌ، يا أخي، ولا أستطيعُ أن أُدينَ الآخر. وهكذا ستُخلِّصُ ذاتَكَ والآخر».

- عن أنطيوخوسَ البَنْديكتي -

لنتجنَّبْ، يا إخوةُ، التّهامسَ على الآخرينَ، لأنّه يَحرِمُنا الفردوسَ، ويُرسِلُنا إلى جهنّمِ النّار. فبالهمسِ طردَتِ الحيّةُ حوّاءَ من الفردوس.

---

٥٢٩. أي أنّ رسامتَه ليسَتْ فاعلةً، بما أنّها لم تتِمَّ على أيدي أساقفةٍ، وبالتّالي، فهو ليسَ أسقفًا بالحقيقة.

- عن الأبِ أشعيا -

إن عزَمَ أخٌ على التّكلّمِ بالسّوءِ على أخيهِ أمامَكَ، فلا تخجَلْ، ولا تَدَعْ نفسَكَ تُوافِقُه، فتخطئَ بذلك أمامَ اللّهِ، بل قُلْ له بتواضُعٍ: «سامِحْني، يا أخي، أنا بائسٌ، وما تقولُهُ يَعودُ إليَّ، ولا أستطيعُ احتمالَه». وإن جُرِّبْتَ أنتَ بالنَّمِّ على أخيك، فتذكَّرْ أنّه إن عَلِمَ بذلك فسيَحزنُ، وستَخجلُ من ملاقاتِه. وهكذا تَجِدُ الرّاحة.

- عن القدّيسِ إسحق -

ليَكُنِ الكلامُ الحَسَنُ دائمًا في فمِكَ، فلا يتناوَلَكَ أحدٌ بالكلامِ السَّيِّئِ مُطلقًا. فالكلامُ السَّيِّئُ يَلِدُ كلامًا سيّئًا، والكلامُ الحَسَنُ يَلِدُ كلامًا حسنًا. في اليومِ الّذي تَفتَحُ فمَكَ للتّكلّمِ ضدَّ أحدٍ، اعتبِرْ ذاتَكَ مَيْتًا، وكلَّ أعمالِكَ باطلةً، حتّى ولو فَكَّرْتَ بالتّكلُّمِ باستقامةِ القلبِ، وبهدفِ البُنيان. في الواقعِ، ليسَ ضروريًّا أن يهدِمَ أحدٌ بيتَهُ كي يبنيَ بيتَ الآخر. أمّا إن تناوَلَ أحدٌ أخاه بالسّوءِ في حديثِهِ أمامَكَ، فأظهِرِ استياءً من خلالِ تعبيرِ وجهِك. حينئذٍ، سيَجِدُ هذا الإنسانُ، واللهِ، أنّك تحرُسُ ذاتَكَ بحرص.

إن لم تستطِعْ إقفالَ فمِ مَن يغتابُ قريبَهُ، فعلى الأقلِّ، احفَظْ ذاتَكَ من مشاركتِه. واعلَمْ أنّه إن خرجَتْ منكَ نارٌ، وأحرقَتِ الآخرينَ، فسيطلبُ اللّهُ منكَ حِسابًا عن نفوسِهم المحترِقةِ بنارِك. هكذا، إن لم تُلقِ أنتَ هذه النّارَ، بل أيّدْتَ مَن ألقاها، وسُرِرْتَ بالأمرِ، فستُدانُ معه في يومِ الدّينونة.

- عن القدّيسِ مكسيموس -

لا تُصْغِ إلى كلامِ المُغتابِ، سامعًا بسرورٍ ما يقولُهُ ضدَّ القريب. لا يتكلَّمَنَّ لسانُكَ في أُذُنِ مَن يُحِبُّ الإدانةَ لئلاّ تسقُطَ من المحبّةِ الإلهيّةِ، فتتغرَّبَ عن الحياةِ الأبديّة.

لا تقبَلْ كلامًا مُهينًا في حقِّ أبيكَ الرّوحيِّ، ولا تُشَجِّعْ مَن يُهينُه، لئلاّ يغضَبَ الرّبُّ على فعلتِكَ، ويَنفيَكَ من بلدةِ الأحياء.

أغلِقْ فمَ مَن يتكلَّمُ بالسّوءِ على أحدٍ أمامَكَ، لئلاّ ترتكبَ معه

خطيئةً مضاعَفةً، الأولى باعتيادِكَ أنتَ نفسِكَ على هوًى مدمِّرٍ، والثّانيةَ بعدمِ منعِكَ الآخرَ من اغتيابِ القريب.

مَن يتكلّمْ من دونِ هوًى، عن خطايا أخٍ ما، يفعلْ ذلك لسببَيْن: إمّا لتقويمِهِ، وإمّا لإفادةِ آخر. خلا ذلك، سواءَ تكلَّمَ للأخِ أو لأحدٍ آخرَ، فكَلِمتُهُ هي إهانةٌ في الحالةِ الأولى، وفي الثّانيةِ، ضررٌ للآخر. فلن يُفلِتَ من إهمالِ اللّهِ، بل من المؤَكَّدِ أنّه سيقَعُ بدورِهِ في الخطأِ نفسِهِ، أو في خطأٍ آخرَ، فيُهانُ ويُسخَرُ منه فيمتلئُ خجلاً.

عندما ترى مُتكبِّرينَ لا يَحتمِلونَ أن يُمتدَحَ أشخاصٌ أفضلُ منهم، ويَعملونَ على قمعِ الكَرْزِ بالحقيقةِ، مانعينَ ذلكَ بآلافِ الطّرائقِ، وبمكائدَ شرّيرةٍ، إعلَمْ أنّهم يَصلُبونَ الرّبَّ من جديدٍ، ويَدفِنونَه فيَحرُسُهُ الجنودُ ويُختَمُ على القبر. ولكنّ الكلمةَ يقومُ ويُطوِّحُ بهم، أي ينبري في الحربِ مستظهِرًا عليهم، فيما يتقوّى عبرَ الآلامِ في اللاّهوى. لأنّه أقوى من الجميعِ، ولهذا دُعِيَ بالحقّ.

- عن كتابِ الشّيخ -

١- قالَ شيخٌ: «كما أنّ مَن يضعُ نارًا في وسطِهِ يَحترقُ منها، هكذا من يُرافِقُ كثيرينَ، لن يفلتَ من النّميمة».

٢- قالَ الأبُ إيبريخيوسُ: «أن يأكُلَ المرءُ لحمًا، ويشرَبَ نبيذًا، أفضلُ من أن ينهشَ لحمَ إخوتِهِ بالنّميمة».

٣- هو نفسُه قالَ: «لقد أخرجَتِ الحيّةُ حوّاءَ من الفردوسِ، بهمساتٍ عدائيّة. هكذا، مَن يَغتبْ قريبَهُ، يُشبِهْها، لأنّه بذلك يخسَرُ نفسَهُ، ونفسَ سامعيه».

٤- قالَ أيضًا: «لا يتلفّظَنَّ فمُكَ بكلامٍ سيِّئٍ لأنّ الكرمةَ لا تُخرِجُ شوكًا».

٥- سُئِلَ شيخٌ: «ما هي النّميمةُ؟» أجابَ: «هي ألاّ يعرفَ المرءُ اللّهَ ولا مجدَه، ويَحسُدَ قريبَه».

- عن القدّيسِ أفرام -

أيّها الأخُ، لا تقبَلْ سماعَ المُتكلِّمِ بالسّوءِ، حتّى ولو قالَ الحقيقةَ، لئلاّ تتدمَّرَ معه. فإن حدثَ أن قالَ أحدُهم سوءًا عن المَلِكِ الّذي أخطأَ حقيقةً، فلا أحدَ من الحاضرينَ يقبَلُ أن يسمَعَ أقوالاً ضدَّه. مع ذلكَ، إن أصغى إليه أحدُهم، يَلقَ الاثنانِ القصاصَ نفسَه. يُقتَلُ الواحدُ على ما قالَه، والثّاني لأنّه سمِعَهُ. يتكلَّمُ الكاذِبُ على أحدِهم، وأنتَ تُميلُ أُذُنَكَ نحوَهُ، وتَقْبَلُ هذا الموتَ الّذي يَخرُجُ من فمِهِ إلى فجوةِ أُذُنِكَ، وعندما تَقبَلُ خميرةَ الكِذْبةِ المُسِمَّةِ، تَجعَلُها تختمِرُ في داخلِكَ.

من أين دخلَ الموتُ إلى الإنسانِ؟ أليسَ عبرَ الأُذُنِ؟ أليسَ، من خلالِ حاسّةِ السَّمَعِ، قَبِلَتْ حوّاءُ كَلِماتِ الحيّةِ[٥٣٠]. ومنذُ ذلكَ الحينِ، وحتّى أيّامِنا، يُحاوِلُ المؤذي النَّفاذَ. في الواقعِ، يستطيعُ الشّيطانُ أن يجعلَ مَن يحفَظُ الصّمتَ، يَنفَسِدُ بوساطةِ مَن يتكلَّم. فمَن لا يستطِعْ جعلَهُ ينفَسِدُ عبرَ الفَمِ، يجعله ينفَسِدُ عبرَ الأُذُن. لم يقبَلِ المُخلِّصُ أبدًا سَماعَ الشّياطينِ، حتّى عندَ تلفُّظِهم بالحقيقة[٥٣١].

كذلكَ الرُّسلُ، لم يقبَلوا سماعَ الشّيطانِ الّذي كانَ يمدَحُهم[٥٣٢]، خِشيةَ أن يندسَّ صوتُه المُسِمُّ في أسماعِهم الطّاهرة. وهكذا، لا يَقبَلونَ الكِذْبة. فالمُحتالُ يَخلُطُ عادةً بينَ الحقيقةِ والكِذْبة، وبعدَ أن يخدَعَ النّاسَ البُسطاءَ، يَرميهِم في وَهْدَةِ الهلاك. عندما تأكُلُ الحيّةُ شيئًا حُلْوًا، تُحوِّلُهُ سريعًا إلى سُمٍّ مُشبَعٍ بالموت. والويْلُ لمَن تَنقلُهُ إليه.

هكذا، يُمكنُ أن يختلطَ الكَذِبُ بالحقيقةِ كسُمٍّ مليءٍ بالموتِ، أي أن يختبئَ سُمٌّ رهيبٌ ومُميتٌ لا تُدرِكُهُ غالبيّةُ البشرِ، عبرَ كلماتِ الشّيطانِ الحُلْوة. هكذا، بإخفائِهِ الخِداعَ في قُبْلَةٍ، وكلامِ سلامٍ، خانَ الاسخريوطيُّ المُعلِّمَ

---

٥٣٠. تك ٣، ١ - ٥.

٥٣١. لو ٤، ٣٥.

٥٣٢. أع ١٦، ١٦- ١٨.

العارِفَ ما في القلوب. إن بدا الكاذِبُ مُقتدِرًا جدًّا في وجهِ الخالِق، فكَمْ ستكونُ قوّتُهُ عندَ دنوِّهِ مِنْكَ؟ أسلَمَ المُخلِّصُ ذاتَهُ للموتِ، ولكنّه لم يُسَلِّمْ أُذُنَهُ لكلماتِ الكاذب.

عندما فتحَ المُخلِّصُ فمَهُ، ذاقَ الخلَّ المَمزوجَ بمَرارةٍ[٥٣٣]، ولكنَّهُ لم يسمَحْ لأُذُنِهِ أن تسمَعَ كلماتِ المُلوِّث. أعطى فمَهُ كي يُقبِّلَه الخائنُ، ولكنّه لم يُعطِ جوابًا للخَدّاع. وأنتَ، أعطِ فمَكَ ليقبِّلَهُ الكاذبُ، ولكن، لا تُعْطِه أُذُنَك. فتقبيلُهُ يُدينُه، بينما سَماعُهُ أو تذوُّقُ كلماتِهِ سيقتُلانك. ستتصرّفُ جيّدًا بحكمةٍ أكبرَ إن تجنّبْتَ كلّيًّا رائحةَ السُّمِّ وطعمَه.

لماذا تُسارِعُ إلى الهربِ من الدُّخانِ، فيما تسمَعُ الكاذبَ بسرورٍ؟ لماذا تبتعدُ عن الرّائحةِ الكريهةِ، وتجلِسُ بقُربِ مُحِبِّ الإدانةِ؟ عليكَ أن تحميَ كلَّ عُضوٍ من أعضائِكَ ممّا يُمكِنُ أن يؤذيَه. إن كانَ جسدُكَ بريئًا من الزّنى، فاحرُسْ فمَكَ من الثّرثرة. لا يستطيعُ الفمُ أن يزنيَ، ولكنَّه يستطيعُ أن يتفوَّهَ بالأكاذيبِ، ويَفتريَ، ويُسبِّبَ الدَّمارَ لنفسِه. إن كانَ عُضوٌ واحِدٌ مُذنبًا، فستخضَعُ كلُّكَ للعقابِ بسببِ هذا العُضو.

إنّ جسَدَ الجُنديِّ مَحمِيٌّ، من كلِّ النّواحي، بأدرعةٍ وخُوذةٍ من حديد. ولكنْ، إن كانَتْ واحدةٌ من مُفَصّلاتِ الدِّرعِ الصّغيرةِ مفتوحةً، وسمحَتْ للسّهمِ أن يَمُرَّ، فهي تُسبِّبُ الموتَ للجنديِّ الباسل. هذا ما يحصَلُ لبابِ الأُذُن. إن وجدَه النَّمّامُ مَفتوحًا، يسمَحْ أن يدخُلَ دمارٌ رهيبٌ لمَن يَسمَعُه. هذا البابُ واسعٌ جدًّا، بحيثُ أنّ الموتَ العظيمَ وَسِعَهُ، ودخَلَ عبرَهُ إلى العالمِ، وفيما ابتلعَ الأجيالَ جميعَها، بقيَ عديمَ الشَّبَع. أغلِقْ إذًا الأُذُنَيْنِ بإحكامٍ، لئلاّ يَدخُلَ كلامُ سوءٍ عنِ الآخر.

لا تحسَبَنَّ النّميمةَ خطيئةً صغيرةً غيرَ مُميتة. أُصيبَتْ مريَمُ بالبَرَصِ، وأصبحَتْ بيضاءَ كالثّلجِ، عقابًا لها، لأنّها تكلّمَتْ بالسّوءِ على موسى[٥٣٤]. وإن كانَتْ هي نبيّةً، وتلقَّتْ هذا العقابَ الرّهيبَ، لأنّها لم تنتَبِهْ إلى كلامِها، فكم يكونُ القصاصُ كبيراً لمَن، بأشكالٍ عديدةٍ، يَنشغِلونَ بالنّميمةِ؟ على الرّغمِ من

٥٣٣. مت ٢٧، ٣٤.

٥٣٤. أنظر عد ١٢، ١٠.

قولِ مريمَ للحقيقةِ، رُفِضَتْ حقيقتُها، لأنّها قالَتْها بطريقةٍ سيّئة. بالطّريقةِ نفسِها، إنِ استعمَلَ أحدُهم الحقيقةَ كي يتكلّمَ بالسّوءِ على الآخَرِ، تَكُنْ عدالتُهُ مليئةً بالظّلم. فإمّا أن يَلومَ الآخرَ بطريقةٍ صحيحةٍ، وإمّا ألّا يُدينَهُ سِرًّا. في الواقعِ، يُحتَقَرُ البِرُّ عندما يَختلِطُ بالنِّفاق. الطّعامُ يُميتُ عندما يَختلِطُ بالسُّمّ.

لنَتعلَّمْ إذًا ممّا هو منظورٌ ما هو غيرُ منظورٍ، ولنتفحَّصِ الحقيقةَ المُصَوَّرَة في مريم. لقد أُصيبَ جسدُها كلُّه، بطريقةٍ منظورةٍ، بالبَرَصِ، بما أنّها أخطأَتْ، بطريقةٍ غيرِ مَنظورةٍ، من كلِّ نفسِها. بجراحِها المَنظورةِ، وَعَتْ جُرحَها الدّاخليَّ الّذي كانَتْ تجهلُه. بهذا البَرَصِ الكَريهِ، تعلَّمَتْ أنّ انتقادَ الآخرِ مُضِرٌّ ومَكروهٌ، وجسدُها المَنظورُ أضحى مِرآةَ نفسِها غيرِ المنظورة. عبرَ فسادِ جسدِها، تعلّمَتْ كيفَ يَنفَسِدُ القلبُ المُحِبُّ النّميمة. عبرَ الإنسانِ الخارجيِّ، فهِمَتْ ماذا أصابَ إنسانَها الدّاخليّ.

كما تغرَّبَتْ عن أخيها، أصبحَ جسدُها غريبًا عنها، كي تتعلّمَ من ذاتِها أهميّةَ الوِحدةِ النّاتجةِ عن المحبّة. أضْحَتْ أعضاؤُها أعداءً لها، بما أنّها صارَتْ عدوّةً لأخيها، كي تحثَّها هذه العِدائيّةُ على استعادةِ السّلامِ، ووِحدةِ النّفسِ معَ قريبِها.

الفصل الخمسون

على الإخوةِ، في الحياةِ المشترَكةِ، إصلاحُ بعضِهم لبعضٍ إذا وقعَ أحدُهم في خطأ. وكيف نُصلِحُه. الأخطاءُ الّتي يُفَضَّلُ السّكوتُ عنها، وتلكَ الّتي يُفَضَّلُ التّكلّمُ عنها.

- عن القدّيسِ برصانوفيوس -

١- سألَ أخٌ شيخًا قائلاً: «عندما أَعهَدُ بفكري إلى الأبِ، أي عندما أُعلِمُهُ بأخطاءِ الإخوةِ، بناءً على أمرِه، أجِدُ أنّ بعضَهم يَحزن. ماذا أفعلُ لئلاّ أمكثَ في قلاّيتي، مضطربَ الذّهنِ؟ من جهةٍ، فكري لا يُدينني إذ إنّ الهدفَ واضحٌ، وكوني المُراقِبَ، لا أتحدّثُ بطريقةٍ أهوائيّةٍ، لَكِنْ، من جهةٍ أخرى، أخافُ أن يتحوّلَ الأمرُ إلى غَيرةٍ[٥٣٥]، وهذا يُسبِّبُ لي اضطرابًا».

أجابَ الشّيخُ: «إن تكلّمْتَ بقلبٍ نقيٍّ من أجلِ فائدةِ النّفسِ واقتلاعِ الهوى، فلا تَحسَبْ حِسابًا لِما يقولُه البشر. حَسَنٌ أن تقولَ لأبيكَ الحقيقةَ من دونِ هوى. لم يُعْطَ للجميعِ التّكلّمُ إلى المسؤولِ، ولا يُوافِق. إن تكلّمتَ كما يَشاءُ اللّهُ، فأنتَ لا تتكلّمُ ولا تفعَلُ الصّلاحَ وحدَكَ، إنّما اللّه هو العاملُ في كلِّ شيءٍ، وصلاحُ اللّهِ لا يُولِّدُ الغَيرة. أمّا إن ظَهَرَتْ هذه الأخيرةُ قليلاً، فسُرعانَ ما تنطفئ».

---

٥٣٥. على اعتبارِ أنّ الأبَ يُفَضِّلُهُ عليهم.

٢- سألَ الأخُ: «رأى أحدُهم أخاه يُخطئُ، وقالَ ذلكَ للأب. إن عرفَ الأخُ ذلكَ من خلالِ شخصٍ آخرَ، فهل على المُتكلِّمِ إلى الأبِ أن يُقنعَ هذا الأخَ أنّه لم يفعَلْ ذلكَ عن كُرْهٍ، بل عن مَحَبّةٍ، أو يَنبغي الاحتفاظُ بالصّمت؟».

أجابَ الشّيخُ: «هل يُريدُ في هذه الحالةِ أن يُقنعَهُ بداعي المجدِ الباطلِ، لئلاّ يَبدوَ وكأنّه يَغتابُه، وليَعتَبِرَهُ النّاسُ بارًّا[٥٣٦]؟ فلينتَبِهْ في قلبِهِ، ويَفحَصْ ليعرِفَ إن تكلَّمَ إلى الأبِ بحسبِ مشيئةِ اللّهِ، من أجلِ فائدةِ أخيه. وإن وَجَدَ أنّ الأمرَ هكذا، فليترُكْهُ للّهِ، واللهُ سيُقنِعُ قلبَ الأخِ، كما يَعرِف.

إن أتى الأخُ لرؤيةِ ذاك الّذي كلَّمَ الأبَ بشأنِهِ وأخبرَهُ ما عَلِمَ به، إمّا شخصيًّا وإمّا عبرَ شخصٍ آخرَ، وأنّ ذلك أحزَنَهُ، حينئذٍ، يجب أن يقولَ له كلَّ شيءٍ بتواضُعٍ: «اللهُ يَعرِفُ، يا أخي، أنّني قلْتُ هذا لأنّني أحبُّكَ وأريدُ لكَ الخير. ألا قُلْ لي، ما الّذي أجنيهِ إن تكلَّمْتُ لأيِّ سببٍ آخرَ؟ ألا أخافُ أن يُدينَني الكتابُ المُقدَّسُ بقولِهِ إنّ مَن يكرَهُ أخاه، فهو قاتلُ بشرٍ[٥٣٧]؟ أنا أستذكِرُ قولَ الرّبِّ في أن نَبحَثَ عن خيرِ قريبِنا كما عن خيرِنا[٥٣٨]، وأنا أهتمُّ بإصلاحِكَ انسجامًا معَ ما يَقولُهُ الرّبُّ: «عندما يُساعِدُ أخٌ أخاه، فهو له كمدينةٍ حصينة»[٥٣٩]. أتوسَّلُكَ، إن رأيتَني أرتكِبُ خطأً ما بدوري، فوبِّخْني أنتَ أيضًا، حتّى ولو أخجلَني ذلكَ، لأتوبَ».

أمّا إن تكلَّمَ الأخُ إلى الأبِ، لا بداعي الإصلاحِ، بل بروحِ الانتقادِ، فيجبُ أن يُدينَ نفسَهُ، ويتوسّلَ اللّهَ أن يُسامِحَه. ثمَّ، إن كانَ متأكِّدًا من أنّ أخاه عَلِمَ بذلكَ، فيجبُ أن يذهبَ إليه بتواضُعٍ، ويسجُدَ أمامَهُ مُعترِفًا: «سامِحْني، يا أخي، سَخِرَ منّي الشّياطينُ، واغتَبْتُكَ. صلِّ من أجلي ليغفرَ لي الرّبُّ، ويُعطيَني وقتًا للتّوبةِ، لأنّني ضَلَلْتُ». فيستحيلُ عليه أن يُرضيَ أخاه بالرّياءِ أو بالكَذِبِ، بل يُمكنه ذلكَ بالحقيقةِ المُعبَّرِ عنها بتواضُعٍ.

مع ذلكَ، إن لم يَكُنِ الأخُ على علمٍ بشيءٍ، فلا يقولَنَّ له شيئًا، لئلاّ يجلِبَ له أفكارًا، إنّما يَليقُ به أن يتوبَ أمامَ اللّهِ على خطئِه، ويعترفَ به للأب».

---

٥٣٦. مت ٢٣، ٢٨.

٥٣٧. ١يو٣، ١٥.

٥٣٨. أنظر مت ١٩، ١٩.

٥٣٩. أنظر أم ١٨، ١٩.

٣- طرحَ الأخُ نفسُهُ سؤالاً آخرَ على الشّيخِ نفسِه، قائلاً: «إن سأَلَني أخٌ عن كلامٍ، أو عن أمرٍ ما أعرِفُهُ لأنّني سَمِعْتُ عنه، أو اختبَرْتُهُ، فهل أُجيبُهُ أم لا؟ وإن لم أُسأَلْ، لكنّني رأيْتُ أمرًا لا يَصيرُ بشكلٍ حَسَنٍ، فهل يجدُرُ بي أن أُحَذِّرَهُ لمرّةٍ على ما يَرتَكِبُهُ، أم لا؟»

أجابَ الشّيخُ: «انتبِهْ ألاّ تتكلّمَ بمجدٍ فارغٍ، بل بتواضُعٍ وخوفِ اللّه. وفيما يَختَصُّ بكلِّ الأمورِ الّتي تسألُني عنها، تَكلَّمْ وحذِّرْ عندَ الضّرورةِ - في الجماعةِ طبعًا، وليسَ في موضعٍ آخرَ - لأنّ الإخوةَ في ديرِ الشَّركةِ هم جسدٌ واحد. أمّا إن وُجِدْتَ في موضعٍ آخرَ، فلا تَقُلْ شيئًا من تلقاءِ ذاتِكَ، لكنْ، إن سُئِلْتَ، فتكلَّمْ بتواضُعٍ».

٤- قالَ الأخُ: «إن تبَيَّنْتُ أنّ قلبي يُسَرُّ بالتّكلُّمِ، بداعي المجدِ الباطِلِ، أو حتّى إن لم أختَبِرْ ذلكَ، وتوقَّعْتُ أن يحدُثَ ذلك لي لاحقًا، فهل يجدُرُ بي أن أحفَظَ الصّمتَ، أم لا؟

أجابَ الشّيخُ: «أن تقولَ شيئًا لأحدِهم بتواضُعٍ، يعني ألاّ تتكلَّمَ كمعلِّمٍ، بل كتلميذٍ لأبيكَ أو للآباء. إن كانَ هناكَ دافعٌ للاستفادةِ من الكلامِ إلى أخيك، وهاجمَكَ المجدُ الباطِلُ، خلالَ المُحادثةِ، لجعلِكَ تَشعُرُ بالرِّضى، فاحترِسْ لأنّه يُريدُ منعَ فائدةِ الأخِ. وإن سَمِعْتَ له، فلن يَسمَحَ البتّةَ أن تساعِدَ أيَّ أخ. فاردَعِ المجدَ الباطلَ، واحتقِرْه. وأثناءَ كلامِكَ مع الأخِ، أُطلُبِ السّماحَ من اللّهِ، قائلاً: «سامِحْني، يا ربُّ، لأنّني أتكلَّمُ بزَهْوٍ». تصرَّفْ بالطّريقةِ نفسِها، حينما ينقَضُّ عليكَ المجدُ الباطِلُ بعدَ المُحادثة.

٥- طرحَ الأخُ سؤالاً آخرَ: «كيفَ يُمكِنُ، يا أبتِ، أن تأمُرَني بالكلامِ، حتّى قبلَ أن أُسأَلَ، إن رأيْتُ أمرًا يَستدعي الإصلاحَ، في حينِ أنّ الآباءَ يَقولونَ ألاّ يُعطيَ أحدٌ رأيَهُ قبلَ أن يُسأَلَ؟».

أجابَ الشّيخُ: «يا أخي، يتكلَّمُ الشّيوخُ بحسبِ مِقياسِ الإنسان. فهناك وقتٌ يُلائمُ الإنسانَ أن يَخدُمَ، أي عندما يكونُ شابًّا، وغيرَ كاملٍ بعد. في أثناءِ هذه الفترةِ، يجبُ أن يُكمِّلَ طاعتَه. ثمَّ يأتي وقتٌ يُخدَمُ فيه هذا الإنسانُ

نفسُه، والأعمالُ الّتي يُتمِّمُها، بحسبِ قياسِه، تكونُ من طبيعةٍ مُختلفة. لأنّه قيلَ إنّ الأشياءَ الكاملةَ هي للكاملينَ، والأشياءَ غيرَ الكاملةِ هي لِمَن هم تحتَ الشّريعة. هؤلاءِ الأخيرينَ، في الواقعِ، لا يَزالونَ يَخضَعونَ لمؤدِّبٍ»[٥٤٠].

٦- سألَ أخٌ: «إن قامَ أحدُ الإخوةِ بشيءٍ تافهٍ لا يُعتبَرُ خطيئةً، ولكنّه، بإرادَتي، يُسبِّبُ لي الحزنَ، فهل عليَّ أن أحتفظَ بالصّمتِ من دونِ إراحةِ قلبي، أو أتكلّمُ لئلاّ أبقى مضطربًا؟ وإن أحزنَ الأمرُ إخوةً آخرينَ، ولم يُحزِنّي شخصيًّا، فهل أتكلّمُ من أجلِ الآخرين؟ أو يَبدو هذا مبادرةً باطِلة؟».

أجابَ الشّيخُ: «إن لم يكُنْ في الأمرِ خطيئةٌ، بل خلافٌ، وأنتَ تَتكلّمُ من أجلِ أن تُريحَ قلبَكَ، فهذا إخفاقٌ لكَ، بما أنّكَ لستَ قادرًا على احتمالِ ذلكَ عن ضُعف. وبالتّالي، لُمْ ذاتَكَ واصمُت. أمّا إن كانَ الأمرُ يُحزِنُ آخرينَ، فَقُلْ ذلكَ لشيخِكَ، وهو سيُكلِّمُ الأخَ أو سيَقولُ لكَ ما يجبُ عليكَ قولُه، وأنتَ ستبقى هادئًا».

٧- قالَ الأخُ: «إن أردْتُ أن أكلِّمَ شيخي، لا من أجلي، بل من أجلِ آخرينَ يَحزنونَ، وأنا أشُكُّ في أنّ أخي سيَنزعجُ من ذلكَ، فماذا أفعلُ؟ وإن كانَ هذا الأمرُ سببًا للحزنِ للآخرينَ ولي، فهل أتكلَّمُ كي أُريحَ الآخرينَ أم أصمُتُ لئلاّ أُرضيَ ذاتي؟»

أجابَ الشّيخُ: «بما يَختَصُّ بانزعاجِ الأخِ، إن كلَّمْتَ شيخَكَ، فليس عليكَ أن تَرتَبِكَ عندَ ضرورةِ الكلام. فإن كانَتْ هذه المسألةُ لا تُكدِّرُكَ، فكَلِّمْ شيخَكَ من أجلِ الإخوة. أمّا إن كنتَ، أنتَ أيضًا، مُتكدِّرًا مثلَ الإخوةِ، فحتّى لو كنتَ تَهتمُّ بشأنِهم، إلزِمْ نفسَكَ بحِفظِ الصّمتِ بسببِكَ، وكي لا تُريحَ هواك.

٨- قالَ الأخُ: «يَقولُ لي فكري إن تَكدَّرَ الأخُ فسيصيرُ عَدُوّي، مُعتقدًا أنّني وَشَيْتُ به عندَ الأب».

---

٥٤٠. أنظر غلا ٣، ٢٣- ٢٤.

أجابَ الشّيخُ: «إنّ هذه الفكرةَ سيّئةٌ لأنّها تُعيقُ تَقويمَ الأخِ، كما سبقَ وقلْتُ لك. لا تُصغِ إليها، بل تكلَّمْ، لكنْ بحسَبِ اللّهِ، وليس اغتيابًا. في الواقعِ، عندما يتلقّى المرضى العلاجَ، يَتذمَّرونَ ضدَّ الأطبّاءِ، ولكنَّ هؤلاءِ الأخيرينَ لا يُبالونَ بتذمُّرِهم عالمينَ أنّ مرضاهم سيَشكُرونَهم لاحقًا.

٩- سألَ الأخُ: «لكنْ، إن تفحّصْتُ فكري، أُلاحِظْ أنّني أريدُ الكلامَ، لا من أجلِ منفعةِ الأخِ، بل للحَظِّ من قَدْرِهِ، فهل يجبُ أن أتكلّمَ أم أن أصمتَ؟».

أجابَ الشّيخُ: «أَنذرْ فكرَكَ أن يتكلّمَ بحسَبِ اللّهِ، وليس بحسَبِ الهوى. أمّا إن غُلِبْتَ بالاغتيابِ، فاعترِفْ لشيخِكَ باغتيابِكَ، كي تُشفَيا كلاكُما، الأخُ من خطَئِه، وأنتَ من اغتيابِك».

١٠- قالَ الأخُ: «إن لم يدَعْني فكري أعترِفُ لشيخي أنّني أتكلَّمُ بقصدِ قولِ السّوءِ عن الأخِ، فماذا أفعلُ؟ هل أتكلَّمُ أم لا؟»

أجابَ الشّيخُ: «لا تَقُلْ له شيئًا، والرّبُّ سيهتمُّ بالأمر. يجبُ ألاّ تَتكلّمَ مؤذيًا نفسَكَ، واللهُ سيتكفَّلُ بالأمرِ، كما يشاءُ هو، من أجلِ تقويمِ الأخ».

١١- سألَ الأخُ: «وهذا الأخُ الّذي أخطأَ - سواءَ كلّمتُ أنا الأبَ بشأنِه، أو كلَّمَهُ شخصٌ آخرُ - ما الموقفُ الّذي يجبُ أن يتّخذَهُ قُبالةَ مَن تكلَّمَ عليه؟

أجابَ الشّيخُ: «إن كانَ مؤمنًا ويَعيشُ بحسَبِ اللّهِ، فحتّى ولو تَكلَّمَ عليه الآخَرُ بنيّةٍ عدائيّةٍ، يجبُ أن يُفكِّرَ أنَّ الأخَ أرادَ أن يُفيدَهُ بكلامِه، وفيه يتحقّقُ ما قيلَ: «الإنسانُ الصّالحُ، من كنزِهِ الصّالحِ، يُخرِجُ الأشياءَ الصّالحة»[٥٤١]. وبهذه الأفكارِ، يجبُ أن يُحِبَّ أخاه أكثرَ، ويَشكُرَه. إنّ مَن يَتصرَّفُ هكذا، يتقدَّمُ سريعًا في طريقِ اللّه».

---

٥٤١. لو ٦، ٤٥.

١٢- سألَ الأخُ: «وإن أخطأَ الإخوةُ الّذينَ معي في خدمةِ التّمريضِ، فكيفَ أقوِّمُهم من دونِ اضطرابٍ؟».

أجابَ الشّيخُ: «إن طَبَعْتَ إرادةَ اللّهِ في قلبِكَ، فلن تضطرِبَ، بل ستتصرّفُ كالآباء. أمّا إن لم تنتبِهْ وتركْتَ ذاتَكَ تنجَرُّ إلى الاضطرابِ كإنسانٍ، فَتُبْ إلى اللّهِ، قائلاً: «سامِحْني، يا ربُّ، وارحَمْني»، ثمّ قُلْ للّذينَ معكَ: «انتبهوا، يا إخوةُ، لأنّنا سنُدانُ على هذه الأمورِ، ونَخسَرُ نفوسَنا». وانتبِهْ ألاّ ترفعَ صوتَكَ كثيرًا، عندما تُوجِّهُ الكلامَ إليهم، بل بالقدرِ الكافي ليتسنّى لهم سماعُكَ. وإن أظهرْتَ تخشّعًا في هذه الأمورِ، فستوافي حالةُ الهدوءِ بحسَبِ اللّه.

١٣- قالَ الأخُ: «من فضلِكَ، أيّها الأبُ، قُلْ لي كيفَ يجبُ أن يَتِمَّ الإصلاحُ، ومتى يجبُ أن أدّعيَ أنّني لم أفهَمْ - وأن أتغافلَ عن الموضوعِ - ولا أُعطيَ ملاحظةً عمّا يُمارَسُ؟ وفي الحالةِ الّتي أنغلِبُ فيها، أي أتركُ الشّيطانَ يُسيطِرُ عليّ وأضطرِبُ، هل يجبُ أن أفرِضَ على ذاتي قانونًا، وأقصِدُ بالقولِ قصاصًا؟».

أجابَ الشّيخُ: «تصرَّفْ دائمًا وِفقًا للأشخاص. إن رأيْتَ أنّ هذا الأخَ الّذي يخدُمُ معكَ، وتحتَ إمرتِكَ، فَطِنٌ ويَقبَلُ الإصلاحَ، فقُلْ له: «يا أخي، إن تهامَلْنا بعملِ اللّهِ، فهذا خسارَةٌ للنّفس. هل كانَ جيّدًا ما فعلتَهُ للتّوِّ؟ كُنْ أكثرَ حِرصًا من الآنَ فصاعِدًا». أمّا إن كانَ قليلَ الفِطنةِ، فَقُلْ له: «صدِّقْني، يا أخي، أنتَ بحاجةٍ إلى إصلاح. كيف تتوانى بهذا الشّكلِ؟ إن قلْتُ ذلكَ للأبِ، أي لرئيسِ الدّيرِ، فسيؤدِّبُكَ جيّدًا».

أمّا بخصوصِ الادّعاءِ بعدمِ الفَهمِ، فتصرَّفْ وِفقًا للخطأ. يُمكِنُكَ أن تفعلَ ذلكَ إن كانَ الخطأُ طفيفًا، أمّا إن كانَ كبيرًا، فإيّاكَ أن تفعل. أخيرًا، لا تَفرِضْ على ذاتِكَ قانونًا، إن غلبَكَ الاضطرابُ، ولا تُظهِرْ لامبالاةً، كأنَّ شيئًا لم يحدُث. في كلِّ مرّةٍ يحصَلُ معكَ ذلكَ، توسَّلْ إلى اللّهِ ليسامحَك. عدا ذلكَ، ستسقُطُ في التّواني.

١٤- قالَ الأخُ: «إنِ ارتكَبَ أحدُ الإخوةِ، أو أحدُ المَرضى، خطأً ما، وأنا، بقصدِ إصلاحِهِ، كلَّمْتُهُ بغَيْظٍ، فهل أسجُدُ له طالبًا المَغفرةَ؟ وإن غَضِبَ، وترَكَ المَشفى، فماذا عليَّ أن أفعلَ؟ عُمومًا، ما الأخطاءُ الّتي يجبُ أن يَسْجُدَ المرءُ عندما يرتكِبُها؟ أسأَلُ لأنّ هوى الكبرياءِ، وهوى تبريرِ الذّاتِ، يُظْلِمانِ النّفسَ، ولا يَسمحانِ بأن يَلومَ المرءُ ذاتَه، ويعمَلَ مطّانيّةً للأخ. وعندما يسجُدُ المرءُ، يأتي المجدُ الباطِلُ بدورِه، ويَنفُخُهُ بعدَ فِعلِ المطّانيّةِ، بحُجّةِ أنّه قامَ بعملٍ صالح».

أجابَ الشّيخُ: «لا تتكلَّمْ أبدًا بغَيْظٍ، فالشَّرُّ لا يَلِدُ الخير. إفهَمْ أنّ ما يُقالُ، والقلبُ مُغتاظٌ، لا يُريحُ مَن يَسمَعُ، ولا يُصلِحُه. بالأحرى، انتظِرْ بصبرٍ حتّى تَهدَأَ نَفْسُكَ، ثمَّ تكلَّمْ بهدوء. إنِ اقتنَعَ الأخُ، فهذا حَسَنٌ. أمّا إن لم يقتنِعْ، فَقُلْ له: «إن أردْتَ، فسأقولُ ذلكَ للشّيخِ، وسنفعلُ ما يَحكُمُ به»، وهكذا ستكونُ بسلام. وإن غَضِبَ الأخُ، فَقُلْ ذلكَ للرّئيسِ، وهو يؤدِّبُه. ولكنْ، لا تسجُدْ أمامَه، لأنّك ستجعَلُهُ يَشُكُّ أنّه بالفعلِ حَصَلَ خطأٌ من ناحيتِك، وسيُعاديكَ أكثر.

أمّا فيما يَختَصُّ بالإخوةِ الآخرينَ، أعني بِهِمْ مَن ليسوا تحتَ طاعتِكَ، فتصرَّفْ بيقظةٍ، بحسَبِ تقديرِكَ لخطَئِكَ: إن كانَ كبيرًا، فاسجُدْ أمامَ الأخ. أمّا إن كانَ طفيفًا، فَقُلْ بقلبٍ تائبٍ: سامِحْني، يا أخي. واحفَظْ ذاتَكَ من الكبرياءِ، وتبريرِ الذّاتِ، اللّذَيْن يَمنعانِ الإنسانَ من التّقدُّم. أيضًا، من المُمكنِ أن يَسْجُدَ المرءُ بداعي المجدِ الباطل. هكذا إذًا، كارِهًا هذه الرّذائلَ الثّلاثَ – الكبرياءَ، وتبريرَ الذّاتِ، والمجدَ الباطِلَ – اعمَلْ مطّانيّةً بتواضُعٍ، وخوفِ اللّهِ، وتمييزٍ، إن لَزِمَ الأمر. تصرَّفْ بذلكَ بحسَبِ قُوَّتِكَ، فتحصُلَ، بصلواتِ الآباءِ القدّيسينَ، على معونةِ اللّهِ الّذي يَليقُ بهِ كلُّ مجدٍ وإكرامٍ وسجودٍ، الآنَ وكلَّ آنٍ وإلى دهرِ الدّاهرينَ. آمين!».

